

كل الشهور يوليو

رواية

كل الشهور يوليو
تأليف إبراهيم عيسى

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

إلى الذين يبحثون عن الحقيقة :
إنـها تبحث عنكم .

كل شخصيات هذه الرواية حقيقية، وجميع أحداثها تستند إلى عشرات المراجع والمصادر، من مذكرات، ويوميات، ووثائق، ودراسات، وشهادات مسجَّلة، وسجلات رسمية، وكُتب، ودوريات .

1

لكمته الصدمة !
ما الذي جاء باللواء إلى هنا، وفي هذا التوقيت، وبتلك السرعة؟! هذه سيارته، وذلك بيرقها الأخضر، وها هي تقترب من المعسكر، تأتي من ناحية الميدان، تكاد تخترق موكب السيارات الجيب واللوريات الأربعين التي أمرها بالتحرك. لا وقت للتراجع، بل لا فرصة للتراجع، الآن وإلا لا آن سوف يئن أبدًا
كان نزيف الدماء المفتوح بين رئتيه قد توقَّف، وربما يكون قد تجمَّد. حقنة المساء التي دبَّها ممرض صادفه في العيادة الأولى التي صادفها في الميدان منذ ساعة، لم تعالج نزيفه بقدر ما طيَّبته. لكن أنسته تلك الصدمة في هذه اللحظة أن له رئة، وأن بها نزفًا. كان قد تحسس صدره، ربما ليتأكد أن نزيفه لا يعيق عجلات السيارة الجيب التي يجلس بجوار سائقها الجندي ناشف العود والوجه، الذي لا يدرك «لماذا» يخرج الآن في منتصف الليل، و«لأين»! أما «لماذا؟»، فإن يوسف صديق يعرف. أما «لأين؟»، فلم يكن يملك في هذه اللحظة يقينًا تامًّا بذلك .
صرخ في السائق :
ـ اعترض طريق عربة اللواء فورًا .
قفز بسرعة من مقعده، وقد فتح الباب ولا تزال السيارة تتحرك بسرعة، فضغط السائق على مكابح الجيب فأصدرت صريرًا كأنه يحفر الأسفلت، وهو يرى البكباشي يوسف صديق يتقافز فوق الأرض يمنع جسده من الترنح، ويشيح له بيده القابضة على الطبنجة، ويزعق فيه :
ـ سلط نور الكشافات العالي على عربة اللواء الجيب !
يعرف السائق برفة رمش واحدة سيارةاللواء عبد الرحمن مكيقائد الفرقة الذي تقع تحت قيادته كتيبته ببكباشيها يوسف صديق، ويوزباشيها عبد المجيد شديد، بكل هؤلاء الضباط الذين يسيرون وراءه في سيارات الجيب مع لوريات الجنود، فكيف يمكن أن يسلط عليه الكشافات فتعمي رؤية الجندي زميله الذي يسوق سيارة اللواء؟! لكنه لا يملك إلا أن يفعل ما يأمره به قائده المباشر. ثم إن البكباشي يوسف صديق، بوجه محمر، وملامح متحفزة، وإشارات حادة، كان قد خطب فيهم منذ قليل، وقد تجمعوا في ساحة المعسكر، خطبة احتشدت بكلمات طويلة عريضة استملحها واستكيف منها جدًّا، فقد قال إنهم سيقومون معه بعمل خطير، وإنهم سيحكون لأحفادهم عليه. أعجبه في هذه اللحظة أن يغيظ سائق جيب سيادة اللواء أكثر، فظل ضاغطًا على زر كشافات الجيب، رغم أن البقعة التي وقفت فيها سيارة اللواء مكي قد ابيضت تمامًا .
كانت أوامر عاجلة وباترة قد خرجت من فم يوسف صديق مبللة برذاذ غضب، يأمر فيها الضابطين اللذين يركبان معه الجيب بالنزول شاهرين أسلحتهما معه ناحية سيارة اللواء مكي. كان الجو حارًّا حر الأسبوع الأخير من شهر يوليو، فتعرَّق الجميع، لكن اللواء مكي ببذلته الكاكي المؤنقة، وقميصه المهندم، ورابطة عنقه المحكمة، والقبعة العسكرية التي لم يخلعها حتى وهو في سيارته، كان الأغزر عرقًا وبهوتًا، وهو يرى أشباح ضباطه يوجهون إليه مدافعهم، وهو ينكمش في أريكة السيارة الخلفية يتابع، وقد زاغت عيناه من ذلك النور اللزج الذي يضرب بصره. أحد الضباط يبدو شبحًا يشهر سلاحه تجاه سائقه، بينما الآخر يقف عند الباب على شماله بنفس الوقفة

المتحفزة بسلاحه، أما الثالث فقد عرفه فور أن فتح عليه الباب ودس رأسه وراء مسدسه في صدره، إنه يوسف صديق. استنفر عروقه حتى نفضت، وصاح فيه :
ـ مين؟ يوسف؟ !
يبدو أن يوسف لم يكن لديه وقت أو طاقة للإجابة على ذهول اللواء مكي، بل أذهله أكثر حين قال بلهجة ملجومة التوتر ومنضبطة العصبية :
ـ سيادتك مقبوض عليك !
أشار يوسف للضابط أن يركب مع اللواء، هنا بجواره، فاقتحم الضابط الأريكة متحمسًا حتى أزاح بجسده قائده الذي ارتجف وقد مست فوهة البندقية قميصه تحت الجاكت، فهمس بوقار يليق بقائد مأسور للتوِّ :
ـ هل حياتي في خطر يا حضرة البكباشي؟
رد يوسف وهو يغلق الباب على الآسر والمأسور :
ـ أبدًا يا سيادة اللواء .
عاد يوسف صديق إلى سيارته، وسمعه السائق يتمتم بحنق وتعجب معًا: «الطريق الرابع، الطريق الرابع ».
لم يفهم السائق إلا إشارة البكباشي له بالتحرك فتحرك، بينما سارت خلفه السيارات واللوريات، وقد رفرف بيرق اللواء على سيارته الجيب المحاصرة في سيرها الآن بين سيارة البكباشي التي تسبقه والسيارات الأخرى التي تتبعه، فشعر السائق ببعضٍ من رضا يتحول إلى كثيرٍ، فتمنى أن ينزعوا بيرق القيادة من سيارة اللواء مكي ويضعوها على السيارة التي يقودها، فمن الواضح أن الأوضاع انقلبت، وها هو يريد أن يحوز أول ثمن لانقلابها .
تمكنت الحيرة من رأس يوسف صديق الذي هدر بالأسئلة: كيف يتركون سيارة اللواء تصل إلى المعسكر وتوشك أن تكشف تحركهم؟ أليس من المفترض الآن أن كل القوات التي تشارك في الخطة قد تحركت وتمركزت؟ فلماذا يعبر بينها لواء ببيرقه دون أن يحتجزوه ويقبضوا عليه كما هي التعليمات؟ !
الخطة كما جاءته تتطلب منه أن يحضر بكتيبته لينضم للقوات التي ستحاصر منطقة القبة ومقراتها ومبانيها العسكرية، وتغلق الطرق المؤدية إلى المعسكرات في العباسية والهايكستب ومبنى القيادة في القبة، لكن ظهور سيارة اللواء عبد الرحمن مكي خرق ثقته الشديدة في هذا الهدوء الذي استقبله منتصف ليل الثالث والعشرين من يوليو !
إنه يقود الآن كتيبته، هي في الحقيقة ليست كتيبة إطلاقًا، هي مجرد مقدمة كتيبة سلاحمشاة جاءت قبل قدوم الكتيبة الكاملة من سيناء، لتمهد وتهيئ المعسكر لاستقبال الكتيبة الأم التي تأخرت ولعلها لن تأتي. اثنا عشر ضابطًا ليس فيهم إلا عبد المجيد شديد هو عضو التنظيم، حتى زغلول عبد الرحمن مندوب قيادة التنظيم (الذي جاءه منذ ساعات حاملًا بطيخة لم يجد ما يشقها به إلا السونكي الذي غرزه في بطنها وطلعت حمراء الحمد لله، ولكنها لا يمكن أن تكفي ضباطه الاثني عشر ولا جنوده الستين، ولا يعرف مصيرها استقر في بطون مَن) تنحى به، وأخبره أن ساعة الصفر منتصف الليل، وكلمة السر «نصر ».
جهز الكتيبة (التي ليست كتيبة إطلاقًا)، فقسم الستين جنديًّا (الذين لم يكونوا جنود قتال وحرب أصلًا، فهؤلاء لم يأتوا بعد، وكان كل من يملك قيادتهم وتكوين كتيبة بهم في هذه الليلة مجموعة

من الجنود السائقين والخبازين والنجارين والطباخين الذين يقومون على تهيئة وتجهيز الخيام والطعام): وزَّع بعضهم على ثلاث فصائل، يركبون ثلاث عربات، وكل جندي كانت ذخيرته مائة رصاصة، بينما أمر أربعين منهم بقيادة أربعين لوريًّا فارغًا بلا أحد. وكان مطلوبًا منه تسليم اللوريات حين يصل إلى القوات المتمركزة كي تمتلئ بجنود آخرين يذهبون بها إلى مواقع أخرى.
هذا الموكب الكبير الذي قبض على قائد الفرقة اللواء مكي منذ دقائق ليس إلا منظرًا فقط: لوريات فارغة من الجنود، وجنود عبارة عن نجارين وطباخين وترزية. لف القلق على رقبته، لكنه فك اللفة بنفخة هواء من صدره !
لا أحد من الضباط يعرف شيئًا عن الخطة إلا في حدود مهمته ودوره، لكن الشك انتاب يوسف صديق مع استغراب كالغراب الأسود نقر صدره (كان قد نسي نزيفه تمامًا ونسيه النزيف)، فالخطة يبدو أنها لم تكن محكمة، بل لعلها انكشفت، فها هي سيارات قافلته تتوقف متلكئة متكأكئة فجأة، وأصوات تتداخل في ارتفاعها وزعيقها في هذا الصمت الذي يسود صحراء مصر الجديدة، فلا سكن ولا ناس ولا سيارات عابرة ولا أضواء ولا مباني مدنية، كلها معسكرات وخيام جيش يحفظها جنوده .
توقف السائق بالجيب قبل أن يأمره، والتفت إلى ناحية الطريق على شماله وفي مرآته العاكسة، وأخبر
يوسف :
ـ فيه عربة جيب واقفة تتكلم مع الضباط .
انتفض يوسف صديق، وسب الطريق الرابع. لم يفهم السائق «الطريق الرابع» الذي نزل البكباشي صديق عليه سبًّا كي يشاركقائده سبابه، أو على الأقل يفهم ما هو هذا الطريق الزفت الرابع، لكنه قال لقائده :
ـ على فكرة، هذه عربة الأميرالاي عبد الرؤوف عابدين .
يا لهذه الأخبار السوداء المهببة التي تهبط على رأس يوسف صديق! ها هو نائب قائد الفرقة قد جاء أيضًا! نعم، الخطة لم تنكشف، بل تعرت، ولعله يلحقها بأي ورق توت الآن وهو يندفع ناحية الأميرالاي عابدين
كان عابدين قد رأى كتيبته تتحرك في منتصف الليل دون أمر منه ولا معرفة . يذهب هو إلى مقرها فوجدها تأتيه، والأضواء خافتة، وكأن أمرًا صدر لهم في الظلام. وصل إلى أقرب عربة فوجد فيها الملازم حسن شكري !
ـ ما الحكاية يا شكري؟
ـ طوارئ يا أفندم !
ـ من معكم يا شكري؟
ـ سيادة اللواء مكي في عربته يا أفندم .
التفت الأميرالاي عابدين ليتبين أخيرًا بيرق القائد، فشد قامته، وشق بقدميه مسرعًا نحوه. كان قد دنا تمامًا من نافذة سيارة اللواء مكي، ودخل برأسه فوق زجاجها المفتوح. لكن يوسف صديق لم يستطع أن يحبس ابتسامته خلف شفتيه، وقد رأى واقترب وسمع اللواء مكي يرد على استفسار نائبه عما يجري، بأن دعاه للدخول إلى سيارته :
ـ تعالَ، اقعد جنبي .

كان الأميرالاي قد قعد فعلًا جنب اللواء، وسأله :
- إلى أين يا سيادة اللواء؟
أجاب اللواء بكبرياء، مرفوع الرأس والصوت :
- إلى السجن .
بهت الأميرالاي عابدين، وعندما رأى يوسف صديق بجوار نافذة السيارة رفع عينيه إلى اللواء مكي الذي أومأ برأسه علامة الموافقة :
- بكباشي يأمر أميرالاي ولواء، ويحبسهما في عربة، يبقى رايح بهما إلى أين؟
- إلى السجن !
أشار يوسف صديق للجميع بمواصلة التحرك، وهو يوقن تمامًا أنه وحده، وعليه أن يتصرف بلا خطة ولا يحزنون، إنه في حالة تلبس الآن، تلبس لا خلع منه ولا انخلاع، يأسر قائده ونائب قائده! يتحرك بسيارته في المقدمة، وخلفه سيارة القائد (آه، يا للهول! لقد نسيت أن أنزع بيرق القيادة عنها!)، ثم ثلاث عربات تحمل ضباطًا وجنودًا، ثم أربعون لوريًّا ثقيلًا، وخلفها جميعًا سيارة اليوزباشي عبد المجيد شديد ومعه زغلول عبد الرحمن. لكن إلى أين وقد وضح وضوح الشمس في ليل يوليو أنه لا القوات تحركت ولا تمركزت، وهذه التعليمات بمنع أي سيارة عسكرية من العبور إلا لو كانت سيارات يقودها أو يأمرها أعضاء التنظيم، ومنع أي ضابط فوق رتبة البكباشي من التحرك بل والقبض عليه فورًا واحتجازه، لم ينفذ منها أي شيء؟! فها هو لواء وأميرالاي يرتعان ويتمشيان بلا مانع ولا حاجز حتى ارتميا في حظه! لكن لا بأس، ولا يأس، فالحماسة متقدة بين الضباط. هكذا شعر وأحس بعدما اعتقلوا قائديهما، ولعلهم كذلك أدركوا أنهم متورطون حتى الأذقان في هذا الحدث الخطير. يجهلون طبيعة العمل، لكنهم عرفوا طبيعة خطره .
قرار يوسف صديق الآن أنه سيتحرك وحده بخطته هو وبقواته الهزيلة تلك، فهي ليست أكثر هزالًا من القوات التي قرر أن يستهدفها، سيتحرك إلى مبنى قيادة الجيش ويحتله، وليحصل ما يحصل بعدها. فمبنى قيادة الجيش بجلالة قدره يحرسه سبعة جنود فقط، وذخيرة كل جندي فيهم خمس طلقات فقط، وربما تكون عشر طلقات لكل منهم، ولا مدرعات تحرس، ولا دبابات تحمي، ولا مدافع منصوبة، ولا صفوف مرصوصة، هم سبعة جنود يحرسون مبنى يحكم جيش الملك فاروق !
أمر السائق بالالتفاف والتوجه إلى مبنى القيادة. نظر في ساعته «الجيوفيال» ذات السوار الجلدي، فلم يُصدِّق أن كل ما جرى لم يجرِ بعقارب الساعة إلا قرابة نصف الساعة فقط. حاول أن يتأكد فسأل السائق :
- الساعة معاك كام؟
رد السائق :
- لا أملك ساعة سعادتك .
أصبحت الآن يا يوسف صديق أمام الطريق الرابع فعلًا، حين هرع إليه أحد الضباط يركض بجوار نافذته المفتوحة، ويخبره لاهثًا أن الكتيبة توقفت في الخلف. ابتسم صديق وهو ينزل من السيارة يهز رأسه ويبرطم بشفتيه، فها هو العدو قد جاء من الطريق الرابع. حلف السائق بالطلاق أنه لو سمع البكباشي يوسف صديق يتمتم بكلمة «الطريق الرابع» مرة أخرى فسيسأله عنه !

كان يوسف صديق يسير بجوار الضابط بصمته اللاهث، وكلمات البكباشي ثروت عكاشة تدق في رأسه ملحًّا ومكررًا طوال اجتماعهم الأخير :
ـ إننا نتوقع دائمًا ثلاثة طرق لتحرك العدو في مواجهتنا، لكنه يأتي غالبًا من الطريق الرابع، فلا بد أن نتجهز بعد أن نتوقع الطريق الرابع .
ها هو الطريق الرابع جاءك يا يوسف. أسرع يوسف في طريقه مشيًا بقامته القصيرة، بخطوات أطول كثيرًا من قصر قامته، يتجه نحو الطريق الرابع أو الخامس أو الأزرق، ليس مهمًّا، المهم أن يعرف لهذه الليلة آخر! فإذا به وقد عبر سيارة اللواء المأسور (ونائبه)، (كأنهما يذكرانه بطلة رأسيهما: «نحن معتقلان على فكرة»)، يخطف نظراته منهما إلى هذا اللوري الأول الذي توقف وقد نزل منه الجنود وأشهروا الأسلحة واحتجزوا بينهم رجلين بملابس مدنية، يرتديان قميصين أبيضين، كلاهما، وبنطلونين أسودين في الغالب أو لعلهما بخطوط رصاصية، طويلي القامة عنه، لكن وجهيهما مختبئان بين وجوه الجنود. شق الحلقة حولهما، فأفسح له جنوده الطريق، فوجد آخر من يتوقع أن يراهما هنا! لم يعرف هل يسعد طلقًا وباشًّا لأنهما هنا، أم يكفهر ويكفر بتلك الليلة لأنهما هنا! وجودهما يعني الفوز والخسارة في ذات اللحظة، النصر والهزيمة في ذات المكان! كانا جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر
ـ جرى إيه يا جدع؟
ـ ممنوع يا أفندي .
أما الجدع فقد كان ضابطًا من ضباط كتيبة يوسف صديق الشاردة. أما الأفندي فلم يكن إلا جمال عبد الناصر. الغريب أن أول من تم تطبيق خطة منع المرور والعبور للمدنيين والضباط عليه، هو جمال عبد الناصر نفسه! حاول عبد الحكيم عامر أن يكون حليمًا مع الضباط، إذ لم تنجح ثقة عبد الناصر في نفسه ولا في أداء كلماته في أن تردع الجنود والضباط من إحكام الحصار عليهما، بل وارتفاع الأصوات ونهرهما ليرحلا من أمامهم. لم يكن عبد الناصر يعرف من هؤلاء الضباط أو أولئك الجنود، ربما هم من القوات التي استدعاها قائد الجيش، لكن إن تعرفوا عليه وعلى عامر فسيقبضون عليهما فورًا، وربما هم من قوات تابعة لأحد ضباط التنظيم، فيصارح هؤلاء الأوباش المتنمرين بأنه قائدهم الحقيقي. أنهكه التردد، بينما ابتسامة عبد الحكيم عامر ورقته معهم تطلي مرهمًا على حريقه. الجنود بضباطهم لا يعرفون من هذين المدنيين اللذين وقفا في الطريق وحدهما دون صريخابن يومين في تلك المنطقة، ويأبيان الإفصاح عن هويتهما، أحدهما حاد متحفز، والثاني
هادئ مازح .
جال جمال في خاطر يوسف صديق وهو حائر في سيارته يتجه إلى مبنى القيادة لينفذ وحده خطته التي لم يرسمها لأنه لم يكن قد خططها أصلًا. كان يفكر لو أنه يلتقي أو يتصل بعبد الناصر ليفهم منه ما الذي جعل الأرض كلها خلاء من أي قوات، وما له يمشي وحده وكأنه الوحيد الذي التزم بأن ينقلب مع الانقلاب! فلما شق حلقة الجنود المتجمهرين وهو يتسمَّع أصواتهم تترامى نبراتها المحتدة مع هذين النفرين، رأى عبد الناصر، فندت منه صيحة فرحة كتمها في قلبه، ولكنه سمع صيحته المكتومة تقول: يا كرم الله، من أراد أن يراه الآن فقد رآه فعلًا، أهو مصباح علاء الدين أرسله الله القادر إليه ليقول له ها هو عبد الناصر بين يديك، بل عبد الحكيم عامر هدية إضافية

أزاح أجساد جنوده بيديه، وأمسك بكتف عبد الناصر الذي تقاسم معه حك مصباح علاء الدين فيما يبدو، فها هو عضو التنظيم قائد الكتيبة المنوط بها دور ما في الخطة، هو الذي وجده أمامه، لم يكن هناك وقت للأحضان، وقد كانت اللحظة تستحق، لكن يوسف انتحى بهما بعيدًا عن عيون ضباطه وجنوده وسيارة اللواء المأسور الذي لم يستطع أن يأسر عينيه ولا أذنيه التي يركزها من فوق زجاج نافذة السيارة المفتوحة
سأل يوسف :
ـ ما الذي يجري؟
رد جمال بسرعة كأنه يملي برقية على موظف التلغراف :
ـ موعد الحركة انكشف، وقادة الجيش يجتمعون الآن في مبنى القيادة لاتخاذ إجراء مضاد !
كان جمال عبد الناصر، حين بدأ زكريا محيي الدين في شقة ابن عمهخالد محيي الدين حيث يجتمعونيقرأ من ورقة مرسومة ومكتوبة وموضوعةأمامه تفاصيل خطة الانقلاب، قد شق الشك قلبه حين لم يستأذنه زكريافي أن يتلو تعليمات الخطة، ثم حين أنهاها طوى الورقة ووضعها في جيبه، ولم يعدها فيسلمها إلى عبد الناصر الذيلم يترك الموقف دون أن يختمه بختمه فقال :
ـ نسبة نجاح هذه الخطة حوالي عشرين في المائة !
لم يعتبر زكريا محيي الدين رأي جمال طعنًا فيه كضابط أركان الحرب، فكلاهما اتفقا على هذه الخطة وعلى عشرينيتها المحتملة، بل اعتبرها «دلالة شجاعة، فنحن اليوم نخرج (هذا كلام عبد الناصر) لتعرف الأجيال القادمة أننا حاولنا أن نفعل شيئًا أمام هذا الفساد في الحكم، فليس مهمًّا أن ننجح أو نفشل، لكن على الأقل لا يقال إن البلد لم يكن فيه رجال ».
لكن يوسف صديق يعرف الآن وهو يترك عبد الناصر وعامر ليركب سيارته العسكرية، بينما يمضي كلاهما لركوب سيارة عبد الناصر «الأوستن» المركونة بجوار الرصيف، أن نسبة العشرين في المائة قد صارت حلمًا. نعم هو قرر المضي قدمًا نحو مبنى القيادة، حيث كان ينتوي احتلاله، وأخبرهما أنه لم يجد شيئًا ليفعله، ولا خطة لينفذها، فقرر أن يبادر باحتلال مبنى القيادة. وافقه وأقره ناصر وعامر على قراره المرتجل وخطته التلقائية، لكن الأمر الآن اختلف، ولعله اختل، فهو لا يذهب ليحتل مقرًّا فارغًا بسبعة جنود حراسة، بل مبنى يمتلئ بقيادات الجيش بجنود حراستهم بآلاياتهم برجالهم، صحيح كلها عدة طبنجات في الأيدي، لكن ما يملكه هو الآخر هو عدة جنود من الخبازين والنجارين والطباخين والسائقينلا يصلحون للهجوم على كشك حراسة وليس مبنى قيادة! لكن عزيمته لم تلن، وحماسته اتقدت أكثر، ولم يعد يفكر في أكثر من ضرورة أن يسرع لينقذ رؤوس زملائه التي باتت على وشك القطف. صارت الخطة إذن غداء قبل عشاء ثم يترك للأقدار قرارها في وجبة الإفطار .
كان موكب سياراته ولورياته (الفارغة) قد وصل في دقائق أقل من عشر إلى مبنى القيادة، وأسرع ونزل من سيارته ثم وزَّع الفصائل: واحدة للالتفاف حول المبنى من الخلف للحصار ومنع الإمداد والقبض على أي ضابط في طريقه للقيادة، وأخرى عند مداخل الكوبري لإقفاله في وجه أي قوات قادمة واعتقال كل من يحاول العبور بل وأي واحد يصل أصلًا إليه حتى لو فكر ألا يعبر، أما هو فقرر أن يكون على رأس فصيلة ممن تبقى من الجنودلاقتحام المبنى من بوابته الرئيسية. تفاجأ بأنها خالية، لا عربات عسكرية، ولا بيارق قادة، ولا حشد قوات، ولا أي شيء إلا الجنود السبعة فعلًا حراس البوابة بل والمبنى كله. أمر عساكرهبالنزول لينتشروا بالخطوة السريعة مع ضابطهم

إسماعيل الشريف ناحية البوابة. لمح عندها سيارة عبد الناصر يجلس فيها مع عامر لكن بملابسهما العسكرية. لماذا لم ينزلا؟! ثم لم يشغله على الإطلاق أن يسأل نفسه متى استبدلا ملابسهما المدنية وهو لميتركهما إلا منذ دقائق، فقد تلفت ملتاعًا حين سمع طلقات الرصاص. كان جنوده الثلاثون من حماستهم، وربما من توترهم، قد بدأوا إطلاق الرصاص. لم يكن جنود الحراسة المبهوتون مما يحدث أمامهم أقل توترًا، فقد باغتهمالهجوم وهم مسترخون مرتخون، فانتفضوا فرقًا وفزعًا، وردوا الرصاص بالرصاص .

كان يوسف صديق يعرف أن ما يملكونه في طبنجاتهم، كما يعرفون هم، مجرد خمس إلى عشر طلقات لن تكفيهم للمقاومة دقيقتين، لكنهم فعلوا ما تعلموه، وهو الدفاع عما يحمونه ويحرسونه. لم يأمر بوقف إطلاق الرصاص، ولا هو توقف إلا بعد أن فرغت ذخيرتهم. لم يشارك في إطلاق الرصاص، لكن هذه الدقائق أعادت إحساسه بالنزيف، حين شهد جنديًا من جنوده يترنح من طلقة أصابته في صدره ثم سقط على الأرض قتيلًا. حاول أن يشير لأحدهم بالإسراع لغوث رفيقهم، فإذا بآخر يسقط جثة هامدة بجواره، لحظتها توقف أزيز الرصاص، وكفت البنادق والطبنجات عن إثارة هذا الضجيج المضطرب. فتحوا البوابة، فكانت أيدي خمسة من جنود الحراسة مرفوعة تسليمًا، بينما الجنديان الباقيان قد ساحا في دمائهما قتيلين عند العتبة

أمر رجاله بنقل الجثث، والقبض على من تبقى من جنود القيادة، والبقاء في مكانهم لحراسة البوابة. ثم انطلق بعشرة فقط من الجنود إلى ساحة المبنى الواسعة التي تخلو من أي حياة، حتى إن نسائم ليل يوليو قد هجرت المكان، فكان كل شيء جافًا ما عدا قميصه الذي تبلل بالعرق حتى الغرق. جرى خلفه الجنود وهو يأمرهم باقتحام البهو، ثم تخلى عن تعبير «اقتحام»، حيث لم يجد إلا الفراغ والخلاء مما لا يستحق اقتحامًا بل تنزهًا، فراغ يؤدي إلى السلالم الرخامية الملتوية بسقف عالٍ مرتفع وجدران هائلة بأعمدة رخامية فرعونية الهوبلا نقوش، تخبئ خلفها مجهولًا، ففي الأعلى اجتماع القادة وضباطهم وجنودهم، وبالطبع سمعوا، ولعلهم رأوا، إطلاق الرصاص واندفاع الاقتحام، فليس أقل من أن فخًا ينتظره مع جنوده العشرة، ورصاصًا سيلعلع بعد ثوانٍ في تلك الردهات الضيقة ووراء أسوار السلالم الملتفة وخلف الأعمدة المستديرة. فجأة أحس خلفه ببيادات تعدو، وأقدام تركض، وكعوب بنادق تصطك ببعضها. ضرب القلق في جنوده وهو يلتفت إلى هذه الأجساد المندفعة، وقد ظهرت الآن، فإذا بالصاغ حسن الدسوقي يأمر جنوده بالوقوف انتباهًا، وتحية يوسف صديق، ويخبره أن البكباشي زكريا محيي الدين أرسله بعشرين جنديًا للدعم

.

ابتسم يوسف، أخيرًا ظهر أحد ما ليفعل شيئًا ما معه. هم الآن ثلاثون، فلا بأس، لنصعد واحدًا وراء الآخر مع بقاء البعض موزَّعين في الخلف، وتقديم آخرين كطليعة هجوم. تقدمهم يوسف صديق، وصعد الدرجات قفزًا، فإذا به أمام باب القائد العام، ويقف أمامه جندي واحد، كان جاويشًا بملامح جادة متخشبة، رافعًا بندقيته في مواجهتهم جميعًا، وحيدًا يواجههم ليدافع عن قادته في هذه القاعة الواسعة المغلق بابها الطويل العريض ببروزه ونقوشه الفخيمة. اندهش يوسف صديق من أن قادة الجيش لم يجدوا إلا جاويشًا واحدًا يضعونه أمامهم! أين فرق الحراسات والجنود والضباط؟! أيحرس قادة جيش الملك فاروق المفدى مجرد جاويش واحد؟! ثم اندهش أكثر وسط رجاله بالعرق والتوتر والقلق والتحفز والخطر والتجهم والحدة والعصبية والوجوه المحدقة والبنادق المشرعة والطبنجات المسددة والعدد المحتشد، من أن الجاويش لم يهتز له جفن !

صرخ فيه يوسف :
ـ ابعد يا ابني !
رد بيقين وفصاحة وثبات واطمئنان فلَّاح على رأس غيطه :
ـ لن تمر إلا على جثتي !
فكر يوسف صديق أنه لا بد أن يمر، ومن ثَمَّ ليكن على جثة هذا الجندي الشجاع الذي ينفذ أوامر قادته. أطلق
يوسف رصاصة من طبنجته في لمح البصر، خاطفة وصائبة تمامًا، لكن على ساق الجاويش الذي تهاوى مع فرقعة عظمه وانفتاق لحمه على الأرض. تقدَّم يوسف إلى الباب الموصد يحاول فتحه فلا يقدر، فتراجع للخلف خطوات ليفكر ماذا يفعل، فإذا بجنود الدسوقي يمطرون الباب بإطلاق الرصاص بغزارة، فيتطاير خشبه وتنثقب درفه ويتفتت قفله. فصاح فيهم يوسف صديق :
ـ مكانك! امنع الضرب !
كان الباب قد انفتح، فأدرك أن عدة كراسي موضوعة أو كانت موضوعة خلفه هي ما جعلته موصدًا أمامهم. أخذه المشهد عندما رفع عينيه إليه: أربع أيادٍ ترفع مناديل بيضاء من وراء بارافان (ذلك الحاجز الخشبي الرقيق والمنقوش في نهاية القاعة المظلمة). لما توقفت أصداء طلقات الرصاص، وانزاح دخان البارود، خرج الأربعة بمناديلهم البيضاء المرفوعة، كان رئيس أركان الجيش الفريق حسين فريد، ومعه ثلاثة آخرون فقط، كل كتَّافاتهم تفصح أنهم أقل رتبًا وأوهى مناصب في الجيش. يبدو أن رئيس الأركان وصل بلا أركانه ولا قياداته وبقي بلا جنوده! لكنه كان ثابت الوقفة، رزين الحركة، متماسكًا بكبرياء تليق بقائد .
لم يخشَ يوسف من الملامة، ومن فرط تأثره بشجاعة قائدهرفع أصابع كفه اليمنى المضمومة إلى جانب جبهته وأدى له التحية رافعًا كعبيه ساندًا على مشطي قدميه، فرد رئيس الأركان بإيماءة تحية تحافظ على كاكية اللحظة. لكن لم يتبادلا كلامًا لا لزوم له، ولا سلامًا بتحايا لا طائل منها. يوسف صديق فرغ من اللحظة ومن المهمة بأن أمر حسن الدسوقي بأن يقبض على رئيس أركان الجيش .
هبط حسين فريد السلالم التي صعدها قائدًا ونزل منها مطرودًا معتقلًا. كانت مشاعر الحيرة والغضب تتلاطم في صدره، لكنها لم تحنِ رأسه الذي ظل مرفوعًا يتأمل ضباطًا وجنودًا يحيطونه ويستقبلونه عند وصيد البوابة الداخلية، ويهبطون معه السلالم التي تنزل إلى الساحة المفتوحة المثقلة بهواء رطب. لكنه فجأة أحس برعشة في قلبه أنعشت كبرياءه، ومنحته صفاء روح، وأنزلت سلامًا على معركة القلق والتوتر المشتعلة في نفسه، لما رأى ضباطًا يرفعون أذرعهم بالتحية العسكرية للقائد المقاد إلى السجن
كان جمال عبد الناصر قد وصل إلى البوابة، وبرفقته عبد الحكيم، ولحق بهما أحمد شوقي ولعله سبقهما. كان ضباط حراسة قيادة الجيش الخمسة أول من رفعوا أذرعهم يحيون قائدهم. لم يتردد عبد الحكيم عامر لحظة فرفع يده بالتحية العسكرية، وتلاه جمال عبد الناصر، حتى بات صفان من الضباط والجنود يقفون انتباهًا على جانبي الممر الذي أفسحوه للواء حسين فريد كي يركب السيارة التي تنقله إلى السجن وسط تحية مهيبة. كانت جنازة تليق بميت مهم !
نظر جمال إلى الضباط الثلاثة الذين يصحبون اللواء حسين فريد، وقد اطمأن إلى أن الخطة لم تغفل هذه الخطوة، ولم تنسَ المكان الذي يذهبون بالقادة المعتقلين إليه. اختاروا المدرسة الحربية

القريبة معتقلًا لكل الضباط الكبار، فالغرف جاهزة، والأسرَّة فارغة، والطلبة في إجازة صيف لن ترى مصر أحر منه حرية قريبًا .
قام يوسف صديق من قعدته يحط فيها إرهاقه وتعبه على مسندي كرسي، لم يكن يصدِّق حتى الآن أنه اقتحم بجنود من الخبازين والنجارين والطباخين مقر قيادة الجيش، لقد كانت وجبة مسمومة تلك التي أعدوها هذا المساء إذن، لن يسمح لنفسه بأن يأكل من طهي هؤلاء الجنود من هنا ورائح، هذا إذا عادوا إلى المطبخ مرة أخرى. كان يتنفس بهدوء، ويتخلى عن لهاث صدره، ويبرح الغرفة، ويستند إلى سور السلم، وينزل درجاته، وهو يسمع هسيسًا في الخارج، ووقع أحذية عسكرية، ودقات كعوب، وزحف إطارات سيارات، حين ضربته المفاجأة وكأنها فجرت نزيفه وفتقت رئتيه: لقد رأى الجاويش الذي رفض أن يسمح له بدخول غرفة القائد العام جثة ملتوية وحيدة ترقد على بقع مفروشة من دم! لقد أطلق عليه الرصاصة في ساقه فكيف به غارقًا في رقع موته؟! تألم ألمًا دفعه للهرولة إلى البهو ثم إلى مدخل المبنى ليجلس على درجات السلالم العريضة العالية النظيفة واللامعة بين غبش الليل وتحت الأضواء الناحلة ليلتقط أنفاسه، فوجد الصاغ حسن الدسوقي واقفًا يكاد يأكل عقب سيجارته، وينفث دخانًا يتحول إلى دوامات في الهواء. ترك الدسوقي دوامات دخانه تتبخر، وجاء ليتمجلس بجواره، فسأله يوسف وجثة الجاويش ترقد داخل صدره تضغط على رئته العليلة :
ـ ما الذي أخَّر القوات كل هذا الوقت عن الحركة؟
رد الدسوقي مندهشًا :
ـ لم يتأخر أحد، كلنا تحركنا في الموعد المحدد، الساعة الواحدة صباحًا !
احتل الذهول وجه يوسف صديق، والدسوقي يكمل :
ـ أنت الذي تحركت مبكرًا ساعة كاملة، لكنها ساعة كانت كفيلة بإنقاذنا .
أضاف وهو ينفث سيجارته مطلقًا دواماتها مجددًا، بينما يوسف صامت يكمل ذهوله براحته :
ـ مبروك يا حضرة البكباشي .
كان الدسوقيلحظتها يقف ليحيي جمال عبد الناصر الذي وصل إلى مكانهما وخلفه عبد الحكيم عامر. كان الأول صامتًا لا صوت حتى لأنفاسه، بينما كان الثاني طلقًا مبتسمًا يهم بمعانقة يوسف صديق الذي نهض ليجد نفسه في حضنه .

2

جمر النار يتجول في عروق مرتضى المراغي، يحرق كرات دمه البيضاء والحمراء، وهو يتمتم مخنوقًا، يفك رابطة عنقه، ويفتح نافذة شرفة مكتبه، فتهب عليه نسمات بحر الإسكندرية بموجه يتلاطم مع صخور الكورنيش الجرانيتية، حيث تمارس الدنيا لعبتها اليومية المفضلة بين البحر والصخر، فلا يخفف رطب الهواء من نار الجمر ولا يبدد دخان غضبه. من صباحة ربنا وهو يحاول أن يوقظ الموتى الأحياء الذين يرتعون في شواطئ القصر فلا مجيب ولا مستجيب! هذا الكورنيش، بسياراته، وناسه، والعابرين عند سوره، والمتغازلين بشرًا وسمكًا عند صخوره، وباعة الجيلاتي بعرباتهم المتجولة، وتاكسيات الإسكندرية التي تتلون بأحمرها وأسودها تقف لتقل وتتوقف لينزل منها ركاب بملابس البحر، وصخب العائلات القادمة للعوم، والشماسي التي تنتشر بألوانها تغطي رمال الشاطئ، تغريهم جميعًا في تلك القصور الملكيةبالشعور بعادية اليوم وطبيعية الحياة وهدوء البلد .

إذن، ليس في الإسكندرية غيري من يهتم يا أولاد محمد علي الدخاخني بعرشكم الذي يبدو أن النمل يأكل منسأته! ولعل النمل قد وصل الآن إلى تلك الكف البيضاء البدينة التي تقبض على العصا، وانتشر بين أصابعها، وصاحبها أغفل من أن يحس بالدبيب وبالنقر !

هل هناك في الدنيا وزير داخلية مثله يحاول الاتصال بالملك منذ ساعات، وهو يردد على مسامع الجحش الذي يدَّعي أنه أمين الملك أن هناك خطرًا يستلزم الحديث مع جلالته ثم لا يحادثه الملك متسائلًا أو منزعجًا؟! ثم أين قائد عام الجيش نفسه الأخ كونستابل البوليس الذي فرضه الملك علينا قائدًا عامًّا للجيش؟

كان مرتضى المراغي يسب ويلعن في الفريق محمد حيدر الذي خرج لرحلة صيد بحرية ولا حس ولا خبر منه ولا طريق إليه، لعله ذهب ليكتشف أمريكا أخرى مثل «كولومبوس» بينما جيشه يرتع بمدرعات وأسلحة في شوارع القاهرة الآن !

*

كان الملك فاروق يضرب الموج بذراعيه على شاطئ المنتزه بعد أن استيقظ متأخرًا. لماذا تذكر اليوم تحديدًا كيف كان يصحو من النوم حين كان طفلًا؟ صوت فرقة موسيقية تقف تحت نافذة غرفته في قصر عابدين، خصصها أبوه الملك فؤاد لمهمة إيقاظ ولي العهد في باكورة كل صبح. تحضر الفرقة بعازفيها بملابسهم القطيفية والمقصبة والمقشبة، وبآلات على أذرعهم وأكتافهم، يتحركون في خطوات منتظمة، بينما هو في غطسة نومه، يتراصون في صفوفهم كأنهم على خشبة الأوبرا الخديوية، ممر واسع وعريض تحيطه الأشجار وتفرشه بلاطات الرخام المنقوشة، يتطلعون إلى الشرفة باستدارتها وأعمدة السور المخروطية، يقف في مواجهتهم المايسترو بعصاه، وينتظرون لحظة وصول الشمس عند سعف النخل ويبدأون عزفهم، سواء كانت الأمطار تهطل عليهم زخات في عز الشتاء والبرد، أو كانت الرطوبة تمتص أجسامهم حرًّا ولزوجة في صيف القصر، فالعزف يستمر حتى يصحو ولي العهد من نومه على موسيقى من مقطوعات «بيتهوفن» أو «شوبرت» أو «باخ» (لا لم يكن «باخ» مفضلًا لديهم). تصل الموسيقى إلى مسامع المليك الناعس، فتتلمس وعيه، وتدغدغ غفوته، فيبدأ النعاس في الانسحاب. كلما كبر زهق من هذا

الطقس المزعج، تمنى لو رحموه وتركوه ينام، لكنها أوامر ملك بأن يعزفوا فيعزفون، وأن يصحو فيصحو، خصوصًا مع هذه المربية الأيرلندية الصارمة السمجة التي إن لم يكن أبوه يضاجعها، فليس هناك أي سبب لتسلطها عليه وكأنها تربي «هنري الثامن» الملعونة! تحضر فتفتح أبواب الشرفة، ثم تطلب منه أن يقف ليطلق إشارة من إصبعه مع ابتسامة تجبره عليها ليلوح للفرقة الموسيقية بالرحيل. وبينما يتضرعون إلى الله شكرًا أن ولي عهدهم رزقه الله نوم العوافي، كانوا يعزفون مقطوعة شكر وهم يرحلون بنفس الخطوات المنتظمة التي جاءوا بها .

تذكَّر الملك الآن وهو يضرب الموجة الحنون التي عانقت صدره، شيئًا جعله يلتفت بوجهه من البحر إلى البر، ليتأكد أن علم ولي العهد مرفوع على صاريه، وإلا والله لأطار أعناقهم لو غفلوا.

ارتاح عند نظرته إلى الشاطئ القريب، وها هو علم الملك، وبجواره علم ولي العهد. أعجبته نفسه جدًّا، وهي كثيرًا ما تعجبه، لأنه صاحب هذه الفكرة، ولم تكن فكرة منافق ممن يحيطون به تزلَّف بها ليكسب عطفه، بل هو من قرر أن يكون لولي العهد علم خاص به يرفرف بجوار علم أبيه في كل القصور الملكية والمباني الحكومية

فاجأته موجة أعلى فأهبطته تحتها، فلما خرج برأسه صاحت فيه ناهد، بصوتها الأنثوي اللعوب الذي تتلاعب به أكثر وأمهر، وقالت :

ـ حاسب جلالتك أحسن تغرق !

رماها بكف يده بالماء، فطرطش في وجهها الأبيض المدور الذي طالما أعجبه وأسكنه وهو يغاضبها :

ـ مولاكِ لا يغرق أبدًا يا ناهد !

ضحكت فقد أثارت غيظه ومن ثَمَّ اهتمامه . تعرفه ناهد تمامًا، فإذا كانت قرابة السنوات الثماني التي أمضتها معه قد علَّمتها شيئًا، فهو أنه لا يمكن فهم هذا الرجل، فهو نفسه لا يفهم نفسه. طالما حلمت أنها ستتزوجه بعد أن يُطلِّقها من زوجها طبيبه الخاص، فانتهى الأمر بأنه تزوج من مراهقة تافهة غريرة وجعلها وصيفة لها! صحيح هي تسبح معه الآن في ظهيرة يوم يوليوي حار، ولا فرق بين جسديهما إلا شبر أو ذراع، لكنها باتت أبعد عنه منذ زمن .

كان فاروق ميالًا لصحبة ناهد هذه الأيام، يملها أحيانًا، لكنها في أغلب الوقت تحت إبطه، إن ناداها لبت، وإن أبعدها رضيت، مريحة للغاية، لعلها كانت تحلم بزواجه منها، ولكن لماذا يتزوج ممن يقدر على ألَّا يتزوجها؟ هذا ما لم تفهمه، ولم تدرك رغم ذكائها الذي يبهره كثيرًا أنه كان يريد زوجة بنتًا خامًا ليست خبيرة مثلها بالرجال

خرج من الماء فتبعته، وهو يدرك أن ناريمان النكدة الغضوب تغلي في جناحها أو في قعدتها في شرفة المنتزه من مرافقته لناهد، لكن على هذه البنت أن تفهم أنه حر، لا أن تحاسبه على تصرفاته محاسبة طالبة في «السَّنية » لعيِّل تحبه في «السعيدية»، لا وقت لديه، ولا نية لتدليل طفلة ثقيلة الظل شكَّاءة، يوم سبوع ابنها أحرقت القاهرة الأعظم في الشرق. تذكَّر هذا اليوم الأسود، أو لعله الأحمر من وهج نار أحرقت قاهرته وكادت تقهره .

التفت إلى ناهد، وهي تنام على كرسيها الممدد بساقيها اللدنتين وظهرها المنساب، فيتلألأ نهداها يطلان من حافة المايوه الأسود، مبللة بالغواية. وتذكر أنها هي التي أحست ذعره لما تفاقمت الحرائق بلظاها وشظاياها تتطايرإلى قصر عابدين، فقرر أن يُخرج أحمد فؤاد ولي عهده، ابن العشرة أيام، إلى قصر القبة، مصحوبًا بحراسة ليلحق بأخواته البنات، وأمر بتجهيز الطائرة في

ألماظة بالوقود، وبإعداد حقائبه وحقائب زوجته ناريمان وبناته ليكون كل شيء معدًّا للرحيل عند أول إشارة بأن الفتنة صارت غضبة فتحولت ثورة. لقد قضى هذه الليلة التعسة وليلتها التالية الأكثر تعاسة بجوار الحقائب هو وناريمان (لم تكن الليلة الأولى التي يكتشف فيها أنه لم يحبها، ولكن كانت الليلة الأكيدة التي اكتشف فيها أنه لا يطيقها)، ينتظران قدوم الطائرة حتى القصر حين استدعائها، فلا طاقة له على أن يمضي في شوارع عاصمته المحترقة فيطوله حريقها، ولم يبرحا مكانهما حتى انطفأ الحريقان: حريق المدينة، وحريق قلقه .

كان الشاطئ هادئًا، والرمل صافيًا، والدوارق والكؤوس مليئة بالعصائر الطازجة التي تسبح فيها قطع الثلج، وهناك أطباق المأكولات البحرية مفصصة ومقشرة ومرصوصة، والمياه الغازية من نوع «بيبسي» المسموح به فقط في القصور، فأسهم الملك في مصنع تلك المياه الغازية يمنع الاستعانة بـ«كوكاكولا» منافستها تمامًا

سمع أنفاس ناهد وهي تتنهد كأنها تريد أن تقول شيئًا، فلم يُعر قولها اهتمامًا بقدر ما أثاره تنهيدها، لكنه اكتشف أنها تتذمر من حسنين، أمينه الخاص، الذي جاء حاملًا صينية فوقها ورقة كتب نصها ليقرأها لجلالته مستعجلًا متعثرًا . أشار إليه تبرمًا بأن يقول ما عنده، فقال :

- اتصل بي المراغي باشا وزير الداخلية، وقدَّم التماسه للتشرف بالمثول أمامجلالتك .

رد الملك متبرمًا فوق تبرمه :

- ليه؟

أجاب حسنين :

- سألته يا مولاي، فأخبرني أنه يخشى حدوث شيء في الجيش في المساء، لهذا يريد المقابلة !

انزعج فاروق، لكنه لم يرد، ولعله لم يفكر. شعر للحظة بأن شيئًا أشل شيئًا آخر في عقله، لكن ناهد هي من تدخلت :

- وزير الداخلية لن يتركك في راحة أبدًا يا مولاي! المراغي باشا يريدك أن تصطدم بالجيش بأي وسيلة !

ثم مدت كفها الناعمة فوضعتها على كتف الملك، فأنهت شلل عقله، وأنعشت نغبشات تحت جلده، ثم مالت برأسها مبتسمة برضا وثقة :

- لا تهتم يا مولاي، الجيش ولاؤه لك أنت وحدك .

رفع فاروق نظرته بطيئة، وقال بلهجة أحب أن تكون مستخفة :

- قل له يكلم الفريق حيدر أو وزير الحربية .

*

عاد المراغي إلى مكتبه، وجلس خابطًا بجنب كفه خشب مكتبه، وكلم سكرتيره بينما يكلم نفسه :

- وزير الحربية إسماعيل شيرين زوج أخت الملك، فضلًا عن أنه وزير حربية منذ أربع وعشرين ساعة فقط، فهو لا يعرف عن الجيش شيئًا رغم أنه ضابط فيه، لكنه صهر الملك، فأي جيش هذا الذي سيعتبر صهر الملك وزيرًا عليه وهو صغير السن والخبرة وقاعد في القصر على حجر شقيق زوجته؟ !

لم ينسَ المراغي لحظتها أنه كان وزيرًا لوزارتي الداخلية والحربية معًا، حتى جاء الأخ شيرين هذا لينزع عنه قبعة الجيش ويترك له طربوش الداخلية .

رد السكرتير، ولعله المراغي نفسه من كان لا يزال يكلم نفسه :

ـ لكنه شاب محترم، ولا تنسَ أنه قبَّل يد الملك وكاد يركع أمامه، بل ركع فعلًا بلا خجل، وهو يدمع ويتوسل إليه: «أرجوك جلالتك عيِّن مصطفى النحاس رئيسًا للحكومة لترتاح البلد، طيب اجعلاللواء محمد نجيب وزيرًا للحربية وكل شيء سيهدأ». لكن الملك عيَّن صهره شيرينزميلًا للمراغي في الحكومة؛ وزيرًا للحربية على غير رغبته، ورغم أنف نجيب الهلالي رئيس الحكومة شخصيًّا الذي حلفنا معه اليمين صباح أمس !

إذن ليتصل بنجيب الهلالي، فهو رئيس الحكومة وهو المسؤول، وليخلص من قلقه :

ـ معالي دولة رئيس الوزراء، طبعًا رفعتكم تعرف أن التقارير تلال على مكتبي، عن حركة وسط الجيش، وأن هناك أسماء معروفة في تنظيم يخطط لانقلاب، وإن توقعاتي كما شرحتها لك قبلًا أنه سيتحرك في سبتمبر وربما أكتوبر .

رد الهلالي قلقًا :

ـ هذه معلومات أم تكهنات؟

أجاب المراغي :

ـ كانت تكهنات لغاية ساعتين فاتوا، الآن معلومات ومؤكدة، أبلغني اللواء أحمد طلعت حكمدار القاهرة أن هناك سيدة اتصلت به لتخبره أن ابنها الضابط ارتدى ملابسه العسكرية وتمنطق بحزامه ومسدسه، وقد وصلت إلى البيت عربة محملة بضباط من زملائه أخذوه معهم، وادعى أنها مجرد مهمة !

ـ وما الذي يقلق في هذا؟

ـ الذي يقلق أنه رجع لها بعدها بنصف ساعة، فالولد يخفي شيئًا !

ـ هل هذا يكفي لتعتقد أن هناك شيئًا يستحق القلق؟

واضح أن المطلوب من وزير الداخلية أن يبدأ بإقناع رئيسه أولًا بأن هناك مصيبة قادمة :

ـ نعم، إذا أضفنا هذا إلى تحركات من بعض العربات تحمل جنودًا وضباطًا .

ـ هل كلمت حيدر باشا؟

ـ مختفي في رحلة صيد !

ـ هل كلمت إسماعيل شيرين وزير الحربية؟

ـ كنت معتقدًا في البداية أنها تحركات غاضبة على تعيينه وزيرًا للحربية، لكني أستبعد هذا الآن .

ـ هل لديه معلومات عما يحدث؟

ـ ليست لديَّ أنا شخصيًّا معلومات عنه هو نفسه، فمعالي الوزير هو الآخر في رحلة صيد على يخته الخاص !

ضحك الهلالي :

ـ من الذي لا يصطاد من الجيش لنكلمه الآن؟ !

ابتسم المراغي، وأجاب وهو يستعيد شيئًا من هدوئه :

ـ سأتكلم مع رئيس الأركان حسين فريد حالًا، هو في القاهرة، ومن الصعب أن يكون في رحلة صيد أيضًا !

أنهى المكالمة مع رئيس الوزراء، ثم طلب من سكرتيره مهاتفة اللواء حسين فريد فورًا. فلما رد رئيس الأركان عاد الجمر يغلي في عروق المراغي، فقد أجابه فريد :

ـ كل شيء هادئ على حد علمي، ويمكن الضباط رايحين في مجموعات يتفرجوا على مباراة كرة قدم .
ارتفع صوت وزير الداخلية :
ـ رايحين بيتفرجوا بالمسدسات والأسلحة يا سيادة اللواء؟ !
عاد المراغي فتحدث مع رئيس الوزراء بعد أن فشل في التواصل مع حيدر وشيرين للمرة المائة. وسلمه السكرتير تقارير تلفونية من حكمدار القاهرة بأن الجيش يتحرك فعلًا .
ـ ألو، أنا آسف يا دولة رئيس الوزراء، لكن يبدو أنني المفلوق الوحيد من الذي يحدث، معلوماتنا أن الجيش فيه حركة غير عادية، وأنهم سيقومون بشيء كبير الليلة !
ـ وإحنا نقلق نفسنا عشان إيه يا مرتضى؟! أنا قرفان، واللي يحصل يحصل ويروح فاروق في داهية
لم يكن عند المراغي أي مشكلة أن يروح فاروق في داهية، لكنه كان قلقًا إن البلد نفسها ممكن تروح معه في ذات الداهية. حين خرج إلى الشرفة كان قد قرر، وقد باغته الليل الذي غطى بحر الإسكندرية، أن يغادر مكتبه ويذهب إلى بيته بفضول وحيد فقط هو: إلى أي داهية سيذهب فاروق؟ لكن السكرتير ظهر فجأة خلفه، وأخبره أن إسماعيل شيرين على التلفون. هرع إلى المكتب، وأمسك بالتلفون، وقال بهدوء يغلي :
ـ أهلًا يا معالي الوزير !
رد إسماعيل شيرين وصوته يوحي بأنه يقشر جمبري على مهل :
ـ خير يا مرتضى باشا؟ أبلغوني إنك كلمتني أكثر من مرة !
ـ لا أبدًا، كنت عايز أطمئن كم سمكة اصطدتها؟
ـ وإيه بس لزوم التريقة؟
ـ اسمع، لقد اتصلت بك لأخبرك بأن ضباطًا في الجيش يتحركون في تجمعات مريبة، وينوون على حدث كبير الليلة. واتصلت بحيدر باشا طلع في رحلة. واتصلت بالملك كان بيعوم. واتصلت بك كنت تصطاد. واتصلت بالهلالي باشا فقال سيبهم يتفلقوا !
ضحك إسماعيل شيرين، وقال :
ـ طيب، أنا سأتكلم مع حيدر يتفلق معانا شوية .
*

كان الفريق حيدر مضطجعًا على مقعده الوثير المفضل أمام شرفة واسعة في فندق «سان ستيفانو» تطل على البحر، ويدير قطعًا من الثلج في كأسه، ومغمورًا بهدوء كأنه لا يزال على قاربه يسمع هدهدة الموج حوله، عندما قدَّم إليه خادمه التلفون في هذه الصينية المذهبة، وأخبره أن وزير الحربية على الخط . ابتسم، فها هو إسماعيل شيرين صار وزيرًا للحربية مرة واحدة، وبمفاجأة يقعي لها ضباطه ضحكًا، فاللقب والرتبة والمنصب والمهمة أثقل من أن يتحمل شيرين السير بها درجتين على سلم قيادة الجيش في القبة. أجاب حريصًا على أن يرى شيرين ضحكته في صوته :
ـ أهلًا يا معالي الوزير .
لم يحتمل حيدر باشا الثرثرة التي نقلها إليه شيرين من معلومات وزير الداخلية، فقاطعه حاسمًا :

ـ يا شيرين، بوليس مصر يخالط الحشاشين كثيرًا، ويتخيلون خيالات وتحشيشات مثل حكاية الانقلاب التي يخافها المراغي !
اعتبر إسماعيل شيرين أن المسألة منتهية، فها هو القائد العام للجيش يقطع بأنه كلام حشاشين، فما كان منه إلا أن اتصل بوزير الحشاشين ليطمئنه على صنف حشيشه. فما كاد المراغي يسمع كلام وزير الحربية حتى قام من مقعده وهو يصرخ في التلفون :
ـ والله يا شيرين إنت وحيدر والملك ما حتعدي الليلة إلا وحتفوقوا من المخدر !
ثم قرر أن يرمي حية موسى، فأضاف :
ـ وكلام حشاشين بحشاشين بقى، الملك أصدر أمرًا باستعداد يخت «المحروسة» للإبحار !
نطق شيرين بسرعة خاطفة :
ـ لقد فعلها ابن الحرام !
أغلق وزير الداخلية التلفون، ونادى على سكرتيره الذي جاء ملهوفًا، فهو يسمع منذ الصباح كل شيء :
ـ اجمع ليكل القيادات الموجودة في إسكندرية حالًا، وافتح ليخطًّا مع حكمدار القاهرة فورًا !
انطلق السكرتير لينفذ، لكن المراغي أوقفه بصوته :
ـ اسمع، اتصل أولًا باللواء محمد نجيب، وحوِّل ليالمكالمة حالًا .
عاد ليجلس على كرسيه ويدق بأصابعه على سطح المكتب حين رن التلفون :
ـ سيادة اللواء نجيب مع معاليك .
ـ ألو، مساء الخير يا سيادة اللواء
ـ أهلًا معالي الوزير
ـ يا لواء نجيب، إن فريقًا من الضباط يتجمعون الآن للقيام بانقلاب، ومعظمهم من سلاح المشاة الذي أنت قائده، وأنا أخشى من تدخل القوات البريطانية ويعود حادث عرابي والخديو توفيق مرة أخرى !
جاء صوت اللواء نجيب عريضًا دافئًا وبريئًا تمامًا وهو يقسم :
ـ أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف شيئًا !
بعدها بساعة كانت سيارة تنتظر محمد نجيب لتقله إلى مبنى قيادة الجيش .

3

أسند جمال عبد الناصر ظهره، ومد قدميه بحذاءيه الأسودين اللذين حافظا على لمعانهما، وفرد ساقيه الطويلتين وهو يجلس على مقعد رئيس أركان الجيش، ويتجول بنظراته المشوبة بالحماس والمتقدة بالقلق في تلك الأسقف العالية، والنوافذ الطويلة الخشبية ذات المزالج المعدنية الثقيلة، وخصاص الخشب المائلة، والثريات الضخمة المعلَّقة في حلقات من الحديد الثخين في السقف، تتدلى بحبال من حديد ونحاس حتى تتوسط القاعة بأثاثها الثقيل المذهب، ومفروشات وأبسطة، وبارافان حاجز خشبي عريض ومتماوج ومنقوش يحجز الرؤية لباب الحمَّام، والشماعات الأنيقة المتفرعة بأكثر من ذراع، ومشاجب البذلات العسكرية الفارغة بعدما رحل صاحبها ببذلته ونفوذه إلى الكلية الحربية حيث المعتقل الذي اختاره لكبار الضباط، حتى يُتم الله أمره ونوره .
كان عبد الحكيم عامر يتجه نحوه وفي عينيه تلك النظرات المحبة الراضية المتضامنة الحليفة، تكاد لا تختلف عن نظراته وهما معًا في منقباد بمعسكرها الرذل، أو «جبل الأولياء» بصحرائه السخينة، وفي تلك الشقة الضيقة قبل أن يتزوج كلٌّ منهما وينفصل جسدان عن بعضهما، بينما بقيت الصداقة تحفر أعمق ما يمكن أن تصل إليه في وجدانهما. شيء ما قوي من الامتنان يربط جمال بهذا الصديق، لعله تحديدًا نظرة عبد الحكيم التي تخبره وسط كل الزحام والسخام اللذين مرا بهما وعليهما، أنه يثق في أنه كبير جدًّا، وفلتة للغاية، وأنه الرجل الذي تنتظره مصر. قالها الآن دون أن ينبس إلا بتلك البسمة التي شاركت نظرته إليه وهو يجلس على كرسي رئيس الأركان، كما قالتها النظرة نفسها في تلك الشقة القديمة التي تكاد تخلو من العفش ومفروشة بورق الجرائد على مائدة فقيرة ودولاب يطقطق كلما فتحت درفة من درفتيه في مسكن حياتهما العازبة، يتسامران وقد امتلأت منفضة السجائر بعشرات من أعقاب السجائر، وحكيم يجلس ببنطلون البيجامة والفانلة الحمالات يخاطبه، كأنما جمال هذا هو مبعوث العناية الإلهية لمصر (له ثم لمصر).
طابور الذكريات الذي يمشي في عقله الآن منتظمًا ومنضبطًا ينادي عليه أنه لم يكن ليبدأ هذا الأمر كله بدون عبد الحكيم. ربما لم يكن ليرغب، وربما لم يكن ليقدر أن يفعلها أبدًا، كأن العالم خلا في تلك اللحظة غير المناسبة إطلاقًا من كل ما فيه، وعادا إلى «جبل الأولياء» في السودان، حيث الخلاء والخواء اللذان جاوراهما في الصحراء، منبوذين من قائدهما الذي رمى بهما في هذا المكان القصي لينتقم منهما، الحقيقة لينتقم من جمال الصموت ابن السكوت كما كان يسميه القائد المتغطرس. لكن حكيم حين عاد من إجازته وعلم بمنفى صاحبه، احتج واحتك بالقائد حتى ألحقه به، يقضيان ليلهما ونهارهما في كل شيء إلا العسكرية؛ فلا جيش هنا، ولا جنود، ولا معدات، ولا شيء إلا زواحف الصحراء، وكل أسباب قرحة المعدة من ضجر وغضب. تكلما كثيرًا، ربما يكون حكيم أيامها هو الوحيد الذي سمع جمال يبدأ كلامًا، فجمال كان لا يرد إلا حين كان حكيم يبادر .
نمت هذه العاطفة التي جرت في دمائهما، تتشكَّل محبتهما حينًا على هيئة صداقة، وحينًا على هيئة أُخوة، وفي كل الأحايين التصاق وتعلُّق مع السنوات التي مرت بهما وعليهما، صارا أقوى وأغمض من محاولة وصفهما. رأى جمال الدفء الوحيد في حياته يشعه حكيم. جمال يتيم الأم

مرتين، مرة حين ماتت، ومرة حين تزوج أبوه بعنايات. جمال الذي تربى بعيدًا عن أبيه وإخوته وأمه أكثر كثيرًا مما كان بينهم. انتقل طفلًا مع أبيه موظف البريد المتواضع، لكن أغلب طفولته وصباه في مدن غير مدينة أبيه. والأب نفسه أورث صمته، وتكتمه، وعاطفته الملجومة، وصرامته الجافة، وصعيديته المغلق بابها على مشاعره، لابنه. فلا يظن قهقهة جمعتهما، ولا ذكرى خناقة، ولا ممازحة، ولا تنكيد أو تدليل تمشي ذاكرته بهما، ولا حتى فسحة مع إخوته ملأتها بهجة أو شقاوة أو مناكفة أو مناكدة وشغل عيال. وعندما ماتت الأم لم يشعر بأن أحدًا فكر في أن يرفق به، أو يحن عليه ويعامله كيتيم، ولا كصبي بِكر فقد أمه ليجد زوجة أبيه. لم تحاول أن تحبه. ولم يقدر إخوته (صاروا تسعة بعدما أنجب والده من عنايات) على أن يفهموا أن صمته حزن، أو أن اتزانه برود، ربما لأنهم كانوا أصغر منه عقلًا، وأشبع منه قلبًا. كان غريبًا حين عاش معظم أيامهفي بيت عمه، وأكثر غربة في المدرسة الداخلية، وأكثر توحدًا وانعزالًا في كلية الحقوق التي مكث فيها نصف عام حتى التحق بالكلية الحربية، فقد كان الوحيد يبحث عن جماعة، والغريب عن رفقة، والضعيف عن قوة، والتائه عن هدف، والمغترب عن وطن . قضى قرابة سبعة أشهر فقط في الكلية الحربية وتخرَّج بعدها ضابطًا في العشرين من عمره، يحمل دبورتيه على كتافتيه، ويحمل عبد الحكيم عامر في قلبه، وقد أطلق على صديقه الجديد الذي أفرج عن معيلته من محبسها اسم «روبنسون كروزو»؛ بطل القصة المتيم بها، فيما قرأه من قصص مكتبة الكلية. «روبنسون» المغامر المعتمد على نفسه، البحَّار الجسور غير العابئ بالمخاطر ولا المتحسب للعواقب. كان كل ما حلم به جمال أن يكون «روبنسون»، لكن الذي حقَّق بطولة حلمه و«روبنسونه» هو عبد الحكيم. كل ما يفكر فيه جمال مربوط بخيوط وخطوط، وكلما أقدم شيء على الخروج من قلبه عاد إلى الداخل، فاكتفى بصديقه حكيم الذي يرتع قلبه متوهجًا ومرحًا ونزقًا دون حساب ولا محاسب. حكيم هو الوحيد الذي سماه منذ اليوم الأول «جيمي». وقد تخفَّف جمال من هذا التجلُّد الذي جُبل عليه، مع حكيم فقط. وكان حكيم يُكمل شيئًا هائلًا فارغًا في حياة جيمي .

والد عبد الحكيم العمدة المرح الميسور الطلوق العطوف، البيت السارح في المشاعر المطلوقة، والكرم المغدق في رعونته، الخمسمائة فدان التي يملكها ولا تملكه، الدار الدوار التي تشغي بالضيوف وبالأهل وبأناس غرباء لا يعرفهم أصحاب البيت أصلًا، فالعلاقات متشابكة متشعبة ولا أحد يعرف فروعها من جذورها

سهل جدًّا أن يتعرف حكيم على أحد، وأن يصادقه ويحادثه، كأنهما كانا معًا منذ سنين، لكن سنين طويلة يحتاج إليها جمال كي يفتح قلبه مواربًا لأحد، ثم يفسح الباب أكثر ليدخله هذا الأحد إن دخله. حتى الفترة التي ابتعدا فيها عن بعضهما في تنقلات عسكرية، وفصلت بينهما الأزمنة والأمكنة، بل تزوج كلٌّ منهما دون أن يكون لأحدهما رأي وشأن وحضور في الزيجة (هل كانا سيسمحان لصداقتهما أن تقرر في زيجة حكيم بزينب ابنة عمه، وجمال بتحية ابنة جيرانه)، لما أعادتهما الأزمنة والأمكنة إلى طريق واحد، استأنفا ما فات كأنه لم ينقطع، بل تزوج ابن خال تحية زوجة عبد الناصر بشقيقة عبد الحكيم، وكان الخاطبة عبد الناصر تقريبًا. لكن ظلت الزوجتان زوجتين، والأطفال أطفالًا في بيتيهما، فلم يخرجوا من البيت ليلتحقوا بصداقتهما أو ينضموا إليها أو حتى ينحشروا فيها؛ ظهورات ولزومات المجاملات لكن ليس أبعد. ربما حكيم هو الوحيد من أصدقائه، إن كان له أصدقاء غير حكيم، هو من تخرج تحية لتحييه إن زاره في البيت، ويتبادل معها كلامًا لا حوارًا. دائرة جمال وحكيم ظلت لهما وحدهما، والعالم يدور خارجها

كان جمال يحب في حكيم كل ما ليس فيه، وكان يحب في حكيم حبه له. ولاء حكيم عزيز، لكن حبه ملقى على رصيف الكلية، وفي قشلاقات الجيش، من أول خاله نفسه حيدر باشا قائد الجيش (القرابة تسمح له بأن يناديه بـ«خاله» وإن لم يكن شقيقًا لأمه، وها هو ينقلب عليه اليوم بضباط جنَّدهم حكيم في تنظيم ما كان ليكون إلا لأن حكيم فيه مع جمال). جمال كان يفكر، لكن حكيم كان يجنِّد، حتى إنه ذات مرة قال له مازحًا متباهيًا :

ـ ومن قال لك أنني لم أجنِّد خالي؟

لم يخالج حكيم الشك في نجاح الخطة، رغم أن جمال وحده هو من تحمَّل عبء القرار، قال غدًا يعني غدًا، لا اجتمع ليحصل على تصويت، ولا أخبر بقية اللجنة التأسيسية للتنظيم، بل صلاح وجمال سالم كانا في العريش، وأنور السادات كان في رفح، وقد فاجأ من بقي من التسعة بأننا سنتحرك غدًا، حتى محمد نجيب الذي اختاره قائدًا للحركة لم يشرح له ماذا سيفعل ليتحرك، بل لم يبلغه إلا قبلها بيوم، حتى إنه أجَّل الموعد ليوم تالٍ دون أن يسأل أي واحد فيهم لماذا! رغم أن السبب الذي قدَّمه كان هشًّا ويستحق ذلك الاستفهام بقوة؛ قال كي أطمئن على جاهزية كل وحدة للقيام بدورها في الخطة، بينما لم يكن أي جديد منتظرًا، ولا أي قديم مفاجئًا، لكنهم تواطأوا على الصمت، لأنهم يعرفون أن جمال يعرف أكثر، ولأنهم رأوه خلال ثلاثة أيام سابقة لم ينم لحظة، ولم يهدأ دقيقة، ولم يكف عن الاجتماعات واللقاءات والتدبيرات معهم كضباط التنظيم، ومع غيرهم من غير التنظيم، ومن غير الجيش، بل ومن غير مصر أصلًا، فعليهم أن يصمتوا عن غيرهم !

سأله خالد محيي الدين فقط :

ـ لماذا لا نبلغ زملاءنا من ضباط الفرسان جمال منصور ومحسن عبد الخالق؟

فرد جمال قاطعًا :

ـ دعهما في إجازتهما في الإسكندرية، فهما إن حضرا فلن يكفَّا عن إزعاجي بالأسئلة عن تفاصيل الخطة، وبدائلها، وأسباب كل تفصيلة وأهدافها، وتدابير كل خطوة، وأنا ليس لديَّ إجابة ولا طاقة لهذا الرغي الفارغ !

نعم، كان يعتبره رغيًا فارغًا، فالذي بلغه عن طريق الصحفي أحمد أبو الفتح وهو يلح بتأكيدات معلوماته على شقيق زوجته البكباشي ثروت عكاشة، كان قاطعًا :

ـ الملك عرف بخبر التنظيم والحركة، بل وزير الحربية الجديد يملك قائمة بأسماء ثلاثة عشر ضابطًا للقبض عليهم لإجهاض انقلاب يعدونه !

لم يكن لدى عبد الناصر حجم رأس دبوس من شك أن اسمه هو شخصيًّا منهم، بل مشكلته ما هو ترتيب اسمه في هذه القائمة. شيء ما بداخله لم يكن يقبل أن يكون إلا الأول، حتى في قائمة اعتقال أو قتل! ثم من هو هذا وزير الحربية الذي سيحلف اليمين صباح اليوم التالي؟ إنه حسين عامر

لا يزال حتى تلك اللحظة، وهو يجلس يتابع تحركات قوات التنظيم وهي تسيطر على معسكرات ومقرات الأسلحة والكتائب، تسري فيه رعشة الذكرى ورعدة الموقف، حين كان يقبع في المقعد المجاور في السيارة التي يقودها حسن إبراهيم، ويجلس في الخلف كمال الدين رفعت وحسن التهامي، وكلهم ممسكون بمسدساتهم (التهامي كانت معه بندقية)، تحت أغصان شجرة كثيفة في ذلك الشارع الهادئ الذي تكاد تسمع فيه أصوات ضحك أو زعيق أو خبط أطباق وحركة أقدام داخل تلك الفيلات والقصور الصغيرة المنتظمة في صفين على جانبي الشارع الذي تضيئه الأنوار الملقاة من الشبابيك والشرفات، على أسفلت يكاد يقتله الانتظار. يتربصون باللواء حسين عامر؛

هذا البغيض، قائد حرس الحدود، الذي يريد الملك أن يضعه في مجلس إدارة نادي الضباط رغمًا عنهم. يخدش فوزهم ويعطل نفوذهم، هذا رجل فاروق المدلل في الجيش، ولا بد من إزاحته، وهم هنالاغتياله. صحيح أنه اتخذ القرار، لكنه اتخذه وحده بلا اجتماع ولا تصويت ولا حتى تخطيط. طلب من ثلاثتهم أن يشاركوا معه. ليست المحاولة الأولى للاغتيال التي يقدمون عليها، لكنه لم يكن معهم في أي مرة سابقة، هذه المرة عبد الناصر بنفسه في فريق الاغتيال، صاحب القرار، وسوف ينفذه بيده، لولا أن حسن التهامي الضابط المندفع غريب الأطوار تحدث بحماس مجذوب في ميدان سيدنا الحسينأنه هو الذي سيكون أول من ينفذ :

ـ دعوا لي وحدي هذا الرجل !

كان جمال أول من نزل الآن من السيارة لينتقل إلى الرصيف المقابل، حيث وصلت للتوِّ سيارة حسين عامر، واقتربت ببطء من الوقوف أمام فيلته. هبط كمال رفعت من ناحية، والتهامي من ناحية أخرى، بينما بدأوا جميعًا إطلاق الرصاص، حين لمست قدما حسين عامر الأرض انكشف جسده أمام ناحية حسن التهامي تمامًا، وكان قد شهر بندقيته الآلية تجاه اللواء عامر، وضغط على الزناد بزخات الرصاص التي دوت بفرقعات حوَّلت هدوء الشارع لهبًا من صخب، لكن اللواء حسين عامر ارتد مرتجفًابظهره وقرفص ساقيه ورمى نفسه قفزًا داخل السيارة، في حركة سريعة ورشيقة لا تليق بسنه وجسمه، ربما تتناسب مع أدريناليته وإحساسه بهول الخطر. لم يفقده الرصاص المتتالي رشده ولا بداهته، فقد ترك باب السيارة مفتوحًا يحميه من رصاص حسن التهامي الذي كان يضرب الآن وحده بقوة وقسوة، يتقدم ببندقيته وراء رصاصه حتى فرغت منه الذخيرة. كان حسن إبراهيم ينادي التهامي بالعودة، وكان كمال رفعت قد عاد وركب السيارة وثبًا، وكان جمال قد تصلبت عيناه عند سيارة حسين عامر، وتحركت ساقاه نحو سيارة المجموعة. وتأخر التهامي، وحين وصل إلى باب السيارة المتحركة كان يرفع بندقيته كأنما يستعرضها في رقصة شجاعة وفخر .

عندما رجع جمال ليلتها إلى بيته كان أصفر الوجه، شاحب البشرة، مسحوب الدم من عروقه، والصلابة من عظامه. خشيت عليه زوجته تحية من مكروه أو مكروب، لكنه بنظراته الآمرة بالصمت والابتعاد نجح في أن تكف عنه عطف أسئلتها. لم ينم. قضى ليله ممددًّا على شوك ملاءته حتى شفق الصبح، ثم هرع ليعرف صدى ما جرى، فاكتشف أن اللواء لم يُصب بخدش، وأنه نجا، وكانت خسائره الوحيدة من بطل الرماية حسن التهامي (نعم لم يكف في السيارة عن إعلان حصوله على ميداليات وأوسمة لبطولاته في الرماية) هي كرمشة بذلته، ومزق في كُم قميصه، وسقوط أزراره الذهبية، بينما الذي مات قتيلًا هو السائق المسكين للسيد اللواء

كانت العملية فاشلة بامتياز، فشلًا من المفترض أن يُدرِّسه لطلبته في كلية أركان الحرب، وأنبه زملاؤه وعاتبوه ولاموه، وزوَّدها عبد اللطيف البغدادي وهو يعدِّد خطورة إقدامك يا جمال على عملية الاغتيال بقرارك وحدك، وتنفيذه بنفسك، فلعلك كنت ستنكشف ويُقبض عليك، فيضيع جهد التنظيم كله ونرتمي جميعًا وراءك في السجون . جرحته النظرات المحدجة، ووخز الكلمات الغليظة، فطرح التصويت على قيادته للتنظيم الآن وحالًا وفورًا. كفت الجعجعة وبقي الطحن، فقد حصل على إجماع الأصوات الحاضرة فهدأ، بل حتى نسي رعدته التي لم تفارقه ليالي .

ها هو صبح الثالث والعشرين من يوليو سيطل، ولم يأتِ عامر وزيرًا للحربيةفيطير رقبته وأعناقهم معه، لكنهم جميعًا منذ ثلاثة أيام فقط من هذه الليلة لم تكن لديهم أي مشكلة في أن يقرروا

تنفيذ ليلة المذابح الكبرى، شيء شبيه بليلة السكاكين الطويلة التي مكنت النازيين من تمكين نازيتهم. خرجت الفكرة من أحدهم أو منهم جميعًا في لحظة واحدة، بمجرد أن أدركوا تسرب سرهم مع أسمائهم وتنظيمهم إلى حسين عامر نفسه الذي يكاد يطارده في أحلامه .
ـ التنظيم غير مؤهل، ولا مجهز، لانقلاب بالعدد المحدود من أعضائه وقطاعات الجيش التي لم يخترقها كلها، هل ممكن نعمل انقلاب بتسعين أو تمانين ضابط؟
ـ ما الحل؟ نتحرك أو ننسجن، يبقى نتحرك، حتى لو اتسجنا يبقى اسمنا عملنا حاجة ولم يأخذونا من بيوتنا !
ـ طيب الخطة البديلة؟
عادت الخطة القديمة لتصبح الخطة البديلة، تكونت مع ساعات الاجتماعات الطويلة، تناثرت مع ثرثرات القشلاقات وهمسات الجلسات المغموسة بدخان السجائر وتنهدات الغيظ المكتوم .
ـ قائمة بمائة من رجال السياسة والأحزاب والقصر، نغتالهم جميعًا في ليلة واحدة. نعم، الليلة
ـ لا، لتكن غدًا، كي نكون أكثر تجهزًا
لم تجد الخطة رفضًا لأنها لم تصادف نقاشًا، فكأنه الوحي نزل عليهم في كهف الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى. انتهوا من تحديد الأسماء وموعد التنفيذ بعد أربع وعشرين ساعة، «حتى يتزلزل القصر بمصر، ونستطيع تطهير البلد من فساده وفساقه». لم يملكوا وقتًا كي يضيعوه ويحاولوا إقناع آخرين بالمشاركة في ليلة الاغتيالات الكبرى، فعزموا على أن يقوموا بأنفسهم بعمليات الاغتيالات. حددوا نصيب كل واحد منهم من المغتالين، والأسلحة المطلوبة، بل جمعوا العناوين والأماكن، ما يقتضي كذلك السفر إلى الإسكندرية حيث مقر الحكومة وتواجدها الصيفي. وكان مصطفى النحاس زعيم الوفد، وفؤاد سراج الدين سكرتير الوفد، خارج مصر، فربما ظلَّا خارج القائمة
لم يستعد جمال ليلة حسين عامر، ولا رعدتها، ولا رعشتها، ولا اضطرابه، ولا ندمه، فها هو مستعد لتكرارها، فلا رعدة تمنع، ولا ندم يعطل. لقد كانت مصر على المحك، فلا وقت للمشاعر الهشة في اللحظات الصلبة
ـ لكن هناك مشكلة كبيرة !
ـ خير؟
ـ عمليات الاغتيالات تتطلب سيارات لتنفيذها، ونحن التسعة لا نملك إلا ثلاث سيارات فقط !
إذن كان واجبًا الاستعانة بغيرهم من التنظيم وخارجه .
ـ طيب ما إذا كنا سنستعين بغيرنا، لو نجحنا في قتلهم فسيكونهناك فراغ كبير في البلد، وساعتها لا أحد ضامن من سيملأه وينهي الفوضى !
ـ فلماذا لا نملأ نحن الفراغ؟
ـ إذن هو الانقلاب أفضل، ولعله أوفر حظًّا، وأريح تجنيدًا، وأبخس كلفة، وأقل دمًا .
لهذا كانت الليلة، الانقلاب أسهل كثيرًا من الاغتيال، فعلوها وها هم الآن في مكتب رئيس أركان الجيش يمدون سيقانهم على سجادته العجمية
قال جمال لعبد الحكيم :
ـ لنتصل باللواء نجيب نهنئه، ونرسل من يحضره للقيادة .

كان يقوم ساعتها من على مقعد صدارة القاعة، حيث كرسي رئيس الأركان، وهو يوقن من الأخبار التي تتالت إليه من جميع الأسلحة، أن التنظيم سيطر على القيادة، وأن الكلية الحربية قد اتسعت للعديد من الرتب المعتقلة. وتيقن من تدفق هؤلاء الضباط الذين وفدوا وملأوا مبنى قيادة الجيش أنهم قد نجحوا . أطرق برأسه لنفسه وقد أدرك أن كل خطة مهما كانت بارعة أو ساذجة تحتاج كي تنجح إلى الحظ والصدفة والغباء .
وكلها كانت في خدمته الليلة

4

ظل محمد نجيب يردد هذه الآية الكريمة أربعمائة وخمسين مرة طوال هذه الساعات، يرددها متمتمًا، ومرتلًا، ومتبتلًا، وهامسًا، وصائحًا، ومكملًا لها، ومقتطعًا منها، وعائدًا إليها، ولعله رددهاخمسمائة مرة، أو ربما أخطأ في العد والتكرار فإذا به يعود ويرددها، فقد يبدد دويها في أذنيه دبيب القلق، والتوجس الذي يوخز جلده فيكاد ينزعه عن لحمه. يصمت كل لحظة عن التمتمة والهمهمة، ويحدق في جهاز التلفون الأسود، يستوثق أنه لم يسمع رنينه، ثم يعاود قراءة الآية في سره وفي جهره، وعيناه مربوطتان بالتلفون كأنما تعلقت به روحه. كان من أول النهار على قلق، كأن الريح تحته وفوقه وحوله . لم يتخذ حذرًا، فطلب من سائق سيارته الجيب أن يذهب به إلى بيت جمال عبد الناصر في القبة، قال له شارع والي خلف محطة بنزين كوبري القبة، بيت فيه محل مكوجي، ثم أضاف أنها شقة في الدور الأول. طبعًا لن يصعد السائق بسيارته إلى الدور الأول، ولن يهمه أنها الشقة التي على يسار السلم، لكن السائق غفر للواء نجيب خوتة دماغه بتفاصيل لا تنفعه، حيث لاحظ أن سيادته اليوم ليس على طبيعته، وشيئًا ما يدور ويلف في رأسه تحت نسر كابه .

نجيب لم يجد جمال في شقته. تجاهل أن جمال عبد الناصر سينزعج إن حضر إليه اللواء نجيب في بيته بالسيارة العسكرية، وهو اللواء المراقب والمستهدف من عيون الملك ورجاله، لكن نجيب لم يقدر على الصبر احتمالًا، كان يريد أن يعرف هل ما اتفق معه عليه قيد التنفيذ، فينتظر ويترقب ويحلم، أم يسكن ويهدأ ويحبط. فقد منحه جمال عبد الناصر هذه اللحظة التي كان ينتظرها، لحظة أن يحرر نفسه وبلده من فسدة الجيش الذين حاصروه، ونكلوا به، واستصغروا شأنه، وتعابثوا معه، وتخابثوا عليه، وتآمروا حوله، فأطاحوا به من رئاسة سلاح حرس الحدود، ومنحوها للمهرِّب الكبير حسين عامر، ذلك اللواء الأفاق الذي كسب كل شيء عبر زجاجات الشمبانيا وصناديق الشوكولاتة، وتقاسم أرباح تهريب المخدرات مع خادم الملك وسائقه، فتمكن من إزاحة نجيب من رئاسة سلاح الحدود، بل صمم الملك على أن يعينه في مجلس إدارة نادي الضباط، فلما فشل ها هو يحل مجلس إدارة النادي بعد ستة أشهر من انتخاب نجيب رئيسًا له، وكأنه بات علَم الضباط الخافق والسامق، يكسر صاريته ملك يعبث به سائقه، ويعبث بسائقه لواء أدنى من أن يكون جاويشًا !

يتحسس نجيب ندبات جروحه في حرب فلسطين، لا هي واحدة ولا اثنتان، بل سبع إصابات من الرأس حتى القدم، من انفجار لغم، إلى تلقي رصاص. الجلد الملموم والنتوء البارز بجوار القلب وعند الصدر وقرابة الكتف وتحت الإبط. فمن عامر هذا ليحل محله؟! بل الأخبار تترى أنه سيكون وزيرًا للحربية! لكن لو نجح رجاله (يخبرونه أنهم أولاده) هذه الليلة فكل شيء سيتغير .

غيَّر وجهته، وأمر السائق بالتوجه إلى مبنى كلية الأركان، وصعد طابقًا، يحييه الضباط، ويصافحه المحبون، فترتفع فرحته من قلبه حتى عنقه، فيشرئب حيث يحمد الله على محبة الجيش.

دخل على عبد الناصر المفاجأ، فوجد معه عبد الحكيم المتفاجئ

لا يستطيع أن يتذكر، منذ أكثر من عام حين عرض عليه جمال قيادة تنظيم الضباط الأحرار، أنه رأى جمال لحظة دون حكيم، هما كالتوأم بالنسبة إليه. صحيح هو يحب حكيم أكثر. لقد لاحظ

أصلًا حين مجيء سيرة جمال وحكيم أو الوجود في محيط أو اجتماع أو احتفال، أن الضباط جميعًا يحبون حكيم أكثر، لكنهم يُسلمون عقولهم لجمال أسرع، ولكن جمال الهادئ حتى البرود يبدو وقد أودع قلبه عند حكيم. أدرك نجيب هذه الحقيقة عندما علم أن عبد الحكيم هو من أطلق اسمه في هواء جمال: لقد وجدت لك الكنز الذي تبحث عنه. ابتسم نجيب وهو يكلم نفسه: كان يقصدني أنا بالكنز، عمل عبد الحكيم عامر أركان حرب للوائي فترة من زمن، فبلغه ما بلغ الناس جميعًا (والحمد لله) من عزتي ونزاهتي، فقال مقولته للبكباشي جمال عبد الناصر الذي لم أكن أعرفه جيدًا، بل لم أعرفه أصلًا، ومنذ عرفته كان الضابط الذي يجلس في الصف الأول واضعًا كبرياءه عند حافة أنفه، وها هو ينظر إليَّ الآن وقد دخلت عليه مكتبه ممسكًا بعصاي ومتماسكًا بأعصابي، أسأله بنظراتي

كان جمال متفهمًا قلق هذا اللواء الطيب الذي جاء به إلى الواجهة وهو لا يملك من أمره إلا طيبته وسُمعته النقية. لم يرَ فيه جمال إلا سنه التي شارفت الحادية والخمسين، بينما هم جميعًا في مطلع الثلاثينيات من العمر، وثقل رتبته على كتافتيه، فهو اللواء الوحيد الذي قبِل أن ينضم إلى التنظيم، بل أن يقال إنه قائده، وأن يجند جمال الرتب الأعلى على حسه وباسمه. فلما دخل عليه، صباح الثاني والعشرين من يوليو، في مكتبه في كلية أركان الحرب، تفهَّم حيرة الرجل وارتباكه وأرقه. ولما عرف أنه مر عليه في بيته أولًا كتم غيظه من خطأ أمني فادح ما كان ليغفره إلا اليوم، فلا مفر من غفرانه. ثم لا شك لديه الآن أن اللعب صار على المكشوف، فالتنظيم كله عبارة عن قائمة أسماء على مكتب أحدهم الآن، سواء الملك، أو اللواء حسين عامر (الذي يأبى أن يموت)، أو مرتضى المراغي وزير الداخلية، أو إبراهيم إمام رئيس القلم السياسي، وربما حتى حسن عبد الوهاب مدير البوليس الحربي. إلى أين ستتحرك الورقة؟ وهل الليلة فرصة أخيرة أم أنها الليلة الأخيرة؟ أسئلة تترنح إجاباتها بين عقارب الساعة !

طمأن نجيب وهو يتعشم في ابتسامة وادعة من حكيم يحتاج إليها لطمأنة نجيب أكثر، فحصل عليها دون أن يطلبها. ابتسم حكيم، ومرر كفيه على كتف وظهر اللواء نجيب، وعانق ذراعه بذراعه، ولم يحتج بعدها أن يقول له، لكنه قال :

ـ كل شيء في مكانه وموعده .

ربما من فرط الحماس، أو الإفراط في القلق، طلب نجيب أن يشارك في التحرك بنفسه، فقال جمال حازمًا وهو يدور بحدقتي عينيه في الغرفة ووراء الشباك، ويطرق سمعه إلى دقات الأحذية على خشب الممر :

ـ لا، أنت مراقب، ولو قُبض عليك لضاع كل شيء !

ثم كأنه أنهى الحديث قبل أن يحدث :

ـ كن في بيتك يا سيادة اللواء بجوار التلفون حتى نبلغك بالاستيلاء على مبنى القيادة !

ها هو الليل كله يجلس أمام التلفون، وبجواره، ويضعه على حجره. صرخ التلفون برنينه أكثر من مرة فنزع قلبه من مكمنه. واحدة من مرتضى المراغي يسأله عن حقيقة ما سمع، وهو وزير الداخلية، من تحرك ضباط لانقلاب، فأقسم له بالله غير حانث أنه لا يعرف شيئًا. إنه حنث حلال، فهو في سبيل الوطن. ثم مكالمة أخرى من رئيس الوزراء نجيب الهلالي يحمل نفس السؤال، لكنه بدأه وتوسطه بكلمات أرق وأحن :

ـ أنا كنت أستاذك في كلية الحقوق يا نجيب، والمسألة لها عواقب خطيرة، فأنا أخشى من تهور أولادك !
هل سبعة عشر عامًا أو أقل قليلًا تكفي ليكون جمال عبد الناصر ولدي، ورفاق سنه وجيله أولادي؟ ابني الأكبر يلامس السابعة عشرة من عمره أصلًا! لكن لا بأس .
ـ أؤكد لك يا معالي دولة الرئيس أنه لا علم لي بشيء. وأنا أرد على مكالمتك من بيتي !
بيتي، نعم، بيت صغير في الحلمية، لا يزال باجور الجاز في المطبخ لا البوتاجاز، ونشتري الثلج لنحفظ في الناملية الطعام ونسقع اللمونادة، فلا ثلاجة مما توجد في بيوت الضباط الكبار، بل الصغار. بيتي بعفشه المتواضع والذي لا يمكن مقارنته بما لدى حسين عامر، قد يكون ثمن ثريا من ثريات قصره بقيمة ما أملكه كله أو أكثر، فقد سمعت أنها مطلية ذهبًا. إن البلد يحتاج إلى لواء مثلي يرفع لواءه، فلن نطهر بلدنا من الفساد إلا لو كنا طاهرين نزهاء نظيفي اليد. فأستاذي في كلية الحقوق نجيب باشا الهلالي الذي رفع شعار التطهير، وبدا أنه بدأ حربًا عوانًا على الفساد في الحكومة والقصر، أُقيل من منصبه بعد عدة أسابيع بفعل رشوة دفعها المليونير عبود باشا ليتخلص من مطالبات حكومة الهلالي له بالضرائب! كيف يقبل الهلالي أن يعود رئيسًا للحكومة بعد إقالته بأسابيع؟! وكيف يتأبى أن يتحرك الجيش ليطهر بنفسه؟! وأي عواقب هذه التي يحذرني منها وهو الذي عطل البرلمان وحل مجلس النواب والشيوخ ليحكم الملك بنفسه لنفسه عبر طرابيش حكومته؟

كان محمد نجيب يغلي محمومًا عقب كل مكالمة، إلا تلك التي جاءته من زوجة شقيقه اللواء علي نجيب رئيس منطقة القاهرة :
ـ علي غائب، ولا أجده يا سيادة اللواء! هل تعرف أين هو؟ أنا قلقة عليه !
ـ وما الداعي للقلق؟
ـ لا قالي إنه سيتأخر، ولا من عادته إنه لا يُكلِّمني لو خرج إلى مهمة !
ـ وهل تظنين أنه في مهمة خاصة؟
ـ قلت أسألك، فأنت اللواء الذي تعرف ماذا يفعل بقية اللواءات !
ـ وأعرف منين وأنا قاعد في البيت؟
ـ خلاص، كلم أي لواء من زملائك، شوف أين أخوك
ـ علي أخي رئيس منطقة القاهرة العسكرية، تقريبًا قائد العاصمة العسكري، ولا خوف عليه، اهدئي
لعلها هدأت بعد المكالمة، لكنه هو من قلق على أخيه وعلى نفسه. لو كان جمال عبد الناصر تحرك، فربما يكون قد اعتقل شقيقه. ولو كان فشل، فربما يكون شقيقه من اعتقل جمال ورفاقه. هل سيفاجأ بأخيه داخلًا عليه ليعتقله بعد قليل؟
كل شيء عاد للحظة الأولى في هذه الليلة، حين اتصل به شقيقه علي نجيب شخصيًّا ليطمئن أنه ليس ضمن من سمع الليلة عن حركتهم من الضباط :
ـ الحمد لله يا محمد، كنت خايف تكون اتجننت ومشيت وراء هؤلاء العيال !
ـ أي عيال؟
ـ لا، لا تقلق، واضح إنها كلها شائعات، كانوا يقولون إن ضباطًا تحركوا من معسكراتهم، لكنْ واضح إنه كلام فارغ .

عاد نجيب إلى الآية الكريمة، يهز رأسه وصدره للأمام، وعاف كل ما حاولت عائشة زوجته، بنت هذا العسكري الطيب محمد لبيب الذي أحبه فتزوج ابنته بعد أن طلَّق الأولى بأربعين يومًا، وعوضه الله عن زوجة زنانة ملحاحة بزوجة طيبة تشاركه قلق الليلة بوضع أكواب ينسون وشاي وقرفة بجواره دون أن تسأله عن غرابة حاله، فهي لا تسأل أبدًا، ولا هو يسألها أصلًا، هي صموتة ومحتملة وساكنة بيتها. أما أولاده الثلاثة فليسوا صغارًا لدرجة ألا ينتبهوا غافلين، وهم كبار لدرجة ألا يسألوا متطفلين

يا ترى لو فشل عبد الناصر ماذا سيفعل هؤلاء الصبية وأكبرهم مرتهق من غيري؟ لو لم أعش فليبقَ لهم معاشي

ارتفع صوته بالآية، وهو يتذكر أنها رؤية الرجل التقي أحمد المدثر السوداني الجميل، رفقة أيام السودان الرائعة، حيث أخبره المدثر أنه صلى العصر في مقام سيدنا الحسين، ثم غفا ونام، فجاءته الرؤيا في المنام في ظلال المقام وعند الضريح، حيث انبثق شعاع من نور مضيء، وتحول الشعاع يدًا، وامتدت اليد ممسكة ورقة، وخرج من الورقة صوت يقول له أعطِ هذه الورقة لمحمد نجيب ليقرأها ولينفذ ما بها

- وعندما فتحتُ الورقة وجدت آية قرآنية يا محمد، وعرفت أنك يجب أن تقرأها أربعمائة وخمسين مرة

كانت الآية هي ما يرددها منذ ساعات طوال : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

لقد جمعوا له كثيرًا، ولعله خشيهم أو لم يخشهم، لكن في كل الأحوال والأهوال زادوه إيمانًا، لكنه الآن وفي تلك الساعة في هذه الليلة وهو يتمتم بالآية، هو من يجمع الناس، يجمع الناس لهم، ويجمع الناس لكم، وها هم قد اجتمعوا

زن رنين التلفون، هذه المرة يرن معه قلبه. رفع السماعة فجاء صوت الصاغ جمال حماد :

- مبروك يا أفندم. كله تمام .

5

تأخر جمال عبد الناصر إلى الوراء قليلًا، ليفسح للواء محمد نجيب أمتارًا للعبور نحو مقعد القائد العام. فلما جلس نجيب جر جمال مقعدًا خشبيًّا أصغر، ووضعه على يمين نجيب، وجلس .
كان حكيم قد سبقه إلى نجيب فعانقه ودخل به إلى الغرفة، وحدج بنظراته عددًا من الضباط تحلقوا حول نجيب ووصلوا معه حتى منتصف الغرفة يحاوطونه بالتحيات والتبريكات، فالتم هذا الجمع بسرعة إلى حلقة أصغر، تفككت بإشارة حكيم المبتسمة لهم تأمرهم أن يخرجوا، ثم ألقى أوامره العسكرية مطلية بالدعابة :
- يلّا يا رجالة، ورانا انقلاب بنخلصه !
كان نجيب قد أسرع دون أن يملك لنفسه زمامًا، فركب سيارته «الأوبل» القديمة، وقادها سائقه الخاص يسوق به وحده إلى مبنى القيادة، وقد رفض أن يحضر له قولًا عسكريًّا من المركبات وثلاث عربات مدرعة يقودها يوزباشي بالجنود كما أخبره جمال حماد. لم يكن سعيًا للتواضع والتمنع حين رفض انتظار الحراسة والموكب القادم، بل كانت رغبته في الوجود في قلب الحدث، وأن يفرغ شحنات قلقه التي كادت تنفجر من طول الانتظار، هما دافعه لأن يبادر ببعض المغامرة للركوب وحيدًا مع سائقه في سيارته المدنية، ويسابق ماضيه العثر ليلحق بما انتظره ولم يتوقعه قَطُّ. لكنه حين أوشك على الوصول إلى مبنى القيادة وجد جمعًا من ضباط وجنود، استقبلوه بحفاوة ولهفة وسرعة، ولم يعرف من وجوههم إلا إسماعيل فريد الذي علق وجهه في عقله، وتعلَّق بقلبه، يكاد يحملونه إلى سيارة جيب عسكرية كبيرة ركبها في الخلف، بينما وقف من تمكَّن منهم على حوافها وحواجزها، ولحقوا بسياراتهم خلفه، وبصفوفهم أمامه، فدخل موكبه ساحة المبنى .
حين صعد إلى مقر القيادة، ودخل حيث غرفة القائد العام، قابله عبد الحكيم عامر، فانصرفت عنه الثلة المصاحبة بابتسامة حكيم الذي أمرهم وهو يعانقه بالرحيل فرحلوا . ملأ الغرفة وجه عبد الناصر، وقد تبادلا معًا ابتسامة راضية وجادة وهو يمضي تجاهه، بينما كان يوسف صديق يتحدث متحمسًا، بوجهٍ محمر، لمَّعه العرق الممسوح، بينما القائمقام أحمد شوقي يسمع شيئًا من عبد اللطيف البغدادي، أما عبد المنعم أمين وحسن إبراهيم فقد اقتربا بمقعديهما نحو المكتب، بينما وقف خلف عبد الناصر ملتصقًا بظهره وأذنه قائد الجناح علي صبري، يتابعه بتقرير ما .
كان المشهد بين الابتهاج والضباب أمام عيني نجيب، وكان وجوده في مبنى القيادة نجاحًا سريعًا وخطرًا داهمًا في ذات الوقت. يجهل تفاصيل الخطة التي جاءت به إلى هنا، والخطة التي ستخرج به من هنا، لكنه ضحك بغتة طاردًا دخانًا من غليونه، وهو يمسك بدفتر بُني مجلد بقطعة من الجوخ، موضوع أمامه على المكتب، فلمح أنور السادات يستلقي بجسده الطويل على الأريكة الكبيرة الوحيدة في الغرفة، وراح في غفوة نعاس كأن الدنيا لا تنقلب بجوار الوسادة التي يسند عليها رأسه. هذا النائم أكثر من طمأنه في هذه اللحظة
بدأ زكريا يعطي تمام الحركة للجميع، ونظراته تتوزع بين نجيب وجمال، فيما تكاد تستأذن نظرات وتلميحات وحركات وإيماءات نجيب، جمال عبد الناصر، قبل أن يعطي إشارة رضا أو موافقة أو اتفاق :

ـ سلاح الفرسان، خالد محيي الدين وثروت عكاشة، أغلقوا منطقة العباسية. المدفعية عزلت ألماظة والهايكستب. كل الطرق لمبنى القيادة هنا تمت السيطرة عليها تمامًا. القوات نزلت للإذاعة ومحطات التقوية الإذاعية . حاصرنا قصر عابدين واستلمت فرقة منا حراسته. الكردونات والكمائن بدأت في المناطق الرئيسية .
كان أكثر ما يدعو إلى القلق قد بدأ؛ لم تكن الحركة قد أحكمت سيطرتها على كل الأسلحة في القاهرة، ولم ينضم إليها الجيش حتى هذه الساعة، ولا تزال الإسكندرية بعيدة عنهم بسلاح البحرية وخفر السواحل وقوات الحرس الملكي، وكانت الصفحات الست الفلوسكاب التي كتبها ظهر اليوم عبد الحكيم عامر بخطه، وعليها بعض تعديلات بخط زكريا محيي الدين، وأخرى أصغر وأقل بخط عبد الناصر، لم تتم كلها. العشرة الذين كانوا في شقة خالد محيي الدين منهم ستة فقط كانوا من أعضاء لجنة القيادة، يعرفون أن كل ما فعلوه حتى الآن في مهب الريح لو هبت، لقد أنقذهم القائمقام أحمد شوقي، وسد ثغرة فراغ هائل بانضمامه إلى التنظيم والحركة صباح اليوم فقط.
كانت مفاجأة أخذتهم إلى منطقة أخرى من النجاح، فها هو قائد الكتيبة 13 مشاة وقائد حامية القاهرة كلها، قلب الانقلاب نفسه، ينضم إلى التنظيم بمجرد ما فاتحه عبد الناصر وحكيم، وهما الأقل رتبة والأبعد معرفة عنه . بل إن صلاح نصر قد ألجمته الدهشة عندما رأى قائده يدخل عليهم شقة خالد محيي الدين لينضم إلى الاجتماع الذي يحدد تحركاتهم في خطة انقلاب الليل. ولم تكن هناك فرصة للتعاتب على كتمان سره على قائده، فوقت العتاب سيكون طويلًا، إما بعد النجاح في أي مكتب، وإما على غداء أو عشاء أو في فناء سجن حربي معد أكيد لمثل هذه الجلسات !
لكن أحمد شوقي غمره فيضان مفاجآت أخرى بعدما نزل من الاجتماع ليذهب إلى بيته ليتجهز، فقد ظل ضابطان معه في السيارة، لم يبرحاه للحظة، حتى عندما صعد ليرتدي ثيابه العسكرية في منزله. جمال وحكيم ولعله صلاح نصر لم يثقوا فيه وهم يكلفونه بالخطة، وظلوا على هذا الشك الذي تفهّمه، حتى إنه صمم وحلف عليهم بأيمانات المسلمين جميعًا على أن يصعد أحدهم معه إلى المنزل وليبدل ثيابه أمامه . كان هذا الشك يعول على أن أحمد طلعت حكمدار القاهرة هو ابن خالته، فهما معًا جيش وبوليس ابنا خالة، يديران عاصمة صاحب الجلالة، فطبيعي أن يلعب في قلوب هؤلاء الضباط ألف فأر، فهو يمكن أن يقضي عليهم جميعًا بمكالمة تلفون، أو حتى بالتفاتة منه بمسدسه ويعلن القبض عليهم، فهو قائدهم الأعلى. لكن أحمد شوقي فاجأهم بإيمانه السريع بالانقلاب، فقد ألقى القبض على ابن خالته حكمدار القاهرة بنفسه بعدها بساعات. اقتحم بقواته مقر حكمدارية الأمن وحاصرها، وتلقى مكالمة وزير الداخلية في مكتب ابن خالته، وأعلمه أنه لن يسمح للبوليس بالاحتكاك بالجيش ولا العكس، ثم أمر ابن خالته حكمدار العاصمة الهمام بوقف أي تحرك للبوليس في مواجهة قوات الجيش، وصار هو وحده المسؤول عن جيش وبوليس عاصمة صاحب الجلالة لهذه الليلة. كل هذا حدث قبيل ساعة من جلسة أحمد شوقي الآن يتأمل راضيًا حلقة الضباط حول نجيب، بينما أنور السادات يصحو من غفوته مبتسمًا يعظم لنجيب بالسلام .
كان أحمد شوقي قد تلقى آخر نصيبه في هذا اليوم الطويل من المفاجآت، حيث كان يمر على سلاح الفرسان أمام مبنى قيادة الجيش، ليطمئن على استتباب النجاح للحركة، فوجد الصاغ ثروت عكاشة يندفع نحوه محييًا مرحبًا، وبأعلى صوته قال له :
ـ ابنك بطل يا سعادة القائمقام .

انفتقت كل غدد أحمد شوقي فرحًا لحظتها، فقد رأى ابنه الملازم أول ممدوح أحمد شوقي ضابطًا من الضباط الأحرار. وها هما الأب وولده مشتركان في انقلاب ليليدون أن يدري كلٌّ منهما عن الآخر شيئًا .
لم يترك حضن ابنه إلا حين حكى له مطمئنًا أن مدير البوليس الحربي البكباشي حسن عبد الوهاب وصل بعدة وعدد رجاله وقواته إلى ساحة العباسية، لما وصلت أنباء تحرك قوات من الجيش، ولأن زكريا محيي الدين دفعته في الحربية، فقد قرر أن يواجهه ويصارحه بنفسه :
ـ نعم يا حسن، نحن نقوم بانقلاب، أنا عارف إن مهمتك الآن باعتبارك مدير البوليس الحربي تقبض علينا أو تشتبك معنا، لكن أنا أصارحك بحق الزمالة أننا لن نستسلم ولن نتراجع، وشوف إنت ما هو التصرف الأنسب !
كان حسن عبد الوهاب مبهوتًا وهو وسط عساكره وضباطه، بينما يرى كردونات ومصفحات زكريا وعساكره وضباطه: هل يستدعي بقية قواته ويشتبك ويجهض الانقلاب؟ هل ينضم إليهم منقلبًاويعلن ولاءه ويدخل معهم إلى حيث اللواء نجيب القادم في الطريق، أم يسارع فيعتقل نجيب، وربما زكريا زميله نفسه؟ لما أخذته الحيرة وراحت به وعادت، فعل ما رُفعت له القبعات ذهولًا؛ قرر أن يركب سيارته وقال لزكريا :
ـ أنا مروح بيتنا، وغدًا من ينتصر فيكم سأكون معه .
لما سمع نجيب هذه الواقعة يرويها أحمد شوقي، ويؤمن عليها برأسه زكريا محيي الدين، أدرك أن الشعاع الذي تحول إلى يد سلمت الورقة لأحمد المدثر في ضريح سيدنا الحسين هو سيدنا الحسين نفسه !
دخل جمال حماد عليهم، يمنع بظهره احتشاد ضباط كُثر تزاحموا للدخول. نظر إلى عبد الناصر ثم إلى نجيب،
لكنه نادى عبد الحكيم عامر الذي خرج إليه وأغلق الباب، وقد تركهم صامتين لا تنطق فيهم إلا رؤوس أعواد ثقاب تصطك بقشرة الكبريت وتُشعل لهبًا لسجائرهم. عاد حكيم وأغلق الباب وراءه، وقال مبتسمًا :
ـ خلاص، القوات حاصرت مبنى الإذاعة !
لحظتها رن التلفون، ورن جرس فرح في قلوبهم جميعًا، حين وجدوا أن رئيس الحكومة على الخط الآخر، وفهموا من نجيب وهو يُجيب أن رئيس الحكومةيطلب تأجيل بيانهم في الإذاعة قليلًا .
أدركوا ساعتها أنهم سيطروا تمامًا على القاهرة، وأنهم أعلنوا عن إذاعة بيان للجيش، لكنهم لم يكونوا قد كتبوا فيه حرفًا حتى الآن !
أشار جمال عبد الناصر بإصبعه التي شقت دوائر دخان السجائر الذي عبأ الغرفة، كأن قنبلة دخان تحت مكتبه تركها لهم رئيس الأركان المعتقل، فاللواء نجيب لم يكف عن تدخين البايب (لم يكن يدخن في شقته، حيث كان يرى غيابًا للياقة والأدب أن يردد الآية القرآنية أربعمائة وخمسين مرة وأكثر، وفمه وحنجرته معبآن بالدخان)، وكل ضباط الغرفة تقريبًا يدخنون في وقت واحد، ولم يفكر أحدهم في إيقاف هذه الحمم لوهلة، فما صدق جمال حماد الذي كان قد أشار له عبد الناصر بالاقتراب أن سمع جمال عبد الناصريهمس في أذنه وهو يميل عليه فيستند بصدره على حافة المكتب :
ـ أنت ستكتب لنا البيان. أنت أديب وشاعر .

عندما تسمَّع يوسف صديق الهمس لم يفهم منه إلا كلمة «شاعر»، فظن أنه المقصود، فهو الشاعر الذي لا يكف شعره عن الصدح في مؤتمرات واجتماعات ومناسبات الضباط، بينما فهم السادات أن عبد الناصر يكلف حماد بكتابة البيان، ولم يشعر بأسى، وهو الذي عمل صحفيًّا وقت فصله من الجيش، وهو كاتب المقالات واليوميات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات وليس جمال حماد، ولكنه جاء متأخرًا في الثالثة صباحًا، ولم ينفذ شيئًا مما كان مكلفًا به في الخطة، فلا سيطر على مصلحة التلفونات بشارع الملكة نازلي، ولا منع الاتصالات بين قادة الجيش، ولا هو الآن في محطة بث الإذاعة بالمقطم، وهي كلها كانت مهامه المهمة في خطة لم يخطط فيها شيئًا ولم ينفذ منها شيئًا، فقد قضى الليلة كلها في براح السينما الصيفية معزوجته جيهان يشاهدان الأفلام بالفشار واللب والحب، رغم عودته المرهقةمن سيناء صباحًا إلا أنه صمم ليلًا أنيكافئ جيهان بنزهة تليق بزوجة منتظرة، فإذا بالسهرة السينمائية تمنعهمن أنيلحق بموعد الحركة التي فاجأت الجميع، وحمد الله أن عبد الحكيم عامر كان يتمم على القوات حول مبنى القيادة فناداه كي ينقذه من الجنود الذين يمنعونه من الاقترابوالدخول إلى مبنى القيادةرغم أن معظمهم تعرفوا عليه، بل كانوا يحيونه بالبطل، فهو منذ محاكمته في قضيةمقتل أمين عثمان وجه معروف بين شبيبة الجيش وشيبته، فالحمد لله كثيرًا على أنههنا في قيادة مبنى القيادة، فليس مهمًّا من يكتب البيان أو من فينا الضابط الأديب والأريب، وهنيئًا لجمال حماد بتكليف جمال عبد الناصر . ارتخت أعصاب السادات وجفونه حتى إنه غفا ونعس .

أضاف عبد الناصر لحماد، وهو يحول رأسه ناحية نجيب الذي كان يومئ بالموافقة سلفًا :

ـ هذا بيان مهم جدًّا، لأن الجيش كله والشعب معه سيسمعه، وهو أملنا الوحيد أن ينضم الجيش والشعب إلى حركتنا !

كان عبد الحكيم قد أدخل رأسه وصدره بينهما فوق المكتب، فلما انتهى جمال عبد الناصرمن جملته أمسك بقبضة حماد بين قبضته، وجذبه للخروج معًا من الغرفة وسط الأكتاف التي زادت والمقاعد التي تعددت، ثم تراجع وعاد مرةأخرى إلى الغرفةوهو لا يزال ممسكًا بقبضته، والتقطدفترًا ورقيًّا من فوق المكتب، والتفت فاكتشف قلمًا في جيب جاكت حماد وآخر في جيب جاكتته فرضي وأكملا خروجهما، بينما شد لحظتهانجيب الدفتر البني وقلب في صفحاته، واستقرت عيناه مستغرقتين عند أسماء ضباط مكتوبة برتبها العسكرية في قائمة بخط يد، كانت ثمانية أسماء، همهم بها نجيبوتمتم، ثم انشغل بما حوله فطوى الدفتر سريعًا، ثمسرعان ما طوته ذاكرته .

في مواجهة الغرفة كانت قاعة المؤتمرات، دخل حكيم وحماد فوجداها فارغة، فانشرحا من المفاجأة، وأغلقاها من الداخل، وجلس كلاهما على المائدة الخشبية الفخمة. وضع عامر الأوراق أمامه متنهدًا، ثم مد قلمه وكتب عنوانًا: «مشروعالبيان » ، ثم عاد بظهره إلى الخلف وضحك، ففهم جمال حماد فورًا سر ضحكته؛ فما هي هذه الحركة البلهاء أو ذلك الانقلاب المضحك الذي لا يعد بيانًا مسبقًا يذيعه بمجرد ما يقوم به؟! لا شيء معدًّا، ولا شيء جاهزًا، بل المثير للشفقة أنهما وحدهما الآن مطالبان بأن يحددا ماذا يريد التنظيم الذي ضم تسعين ضابطًا شاركوا في ليلة الانقلاب مع قرابة ثلاثمائة صف ضابط وجندي . نحن التنظيم الذي تمرد منذ ساعات على قياداته وحكومته، وسيطر على مقر قيادة الجيش، لم يجب إطلاقًا عن سؤال ماذا بعد، لسبب بسيط للغاية أنه لم يسأله !

كانت كل منشوراتهم تسب وتلعن في الفساد، وتعلن الغضب والرفض. لو سألهم أحد الآن: طيب يا جماعة عايزين إيه دلوقت؟ ماذا نفعل كي تنبسطوا؟ فلا إجابة واضحة! هم غِضاب جدًّا لدرجة أنهم لم يجهزوا ماذا لو نجحوا في إعلان غضبهم، بل حين ينتصر غضبهم! الغريب أن حكيم وجمال لم يقرأ كلٌّ منهما كثيرًا من منشورات الضباط الأحرار. كان جمال منصور في سلاح الفرسان وجماعته من يكتبونها ويطبعونها، ويشاركون هم في توزيعها، وأحيانًا كان عبد الناصر يكتب عدة سطور وربما منشورًا، ولم يكن يعنيهما إلا الإعلان عن أن التنظيم هنا وموجود وغاضب، والجيش يغلي ضد الفساد، وحال البلد المائل! أكثر من ذلك فلن تجد! حماد قرأ منشورات الضباط، لكن عمره ما كتبها، ولعله يتذكر بعض ما فيها . لكن هل نحن نكتب منشورًا للتنظيم الذي كان هدفه الأسمى هو تجنيد الضباط بهذه المنشورات، أو كسب تعاطفهم معه، أم نكتب بيانًا للأمة؟ لكن جمال عبد الناصر طلبه للجيش وللشعب! نعم لم نحصل بعد على جيش موالٍ ومؤيد، وبالطبع لا نعرف أين الشعب لنسمع رأيه. لماذا يبدو عبد الناصر واثقًا جدًّا في هذا البيان قبل أن يقرأه أصلًا، بل لم يحدد ما يريده في البيان؟ يثق عبد الحكيم أن جمال أعد لكل شيء عدته: اليوم الذي أجَّله، والوقت الذي غابه مع صاحبه المحامي الإخواني حسن عشماوي، والإسكندرية التي كان ينتظر قدوم خبر منها، ليس من البحرية، بل من شقة مصيف يصيف فيها مرشد الإخوان، ثم علي صبري الذي أعطى التمام لعبد الناصر وأبلغه أداء مهمته مع الملحق الأمريكي، كل هذا يشي بأن صديقه داهية، أثمرت معه سنوات لعب الشطرنج (كان حكيم يفوز عليه في «جبل الأولياء» فيغضب ويحتد عبد الناصر، حتى إنه فوجئ به في الإجازة التالية وقد أحضر كتبًا في الشطرنج ليذاكرها ويهزم حكيم بها).

ـ وصف حال البلد .

قالها حكيم وهو يكتب حروف الجملة على الورقة، وأضاف :

ـ هزيمة فلسطين، تطهير الجيش .

ثم أضاف مخاطبًا حماد :

ـ اكتبه كما قال لك جيمي .

ـ لكنه لم يقل سوى أن أكتبه !

ـ أنت متفق معي في هذه العناصر؟

ـ تمامًا .

ـ خلاص، على بركة الله

نهض حكيم وهمَّ بمغادرة الغرفة، فلاحقه حماد بالسؤال :

ـ طبعًا بتوقيع اللواء نجيب؟

ـ وهل هذا سؤال؟

ثم تردد وعاد إليه برأسه :

ـ نكتبه باسم الضباط الأحرار .

عاد وتردد مرة أخرى :

ـ اكتبه، ولما نشوف جيميماذا سيقرر .

كانت المهمة هائلة فوق كتفي جمال حماد، روحه كلها في قلمه الحبر، ووجدانه يتلاطم مع عقله في طاحونة من الأفكار والعواطف والرهبة والهيبة؛ هذا أصعب كثيرًا من إطلاق الرصاص، أو

اقتحام الكتيبة، أو احتلال معسكر، أو تحدي حصار البوليس الحربي، أو حتى قذائف حرب تضرب فوق خندقك! يكتب الآن ما قد يُغيِّر التاريخ، وما قد يُخلَّد في المستقبل، وما قد يموت قبل أن يولد، وما قد يحدف به حدف بحر لغريق. لقد جاء ليشارك في غلق طرق حول مبنى القيادة، أو كردونات لمنع مرور قيادات الجيش لمعسكراتها، وحراسة الطريق المؤدي إلى السويس خشية تحرك قوات من القاعدة الإنجليزية إلى القاهرة حين تعلم ما فعله ضباط القاهرة، لكن فجأة بات مكلفًا بكتابة بيان الجيش! لم يكن قد كتب سطرًا في منشورات الضباط الأحرار، ولم تعجبه لغتها الزاعقة واقتباساتها من مقالات الصحف النارية

لكنني أديب، وقلمي رشيق، ولم يخترني عبد الناصر إلا إعجابًا. نشوة الكاتب سحقت حسابات الضابط، ووجد نفسه يكتب السطور سراعًا. فتح غطاء قلمه الحبر وكتب. مضت الكلمات تحت سن القلم منضبطة على الورقة الفلوسكاب البيضاء غير المسطرة، لا تلجلج ولا تردد، شطب كلمتين فقط ثم نظر إلى ساعته، فوجد نفسه قد وصل إلى سطر التوقيع بعد نصف ساعة، ويجهل بما يصف نجيب في البيان الذي كتبه له. هل أكتب مدير سلاح المشاة، أم رئيس مجلس إدارة نادي الضباط المنحل، أم أكتب اللواء محمد نجيب فقط؟

لكن برقت الفكرة فورًا في ذهنه فكتبت نفسها بقلمه :

«القائد العام للقوات المسلحة »

ظل ممسكًا بالورقة، وقد عيَّن هو الصاغ جمال حماد وبنفسه، اللواء محمد نجيب قائدًا عامًّا للقوات المسلحة !

دخل عليه حكيم فوجد الورقة في يده وقد امتلأت بسطوره :

ـ عال !

أخذها منه وقرأها، واستحسن المكتوب بإيماءة رأسه المصحوبة بابتسامة تكاد لا تفارقه، وأعاد إليه الورقة، وقال :

ـ هاتها وتعالَ .

دخلا عليهم غرفة القائد العام . كان حماد مختالًا ككاتب، ومنجزًا للمهمة كضابط. كان عددهم قد صار أقل، وثقتهم باتت أعلى. تناول جمال عبد الناصر ورقة البيان من يد حماد الممدودة، فقرأه وأومأ برضا سريع دونما تعليق، ثم سلمه لنجيب الذي تمهل في قراءته بصوت مهموس ثم مسموع، متأمل ثم متمهل :

اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبَّب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد هذه الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها .

أطرق برأسه راضيًا، وألقى نظرة استحسان على جمال حماد، ثم عاد لترتفع نبرته بالقراءة :

وعلى ذلك، فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم، وفي خُلقهم، وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيُطلق سراحهم في الوقت المناسب. وإني أؤكد أن الجيش اليوم .

توقف، ثم نظر إلى جمال عبد الناصر وهو يقول :

ـ أريد أن أضيف هنا كلمتين .
أشار عبد الناصر بالموافقة بهزة رأس وفرد كف يد تعني «طبعًا اتفضل ».
نزع نجيب القلم المرشوق في طاقم المكتب الجلدي أمامه، وأضاف :
وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن .
ثم رفع سن القلم، ونظر إلى عبد الناصر مرة أخرى، ثم أخرج سهمًا بعد كلمة الوطن، وكتب قارئًا بصوت مسموع ما يضيفه :
أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور .
ثم عاد ووضع القلم جانبًا، وأكمل القراءة :
مجردًا من أية غاية. وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس في صالح مصر، وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال. وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونًا مع البوليس. وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسؤولًا عنهم .
والله ولي التوفيق
وضع نقطة في نهاية الجملة الأخيرة بسن قلمه، الذي عاد وأمسكه، ثم وقَّع اسمه تحت رتبته الجديدة :
القائد العام للقوات المسلحة
اللواء محمد نجيب
ثم أرخ تحت التوقيع :
23 يوليو سنة 2195

6

لولا فوزية ما جاءت هذا الحفل، ولا عتبت قصر أخيها الأخرقالذي سيُلقي بالعائلة كلها في أقرب داهية. كانت الأميرة فايزة حانقة على حفل هذا المساء الذي صمم زوجها على أن تحضره معه، رغم أنها ليست ممن يصغون لزوجها كثيرًا، فضلًا عن أن تطيعه، لكنها جاءت لخاطر فوزية، فلا شيء يسعدها أكثر من بعض البهجة لأختها الكبرى صاحبة النيشان الأكبر الإمبراطوري الإيراني والجرح الفارسي الذي نشن على قلبها فأصابه بذلك الحزن المفروش كبقعة حبر على قلبها، لا تزول ولا تبهت. تركت ابنتها شاهيناز معطليقها الإمبراطور بهلوي، بعيدة عنها، فتركتشيئًا من قلبها معها هناك في طهران، وها هي تعيش مكلومة ومهمومة تحت غلالاتالهدوء والسكينةفي قصرها مع زوجها الجديد إسماعيل شيرين، الذي تحوَّل من زوج شقيقة الملك الكبيرة وضابط الاتصال بين القصر والحكومة، إلى وزير الحربية هذا الصباح. ماذا فعل إسماعيل الطيب في نفسه؟ ولماذا رضي بأن يكون تمثال قش بجوار أخيها الملك الملول الحرون؟نعم، الجميع يعرف رأيها في أخيها ومملكته كلها على بعضها. يتذمر فاروق منها بمد شفتيه، وتكشيرة الطفل المدللالذي يحاول أن يبدو رجلًا حين يقابلها، ويغمز ويلمز بما يسمعه عنها وعن سهراتها، كأنه بروح أمه لا يسهر ولا يلهو على عين رعيته وبين شهود المراقص التي يبتذل نفسه فيها، بينما هي في قصرها «الزهرية» تعيش كما يليق بأميرة. هو لا ينزعج من سهراتها وحفلاتها ومآدبها في قصرها، بل ينزعج من أنها لا تتردد في أن تعلن رأيها في أفعاله الخائبة: ملك يشكل أربع حكومات في شهر تقريبًا ويريدها أن تسكت عن ملاحظة لاذعة وسخرية سليطة عليه وسط ضيوفها! هو يجهل أنهم هم أنفسهم يفكون ألسنتهم حين يفكون رابطات أعناقهم أو بوبيونات ردونجوتاتهم وهوانمهم يرفعن الحرج حين يرفعن الفوريرات عن أكتافهن والقبعات عن رؤوسهن، ويقولون ويقلن عن مليكهم ما يخربش بسواده وسوئه قلبها (فهو في الأول والآخر أخوها)، ثم إنها معه في مركب واحد، بل لعله وحيد. وهو حتمًا سيغرقنا، لأن لا رجل يقف أمامه، بل ليس أمامه إلا أمه، آه أمه، أمنا نازلي، ملكة العصر والأوان، الملكة الأم التي فرت من نجلها المعظم المفدَّى، جنينها ومجنونها الذي صار ملكًا بعدما مات الرجل الذي كان يشكمها ويلجمها، عائلة المساكين الملكية. جرحته أمه كما جرحتنا جميعًا، حين صاحبت أحمد حسنين باشا معلم ابنها ورئيس ديوان قصره. هو رجل كان خبيثًا ألعُبانًا أفعوانًا الله يرحمه، وأسقط أمها في شركه، بعد أن أطلق موت أبيهم سراحها من السجن الحريري، زنزانةمن ذهب صنعها لهاالسيد الوالد ملك مصر والسودان فؤاد، الذي صار فؤاد الأول بعد ما المحروس أخي أنجب من النكدة البلهاء ناريمان فؤاد آخر .

من فكفؤاد الأول، إلى انفكاكوالد فؤاد الثاني، أحست أمها أنها تفقد ما يمنحه لها تاج الملكة الأم من صولجان، فلا هي تتحكم في ابنها المطلوق بلا لجام، يجري وراء شبحه، ولا هي ترتع في الحياة بهجةً، تأخذ ثأرها من روح زوجها صاحب زنزانتها وسجانها. ها هي هجت من مصر كلها، وأخذت في يدها فايقة وفتحية. أما فايقة فلعلها الآن ترفلفي فستانها الأبيض الدانتيل، وعقد الماس يحيط بعنقها، وشعرها مصفف بطريقة هوليوودية، ممسكة بيد زوجها فؤاد صادق في سهرة في ليالي هلسنكي البيضاء، حيث لا تغيب الشمس أبدًا. لقد سافرت للدورة الأولمبيةلاعبة لا أميرة،

لكنها كانت قد عادت منذ عام متخليةعن أمها،خوفًا من حرمانها من ثروتها كما هددها فاروق. كرت خانعة، والتمست منه الغفران والرحمة وعودة الإرث والأطيان والقصور والأسهم والحاشية، فرق لها قلبه، بل الحق أنها أرضت غروره حين خافت منه وارتعدت من غضبه حين تزوجت رجلًا من عامة الشعب التقطته من قنصلية مملكة أخيها في سان فرانسيسكو، بل تزوجت منه بعقد مدني تحت رعاية أمها، ثم عادت ومثلت منحنية تلثم يدي أخيها بعد أربع سنوات من الإمساك بذيل فستان أمها من إيطاليا إلى فرنسا إلى سويسرا إلى أمريكا، وعادت لتتزوج فؤاد صادق نفسه بعد الرضا الملكي، على سنة الله ورسوله، بعقد كتبه وكيل أزهر أخيها الملك. نجت بأموالها، لكن لم تنجُ مما ينتظرنا جميعًا على يد أخيها الذي لم يتورَّع أن يأمر صحفه ومجلاته وكلاب حراسته بالنهش في عرض أمه الملكة، عقابًا لها على تحديه، وإصرارها على زواج فتحية من هذا الفسل الكريه رياض غالي، نعم هو عيل تافه، أول صعيدي «جوكولو» تقريبًا في الدنيا، ومؤكد أن إشهار إسلامه لا يمنع أنه مسيحي منقوش الصليب على قفص صدره. لكن أليس هذا كله بسبب هذا الأخ البدين الذي يدخل الآن كأكبر بطة بيضاء في أسرة محمد علي، يصافحنا ونُقبِّل يده، وهو الابن الذي أباح لنفسه أن ينزل متجولًا حول أسوارقصر عابدين، يرى الشارات والعبارات التي سمع من خاصته الخلصاء أن الحرس الملكي يزيلها من مطلع الفجرعن الجدران؟ هرع فنزل ليرى ما المكتوب. كانت العبارات بخط كبير متقن وعريض وأسود في بعضه وأحمر في بعضه الآخر: «فاروق ابن العاهرة». فإذا بابن نازلي التي هي العاهرة المعنية، يأمر بعدم إزالة الشعارات، ولتظل الكتابات على الحوائط على مرأى من الرائحين الغادين. هل هو يعاقب أمه، أم نفسه، أم أنه مازوخي يعذب نفسه بأمه؟

تنهدت الأميرة فايزة (نجت فايقة إذن بسفرها من حضور حفل فخامة التعاسة)وهي تتأمل أفراد الفرقة الموسيقية المتأنقين مخلصين إخلاص فرقة سفينة «تيتانك» الموسيقية، يعزفون لحنًا بلا راقصين، في حفل البهاء الباهت. تتجول بنظراتها الضجرة في المصابيح المتوهجة المعلَّقة فوق الأعمدة الرخامية، وأقواس الشرفة المنقوشة والمذهبة، والتراس الفسيح الذي تنتظم فيه الموائد الممدودة بالفرش الملكية، وطواقم الخزف الإيطالي والسيفر المرسوم عليها التاج الملكي، والملاعق والشوك والسكاكين الذهبية، والشموع في أحواض الزجاج الملفوف الملون، والستائر المخملية المسدلة عند بعض النوافذ الزجاجية، والأخرى المرفوعة عن الزجاج الشفاف الذي يكشف منظر البحر الهادئ الذي يصل موجه حتى أسوار القصر فيضرب لحن «فالس» سكندريًّا
.

تاقت للعودة إلى رحلة الصيد التي كانت على متنها فجر اليوم مع زوجها محمد علي رؤوف (تضحك في سرها، فهي تعرف أن رفقاءهم والطبقة العلوية كلها تسميه «محمد علي خروف»): الرملة البيضاء، وصيد الجمبري ومخلوقات البحر الأزرق الملونة، وهذا القارب الشراعي المكشوف ذو الصواري . طبعًا لم يكن معها فاروق، فهو كان غاطسًا في الرمل أو في البحر مع ناهد وصيفة زوجته، كسولًا على الشاطئ، أكسل حتى من أن يخون زوجته مع وصيفتها. فايزة شخصيًّا لا تطيق أساسًا أن تخرج معه في رحلة، فهو قادر على إفسادها في أي لحظة بطلب أو جملة أو مسلك غريب من غرائبه! يعذبهم كما كانت تضبطه يعذب القطط في حديقة القصر ويخنقها ثم يجري مبتعدًا عنها كأنه لم يرها، وكأن أحدًا لا يراه! مسكينة تلك القطط ذات الأصول النبيلة والسلالات النادرة والجنسيات المتعددة القادمة على متن سفن وبواخر ملوك وسفراء، هدايا

للأمير الوديع! أليس جديرًا ببلاط هذا القصر أن يجلبوا من حواري عابدين قططًا لقيطة تفدي قطط الحسب والنسب من مصيرها المفجوع؟ كلما رأت قطة في القصر تجري في الحديقة أو تقفز سلمًا رخاميًّا أو تختبئ عند جذع شجرة، أشفقت عليها من مطاردة صبي سيكون ملكًا، فهربت الهِرر من الهِر فاروق .
كانت تطل من حافة المركب، فترى أسرابًا من الأسماك الصغيرة تلون الماء بضوء متوهج مغمور تحت الزبد الأبيض الذي يرفعه الموج ويهبط به، مطلقًا فقاعات بيضاء تقفز منها الأسماك، كأنما فضولها يدفعها إلى التلصص على مركب الأميرة التي تضحك في صخب عندما يسحب «جوجو نعوم» ابن الحاخام الأكبر سمكة جمبري طويلة وثخينة فينافسه قصب سنارة «الماركيز دي بيرينات» وقد تعلق بها جمبري أكبر. الطهاة انتهوا من إعداد مائدة الجمبري والكافيار مع كؤوس الشمبانيا على ظهر مركب في فجر يوم تحوَّل ليله إلى حفل كئيب، دعا فيه فاروق عائلته الملكية بمناسبة تعيين صهره وزيرًا للحربية
حطت على الحفل غمامة غمٍّ تلاحظها على وجه الملك، وقد عاد بظهره إلى الخلف في مقعده الوثير المرتفع، وقد اقترب منه سائقه حلمي حسين الذي يحمل رتبة الأميرالاي العسكرية (يا خيبتك يا إسماعيل يا زوج أختي! أوزير حربية على هؤلاء؟!)، وهو يهمس للملك بشيء تحركت معه عنق فاروق، ونفر من كتف زوجته التي كاد يلامسها، ثم سرعان ما يهرول رئيس الحرس الملكي شخصيًّا ليتطفل على حفل عائلي فيزيده كآبة على كآبته المكتفية بذاتها. هناك شيء ما مقلق ألقى عدواه في الحفل، حتى إن إسماعيل شيرين ذهب مستأذنًا الملك ليغادر الحفل مع رئيس الحرس الملكي، ليغيب لحظات ثم يقفل راجعًا، والسائق الأميرالاي لا يكف عن الثرثرة في أذن مليكه
لم تصدق نفسها الآن وهي تشفق على أخيها، وتتبدد كل أبخرة الحنق عليه، عندما لاحظت رعشة يده وهو قابض على كأس المياه الغازية، فهو حتى لا يحتسي خمرًا ترخي أعصابه أو تهدئ روعه في لحظات مثل تلك التي تلف أنشوطتها على عنقه. يبدو أن المسألة فعلًا معقدة، فإسماعيل شيرين يدخل هلعًا، ثم الملك يقف جزعًا، يصطنع ابتسامة باردة وهو يرفع كأسه تجاه إسماعيل شيرين وفوزية :
- مبروك يا إسماعيل .
مبروك على أي شيء تقريبًا يا جلالة أخي الملك، وإسماعيل شاحب الوجه، وأنت مهتز الكلمات، ونحن نتلقى إشارة بانتهاء الحفل؟ !
نظرت إلى زوجها، وقالت له :
- روح شوف ماذا يجري !
لا راح ولا شاف، فقد انفضوا جميعًا من شرفة القصر كأنهم غطسوا مع الجمبري، وقد اسودت الرمال البيضاء !
*

ولج إسماعيل شيرين إلى القاعة التي جلس فيها الملك فاروقعلى مقعد خشبي محشو بحاشية من الحرير، ومُطعَّم بأرابيسك، وينتهي مسنده الخشبي المبطن بالقطيفة العجمية بقرص من العاج على هيئة التاج الملكي، لكنه بدا منكمشًا، عكر المزاج، وهو يرفع رأسه تجاه شيرين الذي لم يصدق مرتضى المراغي وقد أنهى مكالمته الهاتفية منذ لحظات وهو يخبره بأن الملك أمر بتجهيز يخت

«المحروسة»! هو وزير حربيته منذ أربع وعشرين ساعة فقط، لكن أليس هذا أمرًا يستدعي أن يعرفه؟ لقد تواصل سائقه الأميرالاي حسين إذن مع اللواء جلال علوبة قائد البحرية من خلف ظهر حيدر قائد الجيش وظهري !
أغلق إسماعيل شيرين أسئلةعقله حين سمعت أذناه رئيس الحرس الملكي أحمد كامل يتلو شيئًا كأنه برقية أو تقرير أو بلاغ، وقد طلب منه فاروق أن يعيد ما قاله ثانية :
ـ الأميرالاي طيار صالح محمود اتصل بعامل التحويلة في مطار مصر الجديدة، وطلب توصيله على وجه السرعة بضابط الحرس الملكي في قصر القبة !
ـ ثم؟
ـ أخطر الطيار ضابطنا في القصر بأن هناك مجموعات من الجيش تتحرك للانقلاب ضد الحكم هذه الليلة، وترجَّى من القصر أن يتخذ احتياطاته وإجراءاته اللازمة فورًا للقضاء على هؤلاء المتمردين !
تعثرت الكلمات الآن معلَّقة على لسان إسماعيل شيرين :
ـ إذن، ما كان يحذرنا المراغي منه طوال النهار صحيح !
رفع فاروق رأسه نحو شيرين مستنكرًا كلامه، ومنكرًا عليه تصديقه لمثل هذه الأخبار. وتعجرفت حروفه وهو يخاطبه :
ـ وأين كنت طوال النهار؟
رد راميًا عن كاهله أي مسؤولية (فهل سيعتبرني مسؤولًا؟ !):
ـ كنت في رحلة صيد .
أضاف محمد حسن خادم الملك الذي هب دون توقع، وصاح دون صراخ :
ـ يبدو أن الأمر جلل يا مولاي !
صفعهم فاروق جميعًا بضحكة مقهقهة متهكمة ومتدحرجة من الطبقة العليا للحنجرة :
ـ مش معقول الكلام ده! الجيش في جيبي !
ثم أضاف ربما كي يطمئنوا هم لا هو :
ـ على كل حال اتصلوا بحيدر وحسين فريد، وبلغوني إيه الحكاية بالضبط .
كانت الحكاية بالضبط قد وصلت الملك صباحًا، فأمر أمينه الخاص بالاتصال بوزير الداخلية مرتضى المراغي الذي رد مجهدًا ومرهقًا ومستقيلًا، لكنه فوجئ بأمين الملك يتحدث بصوت هادئ واثق :
ـ البلد هادئ، ولم يحصل سفك دماء، وهي حركة محدودة أعلنت ولاءها لجلالة الملك، وقد تكرم واستجاب بتعيين حكومة جديدة، وكل ذلك بحكمة مولانا، ونشكرك على جهدك وحكمتك أيضًا .
أجاب مرتضى المراغي :
ـ أشكرك .
ثم ضغط على أسنانه ليلجم انفجار كلماته من فمه :
ـ أرجو أن تبلغ مولانا أن مرتضى المراغي يودعه ويقول له مع السلامة !
أحس المراغي لحظتها بصوت سعال، فأدرك للتوِّ أن الملك معهما على الخط .
رد الأمين مرتبكًا :
ـ ماذا تقصد؟

أجاب المراغي قاطعًا :
ـ لا أظن أن الأمر قد انتهى. والوضع لم يهدأ !
كان صوت الملك يأتيه من سماعة التلفون حانقًا غليظًا مكتومًا من وراء صوت أنفاس أمينه الخاص :
ـ قل له إن هذا كذب! كذب! كل هذا كذب !
تحشرج صوت الأمين الخاص، وقال بأداء بالَغ في أن يكون مهذبًا وهادئًا :
ـ أظن هذا الكلام مبالغ فيه يا باشا !
لحظتها ارتفع صوت الملك واضحًا منفعلًا وغاضبًا :
ـ قل له يا ابن الكلب إن هذا كذب !

7

كأنه يخوض عباب رؤيا ملهمة داخل حلم صافٍ في نومة هادئة. أحس محمد نجيب نفسه معلقًا بين أرض وسحاب، وليس جالسًا في مقعد العربة الجيب العسكرية المكشوفة التي لم يبرد حشوها الجلدي من دفء جلسة القائد العام الذي أقاله منذ ساعات. فوقه سماء القاهرة، وقد سطع نهارها على غير ليلها وليله، حين كان محمومًا بالتوتر والترقب، (وليكن صريحًا مع ذاته) كان مرتجفًا رجفة الخوف ورجيف القلق، حتى رن التلفون الأسود، فرنت الدنيا جرسًا لمصر (وله).

ها هو الآن يتمجلس في المقعد الخلفي للسيارة المكشوفة. القائمقام أحمد شوقي، الرتبة التالية له في القيادة الآن قائد القاهرة، يقعد بجوار الجندي سائق السيارة، بينما تتقدمه عربات الجيش ومدرعاته، وتصحبه خلفه عدة عربات أخرى أثقل وأبطأ تحمل جنودًا، وتبرز منها أذرع ببنادق وفوهات مدافع، وعساكر وضباط يقفون على حواجز السيارات الناتئة، بينما عدد من الموتوسيكلات يسوقها جنود تندفع بأصواتها الصاخبة، وأبواقها الزاعقة، وباحتكاكات عجلاتها في الأسفلت، وبانحناءات والتفاتات تتحوط وتستعرض، تطوقه يمينًا وشمالًا، وتُشكِّل مقدمة موكب وجناحي قافلة تعلن عزة الجيش الجديدة، تنخر شارع الملكة، وتدخل إلى شارع عماد الدين ثم باب اللوق، إلى شارع الشريفين إلى ميدان الإسماعيلية .

يتأمل نجيب الرؤوس التي تطل من الشرفات، تقف على بوابات العمائر، تخرج على عتبات البيوت والمحلات، والسيارات القليلة التي تقف أو تتنحى أو تهدئ من سرعتها. الواقفون عند محطات الأتوبيس يتواثبون، يتثبتون، يتطلعون، يتسمرون، يستغربون. لوَّح لهم نجيب، فكأنما كان إذنًا لهم بالتعبير. رأى في السير الذي أراده بطيئًا وسائحًا في شوارع كثيرة، تلويحات أيدٍ فرحة، وثبات أجساد تختلس النظر والطلة، وابتسامات تمر أمام عينيه، ربما شفاهًا مفتوحة تتكلم أو تفغر دهشتها أو تهتف مؤيدة، لعلهم جميعًا سمعوا بيان الجيش ممهورًا باسمه في الإذاعة، لا يكف عن الإلحاح على مسامعهم منذ السابعة والنصف صباحًا، فعرفوا أن جديدًا قد جد

جاءت أصوات الطائرات مدوية تخرق السماء، قريبة تحلق فوق الموكب في خطفة طائر، ثم تعود لتشق طريقها إلى أعلى. عدها نجيب وهو مزهو بما فعلته من إلقاء الرهبة فوق رؤوس البلد كله، تعلن قوة الجيش الذي امتلك البلد أرضًا وسماءً. كان قد عرف من البغدادي وحسن إبراهيم عندما وصلا إلى مبنى القيادة مع الشفق، أن السيطرة باتت كاملة على القاعدة الجوية في ألماظة، وأنه مع بهاء النهار ستطير الطائرات لتعلن انضمام الجو لدبابات البر. تأخر سلاح الطيران جدًّا، ولم يشارك ليلًا في الخطة المرسومة، لكنه يطير بها الآن صباحًا في سماء القاهرة

بقي البحر الذي لا يزال في إسكندرية الملك، وعلوبة بحَّار بحريته ويخته. لكن الشعب رغم جنازير الدبابات أو زئير الطائرات (أو ربما بسببهما) ما صدق، ففرح وتهلل وأيَّد والتف حول أجهزة الراديو في البيوت والمقاهي والمحلات والشوارع يبارك بركة الحركة. أخبره بهذا أولاده (أولاده في الجيش، فلم يكن حتى قد اتصل بأولاده في البيت. صغار هم لا يستوعبون ما يريد لهم أن يستوعبوه، وعائشة زوجته يكفيها للغاية أنها اطمأنت أنه بخير وليس سجينًا. طيبة عائشة جدًّا، لا هي فزعت لما يفعل، ولا هي انبهرت بما فعل)، هؤلاء الأفراد الذين لقيهم في طريق موكبه، تغمرهم السعادة. إذن فقد جاءهم اللواء المنتظر ليظهر فيُطهِّر. أهذه صيحات وهتافات باسمه؟

عاش نجيب أم عاش الجيش أم ماذا بالضبط؟ استحى أن يسأل أحمد شوقي الذي كان مشرئبًا بعنقه، ويديرها بين حين وآخر مبتسمًا له ويومئ بالرضا، ثم يعود فيأمر هذا أو ذاك من الضباط بالتحرك من هنا أو الدخول إلى هناك

أخذ الفرح براحه حين لمح باعة الصحف بجلابيبهم القصيرة يعدون بمحاذاة الموكب، وهم يرفعون جريدة «المصري» في صفحتها الأولى. كانت هي الجريدة الوحيدة التي طُبعت في وقت متأخر، وجرؤت على نشر عناوين حركة الجيش، زاهية بنبأ سبأ العظيم، وبشيء ما من معاني البيان الذي كان معدًّا للإذاعة. عندما جاءته نسخة تداولتها أيدي الضباط في غرفة القيادة في بكارة الصبح اطمأن فؤاده، لأن «المصري» ستقود كعادتها الصحف خلفها، فهي الجريدة ذات الولاء للوفد، الحزب صاحب الشعبية، وللزعيم مصطفى النحاس، زعيم الأمة. ها هي تتجاسر وتسبق وتنشر، وقد تردد الآخرون أو تمهلوا أو فاتهم السبق أو ينتظرون السوق من أحد، فكأنها تبارك ما حصل، وتدعو أو تدفع لما قد يحصل. وها هي حارةٌ، حرارة أحمد أبو الفتح صاحبها ورئيس تحريرها الذي كان مفتاحًا لكل ما جرى بالأمس، فلعله قد أراد أن يتم دوره، وأن يدير هذا المفتاح في باب التغيير حتى آخره، فهو الذي أخبر صهره ثروت عكاشة بتسرب سر الحركة للملك، فقرر جمال الانقضاض خشية الانفضاض

كان جمال هو من أشار عليه أن ينزل للناس. بين التجهيز للموكب وإتمام الأوامر اختلس نجيب لحظة، نزع خلالها ورقة الأسماء الثمانية من دفترها البُني، وطواها ووضعها في جيبه، ونزل مصحوبًا بالرفقة الحفية على درجات السلم من مبنى القيادة، فعانقته نسائم الصباح وطزاجة أنفاس النهار، فأعتقتاه من دخان غليونهوسجائر الضباط الذي أعمى الغرفة ضبابًا طوال الليل الذي آن له أن يقصر .

لم يكن نجيب، ولا أحد منهم، يعرف شيئًا عن الخطوة التالية، وطبعًا لا لأين، ولا من يخطوها، ولا متى

ها هو البيان يأتيهم من الإذاعة مكررًا ومؤكدًا بعدما ألقاه أنور السادات وعاد إلى مبنى القيادة، وقد تولى إعادة تلاوته ضباط مجهولون لنجيب، كانوا أسوأ مما تحتمل أذناه. شخط في الهواء، فهو لا يملك أن يشخط في أحدهم (الآن على الأقل)، ثم إنه يجهل من المسؤول كي يشخط فيه، فقد تأذى من الضباط الذين احتلوا الإذاعة، وكل واحد فيهم يُلقي البيان بصوته النكير، وبقراءة تكسر اللغة، كأنهم قاموا بانقلاب ضد اللغة العربية وليس ضد الحكم !

ـ إما تبعدوا الراديو من المكتب عني، يا إما يقرأ البيان مذيعو الراديو

حتى خطوة ما بعد قراءة البيان ما عمل حسابها أحد، أو لم يبلغه أحد بحسابها، لكن هذه اللحظة التي حسمها جمال وهو يُعلِّق على سؤاله حول ماذا سنفعل (سمعها جمال «ماذا ستفعل» ولعله قالها كما سمعها جمال فعلًا):

ـ لازم حكومة الهلالي تمشي، ليس معقولًا أن نقوم بحركتنا ونقول للناس نطهر الجيش ولا نطهر الحكومة !

ابتسم نجيب وهو يرد ناظرًا بعينيه إلى حكيم الذي جلس بجواره يسنده عند السؤال :

ـ لكن حكومة الهلالي هي التي سبقتنابشعار التطهير .

كان كل ما يرددونه متحمسين لحظتها هو إعادة صياغة عاجلة وشفوية لما نشرته منشوراتهم الأخيرة، ومعها منشورات تنظيمات وجمعيات سرية كانت تملأ مصر قبل ساعات من ذلك النهار،

كأنما كان لكل شارع جمعية سياسية سرية، ولم يكن من هؤلاء الضباط الساكنين ثكنة القيادة من التقى أو رأى وزراء أو سياسيين من دوائر الحكم، سواء الوفد أو غيره، إلا لمامًا وقليلًا، وبعضهم في ذكريات بائسة. كان جُل ما يدركونه تمامًا وتفصيلًا هو شؤون الجيش، لهذا عندما نطق أحدهم (من بالتحديد لا أحد منهم ساعتها اهتم، ولا بعدها تذكَّر!) باسم علي ماهر، اتفقوا فورًا دون مناهدة ودون مناقشة :
ـ علي ماهر يُشكِّل الحكومة .
هل يوافق علي ماهر؟ ومن يُبلغ الملك بقرارهم؟
الثانية كانت أسهل. إن خال الملكة ناريمان، الطيار مصطفى صادق، لم يكف مُلحًّا عن الاتصال باللواء نجيب. ومستعينًا باسمه كصهر للملك وبرتبته العسكرية، نجح في إلحاحه، ورد عليه نجيب. كان قلق صادق واتصالاته اللحوحة المُريقة لكبريائه أمام عسكري التحويلات التلفونية، إنما بفعل ضغط من والدة الملكة أصيلة هانم كامل، السيدة التي دست أنفها (ثم رأسها كله) منذ سمعت نبأ الجيش، تحاول أن تنقذ عرش ابنتها بفضول وتطفل أم رؤوم على جيش سؤوم. كانت ملكة نحل شعرت بانفضاض ذكورها عنها، فدفعت خال الملكة للحديث مع اللواء نجيب، الذي أجابه بأن الجيش يريد علي ماهر رئيسًا للحكومة .
ـ يعني لو عمل كده الموضوع يخلص؟
سأل نجيب الذي التفت لمن حوله، واستقر بنظرته على جمال وهو يرفع السماعة عن أذنيه، ليتأكد جمال أنه
نفس السؤال الذي نقله إليهم نجيب، فأومأ جمال برأسه «أي نعم»، فعاد نجيب للسماعة، وأجاب خال ملكة بلا نحل :
ـ اعتبره خلص .
لم يخلص قطعًا، لكنه خلص من صادق، ومن إبلاغ الخبر الذي تكفلت الغرفة بنقله لكل من تنفس حول المكان. لكن من يُبلغ علي ماهر ويُقنعه؟
قال أنور السادات (إذ إن أحدًا منهم لا يعرفه، ولا التقاه، ولا يعرفون لا رقم تلفونه ولا عنوان بيته):
ـ بسيطة، نكلم إحسان عبد القدوس يروحله ويكلمه .
ـ وتروح معه
كانت الإضافة من جمال. كان إحسان قريبًا منهم جميعًا، فهو الصحفي صاحب الوسامة الناعمة الذي أمدوه بمعلومات عن صفقات أسلحة الجيش، فجعل منها حملة اشتهرت، وعلت باسمه، وغسلت اسم الجيش من أدران هزيمة فلسطين، حيث باتت هي المسؤولة عن هزيمة الجيش في فلسطين أمام العصابات الصهيونية، رغم أن رصاصة واحدة من تلك الصفقات لم تصل إلى الجبهة، حيث كانت الحرب قد انتهت والصفقات نفسها لم تتم، لكن إحسان من يومها صديقهم، يترددون على مكتبه، ويتسمعون منه أخبار الحكم والحكومات
ـ نكلم إحسان إذن
ـ إحسان هنا فعلًا خارج المكتب، يجلس مع بعض الصحفيين والضباط .
صار إحسان مسؤولًا الآن عن تكليف رئيس حكومة، وهو يصحب السادات إلى بيت الرجل في الجيزة، مصحوبًا بعربات من الجيش لزوم إضفاء طابع السرعة والحركة والجدية، فالساعات

تجري ولا يجب أن تسبقنا

حينها طلب جمال عبد الناصرمن نجيب أن ينزل ليتفقد الأحوال. وكان حكيم قد فهم الطلب أمرًا فابتسم. أدرك فورًا ما الذي يريده صديقهمن ركوب نجيب سيارة جيشه المكشوفة، والمضي في موكب يتجول في قاهرة فاروق. كان جمال عبد الناصرقد وضع علامة «صح» على أسماء الأماكن العامة التي تمت السيطرة عليها كلها في القاهرة، وقدمها إلى أحمد شوقي، طالبًا منه أن يعبر بموكب نجيب على معظم هذه الأماكن. ثم انتحى جمال عبد الناصرفي ركن من الغرفة مشيرًا لمن يقترب منه أن يبتعد، فيما عدا حكيم الذي دنا منه ولاصق كرسيه الذي جر معه سلك التلفون، وطلب من عسكري التحويلة أن يوصله برقم يحفظه جيميدون أن يتردد في أي رقم فيه، فلما جاءه الصوت قال بعد تحيات مقتضبة وإن كانت مبتسمة :

ـ محتاجين ناسكم الآن يا عشماوي .

ثم أكمل :

ـ مجرد أعداد محدودة، فنحن لا نضمن من الذي يمكن أن يتشجع بكم على ما لا نتوقعه. آه اللواء نجيب بيمر، وهذا مهم، عايزه يشوفهم وهوَّ راجع .

عندما أنهى المكالمة وقام بجهاز التلفون في يده حيث المكتب، كان يهمس لحكيم :

ـ كان هذا اتفاقنا، لكنهم كالعادة يتلكأون .

رد حكيم :

ـ لقد أخَّرت الحركة يومًا من أجل خاطر عيون الإخوان، لازم يفهموا هذه الحقيقة !

ـ إذا كان عليهم فيروحوا في ستين داهية، لا خاطر لعيونهم، وإن كنا سنحتاج نخزقها أكيد لما يفتحوها قوي! أنا كان يهمني ألا يتحججوا بأنني فاجأتهم، وألا يلعبوا بذيلهم الذي يستأهل القطع مع ضباطهم وصف ضباطهم في الجيش

ـ لم نكن في حاجة إلى ضابط واحد منهم

ـ ولا هم كانوا سيشاركون يا حكيم، لكن كان ممكن يخربوا تحركاتنا، بالذات صف الضباط، فهم منتشرون فيهم أكثر. الآن يتفضلوا وقد نجحنا يورونا شطارتهم .

ثم تنهَّد وأومأ برأسه فأحنى قامته الطويلة وهمس لحكيم حتى لامست شفتاه أرنبة أنفه :

ـ أنا عايز اللي يهتف ويصقف للعساكر في الشوارع، وليس أمامي غيرهم الآن !

*

كانا قد تحركا من غرفة رئيس الأركان إلى الغرفة المجاورة، وبعيني حكيم كان قد أمر ضباطًا بإخلاء الغرفة إلا منهما. المكان بات يشغي ضباطًا، كأنهم ينقسمون كخلايا الجسد، يزدحمون ويتخبطون ويتصايحون، الغريب أنهم لا يفعلون شيئًا، ولا يقررون أمرًا، إنهم يتلقون التعليمات وينقلون المعلومات، وقد استقبل ضباط التنظيمضباط القيادة وإداريي المبنى الذين وفدوا بجلبة الدهشة في مواعيد العمل، فأدوا التحيات العسكرية والسلامات المدنية لمن وجدوه من الضباط الذين حلوا محلهم وجلسوا على مكاتبهم، وتبادلوا الذكريات عن أيام المعسكرات وزمالة الدفعات، وهنأ ضباط الصباح ضباط الليل، وبعضهم انفعل فرحًا فبكى دمعًا، ولما انتهت تلك اللحظات قاد الضباط الجدد الضباط القدامى إلى السجن، كان اعتقالًا ودودًا وجماعيًّا، رحَّلوهم إلى الكلية الحربية التي صارت سجن الضباط المشكوك في ولائهم للحركة، حيث لا وقت للفرز ولا طاقة للاستجواب .

كانت صور الملك فاروق موزعة في الغرف والقاعات والممرات، بملابسه العسكرية البيضاء والسوداء، يمر عليها الجميع وينظر إليها البعض، لكنها في ذلك الوقت لم تكن إلا صورًا. القَسَم الذي أداه الضباط المنقلبون والضباط المعتقلون كان واحدًا: الله الملك الوطن. لكن الله وحده الذي يعلم ماذا سيكون مصير طرفي القَسَم الآخرَين: الملك والوطن، فهو علام الغيوب. أما هم جميعًا فكانوا ينتظرون خروج الأوامر من فم جمال، من وراء باب الغرفة التي انفرد فيها بحكيم، بينما تركوا البغدادي وزكريا وإبراهيم وحدهم، وذهب خالد محيي الدين مع ثروت عكاشة إلى مكانهما الأثير حيث سلاح الفرسان على بُعد أمتار

أشعل حكيم سيجارة جمال الخمسين في هذه الليلة أو ذلك الصباح، فلم يعد يتبين الوقت من فرط ما بلعه الزمن في الأحداث والتفاصيل. ألقى جمال بظهره على أريكة صغيرة، وزادت سرعات سحب دخان السيجارة، بينما أنهى حكيم فنجان القهوة الذي توقف عن عد عدده، وطرقعلى المائدة وهو يقول :

ـ سأغلق النور والشبابيك وأتركك لتغفو وترتاح قليلًا، فأنت لم تنم !

دعت لهجته الحنونةجمال إلى الابتسام الراضي :

ـ ما إنت كمان لم تنم يا حكيم ومحتاج راحة !

ضحك حكيم :

ـ شفت نجيب لم يتوقف عن القلق والسؤال: هل يمكن أن يفعل الإنجليز شيئًا؟ هل ممكن يهاجموا القاهرة؟

ـ ليس نجيب فقط، الكل يسأل السؤال نفسه .

عاد حكيم وقال بحب وإعجاب أراد أن يصلا إلى صديقه الممدد على الأريكة فيربتان عليه :

ـ كلهم يملكون أسئلة يا جمال، وأنت وحدك الذي تملك الإجابة .

كان جمال واثقًا حين انفرد بعلي صبري أن الرسالة وصلت، وأنها متبادلة وأكيدة. كانت ورقة الخطة التي وضعها جمال، التي لا تفارقه وتكاد تلتصق بقلبه. إنها غير تلك التي خطها حكيم وقرأها زكريا منذ أربع وعشرين ساعة معتقدًا مع الآخرين أنها وحدها الخطة، وهي مجرد تحركات عسكرية وتحريك لقطع وحصار لمقرات وقبض على شخصيات، وهي لم تملك فعلًا من فرص نجاحها، كما أكد لهم جمال، أكثر من عشرين في المائة بل ربما أقل كثيرًا. لكن الخطة التي كانت لا تملك أي نسبة من نجاح وهي وحدها شرط النجاح، هي الخطة التي كانت منه وله وحده. طبعًا حكيم يعرفها لأنه يعرفه، أو يعرف أنها موجودة لأنه يعرف أن جمال يملك ما لا يملكه الآخرون. كتب جمال في كراسته التي يحتفظ بها في شقته، وقد سهر عليها ليالي، وفكر فيها أعوامًا :

ينضم لك الجيش، يؤيدك الشعب، يستسلم لك الملك، لا يمنعك الإنجليز، يباركك الأمريكان .

كانت تلك العناوين، أما التفاصيل فمنمنمات كثيرات خطها وعدلها وفصلها وزودها وأنقصها وشطبها وصلحها وصححها كثيرًا

كان علي صبري وصديقه «إيفانز» هما رقم واحد في هذه الخطة. لا يزال يتذكر وهو مستغرق في مشاهدة أحداث الفيلم الأمريكي التي تجري أمامه على شاشة سينما «مترو»، وهو مأخوذ بسحر قاعة السينما المظلمة وإشعاعات الضوء القادمة من غرفة خلفية علوية، يسمع أحيانًا دوران بكرات الفيلم من داخلها . يحب هذه اللحظات التي يدفع فيها قروش التذكرة الورقية الخفيفة،

ويغادر شباك التذاكر الذي عادة ما تكون فتاة يونانية هي التي تقف فيه، ويتجول بنظراته فوق صور الفيلم المعلقة وراء زجاج نوافذ مثبتة في مدخل السينما، فيها الأبطال بقبعات الغرب الأمريكي وأحصنته، وتلك الممثلة الشقراء في قُبلتها الحارة مع البطل، تحت لافتة مكتوبة بالعربية هذا المساء، يقلب ورق الدعاية المصقول الذي يوزعونه كمجلات ملونة قبيل العرض، يجلس في ذات المقعد في كل مرة، مقعد على الممر في منتصف المسافة بين باب الدخول للصالة وباب الخروج الصغير المؤدي إلى شارع عدلي، شغفه بالسينما يجعله يأتي مرتين أو ثلاثًا كل أسبوع لمشاهدة الأفلام، يشاهد نفس الفيلم أحيانًا أكثر من مرة، لكن لا بد أن يكون حاضرًا في يوم بدء كل فيلم جديد. حكيم يحضر معه غالبًا مرة في الأسبوع، ونادرًا ما يأتي مع تحية، فهو يختار لها فيلمًا عربيًّا لو قرر اصطحابها معه إلى السينما، بينما يبقى هو مع فيلم «مترو» وحيدًا سعيدًا بتلك اللحظات التي تسحبه إلى حلم الشاشة الكبيرة. ليلتها، حين أضيئت أنوار الاستراحة بعد فيلم الكارتون وقبيل العرض الرئيسي، وجد هذا الشاب الأشقر ببدلة أنيقة وبلا طربوش على رأسه، يتقدم نحوه ويصافحه بعد أن تجاوز عددًا من المتفرجين والمتفرجات في الصف الأمامي ثم في الصف الذي يجلس فيه جمال :

ـ نحن نملك صديقًا مشتركًا؟

قالها بإنجليزيته الأمريكية، ففهم فورًا أنه «إيفانز» ضابط الاتصال في السفارة الأمريكية، وصديق علي صبري .

قابل ابتسامته بابتسام أقل وبرود أثقل، لا يريد أن يقتحمه بجلسة لم يحددها جمال، وبلقاء لم يطلبه، فهم أن «إيفانز» يريد أن يتحقق من كلام علي صبري، وهل هو فعلًا يتحدث باسم مجموعة من الضباط، هل هو فعلًا من ذلك التنظيم الذي تتراكم أمامه تقارير عنه، يرسلها للمخابرات الأمريكية ويتابعها مع مستر «كافري» السفير الأمريكي في القاهرة. هو يثق في علي صبري منذ كان في بعثة تدريبه في أمريكا، ولم يغب طبعًا عن متابعة زملاء «إيفانز» في القاهرة، لكن يريد أن يلتقي بالضابط الأهم وليس بهذا المندوب الصغير، يبغي معرفة المرسل لا أن يكتفي بالرسول. لكن كيف عرف «إيفانز» أن جمال هو الشخص المقصود؟ ومن أين عرف وجهه إن عرف اسمه؟ ثم كيف عرف أنه يرتاد سينما «مترو»، ويجلس دائمًا في مقعد يختاره بعناية مع عاملة التذاكر التي كادت تحفظ ملامح وجه هذا الشاب المصري الذي يبدو متحفظًا وصموتًا ولا يتثاقل عليها بكلمات غزل معتادة من الشبان المصريين، بل إنه لا يبتسم، صديقه الذي يتردد معه فقط هو من يبتسم ويتعامل معها كأنها عِشرة عُمر، بل يترك لها بقية سعر التذكرتين إكرامية لطيفة؟

كان جمال يتلفت بحثًا عن وجوه تعرفه، أو وجوه يجهلها، تتابع هذا الضابط الأمريكي وهو يجلس بجوار جمال وقد بدأ عرض الفيلم. وقد علَّق «إيفانز» على البطل في الفيلم الذي يطارد الهنود الحمر ويواجه الظلم بصيحات تأييد وتشجيع، وصفق أكثر من مرة، وحين انتهى الفيلم همس «إيفانز» لجمال وهو يحييه منصرفًا :

ـ هذه هي أمريكا عزيزي جمال، إن قام البطل بمواجهة الأشرار فهي تُعجب به وتؤيده ولا يمكن أن تكون إلا معه !

عنَّف جمال علي صبري في اليوم التالي، على هذا الاقتحام الذي قام به «إيفانز» له في السينما، وأقسم علي صبري أنه لم يكن يعرف أي شيء عنه، بل يجهل تمامًا حكاية أن البكباشي جمال كان يذهب إلى السينما. كان علي صبري أدنى رتبة وأقل عمرًا من جمال، وكان مأخوذًا به، ومجندًا

على يديه، وتحت إمرته في التنظيم، فما كان له أن يكذب. ثم إن «إيفانز» بما قاله، أكد ما كان صبري ينقله بدقة من اجتماعاته مع «إيفانز» في جلسات صحبة أو سهرات في أماكن عامة أو لقاءات تحت غطاء العمل العسكري التنسيقي. كان يتكلم بوضوح عن وضوح الأمريكان في يأسهم من فاروق. لكن جمال قبل ساعات من الحركة طلب من صبري اللقاء الفوري بـ«إيفانز» حتى لو تطلب الأمر زيارته في السفارة :

ـ أولًا تخبره عن أننا سنتحرك وغدًا. ثانيًا أن تطلب منه إبلاغ إنجلتراأن الضباط مشغولون بالجيش فقط، ولا ينوون استفزاز الإنجليز، ولا حاجة لهم للقلق. ثالثًا أنه لو فشلنا نريد تدخُّل الأمريكان بعلاقتهم الجيدة مع كل الأطراف حتى لا يُنكل بالضباط وأُسرهم، مع استعداد الضباط كلهم للموت في سبيل بلادهم إذا لم يكن هناك بُد من الموت .

كانت إجابة «إيفانز» قد ترجمها صبري في اليوم نفسه :

ـ توكلوا على الله .

ضحك جمال، وقال لصبري :

ـ هل «إيفانز» الأمريكي قال توكلوا على الله؟ !

رد صبري الضحكة بضحكات :

ـ هو يعرف العربية، فلماذا لا يقولها؟ ومع ذلك فأنا مسؤول عن صياغة الترجمة .

سأله جمال بجدية تنم عن خطورة السؤال وخطر الإجابة :

ـ طيب وصاحبك الأعور، ماذا سيفعل؟

8

انفتحت البوابة بأيدي الجنود المتقافزين، وضرب البروجي عاليًا، والعلم الأخضر فوق صاري السيارة العسكرية المكشوفة، يطل منها رأس اللواء نجيب، وتباطأت العربات في مقدمة موكبه، وتوزَّعت الموتوسيكلات المصاحبة عن يمينه وشماله، وتوقفت العربات الثقيلة الضخمة الملأى بالجنود عند مداخل الشوارع وحول أسوار الكلية الحربية التي دخلها الآن القائد العام الطازج بهيبة ساخنة بنار الفرن. ترجَّل نجيب وهو يرفع يده بتحية ترد على التحايا والاندفاعات الفرحة المرحة التي تطاوحت حوله من أحمد أنور، الضابط الذي قدَّم نفسه بصفته الجديدة، مدير البوليس الحربي، مكلَّفًا من جمال عبد الناصر بمهمة إدارة سجن الضباط والقيادات التي اعتقلتها قوات الحركة من كل الأسلحة .

كان أحمد أنور متطاووسًا وهو يمشي، موسولينيًّا وهو يتكلم، وقد عاد من مبنى قيادة الجيش بعد أن انقض على يد جمال عبد الناصر فقبضعلى كفه وقبَّلها دامعًا متأثرًا، ضربت فرحة الحدث أوتار قلبه حتى أذهلت الانحناءة والقُبلة عبد الناصر نفسهفأضحكته مستغربًا، فنفض كفه من قبضتَي وشفتَي أحمد أنور، وسط تكالب الضباط المهنئين، وربت على كتفه وكلَّفه برئاسة البوليس الحربي، خلفًا لحسن عبد الوهاب الذي أخبرهم ليلًا أنه سيكون مع من يفوز، لكن الفائز قرر ألَّا تكون معه يا حسن !

حين أسرع أحمد أنور مندفعًا بدفعة مشجعة من كف عبد الحكيم على ظهره، ناداه عبد الناصر :

ـ لما يصل اللواء حسين عامر عندك السجن بلغني .

لم يكونوا قد قبضوا عليه بعد، كأنما فر أو اختفى، لكن لن يتركوه حرًّا، صحيح أنهم عرفوا منذحلف إسماعيل شيرين اليمين وزيرًا للحربية في حكومة الهلالي أن حسين عامر لم يعد خطرًا، لكنه لا يزال عدوًّا .

تأمل نجيب مبتسمًا أحمد أنور. لم ينزعج من أنه لم يعينه، بل إنه لا يعرفه، وربما صادفه ضمن عشرات الوجوه التي قيل له إنهم الضباط الأحرار، هو أصلًا يجهل عددهم وبالطبع أسماءهم، ومن المؤكد وجوههم، ولا يعرف منهم إلا تلك الأسماء التي زارته مع جمال أو عرَّفه بهم حكيم. كان أبويًّا للغاية في تلك الساعات مع أي قبعة عسكرية، ثمة دفء وامتنان لمن فعلوا ما لم يجرؤ على فعله أحد: حركوا الدبابات والمدرعات لإعلان الغضب والاحتجاج على ما يموج في بلدهم من ظلم. رافقوه عند المدخل المؤدي إلى المبنى الرئيسي وسط ساحات الكلية المترامية التي تتوزع فيها عدة مبانٍ تشمل مساكن الضباط وعنابر الطلبة، وقد كان الوقت صيفًا والإجازة مفتوحة، فكانت الكلية مكانًا مناسبًا وصالحًا لأن يكون سجنًا في ساعات محدودة، فالعنابر صارت زنازين، والأسرَّة والدواليب موجودة، والشبابيك عالية، والأبراج منصوبة، والأسوار محروسة، ثم إن أي مبنى وإن كان قصرًا يمكن أن يتحول سجنًا متى شاء السجان

التفت نجيب، وأبى الصعود إلى مكتب قائد الكلية، بل أشار بيده نحو المباني الأخرى :

ـ أين السادة الضباط المحتجزون؟

لم يجد أحمد أنور مشكلة في أن القائد يريد أن يتفقد سجناءه، لكن فجأة ظهر إسماعيل فريد بوجه جاد، وأقبل مهرولًا، وعظَّم لنجيب، وعرَّفه بنفسه :

- إسماعيل فريد يا أفندم، ياور سيادتك .
يعرف إسماعيل، فقد كان أول وجه يستقبله بالأمس، وركب معه سيارة الدخول الظافر لمبنى القيادة، لكنه تفاجأ سعيدًا بتعيين ياور له، ولم ينشغل قطعًا بمن عينه، فهو جمال عبد الناصرولا شك، ثم إن إسماعيل من ضباط التنظيم .
- أريد مقابلة السادة الضباط المعتقلين يا إسماعيل
لم يجب إسماعيل، فلا يملك جوابًا، لكن أجاب أحمد أنور متبرمًا من إسماعيل متوددًا إلى نجيب :
- تمام يا أفندم .
سبقه إلى مدخل مبنى، يقف في حراسته عدد من العساكر خلف مدفع وفوقمدرعة شدت من نجيب نظرة استغراب، لكنه اعتبر ذلك تأهبًا يليق بالموقف. حين ولجوا أمامه وخلفه إلى الممر الطويل الواسع الموزع على جانبيه أبواب الغرف، ووقف الجنود انتباهًا أمام كل غرفة، وإن كان بعضها مفتوح الأبواب، مكشوفًا جلوس أو نومة من فيها، وجد أحمد أنور يشير إليه بالدخول إلى غرفة بدت أوسع، وحراسها أكثر، وبابها مفتوح على مصراعيه، فلما استجاب ودخل وجد اللواء حسين فريد رئيس الأركان أول رأس مقطوف من حركة الضباط. أعطى نجيب التحية للواء الأقدم، والذي كان رئيسه حتى ليلة الأمس، وصافحه بحرارة، والغريب أنهما تعانقا بلطف ومودة جعلا الحشد المرصوص وراء نجيب يتراجع، كأنما خافوا من هبوب حرارة عاطفة اللواءين في وجوههم. كانت الغرفة نظيفة ومرتبة، وحسين فريد لا يزال بذات بذلة ليلته الطويلة. وجلس نجيب على المقعد الوحيد في الغرفة، وهو يأخذ في يده فريد للجلوس على السرير أمامه :
- جئت أطمئن عليك وأُطمئنك .
- على نفسي أم على البلد أم عليكم يا نجيب؟
- لا، البلد اطمئن تمامًا، فهذا وضع لم يكن هناك مفر منه يا سيادة اللواء .
- إنتم ناويين على إيه؟
- كل خير .
- ألا تقلق مما قد يفعله الإنجليز؟
- تفتكر سيفعلون شيئًا؟
- لا أظن، لكن خُوفي ترجع هوجة عرابي وتوفيق، ونلاقي نفسنا مرة أخرى وجنود الإنجليز في ثكنات قصر النيل !
ربت نجيب على فخذه :
- أنا أقدر قلقك على البلد، لكن اطمئن .
- على نفسي؟
- طبعًا، وعلى كل الضباط هنا، هذا إجراء طارئ لحساسية الظروف، وكلها أيام إن لم تكن ساعات وتخرج من هنا .
- إلى أين؟
نهض نجيب من جلسته ضاحكًا :
- إلى بيتك، أو إذا شئت أكملت صيفك في الإسكندرية للراحة والاستجمام .
أحس حسين فريد صدق نجيب من وجهه وليس من كلامه، ومن يعلم؟ قد يكون صادقًا فعلًا

حين خرج، والضباط المكدسون حوله في الغرفة تسحبوا سريعًا معه، نادى عليه حسين فريد وقال :
ـ ألن تزور شقيقك؟ إنه في الزنزانة .
صحح كلمته بعدما وثق أنها خرجت كاملة، وأضاف :
ـ في الغرفة المجاورة لي .
أومأ نجيب، ونظر إلى أحمد أنور وهما يخرجان من الغرفة إلى الممر، فأشار له أنور ناحية باب الغرفة التي هلع العسكري للإشارة ففتحها، فدخلها نجيب، ولما همَّ الضباط بمصاحبته منعتهم كف وذراع إسماعيل فريد مستخدمًا صلاحية كونه ياور القائد لأول مرة
دخل نجيب، فوقف شقيقه اللواء علي نجيب قائد منطقة القاهرة، لكنهما لم يتبادلا التحية العسكرية ولا الأحضان، كانت غصة ما في حلق علي، وخجل ما في عينَي محمد
ـ كيف حالك يا علي؟
لم يستطع علي أن ينسى أن شقيقه كذب عليه من أربع وعشرين ساعة، ونايمه وغافله وأوقعه في شرك أن يكون هنا، محبوسًا بين يديه، وعلى يد تلاميذه ومرؤوسيه، ومُداس الكبرياء .
أكمل نجيب سؤاله دون انتظار إجابة أخيه :
ـ طمِّني على صحتك !
ثم جلس هو على السرير، حيث كانت الغرفة تطابق الغرفة الأخرى في كل شيء، لكنه تنبه إلى أنها غرف سكن الضباط، ويبدو أن مكانة اللواءات دفعت المنقلبين عليهم إلى احترام ما تقدم من أقدميتهم .
ـ كان لا بد من أن الجيش يتصرف يا علي، ولم أكن أستطيع أن أتخلى عن أولادي أو أذيع سرهم !
صمت علي متفهمًا أو مرغمًا على التفهم، بينما واصل شقيقه :
ـ ثم كان من الجائز جدًّا أن أكون أنا نزيل هذه الغرفة وليس أنت، لو كنا تأخرنا .
قام من جلسته حتى لا يظن الضباط أنه خص شقيقه بشيء، وصافحه وتعانقا الآن، وهو يهمس في أذنه :
ـ على الأقل أنا كان ممكن يعدموني لو قبضوا عليَّ، بينما أنت ستعود إلى بيتك خلال ساعات أو أيام !
قال علي بنبرة دفء الأخ الذي يناشد قلب أخيه :
ـ أنا خايف على مصر !
ـ وأنا كذلك
تعجب كلاهما، فأيهما من خوفه على مصر سوف ينقذها؟ ولم يكن متاحًا لكليهما أن يسأل مصر ساعتها ممَّتخاف هي أصلًا !
خرج نجيب، وصاحبه الجمع كله إلى الغرف التالية، فصافح وقبَّل وعانق وطمأن وصرَّح وصارح ووزَّع ابتساماته الطيبة بصوته الأجش الخالي من الصرامة. كان وجهه يشبه عسكري هجانة، وصوته يشبه صوت شيخ طريقة، وأداؤه يشبه شيخ بلد، فأحبه السجناء والسجانون .
لكنه حين همَّ بالعودة، سمع صوت اللواء عبد الرحمن مكي الذي اعتقله يوسف صديق في ربع الساعة الأول من الانقلاب، سائلًا، تحمل لهجته تهكمًا لم يحاول إخفاءه :

ـ أليس غريبًا يا لواء نجيب أن تسجنوا كل قيادات الجيش ما عدا قائد الجيش نفسه؟ هل الفريق حيدر معاكم؟
كان سؤالًا وجيهًا باغت محمد نجيب، فهو نفسه لا يملك أي إجابة عن السؤال، وقد تمدد الآن في عقله: لماذا لم يفكر جمال عبد الناصر في اعتقال حيدر باشا؟ ولماذا لم يسمع عنه شيئًا ولا حسًّا؟ سوف يسأل جمال حين يعود، أو ربما يسأل عبد الحكيم عامر، فإن حيدر خاله. هل يقبض نجيب على شقيقه، بينما يعفو حكيم عن خاله؟! ثم هل غاب عن خاله قائد الجيش أن ابن أخته يقود انقلابًا مع صحبه ضده؟ وهل يمكن أن نطهر الجيش بدون أن نطهره من خال عبد الحكيم عامر؟ !
*

أحس أنور السادات أنه يشاهد الفيلم الثالث، بل يعيشه. كان الفيلمان في حفل سينما «الروضة» يمران بأحداثهما وصورهما وأبطالهما أمامه منذ ليلة الأمس، ولم يكن يعرف أن ساعات تفصله عن فيلم ثالث تتبدل فيه خيول رعاة البقر بدبابات ومدرعات وعربات جيب تتحرك في مقدمة الكادر، ويحتشد حولها الجنود بقبعات كاكية بدلًا من قبعات القش الأمريكية. منذ أذاع بيان الثورة بصوته في الإذاعة وهو مشبع بالهدوء، كل مشاعر التوتر والقلق والترقب هبطت أسفل قلبه، ربما عند المعدة، قد ينفثها دخان السجائر التي يدخنها في السيارة الآن بجواره إحسان عبد القدوس في طريقهما لمقابلة علي ماهر. يحاول إحسان أن يقوم بدور الصحفي، فمن لحظة ركوبهما السيارة لا يكف عن الأسئلة، طبعًا بصياغته الرقيقة التي تشبه حد الموس، إن استسلمت لرقتها جرحتك، وبطريقته الهادئة الموزونة التي كان يتحدث بها معه حين كان يزوره في مجلته على مدى السنوات الماضية. طبعًا تبدلت المقاعد، رغم أنهما الآن متجاوران على أريكة السيارة، فلم يعد هو ذلك الضابط المفصول الذي يمد إحسان بحكايات الجيش، ويشتكي بطالته، ويغري كل حواسه الصحفية بروايته عن عملية اغتيال أمين عثمان، ويأخذ رأيه في مقالات نشرها في صحف ومجلات، ويطلب نصيحة الأستاذ الناجح، بل صار أحد قادة تنظيم قلب مصر في أربع وعشرين ساعة .
كان إحسان الآن يحادث الرجل الذي ألقى بيان انقلاب يكاد يزلزل الأسفلت تحت عجلات سيارتهما، بل يتوجه إلى سياسي من رجالات الحكم ليكلفه بتشكيل حكومة جديدة. لهذا كان إحسان أكثر تواضعًا وأرق توددًا، ويحوم حوله بالأسئلة. لا يستطيع السادات أنيجيبه، بل يلف به ومعه، ويدوران حول بعضهما، ليس لأنه لا يبوح بأسرار، بل لأنه لا يعرفها. إحسان يسأل: وماذا بعد؟ لكن السادات لا يملك إلا ما قبل، لقد لحق بالليلة في آخرها، لا أمر فرقة بالتحرك، ولا قاد مدرعات للاقتحام، ولا خطب في جنود، ولا اعتقل لواءات وقادة، بل كان في السينما مع زوجته جيهان يستمتع بهواء الساحة المكشوفة وبسحر الشاشة البيضاء، وذراع جيهان المشبوكة في كتفه .
صحيح أنه أتى على عجل من رفح لعلمه أن الحركة قد تكون بين يوم وليلة، لكنه لم يدرك أن جمال حدد الموعد أبكر مما اعتقد، وأنه مر عليه مرتين في بيته وترك خبرًا له بالقدوم .
تعلم من سنوات السجن والمطاردات والملاحقات، ومن استجوابات رئيس البوليس المخصوص السياسي إبراهيم إمام، أن يحتفظ بأعصابه في جيبه وتحت ضرسه، فلا يتعصب ولا يتوتر، ولا يترك لأي شخص أن يكشف خبيئة روحه، ثم الزنزانة ولياليها تدربك على «نيرفانا» التحليق في السقف أو التحديق في قضبان الشباك العالي الضيق، ساعات من الصمت تبرد كل السخونة التي تلهب عقلك

في السينما ودع قلقه عند شباك التذاكر، وقرر أن يستسلم لتلك اللحظات الوديعة مع هذه الشابة البيضاء التي يغني لها أغاني فريد الأطرش، متعشقًا مغرمًا، ويعتبرها هدية الله له على تحمل شظف وسخف الحياة. زوجته الأولى لم تكن ترفع قلبه من مكانه أبدًا وتسير به عبر أصابعها تتجول في كيانه كله كما تفعل جيهان. رفق به القدر حين عاد ضابطًا في الخدمة بوساطة يوسف رشاد طبيب الملك وصديقه. نعم، انضم للحرس الحديدي الذي شكله الملك بقيادة يوسف رشاد، ولماذا لا؟ ألم يكن هذا كله لخدمة ما حدث الليلة؟ ألم يكن جمال يعرف كل خطواته وبات عينًا على ملك وقصر لخاطر تنظيم يهدم القصر على رأسملكه؟ كانت الشكوك تحيط به دومًا من زملائه، حتى أعضاء الهيئة التي تقود التنظيم، بل إنهم رفضوا انضمامه، لكن جمال أرغمهم، جمالأذكاهم لدرجة أنه جمع عددًا لا بأس به من أنصاف العقول حوله، ضامنًا ولاءهم قبل وطنيتهم، الوحيد الذي يفهم في السياسة بينهم جمال (بعده طبعًا)، لكن السادات يرتضي المقعد الخلفي تواضعًا يعتبرونه خفوتًا، لكن جمال حين اختار صوتًا للحركة والجيش اختار أشهر ضباط مصر لشعب مصر، أليس هو (مع اللواء نجيب) أكثر الأسماء ذيوعًا بين عناصر الجيش وجمهور الوطن؟ أليس هو الوجه الوحيد الذي تحفظه العيون داخل الجيش والبلد منذ براءته في قضية اغتيال أمين عثمان التي تداولتها المحاكم والصحافة شهورًا بصورته وأقواله ومنبريته وراء قفص المحاكم؟ لهذا، حين وصل متأخرًا في الثالثة صباحًا، ووجد الحصار حول مبنى قيادة الجيش، لم يكن في حاجة إلى أن يعرف كلمة السر، فقد أوسع له الضباط والجنود ممرًّا ليمر، لم يسمحوا له بالدخول، لكن وافقوا على وقوفه، فإذا كانت هناك حركة وطنية في الجيش لهذه الليلة فلا بد أن أنور السادات فيها، رحبوا به، بل هنأوه، دون أن يعلموا حتى أنه معهم، عندها ناداه عبد الحكيم كي يدخل من بوابة المبنى (هل أنا الذي ناديته ليأمرهم بالسماح لي بالمرور أم هو الذي ناداني لما رآني؟)، ثم ها هم الناس سمعوا صوته من الإذاعة يقول «بني وطني»، صحيح أن بني وطنه يجهلون صوته، لكن الضباط في الإذاعة والمذيعين والدنيا كلها ستعرف أنه هو من ألقى البيان، فإن فشلت هذه الحركة وأجهضها فاروق بحركة خديوية توفيقية، فهو إلى أعواد المشنقة كما زهران دنشواي بطل طفولته وحكايات المصاطب والأجران وفوق الأفران في قريته .

أومأ برأسه مبتسمًا لإحسان، وهو يكاد يقول له لن تفلح في معرفة معلومات مني يا ابن البيوتات الهانئة، ليس لأنني لا أملكها (وهذا حق)، بل لأنني أعرف متى أصمت أكثر مما أعرف متى أتكلم، واسأل جمال عني

فكر إحسان أنه مقذوف به في قلب خبر كبير وحدث أكبر استهواه تمامًا، مع ضابط ممن قاموا بانقلاب منذ ساعات، وسيطًا بين الجيش وعلي ماهر. سيحاول أن يكون متواضعًا، فسبب وجوده هو أن السادات يعرفه

جيدًا، وأن إحسان يعرف عنوان بيت علي ماهر وعلي ماهر نفسه. لكن الأسئلة التي يحاول أن يدسها في انطباعاته وحكاياته للسادات الآن لا تفلح في أن تستنطق الرجل، أغلب الظن أنه بل إنهم جميعًا يجهلون الخطوة القادمة. رأى استثارتهم وصخبهم في مبنى أركان الجيش، وهمهم الكبير في أن يسيطروا على الكتائب وقيادات الأسلحة، ويطيحوا باللواءات عن مناصبهم، لكن أبعد من ذلك لم يفكروا، فهم كانوا محتارين حين قرروا إقالة حكومة الهلالي بمكالمة تلفون من يجلبونه مكانه، واسم علي ماهر هو أسبق الأسماء إلى ألسنتهم وليس إلى عقولهم، ثم ما كانوا يعرفون هل يوافق الرجل أم لا، فارتبكوا لما بدا أنه قد يرفض، فتحيروا في بديله، ولم يتفوهوا باسم واحد

آخر، بل قرروا التجول بالمكالمات التلفونية بين كل ضابط وأي معرفة منالسياسيين على رجال الدولة، يتشممون من فيهم قد يوافق على رئاسة حكومة يطلبها أو يفرضها الجيش. لكنه يوقن أن علي ماهر سيوافق، أما لماذا فلن يخبر أنور برأيه، فهو يحاول أن يبدو لامباليًا ولامهتمًّا .
إحسان واثق أن أنور السادات الجالس بجواره الآن سيكون بطلًا لرواية من رواياته، منذ جاءه في «روز اليوسف»، كأنما قفص المحكمة يحيطه أينما ذهب، وهو مدرك أن الرجل رواية قد تطول، لكن ماذا سيكون رد فعل علي ماهر أمام ضابط متهم باغتيال الوزير أمين عثمان وهو يدخل بيته؟ فعلي ماهر شقيق رئيس الوزراء الذي اغتالته رصاصات لا تختلف كثيرًا عن تلك التي شقت صدر أمين عثمان وقتلته !
أخبر الخادم مديد القامة، بردائه الأسود المميز، بقفازاته البيضاء النظيفة، ووجهه الأسمر المهذب، أنور السادات وإحسان عبد القدوس، بأن الباشا سيقابلهما حالًا، ثم سأل كليهما عن مشروبه، ومشى تاركًا عينَي السادات تتجولان في بهو القصر، ثم غرفة الاستقبال الوسيعة، والأسوار العالية، والأعمدة الرخامية، والستائر الحريرية، والثريات الضخمة المتدلية، والأرائك بالأطليةالذهبية، والمقاعد المبطنة بالقطيفة، والسجاجيد العجمية، والوسائد القطنيةالملفوفة الملونة وتتدلى منها خيوط مذهبة، واللوحات الهائلة المعلقة على الحوائط، والنوافذ المشرعة بدرفات من خشب مشربيات، وتلك الفسقية التي تنثر ماء مترقرقًا فوق صحن من فسيفساء البلاط الصغير المنمنم الملون، وتلك الفازات الطويلة والبيضاوية والدائرية، والورد المنتشر والزهر المنثور في الأركان والزوايا، والمائدة الطويلة الممدودة المكسوةبلوح زجاجي عريض ونقي يغطي خشبها البني. وإذا بعلي ماهر يدخل عليهما، بجسمه القصير، وشاربه المرسوم، وبدلته الصيفية البيضاء الأنيقة، ورابطة عنقه السوداء المحكمة، وابتسامة واسعة، وذراعين تتسعان لتؤكدا على رحابة الاستقبال، ويشير لهما بالجلوس، وقد تناول صندوق السجائر الصدفي، ودعاهما لالتقاط السجائر، وتشاغل كلٌّ منهم في إشعال سيجارته بأعواد الثقاب الطويلة من علبة عريضة حمراء. جاء السفرجي بردائه الطويل القشيب والمطرز، بفناجين الشاي فوق عربة الشاي الصغيرة مجرورة بعجلات تحدث صوتًا تتشارك فيه مع صكات أعواد الثقاب واشتعال دوائر لهب صغيرة تضيء أفواه السجائر بالحمرة المحروقة .
كان علي ماهر حريصًا جدًّا على الطقوس، أولًا كي يعرف هذا الضابط بزيه العسكري المبالغ في نظافته وأناقته، لمن جاء ومن الذي يزوره، وثانيًا كي يقدم للصحفي إحسان عبد القدوس عرضًا في الثبات والثقة أمام عرض له برئاسة الحكومة. هو لا يطمح إليها، فقد حقق كل ما يريد في حياته وأكثر، نعم هو لا ينسى غدر الملك فاروق الأخير حين جاء به إلى رئاسة الحكومة عقب إقالة النحاس باشا ووفده بعد حريق القاهرة لينقذ بلدًا يحترق، ثم إذا به يقيله بعد شهر، وبدأ فاروق لعبة تغيير الحكومات كل عدة أسابيع، كما لو أنها بدلات يختارها من صوان غرفة نومه، ثم يغير رأيه بعد أن يرتدي الجاكت، فيأتي بغيرها، يزهق منها قبل أن يزررها له خادمه محمد حسن، أقال كمن يقامر في نادي السيارات، هذا الملك الذي رباه على يديه، ووضعه على العرش منذ ستة عشر عامًا، وكان رئيس ديوانه وهو لا يزال صبيًّا غريرًا يتغنى الشعب باسمه ويلهج الناس بحبه بعد وفاة والده الملك المقيت، كانت مصر كلها عند أصابعه وجبة هنية على طبق ذهبي قدمها له علي ماهر بخبرته وحنكته ودهائه، فلا أحد مثله خبير بحكم هذا البلد، هو يعتبر نفسه كذلك ولا

يظن نفسه إلا كذلك، والدليل هؤلاء الضباط حين بحثوا عن منقذ، كما فاروق بالضبط بعد الحريق، لم يجدوا غيره
أنا علي ماهر، ظللت مستقلًا عن الأحزاب، لأصبح أقرب ما أكون منها، وأبعد ما أكون عنها، فلست أنا من يكون أقل وأدنى من مصطفى النحاس ليترأسني ويتزعمني، ولا أنا الأضحوكة التي يصنع لها فاروق حزبًا هشًّا لأرأسه، فيسخر مني الشعب، وأتماسخ وأتصاغر أمام السياسيين. حتى أخي الدكتور أحمد ماهر، على مهارته وبراعته، لم ينجُ من مخالب الوفد الذي كان سيدًا من ساداته، وانفصل وأنشأ الحزب السعدي، متخيلًا نفسه خليفة سعد زغلول الحقيقي، فتلاعب به الوفد، ولعب به الملك، وقتله الإخوان المتسربلون بثياب الحزب الوطني. مسكين أخي، مساكين جميعًا، كلهم يذوبون وينتهي دورهم لأنهم قبلوا به. بينما هو رئيسًا للديوان الملكي أو رئيسًا للحكومة، يظل لاعبًا يصنع ملعبه لنفسه، بل قواعد لعبه لا تستسلم لقواعد الآخرين. حتى عندما نفوه خارج القاهرة، واحتجزوه في عزبته، ومنعوه من التحرك لأن هواه ألماني وولاؤه للنازي، وحقد عليه الإنجليز وسلطوا عليه النحاس، انهزم الألمان لكنه لم ينهزم، كسب الوفد لكن علي ماهر لم يخسر. ثم ها هو جيش فاروق الذي يقسم ضباطه بالولاء له، يفعلون به ما فعله الجيش الإنجليزي بدباباته، يرغمونه على تعيين رئيس حكومة، الإنجليز أمروا بالنحاس، وجيش مصر يأمر بعلي ماهر. هل هذه المرة رئيس حكومة مؤقت لوقت معلوم وحرج، جسر يعبر عليه كلاهما، الجيش والملك، أم أنها مرة ثابتة طويلة تصنع له فرصته التي كلما لاحت وباحت خبت وخابت، فرصة أن يكون الرئيس الملك، فهو الأنفع للبلد، والأصلح للحكم، والأنصح للملك، والأعقل للجيش، لكن ماذا لو نجح الملك غدًا في خرق صفوفهم أو تداخل الإنجليز وتدخلوا؟ أما أن ينجح الملك فجائز جدًّا، أما أن يتدخل الإنجليز فلا أظن، من المستحيل أن يكون هؤلاء الضباط الشبان، بمن فيهم نجيب، قد فعلوها دون أن يدركوا أن الإنجليز لم يعد يعنيهم هذا الملك الأخرق الصبي الذي يرفض أن يكبر
ـ هل نسمع رأيك يا باشا؟
قالها أنور السادات، بينما علي ماهر يطرد صورة أمين عثمان الغارق في دمائه (وشقيقه أحمد ماهر المضرج بالدم)، وكلاهما على سلالم ودرجات عمارة ما من مخيلته، رد :
ـ لا أستطيع أن أخذل جيش بلادي .
ـ عظيم
ـ لكن، لي شرط
صمت السادات، وترقب إحسان، وسط الأدخنة الدائرة في الهواء . صوَّب علي ماهر سهمه نحو السادات :
ـ بل شرطان .
نفث السادات دخانه كثيفًا، فالرجل لم يقل شرطه الأول أصلًا حتى يشترط الثاني! لكن صمته الصبور أجاب علي ماهر بالرضا عن شرطيه المجهولين، وآن له أن يتفضل ويقولهما :
ـ أن يأتي التكليف برئاسة الحكومة من جلالة الملك .
أومأ السادات، وفهم إحسان فورًا أن علي ماهر لا يريد مغاضبة الملك ولا المقامرة مع مقامر، ولا يريد أن يضفي على حركة الجيش شرعية لا تملكها، السهم مدهش في دقته يا ماهر باشا
قال السادات :

ـ لا بأس، هذا أمر طبيعي .
ثم أضاف :
ـ والثاني؟
ـ أن أكون حرًّا في التشكيل تمامًا .
رد السادات بثقة كاملة :
ـ بلا ذرة تردد.. نعم .
بعد قليل، كان علي ماهر يرد على تلفون من قصر المنتزه يبلغه فيه رئيس الديوان باستقالة حكومة نجيب الهلالي، وأن جلالة الملك تكرم بتكليفه بتشكيل الحكومة الجديدة
«كان عمر حكومة الهلالي يومًا واحدًا، فماذا يا ترى سيكون عمر حكومتي؟». قالها لنفسه وهو يطلب رقم
التلفون الذي أعطاه له أنور السادات. سمع رنة التلفون، ثم رُفعت السماعة بكلمة «أيوه ».
ـ من معي؟
ـ اللواء محمد نجيب .
ـ أهلًا يا سيادة اللواء. أنا علي ماهر
رد نجيب :
ـ مبروك يا معالي دولة رئيس الوزراء .
أدرك علي ماهر أن خبر التكليف وصل الجيش قبل أن يصله :
ـ أنا مسافر باكر للتشرف بالمثول أمام جلالة الملك .
قال نجيب بعد لحظة صمت سمع فيها همهمات بجانبه :
ـ سأمر على دولتكم صباحًا يا باشا .
كان جمال عبد الناصر لحظتها قد وضع أمام نجيب ورقة بالأسماء السبعة، فتحسس نجيب جيبه الذي يطوي ورقة بالأسماء الثمانية

9

جلس محمد نجيب خلف ميكروفون الإذاعة العريض القصير، المثبت على مائدة مستطيلة داخل حجرة، حائطها الرابع من زجاج كاشف لما وراءه من مائدة يجلس عليها عدد من الفنيين المختصين في الهندسة الإذاعية. بينما مدير الإذاعة ووجوه عرف فيها ضباط التنظيم المسؤولين عن احتلال الإذاعة الذي جرى فجر اليوم، ينتصبون في اهتمام وانشغال بنظرات متقافزة بين الفرحة والتوتر، يتابعون القائد العام للجيش وهو يخاطب لأول مرة الشعب المصري بصوته، وفي تسجيل حي مباشر، فيسمعون من الرجل الذي سمعوا عنه، بل الآن حتمًا ولا بد أن الملك فاروق المعلَّق في هذه الرقعة من مملكته صورةً على حائط يسمع الآنصوت جيشه يبخ نارًا أو يفح سمًّا في أذنيه. تحمس نجيب للغته وإلقائه ومخارج ألفاظه، رغم أنه يجهل تحديدًا من كتب هذا الكلام الذي يقرأه. ياوره المفاجئ ومدير مكتبه الطازج إسماعيل فريد هو من أبلغه أن الضباط الأحرار يطلبون منه إذاعة بيان للشعب بنفسه، طبعًا فهم أنه جمال من طلب، لكن من كتب فليس مهمًّا، فالسطور ذات خط نسخ جميل وواضح، مما يظن أن خطاط الإذاعة هو الذي تصدى لمهمة نقل ما جاءه من قيادة الجيش، لكن قلب نجيب كان ينبض كما لحظة ركضه تحت إطلاق الرصاص خلفه وحوله في فلسطين، حيث نالته إحداها فأسقطته وأزحفته، فكان يسمع دقات قلبه تنتفض بنبض جلل. أحكم بأصابعه كابه العسكري الذي لم يخلعه لا هو ولا بذلته منذ ليل الأمس، فتعبأ من حر الصيف ورطوبة الجو وعرق المشاوير ورائحة التوتر وأدخنة السجائر وذرات الرمل وتربيتات الأيدي وعناقات الأجساد المهنئة والمبتهجة والمحفزة. هل يمكن أن تباغته نباهة إسماعيل فريد ويجده قد جهز له في مكتبه بذلة أخرى؟

أحب هذه العبارة، فهي الوحيدة التي كتبها، كانت مطلع البيان الاستهلالي الندائي: «إخواني أبناء وادي النيل»، كانت أحب إليه من «بني وطني» التي بدأوا بها بيان الحركة صباح الأمس. ذِكر النيل ورائحة السودان في أي جملة أو عبارة يطبطب على قلبه، ويبهج روحه، ويعيد له طفولته وشبابه مع والده يوسف نجيب الضابط المصري في السودان. ثم هذه الجملة «يحيا وادي النيل» التي يرددها منذ كان طالبًا في الثانوية في الخرطوم مع أمه زهرة بنت المحلة الكبرى التي تسودَن قلبهامنذ جاءت مع والدها، جده الضابط بالجيش المصري بالسودان أيضًا. سيسأل عبد الناصر عن موقف الضباط في السودان من الانقلاب، هل لدينا هناك أعضاء من الضباط الأحرار يا جمال؟ كيف نسي أن يسأله؟ !

لشد ما يسرني أن أتحدث إليكم، مع ما أحتمله في هذه اللحظات من مسؤوليات جسام لا تخفى عليكم .

هو مسرور قطعًا، بل لم يكن مسرورًا مثل هذه اللحظة. لقد استسلم فاروق للأولى حيث عينت نفسي قائدًا للجيش فرضخ، وللثانية فأقال ملبيًا حكومة الهلالي كما قلنا، والثالثة كلف متلهفًا علي ماهر كما أردنا، إنه يُفرط في رفع الرايات البيضاء حتى يبدو أنه لا ألوان لرايات أخرى لديه لكن نجيب حرص على أن يضع خطوطًا بنبرة حنجرته تحت جمل وكلمات :

فقد حرصت على أن أُحدثكم بنفسي .

حاول أن تأتي «بنفسي» مثقلة بأكبر حمولة من التواضع وإنكار الذات

لأقضي على ما ينشره خصومكم وخصوم الوطن من شائعات مغرضة حقيرة
اتخذت لهجة الصوت طبقة من الغلظة حين نطق «خصوم الوطن»، نعم فأي خصم لنا الآن خصم للوطن، فبالله عليكم نخرج واضعين رؤوسنا على أكفنا لتطهير مصر من مباذلها، والوادي من مفاسده، ولا يكون خصمًا إلا خصمًا للوطن
لما قرأ في النص قبل أن يذيعه كلمة «حقيرة» بعد «مغرضة»، أخذته خضة، لكنه رآها وصفًا عاديًّا للغاية، ليس فيه ما يسيء في نطقه ومنطقه، فهي حقيرة فعلًا وما في ذلك إلا الصراحة. لم يعرف بالضبط ما الشائعات التي خرجت خلال الساعات الفائتة التي قضاها تجوُّلًا وتفقدًا واستعراضًا فجعلها مغرضة وحقيرة أيضًا. ربما يسمع جمال وصحبه شائعات لم تبلغني، لكن أكثر ما ساءني هو زعم هذه الشائعات المغرضة طبعًا والحقيرة قطعًا أننا نسعى للسيطرة على الحكم. لهذا تجلى صوت تينور أوبرالي في العبارات التالية في البيان :
لقد أعلنا من البداية أغراض حركتنا التي باركتموها من أول لحظة، ذلك لأنكم لم تجدوا فيها ظلمًا لشخص، ولا كسبًا لفرد، بل إننا ننشد الإصلاح والتطهير في الجيش وفي جميع مرافق البلاد، ورفع راية الدستور .
كان صادقًا وهو يقول هذه العباراتصدقًا يمكن أن تستورد منه الدنيا كلها صدقًا لوفرته وجودته .من أين عرف أن الشعب بارك هذه الحركة من أول لحظة؟ أليست هذه الوجوه التي حيته وهللت له في موكبه في شوارع القاهرة ترسل تبريكاتها إليه؟ لم يرَ خلال الساعات الفائتة من الضباط والجنود وعابري الشوارع وموظفي الإذاعة إلا حبًّا وحبورًا، صحيح أنه بالأمس الأول كان الهدف هو تطهير الجيش، وقبل أن يكتمل اليومان التاليان أضيف الإصلاح والتطهير لكل مرافق البلاد، لكنه ظل على العهد برفع راية الدستور التي مزقها الملك حين عبث به وحين عطله .
حين خرج نجيب بعد إلقاء البيان، كان راضيًا قريرًا وهو يصافح رجال الإذاعة، مبتسمًا وحانيًا ومتلطفًا بكلمة مداعبة، لا هو فهم ما يقوله ولا من سمعه تبينها، بينما رضي الاثنان عنها، فهو اللواء نجيب يخص شخصًا يجهل كنهه بود وابتسامة وكلمة مميزة، فينقلها هذا عن ذاك لذلك، فعلها مع مندوبي الصحف الذين تكالبوا عليه وهو يردهم بيده مبتسمًا كأب يمنع أطفاله من إلحاح طلب العيدية، فهو سيعطيها لهم بعد أن يقبلوه في وجنتيه :
ـ بالراحة عليَّ، حلمكم عليَّ يا حملة الأقلام وشهود الحقيقة .
يتشجعون فيلحون على الاقتراب والدنو، فيدفع أحدَهم ضابطٌ من حراسه فيوبخه نجيب بيده، ويمسك بيده الأخرى مندوب الصحيفة المبعد فيقربه إلى حضنه ويعده :
ـ أنا بابي، وقلبي قبل بابي، مفتوح لكم جميعًا، لكن هذه لحظات الفعل لا القول .
يتأثر المندوب وزملاؤه، فيرقون ويتهللون وينقلون من فم لأذن، هذه المآثر اللطيفة للِّواء الأب الذي عانق عجوزًا على باب الإذاعة، وصافح مواطنًا فكهانيًّا على الرصيف وسأله: «هل البطيخ عندك حمار وحلاوة؟». يا للهول! تواضعه ورقته وهو ينهر حراسه عن مدافعة الجمهور المتجمع على باب الإذاعة في شارع الشريفين، يركب سيارته يحيي النسوة المتجمعات في شرفات العمائر بالشارع، ويلوح بعصاه التي لم يفلتها من يده للهواء يحمل نسائم عصر جديد. همس إسماعيل فريد في أذنه وهو يستقر على مقعدته في أريكة السيارة بأن البوليس الحربي اعتقل مصطفى وعلي أمين

كان في ظهيرة هذا اليوم في محطة السكة الحديد، يصاحبه جمال عبد الناصر، ويصحبان علي ماهر حتى باب قطاره المتوجه إلى الإسكندرية للمثول أمام الملك. منذ زاره في داره بالجيزة، وحتى أوصله إلى باب الحديد، وعلي ماهر نمر يثب فوق صفيح ساخن. كان يحب علي ماهر، ولكن ليس كمصطفى النحاس، فهو لم يصعد ليكون نحاسًا، ولكنه أيضًا لم يهبط ليكون حسين عامر. وكان يحترم علي ماهر، ليس لأنه مثال في النقاء، بل مثال في تجنب الوحل. لكن جمال عبد الناصر حين دنا من علي ماهر وتدلى، أدركأن علي ماهر أضأل مما توقَّع، وأصغر مما ظن، إنه يهفو للمنصب الرفيع، بل هو لا يزال يعتقد أصلًا أنه منصب رفيع. ولعله حتى الآن وهو يسأل نجيب، لم يلاحظني، ولم يفطن إطلاقًا لتلك النظرة التي ينظر إليَّ بها نجيب قبل أن يجيب، ولا لتقديمه لي أمام الرجل، ولا للوقفة المساوية المحاذية بيني وبين نجيب، ولا للضباط من حولنا يتوجهون لي ويسمعون مني ونجيب يومئ برأسه لعيني، لم ينتبه من يرى نفسه صاحب مقام رفيع للمقامات التي تحاوره، فكيف به رجل دولة! والله ما أودى البلد في داهية إلا أن يكون علي ماهر أحسن رجال الدولة المتاحين أمامهم في هذه الليلة المتعجلة! كان جمال قد حدد موعد الحركة في أغسطس، ليفرض على الملك عودة الحياة النيابية وإجراء انتخابات ومجيء الوفد لزعامة الأمة هذه المرة بدبابات المصريين وليس الإنجليز، لكن الخطة تغيرت وتبدلت، وها هو هدفها الآن وهو يلتقي بعلي ماهر يتغير أيضًا وحتمًا .

علي ماهر إذن وهو يهم بركوب القطار، وقد ظن وجود نجيب معه تكريمًا لا استعراضًا لقوة الضباط وحركتهم، يسأل نجيب :

ـ إنتو ناويين توصلوا الدنيا فين؟

ضحك نجيب مقهقهًا بطيبته الساذجة، وقال له :

ـ لغاية ما تبقى أول رئيس للجمهورية .

كيف ضربها نجيب بهذه البراعة التي دغدغت علي ماهر وكادت ترمي به من القطار؟ لقد تعثرت أفكاره في قدميه، وتلخبط فلم يعد يقدر على تحديد بوصلة هؤلاء الضباط، وهو الذي يظن نفسه داهية من دواهي مصر! هل اكتفى الضباط بما فعلوا؟ أم أن نجيب حين يتحدث عن جمهورية، وعني رئيسًا لها، فهو هزل في موضع الجد، أو شفرة في رسالة؟ هل سيطيحون بالملك والملكية؟ ولماذا إذن أذهب إلى الإسكندرية أقابل ملكًا كنت أول من استقبلته ملكًا ومطلوب مني أن أكون آخر من يودعه ملكًا؟

مضى القطار في رأس علي ماهر قبل أن يمضي على قضبانه، ويده تقبض على ورقة الأسماء الستة التي كانت سبعةالتي أعطاها له نجيب، كأنها التعويذة التي ستنقذ المومياء، أو التي ستنفث من المقبرة لعنة الفراعنة، فراعنة محمد علي !

*

اندفع الجنود على باب القيادة بضرب بروجي القائد، ودخل نجيب بسيارته غير المسقوفةالساحة المكشوفة، والتي غمرها ضوء بازغمن جهات عدة، وتوزعت فيها سيارات ومدرعات وصفوف جنود (تذكر يوسف صديق وهو يحكي له أن حراسة مبنى القيادةكانت سبعة جنود بخمس أو عشر طلقات، وهم المنوط بهم حراسة قادة جيشهم ... الغريب أنهم قاوموا). أسف نجيب، لكنه لم يأسف كثيرًا، ثم نسي أسفه بكثيره وبقليله على موت عشرة جنود في هذه الحركة التي صار لقبها «الحركة المباركة» منذ خرج من الإذاعة وتردد في بيانه: «حركتنا التي باركتموها». لكنه وهو

يصعد درجات السلم إلى مكتبه في القيادة، والضباط يتبعونه في الصعود، لم يعلق برأسه من بيانه إلا تلك العبارة التي وهجت في عقله: «بني وطني، اتجهوا بقلوبكم إلى الله العلي القدير وسيروا خلفنا إلى الأمام». كل ما يريده الآن أن يسير الناس خلفنا إلى الأمام، يحتمون بظهورنا درعًا وسندًا، ويسمعون ويطيعون ويثقون ويبقون صفًّا مرصوصًا خلفنا، فنحن سنسير بهم إلى الأمام، لكن من المهم أن يسير خلفي للأمام هؤلاء الضباط التسعة الذين قاموا بهذه الحركة، وها هو صوت أحدهم يضرب طبلة أذنه صخبًا، إنه جمال سالم، وحينها أبانت درفة الباب المفتوحة وجه أخيه صلاح سالم أيضًا. انقبض قلب نجيب رغم أن شفتيه انفرجتا عن ابتسامة !

10

كذَّب عينيه ثم لم يصدق أذنيه. الجلبة التي اقتحمت غرفة نومه، اختطفت روحه من سباتها دون أي مرور على مراحل الخروج اليومي المنظم المتدرج من النوم إلى اليقظة، بل فزع اضطربت له كل خلجات جسده الذي انتفخ غيظًا وانكتم كظمًا، من نور محمر خفيض من وناسة أنيقة على جانب الفراش إلى ضوء كثيف يعري الغرفة، فتظهر أشباح طوال عراض كأنها مصبوبة حول سريره، لم يقدر على أن يتقلب في فراشه، فرغم ضخامة جسده وطول قامته فإن الالتفافات والتقلبات على المرتبةضرورات ما قبل نزوله من فراشه، لكنها الفجاءة التي تقلعه من نظامه اليومي إلى فوضى ترمي عقله بالحجارة، كلما تفادى فكرة سوداء لاحقته الحجارة بفكرة أكثر سوادًا. أيحدث معه هذا وهو مصطفى أمين، الاسم الرنان في الصحافة والسياسة؟ أحقيقي ما يرى؟ لم يكن يومًا مناضلًا سياسيًّا (ولا يظن أنه سيكون)، ولم يكن قَطُّ ممن يراهن على حصان خاسر، بل هو الجوكي نفسه وصاحب السباق وصاحب السبق. لم يصل قَطُّ إلى حد أن تقبض عليه حكومة أو يعتقله القصر، لا يحرق جسوره، وحين يقتل سمعة أحد لا يترك أثرًا لبصمات أو بقعًا لدم. فكيف يقف هؤلاء الآن، متجهمين مهاجمين بوجوه كريهة وكارهة؛ ثمانية من الضباط بملابسهم الرسمية يرفعون بنادقهم ومسدساتهم ويشرعونها في وجهه ويكادون يخزقون بها عينيه؟ مسدس واحد كان يكفي لسحب دمه من عروقه، فلمَ كل هذه المسدسات والبنادق؟ يسمع فحيح أنفاسهم، وزمجرة تحت ضروسهم، أيادٍ تجذبه للنزول عن السرير، وأخرى تدفعه للوقوف، وقد ازدحمت بهم غرفة النوم (ترك زوجته في الإسكندرية تكمل صيفها وحضر بالأمس إلى القاهرة ليكون كعادته في فرنها السياسي يعجن ويخبز). بدأ وعيه الصحفي يتفوق على جزعه الإنساني، فيجمع في ذهنه ملاحظات سريعة، وهو يخلع مرتجًّا بيجامته، ويرتدي مرتبكًا بنطلونه وقميصه وحمالاته تحت عيونهم، إنهم بوليس حربي، وليسوا شرطة إطلاقًا، ليس من بينهم مخبرون مثلًا، ولا من يرتدي زيًّا مدنيًّا، متحفزون كأنهم يقومون بعمل وطني وليس أمنيًّا، يستغربون أثاث الغرفة، ويستعظمون ما فيها من مظاهر ترف لا يملكونه (ما لا يملكونه يعتبرونه ترفًا!). لن يجرؤ أحد على قرار اعتقاله ثم طريقة اعتقاله إلا وهو يملك أمرًا من أعلى مستوى في القيادة، محمد نجيب نفسه، لكن لماذا؟ كان لحظتها ينهي ارتداء حذائه بعد أن أحكم ربطة جوربيه بطوقي الأستك، وقام وهو يشد قامته، فبرز كرشه أمامه، فلمعت في ذهنه فكرة أراحته أن ثمة خطأ ما، أكيد، أم أنهم يخشون منه ومن جريدته «أخبار اليوم» الأشهر والأكثر توزيعًا والأزحم نجومًا، طبعًا سيقولون إنها جريدة القصر والسراي، ولكن من قال إنها لا يمكن أن تكون جريدة لغيره، ثم مالهم ومال القصر؟ ألم يقولوا إنهم جاءوا ليطهروا الجيش وفرضوا علي ماهر رئيسًا للحكومة؟ يبدو أنهم ينصبون فخًّا للملك، وهل سأمنع أنا الفخ أو أقدر على أن أرفع قدم أحد قبل أن تدوس على عنق فاروق؟ حاول بسرعة يا مصطفى أن تفك هذا اللغز؟ إنهم يقبضون ويعتقلون كبار قيادات الجيش، ولكنك لست قيادة في الجيش بالتأكيد، صحيح هذا يدفعك إلى الغرور عندما تجلس لتكتب مقالًا، أما الآن فهو يدفعك في ظهرك، عندما يحشرك بينهم الضباط الثمانية (عدد مبالغ فيه، لماذا ثمانية؟ لماذا أصلًا لم يطلبوني في التلفون فأحضر لهم بمنتهى البساطة؟).

حين خرج من الغرفة، ووجد توأمه علي أمين مكبلًا بأيدي ضباط آخرين، وعيناه تطقان قلقًا، وذوى اللمعان الشاهب في عينيه إلى انطفاء منكسر، أدرك الهدف من هذه الجلبة، في هذا التوقيت الذي تبين له، وهو يلبس ساعته ويحكم سوارها على معصمه، أنهالرابعة والنصف صباحًا، وهذا القشلاق من الضباط الذين ليسفيهم واحد بدون نجوم على كتافتيه، الهدف إذن هو الفضيحة، والإرهاب .هم يلقنوننا درسًا على غيار الريق في ثالث أيام انقلابهم، لكن لماذا؟ من قال إننا (أنا وأخي) يمكن أن نكون ضدهم؟
حين بدأت درجات السلم تتناقص أمامه في الطريق للخروج من عمارته، وقد وجد الجيران ذوي المناصب والمراتب في البلد، والسفرجية والسواقين والخادمات، يطلون ويزدحمون ويتابعون، فهم أنهم يخافون منه. من هم هؤلاء؟ إن سأل أخاه علي هذا السؤال فسيكون مشغولًا بالبحث عن سبب القبض عليهما، لكن مصطفى ينشغل بـ«مَن» وليس بـ«ماذا»! «ماذا» سهلة، لأننا (يا علي) سلاح، كما أحكموا قبضتهم على كل الأسلحة في الجيش، ولا بد أن يطمئنوا على سلاح الصحافة، ونحن لسنا سلاحًا عاديًّا، نحن كما يروجون سلاح القصر والإنجليز ثم الأمريكان، ألا يقولون علينا ذلك؟ يعتبرون العمل الصحفي القائم على المصالح بين كل الأطراف، ويعتقدون أن اللعب مع الجميع، هو لعب ضد الجميع، لذلك أنا وأنت يا علي ثوران أبيضان .
عندما أركبوهما العربات الجيب، وحشروهما بين أكتاف جنود في صندوق العربة، كان مصطفى أمين قد استعاد رباطة جأشه أمام نفسه وأمام أخيه. لست أنا كريم ثابت، ولا أنا أبو الخير نجيب (استغرب أن جاء أبو الخير نجيب تحديدًا في باله الآن، وابتسم رغمًا عنه لما تذكر جريدة «الجمهور المصري» لصاحبها ورئيس تحريرها أبو الخير نجيب، حين أعلنت عن مكافأة ألف جنيه لمن يقتل ضابطًا إنجليزيًّا). أمسك الفكرة في رأسه متشبثًا بالأمل الذي لم يره بعيدًا. نعم لن يستمر غضبهم تجاهي طويلًا عندما يعرفون ما يجهلونه، إنهم يتصورون «أخبار اليوم» صوت الملك وسوطه، لكن أليست هي من شنت حملات ضد القصر في الفترة الماضية؟ كان ملكًا محبوبًا، وهل ينكر أحد أنه كان كذلك في سنواته الأولى؟ نعم صدرت «أخبار اليوم» بعد سنوات حكمه بثماني سنوات، لكنه لم يكن قد بات ما صار عليه
كانت السيارات العسكرية تمرح في الطرق شبه الخالية في فجر القاهرة الجديد (عنوان يليق بمقال سيكتبه حين تنزاح هذه الغمة)، وهو يقول لنفسه إنه عندما يحققون معه فسيطمئنهم أن الإنجليز لن يتدخلوا لصالح الملك، إنه مصطفى أمين بصحافته وحرفته ودهائه وعلاقته سيمنح هؤلاء الضباط ما لن يمنحه لهم قلم من الأقلام التي كانت زاعقة ضد الملك (ابقوا شوفوا ماذا سيقدم لكم أبو الخير نجيب). عاد وابتسم حتى كاد يضحك، بينما يندهش علي أخوه من ملامح أخيه التي تلمع فيها انبساطات عابرة رغم الموقف الطين الذي توحلا فيه !
أومأمصطفى لأخيه، وطيف ابتسامة على شفتيه: اطمئن يا علي ولاتقلق، كل شيء سيتغير عندما يقول أخوك لهم ما عرفه من الضابط الأعور !
*

لعلع صوت صلاح سالم في غرفة الاجتماعات وهو يصرخ فيهم :
ـ القبض عليهم واجب وطني! مصطفى وعلي أمين رجال الملك وجزء من النظام الذي ثرنا عليه !
أما جمال سالم فقد شارك أخاه الصراخ :
ـ مفيش فايدة، الحل الوحيد من وجهة نظري هو إعدام عيال أمين !

منذ وصل الشقيقان جمال وصلاح سالم وهما يرتعان صخبًا وآراءً وأفكارًا في وجه جمال عبد الناصر، الذي كان يتلقى هذا الصخب بابتسامة بدت بعد ساعات من النقاش والجدل ملولة. وكان صبر عبد الحكيم وباله الطويل لا يجدان أي مشكلة في مد حبلَي الصبر والبال لهما. خالد محيي الدين كان يروح باله عنهما كثيرًا، لعل حالة ابنته المريضة التي كان يطمئن عليها كل فترة بالتلفون، وموعد بدء إيجار شقة المصيف الذي يحل صباحًا، جعلاه مشتتًا. الكلام كثير طويل مثرثر مسترسل عشوائي، أخذهم ساعات، يخلط بين الذكريات والحكايات والآراء التلقائية التي ترتمي على المائدة ثم يلمها أصحابها ثانية، والأفكار الفجائية والخطط العجائبية تضرب بعضها بعضًا في فضاء الغرفة. كمال الدين حسين كان يشارك لمامًا، ويذهب للوضوء والصلاة، فكأنما جمع الصلوات الخمس كلها في الساعات الخمس التي ظلوا يتباحثون فيها. بينما حسن إبراهيم حافَظ على درجة حماسه وهدوئه في الساعات كلها، كأنه يزنهما بكفتين طوال الوقت. أما زكريا محيي الدين فيدخل في النقاش عند النقاط التي تبدو مهمة، ويتجاهل غيرها منشغلًا بكتابة نقاط في ورق أمامه. أما عبد اللطيف البغدادي فقد بذل جهدًا كبيرًا ليحاول إعادة الحوار إلى نقطة محددة بديلًا عن التشتت، وحين ينجح يجرهم انفلات صلاح وجمال وانفعالهما على الصغيرة والكبيرة إلى شتات النقاط مرات أخرى. أما أنور السادات فقد كان يوافقهم جميعًا فيما يذهبون إليه، ويردد كلمة «صح» بعد أي جملة يقولها جمال، لم يفرط في الحديث، ولم يبالغ في الصمت، ولم يبخل في القهقهة حين يتجلى صلاح سالم بسباب، أو ينطر جمال سالم لعناته الموزعة بالعدل على كل من يأتي ذكره في الساعات التي طالت مع السجائر والدخان، مع ساندويتشات الفول والطعمية، مع فكات أربطة العنق، مع خلع جواكت البدل، مع فناجين القهوة وأكواب الشاي
التي تحوَّلتإلى منفضات للسجائر وسلات لعلب السجائر المطوية والمكرمشة .
لم يكن أحد منهم يتخيل ما يتناقشون فيه الآن، ولهذا ظلوا يناقشونه ألف مرة حتى يقتنعوا أن ما يفعلون علم فيواقع وليس حلمًا في منام. كانوا يقررون خلع الملك، وفي سياق النقاش دخل عشرون موضوعًا آخر، مع مائة مكالمة تلفونية، مع استعجال جمال عبد الناصرلهم لحسم الأمر قبل عودة نجيب من الإذاعة، وكانوا قد قطعوا حوارهم منذ قليل للاستماع إلى بيان نجيب .
لم يكن جمال سالم ولا أخوه صلاح قد شاركا بشيء ليلة الانقلاب أو الحركة المباركة كما وصفها نجيب، ففي قلبيهما شيء من غصة جعلتهما يكثران من الكلام، ويرفعان الأسقف، ويزايدان على الجميع. كان أحدهما في رفح، والثاني في العريش، ليلة الحركة، وجاءا على عجلٍ بعدما بات كل شيء تحت السيطرة، فإن لم يشاركا في الحركة فلا بد أن يشاركا في السيطرة
صلاح بنظارته السوداء التي لا يتخلى عنها أبدًا لرمد في عينيه، بين كل خمس كلمات يقولها يعود ليروي كيف سيطروا على القوات في العريش (لم تكن القوات هناك شيئًا مذكورًا، ودورها كان محدودًا، وأغلبها كان في الطريق إلى القاهرة، وهذا ما يعلمه كل زملائه، لكنهم آثروا إرضاءه بالموافقة على خطورة ما فعل، فهو إن تكلم لا يسكت وإن تعصَّب لا يهدأ). صلعته البيضاء الخالية من أي شعر تلمع بالعرق، وشاربه الأسود الفاحم مغبر بدخان السجائر
بينما جمال سالم، شقيقه الأكبر، منذ انضمامه إلى التنظيم وهو الأعلى صوتًا والأكثر غضبًا، ولا يسمح لأحد بأن يسبقه في الكلام أو ينهي الحوار دون أن يعلق هو عليه. ربما طريقة انضمامه إليهم هي التي جعلته على هذا النحو، يريد أن يسابقهم، ويسعى للتفوق على أي فكرة يطرحونها. لقد جاء مصاحبًا ذات مرة عبد اللطيف البغدادي لاجتماع بينهم، ولم يكن يعرفه أحدٌ منهم إلا جمال

عبد الناصر. هو ضابط في القوات الجوية، سقط بطائرته أثناء تدريب عسكري، فتهشمت ضلوعه وعظامه وحوضه، وسافر ثلاث سنوات للعلاج، ورجع معافى، لكن يبدو أن الحادثة وربما العلاج أو كسورًا طالت نقطة ما من جمجمته فجعلته عصبيًّا إلى درجة الانفعال الهستيري المفاجئ، يخبط ويضرب ويكسر ويرغي ويزبد ويصفع ويسب ويشتم، ثم بعدها يهدأ ويرق وأحيانًا يبكي. طبعًا لم يعرفوا هذا في أول ليلة، فقد تحدثوا في عموم الكلام وظواهر المشكلات في البلد، إذ لم يكن جمال سالم عضوًا في التنظيم، وكان مجهولًا لهم، لكنه معرفة البغدادي، وكلامه لطيف، وروحه وطنية، ثم هو شقيق صلاح سالم زميلهم في التنظيم الذي كان غائبًا في تلك الجلسة. لم يفاتحهم صلاح في انضمام أخيه، ولا يظنون أنه فاتح أخاه في وجود التنظيم أو الانضمام إليه أصلًا، وإلا كان أخبرهم. انفضت الجلسة التي لم تصبح اجتماعًا بمجرد أن دخلها جمال سالم، الغريب عنهم. لم يسأل أحدهم البغدادي عن سر مجيئه بصديقه الطويل المنفعلمعه، ثم في الاجتماع التالي فوجئوا بأنه هو نفسه بطولهوانفعالهقد حضر، وأخذ يناقش ويقترح ويعرض ما يجب أن نفعله في الجيش، فسأل أحدهم زملاءه :

ـ هل الأخ جمال سالممعنا؟ !

انتفض جمال غاضبًا وصائحًا وشاعرًا بكبريائه وقد انشرخت (ألا تكفيه عظامه المشروخة)، واندفع ناحية باب الشقة، يخبط المقاعد في طريقه، ويرزع فيما يصادفه، فقاموا واحتضنوه وأجلسوه مرة أخرى بعد تمنُّع وتخشُّب، وقال له عبدالناصر :

ـ خلاص، إنت واحد من التنظيم من النهارده .

ومنذ يومها وجمال سالم لا يكتفي بانضمامه المدفوع بالصدفة، فملأ وجوده صخبًا، وكان العازب الوحيد فيهم، فكانت شقته حتى سافر للخدمة في سيناء ملجأ الاجتماعات، خصوصًا أن كل ما كانوا يفعلونه على مدى العامين الماضيين هو تجنيد الأصدقاء من الضباط الذين يتوسمون فيهم الشجاعة والوطنية ويكونون موضع ثقة (لم يتجاوز عددهم قبيل القيام بالحركة ثمانين ضابطًا، كلهم من الرتب الأصغر، فيما عدا ثلاثة أو أربعة من البكباشية)، وتوزيع المنشورات (حيث يتسلم كل واحد فيهم عددًا من المنشورات، ويضع كل منشور في ظرف، ويكتب عليه اسم وعنوان الضابط الذي يستهدفون حصوله على المنشور، ثم ينزل كل واحد فيهم بسيارته أو سيارة صديق أو حتى بالتاكسي، ويلقون المظاريف في صناديق بريد مختلفة في أحياء وشوارع متباعدة حتى لا يتتبع أحد مسار هذه الخطابات).

مضت الثماني والأربعون ساعة على انقلابهم الذي سموه «حركة»، وجعلها نجيب «مباركة»، ولم يجد جمال عبد الناصر في جدولهم ما يفعلونه بعدها، فالخطة انتهت، والأهداف تحققت، لكن هذا النجاح الذي بدا أسهل من أن يكون حقيقيًّا دفعهم إلى العلو بالصوت والطموح، حتى إنهم شعروا أن شعارات مظاهرات الطلبة بسقوط الملك يمكن أن تتحقق فعلًا، لماذا لا يسقط؟ من يضمن أنه إن لم يسقط فقد يسقطنا؟

من كان يتصور أن هؤلاء التسعة الذين شكلوا من أنفسهم مجلس قيادة للثمانين أو التسعين ضابطًا الذين جندوهم في تنظيمهم يجلسون الآن لطرد الملك؟ !

لكن قبل الانتهاء من الملك، قرروا الانتهاء من مصطفى وعلي أمين. كانت قضيتهما قد فرضت عنوانها عليهم حين أخبرهم جمال عبد الناصر أن البوليس الحربي نفذ قرار اعتقال الأخوين. الغريب أن أحدًا لم يسأل لماذا، وكأنها مسألة عادية من مستلزمات الحركة المباركة أن يتم القبض

على مصطفى وعلي أمين. طلب جمال عبد الناصر من زكريا محيي الدين قراءة البيان الذي سيوزَّع على الصحف، فخطفه صلاح سالم من يده، وبدأ صوته يتشكل بنبرة متلذذة كلما واصل سطور البيان :
نما إلى علم القيادة العامة للقوات المسلحة من مصادر مختلفة أن الأستاذين (وعلى إيه الأستاذين؟ دولَا ولاد كلب! كان هذا جمال سالم يلعن مقاطعًا)مصطفى وعلي أمين، على اتصال بأفراد يهدفون إلى هدم حركتنا الوطنية المباركة، ولم يسعنا في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها البلاد سوى اعتقالهما، وقد تم ذلك اليوم. وغني عن البيان أن أمر اعتقالهما كفردين تحوم حولهما الشكوك، وليس له أدنى علاقة بأسرة الصحافة، وسوف يُطلق سراحهما فورًا بمجرد عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية .
القائد العام اللواء أركان حرب محمد نجيب
هاج جمال سالم، ولم يتمكن صلاح من أن يسبقه في التهيج :
ـ يعني سوف نطلق سراحهما فورًا! وعلى إيه اعتقلناهم؟ !
ثم لعلع صلاح بأن اعتقالهما عمل وطني، فزاد عليه جمال سالم بضرورة إعدامهما .
لكن أحدًا لم يستفهم: مَن هي المصادر التي عرفنا منها المعلومة؟ ومَن هم الأفراد الذين اتصل بهم مصطفى وعلي أمين؟
قال جمال عبد الناصر، وقد فاض به الملل :
ـ نرجع لمسألة فاروق؟
بذلوا مجهودًا للتخلي عن لعن مصطفى وعلي أمين، وكان القرار قد جاء من عبد الناصر :
ـ سنوجه له إنذارًا بالتخلي عن العرش لولي العهد فؤاد .
ثم أضاف :
ـ وغدًا .
ثم عاد وأتم :
ـ وفي السادسة مساءً .
انتعشوا وانتشوا، وكان جمال سالم يصرخ غاضبًا فيهم :
ـ وبعدين نعدمه .
كان محمد نجيب قد دلف ساعتها إلى الغرفة

11

كل شيء على ما يرام في كورنيش الإسكندرية هذا الصباح، لا غرابة في بداهة كل الأشياء الطبيعية: مصطافون بملابس البحر يعبرون الطريق نحو الشواطئ، يحمل بعضهم مظلات البحر المطوية الثقيلة وحقائب الأطعمة، واندفاعات الأطفال يروضها الكبار،عربات المثلجات الخشبية، المتسكعون عند سور الكورنيش يتطلعون إلى رمال الشاطئ وصخب البهجة القريب، الموج المتلاطم في انكساره عند وصوله إلى أقدام الماشين متنزهين على حواف البحر في أزمنة العطلة عن العمل والتفكير، حركة الشوارع تليق بنهاية شهر يوليو .

هل سمع هؤلاء بيانات الجيش في الإذاعة؟ هل تجاوزوها على اعتبار أن الصيف سوف ينتهي لكن السياسة في مصر لا تنتهي أبدًا؟ هل قرأوا الصحف حين تعلن بعضها خجلى عن حركة جيش تسعى لتطهير جيشها؟ (بعد أربع وعشرين ساعة صارت تسعى أيضًا لتطهير بقية مرافق البلاد . اعتادوا هم تعبير «تطهير» الذي أطلقه نجيب الهلالي منذ شهور، قاصدًا منه الإطاحة بأصدقاء وحلفاء حزب الوفد من الحكم، وظنه البعض تطهيرًا للبلد من رجالات الملك، وعمومًا انتهى الظن باليقين، فأطيح بالتطهير والمطهر والمتطهر).

لمحت بعض العيون تلك السيارة الحمراء (لا سيارات حمراء في مصر إلا سيارات الملك فقط) التي شقت الكورنيش بسرعة كأنها تُطارَد أو تُطارِد. جلس الملك فاروق ببدانته المفرطة، وبدلته البيضاء الكاملة، يملأ مقعد السائق، يقود سيارته بنفسه على كورنيش الإسكندرية. لكن فاروق اعتقد أنه شجاع، لدرجة تكفي أنه وحده في سيارة وحيدة وبلا مواكب ولا حراسات يتحدى أي خطر، ويحمي زوجته وابنه وولي عهده. كانت ناريمان في المقعد الخلفي ترتجف من الخوف مما تسمعه من حركة جيش في القاهرة، ومن فزع أمها التي تجيد حشو عقلها بالهلع وتحشره في قلبها حشرًا، ومن سرعة هذه السيارة التي يقودها زوجها الملك بنفسه، تهدر كأنها في سباق سيارات مما يدعي دائمًا أنه يكسبها. ابنها ولي العهد الرضيع في حضن مربيته وممرضته الإنجليزية «آن شيرمسيد» المتفانية في صمتها، وبنات الملك الثلاث في سيارة خلفهم تحاول أن تلحق بهم. صوت أنفاس فاروق يبدو عاليًا ومتأرجحًا، لكنه أخرج كل غضبه في ضغط حذائه على محرك السرعة، دون أن يلتفت إلى حسن عاكف طياره الخاص الذي جلس بجواره بملابسه العسكرية، مكورًا في كتلة من القلق والترقب، وقابضًا على بندقية قصيرة وضعها بين ساقيه. رغمًا عنه ابتسم فاروق، فأول طلقة يمكن أن تخرج من هذه البندقية قد تنسف خصيتي طياره الخاص، لكنه كان ممتنًّا بما فعل، بينما عاكف كسيرًا بما فشل .

مرت حوادث الليلة الليلاء التي عاشها (وطارها) عاكف أمام عينيه اللتين لا تريان في الكورنيش إلا ضبابًا كالذي اخترقه بطائرته حين سمع ما يفعله الضباط في القاهرة. قرر أن يفعلها، لا الملك أمره، ولا هو أخبره، نبضات قلبه كانت أعلى من هدير مروحة الطائرة «الداكوتا» التي قادها وحيدًا، وظل كرسي مساعد الطيار خاليًا، فلا وقت لاستدعائه، وهو قادر عليها وحده في غبشة هذا الصبح الذي يتابع ألوان السماء تنتقل من الأسود إلى الأحمر الذي ينفرج إلى البرتقالي ثم ينفسح إلى اللون الأبيض المزرق في طريقه إلى القاهرة. وصل حيث طائرات السرب الملكي في مطار النزهة، لم يكن ضباط وجنود المطار أعلم بما خفي في العاصمة، وكان عددهم محدودًا

وأسئلتهم معدومة، فقد أعدوا الهليكوبتر الحربية على نحو عجول، فقد كان يصرخ فيهم ويحثهم على ملء الوقود (ليس مهمًّا الثمانمائة لتر، بل يكفي ما يصل بي إلى مطار ألماظة)، وشحم المروحة، والتأكد من الزيت. وبينما كانوا يعملون بهمة الإحساس بتوتر قائدهم ياور الملك وطياره، كان هو يركب مقعده في الطائرة، ويرتدي سماعتيه، ويحرك مفاتيح عجلة القيادة، وهم يجمعون معداتهم، وينزعون خراطيمهم، ويركضون تحت الطائرة مبتعدين، بينما أزيز المروحة ذات الريشات الثلاث قد حطم صمت الليل، ثم علا صوت المحركات مع ارتفاع الطائرة تحلق فوق أرض المطار

الخطة رُسمت وتشكلت في ذهن عاكف، سوف يهبط مطار ألماظة، حيث طائرات السرب الملكي بتمامها، وينهي تحرك الضباط المتمردين بضربة واحدة ونهائية، لن يسمح لهذه الثلة المارقة بأن تهدد عرش مصر ومصر كلها. كم مرة سمع عن تنظيمات داخل الجيش تنخر كالسوس، وحيدر باشا يهون من شأنها، ويتبجح بأنهم شوية عيال يلعبون لعب عيال !

كان عاكف يستثمر كل خبراته ومهاراته في أن يلتزم مسارًا مختصرًا، وبسرعة مائتي عقدة، حيث يستنفد كل قدرات طائرته، فيصل بسرعة ثلاثمائة وسبعين كيلو في الساعة إلى ألماظة في أقل من ثلاثين دقيقة. إنه لن يعود بها أصلًا، فالسرب الملكي كله سيكون تحت إمرته بعد دقائق، فها هو مطار ألماظة منبسط أمامه، أضواؤه وهناجره وبرجه وأرضه المسفلتة الممتدة. لمح عددًا من الأشباح في ممرات المطار، ولكن الأضواء الناحلة لا تشي بحياة في المطار. هبط بطائرته في الحظيرة الخالية، وفتح باب الطائرة ووثب إلى الأرض، وجرى متقافزًا إلى داخل مبنى المطار، والغريب أنه لم يجد أحدًا! أي ضباط هؤلاء الذين يحتلون مبنى قيادة الجيش ولا يسيطرون على المطار العسكري؟ ! صادف عددًا من وجوه العاملين نصف النائمة والمرتبكة لرؤيته في هذا التوقيت، لكنها لم تفعل أكثر من الدهشة، بينما انطلق إلى غرفته، ففتح بابها وأضاء نورها رغم أن الصبح قد غمرها، فكشف أثاثها الأنيق، وصورة الملك المعلقة خلف مكتبه. أمسك بالتلفون وأدار قرصًا وهو يجر باب درج مكتبه ويخرج دفتره المليء بأرقام تلفونات طياري السرب. اتصل بمدكور أبو العز قائد السرب الملكي، وبالمهندس عبد الحميد محمود، والنقيب عبد المجيد نعمان، وأمرهم بالنزول فورًا من بيوتهم، والقدوم إلى مطار ألماظة. كان يعرف أنهم يسكنون في قشلاقات العباسية أو أقرب، وألح عليهم أن يأتوا بسياراتهم الخاصة، أو في سيارة واحدة. «اجمعوا بعضكم، وتعالوا الآن فورًا». أنهى المكالمات، وخرج يتحسس ما الذي يجري في المطار الخالي. لمح الأشباح مرة أخرى، لكنها تبدو خارج مبنى المطار، هناك عند البوابة الرئيسية، وعند أسوار المطار الخارجية، عدد من سيارات الجيب، ووقفة ضباط بزي الطيارين. إذن هؤلاء المتمردون يمنعون الطيارين من الدخول، فكيف سيتصرف مدكور ورجاله؟ بدت الخطة المرسومة تتلقى أول ضربة لها، فما العمل إذا لم يتمكن هؤلاء الطيارون من المجيء؟ نطت الفكرة في رأسه، وعاد إلى مكتبه، فاتصل بآخرين من ذات الدفتر كي يوسع عدد القادمين، فإن نجح أيهم في الوصول فقد كسبت خطته. أغلق ستائر غرفته، وأطفأ كل ضوء ممكن، واستغرب أن أحدًا من العاملين الذين اندهشوا لرؤيته لم يبلغوا حتى الآن الضباط المحاصرين للمطار. كتم توتره في بطنه، فأحس تقلصًا في أمعائه، وحاول إشعال سيجاره ثم سرعان ما أطفأه حتى لا يجذب الدخان أو ربما الرائحة الأنوف المتشممة. لم تمضِ دقائق كثيرة وإن أحسها بطيئة وثقيلة، حتى سمع أصواتًا تزعق خارج البوابة. خلع جاكت بذلته العسكرية، وأبقى على رابطة عنقه محكمة حول ياقة

قميصه الأبيض، وتسلل من الغرفة إلى الممرات ثم إلى البوابة الداخلية، تسمع تلك الخناقة التي بدأت ترتفع نبراتها وتخشن ألفاظها. فهم أن قائد السرب حسن إبراهيم من ضباط التنظيم المتمرد، وقد أعلن سيطرته على المطار، بينما مدكور أبو العز يشخط فيه أنه ليس من حقه، وأنه أعلى منه رتبة (حصل خلاف حاد على الرتبة والأقدمية كأنها أصل المشكلة). شارك عبد المجيد نعمان في التغاضب، لم يعرف ماذا يفعل عاكف الآن، وحتى إن دخلوا فإنهم انكشفوا، وسوف يتابعهم هؤلاء الضباط بحسن إبراهيمهم، ولن يجدي ذلك نفعًا. يبدو أن حسمًا قد انتهى إليه الأمر، فقد ألقوا القبض على مدكور أبو العز، ومع ملاعنات واعتراضات كان من الواضح أنهم أركبوه سيارة معتقلًا، وصحبه حسن إبراهيم إلى مبنى قيادة الجيش .

تبلل عاكف بعرقه وتوتره، لكنه صمم أن يواصل التحرك حتى لو كان وحده. ليس أمامه الآن إلا الاعتماد على نفسه، والأمر لا يتطلب إلا طائرة واحدة. يا ليته فعلها وحلق فوق مبنى القيادة كما رسم خطته! وبدلًا من أن يكون السرب كله أو بعضه معه، فليكن هو وحده، المسألة لا تستلزم إلا قنبلة فوق هذا المبنى، حتى لو ألقاها بيده من نافذة قمرة القيادة وليس بمدافع طائرته. طبعًا هي فكرة ساذجة، لكن من قال إن السذاجة لا تنقذك ساعة الشدة؟ عاد إلى الغرفة بسرعة، وارتدى سترتهمرة أخرى، ثم لاحت الفكرة في خاطره تلمع، أدار قرص التلفون (أفضل قرار اتخذه هو خط مباشر في مكتبه)، واتصل بضباط السرب الذين كان قد استبعد الاتصال بهم في المكالمتين السابقتين (كان الدفتر قد جاب آخر قائمته فعلًا)، وطلب منهم فردًا وراء الآخر في جملة ورد غطائها، أن يسبقوه إلى مطار إمبابة، صحيح أنه صغير ومتعب لكنه المتاح الآن وبلا رقابة ولا حراسة، فهي فكرة لن تأتي على أذهان المتمردين. «لتحضروا إلى مطار إمبابة، وسوف أنتظركم هناك بطائرتي «الداكوتا»». وضع سماعة التلفون عند آخر جملة مع آخر من اتصل بهم، فإذا بالباب ينفتح، كأنما يرتطم في الحائط أو على الأرض، ويندفع أربعة من الطيارين. هلع وأحس موتًا مطبقًا، لكنه سرعان ما طق من السعادة

الغامرة، فقد أفلت الطيارون الذين استدعاهم من الكمائن على الطرق ومن قوات الاحتجاز أمام المطار ووصلوا إليه. حمد الله على هذه المنحة العظيمة، واستقبلهم بأحضان سريعة لا تليق بالحدث ولا بالوقت، لكنه أفرغ في المعانقة شحنة عاطفته الملتهبة، ثم تسللوا خطفًا نحو حظيرة الطائرات، كانوا صفًّا مكشوفًا للغاية تحت ضوء النهار وفي ساحة المطار الواسعة الفارغة، وبدقات الأحذية العسكرية القارعةعلى الأسفلت، تمكنوا من الوصول إلى الحظيرة، تفرقوا كلٌّ إلى طائرته، نطوا فوق سلالم الطائرات القصيرة، ولجوا داخل قمرات القيادة، بدأوا في التشغيل، بينما كان آخرون يتحققون من أجسام الطائرات ويزيحون الأثقال الحديدية أمام العجلات ويفتحون أبواب الحظيرة العالية الهائلة حتى تخرج منها الطائرات، بدأت المراوح في الدوران، والمحركات في العمل، والأكف تشير بينهم على تمام الأمور والتأهب للإقلاع، وقد وضعوا السماعات، ولفوا المفاتيح، وحركوا الأذرع. لكن فجأة لاح لوري ضخم يملأ سطحه المكشوف جنود شاهرو الأسلحة، يندفع بسرعة راعدة نحو الحظيرة، وزخات الرصاص تدوي ناحية الطائرات، فتصيب أجنحة، وتدوي شررًا ورصاصًا مقذوفًا في المراوح، فتلتف الريش بسرعتها تتخبط في الرصاصات، فتقرقع وتفرقع في تصادم المعادن الصلبة. حين أوشك اللوري على الوقوف والجنود على القفز من جوانبه وحصار الطائرات بالرصاص، كان حسن عاكف في معجزته المدهشة يقود طائرة هليكوبتر من طراز «سيكورسكي»، ويطير بها على ارتفاع عدة أمتار داخل الحظيرة ثم

ينقض بها على الجنود الذين هلعوا من الطائرة المحلقة فوق رؤوسهم مباشرة، فرموا أنفسهم على الأرض، يجرون مفزوعين تحت حدود تماسها، وزحف آخرون على الأسفلت منبطحين. تركهم حسن عاكف وهو يلعن ويسب ويتحدى وينجو بطائرته التي أدرك أن رصاصات أصابت غطاء ماكينتها، لكنه الآن في سماء ألماظة وقد قرر التوجه فورًا إلى مطار أنشاص، الأقرب، والذي ظنهاأكثر أمنًا .
كانت خطته تتمزق في رأسه،ويبحث عن خطة أخرى لذات الهدف، وإن فهم الآن أنهم سيكونون مستعدين رغم ما بدا أن الرتق في خطة الانقلاب أوسع مما يتخيل. لكن خطته هي الأخرى امتلأت بالثقوب، أكبرها هذا الثقب في الطائرة التي يقودها، ودخانها الذي بدأ يهب ويهبب هواءه، والزيت الذي بدأ يتراجع ويتساقط فوق رؤوس أو على شجر في مزارع، أو يأخذه الهواء إلى الفناء. كان ارتفاع الطائرة منخفضًا حتى خشي أن تكون الأشجار في الطريق إلى أنشاص لم تشهد تهذيبًا وتقضيبًا في هذا الموسم، فيذهب مع خطته إلى جحيم الحريق أو هوة السقوط. كانت أفكاره تتزاحم في رأسه حينما هبط في مطار أنشاص آمنًا حالفًا بالله أن الله معه. قفز من طائرته حتى أحس وجعًا في ركبته أو جزعًا في جذعه. يعرف جيدًا إلى أين يذهب وسط هذا الصمت الذي يغلف المطار الصغير، وتلك الغفلة التي ينعم بها العدد القليل المتناثر في المبنى البعيد عن مهبط الطائرة الوحيدة في المطار كله. اندفع نحو باب مبنى صغير في أطراف المطار عند ساحة الإقلاع والهبوط، ودخل منه إلى باب أصغر، فتحه بسهولة بمفتاح أخرجه من سلسلة مفاتيح لا تفارق جيبه، ونزل عدة درجات سلم، فوجد نفسه في قبو الاتصال السري، حيث مخبأ لا يعلمه إلا الملك وخواصه، يملك خطًّا سريًّا للاتصال، لكنه سيتصل برقم ليس سريًّا وموضوعًا ولا شك تحت المراقبة، بل من سيتصل به الآن واحد من هؤلاء النجيبيين المتمردين باليقين. أدار قرص التلفون، وطلب رقم قصر عابدين، بعد عدة رنات لم تطل رد أحدهم :
- أنا حسن عاكف ياور الملك وقائد طائرته .
- أيوه يا أفندم
- أنا أتكلم من مطار فاروق، وأريد أن يحضر لي أي طيار من السرب الملكي
- أوامرك يا أفندم
كانت سيارات محملة بالجنود تنطلق الآن من قصر عابدين إلى مطار الملك فاروق، وهو المطار المدني الرسمي للبلد، للقبض على حسن عاكف أخيرًا، بينما كان عاكف نفسه يحاول تشغيل طائرة «سي ستة وأربعين» الأمريكية، متعبًا ومجهدًا ومحاولًا الحفاظ على هدوء الطائرة وهدوئه، وعلى السرعة والدقة في تشغيل طائرة ضخمة وقديمة لم تقلع من مطار أنشاص منذ الحرب العالمية تقريبًا، وتحتاج إلى شخصين على الأقل لإدارتها. صعد فوق جناحها، وهبط تحت محركها، ووقف عند إطاراتها، ودخل إلى قمرتها، ثم ذهب إلى مروحتيها، ثم تحقق من وقودها، ثم لف مقابضها، ثم عاد إلى قمرة القيادة فشغل مفاتيح وحرك أذرعًا، ثم وثب إلى باب ففتحه، ثم عاد وأغلقه، دار حولها وسمع أزيزها، ثم أزاح الأثقال الحديدية تحتها، كان يلتفت باحثًا عمن يبحث عنه، ويدور بعينيه قلقًا في الظلال حول المباني وهياكل الطائرات العتيقة الواقفة، وتأخذه اللمعات الخاطفات لأشعة الشمس على الأسفلت والزجاج ومعدن الطائرة. كانت روحه قد راحت، وبدنه قد تفكك، وهو يضع سماعتي الطيار على أذنيه، ويسوق الطائرةعلى المهبط بطيئًا، فأقل بطئًا، فأكثر سرعة، فأسرع سرعة، فصعود وإقلاع، فطيران وتحليق، فالوقت يقتله بالتوتر متجهًا إلى مطار

الدخيلة بالإسكندرية. حسب سرعة الطيران مع ضخامة الطائرة مع عقدات الريح مع درجة الضباب وكثافة السحب فوق الصحراء الغربية التي طار فوقها تفاديًا للرقابة والملاحقة وسعيًا للمراوغة والإفلات، ووجد أن الوقت الذي يحتاج إليه للوصول إلى الدخيلة بالإسكندرية اثنتين وخمسين دقيقة (بلغت أكثر من ساعة حين وصل). هبط بالطائرة في مهبط الدخيلة، ونزل من سلم قمرة القيادة يشعر بحمى تجتاح عقله .
حين وجد عدلي الشافعي وحيدًا أمامه، طلب منه تسليمهسيارة جيب من المطار، فمنحه إياها بعد كلام فارغ حول اقتراحه بالإقلاع بطائرة هليكوبتر حتى مبنى قيادة الجيش والتفاوض باسم الملك مع ضباط نجيب، رفض حسن عاكف اقتراح مرؤوسه المفخخ، وصمم على الحصول على السيارة الجيب، ولم يجد الشافعي مفرًّا من إبلاغه أن أمرًا صدر باعتقاله، فابتسم عاكف، فقد كانوا يحاولون قتله منذ ساعتين تقريبًا، فالاعتقال منزلة أقل من أن ينزل إليها ببساطة. كان يعلم أن عدلي الشافعي لن يمانع في القبض عليه، لكن ليس بيده، فالصداقة بينهما لا تسمح بهذه النذالة أو على الأقل التسرع في هذه النذالة. ركب السيارة الجيب، وانطلق إلى قصر المنتزه، وقد وصله في الحادية عشرة صباحًا، ومضى بالسيارة حتى مدخل القصر الكبير، ونزل منها وهرع نحو جناح الملك، ونسي أن يمسح هذا الشحم والسخام من على وجهه، وتلك المزقات في بذلته، وهذا الشعر الهائش فوق رأس ينهشه الإحساس بالفشل .
*
كان فاروق قد قرر الخروج من قصر المنتزه بعد أن حلقت طائرة حربية فوق القصر. لقد أصدر مرسومه الملكي بتعيين علي ماهر رئيسًا للحكومة، كما طلب نجيب وضباطه، ولكن تلك الطائرة المحلقة فوق قصره وفوق البارجة البحرية الوحيدة التي تحرس القصر جعلته لا يطيق المكوث في المنتزه، فركب سيارته مندفعًا بزوجته وابنه ومربيته، وأخذ معه طياره الخاص في حالته الرثة مهووسًا بالقبض على بندقية يسبقه في المشية والخطوة. شق فاروق بالسيارة الطريق بين أشجار المنتزه وحدائقه الغنَّاء التي يتباهى بها بين العالمين، ويطوف حولها حاجًّا للجمال، بروائح وأنواع زهورها النادرة، وأعواد وردها الباهرة، ونخلاتها السامقات، وأشجارها الوارفة ذات الأوراق الملونة والأغصان المتشابكة المنتفشة، وكأنه يقود سيارة في لوحة طبيعية مرسومة مطعمة بصوت البحر وهسيس الريح (لم يكن ذواقة يعتد به للجمال، لكنه كان ينتشي بفخر الذواقين بجمال المنتزه). لم يكن يهرب، فممَّ يهرب؟ فقد استجاب لمطالب جيشه. شعر بمفاجأة تحرك دبابات جيشه في القاهرة، لكنه لم يشعر بالغدر، بل طرد إحساسًا بالغدر حتى لا يخيفه ويربكه .
حين خرجت السيارة من بوابة القصر الحديدية بقمتها المقوسة التي يعلوها التاج الذهبي المضيء ليلًا واللامع نهارًا، كان قد حسم الذهاب إلى قصر رأس التين. حاول أن يشرح لعقله ما قرره قلبه وهو يجيب عن سؤاله البديهي: ما الفرق بين المنتزه ورأس التين؟ ربما القصر الأخير أكثر استعدادًا من الناحية العسكرية، وليس منتزهًا ومنتجعًا كما حال المنتزه، وربما خشي على أشجار وحدائق المنتزه النفيسة (وكأن رأس التين ليس مفروشًا بعشرات الأفدنة من أجمل نباتات الأرض)، وربما لأن رأس التين أقرب إلى يخت «المحروسة» (أوَ لهذا يصحب معه طيار طائرته؟!)، أو لأن رأس التين تبدأ منه وتنتهي عنده محطة سكة حديد ملكية، ينطلق منها ويحط عندها قطار الملك، جائز. إذن أنت خائف أيها الملك الشجاع؟ لا، أنا حذر. يحدث نفسه طوال الطريق بأن الخائف لا يقود سيارته «المرسيدس» بنفسه (لماذا لم يختر السيارة «الكاديلاك»

وهي عنده أحب؟ هل لأنها عند الناس أشهر؟)، وفي شوارع بدأت فيها عربات جيش تظهر على ندرتها وحياء ظهورها، لكنهم بالتأكيد لم يلتقطوا وجوده في السيارة، ولم يتنبهوا للسيارة نفسها، رغم أن سرعتها كما تظهر في قارئ السرعة في لوحة القيادة تجاوزت المائة كيلو في طريق يعبره مصطافون بشماسي. ولكنه جيشك أنت يا جلالة الملك،

يا صاحب الراية الملكية التي ترفرف على مقدمة السيارة! فجأة التفت إلى حسن عاكف الذي لم ينطق خلال العشرة كيلو مترات السابقة، وسأله :

ـ وأين هو حيدر باشا؟ أليس هو القائد العام للجيش؟

قبل أن يرد عاكف لاحقه الملك :

ـ أعرف أنني عينت اللواء نجيب قائدًا (تجاهلت الملكة وعاكف والملك نفسه أن نجيب هو من عيَّن نفسه! وغفل عن أنه قد رقى نجيب إلى رتبة فريق منذ ساعات!) لكن حيدر مختفٍ كأنه فص ملح وذاب !

ثم أردف :

ـ حيدر المغفل الجبان !

كان ينتفض لحظتها حنقًا وقرفًا من حيدر. هذا الضئيل النحيل الذي جعل منه شيئًا مذكورًا، ورفعه من ضابط بوليس يدير سجنًا إلى وزير حربية وياوره وقائد جيشه، خانه. إنها خيانة كاملة لا شك فيها. إن لم يكن متواطئًا مع هذا النجيب، فإنه أبله مغفل ضحكوا عليه وقرطسوه. لقد ظل يوهمني أن هذا الجيش جيشي وسلاحي في مواجهة هؤلاء الساسة التافهين، ومصطفى النحاس المنتفخ! هل نسي حيدر أن النحاس نفسه هو من صمم على أن يكون وزير الحربية من حزب الوفد، فاخترع الملك لحيدر منصب القائد العام للجيش، وجعل من وزير الحربية حبرًا على ورق لا يملك تحريك عسكري شطرنج من مربع أبيض أو أسود وليس عسكريًّا في سرية أو كتيبة؟ ثم تأتي الضربة من الجيش! هذا الرجل التعس الشؤم الذي هزمني في فلسطين، يهزمني هنا في الإسكندرية! الندم يأكل ضلوع الملك وهو يتمتم ويهمهم ويتفتف دون أن يفهم ركاب سيارته المذعورون منه قبل أن يذعروا من غيره ماذا يقول، وقد التقطوا اسم «أرثور شميث» يردده الملك. لماذا اجتاحته في هذه اللحظة موجة ندم هائلة بلعته حين تذكر التخلي عن الجنرال الألماني «شميث» نائب القائد الألماني الأعظم «روميل»، والذي أتى به بعد هزيمة فلسطين ليعيد بناء جيش مهزوم منكوب؟ شعر فاروق أنه لم يكن جادًّا في يوم من أيام حياته قدر جديته يوم وافق على أن يتولى تحديث هذا الجيش الهرم جنرال ألماني ممن يهيم بهم إعجابًا. كان بوجهه الأحمر، وبرأسه الصغير، وشعره الأشقر المحلوق، وسماته الجادة، وقصر قامته، وصرامته الألمانية، متقد الحماس بعينيه الزرقاوين وهو يخبر الملك بعد دراسة حال الجيش المصري أن حاله عبث غير معقول وجهل مطلق بظروف القتال، ووضع الخطط، ورسم الإستراتيجيات. واشتغل «شميث» بشكل سري وسريع حتى واجه حيدر بخطأ قيادته للجيش الذي تسامح «شميث» كثيرًا كي يصفه بالجيش. جرح حيدر وأهانه، ولكنه ألماني، وهذه طبيعته، ويبدو أن وضعنا أحاله إلى ألماني أكثر غلظة وأخشن تعبيرًا، فبدأ حيدر يشكني بدبابيس الشك في الجنرال الألماني، ويدس له عندي، بل يرشح لي جنرالا ألمانيًّا آخر (حيدر الخبيث الجبان يعرف أنني لن أقبل إلا بألماني!)، وأخذ يعدد في صفاته وسماته الرائعة إلى أن عرفت بعدها أن مرشحه جنرال عميل أمريكاني ابن كلب، جاء ليلهف قرشين ويمشي، وكان «شميث» قد استقال فعلًا :

ـ متى يا عاكف؟
فجأة سأل عاكف الذي يجهل مقصد الملك، فأضاف الملك بضيق صدر، يجيب عن السؤال بنفسه :
ـ تخيل منذ عام واحد تحديدًا، في 5 يونيو العام الفائت يا عاكف، استقال «أرثور شميث» من أجل عيون وخاطر الجبان حيدر !
أخيرًا قرر عاكف أن ينطق، وقد بانت أسوار قصر رأس التين، فلمس شيء من الراحة قلبه :
ـ حيدر خجلان يا جلالة الملك مما حدث معه .
وقبل أن ينفجر الملك في وجهه بأي استفسار، حكى له عاكف :
ـ ليلة الأربعاء (لم يرد أن يقول ليلة الانقلاب أو ليلة ما تحرك الجيش في القاهرة أو الليلة السوداء) اتصل حيدر باشا قائد الجيش باللواء حافظ بكري مدير سلاح المدفعية في مكتبه بألماظة وسأله: «إيه الموقف عندكم يا حافظ، بيقولوا فيه دوشة وفيه ضباط عاملين شغب؟»، رد عليه حافظ بكري مدير المدفعية: «أبدًا يا معالي الباشا، أنا جيت هنا والموقف كويس في ألماظة، وحنعلن حالة الطوارئ، وممكن معاليك تطمن»، فرد عليه حيدر: «أنا متشكر على الهمة دي يا حافظ، وحابلغ مولانا، وخليك على اتصال بينا ».
علَّق فاروق نافد الصبر ساخرًا :
ـ وبلغني وطمني بسلامته !
واصل عاكف :
ـ وفي الساعة الواحدة صباحًا رجع حيدر باشا يتصل بمدير المدفعية طالبًا الإفادة، فرد حافظ بأن الموقف مطمئن وقادة الوحدات وصلوا، لكن حيدر كان اتوغوش جامد فسأله: «لكن أنا سامع إن فيه دوشة عند مبنى قيادة الجيش!»، فأبلغه حافظ مدير المدفعية أنه سيرسل قوات إلى العباسية، وسيعتقل كل الضباط هناك، لكن حيدر باشا على الساعة الرابعة صباحًا كان في حالة نفسية سيئة للغاية لما بلغه من القاهرة، فعاد ليتأكد من مدير المدفعية، فرد عليه بأن الموقف عال العال، فشخط فيه حيدر: «عال إيه؟! ده بيقولوا إنهم أخذوا كوبري القبة!»، ثم فجأة قفزت الفكرة في رأس حيدر باشا، فقال لحافظ: «إنت مش حافظ بكري مدير سلاح المدفعية»، فرد عليه حافظ: «إزاي يا معالي الباشا؟! أنا حافظ»، فقال له حيدر: «طيب إديني أمارة بخصوص العيد»، فرد عليه: «بعد العيد ما يتفتلش كحك ».
لم تستطع ناريمان، رغم روحها النكدة، أن تمنع نفسها من ضحكة مكتومة ومتهكمة، وكان عاكف يعلق :
ـ كان ضابط من الأولاد الذين سيطروا على الجيش يستغفل حيدر باشا لأربع ساعات متواصلة، بعدما قبض على حافظ بكري الحقيقي !
لعن الملك سنسفيل حيدر، والتصقت على زجاج سيارته صورة الجنرال الألماني .
كان قصر رأس التين قد ظهر بأسواره الشاهقة، ومساحته الشاسعة، وواجهته العريضة الفخيمة، وقبابه البيضاء المشرقة، وأبراجه العالية، وأعلامه المرفرفة، وحلقة الحديد المذهبة منقوشًا بها بارزًا ومتبارزًا مع الريح تاج الملكية، مخفورًا بالحرس الملكي الموزع في أماكنه التي لم يكن ينتبه لها فاروق قَطُّ، ولا يتذكر أنه تابع أي مظاهر حراسة للقصر من قبل، لكنه الآن كان يرقب كل سونكي، ومقدمة كل مدفع، وماسورة كل بندقية، وعجلات كل مدرعة، وعدد العربات، ولون زي وبشرة الجنود، وطولهم وعرضهم. البوابة الهائلة تقود إلى مساحة من الحدائق الأكثر هولًا،

تتفرع إلى عدة مداخل إلى مختلف البوابات التي تنفتح كل منها على مدخل أو بهو لجناح من الأجنحة
وصلت السيارة مزمجرة بنقمة مالكها ومليكها الذي نزل منها فاتحًا بابها، حتى خبط البابُ الضابطَ الذي هرع ليفتح بابها لملكه . صعد فاروق على السلم وسط هرولة الحرس الذين أحاطوا به وتحلقوا حوله، والتفوا حول الملكة التي نزلت وانتظرت المربية تحتضن رضيعها في سلة ذهبية مفروشة بالحرير الأبيض ووسائد قطن صغيرة منقوش عليها تاج الملك. ساقهم الضباط يقفزون قبلهم وخلفهم فوق درجات السلالم. قائد بوليس السراي الأميرالاي أحمد كامل حاول أن يظهر واثقًا مما يفعل، ورابط الجأش، لا تهزه الأخبار الواردة إليه (هي تزلزله، لكنه في حضرة الملك لا يصح أن يهتز!) وهو يشرف على استقبال الملك وولي العهد، ويأمر ضباطه، لكنه فوجئ بالملك ينتصب في مكانه واقفًا متصلبًا، تنصب نظراته ناحية بوابة القصر فلا يتحرك ولا يتكلم، كان ينتفخ داخل الملك ورم الشك حتى يملأ رئتيه، فهذا الأميرالاي كان يسلمه حتى صبيحة الأمس تقارير يومية بكل ما يقال عنه في البلد، بتفاصيلها وحذافيرها، حتى لافتات «فاروق ابن العاهرة» (أمي نازلي!) وكلماتها المخطوطة على جدران القصر، مرورًا بمظاهرات الجامعة حين أنزلوا صورتي ومزقوها وشتموني وهتفوا ضدي، وحتى هتافات عيال المدارس ضد ناريمان، وأكداس المنشورات الموقعة بأسماء عشرات الجمعيات السرية، ومنشورات تنظيم الضباط الأحرار والشيوعيين الحمر الحمير الأوباش، حتى تغيير ملابس الجيش والبوليس في الصيف والشتاء، ورغم ذلك لم يقدم لي سطرًا واحدًا عن دبابات ماشية ترتع في عز
الليل في شوارع القاهرة !
تنهد الملك بحرارة تنافس حر يوليو في رطوبتها، حين رأى السيارة التي تحمل بناته قد وصلت ودخلت من بوابة القصر ووقفت عند مكانه، فعاد ورفع رأسه ودلف إلى باب القصر، وهو يسمع دبيب أحذية بناته يصعدن فوق درجات السلالم .
*
كان الهواء ثقيلًا جدًّا بين الملك وعلي ماهر، فالأكسجين غادر المساحة الفاصلة بينهما، وترك للنيتروجين وثاني أكسيد الكربونالمهمة. يجلس الملك وراء مكتبه المصنوع من خشب غابات الألب، وبتصميم مهندس فنان فرنسي، والمصنوع في مصانع إيطالية، تحت سقف عالٍ يجعل كل من يجلس تحته كائنًا صغيرًا هشًّا في كون دائري مهيب رهيب. كان يكره القصور لهذا السبب، فهي ضخمة جدًّا، فكأن هدفها هو إظهار ضآلتنا، يستغربون أنني أذهب إلى الأوبرج أو البوريفاج أو نادي السيارات أو نادي محمد علي هنا في الإسكندرية أو القاهرة، وأجلس وسط الناس العادية (هل في هذه الأمكنة عاديون؟)، فلا أكون عندهم ملكًا متواضعًا، بل ملكًا مستهترًا، كأنني لو ظللت في هذه القصور التي تحني قاماتنا تحتها سأصبح عندها ملكًا رشيدًا! أي ملك رشيد هذا لبلد تسعة من كل عشرة مواطنين فيه لا يقرأون ولا يكتبون؟ (عندما قال هذه العبارة أمام مسؤول إنجليزي ذات مرة، علَّق قائلًا: «ومن الذي جعلهم على هذا النحو من الجهل يا جلالة الملك؟»، فرد فاروق بقسوة واحتقار: «أنتم! أما أنا فقد علمت الواحد الذي يقرأ ويكتب !»).
أدرك أن علي ماهر ليس هو نفسه علي ماهر الذي عينه رئيسًا لحكومته منذ خمسة أشهر تقريبًا لمدة شهر واحد فقط (ولعلها ثلاثة أسابيع)، شيء ما أظهر له علي ماهر آخر وهو يمشي خلفه بخطوتين، يعبران المكرنشات في الجدران، والمنمنمات من قطع الأرابيسك، والمشغولات من

الفضيات والرخام، واللوحات المرسومة بريشات أعظم الفنانين، ذات الإطارات الخشبية الذهبية التي تغطي أمتارًا على الحوائط، والمنحوتات والمرايات والتماثيل والتحف والثريات والسجاجيد والأبسطة والمنسوجات والستائر. شعر كأنه في جنازة للمهابة، فقد أخرج علي ماهر ورقة مطوية من جيب جاكت بدلته الداخلي، وارتعشت أصابعه ارتعاشًا خفيفًا، ولعله لمح لمعة دمعة في عينيه، فسأله الملك دون أن يمد يده للورقة (هذه مهمة رئيس ديوانه أو وكيله أو سكرتيره أو أي رجل يرتدي بدلة ويقف في هذا المكان رهن إشارته، لكنه أراد اجتماعًا منفردًا لا يحضره أحد إلاه وعلي ماهر):
ـ هل لديهم طلبات أخرى؟
كان السؤال عصبيًّا، لكنه يحمل نبرة استنطاق مستعطف. أومأ علي ماهر، وقام من مقعده إلى حيث يجلس جلالة الملك، فأعاده الملك بإشارة ببطن كفه، فعاد وجلس .
ـ إيه؟
فرد علي ماهر الورقة ولم يقرأ منها، فقد حفظها :
ـ يطلبون (تعمد على أن يقولها «يطلبون» وهو يعنيها «يأمرون») إبعاد أسماء سبعة من الحاشية يا مولانا .
أومأ فاروق كأنه لم يسمع، ولا يزال في انتظار أن يتكلم علي ماهر
ـ الجيش عايز هذه الأسماء ترحل من القصر اليوم: «أنطون بوللي» مدير الشؤون الخصوصية، وخادم جلالتكم محمد حسن، و«إلياس أندراوس» المستشار الاقتصادي للخاصة الملكية، ويوسف رشاد كبير أطباء اليخوت الملكية، وحسن عاكف طياركم الخاص، والأميرالاي محمد حلمي حسين مدير إدارة السيارات الملكية، وكريم ثابت المستشار الصحفي لجلالتكم، لكن أنا قلت لهم إنه استقال منذ شهر أصلًا، فصارت الأسماء ستة .
كل خلجة في جسد فاروق كانت تنتفض، فقام ومشى، فلم يملك علي ماهر إلا أن يمشي خلفه. كانت الممرات طويلة، والردهات أطول، يجهل إلى أين تفضي (ومتى تنتهي)، رغم أنه عمل في هذا القصر وغيره سنوات ليست قليلة، وسار في كل مسار فيه إلا أن خريطته عصية عليه. لكن باغته نهار مبهر من شرفة واسعة هائلة المساحة تطل على حديقة من حدائق القصر، وجانب من ساحاته الخلفية، وتراسات مطلة على البحر ممدد عليها أسرَّة وكراسي وموائد محاطة بسور من الورود يشكل إفريزًا للشرفة العلوية التي يقفان فيها الآن
كانت كلمات علي ماهر التي قالها في عيد مولد الملك في فبراير الماضي كأنها تروح وتجيء بين فاروق وماهر في هذه اللحظة: «يوم أعلن البشير مولد الفاروق المحبوب ففاضت قلوب المواطنين بشرًا وسرورًا». هذه عادية جدًّا يا علي، ومبتذلة للغاية، وتليق بخوجات المدارس الأهلية، لكن الأجمل هو جملتك: «فعمل جاهدًا ونهض باكرًا». أأنهض باكرًا؟ متى رأيتني نهضت باكرًا؟ ربما حين أكون لم أنم بعد! أتذكر يا علي باشا بقية حديثك عني في عيد ميلادي منذ شهور خمسة: «وظل طابع التوفيق يلازم خطواته السديدة في الحياة، فتجمعت لمصر في عصره الذهبي براهين الحضارة والتقدم»؟ حدثني الآن عن براهين التقدم في عصري الذهبي يا ماهر باشا! أأنت من اختارك محمد نجيب لتكون رئيسًا لحكومة يفرضونها على ملكهم؟ أنا أحب علي ماهر، فهو مثلي يكره الإنجليز، بل هو الوحيد الذي أثق أنه يكره الإنجليز ربما أكثر مني، يوم هددوني وأجبروني على تعيين النحاس رئيسًا للحكومة في فبراير 1942، ويوم نفوا علي ماهر وحددوا إقامته

وأخرجوه مطرودًا إلى الأرياف بعيدًا عن القاهرة محتجزًا ومجبرًا على الإقامة في مكان لا يبرحه. رجل طيب علي ماهر، لكنه بات عجوزًا، بل عاجزًا عن أن يخرج ألاعيبه، كما يفعل كل مرة،من كُم قميصه كالساحر الهندي في الأوبرج .
أمعن فاروق في صف من عشرات الجنود السودانيين، يتحركون في تسليم لخدمة الحراسة في ركن من أركان القصر. جلس فاروق يتأملهم ناسيًا وجود علي ماهر المتعجل للإجابة التي ينقلها للضباط خشية على ملكه أو على نفسه أو على كلينا يا عجوز .
أعادته وجوه جنوده السودانيين السمر إلى ذلك اللقب الذي جلس «جيفرسون كافري» السفير الأمريكي في تلك الشرفة يحاول أن يستله من جلدي هنا منذ شهرين :
ـ جلالة الملك، إنكم بتصميمكم على السودان تمنعون أي اتفاق مع الإنجليز على الجلاء. عفوًا أنا لا أتدخل، بل أتوسط. احصل على جلاء إنجلترا عن مصر بالكامل كما يعرضون، واترك السودان لاختيار السودانيين ولتفاوض مستقل مع الإنجليز .
ثم بابتسامة رجل كان وراء ثلاثين انقلابًا في أمريكا اللاتينية جاء به الأمريكان سفيرًا لهم في مصر :
ـ مصر بلد عظيم، ولقب ملك مصر وحدها أفضل من ملك مصر والسودان المحتلتين .
قهقه فاروق ليلتها، وكان الجو في مطالع شهر مايو، يتأرجح كل ساعة بين أن يكون ربيعًا أو يتحول صيفًا
ـ في آخر مرة قابلتك يا جناب السفير «كافري»، قلت لك لقد أخلف الإنجليز خمسة وستين وعدًا لمصر بالجلاء، وليس لديهم أي نية للاتفاق !
بدا فاروق للسفير الأمريكي ملكًا على غير صورته الهزلية التي ترسمها له الصحافة الأجنبية كملك لاهٍ مراهق يجري وراء الغواني («هل رأى «كافري» ملكًا أو رئيسًا لا يجري وراء الغواني؟ أو سفيرًا يا «كافري»؟» كان يحدث نفسه). هذا هو وجه آخر لملك مستبد أرعن يتلاعب بحكوماته وسياسييها، لكنه في لحظات كتلك تنتابه جدية تبدو صادقة ووطنية، يا لعجب «كافري»، تبدو مخلصة للغاية! كان الملك فاروق ابن الاثنين والثلاثين عامًا يتكلم بين دخان سيجاره، وبهزات من بطنه البدينة :
ـ في مصر كان لقب الحاكم يتغير من خديوِ إلى سلطان إلى ملك، أما في كل مرة فكان نصف اللقب الآخر لا يتغير أبدًا: صاحب السودان، خديوِ أو سلطان أو ملك مصر وصاحب السودان .
كان الملك قد فهم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن الرهان صار على الأمريكان الذين بدأوا قضم نفوذ بريطانيا في إمبراطوريتها بهدوء ودأب وثعلبة، فقربهم إليه، وقد تضاعفعدد الدبلوماسيين في السفارة الأمريكية، وعرف أن معظمهم في الحقيقة ضباط في تلك الهيئة الجديدة التي أسسوها، المخابرات المركزية الأمريكية، ولهذا جعلهم وسيطًا يضغط أو ينصح الإنجليز بعقد اتفاقية تنهي وجودهم في مصر والسودان، مقابل أن تكون الصداقة المصرية الأمريكية أمتن وأوثق، فلا مطامع لأمريكا في مصر، أو على الأقل ليست
مطامع احتلال ولكن نفوذ سياسي، ليأخذوه، فأنا أكره الشيوعيين كراهية كأني مولود بها، بل رفضت رفضًا تامًّا أن يفتتح الاتحاد السوفيتي سفارة له في مصر، ولكن الإنجليز لعنهم الله قالوا إنهم حلفاؤهم، وأجبروني على أن أفتح للحمر بلدي .

النفس الأخير من السيجار كان عميقًا، فأخرج دخانًا كثيفًا، وسمع «كافري» وهو يرشف من نبيذه، بينما كأس «البيبسي» لا تزال ممتلئة أمام الملك (حرَّم فاروق دخول «الكوكاكولا» إلى القصر، حتى لو طلبها السفير).قال بجدية وبإنجليزية اكتسبت فجأة لكنة أيرلندية، ربما إمعانًا في كراهية الإنجليز أو بصمة مربيته الأيرلندية الشمطاء :

ـ هذه هي الفرصة الأخيرة للإنجليز ولكم، وأقولها لك مرة أخرى الآن، وأنا لا أعتقد أن بريطانيا تصدق، ولا أظن جماعتكم يعتقدون ذلك، ولكني مضطر لأن أقول لك إنكم ستندمون إذا ما سقطت أنا !

كانت دقات الآلة الكاتبة ترن في أذن «كافري»، وهو يتذكر صرامة سكرتيرته وهي تضرب بأصابعها حروفها المعدنية، وهو يمليها آخر سطر في آخر تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية الأمريكية قبيل لقائه بالملك :

علينا أن ننسى أي أمل في الاستقرار في مصر، أو تحول مصر لموالاة الغرب، بل إن احتمال الثورة أو الفوضى الشاملة في مصر أمر لا يمكن استبعاده، نحن نقترب بسرعة من نقطة اللاعودة إذا مضت مصر في هذا الطريق .

وحين سمع كلمات الملك فاروق الآن، فهو يحتاج إلى إضافة سطر جديد على التقرير: «ملاحظة مهمة: علينا أن نتحرك، فالملك يحذرنا أنه سيسقط، ولأنه يعتقد نفسه صاحب السودان فلن ننقذه من السقوط، بل لنفكر مع من سنكون ساعة ارتطام الملك بالأرض ».

التفت الملك فاروق لعلي ماهر الذي حدق في الموج الهائج يضرب في جنبات يخت «المحروسة» الراسي عند رصيف القصر البحري :

ـ طبعًا ضباط نجيب يقولون إنني أتصل بالإنجليز وأطلب تدخلهم .

بوغت ماهر بما يقوله الملك، فهو لم يسمعه منهم، لكنه سمعه من كل من يدور حولهم. لم يجرؤ على السؤال فهذا الخاطر لا يمكن أن يخطر في رأس ماهر ولا حتى رأس الملك، ثم في تردد همس لنفسه: «ولكن من يدري؟ ».

أضاف فاروق :

ـ هل تعرف يا ماهر باشا أن السفير البريطاني عقب حريق القاهرة عرض تدخل القوات البريطانية، فصحت في وجهه (في التلفون في الحقيقة) أنني لن أطلب أبدًا مهما كان، ومتى عشت، تدخل القوات البريطانية؟ ثم لأكلمه بلغة يفهمها قلت له لن أكون مثل «كويسلنج» القائد النرويجي الذي سمح للألمان بالدخول للنرويج، كان طابورًا خامسًا ضد بلده، وأنا لست «كويسلنج»، كما أنني لست نرويجيًّا يا ماهر باشا !

ضحك الملك وهو يضيف :

ـ ولا أحب نساء النرويج، فكأنهن خرجن من غابات الثلج إلى صالونات الحلاقة !

دمعت عينا الملك وهو يقول بعد صمت طال قليلًا، وقد وثب علي ماهر رغم سنه السبعينية كشاب نحوه، ليتمكن من سماع همس الملك الذي بدا مبللًا بالتأثر :

ـ هل يمكن أن يتركوا لي «بوللي» فقط يا ماهر باشا؟

كان علي ماهر قد نسي أمر قائمة الأسماء السبعة (التي صارت ستة بعد اكتشاف استقالة كريم ثابت)، لذلك بدا له الملك الذي كان يحكي منذ لحظات عن مواجهته للإنجليز وقد تحوَّلصبيًّا مراهقًا متعلقًا بالدادة أو بلعبته .

ـ واضح أنهم ضغطوا عليك، وواضح أنهم يجبرونني على كل شيء يريدونه، لكن هو طلب واحد فقط اعتبره رجاءً، ليبقَ «بوللي» معي !

كاد علي ماهر لحظتها أن يصدق ما كان همسًا، في سرائر وأسرَّة القصر، يتردد منذ كان فاروق صبيًّا، أن «بوللي» هو الأخ غير الشقيق للملك فاروق من علاقة والده فؤاد بامرأة إيطالية! كاد يصدق، فوعده أن يتوسط لدى اللواء نجيب ويبقي على «بوللي ».

12

نزل عبد المنعم عبد الرؤوف من سيارته الجيب على أسفلت شارع الهرم، حيث الأنوار الخافتة تنبعث من حديقة لمطعم «خريستو»، ومن عدد من الفيلات القليلة المتناثرة على صحراء ممتدة قبالة الأهرامات التي يخفي الليل شموخها. تطلع إلى السيارات المدرعة والدبابات التي شكلت صفًّا طويلًا على جانب الطريق واقفة. ينتظر عبد الرؤوف قدوم قول عسكري بدبابات إضافية تلتحق به، حيث ينطلقون بقيادته إلى الإسكندرية. زار قيادة الجيش صباحًا بعد ليلتين امتنع فيهما عن الذهاب إلى جمال عبد الناصر. اكتفى من الانقلاب بسماعه في الإذاعة. لا يكره جمال، لكنه أيضًا لا يحبه. عشر سنوات كاملة مضت على معرفتهما (لا يمكن أن يقول صداقتهما)، وسور يعلو كل يوم حجرًا فمترًابينهما. لم يكن امتناع جمال عن رؤيته أو الاجتماع به حين وصل إلى القيادة غريبًا عليه (لا شيء غريبًا عليه، ولا تلك المشاعر التي تطفو الآن في قلبه تجاه جمال عبد الناصر غريبة عليه). لقد شاهدهم يجتمعون وراء الغرفات الأربع، تبادل تهاني نصف دافئة معهم، وتلقى وجوهًا ربع مرحبة، لكن الوضع لم يعد كما كان منذ زمن، لقد فعلها جمال ونفذ ما خططوه معًا وحده. ليس نادمًا، فهو لن يكون واحدًا منهم أبدًا، هم لا يشبهونه، ولم ينصتوا إليه وهو يهديهم إلى الصواب. نعم نجحوا منذ ليلتين فيما حلموا به سنين، وها هم يكلفونه بقيادة الكتيبة التاسعة عشرة، والسفر بها للإسكندرية لحصار الملك في قصوره (كانوا يجهلون في أي قصر أو مكان يمكث فاروق حاليًّا لاجئًا من خطوتهم القادمة)، لكنهم غير خلصاء النية تجاهك يا عبد المنعم؟ بصيرتك كاشفة كنور مبهر لا ينطفئ أبدًا، منذ انقطعت عنهم وانفصلت عن جمال بلا رجعة، فقد خانك وخان جماعة الإخوان يوم أخذته العزة بالإثم، ورفض دمج تنظيمه تحت لواء الإخوان. جمال نفسه الذي ذهب مع عبد الحكيم عامر، وأظن معهما خالد محيي الدين، ودخلوا إلى غرفة مظلمة يملأها البخور وروائح المسك، وسمع جمال هذا الصوت الرخيم الذي يطهر النفس من زللها ودنسها، وينقيها من الرجس بقسم الولاء للإخوان، هو من تخلى عنها وعن عبد المنعم عبد الرؤوف نفسه الذي كان أول من شكل معه خلية الضباط السرية (بل أنا قبله، بل أنا زعيمه) وكانوا كلهم إخوانًا، الذي عرفهم على عبد الناصر هو عبد المنعم، والذي ضمهم إلى عبد الناصر هو عبد المنعم، لم يضم جمال إلا عبد الحكيم عامر، كنا إخوانًا يا رجل!

تلك الجماعة التي تغلغلت في قلب عبد المنعم عبد الرؤوف، وملكت عليه نفسه، وسرت في عروقه مسرى الدم، يتأبى عليها جمال بعدما نشلته من توهانه، لكنها لم تفلح في سلب تيهه عنه فتاه عنها، وإلا كيف نكث يمينه وأخلف وعده وهو المغموس بقامته الطويلة من هامته إلى بيادته في بحرها اللجي؟ كان واحدًا ممن جندهم الضابط محمود لبيب في تنظيم الإخوان في الجيش. ألم تكن كذلك يا جمال؟ أنا عبد المنعم عبد الرؤوف أسألك فأجبني! منذ مات محمود لبيب وجمال يلعب بذيله الثعلبي، ثم خطف منا الضباط الذين جندهم لمجموعته، وسماها أحدهم «الضباط الأحرار» (يعرف أن جمال لم يكن صاحب الاسم، بل أخذه من ضابط آخر انضم بتنظيمه الصغير إلى تنظيم جمال الأصغر، فتراكمت الأعشاب في وكر الثعلب). هؤلاء كانوا جميعًا أعضاء في الإخوان ضمن مجموعتها العسكرية داخل الجيش (هذا ما يكاد يجن معه عبد الرؤوف)، صحيح أن خالد محيي الدين ذهب بعدها لليسار في تحول منحرف، وكذا فإن يوسف صديق غادرنا من قبل أن

يضمه جمال، لكن كلهم بمن فيهم جمال نفسه، يحملون في أعناقهم بيعة للمرشد تطوق رقابهم، وتطيل صبر المرشد عليهم، فها هم يزرعون ما لن يحصده إلا أصحاب راية الحق والدين وليس هؤلاء الناكثين أبدًا

أنت الآن يا عبد الرؤوف مهمل، لكنك كنت قد انتبذت منهم مكانًا قصيًّا، منذ آخر اجتماع معهم، حيث واجهتعبد الناصر بضرورة أن ينضموا إلى الإخوان، ويعملوا بأوامر المرشد، ويأتمروا بتعليمات الصاغ محمود لبيب ولا أحد آخر، فلا قائد لهم إلا من كلفه المرشد بالقيادة. ليس لهذا التنظيم، إن أراد خيرًا أو أريد له خير، إلا اتباع الأسلوب الملتزم في أن يشترط على ضباطه (من فيهم ومن يلتحق بهم) اجتناب الخمر والميسر والنساء الساقطات، وضرورة المواظبة على الصلاة، والطاعة لقرارات المرشد، ساعتها رفض جمال وأبى واستكبر، فلجأت إلى إخوتي في الإخوان أشكو، طالبني لبيب رحمة الله عليه أن أصبر وأظل موجودًا بين جماعة جمال، لعل الله يهديهم بالرشاد، فلا نريد أن نخسره هو ومجموعته :

ـ وهو يا أخ عبد المنعم، إن لم يكن يريد ضم تنظيمه للإخوان، فهو لم يقل إنه نفسه خارج الإخوان !

لكنه كان خارج الإخوان يا أخي الراحل، ونسي عندما كنت أرسلت مع واحد منا مرتبه الشهري إلى زوجته حين كان محاصرًا في الفالوجا شهورًا في حرب فلسطين، كما تفعل الجماعة مع أعضائها! بل لعلك في قبرك الذي يضم جثمانك الشريف لم تعلم أنك وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة تحتضر على فراش المرض، وقلت لإخوتنا إنك ستضع مذكرة بأسماء الضباط الإخوان والمبالغ المتحصلة منهم والمتبقية عليهم، وستودعها لدى جمال عبد الناصر، لما انتقلت إلى الرفيق الأعلى سأله الأخ المصدق، ولا أزكي أحدًا على الله، حسين حمودة، فأجاب جمال أنه لم يخرج من بيت محمود لبيب إلا ومعه الورقة بالأسماء والنقود، لكنه بعدها أنكر، وقال إنك لم تسلمه شيئًا، ولعلك لم تكتب شيئًا أصلًا! أعرفت لماذا كانت كل مشاركاتي في اجتماعات هؤلاء الضباط بعدها، مجرد جلسة بينهم؟ أتركهم يتناقشون لغوًا في السياسة، أو تلاهيًا بحكايات اللواءات والقصر التي يتسقطونها من سراديب القشلاقات أو عيونهم المدسوسين في السراي، وأتفرغ للصلاة، أفرد سجادة صلاة (أحضرها معي) في أي بيت من بيوتهم، في أي من اجتماعاتهم، وأصلي قيام ليل أو صلاة تهجد، وأدعهم يقولون ويتهامسون، وأستغرق أنا في تسابيحي لله، حتى عافت نفسي مشاركتهم، وحتى ملوا من صلاتي

كان عبد المنعم عبد الرؤوف قلقًا في وقفته، حتى إنه يحادث الموتى الآن! يتحسس شرخًا في جدار قلبه يخشى التصدع، فيرممه بشد أزره وتثبيت قلبه، ليس أبدًا قلقًا على أو من المهمة الموكلة إليه (ربما موكلة كذلك لغيره، فجمال لن يأمن له وحده أبدًا). سيصبر على انتصار جمال عليه وعلى الجماعة، فهو نصر مؤقت حين خطف منها التنظيم وسبقها إلى الفوز ببيان إذاعة تاقت له نفس عبد الرؤوف وإخوته، يعلن فيه خلافة الله على أرض مصر، فتأجل نصر الله القريب. أليس جمال نفسه من أرسل إلى المرشد يستأذنه (طبعًا سيقول إنه كان يخبره) بأن الحركة ليلة الثالث والعشرين؟ ويجهل أنني حين زرت قبلها عبد الحكيم عامر في داره فلم أجده، ثم شاء السميع العليم أن قابلت صدفة في طريق العودة الصاغ صلاح نصر فأخبرني اعتقادًا منه أنني ما زلت في تنظيمهم، حيث لم يكن جمال يخبر أحدًا عن أحد، وربما يترافق الضابطان في معسكر واحد وسلاح واحد وفي غرفة واحدة، وربما في مدرعة واحدة، ويجهلان أن كلًّا منهما في التنظيم

نفسه، لكنني مؤسس قديم، وضابط مضرب الأمثال في مناهضة الظلم، فقد كان طبيعيًّا أن يعتقد صلاح نصر أنني معهم، فأنا أصلهم، وأخبرني أن انقلابًا عسكريًّا سوف يحدث خلال الأيام المقبلة، فركضت بالخبر للجماعة، فذهب الخبر إلى المرشد حسن الهضيبي في الإسكندرية قبل أن يرتد إليك طرفك يا جمال. وحين زرت الأخ صلاح شادي الإخواني الجليل ليلتها في داره، مصاحبًا المقدم أركان حرب أبو المكارم عبد الحي، رحب بنا حفيًّا، لكنه تعجل الحديث حيث قد أغلق الباب على ضيوف له في الغرفة المجاورة، لم يكن الضيوف إلا أنت وكمال الدين حسين وآخرين لا أعلمهم، الله يعلمهم، يطلبون من الإخوان مؤازرة حركتكم (سمعت نجيب يصفها بـ«المباركة» أمس، وهي إن بوركت فقد بوركت من الإخوان يا جمال)، وتأخرتم يومًا بليلة في انتظار عودة صلاح شادي وحسن عشماوي لكم بالموافقة من المرشد، لا هو وافق ولا رفض، لكنه علم وانتظر، فلن تكون الإخوان مطية أو ضحية لمغامرتك يا جمال، يلهم الله المرشد صالح الجماعة لا صالحكم ولا حتى صالح وطنكم، فما الوطن إلا الدين يا ابن الحاج حسين

تأخر الوقت وعبد المنعم عبد الرؤوف ينتظر أمر التحرك يأتي مع البقية الباقية من كتيبته. كان الأجدر أن ينتقل الجنود بأسلحتهم بعرباتهم إلى الإسكندرية في قطار حربي مجهز، فيصل محطته المنشودة، لكن كمال الدين حسين (لا تنسَ يا كمال أنك أقسمت للإخوان بالولاء والبراء) الذي تولى قيادة عملية حصار الملك، خشي من هجوم على القطار من قوات موالية للملك أو من الإنجليز (يهزأ بنا كمال وجمال حين يصطنعان توجسًا من الإنجليز)فقرر اتخاذ الطريق الصحراوي سبيلًا .

أيقظ عسكري مندفع من داخل السيارة الجيب عبد المنعم عبد الرؤوف من مناجاة الذات وجلدها، وصاح أن القائمقام أحمد شوقي ينتظره في فندق «مينا هاوس». ها هو إذن القائد الأعلى رتبة بعد نجيب يحضر بنفسه، وسيشرف ويأمر ويقضي. لم يخيب جمال ظنه، فهو لن يأتمنه أبدًا. يبدو أن جمال قد نسي ما رأى في تلك الساعات الأخيرة من مساء يوم حريق القاهرة، أو لعله يريد أن ينسى !

*

وضع جمال عبد الناصر سماعة التلفون بعدما أنهى جملته :

ـ اتحركوا الآن .

ثم نظر إلى زملائه وهو يضيف :

ـ هي مسألة ساعات ولازم نكون مستعدين تمامًا .

لم يكن جمال مطمئنًا إلى حامية الإسكندرية، فلا تزال قواتها محل مد وجزر وصد ورد. هناك قوات انضمت وأعلنت ولاءها لحركة الجيش، بل إن هيئة تدريس جامعة الإسكندرية كانت أسرع هيئة مدنية نشرت بيانًا يؤيد ويبارك في جرأة وشجاعة، كأنهم يتحصنون في قلعة «قايتباي» ولا يجلسون على مكاتبهم في جامعة أفندية. لكن لا يزال الضباط بل الجيش كله يجهل أننا قررنا إنزال فاروق عن العرش. تطهير الجيش شيء، وحماس أن يتسع التطهير ويتوسع إلى مرافق البلد كلها وسياساتها أمر جيد، لكن خلع ملك مسألة محفوفة بالمخاطر! فاروق مقامر وقماره في دمه، هذه ليست لعبة بوكر يلعبها حكيم مع أصحابه في شقتنا القديمة، وأشاركهم بعد لأيٍ وتمنع ورغبة في عدم إغضاب حكيم في لهوه البريء بعشرة قروش أو حتى ريال، هذه ليست حتى لعبة بوكر مما يلعبها فاروق نفسه على موائده الخضراء، يملك أن يكسب ما يخسره إن خسر، هذه لعبة عمره،

والورقة التي سيرميها هي الورقة الأخيرة والوحيدة، لديه قوات الحرس الملكي (هذه فرصة لنرى ماذا سيفعل رجالنا هناك)، ولديه قوات حرس الحدود والهجانة والبحرية. لا خوف من حيدر القائد المقال، فهو مشغول بلملمة كبريائه الملقاة على سجادة شرفته الصيفية، لكن زهران رشدي لا يزال طليقًا. جاءه الخبر صدفة (كما صدف كثيرة تتكاثر)، لكنه أزعجه كما لم يزعجه شيء في الإسكندرية، فضباطنا في الجيش هناك يعتقلون زهران رشدي رئيس قلم البوليس السياسي، ويضعونه في سجن الأجانب، وعندما يعود أحدهم لمقهى على الكورنيش ليختطف فنجانًا من القهوة يجد زهران رشدي نفسه يتمشى على الرصيف مهرولًا، لقد فتح له ضباط السجن باب زنزانته بعدما انصرف رجالنا بدقائق وخرج ! يا ترى ماذا يفعل الآن! هل يهرب ويختبئ رئيس القلم السياسي، أم يخطط ويتآمر؟ أفضل ما فعله أنور السادات أن ذهب بنفسه في مجموعة من البوليس الحربي وألقى القبض على إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسي في القاهرة هنا، في بيته، في غرفة نومه، الأمر يستأهل أن أسأل أنور حين نفرغ مما في يدنا عن وجه إبراهيم إمام وهو يفاجأ بأنور بالذات هو الذي يقبض عليه. كم مرة اعتقلك إمام يا أنور؟ أشعرت بالثأر أم بالتشفي أم بالعدل يزن كفتي ميزانه؟

لا شيء الآن إلا أن يسقط الملك فاروق فلا يتقوى أيهم بأمل، ولا يتشبث أحدهم بوهم. أشعل جمال سيجارته مغمورًا بطيف من البهجة المباغتة، بابتسامة أطلق سراحها بعدما ظلت محتجزة منذ صب الماء على رأسه داخل حمَّام بيته، وقد خطف رجليه إلى منزله الذي يبعد خمس دقائق عن مبنى القيادة. ركب سيارته «الأوستن»، وقد ترك تعليماته للتنفيذ والمتابعة، وخص أحمد أنور الذي جعله بعيد ساعات من الحركة رئيسًا للبوليس الحربي بمزيد من اليقظة. تمنى لو كل الضباط كما أحمد أنور، بهذا الاشتعال الوطني الذي جعله غير مصدق نجاحنا، وبمجرد دخول غرفة القيادة يندفع فينحني على يدي يقبلها ممتنًّا لما فعلته، ومدينًا لما فعلته! دخل عبد الناصر البيت، فقابلته تحية مغمورة بسعادة نجاته أو عودته بالسلامة أكثر من سعادتها لحظة سماعها بيان الإذاعة (لم يأخذها بالحضن، ولا ارتمت بين ذراعيه، رغم هذه اللحظة المشبعة بالفرح والفرج). كان قد ترك شقيقيه في البيت منذ خرج للانقلاب، وأوصاهما ألا يغادرا البيت حتى يعود، فإن لم يعد فعليهما الاهتمام بتسلم المرتب أو المعاش والإنفاق على البيت ورعاية الأولاد. كانوا يعرفون وطنيته، ويعرفون وطنهم، فتقبلوا كلامه بالدعاء له وتقديم الوعود .

ها هو قد عاد متعجلًا، صافحهم وقد تهللوا وتقلقوا: هل الخطر لا يزال قائمًا أو قادمًا؟ هل يبقون في البيت أم يرحلون لبيوتهم؟ لكن جمال قطع حيرتهم حين سمعوه يخبر زوجته أنه سيبقى ساعتين ويخرج. كانت تحية أسيرة للغاية بما فعله جمال، حين أرسل لها الصاغ ثروت عكاشة في السادسة والنصف صباحًا، ووقف عند باب الشقة، وقد استقبله شقيق جمال، فمد يده وصافحه، وقال بصوت واثق يسمعها صوته وثقته :

ـ أهنئك من كل قلبي، لقد نجح الانقلاب !

ردت من خلف شقيق جمال بلهفة ما بعد النجاح :

ـ وأين جمال؟

أجاب مستجيبًا للهفتها بانفعال متحمس :

ـ هو قريب منك، بينك وبينه خمس دقائق .

ثم ودعها طالبًا منها أن تسمع الإذاعة الساعة السابعة والنصف

وسط مشاغل جمال تذكر أن يطمئنني، وأرسل ثروت عكاشة بنفسه وهو مشغول بالتأكيد مثله، ليبلغني الخبر، فهو يعرف أن ثروت وحكيم فقط من أعرفهما من زملائه، وهما فقط من تعرفت على زوجتيهما. هل يا ترى أبلغ ثروت زوجته بالنبأ؟ في التاسعة كان ضابط صف هذه المرة من يحضر ويخبرها أن البكباشي جمال في مبنى القيادة، وأنه بخير والحمد لله، والأهم أنه لن يحضر في وقت الغداء
حضر جمال مساء، فتحمم من عرق وقلق، وقال لها :
ـ سوف يراني أخوك غدًا في الجرائد، وسيرى صوري في عربة جيب مع اللواء نجيب في شوارع القاهرة !
لماذا كان مهتمًّا بأخيها في تلك اللحظة؟ ولماذا أخوها بالذات؟ فكرت تحية أنه فيه الخير جمال، يريد أن يفرح أخوها ويفخر بزوج أخته .
خرج جمال، ولاحظت تحية أنه منذ لحظتها صار يقف عساكر يحرسون باب البيت ومدخل الشارع
*
التفت جمال إلى نجيب الذي يتصدر موقعه من المكتب ودخانه يلتف فوق غليونه، وجمال وصلاح سالم يلتصقان بمقعدين أمام مكتبه، حتى إن دخان سجائرهما يشتبك مع دخان غليون نجيب :
ـ تتفضل سيادتك على الإسكندرية الآن .
رد نجيب :
ـ وحدي؟
ـ لا بد أن تسبق القوات التي أرسلناها لحصار الملك .
حضر عبد المنعم عبد الرؤوف إلى ذهن جمال، فحرك رأسه علامة ألَّا مفر. لم يكن يريد أن يتولى عبد الرؤوف قيادة الكتيبة التاسعة عشرة، ولا أن يكلفه أحد بحصار الملك، فهو أعرف بعبد الرؤوف من أي أحد آخر، هو رجل المهام الفاشلة منذ تعرف عليه، وهو لا يتخلى عن حماسه الفاشل وفشله المتحمس. طيار يقود مع حسين ذو الفقار طائرة حربية ينقلان فيها الفريق عزيز المصري في عملية تكاد تكون جنونًا محضًا لهدف أكثر عتهًا في جنونه: السفر بعزيز المصري إلى البحر أو إلى بيروت، حيث يلتحق بالجيش الألماني النازي، وينضم إلى قوات هتلر، فيقود فيلق الألمان لتحرير مصر من الإنجليز! هل هناك أعبط من ذلك؟ نعم الاعتقاد أنه ليس عبطًا، بل إن هذا البله يعتبرونهبطولة يفخر بها عبد الرؤوف، بل والسادات حتى الآن! هو يحب عزيز المصري جدًّا ويقدره، لكن يظهر أن الرجل من يومها فقد علاقته بالعسكرية، وبقيت مجرد ذكريات لضابط عربي في الجيش التركي ثم في الجيش الإنجليزي ثم الألماني، لكنه تعلم منه فقط أن مقاومة الاستعمار ربما تتطلب التعاون مع استعمار آخر، تتلمذ على يد وطنيته التي تبدي استعدادًا للتحالف مع الشيطان، ولكن فقط أين يمكن أن تلتقي الشيطان لتتحالف معه؟ ومع من سوف تذهب للتحالف مع الشيطان؟ مع عبد المنعم عبد الرؤوف، الرجل الذي يسبق حماسه عقله، ويسبق الاثنين إخلاصه، ويكسب الفشل السباق كله. سقطت الطائرة لعطل فني مضحك، بل ممعن في الهزل، كلما حكاه عبد الرؤوف على أنه بطولة أدرك أنه أكثر سذاجة من أن يفهم أنه ساذج: قالك مهندس الطائرة بدلًا من أن يغلق مفتاح البنزين فتحه، فتسرب البنزين وفقدت الطائرة وقودها واشتعلت، واضطر ثلاثتهم للهبوط في قليوب. وطبعًا بعدها بيومين كان البوليس يقبض عليه

وعلى عزيز المصري، وأنقذه مصطفى النحاس حين جاء بحكومته، فصدر عفو عن عبد الرؤوف، وأعادوه للجيش في
سلاح المشاة، حيث تعرف على عبد الناصروضمه للإخوان، لكن عبد الرؤوف لبس خوذة الإخوان ولم يفكر في أن يزحزحها عن عقله، مسكين، حيرته أناتمامًا حين صممت على أن يكون تنظيمنا مستقلًّا عن الإخوان، هي جماعة منغلقة على نفسها، وتعمل لنفسها، حسنًا هي حرة، لكنني لا أستطيع أن أقنع ضباطًا بأن ينضموا إلى تنظيم إخواني في الجيش يضم الضابط مع الصول مع العسكري، وكلنا نعمل لحساب الأخ المسؤول، حتى لو كان الصاغ محمود لبيب، وهو رجل أحببته، فهو على الأقل أقل غباء من عبد الرؤوف وأكثر ليونة، بل أحبهما إلى عقلي هو عبد الرحمن السندي رئيس التنظيم الخاص المسلح في الإخوان، فهو عقل قادر على الضبط والربط والتخطيط، هو عقل عسكري وتنظيمي أحسن منهم جميعًا. نعم يا عبد الرؤوف، انضممت وأقسمت يا سيدي على المصحف في تلك الغرفة المعتمة، بتلك الطقوس التافهة التي تخض وتغري واحدًا غيري، لكنني لست مثلك منسحقًّا لجماعة، صحيح هي الأقوى الآن، والوحيدة التي تملك جمهورًا مسلحًا ومنضبطًا، لكنها ذات رسالة تطفش الناس مننا، كلام القرون الوسطى ينفر الكثير من الضباط، حتى عبد الحكيم عامر، ورغم أنه انضم مثلي لكم، لكنه فهم الجماعة من اللحظة الأولى، ولم يكن ممكنًا أن تحبس حريته، ولا أن يسلم عقله لها، ورأيت ما رأى .حكيم هو الذي يفهم طبائع الناس، والضباط يحبونه، ودوائره أوسع من أفسح دائرة عندي، وهو ابن العمدة الذي عجن وخبز أهل بلدنا، وهذه الجماعة لا تريد أن تحرر البلد، بل تريد أن تسطو عليه، ولا يمكن إلا لواحد مثل عبد الرؤوف بانتمائه الأعمى والمهووس أن ينسى أن مرشد الجماعة هو الذي قال علموا أولادكم الدين قبل محاربة الإنجليز، أليس الشيخ فرغلي قائد الإخوان في الإسماعيلية هو الذي أحرق كنيسة الأقباط في السويس ليهيج المسيحيين على المسلمين في عز معركة القناة، وقال إن النحاس لا بد أن يجني ثمار حماقته وحده لإلغاء المعاهدة مع الإنجليز؟ طبعًا ستسألني ولماذا أخبرتهم بموعد الانقلاب؟ ولماذا أطلب تأييدهم للحركة؟ (ضربه الخاطر الأسود مرة أخرى هذه اللحظة أن يلحق عبد المنعم عبد الرؤوف مهمة حصار قصر الملك بهذا الفشل الذي اعتاد عليه).
لن تفهم يا عبد الرؤوف، لأنك منذ انفصالك عنا مشترطًا الانضمام للجماعة، وأنت فخور بغفلتك.
أنا أريد الإخوان معي لأنني رأيت الحرائق في شوارع ومباني القاهرة، ورأيت عبد الهادي نجم الدين يوم حريق القاهرة .
لم يكن جمال قد رد على سؤال نجيب المستفهم عن ذهابه وحده إلى الإسكندرية، فقرر عبد الناصر أن يفصل آل سالم عن بعضهما، فكلاهما أصعب معًا على الاحتمال، فقال :
- زكريا مهم جدًّا يكون معك من أجل القوات، ويروح أيضًا جمال سالم .
والتفت إلى أنور السادات الجالس على حرف الأريكة في زاوية الغرفة :
- وأنور .
رد أنور :
- صح .
بينما وثب جمال سالم من جلسته، وقد وجد دورًا يليق بحماسته :
- هيا بنا .

لم يكن نجيب مرتاحًا لمشاركة الرحلة مع جمال سالم، لكن انتشاءه بتلك المكالمات والمقابلات والتعظيمات التي يعيشها منذ ليلتين، جعله يتجاهل أي وغوشة في قلبه من آل سالم بنظارتيهما السوداوين
حين هموا بالوقوف ثم الخروج أعادهم جمال بكلماته :
ـ غدًا الساعة السادسة سيكون بيان تنازل الملك عن العرش .
ثم أضاف :
ـ أي تأخير يهدد كل شيء !
ساعتها دخل الصاغ صلاح نصر دون أن يطرق على الباب، وتوجه إليهم جميعًا بالنظرات، ولجمال بالكلام :
ـ حضرة البكباشي جمال حصلت مشكلة !
فهم جمال فورًا أنه عبد الرؤوف .
أكمل نصر :
ـ تعطلت دبابات في الطريق الصحراوي !
لم يكن عبد الناصر يملك قدرة جمال سالم على الصياح والصراخ وخبط المكتب بيديه وسب الكتيبة التاسعة عشرة اسمًا اسمًا، فقال آمرًا :
ـ يكملون طريقهم ويتركون الدبابات العطلانة مكانها .
ثم رفع نظره إلى نجيب :
ـ الآن وفورًا .
لكن صلاح نصر عاد وأخبرهم، وقد نسوا جميعًا، أن مصطفى باشا النحاس وفؤاد باشا سراج الدين ينتظران لقاءهم منذ نصف ساعة
كان أحمد أبو الفتح قد دخل عليهم بالفعل منذ وقت (نسوا منذ متى تحديدًا)، وأخبرهم أن زعيم الأمة ينتظر في الصالون !

13

يأمل مصطفى النحاس وهو يفتح زراير الصديري أن يتسع صدره فيحتمل هذا الانتظار الذي طال في تلك الجلسة في صالون بمبنى قيادة الجيش. كان أحمد أبو الفتح صاحب ورئيس تحرير جريدة «المصري»، متحمسًا كأنه من قاد الدبابات واقتحم بها هذا المبنى، وهو يحدثهم ويروي لهم ما جرى من أصدقائه ضباط الحركة الذين استولوا على مقاليد البلاد في طي ليل . كان النحاس قد ركب الطائرة القادمة من إيطاليا، حيث يصطاف هناك، مرغمًا على الطيران، فهو يرهب هذا الكائن ذا الأجنحة الحديدية ويفضل عليه باخرة. اعتاد أن يركب البحر فلم يعد يخشى أمواجه مهما تلاطمت، أما ركوب الطائرة فلم يقدر على أن يفلت من شعوره بالخوف منه، فالخطر الجديد عليه أشد ثقلًا من الخطر القديم الذي اعتاده. لكنه فؤاد سراج الدين حين يقرر كأنه يقترح، وحين يصمم كأنه يستشير، رأى أننا لا يجب أن نبتعد عما يحدث في مصر من أحداث، خصوصًا أنها جسام ومرشحة لتكون أكثر جسامة، فنزلا مصر مع عائلتيهما على عجل، ولم يكونا قد تمتعا بشيء من الراحة أو الاستجمام عقب شهور شتاء وربيع تعيسة منذ حريق القاهرة الذي أول ما حرق فيه هي حكومته، حكومة الوفد حين أقيلت، ثم تفحم خشبًا في الحريق برلمان الوفد نفسه حين تم حله، بل تحددت بعدها إقامة سراج الدين، ثم بات سجينًا معتقلًا محرومًا لشهور من الظهور، ومهددًا بالمحاكمة، ثم انطفأ الشرر بعدما حققوا الغرض وأنهوا المقاومة الشعبية في القناة ضد الإنجليز، ورموا الوفد برقع الطين من كل جهة على كل وجه. أخيرًا سمحوا لسراج الدين بالحركة من قفصه إلى منزله إلى حيث شاء، فشاء أن نسافر ونخلص من هذا الجو برائحة شياطه وأدخنة الكراهية، فإذا بالأخبار تأتي من مصر أن الجيش قامت قيامته. ركب النحاس الطائرة، وكان الأمر انقلابًا كما وصل إليه النبأ، ونزل منها وقد تحول إلى حركة مباركة حين وصل هو إليهم .

تعلقت عيناه الملولتان بصورة الملك معلقة فوق رؤوسهم في الصالون، مسكين هذا الملك، كان غلامًا بريئًا ثم صار شابًا دنيئًا! هل ينجح ضباط أحمد أبو الفتح في ترويض فاروق وقد فشل هو في أن يطبب علله فأخذه على علاته وحاول أن يتعامل مع طفل يزن أكثر من مائة كيلو ولكنه فشل؟ أتمنى أن يملك هؤلاء الضباط قلب سلفهم أحمد عرابي ولا يملكون عقله. كانت المرة التي تدخل فيها الجيش وبالًا، هذا الطين الذي نحاول أن نرفعه عن رؤوسنا إنما من وحل ما انغرسنا فيه، حين بدأها عرابي طالبًا مطالب الجيش، ثم صارت مطالب الأمة، وترنحت مصر بعدها بين كونها ثورة تحييها، أو هوجة تلعنها. صحيح أن الموقف غير الموقف، لكن المبدأ هو نفس المبدأ. هل هم نفس الضباط الذين زاروه في البيت ذات مرة وعرضوا عليه تدخل الجيش والخلاص من الملك فرفض ما يقولونه؟ ألم يكن عصبيًّا ليلتها ومنفعلًا ومتعاليًا عليهم، وتعامل معهم كأولاد في شياخة في حزب الوفد؟ لقد أخطأ أنه لم يحذرهم كفاية، أو أنه لم يحسن مرافعته أمامهم، حين قال إن الجيش إن دخل السياسة لن يخرج منها. هل هم نفس الضباط؟ هل قال لهم هذا الكلام فعلًا، أم قاله عنهم، أم أنهم التقوا سراج الدين وهو قد حكى لي وأنا رددت عليه؟ ربما، فقد تشاكلت عليَّ الوجوه وخبت الذكريات من تكالبها على عقلي... لا، تذكرت الآن، لقد كان محمد النحاس، ابن أخي، وقد صعد إلى غرفتي وأخذ يتحدث متحمسًا وممعنًا في الحماس، وهو يدور ويلف حول سريري، يخبرني أن هناك ضباطًا في الجيش قد كلموه وتوسطوا به ليقابلوني، بل إنهم في بيتي

الآن، وإنهم يقدمون استعدادهم للتدخل ضد الملك لو أمرهم الوفد بذلك. صحيح، تذكرت الآن، لقد أعطيت محمد على دماغه، ولم أطق له كلمة. نعم، لم أقابلهم، بل حلفت ما أنا لابس الروب ونازلهم. انصدم مني محمد النحاس. هل هو معهم الآن؟ هل يريد أن يطلع لسانه لي قليل الحياء، ويخبرني أنهم فعلوها يا عمي يا زعيم الثمانية عشر مليون مواطن، بينما نجيب زعيم الثمانين ألف ضابط وعسكري هو من تنتظر لقاءه هذه الليلة، وأحمد أبو الفتح يلف ويدور حول مكتبه الآن كما كنت أفعل حول سريرك؟

كان أبو الفتح يصعد كل عدة دقائق إلى الدور العلوي حيث مكتب محمد نجيب، ويعود مهرولًا بعدها يستنجد بفؤاد سراج الدين أن يستمهل دولة الرئيس ويستميل صبره، فالإخوة مجتمعون في مسألة مهمة، ثم لم ينسَ جورنالجيته، وغمز أنه أمر جلل يخص الملك فاروق. ارتشف النحاس رشفة من فنجان قهوة كان باردًا فعافته نفسه، وخلع طربوشه ومسح رأسه بمنديله القماشي الأبيض، لم يجلس منتظرًا أحدًا في حياته هذا الانتظار إلا سعد باشا زغلول والملكين فؤاد وفاروق. لكن أين كان هؤلاء الضباط يوم حريق القاهرة؟ أليس تأخر الجيش عن نجدة القاهرة، وتلكع قواته، وفرجة ضباطه على ما كان يجري من حريق وتحطيم وتخريب هو ما ألهب النار وأنشب الخراب؟ !

التقطت عينا فؤاد سراج الدين وجهًا يظهر ويختفي بين الضباط، يبدو أنه أنشط ذكور النحل في الخلية، ملامحه ليست غريبة عنه. ولماذا يبدو مألوفًا لرجل مثل سراج الدين رأى نصف الشعب المصري تقريبًا؟ كان الضابط يتفادى أن يواجه سراج الدين بوجهه، ويسرع فيتحدث مع آخرين، ثم يصعد سلالم، ويدق بابًا، ويدخل ويغيب فيعود يهمس لأحدهم ويأمر آخر، ثم يناديه أبو الفتح ليستفهم منه عن شيء، فيجيبه إجابة العارف. آه، عرفت خلاص، إذن تذكرته، إنه أحمد أنور، الضابط الذي جاءني مع فاروق القاضي سكرتيري البرلماني، ومعه شقيق فاروق وهو ضابط منهم أيضًا اسمه جمال، نعم، جاءا لي بناء على طلب متعجل نقله ملحًّا فاروق فوافقت، قيل لي إنهما جاءا مكلفَين لا متطوعَين! نعم، أتذكر عينيه اللتين تجولتا كثيرًا في صالونات قصر جاردن سيتي، يومها جاء حذرًا ومتخوفًا من أن يتكلم أمام فاروق شقيق زميلهم، فاستغربت، ففاروق القاضي هو الذي جلبه لي، ثم ابتسمت له مشجعًا، وقلت :

- تكلم، فاروق ليس غريبًا .

كنت أريد أن أضيف أنه هو الذي جاء بك لي، ثم إن شقيقه معك، لكنني فهمت أن أسرارًا ما أو رسالة مطوية بين شفتيه جاء ليفردها أمامي. سمعت كلماته الرنانة المتحمسة عن أن الملك جاوز الحد، وخصوصًا بتعيينه حافظ عفيفي عميل الإنجليز رئيسًا للديوان الملكي، وسألني متهمًا كمدعٍ في محكمة :

- لماذا لا تتخذون موقفًا حازمًا تجاه هذا التحدي الصريح من الملك؟

ساعتها ابتسم فؤاد سراج الدين، وهو يعود بجسمه للوراء ويرمي دخان سيجاره للأمام، ويقول في بساطة رائقة وشفافة تمامًا :

- لأننا خائفون .

ثم أضاف سراج الدين :

- تريد إجابة واضحة وصريحة، ها هي أمامك ببساطة، نحن طبعًا خائفون .

ردت دهشة عيني أحمد أنور قبل أن ترد كلماته :

ـ خايفين من إيه؟ !
بحسم وبقطع وبسرعة أجاب سراج الدين :
ـ من الجيش. هيَّ دي عايزة تفسير؟ !
كان فؤاد سراج الدين يجر هذه الحادثة من خزائن عقله، رغم أنه لم يمر عليها أكثر من ستة أشهر فقط، فقد شك ساعتها أن هذا الأحمد أنور، وجمال القاضي الذي جاء معه وكان متحمسًا ومنفعلًا حتى وهو صامت، هما من مجموعة الملك في الجيش، من الحرس الحديدي الذي يتزعمه يوسف رشاد طبيب الملك، أو ربما من رجالات حيدر باشا القائد العام للجيش الذي يتبادل مع الوفد كراهية مغرمة، أو من ضباط الإخوان المسلمين جاءوا لينصبوا فخًّا أو يبخوا سمًّا. تحسس سراج الدين حاسة الشك عنده، وتوجسه من كونهما جواسيس عليه، يريدان أن يورطا الوفد في لعب بالجيش أو مع الجيش، لصالح الملك أو ضد الملك، لكن في كل الأحوال سيكون ضد الوفد، لهذا حاول أن يمارس عليهما أحابيل السياسة، فقد ظهرا أمامه متخابثَين بسذاجة . بينما كان أحمد أنور والقاضي معًا متشككَين في أن سراج الدين يحاول استدراجهما بأسئلة تكشف عن حقيقة تنظيمهم داخل الجيش، فهما أنه يستخف بهما ويراهما عيالًا تلعب بمسدسات ماء. سألهما وقد فقد لياقة ذكائه :
ـ فيه ضباط كتير معكم؟
ـ نعم .
ـ أظن فيه سلاح تعبان، أقصد ليس لكم فيه أعضاء حتى الآن؟
هنا فهما أنه فعلًا يستعيلهم فيحاول أن يبدو على معرفة وثيقة بالتنظيم ودواخله ونواقصه، فيقران هما ويعترفان ويقدمان له معلومات. انتفض أحمد أنور هذه المرة، وترك له جمال القاضي فرصة أن يتعصب :
ـ لا، غير صحيح! جميع الأسلحة الآن مستعدة لاتخاذ أي موقف نراه !
كان سراج الدين يشعر لحظتها أن هذه براءة أو بلاهة أو حماسة، فالإجابة إما اعتراف كامل أو كذب ساذج، وكلاهما لا يترك له مفرًّا من الشك، فلما سمع ما عرضا زادت حمولة دهشته، فقد قال أنور :
ـ نحن جئنا هنا لكي نتفاهم على إمكان الاستناد إلى الجيش، فهذا الجيش هو جيش الشعب، وعليكم أن تتخذوا أي موقف قوي، وعلينا أن نقف إلى جواركم .
كاد سراج الدين يقول له يا بني أنت تعرض علينا القيام بانقلاب، أليس كذلك؟ هل هذه شجاعة متهورة أم فخ مكشوف؟
الآن يدرك سراج الدين، وبعد سبعة أشهر، أنه كان عرضًا جادًّا من هذا الوجه الذي تطارده نظراته الملقاة شزرًا والمصوبة قصدًا، همس في أذن أحمد أبو الفتح :
ـ من هذا الضابط؟
التفت أبو الفتح إلى حيث ينظر فؤاد باشا، وأجاب مبتسمًا :
ـ هذا البكباشي أحمد أنور، صديقي .
أومأ فؤاد باشا متفهمًا :
ـ تذكرت اسمه، لكن ما موقعه بين زملائه الضباط الذين قاموا بالانقلاب؟ (لم يكمل الباء في الكلمة حتى حولها إلى الحركة).

ـ لقد تم تعيينه مديرًا للبوليس الحربي تقريبًا في أول قرار بعد إذاعة البيان .
عاد سراج الدين يرقبه، وقد شعر أن هذا الضابط تغير كثيرًا عن يوم زيارته في منزله. طبعًا امتلأ ثقة، وازداد نشاطًا، وتأكد أنه الذي كسب وأنا من خسرت !
كان أحمد أنور قد ضج بالتفافات سراج باشا حول كلامه، ورغبته المفضوحة في معرفة أسماء الضباط في التنظيم. كان الباشا يشتري منه ولا يبيع، فقد سأله عمن يصلح لقيادة الجيش (يا سلام! هل أقول لك اسمًا فتعتبره قائدنا، وأسلم لك التنظيم؟ هل تشك في ذكائي يا باشا؟).
ـ أرجو ألا تهتم معاليك كثيرًا بالأسماء، وكل ما يكفيك هنا أن تعرف بوجود قوة مخلصة في الجيش، وكافية جدًّا، وتستطيع أن تعتمد علينا، وأن تجدنا في أي وقت إذا أردت مساندة ضد الملك .
لا يزال سراج الدين حائرًا من العروض التي تنهال عليه بكرم شديد للقيام بانقلاب ضد الملك، فاستفهم :
ـ يعني؟
بدا أحمد أنور عصبيًّا وحانقًا :
ـ يعني بصراحة نريدكم أن تتخذوا موقفًا وطنيًّا شديدًا ضد الملك !
ـ وإذا أقالنا الملك؟
ـ تتمسكون بمراكزكم، والجيش كله على استعداد للوقوف معكم !
ابتسم سراج الدين وقد دخل السفرجي وخرج بمشروبات من العصائر وأخرى ساخنة، وقدم لهما من صندوق السيجار ما تناولاه بابتهاج، ودخن أحدهما، واكتفى آخر بالدخان الذي ينفثه كلامه، وقال :
ـ لكنكم خذلتمونا مع حيدر! قلنا للملك الجيش كله يكرهه ولا يرضى عنه، ونريد أن نقيله من قيادة الجيش، ولما جاء لكم في نادي الضباط وقفتم جميعًا تحية له، وصفقتم وهتفتم باسمه، وبقى شكلنا وحش جدًّا، فالرجل أثبت أن له شعبية كبيرة بينكم، ونحن طلعنا ناس مفترية !
كان أحمد أنور يعرف أنها نقطة ضعف كبيرة تضرب وعده وعرضه لسراج الدين في مقتل، فالتصفيق الحار لحيدر كان صفعة على وجه حكومة الوفد، وإعلاءً لرجل الملك والملك ضدها، فأجاب سريعًا :
ـ هؤلاء كانوا قلة ولا يعبرون عن الجيش، ووالله لو أتينا بطه حسين قائدًا عامًّا للجيش لكان أحسن كثيرًا من حيدر باشا !
ابتسم فؤاد سراج الدين، وقد سألت ابتسامته: هل هذه سخرية من عمى دكتور طه حسين أم من ثقافته، وكلاهما لا يصلحان لقيادة الجيش، فجاءت إجابة أحمد أنور تتدارك الفهم السيئ الذي علق بابتسامة الباشا :
ـ طبعًا لأن طه حسين يفهم في السياسة .
ثم حسم أحمد أنور أمره، وقال :
ـ يا باشا، جيش الشعب مع الحزب الذي انتخبته الأمة، ونحن معكم حين تتخذون قرارًا وطنيًّا ضد الملك .
كانت عواطف جمال القاضي جياشة تمامًا في هذه اللحظة، فهو ينتظر إجابة الباشا كي يتغير تاريخ مصر، لكن فؤاد باشا لم يحب هذه الطريقة في تغيير مصر على ما يبدو، وأجاب حاسمًا

باصبعه وسيجاره :
ـ ربنا يسهل، لكن رأيي الصريح هو أن الجيش يجب أن يلزم شؤونه .
كانت نظرة أحمد أنور الآن تحدق في فؤاد سراج الدين الجالس في انتظار لقاء محمد نجيب، كأنها تسأله: ها؟ ما رأيك؟ نحن لم نلتزم شؤوننا يا باشا، أو أن هذه هي شؤوننا يا باشا ولكنك لم تكن تفهم؟
*
التفت فؤاد سراج الدين للنحاس باشا يحكي له عن علاقته بهؤلاء الشبان، ويمتدحهم، وأن ممثلًا عنهم قد حضر إليه بعد إلغاء المعاهدة مع الإنجليز، وعرضوا عليه إغراق سفينة في قناة السويس لتعطيل الملاحة وإيقاف إمداد معسكرات الإنجليز في مدن القناة بالسلاح والذخيرة، كانت مصر أيامها في عز نضالها ضد الاحتلال، ستون ألفًا من العمال المصريين في معسكرات الإنجليز انسحبوا من العمل ونقلتهم القطارات مجانًا بأوامر حكومة الوفد، وصرفنا لهم تعويضات عن أجورهم من الإنجليز، جميع موردي الغذاء والطعام ولوازم البناء والحياة قاطعوا معسكرات الإنجليز وتوقفوا عن التعامل معهم، وحاصرناهم بقوات مقاومة شعبية تضرب وتستنزف وتغتال ضباطهم، وتخرب قواعدهم، وقد شارك في تدريب المقاومة عدد من الضباط الجالسين في الدور العلوي، وكانوا نعم الرجال يا دولة الرئيس، وكانت مقاومة رجال الشرطة في 25 يناير إعلانًا عن مولد مقاومة جديدة تشتعل ضد الإنجليز مهما كانت التضحيات، ثم جاء حريق القاهرة ليقتل حكومة الوفد، وتموت معها المقاومة، ويطير فيها الرأس الذي جرؤ وتحدى الإنجليز، حين ألغى المعاهدةمعهم .
كان فؤاد يحكي وأبو الفتح يكمل ويكرر للمرة العاشرة أنه من نبه الضباط بنية اعتقالهم ليلة الانقلاب (أو الحركة، أو الحركة المباركة، ثم أليس بالفعل أنا أحضر إليهم الآن لأبارك لهم ما فعلوه؟ هو انقلاب مبارك فعلًا، فلم يستنكره الوفد، وها هو زعيمه يجلس في الانتظار ليسجل مباركته. إلى أين سيذهب بنا دهاؤك يا فؤاد؟ وحماسك يا أحمد؟)، يتبادلان حوارهما المسرحي المتحمس كأنهما على ما يبدو قررا التسرية عن النحاس لتخفيف ملل انتظاره، وقد غاب عن الدخول إليه أي ضابط من ضباطهم. أمعقول أنهم جميعًا في اجتماع؟ ولا حيَّاه بعضهم، ولا خرج له واحد منهم ليعتذر عن تأخر مقابلته، ولا هبط نجيب بنفسه ليصافح زعيم الأمة ويتلقى التهنئة التي جاء ليلقيها عليهم ويرحل كل إلى سبيله! (لنعرف بعد ذلك أي سبيل هو، سبيل الوطن أم سبيل كل واحد فينا؟ فالوقت مبكر على الحكم ومتأخر على السهر). لكن لا شيء من هذا الذوق قد تم، لم يعتبرها النحاس جليطة، واعتبرها جهلًا، لكنه كان يداري خيبة أمله، ويكره حسن ظنه. تشارك فؤاد وأبو الفتح
في الإلحاح على أنهما شباب وطني متحمس في عمر الملك فاروق نفسه، وأن نجيب أكبرهم سنًّا، فتشكك النحاس: هل نجيب من أتى بهم أم أنهم من جلبوه؟
ـ ألم يكن اللواء نجيب ضيفًا على حفل ومأدبة الملك يوم حريق القاهرة يا فؤاد؟
كان جسد فؤاد سراج الدين الضخم يتفادى السهم الذي صوبه نحوه النحاس باشا بسؤاله. بلى، كان ضمن الضباط الموجودين في تلك المأدبة المشؤومة. تذكر فؤاد أنه وهو وزير الداخلية، لم يكن مدعوًّا لها، بل وزير الحربية الوفدي نفسه لم تتم دعوته، وظل هو ووزير الحربية يحاولان الاتصال بالملك أو بقائد الجيش حيدر باشا، وفشلا حتى منتصف النهار، وقد احترق قلب القاهرة!

مأدبة غريبة يدعو لها القصر بدون دعوة مكتوبة مختومة بالوسم الملكي الذهبي، وأبلغ القصر المدعوين تلفونيًّا، وليلتها وليس قبل وقت مناسب كما كل المناسبات، وتجاهلوا دعوة وزيري الحربية والداخلية، ثم لم يردا على اتصالاتهما أصلًا، ونزل الجيش متأخرًا ومتفرجًا حتى تفحمت العاصمة والحقيقة معًا !

ـ لكن ماذا كان ليفعل اللواء نجيب وهو في حفل الملك ولا يملك من أمره شيئًا، بل كان رئيس مجلس إدارة نادي الضباط المنتخب رغمًا عن إرادة الملك، فضلًا عن التربص الملكي به في أي خطوة أو هفوة؟

ابتسم النحاس، فليس لمحامٍ بارع مثل فؤاد سراج الدين فرصة للدفاع عن موكله إلا واغتنمها، المشكلة هنا أن محمد نجيب لم يوكله !

هذه المرة جاء أبو الفتح مبتهجًا، كأن باب السماء قد انفتح، وليس باب غرفة القيادة، وقد استعدوا للتشرف بمقابلتكم يا دولة الرئيس .

ـ وماله يا أخويا، نشرفهم !

صعد النحاس باشا، فدخل عليهم جلوسًا فوقفوا، لم يتبين عددهم ولا وجوههم، ولم يهتم كثيرًا إلا بحرارة مصافحة الرجل الذي يعرفه، اللواء محمد نجيب، الذي رمى نفسه في حضنه وتعانقا كأنهما أصدقاء طفولة، فأنسته بشاشة نجيب وفرحته وقت الانتظار السخيف. تصافح مع الأيدي الممدودة، وتوقف عند وجه أنور السادات، فقد شهد النحاس في قضية أمين عثمان ضد هذا الضابط الأسمر المتهم بالمشاركة في اغتياله، يومها كانت نظرات المتهمين جميعًا في مخيلته، لم ينسها قَطُّ، وهم يحدقون فيه أثناء الشهادة يمدح الرجل الذي قتلوه، ويشهد بوطنيته ومصريته ورجولته، بينما هم مزقوا برصاصهم لحمه .

أهو واحد منهم إذن؟ كان أنور السادات يعلق ابتسامته على شفتيه، ونظراته على جمال عبد الناصر يسبر غوره تجاه النحاس. لا ينسى أن هدف الخطة منذ شهور كان الاستيلاء على الجيش لإجبار الملك على إعادة البرلمان بأغلبيته الوفدية الذي تم وقفه أو حله أو تجميده، أيًّا كان ما استخدمه نجيب الهلالي من مصطلحات لإنهاء حكم حزب الأغلبية. ها هو النحاس باشا بنفسه أمامنا، ولم يخبره أحد أننا فعلناها من أجله، لأن الحقيقة أننا لم نفعلها من أجله، ولا من أجل وفده. سيحدد جمال لمَ فعلناها في الأيام المقبلة، فكل شيء يتغير. لكن الثابت أن هذا الزعيم الكبير الذي يصافحهم الآن قد حاول السادات قتله، وأكثر من مرة. بل في محاولة من محاولات اغتيال النحاس وهي كثيرة بأيدينا وبأيدي غيرنا كان جمال عبد الناصر نفسه جالسًا في السيارة ينتظر إطلاق زملائه الرصاص على النحاس، وإزهاق روحه، والهروب معًا في السيارة، ولم تتم العملية لغياب النحاس أو تأخره يومها. السادات نفسه كعضو في الحرس الحديدي الذي شكله الملك بقيادة طبيبه يوسف رشاد لتصفية خصوم الملك بالقتل، كان شريكًا في خطط قتل النحاس، ما تم وما لم يتم، وما فشل منها حين تم . نجا النحاس من سبع محاولات لاغتياله، أهو ولي صالح أم أننا قتلة مغفلون !نحن قتلتك يا نحاس باشا، فهل تنتبه لنا، أم أنك بتلك النظرات الريفية واللهجة الأبوية التي توزعها علينا بتهنئتك على ما فعلناه، أبعد من أن تتخيل أنك تصافح من خططوا لقتلك، بل أقسموا على قتلك؟

كان فؤاد سراج الدين يصافحهم بحرارة، ويشد على يد شاب طويل فيهم، يبدو أن أحمد أبو الفتح أوصى فؤاد على أن يخصه بالاهتمام والتهنئة. لاحظ النحاس، وهو الرجل الذي خبر وجوه الناس،

تململ الضباط وزهقهم وإرهاقهم، وشيئًا ما من الجفاء في المسافات الفاصلة بينهم وبينه. لكن نجيب ببحة فرح في حسه، ملأ الصمت كلامًا، حين بدأ يروي حكاية بمجرد ما لمست مؤخراتهم مقاعدهم. يملك نجيب لكل من يلتقي به حكاية. شغله على الحدود، وليالي المعسكرات الطويلة، وحواديت الونس السودانية، جعلت منه، حين يريد، جنرال ربابة، فأول ما يبدأ القول يصلي على النبي الزين، ثم يمسك بمسامع محدثه، لكن هذه المرة كان فرحه منفوشًا كالطاووس فخرًا بأنه مع النحاس زعيم الأمة وجهًا لوجه .

ـ لن أنسى أبدًا يا دولة الرئيس يوم حل الملك فؤاد البرلمان عام 1929، ومنع مجلس النواب من الانعقاد، وكانت أغلبيته طبعًا وفدية، استفزني وأغاظني قائد سريتي، حين قال لي إن زوجته الفرنسية أرادت الانفصال عنه لسكوته على امتهان الدستور، قلت يعني الست الفرنساوية عندها نخوة عننا! أنا بقى الذي تحركت وليس زوجها، قررت أن أزورك في البيت يا معالي الباشا شخصيًّا، وطبعًا لم يكن ممكنًا أن أدخل عليك بملابسي العسكرية والبيت مراقب وحاتقفش، أنا ابن ساقية أبو العلا في الخرطوم، ولوني يعطي على نوبي أو سوداني، قمت لابس جلباب بلدي فوق البدلة، ونطيت فوق سور جنينة حمد باشا الباسل جارك، آه والله، كنت شابًّا، ومليئًا بالصحة، وموفور النشاط أيامها، ومن بيته لبيت دولتك، ودخلت عليكم، وكان موجودًا وقتها مكرم باشا عبيد (كان النحاس يستمع متعجبًا ومعجبًا ومستغربًا هذا الكلام الغريب، ولما جاء اسم مكرم عبيد تعامل على أنه لم يسمعه، وواصل الإنصات حاذفًا من أذنيه اسم صديقه القديم وخصمه اللدود)، وعرفتكم بنفسي، وعرضت على دولتك استعداد الجيش لمقاومة الإجراءات غير الدستورية التي يرتكبها الملك

نظر النحاس إلى نجيب متشوقًا لمعرفة ماذا كان رده على هذا الضابط الغريب الذي دخل عليه بجلبابه الذي بالتأكيد أثار العجب والريبة ليلتها، واصل نجيب :

ـ ومعاليكم جاوبتني بأنك تؤمن بضرورة أن يبقى الجيش بعيدًا عن السياسة .

التفت سراج الدين ناحية وجوه الضباط الصامتة التي تقف تعبيراتها عند منطقة وسطى بين البرود والبلادة، مضافًا إليها احمرار عيون محدقة تشي بأن النوم لم يزرها منذ أيام، هؤلاء لم يبتعدوا عن السياسة يا دولة الرئيس، كل ما كان يخشاه سراج الدين في هذه اللحظة أن يصمم النحاس على إجابته القديمة ويزيد عليها من ضيق صدره بجلسة الانتظار الطويلة بعد رحلة الطيران الأطول، لكن رغبة نجيب في استكمال الحكاية كانت تتحدى إرهاق الجميع

ـ وقلت لي يا دولة الرئيس: «يا ابني أتمنى أن يكون ولاء الضباط للوطن والشعب أكثر مما هو للملك، هذا كل ما أطلبه منكم». ومشيت ونحن نضحك، خصوصًا لما رجعت ولبست الجلباب فوق البدلة، ما أنا كنت خلعتها وقدمت لسيادتك بطاقتي للتأكد من هويتي، وسعادتك والباشوات تمنيتم لي التوفيق ليلتها، وقد حالفني فعلًا

رد سراج ضاحكًا :

ـ طبعًا، لكن بعد ثلاثة وعشرين عامًا .

ضحك نجيب مقهقهًا :

ـ لا، بعدها بعشر دقائق فقط، لأنني وأنا خارج من باب البيت هذه المرة، وليس من سور جنينة الجيران مشي ورائي مخبر من الذين يراقبون بيتك يا باشا، وكل خطوة أمشيها ألاقي المخبر يسير كظلي، قمت جريت على أقرب ناصية، وقمت قالع الجلباب وراميه، ورجعت للمخبر أواجهه

بالبذلة الميري، فالرجل اتفزع لكن عدى بجانبي مسرعًا كي يلحق بالرجل الذي خرج من بيت النحاس باشا .
ضحك نجيب باتساع شدقيه، وشاركه بعض الضباط، بينما رضي النحاس تمامًا على الحكاية، بل سلته فعلًا
كان نجيب يسترسل في قصته، بينما عبد اللطيف البغدادي يتذكر يوم ذهب هو وزميله من سلاح الطيران إلى أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، منذ عشر سنوات، وهما يعرضان عليه قتل النحاس باشا، لأنه قبل تولي رئاسة الحكومة، بعد إجبار الإنجليز فاروق على تكليفه بتشكيل الوزارة، فخاف حسنين من أن يكونا مدسوسين عليه أو أن يتورط إن وافق أو قبل أو لم يرفض، فأمعن في التبرؤ من الفكرة والتنصل من سماعه العرض أصلًا. فجأة لمع اسم رضوان سعودي في رأس البغدادي. أيحدث النحاس عنه الآن أم أنه ليس وقته؟ ثم لماذا يكلم النحاس في مسألته، فالنحاس هو من حبسه، وهم الآن من يملكون زمام البلد؟ أليست قوات
أحمد شوقي وعبد المنعم عبد الرؤوف في طريقها إلى الإسكندرية وهم جالسون في اجتماعهم هذا؟ ألن يقف بعد دقائق جمال وصلاح سالم ليفضا بتدخل فظ أو جملة حمقاء هذه الجلسة؟ لكن غريبة فعلًا، فصلاح سالم مسالم تمامًا، بل على وجهه هدوء لم يألفه قَطُّ وهو يجلس أمام النحاس باشا.
كان صلاح مغمورًا بعد مصافحة النحاس بإحساس طفولي لطف من وهج قلقه في قلبه: أهذا إذن النحاس باشا زعيم الأمة الذي كثيرًا ما وقف في سرادقات منصوبة في الشارع يزدحم فيها خلق الله لإلقاء نظرة عليه وسماع طرف من خطبته؟ هو نفسه الزعيم الذي كان أبوه يهفو قلبه بحبه، ولم ينسَ قَطُّ وهو يترحم على سعد باشا أن يدعو للنحاس الزعيم الجليل بطول العمر
حين بدا أن نجيب قد انتهى من قصته، وأن النحاس قضى واجبه، كاد البغدادي يسأله عن رضوان سعودي المسجون الآن في عقوبة خمسة عشر عامًا وغرامة عدة آلاف جنيه، بتهمة أنه استولى على طائرة من طائرات القوات الجوية التي يخدم بها كطيار، وطار بها إلى قاعدة الجيش الألماني في مرسى مطروح، وأمدهم بمعلومات كاملة عن سلاح الطيران المصري الذي يسيطر عليه الإنجليز، وقدم لهم خرائط الأماكن الحساسة والمهمة في العاصمة، والمطارات الموجودة في أطراف القاهرة مدنية وعسكرية، لكن الألمان انهزموا، وعادوا برضوان إلى ألمانيا، حيث عاش هناك حتى انهزم هتلر، وسيطرت قوات الحلفاء على ألمانيا، فقبضوا على رضوان ورحلوه إلى هنا، حيث قضت محكمة بسجنه وبغرامة هي ثمن الطائرة التي خطفها! هذا ضابط وطني يا رفعة الباشا! كان غيظ البغدادي يذوب مع صلابة أمله أنه هو من سيفرج عن رضوان سعودي قريبًا
لما وقف النحاس وسراج الدين للسلام والانصراف، كان جمال عبد الناصر يودعهما بنصف ابتسامة، منزعجًا من تلك الأناقة المفرطة التي تنطق بباشوية هؤلاء الساسة الذين صاروا طبقة منفصلة عن الغلابة، لا يرون في الشعب إلا جمهورًا يجلبونه في الانتخابات، وفلاحين مؤجرين في عزبهم، أو موظفين مستخدمين في دوائرهم. حاول جمال أن يخفي ضيق صدره ورغبته في الانتهاء من تلك الزيارة المعطِّلة، فوراءنا ملك نجبره على التنازل عن العرش. ضغط جمال على أسنانه، ونزع من بينها ابتسامة، حتى لا يشعر أحمد أبو الفتح بأنه لم يقم بالواجب في استقبال زعيمه، فهو يحتاج أبو الفتح ومدين له أيضًا. لكن ماذا سيكون شعور أحمد أبو الفتح لو أخبره أن زعيمه النحاس باشا وخليفته، إن كان له خليفة، فؤاد باشا، كانا ضمن قائمة الثلاثين سياسيًّا الذين

أعد التنظيم عمليات اغتيالهم، ولولا أن تسعتهم لا يملكون إلا ثلاث سيارات فقط، لربما نفذوا الخطة ونجحوا هذه المرة فيما فشلوا فيه كثيرًا، قتل النحاس؟

14

هزمت الدهشة الجميع، سيارة «جروبي» تدخل بوابة الكلية الحربية، وينزل منها عاملان بملابس المحل الشهير، بذلات بيضاء متأنقةكأنها خرجت من تحت يد الكواء للتوِ (تندر أحد العسكر أنها تبدو وقد كواها الكواء على أجسادهم)، الجاكت طويل ومرسوم عليه كلمة «جروبي» في الظهر، وطرابيش حمراء تنطق بالنظافة، يحملان لفائف من الأطعمة وكراتين مكتوبًا عليها اسم المحل ومحزومة بأشرطة حمراء، يقودهما عساكر حتى زنزانة مصطفى بك أمين الذي طلب الغداء من «جروبي». كانت عدة حكايات عن أم كلثوم وحياتها وبعض من نوادر محمد عبد الوهاب رواها مصطفى أمين للضباط والعساكر، كفيلة بأن ينفتح باب الزنزانة .

تأمل مصطفى أمين الغرفة التي بمجرد ما أغلق الضابط بابها عليه تحولت إلى زنزانة. حاول أن يستلقي على ظهره، ويمدد ساقيه على سرير الطلبة الخشبي الصغير . ابتسم مصطفى رغم الغم الذي يتكدس داخل قلبه، فها هم طلبة الكلية سيتعلمون إذن ضمن منهج دراستهم وتدريباتهم درس وتدريب كيف تقبض على قيادتك الأعلى رتبة. انتفض بغتة، وقرر أنه لن يكون أبو الخير نجيب أبدًا، ولا من هؤلاء الصحفيين الذين يزعمون أنهم مناضلون من أجل الحرية فيحدفون أنفسهم في تهلكة السجون والمعتقلات، لا هو ولا توأمه علي من هذا الصنف، هو محترف اللعب بالنار لكن لا يحترق بها، فإن مسه شرر فعليه أن يطفئها فورًا فالألعاب كثيرة. بدأ يتحدث مع أخيه عبر الباب، وقرر أن يجر آذان هؤلاء السجانين الطازجين إلى زنزانته التي بعد فواتح شهية من قصص وحكايات وعناوين على طريقة «أخبار اليوم»، وأن رجلًا عض كلبًا، انفتح بابها قليلًا ثم اتسع عن آخره، ومع حديثه عن أم كلثوم كان الضابط قد دخل. حيا مصطفى أمين حضرة اليوزباشي (كان قد لمح رتبته، ويعرف أنه ملازم أول، لكن أحب أن يلعب بعواطف الشاب. مرة أخرى إلى الألعاب يا مصطفى!). رد الملازم الذي رقاه سجينه إلى يوزباشي بهمهمة وكلمات مدسوسة في جملة مبهمة انتهت إلى تحية متأدبة :

ـ مساء الخير يا مصطفى بك .

حدس مصطفى من الصعب أن يغيب أو أن يخيب، فقد فطن من كلمة «بك» أن الضابط سلمه مفتاحه، فالضابط مشوش، وقضت عليه حكايات مصطفى أمين (كان قد وجه لعلي أمين ضمن حكاياته التي أراد بها الضباط والجنود سؤالًا استنكاريًّا ومتشككًا: هل سمعت يا علي الشائعات التي قالت إنني متزوج من أم كلثوم؟ كان مصطفى أمين يثق أن أم كلثوم سوف تغفر له أي شيء يقوله في هذه الزنزانة). الضابط حائر إذن، فالرجل الذي يحتجزه منذ ساعات كاتب مشهور ويقرأ جورناله ويسمع عن اتصالاتهوعلاقاته، ولكنه كذلك سجين متهم في أول أيام الانقلاب (صار «حركة مباركة» منذ مساء أمس) الذي قامت به قياداته الوسطى على قياداته الأعلى، وجاءوا بمصطفى أمين شخصيًّا سجينًا، ربما بتهمة مبهمة، لكنها كافية بأن تأتي به هنا إلى السجن مع كبيري القادة العسكريين الذين أطيح بهم من مواقعهم، سواء من اعتقل في مبنى قيادة الجيش أو هؤلاء الذين ألقى الضباط القبض عليهم منمكاتبهم، حيث فوجئ كل قائد سلاح بأحد مرؤوسيه يدخل عليه وفي صحبته عدد من ضباطه ومرؤوسيه الأدنى الذين ربما لا يتذكر سوى أسمائهم الأولى ويخلط بين وجوههم، يرفعون الأسلحة، واتفضل معنا يا أفندم، فتفضل مذهولًا ومأسورًا. لا

قائد سلاح واحدًا كان ضمن التنظيم، ولا قائد سلاح واحدًا خارج هذه الزنازين (إلا قائد البحرية، فهو هناك عند البحر). مصطفى بك أمين إذن غنيمة مهمة تثير الفضول أكثر لهذا الضابط .
كانت الغرفة المقابلة قد انفتح بابها أيضًا، كي يظهر منها علي أمين. وقد استغرب مصطفى كيف لحق علي أن يرتدي بدلته بكامل أناقتها، والكرافت المحكم المربوط بإتقان، وحتى المنديل الأبيض الذي يبرز من جيب الجاكت، في تلك الدقائق التي كان عشرات الضباط والجنود يملأون أثناءها غرفة نومه، ويسيحون في بقية شقته، في حملة اعتقال عز الليل التي جرت؟! ثم كيف حافظ على هذه الأناقة وهو يصحبهم مسيرًا مقبوضًا عليه حتى شقة مصطفى ينتظر في غرفة استقبال أخيه القبض على توأمه في غرفة النوم؟ ثم كيف استمرت هذه الأناقة وهو حبيس في الزنزانة لم يلم شتات روحه الزائغة في عينيه؟
بينما مصطفى يتماسك ويتمالك أعصابه ويستعيد زمام عقله الذي سقط من ظهر حصانه لساعات، ثم عاد ليقفز إلى مكانه جوكي حذق يعرف أن السباق لم ينتهِ بعد، كان علي أمين مهمومًا ومستغرقًا بوجهه الذي احمر وتعرق في البحث عن سر هذه الغضبة السريعة والعنيفة التي قذفتهما إلى تلك الحبسة، لكن مصطفى كان يعرف السر، فسأل الضابط :
ـ والقيادات المحبوسة هنا، بتاكل ولا صايمة؟
لم يفهم الضابط السؤال، فقال مصطفى مبتسمًا :
ـ لم نلحق الإفطار في البيت لظروف حضرتك خير من يعلمها، وحتى الآن لم نأكل لقمة واحدة !
ثم ضحك :
ـ طبعًا معدة مثل معدتي أنا وأخي لا تستطيع أن تحتمل جوعًا مدة أطول، وأنا فاهم أننا محبوسون، لكن معدتنا ليست كذلك !
ثم أضاف :
ـ نحن توأم، فمتى أحس أحدنا بالجوع مات الآخر من الجوع !
أنهى مصطفى أمين حيرة الضابط، فهما لن يأكلا من ميس العساكر ولا الضباط، وما هو موجود لا يملأ بطون السادة المعتقلين كلهم، ولهذا سيطلب طعامًا على حسابه من «جروبي »:
ـ ليست هناك أوامر بتجويعنا، أليس كذلك؟ ثم الغداء على حسابنا، مجرد مكالمة تلفونية لـ«جروبي» يملي عليه أحد العساكر العنوان ويخبره أنه لمصطفى أمين، والمحل سيتصرف، فهو يعرف طعامنا المفضل .
ثم بجملة مبتسمة وعفوية :
ـ ويقوله إن مصطفى بك عازم جماعة أصحابه .
*
دخن مصطفى أمين سيجارته وهو جالس بجوار أخيه، وقد جمع عساكر بقايا طعامهما، وانضموا إلى آخرين خارج الغرفة (عندما ينفتح بابها تصير غرفة متواضعة للغاية، وعندما ينغلق بابها تصبح زنزانة رفيعة المستوى)، همهمات يفك شفرتها كلاهما، وعبارات تكتمل بنظرات، وأجوبة تحمل أسئلتها، وعناوين لا تحتاج موضوعات لتكتب تحتها .
ـ إذن هو مرتضى المراغي يا مصطفى؟
كان مصطفى أمين قد عاد في ذات الطائرة التي انطلقت من الإسكندرية فجر الثالث والعشرين من يوليو (كان واضحًا لدى الأخين أن هذا اليوم سينضم إلى إخوته من الأيام التي يحفظ التاريخ

أرقامها). كان مرتضى المراغيوزير الداخلية في الحكومة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة وتحاول أن تنقذ نفسها من الحبال التي التفت حول رقبتها في القاهرة، حين سيطر الضباط على مبنى قيادة الجيش. كان يهرع في مشيه نحو الطائرة عند غبشة الفجر التي لم تطلق سراح النهار بعد، الأضواء في ساحة الإقلاع في المطار بدت أكثر خفوتًا، وأزيز الطائرة أعلى صوتًا وأكثر إزعاجًا، وموظفو المطار وضباطه ملمومون حول الوزير المتوتر المتعجل الصعود إلى الطائرة، يخبرونه أنهم جاهزون فورًا، وسألهم للمرة العاشرة عن الوقت الذي تستغرقه الرحلة إلى القاهرة، فقالوا عشر مرات عشر إجابات تتراوح في فروقاتها بين الخمس دقائق وربع الساعة . لكن مصطفى أمين أدرك حين جلس في المقعد المواجه لمرتضى المراغي في الطائرة الصغيرة، أن كل شيء بعد الستين دقيقة المقبلة سيكون مختلفًا عما خبره وعجنه وخبزه في السنوات الماضية التي كان فيها لاعبًا ينتقل بخفة ورشاقة لا تناسب بدانته، بجريدته الأشهر، من حبل إلى حبل، ومن نقيض إلى منقوض. تابع مرتضى المراغي وهو يحاول أن يخلع عنه ثوب أبيه الذي يدثره على مدار مساره، هو نجل شيخ الأزهر مصطفى المراغي، ومن ثَمَّ فيتوقع الكثير منه أن يكون شيئًا من أبيه إن لم يكن أباه نفسه، لكن الابن كان شغوفًا بالسياسة، حتى بات بعد حريق القاهرة وزير الداخلية في الحكومات التي تغيرت وتبدلت وبقي هو، حتى إنه حتى ثلاثة أيام مضت كان وزير الداخلية والحربية معًا ثم اكتفي له بالداخلية. مد الرجل كل الجسور مع كل الأطراف، منطلقًا من أنه ليس له

مكان في حزب الوفد، ولن يتمتع داخله بما يمكن أن يفوز به خارجه. وقاد مع نجيب الهلالي صيحة التطهير التي كان مقصودًا منها ضرب الوفد في مفاصله كلها. شارك مصطفى أمين بجريدته في الدعاية للتطهير باعتباره تطهيرًا ضد فساد الوفد وحكوماته في التعيينات الإدارية وفي الوظائف الحكومية والمناقصات والمزايدات، وفي عدة أسابيع على يد مرتضى ومصطفى ساد أن الفساد لا يأتي من قصر الملك، بل من بيت الأمة. لكن الملك كان يتشكك في مرتضى المراغي، ويراه رجل الأمريكان أو الإنجليز، أو رجل الاثنين في البلد، وأن هذه الحملة ستطول الملك ورجاله حتمًا، وتحسست حاشيته كلها طرابيشها . لم يكن هذا بعيدًا عن الحقيقة، ولم يكن المراغي بعيدًا عن الإنجليز، مستر «كروزويل» القائم بأعمال السفير البريطاني هو نفسه من أطرب المراغي بأن حكومته ستستمر في الحكم طويلًا، لكن بعدها بأربع وعشرين ساعة تتبخر الحكومة وآمالها وحلم المراغي، حيث جنازير الدبابات التي كسرت أسفلت الشوارع تمضي إلى مبنى قيادة الجيش، فاضطر المراغي أن يركب الطائرة عند الفجر مصطحبًا معه مصطفى أمين، الذي كان يملك ما لا يملكه المراغي من أرقام تلفونات الشخصيات التي يمكن أن تضع حدودًا لما لا حد له .

هنا بالضبط يفهم مصطفى وعلي أمين البيان الذي سمعاه معًا من الراديو، الذي وسط أبخرة أطعمة «جروبي» شهية الرائحة كان شغالًا من غرفة الضابط، متباهيًا بما يذيعه بأصوات اللواء نجيب وحناجر المذيعين البليغة ولجلجات الضباط الذين يقرأون بيانات الجيش مكررة كل دقائق. الساعة الثالثة عصرًا سمع مصطفى وعلي اسميهما في الإذاعة، فقد نما إلى علم القيادة العامة للقوات المسلحة من مصادر مختلفة أن الأستاذين (ابتسم مصطفى لهذا الاحترام البالغ لرجلين يتهمهما الجيش بما هو تالٍ) على اتصال بأفراد يهدفون إلى هدم حركتنا الوطنية المباركة .

أكمل التوأمان الإنصات للبيان، ثم انفرجت ابتسامة كبيرة في ذات اللحظة موزعة بالتساوي على شفاههما، فقد اختتم البيان سطوره بجملة أقبلا بعدها على طبق الحلوى ليلتهماه: «وسوف يطلق

سراحهما فورًا بمجرد عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية». لكن في وسط قطعة الجاتوه الملتهمة سأل علي أمين أخاه :
ـ ومتى تعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية؟
فرد مصطفى ينزع شوك همومه من كلماته :
ـ وما هي المجاري الطبيعية أصلًا التي ستعود إليها الأمور؟
أطرق مصطفى مؤكدًا أنه مرتضى المراغي فعلًا :
ـ لماذا؟
كان مصطفى أمين يجيب، ولم يكن في حاجة للسؤال، فكأنما أراد أن يعترف لنفسه أو لأخيه أو لكليهما، أنه كان شاهدًا ومشهودًا على هذه الاتصالات التي حاول فيها المراغي فعلًا أن يهدم الحركة التي لم يكن يعتقد أنها مباركة. كان المراغي ينتظر هذا الرجل الغامض القادم إليه على عجل، وكان مصطفى أمين يعلم من هذا الرجل، ولمَ هذه العجلة. فقط لم يكن يعلم ساعتها إلى أي حدٍّ كانت الحركة قد بوركت، لم يكن الضابط الأعور قد رد على مكالمته حتى الآن، فلماذا ذهب مصطفى أمين كي يلتقي الضابط الأعور شخصيًّا بدون موعد، وبدون تردد عرف أن المراغي قد قال ما لن يباركه أحد من رجال الحركة المباركة والمباركين .
تطلب الأمر أن يهمس وأن يسرع مصطفى بشرح الأمر كله لأخيه الذاهل عما جرى في ليلة أسقطت كل أصص الزرع التي وضعها في شرفة حياته
*
أحس مرتضى المراغي جفاءً في صوت محمد نجيب. حاول اللواء أن يحمل صوته ودًّا، لكن فشل رغم إخلاصه. كان يسكت قبل الجواب عن أي سؤال أو طلب أو اقتراح من المراغي، حتى يتمكن من أن يتسمع ما يقوله شخص ما بجانبه، فيكرره نجيب، ويطلي كلامه بهذا الهدوء المصطنع والعفوية المزيفة. رفض المراغي، وقد وصل إلى مكتبه في الداخلية بعد أن خاضت السيارة التي كانت تنتظره بسائقها (أخيرًا وجد أحدًا يعمل شغله في هذا اليوم الأغبر) طريقًا من المطار إلى وسط المدينة، توزعت فيه العربات المدرعة وسيارات الجيب، بحيث لن يزدحم للقاهرة النهار التالي إلا وقد تلونت بالكاكي. لازمه مصطفى أمين كما التصق به في طائرة مصر للطيران التي ظل يبحث عن مندوبها في الإسكندرية من الثانية صباحًا، حتى عثر عليه البوليس مع مطلع الفجر، فوصل وزير الداخلية المطار ليجد مصطفى في انتظاره، وأفاق ساعتها إلى أنه لم يغادر مكتبه طوال اليوم، وظل بين مجالسته في مكتبه أو خروجه لمكالمات تلفونية يجريها مع القاهرة يتسقط منها الأخبار، أو مع شخصيات أجنبية باللهجة اللندنية أو باللهجة الأمريكية (ينسى المراغي أن المكالمات تجري عبر سويتش وزارة الداخلية، وعامل التحويلة لا يحول أذنه عن أي مكالمة حتى لو كانت لوزيره شخصيًّا). وصلوا إلى ثكنات قصر النيل، حيث تلك المساحة الشاسعة المطلة على النيل، تملأها معسكرات الجيش بعد أن رحلت عنها القوات الإنجليزية منذ المعاهدة لتسكن في قناة السويس. سأل السائق عن اللواء نجيب، فقيل له إنه ليس موجودًا، فلما أخرج المراغي رأسه من نافذة السيارة، وعرف الجنود الواقفين على البوابة أنه مرتضى باشا وزير الداخلية، لم يجدوا أي مشكلة في إضفاء بعض الرهبة على نفس الإجابة أنه ليس موجودًا. انطلق إلى مكتبه في وزارة الداخلية، داعيًا أن يكون أحد قد أفاق لعمله في الوزارة بعد كل ما حدث ليلًا وفجرًا. تذكر منذ أسابيع، حين استدعى اللواء نجيب على وجه السرعة فأسرع وحضر، مبتسمًا وصموتًا جلس

نجيب يومها بانضباط ضابط أمام وزير حربيته، وسمع من المراغي أوامره التي غلفها بورق هدايا من «جاتينيو» حتى تبدو رقيقة ومتواضعة، حيث يعرف أن عددًا من الضباط يلتمون على نجيب يسخنون أذنيه باعتباره رئيسًا لنادي الضباط، ضد إرادة الملك، مما يجعل محمد نجيب يخشى على خدش شعبيته داخل الجيش إن بدا ميالًا للتهدئة. ملف نجيب في الداخلية والحربية في درج المراغي، لكنه يثق في أن هذا اللواء المتخابث يدرك اللحظة التي يجب أن يتفادى فيها الرصاصة، لا يمكن أن يكون نجيب قد نسي هذا الاجتماع، خصوصًا أنه استجاب لرغبة المراغي فعلًا، لكن الملك بعدها تحامق وعصف بمجلس نادي الضباط كله، وحل المجلس بمن فيه، ثم في ذات قرار الحل أحل علي الأخغير الشقيق لمحمد نجيب مكان أخيه، أهذه المرارات عالقة في جوف محمدنجيب يا ترى؟

عقب إذاعة بيان الجيش في الإذاعة صباحًا، عرف وزير الداخلية المراغي أين يجد اللواء نجيب أخيرًا، هو إذن في مبنى قيادة الجيش، لكن المفاجأة أن اللواء نجيب هو من وجده. دخل سكرتيره مفزوعًا ينتفض يخبره أن ضابطين مسلحين بالأسلحة الأتوماتيكية خارج المكتب يطلبان مقابلته .

حاول المراغي أن يبدو متماسكًا وهو يرد :

ـ أدخلهما .

دخلا بعد لحظات بخطوات عسكرية صارمة، وأديا التحية العسكرية (كنت يوم الأحد الماضي وزيرهما! ربما يتذكران !).

قال أحدهما بلهجة مهذبة ومحايدة :

ـ معالي الباشا، نحن مكلفان من مجلس القيادة بدعوتك إلى مبنى قيادة الجيش .

جاء رد المراغي هادئًا، وإن لم يستطع أن يخفي طنينًا من التوتر يحوم في نغمات حروفه :

ـ هل هذه دعوة للحضور أم أمر بالقبض؟

كأن السؤال أفزع أحد الضابطين، ويبدو أنه الأقدم، فرد سريعًا :

ـ دعوة يا أفندم طبعًا .

ـ وهل الدعوة تتم بالسلاح؟ !

أشار مرتضى المراغي إلى سلاحهما المشهر في مكتب وزير الداخلية (الدخول بالسلاح نفسه كان وقاحة تجاوزها، لأنه كان يتوقع وقاحات أشد).

رد الضابط :

ـ نحن آسفون للغاية، فهناك أوامر لنا بالتحرك بالسلاح وفي حراسة مشددة .

انتبه المراغي أن مصطفى أمين لم يكن موجودًا ساعتها. أين ذهب؟ أهو في المكتب، أم خارجه، أم خارج الوزارة؟ عاد للضابطين بنظراته وتحية تشبه تعظيم السلام بعرض كفه :

ـ عمومًا شكرًا على الدعوة، وأنا كنت أريد أن أقابل اللواء نجيب منذ الصباح .

رد الضابط مستغربًا :

ـ لكن ليس اللواء نجيب من يدعوك للقائه، بل البكباشي جمال عبد الناصر .

إذن نزلت يا مراغي من لواء إلى بكباشي يريد لقاءك! وعدهم بالذهاب إليه بعد انصرافهما، وشكرهما على أداء المأمورية وتبليغ الدعوة. لم يجدا ما يفعلانه، ولم يكن قد أمرهما البكباشي بشيء إن امتنع عن مصاحبتهما فمشيا. ثم إذا بصوت جرس التلفون يرن صارخًا، ويبلغه عامل التحويلة أن اللواء نجيب على الخط. كان صوته الجاف المعبر عن جفاء مغلف بالأدب الجم يتلجلج

يجيب على كلام المراغي الذي أخبره أنه كان يبحث عنه نيابة عنحكومة الهلالي باشا، ومفوضًا منها للسماع إلى طلباتكم يا سيادة اللواء .
ـ لكن الملك كلف الآن علي باشا ماهر بتشكيل الحكومة الجديدة، والهلالي قدم استقالته !
حاول المراغي ألا يكون مثل البوليس الذي يحضر دائمًا في نهاية الفيلم بعد أن يكون أنور وجدي قد أنقذ ليلى مراد من براثن العصابة، وبلع إهانة المفاجأة، ومفاجأة الإهانة، في جوفه، وقال له متكاذبًا إنه كان يريد مقابلته لهذا السبب وإبلاغه باستقالة الحكومة .
بعدها بساعة، كان أحد سكرتيري السفارة البريطانية قد وصل إلى منزل المراغي. انتقل له المراغي من مكتبه مباشرة، بعدما أرسل أحد رجاله الثقات إلى السفارة البريطانية ليلح على مقابلة عاجلة .كانت السفارة مضطربة في لهاثها حول ما يجري أمام عينيها في القاهرة، وكل مسؤوليها مستغرقون في المكالمات الدولية، وقراءة البرقيات، واجتماعات تقدير الموقف، ولأنه المراغي الرجل المقرب الموثوق به، والذي كان الرهان عليه منهم ومن الأمريكان يتراكم بورق «الآس» في «بوكر» سياستهم، فقد تخيروا دبلوماسيًّا شابًّا من سكرتيري السفارة، وأوفدوه للمراغي باشا (فنجان قهوة وتعود سريعًا، فالفريق كله مجتمع ولا يجب أن يغيب عنه في تلك الأوقات أحد).
لكن عندما عاد السكرتير إلى السفارة، وجلس في مكتب يطل على النيل، يجلس خلفه «كروزويل» القائم بأعمال السفير، وحكى ما أخبره به المراغي باشا، قام «كروزويل» كأنما احترق مقعده، وراح ليطفئه عند المراغي. ركب سيارته، وانطلق «كروزويل» بنفسه إلى منزل المراغي، وقد لحق به قبل أن ينزل المراغي لركوب سيارته قافلًا إلى الإسكندرية، يلجأ من النهر إلى البحر .
فاجأ الباشا المصري المسؤول البريطاني :
ـ الملك انتهى، انتهى تمامًا وبلا فائدة !
بدا أن المراغي يهذي مصدومًا أمام المسؤول البريطاني، لكن المراغي زاد ليضرب القاضية على دماغ الإنجليز والملك معًا، فلم يعد يطيق أكثر من ذلك أن يراهن على مغفلين :
ـ انقل إلى حكومة صاحب الجلالة أن الضباط الذين قاموا بهذا الانقلاب لن يتوقفوا عند ما يقولونه من تطهير الجيش وهذا الهراء، وسوف يقضون على الملك فاروق، إن لم يكن اليوم الأربعاء فربما غدًا أو بالكثير بعد غدٍ .
حاول «كروزويل» أن يهدئ روع المراغي، الذي لولا أنه العقل الذي كانوا يلجأون إلى استشارته في السياسة المصرية والتعامل مع الملك والتخطيط للإطاحة بالوفد، لما تعامل بجدية مع ما يقوله، لكنه قدَّر أن الرجل منفعل، فنزل بنبرة صوته إلى ما يشبه الطريقة التي يروي بها قصصًا لأطفاله حتى يناموا :
ـ لكن رئيس الديوان الملكي حافظ عفيفي قال إنها زوبعة في فنجان، وإن المسألة انتهت، وبعض ترقيات الجيش وزيادة المرتبات ستنهي هذه الحركة !
غضب المراغي من الاستخفاف برأيه لدرجة مواجهته برأي حافظ عفيفي، فصاح :
ـ عفيفي مغفل مثل ملكه تمامًا! هؤلاء الضباط شيوعيون وإخوان مسلمون، وربما يقررون قتل الملك! ودعوتهم لاحترام الدستور ذرٌّ للرماد في العيون، لأنهم سيشكلون حكومة عسكرية، وسيرمون علي ماهر بعد بضعة أسابيع !
بهت «كروزويل»، فكأنه صدق الآن المراغي :

ـ وماذا نفعل؟ !
ـ أنقذوا الملك الغبي من غبائه
حين ركب المراغي سيارته أمر سائقه بالعودة من الطريق الزراعي. فضَّل أن يبقى في حضن قرى ومدن وهو يمضي إلى الإسكندرية عن أن يمضي وحيدًا في الصحراء، مكشوفًا في أرض عارية .
ساعتها كان مصطفى أمين لا تنطفئ سيجارته أبدًا، وهو يسمع «وليم ليكلاند»، إنه مجرد ملحق صغير في السفارة الأمريكية، وشاب يبدو بلا أهمية حين يقف وسط حفلات السفارة وكوكتيلاتها التي لا تفرغ منها زجاجات الشمبانيا والويسكي، حيث إن «جيفرسون كافري» السفير الأمريكي، كما أدرك مصطفى أمين، حريص تمامًا على شيئين فقط في حياته في القاهرة: الصلاة والويسكي، وهو يدمن الاثنين معًا. لكن هذا الشاب هو الرجل الأهم في السفارة، هو ضابط المخابرات الأمريكية، بل هو السفير الحقيقي. لم يتوقف كلاهما عن الالتقاء على أغدية وأعشية في مكتبه بـ«أخبار اليوم» أو مكتب «ليكلاند» في السفارة، لكنهما اليوم وفي هذا الصباح التقيا على عجل في بهو هذا الفندق، وأخبره «ليكلاند» أن وزير الخارجية الأمريكي تلقى اتصالًا مفزوعًا من الإنجليز (يبدو بسبب ما قاله لهم مرتضى المراغي)، وعبر السفير البريطاني في واشنطن لوزير خارجيته، أن ثورة شيوعية قامت في مصر، وأن الحكومة الإنجليزية لا تعرف ماذا تفعل: هل تتدخل وتنقذ الملك، أم ترفع يدها وتتعامل على أن ما يجري بين الملك وجيشه شأن داخلي؟
كان مصطفى ملهوفًا على معرفة نهاية الاتصال. حدق فيه «ليكلاند» بعينه الواحدة، وهو يتحسس عصابة سوداء أغلق بها عينه العوراء، وقال :
ـ لقد كتبت البرقية بنفسي، التي اعتمدها السفير الأمريكي ووزير الخارجية الأمريكي نفسه، بنصها وعنفها: «أمريكا تحذركم من التدخل، ومن المساس بالضباط ».
الآن، ومصطفى أمين خلف باب زنزانته المغلق، يتمنى أن ينقل لجمال عبد الناصر تقرير السفارة الأمريكية كي يطمئن أن الإنجليز لن يتدخلوا .
لكن لماذا ينقل لجمال عبد الناصر، هذا الضابط الذي لا يعرفه؟! لماذا لا يقول ما يريد أن يقوله، وهو خطير ومهم، إلى محمد نجيب شخصيًّا؟
ابتسم مصطفى أمين، فطعام «جروبي» فتح شهية الضباط إلى الثرثرة، وكان اسم جمال عبد الناصر هو الذي يتردد وحده !

15

ـ فقط لو اقتنع جمال عبد الناصر لاقتنع الجميع .
كان جمال سالم قد وضع خوذة الطيار على رأسه، وأغلق أذنيه عن أزيز مروحة الطائرة العسكرية. لم يفتقد مقعد الطيار، فلم يشغل بالهمنذ سنواتبأن يقود طائرة بعدما سقطت به طائرته (لا يحب أن يقول سقط بطائرته، فهي المسؤولة عن السقوط وليس هو)، وحطمت عظامه، حتى سافر لأمريكا للعلاج هناك، فأعادوا عظامه، وأعادوه إلى مصر حيًّا من أجل هذه اللحظة. زاد من تحديه، وضغط على أعصاب ثلاثتهم، وهو يزعق ويصرخ فيهم، يستحثهم على طاعة ما يقول والاستجابة لما يريد :
ـ لا بد من إعدام فاروق !
كانت نظارته الغامقة (لا يحب أن يصفها بالسوداء، فلو سوداء فلن يبصر شيئًا. لماذا لا يفهمون ذلك؟) قد ضببها عرقه من حر حرارته وحر الغرفة رغم انفتاح شباكها على البحر يرمي بصوت لجب الموجوقيظ الصيفعليهم في ذلك المبنى الحجري الأكبر من أقرانه داخل ثكنة الجيش في محطة مصطفى باشا فاضل (همس لنفسه، أليس هذا حما سعد زغلول الذي كان حبيب الإنجليز، وقدزوَّج ابنته من الرجل الذي قاد ثورة ضد الإنجليز؟). لم يطق ساعتها تلك الميوعة والرعونة التي يتحدثون بها، أو بالأحرى التي يصمتون بها أمام صراخه وصياحه. جنن فتورهم حماسه، فكيف يرفضون إعدام الملك؟ ها هم في الإسكندرية، والملك يبعد عنا عدة كيلومترات في مكان ما من قصوره. لم يكن وصلهم بعد أين يمكث الملك في عاصمته الصيفية، مما زاد فتيل حنقه اشتعالًا ضد هؤلاء الضباط الذين فقدوا عقولهم، ولم يراقبوا الملك، بل كان منهم من يجزم بوجوده في قصر المنتزه، وآخرون يأتون إليهم بنبأ هروبه إلى قاعدة في أبو قير، بينما بحث بعضهم عنه في قصر رأس التين. هذه هي الرعونة التي ما كان يتحملها مرتين: عدم العثور على الملك، وحين يجدونه يرفضون إعدامه !
شخط في محمد نجيب الجالس وراء المكتب (كلما رأى نجيب مكتبًا جلس في صدارته). كان نجيب في الحادية والخمسين من عمره، لكن جمال سالم يشعر أنه عجوز وقديم، فكان يزعق فيه كأنما يخلص حقه من الجيل الذي أضاع مصر! نعم الرجل معهم الآن، لكن لا لشيء إلا لأنه يبدو عجوزًا. لم يعنِه رأيه، بل ركز عينيه من خلف نظارته في وجهي زكريا محيي الدين وأنور السادات، وهو يجلجل بينهما بحتمية قتل فاروق، نحاكمه ونعدمه! سمح نجيب لنفسه بالسؤال المستفهم الذي يطوي نبرة سخرية لم يطقها جمال سالم حين علَّق :
ـ يعني أصدرنا حكمًا بإعدامه قبل حتى أن نحاكمه؟
كاد جمال سالم يطيح بالورق الموضوع أمامه في وجه نجيب، لكنه، يا سبحان الله، تمالك نفسه التي تهدر بالغيظ. كان ينوي أن يخاطبه بتلك الجملة التي حشرها في حنجرته متأكدًا أن وقتها سيأتي: وإنت مالك، أنا لا أسألك رأيك، بل رأي الذين أجلسوك هنا؟
لكنه لم يقلها، فقد غمره عطف على الرجل، فهو وطني وطيب في كل الأحوال، ولا داعي للقسوة عليه، فمحمد نجيب لم يصدر منه شيء وحش حتى الآن، ومن يدنا اليمين إلى يدنا الشمال، ثم لا مفاجأة في خفوت همته تجاه فاروق، لكن مفاجأة سالم جاءت من زكريا والسادات، فقد انتظر أن

يشاركاه الرأي، فالملك خطر علينا إن تركناه، نعم قررنا أن نخلعه ونقدم له إنذارًا بالتنازل عن العرش، لكن هل نتركه في قصره، أو حتى يغادر البلد ليستغل ثروته التي نهبها من البلد في محاربة البلد والكيد له والتآمر عليه؟ نعدمه ونخلص منه ومن مؤامرته، نعدمه ونثأر لشهدائنا في فلسطين، حيث رمانا هناك بلا خطة ولا قيادة ولا تجهيز ولا أسلحة، فهزمتنا عصابات اليهود !

ـ خلاص، لا نحاكمه، نعدمه على طول

لكن رفيقيه لم يتحمسا. هو لا يصدق هذا الموقف الأبله منهما. ولكن لماذا لا يصدق؟ أليس هو منذ انضم إلى التنظيم وهو ينهرهم جميعًا على ذلك الكلام الفارغ الذي تركوا الشيوعي الخائب أحمد فؤاد بتاع «تنظيم حدتو» وصاحبه الطيب خالد محيي الدين، يكتبانه في منشورات الضباط الأحرار، وكاد يودي بهم إلى خيابة لا نهاية لها، مقاومة الاستعمار الصهيوأمريكي، وحياة أمكم! أهذا كلام يفهمه الضباط الذين نرسل إليهم المنشورات كي يحسوا على دمهم ويتعاونوا معنا؟! إنه كلام شيوعيين يطفش منا الأمريكان، ويضعوننا في خانة التنظيمات الشيوعية، هم لم يسافروا إلى أمريكا، هم لم يخرجوا خارج مصر والسودان، كي يعلموا أن العالم تغير، وأن الأمريكان الآن هم كل شيء، ومفتاح العالم في أيديهم، وأننا إما أن نرمي أنفسنا في أحضان الشيوعيين أولاد الكلب عملاء الاتحاد السوفيتي، أو نتحامىفي ظهر أمريكا لتحجز عنا غدر الإنجليز. فلماذا نبدو أمامهم أننا شوية عيال شيوعيين، وحين نخبط خبطتنا كما حدث منذ ثلاث ليالٍ يفزعون منا؟ كان جمال عبد الناصر حكيمًا عندما سمع كلامي وساند رأيي، وقال لهم احذفوا من أي منشور قادم هذا الكلام الفارغ. عجيب أمر زملائه، فقد كان معظمهم لا يقرأ المنشورات التي يوزعونها أو يتأملونها أو يشاركون في كتابتها، غالبًا شوقي عزيز هو الذي صاغ معظمها، صحيح أين هو يا ترى هذا الرجل الآن؟ وأين آلته الكاتبة؟ لازم أكلم عبد الناصر نكافئ شوقي عزيز بأي حاجة، لكن إحنا في إيه ولّا في إيه !

عاد وزاد وهاج وماج وعاند وزايد، حتى نجح في أن يهمد مقاومتهم ويفكك تمنعهم، وأجبرهم على التفكير في إعدام الملك، لكنهم طلبوا منه هو بنفسه السفر بالطائرة فورًا والعودة للقاهرة، ليجتمع مع بقية مجلس القيادة، فقرار مثل هذا يحتاج الأغلبية لتوافق، فضلًا عن مناقشة بينهم جميعًا قبل الموافقة، ثم إنه لا يمكن مناقشته عبر التلفون أو باللاسلكي، فمن يضمن أن أحدًا لا يراقبنا، إن لم يكن الملك فليكن الإنجليز (لا يزال رفاقه الطيبون يظنون أن للإنجليز أهمية حتى الآن ويغفلون عن الأمريكان، لكن بالتأكيد جمال عبد الناصر يعرف، فهو أذكى منهم، وأشر طبعًا. ضحك جمال سالم في سره راضيًا).

حسبها أنهم يهربون من موافقته على الإعدام، لكنهم نطقوا بمنطق سليم، يصدر عن ليونة وميوعة، صحيح لكن في هذه المسألة عندهم حق، لازم الآخرون يشاركوننا الرأي والقرار، الأعجب أن عبد الناصر والمجموعة أرسلونا لننذر الملك بالتنازل عن العرش وهم لم يخططوا ماذا سنفعل به حين يتنازل! نذهب به إلى داهية ويروح في أي مصيبة تأخذه، اتنازل، طيب لما يتنازل سيظل قاعدًا على قلبنا في رأس التين أو عابدين لطولون مع ابنه ولي عهده، يبقى ماذا عملنا؟ أنا وحدي الذي فكرت، وأنا واثق أن أخي صلاح سينتصر لرأيي، ولعله يطلب مثلي إعدام فاروق بلا محاكمة وبلا كلام فاضي، لكن جمال عبد الناصر هو الذي يجب أن يوافق، ليس مهمًّا خالد محيي الدين، فهو كلمة تروح به وكلمة تعود، وسيقول كلمته ولن يدافع عنها كثيرًا، أما حسن

إبراهيم وكمال الدين حسين والبغدادي فالبوصلة تتجه لعبد الناصر وتقف عنده، أما عبد الناصر، فإنه لن يتخذ موقفًا إلا وهو مطمئن أن عبد الحكيم سيؤيده .

*

ابتهج نجيب وانفتحت كل مسام وجهه للنسائم التي تحمل هتافات مئات الشباب الذين وقفوا في ترقب نزوله من سيارته أمام ثكنة مصطفى باشا، جموع قطعت المرور بالكورنيش وعطلت عبور المركبات، وتناثر وراءهم وبينهم باعة سميط الشاطئ والعرقسوس وجرادل الحاجة الساقعة ومصطافون بالبنطلونات القصيرة وبعضهم عاري الصدر، وقفوا فضولًا أو حبورًا، أحاطوا بسيارته، حتى إن زكريا والسادات تسللوا عن يمينه ويساره كي يحجزوا عنه ازدحام الناس، لوح لهم بعصاه التي لم تفارق يده منذ أيام، وبدأت هذه الهتافات تتضح حروفها وكلماتها لمسامعه، فازداد انشراحًا .

لمح السادات وجهًا يقود المظاهرة فابتسم، إنه يعرفه، هو إبراهيم طلعت، المحامي السكندري وعضو البرلمان عن دائرة انتخابية هنا في الإسكندرية (أهي الحضرة أم كرموز؟)، هو وفدي صميم، وعمل صحفيًّا، وتعرف عليه السادات من خلال كتاباته في الصحافة وخطبه في البرلمان التي كانت صحيفة «المصري» حريصة على إبرازها، ليس صديقه لكنه قريب للغاية على حد علمه من جمال عبد الناصر (جمال لم يقدم له أحدًا قَطُّ بتعريف أنه صديقه، لكنْ هناك كثيرون لا يترددون في أن يصفوا جمال بأنه صديقهم**!**). حين سمع السادات الهتافات عرف فيها الوفد تمامًا، في الأغلب هم أبناء دائرة إبراهيم طلعت فعلًا، حشدهم لتأييد الجيش، فالرجل نزيل دائم في سجون الملك، وليس أحب عليه اليوم مما سوف يسمع به في الإذاعة

حينما عبروا البوابة، وابتسامة نجيب تملأ وجهه، والصيحات تعلو مع كل خطوة يمشونها :

الجيش جيش الشعب

يلتفت نجيب ويعود إليهم بنظراته ووجهه، ويرفع العصا محييًا، فيزدادون حماسًا، فاللواء نجيب يوافقهم :

جيش واحد وشعب واحد

الجيش حامي الشعب

نجيب يكاد يأبى أن يدلف إلى المبنى الحجري الذي يحتوي على غرفة قائد الثكنة، فقد أطربته الهتافات حتى وصلت إلى :

أهلًا أهلًا بالحرية

أهلًا أهلًا بالدستور

كانت المرة الأولى التي يظهر فيها الدستور في هتافات أمام الضباط من جموع تهللت بظهورهم في أمكنة بالقاهرة أو في الإسكندرية، لكن العشرات المتكاثرين الذين زحفوا فجأة وأزاحوا مظاهرة إبراهيم طلعت بحركة منظمة وصفوف موحدة متماسكة كانت تهتف :

الله أكبر ولله الحمد

زادت ملامح وجه زكريا محيي الدين برودة على برودتها، بينما ابتسم السادات مشفقًا على متظاهري الوفد من حشود الإخوان الزاعقة. كان جمال سالم قد سبقهم وهو ينوي إطلاق عاصفته حول إعدام الملك بعد قليل، لكن نجيب لم يتخلَّ عن ابتسامته، وإن نزلت عصاه وتراجعت كفه عن التحية والجموع تصرخ فيهم :

الله قائدنا والرسول زعيمنا والقرآن دستورنا
طبعًا لم يكن هذا هو الدستور الذي تغنى به المتظاهرون المنسحبون للخلف والمتفرقون تحت ضغط المتظاهرين الذين يتزعمهم الرسول وليس مصطفى النحاس، فهم الضباط أن الإخوان المسلمين يعلنون عن أنفسهم، وهي نفس الهتافات التي راح يلهج بها عشرات على رصيف قطار محطة مصر حين كان نجيب وجمال عبد الناصر يودعان رئيس الحكومة المختار علي ماهر .
تذكر السادات وهو كان أقرب الضباط إلى حسن البنا، بل لعله كان من اللاصقين به منبهرًا، وبتلك الحجرة ذات الممر الطويل المصفوف بصفوف مئات الكتب تطفو برائحة الورق الأصفر المخزن (هل لا يقرأ أحد هذه الكتب وهي متروكة فقط كي تترك روائحها تأثيرها على الداخلين الخارجين؟)، حيث دخل ذلك الجندي المتطوع أمام حسن البنا، وفتح صناديق ذخيرة حملها إليه، وفرحت أن هناك من يخزن السلاح ليوم مشهود، كان يتكلم ليتركني ذاهلًا كالمسحور، وأخرج من عنده ناسيًا كلامه متذكرًا سحره، لم يخالجني شك أنه بطل منتظر، حتى انتظرتني مفاجأته حين علم بعلاقتي الوثيقة بطبيب الملك يوسف رشاد (البنا كان يعلم أمورًا كنت أظنها بجهازه العقلي النابه، ثم أدركت أنها بجهازه الخاص وجواسيسه في البلد كلها، هل كنت جاسوسًا له كذلك غير مدرك؟ لماذا تعتبرني كل الأطراف رجلها عند الأطراف الآخرين؟!)، انفرد بي، وأفرد لي حديثه ملفوفًا بكل قدراته على خلب اللب :
ـ أنا أستطيع أن أكسب طمأنينة الملك لو تقابلت معه .
كان واثقًا، وكنت واثقًا في ثقته أنه قادر على أن يفعلها. أضاف :
ـ أنت تعرف يوسف رشاد؟
ـ نعم أعرفه، وبيني وبينه صداقة ومودة .
طبعًا لم أقل له إنني في الحرس الحديدي الذي يتزعمه يوسف رشاد، وقد أنشأه لحساب الملك، ولم أقل له إن جمال يعرف... جمال مَن؟ جمال عبد الناصر صديق محمود لبيب الضابط القائد للإخوان في الجيش يا فضيلة المرشد، جمال الذي أقسم كغيره على مصحفك وسيفك، ولكنك كنت تجهل أن له مصحفًا آخر ومعه بندقية وليس معه سيف
ـ يوسف صاحب مكانة وحظوة في قلب الملك، لو استطعت أن تشرح له هدفي، وأن تفهمه أنني لست خطرًا على الملك، ولا أريد أن أكون خطرًا، لأمكنه إقناع الملك بلقائي
حاول أنور السادات ونجح، حتى إن يوسف رشاد كلم الملك في التلفون، ونقل له رجاء حسن البنا، فشخط فيه الملك فاروق وقال له :
ـ أتكلمني في هذه الأشياء في التلفون وإنت عارف إن وزارة الداخلية تراقب التلفونات؟ !
آه والله، هكذا أخبرني رشاد! ولما خاطب الملك بدون تلفونات وافق فاروق على لقاء البنا، ثم عاد وألغى وتراجع، فلما بلَّغت البنا ألح، فألححت على رشاد، فألح على الملك، فغضب منه الملك وقاطعه أيامًا لا يحادثه لسخافة إلحاحه على لقاء البنا. لكنه فجأة طلب من رشاد مقابلة البنا، وشوفه إنت ماذا سيقول لك؟ هلل البنا واستبشر، والتقى بيوسف رشاد، وألقى عليه كل عصي موسى والسحرة معًا يوم الزينة، فذهب يوسف رشاد للملك يبشره بأن حسن البنا يقطر إخلاصًا للملك، فإذا بفاروق يضحك ساخرًا، ويقول له مؤنبًا ومتهكمًا :
ـ حسن البنا ضحك عليك !

لكن البنا لم ييأس، وأخيرًا ضحك على الملك قبيل أن تصطبغ بدلته بدمه مغتالًا، والتقى بالملك مقبلًا اليد ومبديًا الولاء وحالفًا على التحالف، ومن يومها والإخوان تلعب من حبل إلى حبل، ولا بأس أن يكون حبلنا اليوم تحت أرجلهم، يتقافزون فوقه، فجمال يحتاج إليهم، وهو لا يرى فيهم مشكلة، لكن السادات يفهمهم كما يفهم زملاءه، كل واحد فيهم، بابه وشباكه، وإن كان لا يعنيه منهم إلا جمال عبد الناصر فهو الذي يتحسب له، وعبد الحكيم عامر فهو الذي يحبه. كم لف أنور السادات ودار وعرف وشاف وراح وجاء، فتعلم أن يضع قلبه وراء عقله، وأن يخفي خلفهما لسانه. سنوات الشقاء التي لهث فيها السادات هاربًا من السجن أو خارجًا منه مفصولًا من الجيش، واشتغل في العتالة والشيالة والمقاولات، وجلس فيها في الغرز والمقاهي والبوظات، وتعرف وتعاون فيها مع اللصوص والطلبة والحرس الملكي والجورنالجية، علَّمته ما لم يتعلمه زملاؤه الذين احتفظوا بالبذلة الكاكية على جلودهم وعقولهم منذ تخرجوا من الكلية،لهذا يفهم ما يسعى له جمال عبد الناصر، فهو أنبه المجموعة، وليس تلميذًا كالآخرين، فجمال ـ ونحن معه ـ يدرك أن الضباط في حاجة للإخوان، والمحتاجة تعمل غناجة، فالإخوان وليس الوفد من أعلمهم عبد الناصر بموعد الانقلاب، وإنهم وليس الوفد من يملكون أعضاء داخل الجيش من الضباط والثعالب الصغيرة من ضباط الصف، والإخوان الذين يمكن أن يخرقوا المركب بمنتهى النذالة والإخلاص .
حين جلس السادات إلى جانب نجيب في غرفة المكتب وسط زحام من الضباط الذين تكأكأوا على نجيب بين التحيات والتهاني والملامسات والمصافحات والأحضان، فضها جمال سالم بصيحة فرقت الكل، وظل يستنزف زملاءه حتى منتصف الليل في دعوته لقتل الملك، حتى أعياهم وأعماهم بصياحه وصراخه. فلما قبل أن يسافر للقاهرة، ويعرض الأمر على زملائهم الآخرين هناك، كادت تزغرد قلوبهم فرحًا بالنجاة من صراخ جمال سالم الذي كان نجيب يتحمل خشونته تجاهه، ويتقي أن ينظر إلى نظارة جمال سالم التي كانت تستر شياط نظراته للجميع لما ناكفوه وخذلوا رأيه. قرروا المبيت في الثكنة، ودعوا الله مخلصين له الدعاء أن يقرر جمال سالم المبيت عدة ساعات في القاهرة قبل أن يعود بالإجابة، وألا يشتد غضبه عليهم حد أن يصحب معه شقيقه صلاح سالم في رحلة العودة إلى الإسكندرية، لكن ما كاد الصبح ينبلج حتى وقف إسماعيل فريد الذي تفانى في إدارة مكتب اللواء نجيب، وهو اللواء الذي لم يستقر حتى الآن على مكتب أو في مكتب، وأخبرهم أن أحمد لطفي السيد ينتظر مقابلة القائد العام .
*
لم يكن الدكتورأحمد لطفي السيد، الزعيم السياسي الأقدم والأرسخ، والرئيس المؤسس لحزب الأحرار الدستوريين، ورئيس جامعة فؤاد، وحده من جاء، بل صحبته صحبة من نخبة الساسة وزعامات الأحزاب، فها هو الدكتور محمد حسين هيكل زعيم المجلس المحلول، مجلس الشيوخ حتى شهور مضت، وبهي الدين بركات، وأحمد عبد الغفار، بل وإبراهيم عبد الهادي، بالذات اسم إبراهيم عبد الهادي هو ما لعلع في أسماع زكريا والسادات، فها هو الرجل نفسه وقتما كان رئيسًا للحكومة الذي استدعى جمال عبد الناصر عقب عودته
من حرب فلسطين، وأوقفه أمام مكتبه يشخط وينطر ويرغي ويزبد ويهدد ويتوعد الضابط الماثل أمامه بالطرد من الجيش، بل وسجنه، فها هيالتقارير أمامه عن جمال حسين عبد الناصر، ينظر لها عبد الهادي ويتأمل سطورها، ثم ينقل نظرته إلى عثمان المهدي رئيس الأركان الذي استدعاه رئيس الحكومة ليشهد بنفسه استجواب ضابطه المتمرد، ثم يرجع نظراته شزرًا شررًا إلى جمال،

ويقرأ له ما جاء في ورقة يقلبها لورقة أخرى من أنه ملموم على ضباط من الإخوان المسلمين، ويدربهم على التخريب في البلد وداخل الجيش، أفلت منها يومهاجمال، حيثلم يكن عبد الهادي يريد خوتة دماغ في الجيش تنافس خوتات خارج الجيش، فاكتفى بالتحذير والترهيب، خصوصًا أنه في حضرة رئيس أركان الجيش الذي صحب جمال بنفسه إلى شقته، حيث عثروا فيها على عدة طلقات قديمة صدقوا أنها كانت للتدريب في حرب فلسطين. كانت تلك الليلة التي جمعهم فيها جمال على عجل، وطلب منهم بياتًا شتويًّا لاجتماعاتهم، وكان طبعًا قد أبلغ الصاغ محمود لبيب المسؤول عن تنظيم الإخوان في الجيش، فقد كان كل الورق الموضوع أمام إبراهيم عبد الهادي حقيقيًّا. ها هو الآن يدخل بقامته الممدودة المفرودة، وبذلته الشركستين، وطربوشه الأحمر، ينحني لمحمد نجيب بالتهنئة، ويجهل للآن أنه يهنئ جمال عبد الناصر الذي استغفله .
كانوا قد جلسوا على ما توفر من مقاعد، في وقار صموت، بينما لم تسع الفرحة عينا نجيب، فخرجت من حدقتيه، فهذه الأسماء التي كانت ملء السمع والبصر وتحكم البلد وتدير أحواله، وتملأ كلماتها وخطبها وتصريحاتها قاعات البرلمان وصفحات الجرائد واجتماعات الحكومة ودعايات الانتخابات، تحضر بتلك السرعة إليه! صور الصحف تتحول لحمًا ودمًا، وتأتي حتى مكتبه في تلك الثكنة التي ربما لم يكن أحدهم يلتفت إليها في غدوه وعدوه أمامها بسيارته خلال هذا الصيف وفي كل الأصياف التي ولت
لم تستغرق الجلسة وقتًا يكفي حتى لاحتساء فناجين قهوة (شك السادات أن في ثكنة الجيش عددًا من الفناجين يكفي هذا الجمع، فضلًا عن أنها لا يمكن أن تكون في فخامة فناجين قهوة هؤلاء السادة في بيوتاتهم ومكاتبهم). يبدو أنهم انتدبوا أحمد لطفي السيد للحديث باسمهم، ربما اختصارًا لحديث قد يطول وقد يخطئ، أو كلمات تشتط أو تلتبس. الباشوات يجهلون طريقة تفكير هؤلاء الضباط (بعضهم يتصور أنهم ضباط امتلكوا الشجاعة والوطنية لكنهم لا يمتلكون غيرهما). اتقاءً لما قد يجلبه حضورهم، وتفاديًا لما كان قد يجلبه غيابهم، قال لطفي السيد :
ـ نحن، ونيابة عن كل رؤساء الأحزاب والزعامات السياسية في مصر، نعرب عن شعورنا الطيب نحو هذه الحركة المباركة (ها هو لطفي السيد بجلالة ديمقراطيته يأتي حتى قشلاقك يا نجيب ويسميها «حركة مباركة». اتسع صدر نجيب لحظتها حتى كاد يسعهم جميعًا في قلبه)، ونشكر السادة الضباط والجنود الذين أدوا واجبهم بأمانة لتطهير البلاد .
بينما كان نجيب يشكره مبتسمًا وسعيدًا، كان الذئب الصامت داخل زكريا محيي الدين يعوي بأن التطهير يجب أن يشملكم جميعًا يا أولاد الهرمة! تمنى لو كان جمال سالم بينهم الآن ليعرب بصفاقته السافرة عن كراهية هؤلاء الضباط الشبان لكل العواجيز والشيوخ الذين سمحوا لهذا الملك الأرعن أن يتلاعب بهم كما ورق «البلاك جاك » ، وها هم يأتون الآن ليعرضوا علينا خبراتهم في خدماتهم للسلطة !
كان إبراهيم عبد الهادي أول من خرج من مكتب نجيب، يتنفس هواء الموج اللافح. وركب كلٌّ منهم سيارته التي يقف عند بابها الخلفي سائق بزيه الخاص وانحناءته المهذبة، دون أن يخرج معهم نجيب ليصاحبهم حتى الباب أو يمضي مودعًا لهم، أو أحدمن هذين الضابطين اللذين كانا أسدي قصر النيل حول نجيب، أليس الأسمر هذا هو أنور السادات قاتل أمين عثمان؟ أليس هو الضابط الذي تعاون مع الجاسوس الألماني «بهلر» (سمى نفسه حسين جعفر) ورفيقته الراقصة حكمت فهمي صاحبة العوامة أمام مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية في العجوزة؟ إنه هو هذا

الضابط، فليس إبراهيم عبد الهادي وزير الداخلية القديم من ينساه، بدليل أن السادات فشل في إصلاح جهاز اللاسلكي الذي أحضره الجاسوس للسادات، وقد تعطل عن إرسال الإشارة للألمان، المضحك أن الذي عطله هو الجاسوس نفسه الذي قرر أن يتحجج بعطل الجهاز كي يرتع في الملذات التي وفرتها له أربعون ألف جنيه إنجليزية مزيفة بإتقان ألماني مدهش، وضعها في البنك الأهلي وصرف مقابلها آلاف الجنيهات المصرية السليمة طبعًا، فطاح في ليالي عوامات الأنس .

أدرك السادات أن إبراهيم عبد الهادي تعرف عليه جيدًا، ابتسم دون أن يكشف عن أسنانه، فالداخلية التي عبر عليها عبد الهادي وزيرًا ورئيسًا للحكومة تمتلئ ملفاتها باسمه. طبعًا حكمت فهمي تدفع أي وزير داخلية لتقليب الملف أمامه ضاحكًا وفضوليًّا. لا ينسى السادات أبدًا يوم طلب منه الفريق عزيز المصري أن يعاون جاسوسًا ألمانيًّا تعطل جهاز إرساله في القاهرة، الذي يرسل منه شفرات ورسائل التجسس على الإنجليز وقواتهم في القاهرة إلى برلين، فلما ذهب السادات إلى تلك العوامة، ووجد «بهلر» وصديقه «ساندي» يعيشان حالة شهريار بدون ذبح نسائه عند صياح الديك (ربما لأنه لا ديوك في العوامات المجاورة على النيل)، سأله عن جهاز اللاسلكي، فامتحنه «بهلر »:

ـ أتستطيع أن تعثر عليه وحدك؟

طاف السادات العوامة، وصعد وهبط درجاتها، ودخل غرفها، فلم يجد إلا صناديق الويسكي وأسرَّة ووسائد، وجهاز راديو موبيليا أنيق في أعلاه «بيك أب» مغطى بغطاء خشبي، وفي جوانبه دواليب لحفظ الأسطوانات، لا أكثر من ذلك، فأعلن يأسه، فضحك «بهلر» ورفع غطاء الراديو، وحرَّكه حركة بسيطة، فوجد السادات تجويفًا كبيرًا داخله يتسع لكرسي صغير يكفي لجلوس رجل .

ـ اتفضل، ممكن تنزل هنا وتجلس وتنور النور وتشتغل، وأنا أغلق الغطاء من فوق وأدير أسطوانة الرقص

«بهلر» الجاسوس الأرعن الذي سكر ونسي شخصية الموظف الإنجليزي التي تنكر فيها، وغنى النشيد الوطني الألماني أمام عاهرة يهودية تعرف بحكم الكراهية والخوف نشيد النازيين، فأبلغت عن الجاسوس الذي وجد نفسه أمام «تشرشل » شخصيًّا، الزعيم الإنجليزي الذي كان يزور القاهرة، واعترف له فورًا على أنور السادات، فكانت أجمل لحظات محمد إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسي هي القبض على هذا الضابط وأخذه أكثر من مرة من غرفة نومه للسجن. ها هو سجينك المفضل يا إبراهيم يا إمام من المباركين في الحركة المباركة . لقد شم عبد الهادي رائحة الكراهية في الغرفة، فيما بعد علم أن مكرم عبيد زعيم الوفد الزغلولي وخصيم النحاس باشا شخصيًّا قد هرول كما هرولوا، وتبعهم عبد الرحمن الرافعي ينقل تهاني الحزب الذي لا يُهنئ أبدًا، الحزب الوطني الذي من شدة كراهيته للاحتلال كره أيضًا من يحاول الاستقلال عنه، فهو الحزب صاحب الشعار الذي طالما أماتهم جميعًا ضحكًا وغيظًا كلما فز أحد أعضاء ذلك الحزب في مؤتمر وهو يعلمنا الوطنية، ويهتف أو يرطن كما يفعل الرافعي والمحامي المفوه فتحي رضوان، لا تفاوض إلا بعد الجلاء، طيب كيف سيجلو الاحتلال من غير مفاوضات يا أفندية؟ لن تسمع منهم إلا ترهات بلاغة مقامات عيسى بن هشام. كان الدكتور هيكل مغتمًّا وقلقًا حين مضى إلى منزله الصيفي، وهو يتعجب كيف لم يذكر نجيب دور هذه الزعامات في مواجهة خلاعة الملك

وانحرافاته، لقد همس إلى لطفي السيد وهما يدلفان إلى سيارتيهما، وكلٌّ منهما أحس انطفاء حماسه، وطيفًا من الندم يحوم فوق عيونهما على تعجل الزيارة :

ـ يبدو أن نجيب يحملنا مع رفاقه مسؤولية فساد البلد .

أومأ لطفي السيد مؤيدًا، بينما أضاف هيكل ولطفي السيد يدخل بجسمه النحيل سيارته :

ـ ألسنا من دافعنا عن الجيش وما جرى له في فلسطين وواجهنا الملك بموبقاته وفساد حاشيته؟

ابتسم لطفي السيد والشجن يفتح زجاج نافذته وقلبه، بينما سطا على حوارهما إبراهيم عبد الهادي قائلًا :

ـ ها هو الذي كان الملكيهددنا به ينقلب عليه !

يضيف شامتًا :

ـ يتفضل يشوف جلالته ماذا سيفعل فيه وبه جيشه !

ثم ابتعد بجسده وصوته وهو يردد :

ـ الوداع يا باشوات .

كانت لهجة عبد الهادي باشا غريبة على مسمع الدكتور هيكل الذي عاد إلى بيته فبحث عن أوراقه المرتبة في مكتبه بعناية لا يعنيها أنه في مصيف، وأخرج نسخة منالبيان الذي أرسلوه إلى الملك فاروق موقعًا منهم جميعًا (على الأقل كل من ذهب لتهنئة الضباط)، وبدأ يقرأ فقرات من الخطاب بصوت عالٍ لا تسمعه إلا رفوف كتبه ومجلداته المرصوصة وراء زجاج مكتبته (أصغر كثيرًا من مكتبته في القاهرة، بل أقل من مكتبته في المنصورة).

استحسن هذه الفقرة فقرأها كأنه على مقعد رئيس مجلس الشيوخ وأمامه صفوف الأعضاء المنصتين :

اليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث، ومن أسف أن الأقدار قد أفسحت مكانًا في الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون هذا الشرف، فأساءوا النصح، وأساءوا التصرف، بل إن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائي الخاص بأسلحة جيشنا الباسل .

ثم طلت هذه الفقرة انشرح قلبه بتواضع الغرور، ففاحت رائحة الزهو في حروفه، فهي كأنها النبوءة، بل هي ما تحقق فعلًا، بل هي ما عاد من ثكنة مصطفى باشا العسكرية وقد رآها عيانًا بيانًا :

يا صاحب الجلالة، إن احتمال الشعب مهما يطل فهو لا بد منتهٍ إلى حد، وإننا لنخشى أن تقوم في البلاد فتنة لا تصيبين الذين ظلموا وحدهم، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالي وسياسي وخلقي، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد .

أطرق هيكل، وهو كاتب الخطاب وصائغه، معتزًّا وحزينًا لتحقيق نبوءته، ها هي الفتنة يا صاحب الجلالة تجلجل وتجللنا جميعًا بالحيرة !

وضع نسخة أخرىمن بيانه الأثيرفي ظرف أرفقه بورقة من دفتره الصغير، كتب عليها بحروف خطه المنمق :

عزيزي معالي دولة رئيس الوزراء علي باشا ماهر،

برجاء التكرم بعرض هذا البيان الذي شرفنا برفعه لجلالة الملك فاروق على اللواء محمد نجيب (وإن كنت عميق الثقة في أن سيادته يعلم ويعرف) ، ليطلع ويستوثق من مواقف رجالات السياسة

والأحزاب الحازمة والداعية للتطهير ردحًا من الزمن .
حين وقَّع وطوى الورقة ودسها في الظرف، كان صوت المذيع في الراديو يعلن عن أمر ملكي بترقية اللواء محمد نجيب إلى رتبة الفريق، فعاد هيكل ومزق الورقة وكتب غيرها ليصحح رتبة نجيب ويجعلها «الفريق محمد نجيب ».

16

علق علي ماهر سماعة التلفون في الهواء الفاصل بينها وبين أذنه لحظات، تأمل فيها ما سمعه، ثم انشغل بمروحة الهواء ذات الشبكة الحديدية والريشات الأربع السوداء التي تدور فتحرك الهواء الذي يأتي إليه بطيئًا، أم هو صدر رجل فوق السبعين لم تعد المراوح قادرة على تهوية قلبه؟ أنزل السماعة ببطء، ووضعها على حاملتيها الفضيتين ليغلق خط المكالمة. لم يستغرب مطلب الجيش، لكنه سأل نفسه في تلك اللحظة المبكرة للغاية: هل يمكن أن يسميه مطلبًا أم أمرًا؟ لا مانع لديه فيما طلبوه (أو أمروا به)، لكنه بدا كأن رئيس ديوان ملكي هو من يطلبه منه، وليس هذا الياور مدير مكتب اللواء نجيب من أبلغه الطلب (الأمر):

ـ رأت قيادة الثورة أن المظاهرات قد تؤدي إلى اندساس خصوم الثورة بين المتظاهرين، فقررت منع المظاهرات كليًّا .

إذن هذه هي الصيغة، لكن أين هو منها؟ هل نسوا أنه الحاكم العسكري للبلاد الآن حين حلف اليمين رئيسًا للحكومة؟ فطبقًا للأحكام العرفية المعلنة في البلاد منذ حريق القاهرة ورئيس الحكومةهو الحاكم العسكري، فمن منا الآن الحاكم العسكري أنا أم اللواء محمد نجيب؟ وسط غمرة ابتهاجهم بما فعلوا، وربما لأنهم ضباط لا دراية لهم بالدستور والسياسة، نسوا أن الذيصنع شرعية لمحمد نجيب هو أناعلي ماهر، لقدأذاع نجيب بيان انقلابه أو حركته المباركة باعتباره القائد العام للقوات المسلحة، وهو منصب انتزعه، ورتبة انقلابية تمامًا، فالجيش كان له قائد عام معين من قبل الملك والحكومة وهو حيدر باشا، وكان المشهد كله خارج حدود الدستور، والذي دستره وقننه هو علي ماهر حين أصدر قرارًا بتعيين اللواء محمد نجيب (وها هو الملك ينعم عليه بترقية لرتبة الفريق) قائدًا للجيش، ثم ألم يعين علي ماهر نفسه وزيرًا للحربية والبحرية والداخلية والخارجية؟ ثم لا يستشار بأي صفة فيهم (دعك من أنه رئيس الحكومة أصلًا) في قرار مثل هذا كان سيصدره قطعًا! فمنع المظاهرات قرار حكيم فعلًا، لكن ماذا لو كان الضباط قد رفضوه؟ هكذا لمعت الفكرة في رأس علي ماهر، وقد تحسس شعره المصبوغ شديد السواد، وأدار قلمه الحبر في ورق أبيض مسطور. ابتسم عندما لاحظ الظرف الذي أرسله الدكتور هيكل، وقد فضه وعلم ما فيه فضحك بعد الابتسام. هؤلاء الضباط ليسوا من عرفنا يا دكتور هيكل من قبل، حتى نجيب أكبرهم سنًّا أكبره أنا بعشرين عامًا، فالزمن سور يرتفع بيننا لا جسرًا نعبر عليه. عاد وسأل نفسه: لماذا لا يسمح هؤلاء الضباط وهم أصغر من ابنه محمد بالمظاهرات؟ ألا يتوقعون منها أن تخرج لتؤيدهم وتحتفي بما أقدموا عليه وتهلل لنجيب وصحبه، أم أنهم يخشون هتافات لا يريدونها أو جماهير لا يتوقعونها؟ أقلقهم هتاف «يحيا الدستور»، حيث يريدون لحركتهم أن تحيا أولًا ثم ترى على مهلهاحياة الدستور، أم أقلقتهم هتافات الإخوان بأن القرآن دستورنا، فخافوهم أو خافوا أن يحسبهم الناس إخوانًا؟ آه، إنجوعى الإخوان دائمًا ما يتعجلون المأدبة .

دق جرسًا على مكتبه، فدخل مدير مكتبه، فقال ماهر :

ـ عايز أشوف سليمان حافظ فورًا .

كانت حكومته تنتظر أن يجتمع بها بعد قليل في قاعة الاجتماعات، الوزراء الذين اختارهم، وهم تقريبًا وزراؤه الذين ضمهم في حكومته منذ خمسة أشهر، فاستمرت واحدًا وثلاثين يومًا فقط، عدد

محدود (عشرة وزراء لثماني عشرة وزارة)، حكومة جاءت بعد حريق، وها هم أنفسهم بأنفسهم حكومة جاءت بعد محاولة إطفاء حريق أو اشتعال حريق أكبر. لم يُعد كلمة ليفتتح بها اجتماعه الأول، ورغم أنها لم تكن جلسته الأولى على هذا المقعد، لكنه بدا غريبًا عليه الآن. شوك الشك نبت في قلب علي ماهر، وحط غراب الكآبة ينقر على صدره منذ عودته من مقابلة الملك. كان فاروق مرتبكًا ومتوترًا، لكنه نفس الطفل الذي تسلمه منذ ستة عشر عامًا ليجلسه على عرش مصر، يحاول أن يتظاهر بأنه أكبر وأفهم وأبرد وأعقل، وهو يقف في طرف المرجيحة الآخر لكل هذه الصفات. لكن ليس فاروق الآن باستسلامه وذعره أمام صدمة ما فعله الجيش هو ما يقلقه .
هذه السنوات الطويلة (والعريضة) التي مارس فيها السياسة مع ملك مراهق ومرهق ومتقلب المزاج، لم يستطع أن يصبح ملكًا على أمه، فلم يقدر على أن يكون ملكًا لأمته، ومع حزب الوفد المغتر بأغلبيته حتى التفاخر بمقولة العامة الجهلاء أنه لو رشح الوفد حجرًا لانتخبناه، بل لو رشح الوفد حمارًا لانتخبه هؤلاء العوام، وهو ما لم يمنعهم أن ينتخبوا أيضًا حميرًا آخرين من غير الوفد. أليس هذا الوفد هو من اعتقلني بتهمة الولاء لـ«هتلر» والتعاون مع ألمانيا النازية، بينما قبِل أن يجلس نحاسه على مقعد رئيس الحكومة بدبابات الإنجليز التي حاصرت الملك لتجبره على حكومة الوفد؟ ها هم ضباط الجيش يا من تنتخبون حمارًا لو رشحه الوفد، هم من يأتون بعلي ماهر بدباباتهم رغمًا عن الملك الآن برلمان منحل، ودستور معطل بالأحكام العرفية، وملك مذعور، وجيش متمرد، ومحتل متربص، وأمريكان لابدون في الذرة، وإخوان يحشون جيوبهم بالقنابل والديناميت، وشيوعيون يعششون في السراديب، ومطلوب من علي ماهر أن يحكم، ولِمَ لا؟ ليس في هذا البلد من يجيد ترويض الأسود مثلي، لكن هذه المرة لن أحتمل أن تكون حكومة الواحد والثلاثين يومًا !
دق الجرس مرة أخرى بحماس أرعش أصابعه، هذه المرة لم يدخل مدير مكتبه، بل كان محمد نجيب وضباطه من دخلوا، كأنما يقتحمون المكتب، لم يطلبوا إذنًا فخشي أنهم من فرط الحماس أو عدم الاكتراث قوم لا يستأذنون .
*
خرج القائمقام رشاد مهنا من العريش بسيارتين، ركب واحدة مع ثلاثة من الضباط يقودها أحدهم، وصمم آخرون من كتيبة وسرايا في رفح والعريش أن يصحبوه فركبوا سيارة ثانية واكبت خروجه من اللحظة الأولى، جذلًا وطربًا بنبأ الاستيلاء على قيادة الجيش، وكان ضباطه في القاهرة يتصلون به عبر اللاسلكي والتلفونات يلاحقونه بالخطوات التي تمت والتحركات التي جرت، حتى سمع مع مجموعة العريش بيان نجيب عبر الإذاعة صباحًا، وقد التقطوا الموجات عبر جهد جهيد من ضباط إشارة لتقوية الإرسال الإذاعي الذي كان يصل وشيئًا ومتقطعًا إلى سيناء (إن وصل). تملكه هذا الحماس حتى إنه ما صدق مكالمة صلاح سالم وقبلها من عبد المنعم أمين له بالحضور للقاهرة، حتى أبلغ ضباطه أنه سينطلق للقاهرة خلال ساعات، فانضموا إليه. وها هي الساعات تمضي تحت عجلات السيارتين العسكريتين وسط صخب الأسئلة التي تتخبط علامات استفهامها في علامات تعجبها: هل هناك مقعد خالٍ لرشاد مهنا في مبنى القيادة، أم أن هناك مقعدًا خاليًا مخصصًا له يبقى دائمًا في انتظاره؟
اعتبر رشاد مهنا ما جرى في القاهرة تلك الليلة هو حصاد ما زرعه، بل هو من أنبته في أرض الجيش القاحلة، هو أول من أسس تلك المجموعات الوطنية التي صارت تتسع وتمتد في الجيش، لا

يربطها تنظيم واحد، ولا يديرها قائد وحيد، لكنها كلها فروع شجرته، هو الذي طارده الملك وفصله واتهمه بأنه يقود انقلابًا ضده وتمردًا داخل الجيش، ثم عاد وتراجع عن المضي في التهمة أو الشروع في العقوبة بعدما عرف أن رشاد مهنا ليس ضابطًا عاديًّا ولا حتى فوق العادة، بل هو ضلع يصعب كسره في الجيش، وإن اقترب منه الملك أو قائد جيشه أو وزير حربيته بسوء، فإنهم يشعلون فتيلًا لديناميت غضب لن يُبقي ولن يذر في الجيش، لعلهم أدركوا كذلك منذ شهور من هو رشاد مهنا، حين كان بطل نادي الضباط، والذي جمع وحشد وخطب ونظم وحرض ووضع قائمة المرشحين في مواجهة الملك، وأعلن تأييده لمحمد نجيب، وأدار معركة الضباط ضد فاروق ومواليه في الجيش، وانتهت المعركة بنصر مؤزر. كل التقارير التي يتلصص بها البوليس السياسي على ضباط الجيش كانت تحذر من رشاد مهنا وتخشاه. سافر العريش للخدمة هناك لأنه أراد أن يجهض خطة الملك وحرسه الحديدي لاغتياله، كما قتلوا الضابط عبد القادر طه الذي انشق مع مصطفى كمال صدقي عن الحرس الحديدي للملك، فقتلوه غيلة واغتيالًا مستغلين دخان حريق القاهرة، لكنني لم أترك دمه يضيع هدرًا، وجعلت منه شهيدًا، وصنعت له تأبينًا في نادي الضباط، أردت به إعلان غضبة الجيش، واتهامًا للملك بأنه من أملى قرار القتل، بل لقد شرب كأسًا في صحةالتخلص منه مع يوسف رشاد .

لم يكن يخالج رشاد مهنا أي شكأن نجيب يجب أن ينتظره، وأن جمال عبد الناصر لا بد أن يستمع إليه، بل أن يسلموه إدارة الموقف. في تلك اللحظة التي رأى فيها السيارتين أصبحتا أربعًا بعد مروره بالإسماعيلية، ثم صارت الأربع سيارات ستًّا، ولما دخل إلى القاهرة توقف عن عدها، فقد تدافع الضباط يتقدمهم شباب سلاح المدفعية الذين رباهم على الوطنية، وكانوا يتطلعون له ويستمعون منه في نادي الضباط ومنتدياتهم

واجتماعاتهم وكتائبهم وسرياتهم، ما بث فيهم حماسًا لحدث وتحريضًا لحركة، يندفعون به في موكب حاشد إلى بوابة مبنى القيادة التي تكالب ضباط الحراسة والواقفون في ساحتها وعلى مداخلها وفي ردهاتها لتهنئته وعناقه ومصافحته وملامسته ومرافقته، فكأنه فوزه، وكأنه مشواره الذي قطعه طويلًا يصل إلى رصيف يليق به. وحين دخل على غرفة القيادة كان جمال عبد الناصر جالسًا وحوله صلاح سالم وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين والبغدادي، ولم ينتبه لوجود حسن إبراهيم ولا لغياب الغائبين. دخل بقامته الطويلة، وصدره العريض العالي، وبوجه فرح وملامح مبتهجة وحماس متقد وثقة عارمة وابتسامة واسعة وصدر يتسع لعناقهم جميعًا، فإذا بوجه جمال يشحب، وتطق عيناه، ويتقطب حاجباه، وتمتعض شفتاه، ويشب أنفه، ويشخط بصوت فاجأ الخطيب قبل أن يفاجئ المخاطب :

ـ إيه اللي جابك؟ !

ثم كأنما أراد أن يزيد الجرح ملحًا، ويجعل السكين رمحًا :

ـ مين قالك تترك قوات العريش في هذا التوقيت؟

أحس رشاد مهنا كأن رصاصًا أصاب كبرياءه، فأخذ يبحث عن الدم ينبثق من جسده، زلزلت الصدمة كيانه فتزلزل غضبًا في ذات الوقت، انشل عن أي رد فعل مضاد لفعل عبد الناصر أو مساوٍ له في المقدار. يبدو أن جمال نفسه شعر مع صمت زملائه ووجومهم، مع صدمته هو في ثباته الانفعالي وتماسكه العصبي، مع تخوفه من أن يفهم هذا الحشد المرافق لرشاد مهنا والمزدحم خلف ظهره، أن ما قاله غضب، أو أنه غيرة من رشاد، أو فوضى في خطة، أو ارتباك في قيادة،

فهدأت ملامحه فورًا، وقام وصافح رشاد الذي تمتم متماسكًا. ومحاولًا تبرئة نفسه من تطلع أو تطفل، نظر إلى صلاح سالم الذي وقف بسرعة محاولًا ألا يبدو نذلًا مع مهنا أو خائفًا من جمال :
ـ أنا الذي اتصلت بحضرة القائمقام وطلبت منه الحضور للقيادة .
فتح رشاد مهنا فمه محاولًا استعادة ما أهدرته الدقائق البطيئة التي عبرت من كرامته :
ـ أنا مش جاي أرمي نفسي عليكم، ولازم تعرفوا ...
ظل مهنا يقول كلامًا عن ضرورة الوحدة، وأنه جاء ليهنئهم بما فعله الجيش، وشيئًا عن تضحيته، أو عن دوره في العريش. وكان انفعاله يسمح له بالكلام ولهم بالصمت. لكن ابتسامة عبد الحكيم ونظراته طالبت الضباط المصاحبين لرشاد بالرحيل فرحلوا مطيعين، وقدم مقعده كي يجلس عليه رشاد مهنا، وقد طال وقوفه، فهو لم يجلس حرجًا ولم يدعه أحد للجلوس حيرة. فهم عبد الحكيم غضبة عبد الناصر، لكن لم يفهم انفعاله، فهو أذكى من تعرية مشاعره بهذه البساطة . لقد عاد مهنا من العريش بزفة تنافس الزفة الإسكندرانية في ضجيجها إعلانًا عن عريسها، وصحبه جمع من الضباط كأنهم ينتخبونه، ونفش ريشه الطاووسي خطأ في حديقة الطواويس، داس إذن على لغم في أعصاب جمال (ولو كان نجيب موجودًا لفعل أسوأ من جمال فضحًا لغضبه، فإن نجيب لا يرى بينهم خصمًا منافسًا قد يشكِّل خطرًا على قيادته الوليدة إلا مهنا). مهنا منافس قوي، وصاحب شعبية واسعة في الجيش، وله أدوار ولديه مطامح، وهو لم يسلم لجمال بالقيادة فلم ينضم للتنظيم، ولم يخاصم جمال فصاحب التنظيم، فلا طلب جمال وده، ولا سعى لكراهيته، لكن الآن موعد وقفة التعبئة، فوقفها جمال وحكيم معًا حين أدارا دفة الحوار إلى الترحيب بمهنا وشكره ومديح مجاني لتاريخه ودوره، ثم أرسلاه إلى الإسكندرية حين أخبره جمال أن اللواء نجيب في الإسكندرية لتفقد القوات ودعم ولاء الجيش هناك للحركة، وعرف جمال (وحكيم يبتسم) أن أول ما سيفعله مهنا هو ملاحقة نجيب، وقد فعل .
انتهت الجلسة بهدوء أشد صخبًا في صمته، فقد عرفوا أن جمال سالم في طائرة يعود إليهم لقرار مصيري، طبعًا صلاح سالم يعتبر كل ما يفكر فيه أخوه من قرارات يؤمن أنها مصيرية ولو كانت قرارًا حول تغيير نوع نظارته، لكن هذه المرة وهم ينتظرون عاصفة مع هبوب كل لفحة هواء من خارج غرفة هذا الاجتماع الطويل الذي يطوي النهارات في لياليه، بدا أن دخان أخيه وراءه نار فعلًا !
*

لماذا تبدو كل خطة يضعونها ينقصها صفحتها الأخيرة؟
كان الإرهاق قد فكك كل مسامير قنابلهم العصبية، فكل كلمة تفجر غضبًا، وكل فكرة تصنع انفجارًا، لم يناموا رغم تمددهم على الأرائك في الغرف عالية الحيطان ومرتفعة الأسقف، وتقلبهم على وسائد تحت نوافذها التي تبلغ مترين عرضًا وأكثر طولًا، إلا أن كل لحظة سبات تبددت أمام حركة الدخول والخروج التي لا تكف ببابها عن الصرير ورنين التلفونات، الذي يتحول كصفارات الغارات كل لحظة، وسحابات من الدخان تطلقها سجائر معلقة بين الشفاه والأصابع كأنها إعلان في «المصور» عن سجائر «ماتوسيان». كان عبد الحكيم يسأل صلاح نصر في التلفون عن حقيقة ما يجري في الإسكندرية، وهو يكتم سماعة التلفون بيده ويقول لعبد الناصر :
ـ مش عارفين الملك فين؟

انخطفت ألوان وجوههم، وتحولت بياضًا ثلجيًّا حين شكوا أن فاروق عملها وهرب، وبدأت تختلط الأصوات والمعلومات والشائعات والآراء والتخوفات والتشككات، حتى اتصل حكيم بزكريا محيي الدين في الإسكندرية وقرروا حصار كل قصور الملك. حين وضع السماعة أخبر جمال وأنصت الآخرون :
ـ حسين الشافعي سيذهب لحصار المنتزه، وعبد المنعم عبد الرؤوف لرأس التين .
قاطعه جمال :
ـ أرسل له أحمد شوقي .
رفع سماعة التلفون وهو يطلب من عسكري التحويلة أن يتصل بزكريا مرة أخرى. زعق صلاح سالم، وقد فتح الباب على خارج الغرفة، وأطلق صراخه :
ـ واحد من الضباط يقعد على تحويلة التلفونات حالًا، يعني عسكري يقوم بالشغلانة دي دلوقت، هاتوا أحسن ضابط إشارة جنبي هنا !
كان حكيم يخبرهم :
ـ عبد المنعم أمين راح قلعة قايتباي وجهز أماكن اعتقال فيها .
عبد الناصر أشار :
ـ هل وصل قرار منع يخت «المحروسة» من التحرك للبحرية؟
أومأ حكيم :
ـ من إمبارح .
وأضاف :
ـ والصبح الأوامر نفسها للمطارات في الإسكندرية .
لم يصدق البغدادي عجز التنظيم في الإسكندرية عن اكتشاف خروج الملك من قصر المنتزه، إنه بوابة وبحر، فلا أعيننا على البوابة، ولا زورق لنا ولا صول في البحر . ظلوا ساعات تجرها ساعات أخرى يطمئنون على وجود ضباط التنظيم في كل سلاح، ويطلبون التشدد في التنبه، وطلبوا من يوسف صديق وثروت عكاشة وحماد وكل المجموعة أن يعتقلوا أي ضابط يشتبهون فيه في معسكراتهم، ثم خص عبد الناصر أحمد أنور بأمر تفقد كل الوحدات والتمام على كل قشلاق وحرية تأمين الحركة بأي طريقة يراها .
لما دخل عليهم رشاد مهنا المكتب وقد رأوا موكبه الحافل من نوافذ الغرفة، لم يكن لدى جمال عبد الناصر سنتيمتر من قدرة على احتمال، فقرر يطلع عليه لغز اختفاء الملك، وكأن رشاد مهنا هو من خبأه في صندوق عربته الجيب. وبمجرد أن انتهت زوبعة مهنا، كان نبأ عودة جمال سالم كالفتيل أوشك أن يصل إلى أصابع الديناميت
انفجر جمال سالم في الغرفة فيهم :
ـ يعني إيه يا أساتذة نبعت إنذارًا للملك بالتنازل عن العرش، ولما أبو فؤاد الصغير يتنازل، نتركه يقعد في قصره أو حتى يمشي ونقوله مع السلامة والقلب داعيلك، ونحط نحن يدنا على خدنا ونقول عملنا اللي علينا وطهرنا البلد منه ومن حاشيته؟ طيب هو لن يسكت، وسيتآمر علينا، هل ننتظر يعمل مثل جده الخديو توفيق ابن الصرمة؟
ـ ماذا تعني؟

كان هذا سؤال حسن إبراهيم وقد تربسوا الباب وقرروا أن هناك مصيبة يحدفها عليهم جمال سالم، فلا يجب أن يراهم أحد وهم يحاولون رفعها عنهم. لم يهتم جمال سالم كثيرًا لسؤال حسن إبراهيم، فلقد كان المعنى واضحًا لدرجة أن حسن إبراهيم لم يلح في تكرار سؤاله، وقد أطرقوا صامتين، مما دعا جمال سالم للشعور بالتفوق على أقرانه، وسمح لنفسه بأن يهدأ، ويجلس على أقرب كرسي، ويلتقط أنفاسه من رحلة مرهقة وطنين يملأ رأسه، وتكف أنامله عن التنميل، ويتوقف ألم ظهره قليلًا. اكتفى بالغضب الذي أنزله على نجيب، وبالسؤال رماه في وجه الإخوة الذين كتبوا الخطة، ولم يعد حتى مهتمًّا بإجابتهم، فقد واصل بهدوء أثار أعصاب صلاح سالم :
ـ نحاكمه ونعدمه، لن نتركه حيًّا بعدما يتنازل عن الحكم لولده ويتفرغ للتآمر علينا من جوه وبره وبفلوسه التي نهبها مننا! لازم نثأر لإخوتنا الذين استشهدوا في فلسطين وباع دمهم بسبائك ذهب! نقتله ونخلص منه، لكن بعد ما نحاكمه !
نظر إليه جمال عبد الناصر متأملًا، وقد حيره أنه لم يفكر فيما توصل إليه جمال سالم الذي أعجبته النظرة، لكن نظرة محمد نجيب المتوجسة والمهزومة أمامه كانت أفضل كثيرًا .
نظروا جميعًا إلى عبد الناصر، لكن صلاح سالم كان يتبادل النظرات مع أخيه من خلف نظارتيهما السوداوين، فعداه كلامه، فشعر أن حماسه لإعدام فاروق بدأ يتكون ويتكور ويجري مثل بلية الرصاصة في عروقه، وبينما شرع في الصياح قاطع عبد الناصر نظرات الأخوين سالم قائلًا :
ـ أولًا نحن لا نعرف هل سيتنازل عن العرش ويستجيب أم سيعاند ويصر على المقاومة، وساعتها لن تكون المسألة مسألة محاكمة أصلًا، وإن كان هذا احتمالًا بعيدًا، ثم لماذا نحتاج إلى أن ننذره أصلًا؟ لو كنا ننوي محاكمته وإعدامه ما نروح نقتحم القصر (التفت إلى حكيم) أو قصوره ونقبض عليه ونخلص! أما لو تنازل طواعية وهذا هو الاحتمال الأقرب، صعب ساعتها فعلًا نسمح له بالبقاء في البلد، لازم يسافر، نحن كنا خائفين إنه يهرب، لماذا نخاف من هروبه؟ نطرده أفضل طبعًا .
قاطعه صلاح سالم (وليس أخاه):
ـ فاروق لن يسكت !
رد عبد الناصر :
ـ ونحن لن نسكت أيضًا، ثم هو سيكون كارتًا محروقًا وملكًا مطرودًا، لا الإنجليز طايقينه ولا الأمريكان مراهنين عليه .
التفت عبد الناصرإلى جمال سالم، وقال بهدوء استعاد فيه ما فقده أمام رشاد مهنا :
ـ ثم لو قررنا نحاكمه ونعدمه يا جمال كما تريد، ما الضمان إن الشعب لن يتعاطف معه؟ المصريون قلوبهم رهيفة وذاكرتهم ضعيفة، ثم هل تضمن أن إنجلترا لن تنتهز الفرصة أو أن الأمريكان لن يخافوا على زعل ملك السعودية مثلًا؟ ثم الأهم إننا لا زلنا لم نسيطر على الجيش تمامًا، وما زالت فيه بؤر وثغرات. نحاكم الملك وندخل في دوامات محكمة عسكرية ولا مدنية؟ أي قانون نحاكمه على أساسه؟ هل الدستور ينظم محاكمة الملك؟ تهمة الخيانة ولَّا الفساد ولَّا الاثنتين؟
قطع عبد الناصر الأمر بأمر :
ـ اسمع يا جمال، إحنا مش فاضيين للكلام ده، هو يسافر مع السلامة والقلب مش داعيله، ونتفرغ لمهمتنا الكبرى .

أنهى حكيم أي تداول فيما قاله عبد الناصر :
ـ تمام. كلنا موافقين .
سكت جمال سالم مع إطراقة الموافقة من خالد محيي الدين بعد جملة حكيم، وتمتمة البغدادي بالتأييد، والتسليم البادي على صلاح، لم ينتبه إلى حسن إبراهيم، فلم يكن ليزن في أيٍّ من الكفتين، ثم تكلممتنهدًا :
ـ أنا عملت واجبي وقلت الذي يمليه عليَّ ضميري !
مد جمال عبد الناصر يده إلى رزمة ورق مزين بشارات رئاسة الأركان، فسحب منها ورقة، وفتح غطاء قلمه الحبر وبدأ يكتب وهو يقرأ عليهم ما يكتبه :
على الحركة التحريرية أن تتخلص من فاروق في أسرع وقت، حتى تواجه أمرًا آخر أعظم أهمية، هو الحاجة إلى تطهير البلاد من الفساد الذي سيخلفه فاروق وراءه .
توقف عن الكتابة والقراءة، ثم عاود وقد طرأ له استرسال :
علينا أن نمهد الطريق لعهد جديد يتمتع فيه الشعب بحرياته الأساسية ويعيش في كرامة، إن العدل هو أحد أهدافنا، ولن نستطيع إبقاءه في السجن .
رفع رأسه وقلمه عن الورق، ونظر إلى جمال سالم، ثم عاد برأسه إلى قلمه وورقه :
أو الانشغال بما هو صواب وما هو غير ذلك في قضيته، ونواجه خطر إهمال أهداف الحركةالأخرى، فلنبقِ على فاروق، ولنرسله إلى المنفى، وسيحكم عليه التاريخ بالإعدام .
افتخر حكيم بعبد الناصر، وأسعدت كلمة «التاريخ »خالد محيي الدين، وأعجب «حكم الإعدام »جمال وصلاح سالم، وتوقف البغدادي عند جملة «الحركة التحريرية» في أول سطر وقد صارت لها أهداف في السطر الأخير .
طوى عبد الناصر الورقة في ظرف وأعطاه إلى جمال سالم، الذي مد له يده بطيئًا، ثم ضم الظرف سريعًا إلى صدره ووقف قائلًا :
ـ أنا راجع الإسكندرية حالًا .
ثم قبل أن يسمع كلامًا مثل توصل بالسلامة أو ربنا معاك أو على بركة الله (وقد قيلت كلها) التفت وسألهم :
ـ هل كتبنا الإنذار للملك أصلًا؟
*

كانت هذه اللحظة التي دخل فيها نجيب مكتب علي ماهر (علي ماهر يرى أنه اقتحم) هي نفسها التي تشبه اللحظة التي يرى العدو منكشفًا في سفح وهو يقف بقواته على تبة أو تلة، يمركز رجاله وينصب مدافعه، ويندفع فيها الأدرينالين كفيضان يدفع أمامه كل الكرات البيضاء والحمراء في دمه، وهو يطلق الأمر بالهجوم، هذه الورقة في طية جيبه، وأنور السادات في صحبته، وإسماعيل فريد يقف على باب مكتب رئيس الوزراء في قصر الحكومة، أما عرباته المدرعة الحارسة والداعمة فتجثم على رصيفي القصر. استعاد محمد نجيب جأشه، ثم استرد رباطته معه بعد أن قرأ السطور التي كتبها جمال عبد الناصر، وحملها له جمال سالم عند قفوله من القاهرة. هو لا يستطيع أن يدعي حبًّا لعبد الناصر، فهو يحترمه ويوده، لكنه ليس مثلًا كعبد الحكيم الذي دلف إلى قلبه من لحظة ما رآه، لكنه حين قرأ ما كتبه عبد الناصر أحبه كما لم يحبه من قبل (وربما كما لن يحبه من بعد). كان يخشى أن يتحمس عبد الناصر لإعدام فاروق، وساعتها لم يكن نجيب ليقاوم رغبته (أو

قراره)، وكان سيغوص معهم (أو وراءهم) في رمال متحركة طالما خشيها حين كان رئيسًا لحرس الحدود في صحراء الهجانة، فلما بدا عبد الناصر أعقل مما ظن، ورفض إعدام فاروق، وانتصر إلى مغادرته البلاد محروسًا في «المحروسة»، تدفقت عواطفه في عينيه فأدمع وأخفى دمعه وضعفه وراء سحابة دخان غليونه. لم يقل
له عبد الناصر قَطُّ إن من أهداف الحركة خلع الملك، بل لم يقل له إن لهاأهدافًا غير تطهير الجيش، لكنه لما أخبره بقرار طردالملكلم يضطرب، ولم يجده هدفًا بعيدًا، فالرايات البيضاء التي رفعها فاروق خلال الأيام الثلاثة الفائتة أغرت نجيب بنصر مؤزر. زيارات السياسيين الكبار وزعامات الوفد، وتلك الهتافات التي لاحقته وأحاطت به، جعلته يرى رحيل الملك ممكنًا بل مطلوبًا، ورأى الجبهة خالية من قوة معادية. وإن لم نحتل الموقع الآن، فقد لا نتمكن من الفوز به أبدًا .
لقد أبلغهم إذن ضباط من التنظيم من بين الحرس الملكي (يا لبراعة عبد الناصر، جنَّد ضباطًا من حراسة الملك) أن فاروق في قصر رأس التين. انسدت ثغرة في الخطة إذن، وها هو عبد المنعم عبد الرؤوف تحرك لحصار القصر. كانت الساعة الماضية هي التي قرروا فيها أن يكتبوا على وجه العجلة الإنذار للملك. بحث إسماعيل فريد عن منشورات الضباط الأحرار التي طالوا فيها الملك بنقد وهجوم، وعدد من تلك المنشورات التي كانت توزعها جمعيات وتنظيمات أخرى، مع نقاط وضعها عبد الناصر، وضوابط طلبها نجيب، وسطور أملاها جمال سالم، وأخرى زادها زكريا، وتدخلات قدمها السادات، فوق مسودة قدمها من كلفهم إسماعيل فريد بالصياغة، فانتهى إلى هذا الإنذار في تلك الورقة الطويلة العريضة التي أخرجها من جيبه وسلمها إلى أنور السادات، وطلب أن يتلوها أمام علي ماهر الذي كان قد انكمش مثل قط فاجأته موجة نوة على الشاطئ، فرعقلبه دقات لا تحتملها سنه وصحته .
بدأ أنور السادات يقرأ واقفًا الورقة بعد فرد طيتها ومسحها بجانب يده :
من الفريق أركان حرب محمد نجيب (كان محمد نجيب وهو يسمع هذه الجملة تنتفخ عروقه وأوداجه، ويشعر بجناحين ينزرعان في كتفيه استعدادًا للطيران)باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق ...
جلجل أنور السادات وهو يستدعي طبقة التنيور من حنجرته، ويرسم الكلمات بأداء صوتي دفع علي ماهر للتساؤل عن سر تلاوة البيان في وجهه، ولماذا لم يقدموه إليه ليقرأه هو في صمت وتأمل ويخلص؟ لعلهم كانوا في حاجة إلى ساعة طرب تشجيهم وتشقيه !
إنه نظرًا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق، نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور (كانت الكلمات تصفع وجه علي ماهر من كل جهة) ، وامتهانكم لإرادة الشعب، حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو عِرضه (هنا بالضبط أحس علي ماهر أن صبغة شعره تسيح، ويتعرى هذا البياض السبعيني من سواده الداكن) ، ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك، حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن، على حساب الشعب الجائع الفقير (لم يكن علي ماهر قد رأى أي جائع أو فقير، لكنه سمع أنهم موجودون فعلًا)ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين، وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد وزعزع الثقة في العدالة ...

ماذا لو أفصح علي ماهر الآن عن رضاه التام عن الأحكام ببراءة المتهمين في قضية الأسلحة الفاسدة، بل وربما ينتحر ويخبرهم أنه مع كل سفالات جرت يعلمها أكثر منهم، إلا أنه لا يوجد شيء اسمه أسلحة فاسدة أيضًا، لكنه كتم سره في قلبه، فقد بدا أن الإنذار بطريقة السادات الزاعقة موجه إليه هو وليس لفاروق! مرة أخرى لماذا لم يسلموه الورقة فيقرأها بسلام وبسرعة ومن غير الراديو الشغال أمامه؟ !
واصل السادات وهو يندم على أن هذه التلاوة غير مسجلة ومذاعة في الراديو، فلا أحد سيقرأها مثله، وهو يرجع لأيام المعتقل والمسرحيات التي كانوا يمثلونها في فرقة السجن المسرحية وتألقه في كل الأدوار... شكر الله منذ قرأ بيان الحركة في الإذاعة أن المنتجة والممثلةعزيزة أمير لم تقبله في مسابقة الوجوه الجديدة التي شارك فيها .
وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى، فأثرى من أثرى، وفجر من فجر، وكيف لا والناس على دين ملوكهم ...
عبرت تلك العناوين أمام عيونهم الآن، وقد كان رجالات من الأزهر يطالبون بإعلان الملك فاروق سليل النبي ـ نعم أخرجوا له شهادة أنه من بيت النبوة ـ خليفة للمسلمين .
واصل السادات بعد توقف قصير ليلتقط فيه أنفاسه، ويعطي اللحظة حقها التاريخي، وهي فرصة ليسترد علي ماهر لون وجهه المخطوف، ولكي يحدد محمد نجيب مدى التحليق الذي يريده من الجناحين اللذين تمدد ظلهما على رأسه :
لذلك، فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب، أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد، على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق 26 من يوليو 1952م والرابع من ذي القعدة من 1371هـ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .
لا جلس السادات، ولا طوى الورقة، ولا نطق محمد نجيب، ولا طاق علي ماهر وقال :
ـ بيان قاسٍ وعنيف يا سيادة الفريق !
لم يعرف علي ماهر أن مزاد كتابة هذا البيان الذي انفتح لعديد من الضباط، أوصل سطوره إلى كل هذا العنف المعبر عن الانفجار المكتوم في غليان المكتوب .
أضاف علي ماهر حين لم يجد سبيلًا لتخفيف تلك القسوة :
ـ لي رجاء، لو تكرمتم نحذف كلمة «عِرضه ».
قدم السادات الورقة إلى نجيب، الذي مر بعينيه على السطور، ووجد الجملة المقصودة (حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو عِرضه)، فأومأ دون مقاومة :
ـ موافق .
ثم تطلع إلى السادات، وقال له :
ـ نجعلها كرامته بدلًا من عِرضه .
شكر علي ماهر هذا الكرم، بينما نطر نجيب نفسه بعصاه وغليونه من على المقعد، وقدم الورقة إلى علي ماهر وانصرف ناسيًا جناحيه على الكرسي
حين وصل إلى الباب كان علي ماهر يتبعه، ومن خلفهما السادات، فهمس ماهر لنجيب :
ـ هل إنتم عاملين حسابكم كويس؟

كان سؤالًا مشروعًا موجهًا إلى قائد حركة كان يجهل منذ ساعات مكان الملك الذي ينتوي خلعه، لكن التفاتة نجيب الواثقة أشعرت علي ماهر أن نجيب استرد جناحيه وطار .
قلب علي ماهر الورقة بين يديه، وقد جلس على مقعده، وعلق وهو يحاول أن يتعلق بعجلة الزمن التي تتغير قبل أن تدوسه: ومكتوب بخط اليد بدون خطاط أو على آلة كاتبة، وعلى ورقة غير رسمية ولا تحمل فوقها شعارًا، هذه وحدها تهمةعيب في الذات الملكية !
نادى سكرتيره :
ـ أين سليمان حافظ؟
ظهر أخيرًا سليمان حافظ، وقد فتح الباب ودخل بقامته الربعة وبدلته البيضاء وشعره الأسود المسحوب للخلف وشاربه الهتلري، وقف منتصبًا، وعيناه تلمعان كأنه ترك غزالًا اصطاده على باب المكتب. خاطبه علي ماهر متعجلًا ومشيرًا بإصبعه كي يجلس سليمان مطرحه :
ـ انتظرني هنا يا سليمان حتى أعود من قصر رأس التين .
كان قد قرر ألا يسلم الإنذار للملك

17

ها هي الدبابات تدخل القصر !
البوابات الضخمة المقوسة الحديدية المنقوشة والمزركشة والمزينة بالتاج الملكي تنفتح لهم أم يقتحمونها؟ صف من العربات العسكرية يمشي وسط مربعات الحدائق وطرق الجنائن ومماشي أحواض الورود في قصري .
أطل فاروق من شرفة القصر، عالية وبعيدة عن مداخل القصر وأسواره، نظر من خلف شراعات النوافذ الشاهقة ودرف الشرفات المواربة، زمجرةجنازير المدرعات، ودهس العجلات العريضة السميكة للأرض الطوبيةالحمراء وبلاط الرصفالبازلتيين جنائن وساحات القصر، وصكات البنادق المشرعة بالهواء، تنفخ صدى فزع فاروق في جنبيه وتسد أذنيه .
هو بعينه وبنفسه يرى المدرعات والسيارات العسكرية تحاصره، والمدافع تنتصب حول قصره، بل تقتحم حدائقه، بل ها هي تضرب رصاصها يتقاذف في الشرفات فتطير شظايا الخشب مع قطع الزجاج مخلوطة بحجارة منسوفة من أعمدة الشرفات وأفاريز البلكونات، طلاءات الحوائط وحشواتها تتفتت وتنتفش بفرقعة الرصاص وشرارات مسدسات طراز «براين » تمرق بين أعمدة سور الشرفة .
شحب وجه فاروق واحمر واصفر، وهو ينحني بجسده الضخم حتى يلامس رأسه فخذيه، ويرفع كفيه بذراعيه ناحية الشرفة، كأنما يتفادى وصول رصاصة، ويتقهقرخطوات مشلولة يبتعد بها إلى داخل القاعة الملكية، ثم يهرع هلعًا للوصول إلى الردهة البعيدة، عبوسًا ومقطبًا، ذعر من مواجهة الموت، ابن هذه التيجانالمترف والمترفة فكر أنه سيموت لأسباب كثيرة، لكن ليس من بينها رصاص جيشه في قلب قصره. تذكر الآن فقط، مرتجف الروح، أنه لم يشاهد دبابات الجيش الإنجليزي وهي تحاصره في قصر عابدين منذ عشر سنوات، بل سمع أنها فعلت ولم يخرج من القصر إلا حين رحلت، بل منحوه بعدها رتبة جنرال في الجيش الإنجليزي (ارتدى بذلته العسكرية وقد علق عليها شارات جنرال في الجيش الإنجليزي في حفلة شاي لتكريم الضباط البريطانيينفي مدينة فايد، وكان قد أوشك على القيام بجولة تفتيشية على ثكنات الجيش البريطاني في قصر النيل لولا الملامة التي لمحها لامعة في عيون بعض حاشيته حين أخبرهم بنيته الفخورة).
انتقل من التجمد إلى التبلد، مشاعر الخوف امتزجت بالكراهية، والفزع تحول إلى غضب، والانكسار تحول إلى احتقار، الاستسلام زاده تحديًا، وشعوره المهين بالاستصغار انقلب استكبارًا حين سمع طلقات مدفع «فيكرز» تنطلق من فوق سطح القصر، حيث وضع الحرس الملكي بالأمس مدافعهم ذات العجلات الكبيرة والماسورة الطويلة وخزان الرصاص الآلي موزعة على واجهة القصر، كان حفلًا للرصاص سريعًا وخاطفًا ومرعبًا، كأنه تمهيد ناري لحرب أهلية .
استقام في وقفته، ولمح زوجته ناريمان متربة الوجه والشعر، مرتجفة البدن، محدقة العينين بقميص النوم الحريري المسدل حتى قدميها بروبه الأبيض المؤطر بالدانتيلا (هذه التعسة النكدة تليق بها تلك الوقفة التي تلبي كل احتياجها الممض للاكتئاب! ماذا أفعل لها؟ وما الذي جاء بها إلى هنا؟ هل تحتمي بي أم تحدج في ضعفي؟ هل تبغي أن تكون شاهدة أم شهيدة؟ لقد باتت طوال الليل مثل تلميذة في مدرسة داخلية مرعوبة من أصوات غريبة في فناء المدرسة). فجأة وجد الأميرات

الثلاث الصغيرات بالبيجامات البناتية الحريرية الورديةعلى السلالم النازلة من جناحهن، دهشات مصدومات، انتقلن من حواديت الأميرات فجأة إلى هلع الخوف من هجوم الذئب على ذوات الرداءات الحمراوانفي حكايات الغابة، تحتويهن بذراعيها مربيتهن الفرنسية «سيمون تابوري»، بينما كان فؤاد الرضيع مثل طفل الكانجارو على صدر السيدة «شيرمسيد ».

ـ ابعدن عن هنا بسرعة، تراجعن للخلف !

قالها بالفرنسية، وببرطمة عربية صرخ في ضابطه الذي ظهر أمامه الآن يحاول أن يجذبه إلى أبعد بقعة وأأمن رقعة يحمي فيه ملكه :

ـ أوقف النيران فورًا !

ثم شخط فيه كأنما ليقدم مبررًا لهذا الاستسلام المتعجل، لكن العاطفة غلبته حتى صدرت الكلمات صادقة رغمًا عنه :

ـ هوَّ إنت بتحارب الجيش الإنجليزي، دول ولادي وإخوتك في الجيش المصري !

يبدو أن القائمقام عبد الله رفعت أحب الملك في هذه اللحظة إلى درجة أنه كان يريد الاستمرار في إطلاق النيران من مدافع «فيكرز» من أعلى القصر، ولكنه تأثر بوطنية الملك المذعورة، فقال سريعًا قبل أن يمضي متعجلًا :

ـ أمرك يا مولانا .

جرى القائمقام في ردهة القصر الطويلة وهو يصيح في ضباط الحرس وجنوده، يأمر بوقف إطلاق النار، لحظتها لمح المدفع الذي نصبه الجيش المتمرد في حديقة القصر، والجنود يجرونه للخلف، والدماء تغطي أحدهم

أسرع ضابط صف يقف خلف كبير الياوران عبد الله باشا النجومي، وقد تلقى تعليمات بوقف الضرب، قبل أن توشك القذائف أن تدوي، فرفع راية بيضاء على صارٍ صغير يجهل من أين جاء بها أو كيف صنعها في هذه اللحظات بين صراخ الملك عليهم بالتوقف، ثم ركض عبد الله رفعت بالأمر إليهم، ثم قرار كبير الياوران بإنقاذ الملك بالاستسلام. فجأة توقف الجيش نفسهعن إطلاق النار، كانت الراية البيضاء إنقاذًا للجيش كما هي إنقاذ للملك في ذات اللحظة، فلم تكن هناك أوامر من عبد الناصربإطلاق الرصاص، ولم تكن هناك خطة للاقتحام أو للاشتباكأصلًا، بل هو أمر بحصار القصر .

سمع جنود الجيش عبد المنعم عبد الرؤوفيأمرهم بالتراجع عن مدافعهم التي كانوا قد تحركوابها ناحية الإسطبل ووجهوها ناحية المبنى الرئيسي للقصر . وكان عدد من الضباط قد توغلوا أكثر نحو حديقة القصر حين بدأ إطلاق نار يباغت الجميع ويزن ويطن من أعلى القصر وجوانبه البعيدة ومن وراء الأعمدة . حين سادت فوضى مريعة في صفوف الجانبين: ضباط القصر رافعو الراية البيضاء يتفرقون ويتفادون الرصاص، وضباط الجيش يندفعون غضبًا إلى الأمام بإطلاق رصاص تجاه الأماكن التي يطق منها شرر الطلقات، فيضربون على غير هدى، وتُفقدهم المفاجأة وتفرُّق وتعدُّد وتباعد أماكن إطلاق النيران القادمة من القصر أعصابهم، فيفلتون رصاصهم خبط عشواء، تعالى صوت عبد الله رفعت الآمر وهو يصيح بالبكباشي عبد المحسن كامل مرتجي قائد المدافع الملكية بأن يأمر جنوده المتشبثين بمواقعهم بالتوقف فورًا عن الاشتباك. لم يكن جهاز لاسلكي في يد أحد، والقصر شاسع واسع، والحدث غريب مريب، والأعصاب مشدودة بطول القصر وعرضه، والشعور بالغضب يساوي الإحساس بالغدر، وتمرد ضباط الجيش الثائر ضد

الملك يعادل واجب ضباط الجيش الحارس للملك، وتوازن القوى يغري بالمقاومة، وفوران الجيش يغوي بهدم القصر على صاحبه، لكن الحيرة أعيت الحرس، والمنديل الأبيض الذي لوح به الآن عبد الله رفعت وهو يتقدم بخطى بطيئة وإن كانت مقدامة نحو قلب كتيبة الجيش المتوزعة على جوانب القصر الثلاثة (لم تكن هناك قوات للجيش المتمرد جهة البحر، فالبحر كان ملكيًّا تمامًا حتى الآن). تقدم قائد الحرس عبد الله رفعت ووقف أمام الضابط الذي استقبله وسط ضباط يبدون أقل رتبة وسنًّا أحاطوه، وقال :

ـ من المسؤول هنا؟

رد عبد المنعم عبد الرؤوف :

ـ أنا .

لحظتها غمر عبد الرؤوف إحساس أن هذه هي أهم «أنا» سيقولها في حياته

*

أيقظت نوبة الصحيان عبد المنعم عبد الرؤوف من نوم مختطف، رشة الماء على وجهه لم يكن في حاجة إلى غيرها كي يستعد، فهو كان قد صلى الفجر وأنهى الورد المطلوب (لم ينسَ الدعاء للمرشد، وهو أمر قرره مع

نفسه منذ انضمامه للجماعة). حين أحكم زراير بذلته العسكرية كان الاستدعاء قد وصله من القائمقام صاحب العزة أحمد شوقي قائد اللواء السابع، الذي تتبعه كتيبته التي عسكرت في ملعب البلدية في الإسكندرية، وكانت رائحة النجيلة الخضراء تنافس رائحة يود البحر الزاحف فوق طبقات الهواء على المدرجات وفي الخيام وعند الغرف الحجرية الصغيرة والمبنى الإداري الوحيد. تساءل سريعًا: ماذا لو سأله القائمقام شوقي عن تلك الوقفة القصيرة التي أمر بها سائقه العسكري في ميدان المنشية عند وصول الكتيبة ليلتها؟ قرر ألا يكذب، بل يصارحه بمنتهى الصدق والشجاعة، فلا شيء يهابه ولا أحد يرهبه :

ـ نعم أوقفت السيارة وهبطت إلى محل تجاري يملكه ويسكن فوقه زميل لي قديم في الطيران .

ـ لماذا؟ هل أوحشك فجأة؟

ـ لا، هو أخي في جماعة الإخوان .

ـ ثم؟

ـ أخرجت رسالة مطوية في ظرف كتبها بخط يده الأخ عبد الرحمن السندي قائد التنظيم الخاص للإخوان لأسلمها لأخ من قيادات الإسكندرية يبلغه فيها بالثقة بي والتعاون معي في جميع المجالات إذا تأزمت الأمور .

متى تقابل عبد الرؤوف مع السندي في القاهرة، وكيف أبلغ عبد الرؤوف رجلًا من خارج الجيش بخطوة خطيرة مثل الذهاب إلى الإسكندرية بكتائب جيش لحصار الملك؟ ثم ما طبيعة التعاون بين الإخوان؟ وما هي الأمور المقصودة؟ ولماذا تتأزم؟ ألن يسأله القائمقام هذه الأسئلة وقد تحرجه وقد تفضحه؟ لكنه حمد الله لأن أحمد شوقي لم يسأله لأنه لم ينتبه، بل قدم له قطعة من ورق النشاط كتب عليها بخط يده طبيعة المهمة : محاصرة قصر رأس التين ومنع دخول وخروج أي شخص ومنع الاحتكاك. سأله عبد الرؤوف بغلظة رفعت حاجبي قائده :

ـ الأمر متضارب يا أفندم، كيف أمنع الدخول والخروج من غير ما أحتك؟

رد القائمقام :

ـ اتصرف حسب ما تراه مناسبًا، ثم يا حضرة البكباشي احتك لكن بدون عنف، بحزم من غير دم !
أردف قائلًا وهو ينهي أي أسئلة ينوي ضابطه أن يشغله بها (فهم لماذا قرر عبد الناصر أن يضع عينيه على هذا الضابط، وعرف لماذا داس عبد الناصر على كل ضروسه وهو يوافق على تكليف عبد الرؤوف بهذه المهمة):
ـ ثمتحت قيادتك يا عبد الرؤوف مجموعةمدافع ميكانيكية، وفي المساندة تروب مدفعية متوسطة .
قاد عبد المنعم عبد الرؤوف كتيبته التي تبدو وهي تخرج من ملعب البلدية، تدك الأرض نحو رأس التين بعرباتها، أكبر كثيرًا من حقيقتها وسط هدوء الصبح وخلو الشوارع وأضواء ليل لم تنطفئ في عدد من الشرفات والغرف المطلة على الشوارع. كانت وجوه تطل، وعيون تتسع لتحدق، وشرفات تنفتح، وعربات ترام تتمهلوتخرج رؤوس بأعناقها تشرئب تتابع الموكب، وسيارات تقف وتركن وتفتح أبوابها وينزل راكبوها ليروا بأنفسهم ويلمسوا بعيونهم، ومحلات يُدفع بابها المعدني لأعلى ويستفتح يومها بموكب من المدرعات، وأبواب محلات أخرى زجاجية شب زبائنها على حواف أقدامهم وتوقف ندلها عن الخدمة وخرجوا بقمصانهم البيضاء وملاءاتهم السوداء الملفوفة على خصورهم ووقفوا على عتبات الأبواب يتطفلون لينقلوا تلغرافات شفوية للزبائن، كما ركاب الترام بتلغرافات الإيماءاتالعجلى والكلمات المتقاطعة ينقلون بين المحطات الخبر، وسائقو الدراجات يدورون بلفاتالعجل يوازون المدرعات سيرًا وسرعة. كلما دنا الموكب من قصر رأس التين بدا الزحام أكبر والهدف أوضح، لكن المارة والعابرين والمارين والمطلين والمتابعين والماشين والواقفين لم يتبينوا الخيط الأبيض من الأسود: هل هذه قوات تساند الملك استدعاها وحركها أم أنها قوات للواء محمد نجيب جلبها تحت شرفة قصر الملك نفسه؟
لما وصل عبد المنعم عبد الرؤوف جمع أحد عشر ضابطًا وصف ضابط وجاويشية، هم قادة كل مجموعة وزعها حول القصر . رأى أن الجهة الشمالية المفتوحة على البحر هي أكثر الجهات حرجًا، فعبأ لها عددًا أكثر. كان يجهل هل حصار القصر يعني دخوله والتمركز في جنبات الحدائق والإسطبلات ومرسى المراكب والزوارق؟ ثم هو لم يزر من قبل قصر رأس التين، ولا قدَّم له أحد مخططًا للقصر، ولا يشاركه ضابط من قوات الإسكندرية أو البحرية أو الحرس الملكي يحفظ تضاريس القصر، حدوده وبواباته ومواقع التحصينات فيه وأبراج الحراسة ولا أي شيء، فترك جنوده الذين دخلوا بسياراتهم إلى القصر دون أمر بإيقافهم، خصوصًا أن البوابات مشرعة، ولا حس ولا خبر ولا حواجز ولا متاريس، حتى إنه لم يستبعد أن يدخل معهم سائقو دراجات اللبن وباعة الخبز المرصوص على أقفاص فوق رؤوسهم وهم يسوقون دراجاتهم ويتسللون بين عربات الجيش ومدرعاته فضولًا وتهورًا . لكن فجأة انطلقت نيران من حرس القصر، فرد الجنود دون انتظار لأوامر، فقد توغلوا داخل حدائق القصر حتى انكشافهم تمامًا أمام أي إطلاق من أعلى. أمرهم عبد الرؤوف بالتفرق في الجوانب والأركان حين شاهد مدفع «فيكرز» يضعه الحرس الملكي عند مدخل السلالم الرخامية المرتفعة الكاشف لواجهة القصر ومواجهة الجنود المحاصرين، ثم كان صوته زاعقًا متوترًا وحادًّا بإطلاق الرصاص على المدفع المنصوب في مواجهتهم، فانطلقت زخات الرصاص من كل جانب، مما دفع جنود الملك للتراجع وجر المدفع للداخل، وبينما سقط واحد منهم كان جنديان من قوات عبد الرؤوف يتضرجان بالدم مصابين بطلقات الحرس الملكي، سحبهما رفاقهما بينما شرر الطلقات يلعلع صوتًا وضوءًا في عز الصبح سمع عبد الرؤوف صياح أحد ضباطه من خلفه :

ـ هناك راية بيضاء يا حضرة البكباشي !
رأى عبد الرؤوف خمسة من ضباط الحرس الملكي (بالتأكيد ضباط) فوقهم راية بيضاء، فأصدر أمرًا بوقف إطلاق النار، لكنها هدنة لم تستمر لحظات تكفي لابتلاع الريق الناشف، إذ انطلق وابل من الرصاص من جنبات القصر العلوية، فعاد الرصاص زخات بين الطرفين، وعبد المنعم عبد الرؤوف حائر في تعريف مصطلحالاحتكاك الذي طالبه أحمد شوقي بمنعه، حتى ظهر هذا الضابط الملكي، وسأل عن المسؤول، فنطقها عبد المنعم عبد الرؤوف فخورًا، وعرَّف بنفسه، فأخبره القائمقام عبد الله رفعت برتبته ومنصبه، ومسح بنظراته عدد ومواقع ووجوه وأسلحة قوات نجيب، وأدرك أن الملك تسرع كثيرًا في رفع رايته البيضاء، وإن كان أعقل كثيرًا من أن ينتظر بقية الكتائب التي انضمت إلى نجيب كي تشارك في حرب مليكها في قصره، وسأله :
ـ ما المطلوب؟
*
هرع الملك فاروق على سلالم القصر الداخلية بجسد مترجرج، ودلف إلى ردهة، ومنها إلى باب خشبي عالٍ عريض ينفتح على سلم أصغر رخامي وقصير يقود إلى باب حديديعارٍ من النقوش، فتحه وولج إلى غرفة لا تحمل سمات غرف القصر الرحيبة، وتبدو قبوًا فخيمًا يضممكتبه الخشبي الصغير، يرتكز ثابتًا فوقه صندوقاتصالات تلفونية بأكثر من سماعة وبقرص وحيد وتمتد منه عدة أسلاك مثبتة في مقابس كهربائية، وساعة حائط طويلة ذات قاعدة خشبية مزينة بنقش التاج الملكي، بينما قرصها ناصعالبياض وعقاربها ذهبية، ويتدلى منها عمود البندول الذهبي في حركته الآلية من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين مصدرًا صوتًا ذا إيقاع مكتوم يجهض الصمت المطبق في المكان .
أول ما فعله الملك فاروق أن أشاح بيده لأمين السر الذي سبقه إلى الغرفة وأدار الجهاز وشغله، بأن يخرج، والتفت إلى الضابط الذي كان يلهث وراءه حارسًا لكييخرج معه، ثم جلس ولحق بهما قبل خروجهما من الغرفة :
ـ قفا خارج الغرفة، لا ترحلا، فقد أحتاج أيكما !
نبض قلبه في سرعته، ولهاثه في ارتفاعه، وطرقات أصابعه على خشب المكتب، فازت على أصوات الساعة في مباراة التوتر. ما لبث أن أدرك حاجته إلى أمين السر حين بدأ في إدارة القرص، فناداه متعجلًا ومحاولًا إظهار أكبر قدر من التمثيل الملكي للتماسك :
ـ اطلبلي رقم السفير الأمريكي .
بدأ أمين السر يبحث عن الرقم داخل دفتر أسود مذهب يحمل غلافه نفس نقش التاج الملكي، فالمسؤول عن تلفونات واتصالات القصر يمكث في سنترال القصر العلوي، وقد قطع الجيش الاتصالات في سنترال الإسكندرية المركزي، لكن الملك صمم على أن يكون وحده في غرفة الخطوط الخاصة. للحظة كانت نظرات لاعب قمار يحتفظ بورقة مخفية عن منافسيه على المائدة الخضراء، تلوح في عيني الملك، فمنذ حصار الدبابات الإنجليزية لقصر عابدين ومنع الاتصالات عن الملك في فبراير 1942، وفاروق صنع لنفسه ملجأ لاسلكيًّا للتلفون والتلغرافات عبر خطوط لمحطة خاصة سرية تتنقل مع قصوره واستراحاته وأماكن إقامته، تحسبًا للحظات مثل تلك، وقد جاءت. حين عثر أمين السر على الرقم وبدأ في إدارة القرص دارت الأسئلة تطحن رأس فاروق:

لماذا قرر الجيش قتله؟ إنهم يعتزمون شيئًا إدًّا إذن، ليتركوه يرحل ويغادرهم بدلًا من أن يهددوا حياته ويقتلوه !
تعثر أمين السر في تدوير القرص، وأعاد مرتبكًا المحاولة، فإذا بسكون يسكن جسد فاروق، فينطفئ توتره وتحدق عيناه في بندول الساعة الرائح العائد. كان يعرف أنها ساعة آتية لا ريب فيها! ألم يقل لكريم ثابت (اسألوه إن كان صادقًا فسيخبركم، رغم أن صدقه يمشي وراء مصلحته، إلا أنه صحفي يحب أن يثرثر فثرثروا معه لتصدقوا صدقي) وهما في رحلة صيد أو عودة من برتيتة أو نقاش مع السيجار وكأس «البيبسي» الذي يعتقد الناس أنه خمر، إنني لن أبقى على عرشي؟
ـ من يدري يا كريم؟ نحن في زمن لا أمان فيه! اليوم أنا ملك، ولكن غدًا من يدري؟ !
لا، لم أقلها لكريم ثابت وحده، بل للخواص .
كان قد أنهى استقبال الملك «فكتور عمانوئيل الثالث» ملك إيطاليا الأسبق، والملكة «هيلانة»، حين التجائهما إلى مصر بعد رحيلهما عن روما، في مرفأ هذا القصر، قصر رأس التين. مشى على الرصيف وسط البيارق والأعلام الخضراء ذات الأهلة والنجمات، وهو يتمتم: لو كان والدي حيًّا لفعل ما فعلت. إيطاليا هي التي استقبلت جده إسماعيل منفيًّا مطرودًا من الإنجليز، وها هو يرد الجميل، بل هو الذي يشتري قصورًا وبيوتًا في أوروبا، بل في إيطاليا تحديدًا، لهذه اللحظة
ـ عشان ربنا يكرم الواحد لو حكمت عليه الظروف يومًا بأن يرحل عن عرشه !
رد كريم (أو غيره. لا هو كريم فعلًا):
ـ لا قدر الله يا مولانا !
رد الملك في صوفية نادرة عليه، وعدمية تناسبه تمامًا :
ـ كل شيء في الدنيا محتمل !
تخلى عن صوفيته المستعارة، وعن عدميته الأصيلة، أو ربما إمعانًا في العدمية زاد بخله لصالح اكتنازه المال وإرساله للخارج حتى يحسب حساب المستقبل .
رد السفير الأمريكي على المكالمة الآن، فأسرع الملك فاروق منفضًا ذكرياته عنه كأنما يطفئ سيجارة :
ـ إنهم يحاصرون القصر يا سيادة السفير! «كافري» إنك صديقي، وأنا لا أطلب منك التدخل، بل أطلب منك إنقاذ عائلتي! ما معنى أن يطلقوا الرصاص على القصر بعد أن حاصروه إلا أنهم يطلبون رقبتي؟ !
كان «كافري» مصدومًا :
ـ ليس هذا ما اتفقنا عليه !
ـ اتفقتمع مَن يا «كافري»؟
رد «كافري» بوضوح هذه المرة :
ـ لقد حصلنا على ضمانات من الضباط ألا يمسوك بأذى !
عرف فاروق أنه اتصل بالرقم الصحيح، الأمريكان وحدهم من يملكون إنقاذه الآن، وهم كما هو واضح يملكون جسورًا مع النجيبيين. الأمريكان أغبياء تمامًا، فهم يدعمون الشيوعيين والإخوان دون أن يدركوا! لكن لا بأس، إنهم مغرورون لكنْ مفيدون .

كان «كافري» مبتئسًا من المفاجأة، وقرر أن يجلد ظهر «ليكلاند» عليها، فالمعلومات التي وصلته أنهم سلميون، ضباط لا يبغون أكثر من تغيير هذا الملك المغفل الذي رفض كل نصائحنا له، ولا نحن ولا الإنجليز ننوي حماية عرشه، لكن ستكون كارثة لو لم نقدر على حماية رأسه !
رد «جيفرسون كافري »:
ـ اطمئن جلالة الملك، نحن نضمن حياتك !
ثم أضاف :
ـ سأرسل لك فورًا «سمبسون» سكرتيري الشخصي !
كان السفير يرفع سماعة تلفون ثانية على أذنه لحظتها، وقد سلم السماعة الأخرى إلى أحد موظفيه فكتمها بكفه، وأنصت السفير إلى «سباركس» مستشار السفارة الأمريكية الذي كان يتحدث له من مكتب محمد نجيب :
ـ لقد أخبرته أن وزير الخارجية الأمريكي وحكومته على استعداد لاعتبار الانقلاب أمرًا داخليًّا لا يهم إلا المصريين، لكنالسفير وحكومتهيأملون في الوقت نفسه ألا يخرج الموقف عن الزمام، وأننا يجب أن نتلقى تأكيدات بأنه مهما حدث فإن سوءًا لن يصيب الملك، أو أيًّا من أفراد عائلته، وأن يسمح للملك بمغادرة مصر موفور الكرامة !
هل نقص حب نجيب لجمال عبد الناصر ساعتها، حين أدرك أنه كان يعلم (أو يتوقع) موقف الأمريكان الرادع من مس فاروق بسوء، لهذا رفض اقتراح جمال سالم المتهور (التهور يشمل الاقتراح وسالم معًا) بإعدام فاروق
أنهى «سباركس» المكالمة ووضع السماعة، وكانت لحظات الصمت قد شقت قلب فاروق، ثم عاد إليه قلبه مع صوت السفير الأمريكي :
ـ دقائق ويصل «سمبسون» لديك في القصر، إنه أقرب مما تتوقع !
أنهى الملك المكالمة وهو يندم على أنه لم يكن في أنشاص، يوم قال للوزير الإيطالي المفوض :
ـ إنت فاكر أنا عملت مطار أنشاص ليه وكبرته ليه، مش عشان لما تحصل الكارثة ما اتاخدش على غفلة؟
وها هي الغفلة قد جاءت .
وجاء علي ماهر أيضًا
*

لا كان علي ماهر يحتاج أن يتكلم، ولا كان فاروق ينتظر أن يسمع. تلك النظرات الكئيبة الكليلة المكلومة التي تطل من عيني ماهر باحت بكل شيء للملك، صحيح شاركت الدبابات والمدرعات والضباط والجنود خارج القصر في شرح ما قالته نظرات علي ماهر، لكن وقفة الأخير المحنية والكسيرة ترجمت الكلمات بكل اللغات التي لا تنطقها الشفاه. كان الملك قد استقبله وهو يمسك بأهداب الأمل، بحبال بالية من الأمل الواهن في أن الجيش أراد فعلًا من حصاره تهديده وليس خلعه، حتى انتزاع «بوللي» من حاشيته بعدما قبضوا على غيره، كانوا فقط يستعرضون قوتهم أو يسعون لشروط جديدة، كل الأسباب التافهة الفارغة التي لم تكن منطقية ولا عاقلة قَطُّ حاول أن يصدقها، مرت بباله، كان يحشرها حشرًا ليجد لها مكانًا في عقله بجانب الفكرة الوحيدة الأكيدة التي كانت تملأه أن الجيش يزيحه عن العرش، لكن لمحة واحدة من عيني ماهر أيقن بها ما هو يقين .

لم يجلسا، بل ظلَّا واقفين في تلك الغرفة التي كانت أوسع غرف القصر وقد ضاقت عليهما للغاية.
ليس الحزن ما يتلبس علي ماهر، بل هو شعور عميق بالذنب يأكل قلبه ويقضمه كما ألف فأر في خشب سفينة، هو من تلقاه وهو رئيس للديوان الملكي، ويودعه الآن كرئيس للوزراء، حاول أن يربيه على أن يكون ملكًا،
نعم ملكًا مستبدًّا يمارس صلاحيات ملك لا يعبأ بتلك الأحزاب البغيضة الدنيئة التي كرهها علي ماهر: حزب الوفد وزعماته المغرورة والأحزاب الأخرى وقياداتها الغريرة. لكن فاروق شطح ونطح بعيدًا عنه، وامتلك الحكم كملك، وتصرف كشاب نزق. بينهما شيء ما مما يمكن تسميته الحب (ليس الحب قطعًا). ستة عشر عامًا قضاها مع هذا الصبي الشاب الملك، متقلب المزاج الأحمق الأرعن في لحظات وساعات، ثم في أخرى أمام الضيوف والغرباء والأجانب ورجال الأحزاب والوزراء رزين وديع وقور ! غاضب حانق مع بعض اللعن والسب، ثم يخرج أفضل ما في قاموس اللغة الفرنسية من عبارات التأدب والتودد! يا ترى بمَ سيرد عليه في هذه اللحظة وقد تغيرت السنون والأحوال والأهوال، ولم يعد هذا الصبي النحيل المرتبك زائغ النظرات يخفي طوله طفولته، بل صار الشاب الضخم البدين الأطول الأصلع بنظارته الغامقة التي تخفي عينيه؟ هل هي حمراء الآن من الأرق والقلق؟ هل هي دامعة مترقرقة من إدراكه سبب قدومه؟ هل هي لامبالية متحجرة تفصح عن هذه الروح المستغنية والمتعالية التي كان يستغربها لديه للغاية؟ خصوصًا وهو الملك الذي يسرق الأشياء الصغيرة من بيوتات أصدقائه ومعارفه وأقاربه، حتى إن بعضهم كانوا يخبئون بمجرد معرفة قدومه أشياءهم الرفيعة الثمينة أو الغالية عليهم: طقم ملاعق، منفضة فضية، مسبحة، قلم حبر، فتاحة جوابات، بعيدًا عن عينيه ويديه، وهو الذي يطمع في مقتنيات في بيت أحدهم فيضطر صاحبها إلى إهدائها له (غالبًا يهملها الملك بعد استحواذه عليها بدقائق). إذا به هو نفسه أحيانًا يبدو مستغنيًا متعاليًا لا حاجة له بملكية ولا عرش، طفل مل من لعبته، وشاب زهق من عشيقته، ألم يكن يضحك ليلتها حتى كاد الدمع يطفر من عينيه على ورق الكوتشينة وهو يصيح: لن يبقى في الدنيا ملوك إلا ملك إنجلترا وملوك الكوتشينة. ثم طالب الجميع بالضحك .
أطرق علي ماهر برأسه، وقال وهو يتحسس ورقة إنذار الجيش المطوية في جيب البدلة الداخلي، حيث لن تخرج منه أبدًا :
ـ جلالة الملك، هذه لحظة عصيبة عليَّ أنا بالذات !
رد فاروق :
ـ فهمت .
«لا لم تفهم يا مولانا»، هكذا تمتم ماهر في صمته، واشتد حزنه في هذه اللحظة على فاروق أكثر من على الملك :
ـ قدموا إنذارًا للتنازل عن العرش عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا .
نظر كلٌّ منهما في ذات اللحظة إلى ساعته، كانت العاشرة واثنتين وأربعين دقيقة
صمت الملك وقد شحب وجهه ثم احمرت بشرته وهو يرد بثبات :
ـ إنذار؟ !
أراد ماهر أن يرمي العبء كله من فوق كاهله بسرعة :
ـ وتغادر البلاد اليوم عند السادسة مساءً !

سأله الملك وقد ترك كل هذه التفاصيل جانبًا :
ـ وإلا؟
هذا بالضبط ما سأله ماهر لنفسه، وأوشك أن يسأل سائق سيارته الذي أوصله للقصر هنا: ماذا لو رفض الملك الإنذار؟
أولًا هو يعرف أنه لن يرفضه، لكن ماذا لو طقت في دماغه ورفضه؟ ما معنى تحمُّل الملك نتائج ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب؟ (ثم من قال إن الملك سيرى أنها رغبة الشعب؟ بل هي عنده رغبة الجيش، وهو بالمناسبة أهم عنده من الشعب، وقد يرى الملك أنه بعض الجيش وليس الجيش كله). لكن ما هي فعلًا النتائج؟ ألم يرَ نجيب وضباطه، وهذا الذي قرأ لي البيان كأنه «هتلر» يخطب في استعراض جيشه في برلين، أن الأمريكان يرفضون المساس بحياة فاروق، وأن الإنجليز يتحينون التدخل لو اندلعت حرب بين الملك وجيشه؟ لقد سأل ماهر نجيب فعلًا :
ـ هل إنتم عاملين حسابكم كويس؟
رد نجيب بثقة في البذلة التي يرتديها أكثر من ثقته في رأسه الذي يحمله :
ـ نعم .
أجابه ماهر :
ـ زي ما تشوفوا .
لكن نجيب لم يكن يملك إجابة، لأن جمال عبد الناصر لم يقل له ما الذي سيترتب على عدم التنازل عن العرش. الأهم أن عبد الناصر نفسه لم يكن يملك خطة إن رفض الملك التنازل، فالرجل الذي رفض محاكمة الملك وإعدامه لم يطرح على نفسه طبعًا اقتحام القصر وقتله. حتى جمال سالم حين هاج وماج وزاد وأعاد وسافر وعاد لم يتكلم عما لو رفض الملك التنازل! هو «الطريق الرابع» الذي وجد يوسف صديق نفسه أمامه منذ عدة ليالٍ، الورقة الأخيرة الناقصة في كل خطة !
عندما لم يسمع فاروق إجابة عن سؤاله «وإلا؟»، شد عوده، ورفع رأسه، ومد بصره إلى الشرفة بسمائها والبحر بموجه، ورأى الزرقة الصيفية البديعة في بحر وسماء الإسكندرية، وقال :
ـ أنا لست جبانًا !
ثم أضاف بتحدٍ وحِدَّة :
ـ إن القوات الموالية لي أكثر من المتمردة، مجموعة نجيب خارج القصر صغيرة ولن تصمد !
لكن ماهر كان يعرف أن ما يسمعه الآن من فاروق هو محض ملء لفراغ الوقت، ولتسجيل لحظة يرويها في جلسة قمار، هو مقامر مدمن بالفعل، لكن ليس أبعد من الورق
ـ لكن يا مولانا، هذا يعرِّض مصر للخطر إن قامت حرب أهلية بين الجيش ونفسه، وأنت أحرص على مصر بلدك وبلد أجدادك من أن يراق فيها الدم وتنتشر فيها الفوضى، ثم لا يزال هو عرش سمو ولي العهد الذي سيصير ملكًا من صلبك .
أطرق فاروق، ونقر بعصاه الأرض (لم يترك لعلي ماهر أي فرصة ليجلس، وقد أتعبه ظهره، وأنهكه الموقف ووقفته):
ـ هل تعرف يا باشا أن جدي هو من أنهى العبودية في مصر؟
ثم قال بسرعة وبوضوح ما أدرك ماهر معه أن فاروق كان جاهزًا لذلك الإنذار، وكان مستجيبًا له حتى قبل أن يعرفه (لم يسمع فاروق الإنذار أيضًا، ولن يقرأ ما فيه، إلا ربما في الصحف الأجنبية وهو جالس في جناحه بفندق في نابولي):

ـ قل لهم إنني مستعد أن أوقِّع حالًا، لكني أشترط شرطين: الأول، أن تكون أوراق التنازل رسمية ودستورية، ويجب أن يتم تحضيرها من قِبل محامين، وألا تحتوي على أي إساءة. أما الثاني، فهو أن يسمح الجيش للمخلصين من قواتي، الذين يرغبون، أن يعطوني التشريفة العسكرية الكاملة وأنا أرحل .
تنفَّس علي ماهر أنفاسًا تطفئ لهبًا. لم يخب ظنه في عدمية فاروق المخلوطة بخوفه وبوطنيته (لم تكن مصر وطنه كما وطننا، بل كانت مصر بتاعته). أومأ برأسه منحني القامة ممتنًّا، وقال :
ـ سنطلب لجلالتكم التحية الملكية بإحدى وعشرين طلقة، وطبعًا المغادرة على «المحروسة»، وبحماية عسكرية، ووداع رسمي من رئيس الحكومة وقائد الجيش .
سأل فاروق :
ـ هل سيأتي نجيب لتوديعي؟
استغرب ماهر أن فاروق سيكون سعيدًا لو فعل نجيب هذا. أي سعادة في أن يصحبك الرجل الذي أجبرك على التنازل عن عرشك إلى باخرة رحيلك عن مملكتك؟! هل يظن أن هذا يحفظ ماء وجهه أو يرد له كبرياءه؟ سيظل غريبًا هذا الشاب، وسيظل ماهر يحبه، بل الآن فعلًا، بكى ماهر. سبعيني يريق دمعًا وهو يحاول أن يحتفظ بوقاره الباكي :
ـ لا بد أن يكون نجيب في وداع جلالتكم !
أشفق فاروق على رئيس حكومته الأخير والأخيرة وهو شاحب مرتجف ودامع، ثم أحس أنه يعطله عن الاستعداد للرحيل، فقد تبقى أقل من سبع ساعات فقط .
كان «سمبسون» قد وصل الآن، ودخل دون أن يتقدمه أمين السر ولا رئيس الديوان (نسي أن حافظ عفيفيرئيس الديوان مقبوض عليه من بيته هذا الصباح)، ولا أحد من المراسم أعلن عن وصوله .
وجد الملك نفسه يعانق نائب السفير الأمريكي الذي قال له بلغة تبللها العاطفة :
ـ السفير الأمريكي شخصيًّا سيكون في وداع جلالتكم !
كان السفير الأمريكي إذن يعرف كل شيء

18

وقف سليمان حافظ ببدلته البيضاء، يحمل حقيبته الجلدية تحت ذراعه، يمسح عرق جبهته بمنديله الأبيض، والحيرة تفاجئه تمامًا. كانت المرة الأولى التي يحضر فيها إلى قصر رأس التين، وها هو أمامه ليطرد صاحبه وملكه دون أن يقدر على ولوج عتبته ولا المرور مترًا داخله. مدفعية الجيش وعرباته المصفحة التي فوجئ بأنها أقل مما يتوقع وأضعف مما يعتقد، وعشراتالجنود يتوزعون بمسافات متباعدةشاهري البنادق أمام سور القصر، وتلك الثلة من الضباط والجنود المتجمعة عند البوابة الرئيسية المغلقة حالوا دون أن يدخل :

ـ ممنوع الدخول يا بك !

عرف نفسه بأنه سليمان حافظ المستشار القانوني لرئيس الحكومة . لم يقل إنه يحمل وثيقة التنازل عن العرش التي أثقلت حقيبته، وكان يريد أن يقول أيضًا إنه من صاغها، وإنه قادم من ثكنة مصطفى باشا حيث الفريق محمد نجيب، ومأمور بالدخول للقصر. الجنود لم يعيروه اهتمامًا ولا همًّا، لكن ضابطًا سمعه فناداه وهو واقف على مبعدة عدة أشبار من البوابة، وصافحه سليمان حافظ متحمسًا، لكن الضابط أشار له بالدخول إلى كشك الحراسة الحجري الخارجي بجانب البوابة، ولما جلس سليمان على أقرب مقعد صادفه أخبره الضابط :

ـ التعليمات عندي بمنع دخول أي شخص للقصر !

شرع سليمان حافظ في التعليق، مقررًا مرافعة سريعة وحجة بليغة قوية يعرضها، فقاطع الضابط كل نواياه الطيبة وقال :

ـ سنرسل إشارة إلى القيادة في معسكر مصطفى باشا وهي التي تقرر !

أصر سليمان وهو يشعر بعقرب الساعة يلدغ رسغه :

ـ التعليمات في طريقها إلى حضراتكم من القيادة إن لم تكن قد وصلت فعلًا .

رد الضابط معتذرًا برفع كتفيه وتحريك ذراعيه وفرد كفيه :

ـ آسف جدًّا، لا تعليمات وصلت، وبدون التعليمات لن أستطيع السماح لك بالدخول !

نفخ سليمان حافظ متنهدًا ومستسلمًا. وضع يده في جيبه وأخرج علبة سجائره الفضية، وفتحها فوجدها فارغة، خيب أمله خواؤها، واندهش أنه قبل الثانية عشرة ظهرًا وقد أنهى علبة سجائره تدخينًا. أشفق الضابط على ضيفه المرتبك من صدمتين معًا: منع دخوله وخلو علبة سجائره، واساه فأخرج علبة سجائره الكرتونية من جيب جاكت البذلة العسكرية وفتحها وقدمها لحافظ الذي تلقى صدمة ثالثة حيث لم يجد في العلبة سوى سيجارة واحدة فقط، واضح أن الإسكندرية استهلكت في هذا الصباح دخانًا يكفي لتسويد زرقتها. اكتشف الضابط لفافته الوحيدة فابتسم وصمم على أن يقدمها لحافظ الذي رفض بأدب جم وامتنان لهذا الذوق الشديد، وظلَّا في حوار عبثي حول من يدخن السيجارة، حتى اقترح حافظ أن يقتسماها تخميسًا، فقبل الضابط، وها هو يتقاسم مع الجيش اللفافة الوحيدة .

كان تبغ السيجارة الوحيدة يتآكل محترقًا (كرم الضابط سيكون مغدقًا الآن لو اقترض سيجارة ثانية من زميله الذي وقف أمامهما الآن يخبره أن عطلًا أصاب جهاز اللاسلكي فلم يتمكنوا من إرسال الإشارة إلى ثكنة مصطفى باشا).

كان سليمان حافظ قابضًا على الحقيبة ويسندها على فخذه، كأنما يحمل الكنز الذي عاش عمره كي يعثر عليه، منذ ساعتين فقط أدرك أنه نفذ من الإعدام بحبل المشنقة ملفوفًا على عنقه من أجل هذا اليوم. نعم هو رجل القانون، المحامي والمستشار، ثم وكيل مجلس الدولة، لكنه مدين لشهادة زور أنجته من الشنق، تلك الجماعة السرية التي كان عضوًا بها وعنصرًا فيها، يتدربون على إلقاء القنابل على الأعداء (لم يكن الإنجليز وحدهم هم أعداء هذه الجمعية، بل كذلك الخونة، والخونة هم من يقرر أعضاء الجمعية أنهم خونة). لن ينسى مصطفى حمدي ضابط البوليس الوطني الذي كان يدربهم على هذه العملية، وتلك اللحظة التي نزع فيها فتيل القنبلة فانفجرت فيه وأطاحته أشلاء بينهم. التفاجؤ والتفجع والتشوش والحيرة جعلتهم يدفنونه سرًّا في مكانه، ويخبرون زوجته بأنه في مأمورية للخارج. ظلوا يجمعون من بعضهم قيمة راتبه ويرسلونه في حوالة بريدية كل شهر لزوجته. تصدى حافظ ربما لحلاوة خطه أو اندفاعة حماسه لكتابة الحوالات، الغريب أن زوجة الضابط (التي كانت أرملة وهي لا تدري) لم تشك، ولم تسأل زملاءه في الشغل ولا البوليس، لكن استغيبه قائده وسأل عن سر اختفائه، حتى عثروا على جثته وفتشوا ما وراءها وعلموا بالحوالات وقبضوا على المجموعة السرية كلها وأحيلوا للمحاكمة العسكرية الإنجليزية. يتذكر حافظ وجوهالضباط الإنجليز حيناستجوبوه فأنكر تمامًا أن الحوالات بخطه، فاستدعوا أكبر وأشهر خبير خطوط في مصر الذي ينحفر اسمه في عقل حافظ كل هذه السنين، محمد سعودي، وشهد سعودي زورًا أن الخط ليس خط سليمان حافظ، فأعدموا المجموعة كلها وأفلت حافظ بالشهادة الزور ليصبح قاضيًا، وليجلس أمام علي باشا ماهر في مكتب رئيس الحكومة ليسمع ما أحسه غناءً وطربًا ينافس أم كلثوم عنده، بقي أن يمسك علي ماهر بمنديل حريري ليثق سليمان حافظ أنه يسمع طربًا فعلًا .

ـ أعدوا لي وثيقة بتنازل الملك فاروق عن العرش لابنه أحمد فؤاد، سيوقعها الملك بعد ساعة !

ثم قطع علي ماهر وصلة الغناء بسؤاله :

ـ هل عندكم في مجلس الدولة عبد الحميد بدوي؟

رد حافظ :

ـ بل خير منه .

ـ من هو؟

ـ الدكتور السنهوري .

ـ وأريد معكما شخصًا ثالثًا، الدكتور وحيد رأفت

رد حافظ رافضًا قاطعًا :

ـ لا، بل الأستاذ عبده محرم .

لم يفهم ماهر لماذا رفض حافظ مشاركة وحيد رأفت، ولا لماذا اقترح السنهوري، لكن لم يكن أمامه إلا سليمان حافظ وساعة واحدة، فليأتِ بمن يريد، المهم أن نخلص. ولم ينزعج حافظ من مشاعره التي تعرت أمام رئيس الحكومة، فلن ينتبه ماهر وسط الدوامة التي تدور في عينيه فتكاد تشده للغرق. أسرع مستثارًا وجذلًا تتقافز كلماته في الهواتف، يطلب محرم على عجل، فوجده في القاهرة، فخرج من صفحة التاريخ قبل أن يخط فيها حرفًا، بينما انطلق إلى منزل السنهوري في الإسكندرية. وبينما كان السنهوري يرتدي بدلته كان سليمان حافظ يتصفح صفحات الدستور ألقاها

له السنهوري في طريقه من الردهة إلى غرفة النوم (لطيف هذا الرجل، يحتفظ بنسخة من الدستور في شقته الصيفية). عندما ركبا السيارة كانا قد قررا صيغة التنازل باعتباره أمرًا ملكيًّا
غرفة السنهوري المطلة على البحر المتلاطم، حيث لو تطلع أحدهم من الكورنيشإلى تلك النافذة لأدرك أن التاريخ يجلس على مقعدين الآن وبينهما ورقة، الخادمة التي دخلت بفنجاني القهوة، صوت الأطفال النازلين بهرج على السلالم ليقضوا النهار في رحاب الشمس والشط، السيارات التي تجوب إطاراتها عجلى بين العمل والتنزه، الرؤوس التي تطل من العربات المكشوفة تستقبل الهواء، لن يكون هو نفسه الهواء حين يعودون من رحلاتهم، اندفاعحافظ الساخن يجري وراء قلمه على الورق، بينما السنهوري يصوغ ويملي أو يتوقف عند كلمة أو يصحح جملة. كانت تمتمات سليمان حافظ تتقافز من فمه عن أن البلد سيتخلص من ملك فاسد، وأن الجيش فعل ما لم يقدر أحد على فعله، وأن علينا أن ننظف البلد من الوفد ومصطفى النحاس أيضًا. لو سمعه علي ماهر الآن لفهم لماذا رفض وجود وحيد رأفت، فوحيدوفدي حتى النخاع، يمثل في إخلاصه للوفد وإيمانه بسعد زغلول والنحاس تحديًا لأخلاق سليمان حافظ الذي يحب رأفت ويقدر علمه، لكنه لا يطيق وفديته. إن ولاء حافظ كله بوجدانه وعقله وقلبه للحزب الوطني الذي نط عليه الوفد، وانتزع منه الزعامة، وحوَّل السياسة المصرية من وطنية مخلصة إلى لعبة تفاوض وحكم. ما أحط هذه اللعبة التي كانت تجذب الجهلاء والرعاع والعامة والانتهازيين، وما أشرف الحزب الوطني بأعضائه القليلين القابضين على الجمر الرافضين أن يكونوا قطيعًا وراء زغلولهم ونحاسهم. أيبغي علي ماهر أن يكون وحيد رأفت الوفدي معنا في تلك اللحظة ليفسدها، بل هو السنهوري رئيس مجلس الدولة والرجل الذي انشق عن الوفد بعدما كشف عفنه. ها نحن نتخلص من العفن دفعة واحدة: اليوم الملك، وغدًا الوفد، هذه الساعة فاروق، وساعة النحاس آتية لا ريب فيها .
مر الوقت برقًا عليهما. نزلا إلى السيارة، واتجها إلى مقر الحكومة في حي بولكلي. كانت لحظات صعود حافظ الدرجات أسعد من لحظات زفافه. كان علي ماهر منتظرًا على مقعده مكدود الروح ونكد النظرات. عرضا عليه الصيغة، فأومأ موافقًا وراضيًا (يشك حافظ أنه قرأها بعينيه المضببتين حيرة وقلقًا). جلس ثلاثتهم منتظرين الفريق نجيب الذي لم يحضر وحده
أمعن حافظ في ساعته. لم يبقَ على انتصاف النهار إلا نصف ساعة. لكن ماهر قرر ألا يأمر باستدعاء الخطاط المنوط به كتابة القرارات الملكية المطلوب توقيعها، ولا حتى أمر بإحضار الورق المخصص لذلك، إلا عندما يحضر الفريق نجيب. ليس مستعدًّا أو ليس مستعجلًا أو ليس متحمسًا أو ليس مصدقًا، أيٌّ ليس من هذه كانت غائبة عن سليمان حافظ، لكنهيراهن على أن ماهر قادر على أن يربع المثلثات، فلا مبرر لتأخير الشعور بالفوز . لكن نجيب حضر فأنهى كل الليسات. لم يأتِ وحده بعصاه وغليونه فقط، بل كان أنور السادات في صحبته، وقد ظهر جمال سالم بنظارته وعصاه معه. وقفوا جميعًا ولم يجلس أحد. ترك ماهر مهمة القراءة لحافظ (لم يكن مستعدًّا أن يسمع صوت السادات يتلو عليه إنذارًا ثانيًا !). إيماءات الرضا والقبول والثقة قطعها صوت جمال سالم وهو يضغط على عصاه :
ـ لازم تنكتب عبارة تفيد أن النزول عن العرش كان استجابة لرغبة الأمة !
رد سليمان حافظ سريعًا يستعرض براعة تخريجاته :
ـ لكن الصياغة محكمة، ولا نريد أن يبدو الأمر كأن الملك مكره على التنازل، تحسبًا للظروف !
لكن السنهوري أطرق برأسه وهو يمسك بالورقة، وتحدث باعتباره صائغها :

ـ لا بأس، لنضيف «نزولًا على إرادة الشعب»، فهي عبارة لا تفيد أنه كان مكرهًا .
وضع الورقة على المكتب، ورفع غطاء قلمه الحبر الذي أخرجه من جيب الجاكت، وخط بيده الجملة في نهاية الفقرة الأولى. كان جمال سالم يتابعه بميل رأسه مستندًا على حافة المكتب كأنه الشعب نفسه يستوثق من وجود اسمه في الوثيقة !
التفت ماهر إلى الفريق نجيب :
ـ سأعطي أمرًا بكتابتها حالًا على ورق المراسيم، ويذهب بها سليمان حافظ للملك .
انتفض جمال سالم :
ـ سأذهب معه !
انتفض حافظ على انتفاضه :
ـ لا !
ثم تراجع أمام حدة نظرات جمال سالم التي طقت شررًا، بل شعر بالعصا تنزلق من يده :
ـ لا داعي لتعقيد الأمور وتظهر كأن مندوبًا من الجيش جاء ليرغم الملك على التنازل !
أمسك جمال سالم نفسه، وقد أمسك السادات ذراعه، وقال نجيب دون أن يواجه سالم بكلماته :
ـ وجهة نظر سليمة .
ترك حافظ جمال سالم يستدير لنجيب، وأخذ هو الورقة وخرج ليسلمها للخطاط، بينما استأذن السنهوري فلم يسمع أحد استئذانه، ولم ينتظر أن يأذنوا له، وخرج، بينما جلس علي ماهر وعيناه معلقتان بين عصوين، عصا نجيب وعصا سالم
*
دربة وخبرة سليمان حافظ الطويلتان في المحاماة والقضاء مكنتاه من أن يحفظ كلمات وثيقة التنازل عن العرش، يرددها لنفسه، ويتمتم بها كأنها نشيده الوطني :
نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان، لما كنا نتطلب الخير دائمًا لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة، ونزولًا على إرادة الشعب؛ قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه
.
ربما في المرة الخامسة أو السادسة التي يرددها ظهر أنور السادات وقد وصل إلى القصر، لم يشغل باله بسبب وصوله أو مبرر مجيئه، بقدر ما تهلل ملتمسًا منه بعينيه الخلاص من هذا المأزق. كان وجه السادات مفتاحًا للبوابة، فسمحوا له بالدخول مصحوبًا بالسلامة والغموض (صحيح، لماذا ظهر السادات هنا، والآن؟ ثم لماذا اختفى كأنه لم يكن قد ظهر؟).
مشى حافظ طريقًا بدا طويلًا ناحية باب القصر الداخلي (فهم بعدها أنه الباب الخارجي، فلا يزال القصر أبعد من دخوله)، ولأول مرة يعرف أن للقصر الملكي جرسًا تكبس على زره. أهو بيت عادي كبيوتنا إذن، تطرق بابه وتدق جرسه؟ خرج رأس حارس من كوة بوجه متجهم، فأبلغه حافظ أنه قادم من رئاسة مجلس الوزراء لمهمة خاصة .
انفتح الباب عن باحة يقودني فيها حارس إلى مبنى صغير لنقطة حراسة، طلب إبلاغ الأميرالاي أحمد كامل رئيس الحرس الملكي بوصولي. هذه المرة لم يكن جهاز اللاسلكي معطلًا. بعد برهة تقدمني ضابط إلى رحابة القصر بحدائقه ومبانيه. المكان ألقى في قلب حافظ الرهبة والهيبة .

وبشعور فخور بأهميته هو الشخصية، دب بقدميه في قصر الملك كأنه رسول إلى قيصر. كان بضعة جنود واجمين جامدين يقبضون على البنادق كأنهم تماثيل في معبد فرعوني . استقبله على مدخل مبنى الديوان الملكي رجل قصير القامة أسمر اللون حسن الهندام كئيب الملامح عرفه بنفسه :

ـ الأميرالاي أحمد كامل .

يبدو أن سليمان حافظ نسي تعريفه باسمه، ولم يطلب الأميرالاي شرف معرفته وهو يدلف به إلى قاعة استقبال واسعة ومستديرة، على جوانبها مقاعد مرصوصة بأحجام كبيرة، وأخرى أصغر حجمًا، وتتوسط القاعة منضدة رخامية داكنة مستديرة. الحزن هو أكثر ما يملأ المكان، مع بعض الضباط والحرس بملابسهم العسكرية، يقفون في غير انتظام ولا رص ولا صف، في ركن يؤدي إلى ردهة طويلة خالية وإن كان يعبرها بين لحظة وأخرى رجال بملابس مدنية في عجلة من أمرهم. أشار الأميرالاي الذي انتبه حافظ إلى أنه لا يرتدي ملابسه العسكرية إلى مقعد كبير غاصت فيه جلسة سليمان حافظ الذي فوجئ بالأميرالاي يهمس له بأدب جم وتهذيب مبالغ فيه واستعطاف لا يخفيه :

ـ هناك رغبة ملكية أرجو أن تشملها بالاهتمامقيادة الجيش أو يُعنى بها دولة الرئيس بشدة .

بلع ريقه وأضاف :

ـ جلالته يريد أن يصحب معه للخارج الأميرالاي حلمي حسين، ومعه «أنطون بوللي ».

أومأ سليمان حافظ وهو يقبض على حقيبته :

ـ لكنني سمعت أن الجيش قبض عليهما !

ـ نعم، الجيش طلب تسليمهما، لكنه قبض على الأميرالاي عبد الله النجومي حين خرج ليتفاوض مع القوات المحاصرة للقصر .

ثم عاد وأضاف :

ـ لقد تحدث بشأن «بوللي» مع دولة الرئيس .

ـ «بوللي» فقط

استدرك الأميرالاي :

ـ يا حبذا لو سمحوا للاثنين، لكن «بوللي» عزيز على قلب مولانا، وهو برفقته منذ صغره ويرغب في اصطحابه معه خارج البلاد .

هل وصل سليمان حافظ ما وصل غيره من نبش في سيرة فاروق بأن بوللي أخوه غير الشرعي؟ (لعل السؤال طرق رأس الأميرالاي أحمد كامل، فلم يكن في حاجة إلى شرح أكثر لرسول الشؤم المنفوش القابض على حقيبته كأنها سلاحه). وجد الأميرالاي نفسه وهو متبتل في التوسل، قد جلس على تلك السجادة بركبتيه ثم بفخذيه، مستندًا على ذراع مقعد سليمان حافظ الذي هب فجأة :

ـ ما يصحش كده يا أفندم !

استغرق الأمر لحظة كي يفهم الأميرالاي أن الذي لا يصح هو جلسته المقرفصة وليس ما يقوله، فشد مقعدًا صغيرًا طاله بيد واحدة وجلس عليه وهو ينتظر رد حافظ، الذي لعب دور الواثق المتواضع وقال :

ـ أعدك ببذل كل جهدي للإفراج عن «بوللي »!

اطمأن الأميرالاي، ونزع نفسه من مقعده، وانصرف مستأذنًا، واختفى في الردهة، ثم لحظات من قرع الصمت في قاعة القصر، وفجأة انفتح باب عن رواق دخل منه الملك فاروق ببذلة عسكرية بيضاء بدون قبعة، وبنظارته السوداء المستديرة، بخطوات سريعة لكنها منتظمة، وحنجرته تسعل فيضع قبضة يده على فمه. اتجه إلى منضدة القاعة الرخامية، فتقدم سليمان حافظ وقد أخرج ظرف الوثيقة من حقيبته، ووصل به إلى حافة المنضدة. أحس الملك أن قلب هذا الرجل (لم يعرف اسمه، ولم يطلب التعرف عليه) يُعتصر حزنًا. تأثر فاروق بهذا الوجه الحزين، وذلك الرأس المنحني، وهذه الكلمات التي يتحدث بها فصيحة وبليغة تكاد تتبلل بالدموع :

ـ جلالتك، أتمنى أن أطلق على نفسي الرصاص وأموت، على أن أحضر بمثل هذه الورقة !

كانت الورقة تخرج من ظرفها بأصابعه التي لمح فيها فاروق تردد التأدب، خصوصًا أنه صحبت خروج الورقة كلمات إضافية :

ـ جلالتك، أسأل ربي أن يغفر لي، وألتمس عفو جلالتك !

كانت مشاعر فاروق الآن جياشة ومضطربة، فعفا عنه فورًا، بل عرف اسمه، سليمان حافظ، إنه محامٍ قانوني في الحكومة. كان سعيدًا سعادة من تفحَّص جسمه بعد اصطدام سيارته، وقلَّب نظراته في بقايا السيارة المحطمة والمطربقة، فلم يجد في بدنه جرحًا ولا دمًا ولا كسرًا، فأحس نجاته بحياته: إطلاق الرصاص في ساعات الصبح، وتأهب الفرقة السودانية وهي تضرب بأحذيتها العسكرية في ردهات وأروقة وأسطح القصر تستعد للمقاومة، والتفاف رجال الحرس حوله بعد عودة الأميرالاي عبد الله رفعت مسلمًا رايته البيضاء للجيش ومتخيلًا بخيلاء واهمة أن الجيش لا يطلب إلا عددًا من الحاشية، ثمرجالهالأميرالاي محمد أبو النصر مدير مشاة الحرس، والياور علي مقلد، وطياره حسن عاكف، طلبوا منه وترجوه أن يعمروا الأسلحة، وأن يأمرهم بالتحرك، لكنه سمع أزيز الطائرات الثلاث التي تحلق فوق القصر، فخاف أن يهدم نجيب القصر فوق رأسه هو وبناته وولي عهده .

تلك اللحظة التي تنكمش فيها عيناه تحت رموشه في مائدة القمار، وتسود خواطره، ويوقن أنه خسر، قد نغزته في قلبه. هذا هو قصر رأس التين الذي مات فيه جده الأكبر، محمد علي باشا الكبير، باني هذا القصر، ومصر! هنا لفظ أنفاسه محتضرًا ومات، وقد فقد عقله تحت غزو خرف الشيخوخة، عاش سنين يجهل أنه والي مصر أصلًا، ويتحدث لمن حوله كأنه لا يزال واقفًا في محل أبيه تاجر الدخان في قونية. لا شيء يبقى أيها الجد الكبير، ها هو حفيدك يموت عرشه في ذات القصر، فليذهب العرش إلى الموت وحده، أما أنا فالحياة ملكي! أبدى فاروق تماسكًا ملكيًّا مشوبًا براحة تشبه السعادة، وهو ينظر إلى الورقة ويقرأها في سلام المستسلمين :

ـ هذه الديباجة قانونية؟

تصور الملك أنه يقول رأيًا، وفهم حافظ أنه سؤال، فأجاب دون أن يخفي تفاخره (بما كتبه السنهوري):

ـ إنها مستمدة من مقدمة الدستور .

ـ تمام. إنها قانونية ومبجلة ملكيًّا

عاد فقرأها كلمة كلمة، يقارن بينها وبين الوثيقة التي قدَّمها له السفير البريطاني اللورد الملعون «كليرن» منذ عشر سنوات في قصر عابدين: أيهما أكثر احترامًا وإحكامًا يا ترى؟ الآن يتذكر

أنها كانت مكتوبة باللغة العربية. أي وغد مصري صاغها للإنجليز يومها؟ ظلت كلماتها تطارده سنوات حتى ذابت في ذاكرته، تعود هذه اللحظة وترتد كأنها بالأمس :
نحن فاروق ملك مصر والسودان، إذ نضع في اعتبارنا مصالح بلادنا، نتخلى بالنسبة لأنفسنا وبالنسبة لورثتنا عن عرش مملكة مصر وجميع الحقوق الملكية والمميزات والسلطات على جميع أنحاء المملكة المذكورة، وإعفاء رعايانا المذكورين من ولائهم لشخصنا .
لا، هذه المرة أفضل، عفارم على من كتبها، هي أكثر إجلالًا لجلالة الملك، واحترامًا لهيبته، وليس فيها تنازل عن حقوقنا الملكية، هذه المرة لديَّ وريث يملك هذا الإرث
عاد واستعاد حاضره، ونظر من أعلى بجانب وجهه إلى حافظ :
ـ لماذا لا نضيف كلمة «وإرادتنا» بعد جملة «إرادة الشعب»؟
زاد حافظ في انحناءة ظهره، وقرر أن يترافع :
ـ جلالتك، الوثيقة كلها مصاغة كأمر ملكي، والأمر الملكي يعني إرادة ملكية في ذاتها !
ـ إذن، ما المانع في الإضافة؟
تمنع حافظ عن الإجابة محاولًا إضفاء صيغة اللاحول واللاقوة على كلماته، فانحنى بها وبظهره أكثر :
ـ لقد كانت الصياغة صعبة وشاقة علينا جميعًا يا مولاي !
سأله فاروق بترفع يخفي تشققًا في جدار كبريائه :
ـ هل كانت هناك صيغة أخرى؟
لم تكن هناك أي صيغة ولا وثيقة أخرى، لكن كان خبث سليمان حافظ أسرع من تنفسه :
ـ بشرفي يا مولاي، لم أطلع على أي وثيقة أخرى !
تسمَّرت عينا حافظ على يد فاروق التي مدها إلى جيبه وأخرج قلمه الذهبي وفتح غطاءه. كان فاروق يقترب بسن القلم إلى الورقة المفرودة على المنضدة، وهو يلعن أمه نازلي، هي السبب في كل ما يحدث له، لم يرها منذ سنوات، منذ عملت عملتها السوداء وفضحته وزوجت أخته لتافه وضيع تخلى عن دينه لصالح عضوه، كأنها تلقي حذاءها في وجهه، ترمي خراءها على عرشه! أي أم تلك التي تنتقم من ابنها فتتحول لعوبًا وألعوبة؟! أصحيح أنها تتردد الآن على الكنائس؟ ماذا تريد أن تفعل في ابنها أكثر من ذلك؟ لم ينفع معها إلا أبوه، حبسها وأحكم رتاج باب سجنه. هأنا أتخلى عن العرش كله كي ترتاحي، كي ترمي فضائحكِ على
حِجركِ، فلن يصيبني منها شيء. هيَّا، أهيني حفيدكِ ولوثي شرفه يا نازلي، فقد خلصتِ على ابنك! شماتتها هي والخرقاء البلهاء فتحيةزوجة رياض غالي الرخيص لا تعنيه، فهو ليس أول من ركب باخرة مشيعًا في جنازة حكمه. ألا تتذكر يا جلالة الملك الوالد أن أباك أنت شخصيًّا الخديوِ إسماعيل (يخاطب أباه الراحل متمتمًا باللغة التركية فلم يكن يعرف العربية جيدًا)، والدك يا جلالة الملك فؤاد، فعلها من قبل؟ لست وحدي، ولم أكن الوحيد، لكنني الأوحد الذي يعرف أنه يسلم ابنه الرضيع إلى مجموعة من الرعاع والشيوعيين والإخوان، وأن التاج يتفلق فوق رأس المملكة، وأن الجميع قد خانه، حتى تلك الملكة التي خدعتهم جميعًا، وهتف لها في الشوارع رعاع مصر وجهلتها يوم طلقتها: لا ملكة إلا فريدة. كأنها ملاك خرج من بيت العهر، اسألوها عن الرسام الإيطالي يا رعاع! اسألوا ملكتكم، ملكة الصون والعفاف، عن صديقها وحيد يسري! هل لديكم ما لديَّ من تقارير وملفات من عيون وبصاصين وجواسيس؟ لكنهم مثلكم أيضًا، كلهم وكلكم خونة،

وقد مللت منهم ومنكم، وقرفت من عرش تلك العيشة الزائفة! وما هذه المنضدة إلا جوخ أخضر لترابيزة بوكر يخسر عليها في برتيتة كئيبة وسخيفة !
وضع إمضاءه الكريم. لماذا لم ينادِ أي شماشرجي ليوقع بإمضائه كما اعتاد؟ هذا ما يستحقونه مني؟ لماذا لا يغور هذا العجوز الدامع الذي يدس نظراته المتطفلة الوقحة في أصابعه وقلمه وخطه؟ أنهى توقيعه في نهاية الورقة، ثم رفع سن القلم وقبضة اليد إلى أعلى الورقة عند اسمه المكتوب في سطرها الأول، ووقَّع مرة أخرى. هل شعر أنه توقيع مضطرب وغير واضح؟ فليهنأوا به أيًّا كان، شخبطة أو لخبطة، فسوف يطرقعقلوبهم فرحة! سيحمل هذا العجوز الورقة ويطير بها دون أن يُعنى بشكل توقيعي ولا دقة إمضائي، بل ربما يتخيل هذا الفسل أنني وقعت مرتين وجلًا أو خوفًا أو ارتعاشًا، وليس لأن هذا هو البروتوكول الملكي، لكنه قد يمضي بخيالاته يرويها لآذان طرشاء عن الحق، سيقول هذا السليمان حافظ أن الملك كان مرتعشًا، وسيظل يحكي للخونة من صحبته ولأحفاده أنه رأى رعشة يد الملك، لكن توقيعي الثاني هذه المرة سُلم كبريائي أصعد عليه لأريهم من فوقه من أنا، عزيمة مستغنٍ مستعلٍ !
أزعجته دموع سليمان الذي بدا تمساحًا عجوزًا يزحف على طمي نهر وهو يطوي الورقة :
ـ أتوسل إليكم يا مولاي، لو باستطاعتي أن أخدم قضيتكم في مصر بعد المغادرة فلتأمرني جلالتك !
رد الملك وهو يرد قلمه إلى غطائه ثم إلى جيبه، وتحدث من أعلى منطقة في أنفه :
ـ أريد أن أصحب معي «بوللي ».
حمل سليمان حافظ الورقة في ظرفها في حقيبتها، كأنها خبيئة الفرعون التي عثر عليها في وادي الملوك! وخرج بعدما انصرف الملك عنه يتبعه حرسه. بحث عن مكان الخروج وعن باب القصر تائهًا في ممرات وردهات وبوابات حديدية وزجاجية، لكنه كان يتبع ظلًّا يمشي أمامه، ووصل به أخيرًا بعد لأيٍ ولهث إلى بوابة القصر فحديقته فسوره فخروجه .
التفت صلاح الشاهد بجسمه النحيل، وبدلته المتأنقة، ووجهه المرسوم عليه سمت موظف المراسم المثالي لمجلس الوزراء، وتساءل في ذهول يقتلع تفكيره: كيف لم يحس به سليمان حافظ منذ دخل معه كشك الحرس الحجري عند بوابة القصر؟ بل كيف تعامل معه كأنه شبح منذ ركب معه السيارة متوجهًا من مبنى الحكومة حتى قصر رأس التين؟ كيف دخل ومشى وتكلم وقابل الملك وأفرد ورقة التنازل وطواها وخرج وهو لم يشعر ثانية واحدة أنني معه؟ !
ـ على فكرة، أنا اسمي صلاح الشاهد، الشاهد يا سليمان بك
لكنه كان لا يزال شبحًا عند سليمان بك

19

يجلس أمير البحر جلال علوبة في مكتب صغير وحده ينتظر استدعاءه من اللواء (الفريق، لقد نسي)محمد نجيب. شعر بالندم كلبًا يعض قلبه، كلب الندم ظل ينبح عليه، يطارده، منذ سمع الملك كأنه يستغيث به من الغرق بصوت من بلع أسلاكًا شائكة :

ـ أين أنت يا جلال؟ الجيش محاصر السراي! لماذا تركتني كل هذا الوقت؟

طفرت الدموع من عيني جلال علوبة، وتصارع الغضب مع العجز داخله (أحس أنه فيما بعد سينتصر الندم عليهما نصرًا ساحقًا). نزل من بيته بعدما تأخر عنه سائقه العسكري . بدا أمرًا غريبًا لكنه لم يجد وقتًا للاستغراب . ركب سيارته الخاصة، ولما وصل إلى القصر رأى ما سمع، الجنود والضباط يحاصرون بأسلحتهم بوابته وأسواره، منعوه هو أمير البحر قائد اليخوت الملكية جلال علوبة من الدخول للقصر. كان مجهزًا لهذا المنع، فاتجه مسرعًا إلى مبنى قيادة المواني والمنائر في هذا اللسان البحري المحاط بالصخور والمطل على رصيف خاص ترسو عنده زوارق البحرية ومراكبها. قرر أن يبحر بلنش آلي سريع إلى رصيف القصر البحري ويصل إلى الملك يجيب استغاثته. وبينما يتجهز ويفكون له حبل اللنش جاء رنين التلفون كنفير باخرة. رد عليه ضابط، وسلم السماعة لضابط ثانٍ، ثم حطت أخيرًا على أذن جلال علوبة، فإذا به أنور السادات يبلغه استدعاء القائد العام للقوات المسلحة محمد نجيب إلى ثكنة مصطفى باشا .

جلال رجل عسكري مخلص ومنضبط، ولا شيء يعلو على رأسه إلا قبعته البحرية البيضاء وأوامر قائده الأعلى. هل فكر ساعتها أن يتفلت من الاستدعاء ويمضي في خطته للإبحار إلى القصر؟ يقينًا بفطنة ضابط تجاوز الأربعين وأبحر في أمواج الدنيا العالية سيمنعه الضباط الأصغر، ففي لحظات الهياج لا يتعطل عن العمل إلا عقل الهائج. ترك اللنش، وركب السيارة حتى وصل إلى ثكنة مصطفى باشا، واستقبله هذا الضابط الأسمر، واستمهله في مكتب الانتظار حتى يستدعيه اللواء (الفريق) نجيب. أحس بذلك الندم وقد تحول من كلب إلى ذئب ينهش صدره. كل الالتزام العسكري الذي تمنهجت حياته عليه، والانضباط الصارم في احترام القيادة، وكل التربية التي رباها له أبوه علوبة باشا، جعلته يتماسك أمام ندمه .

كان مع مليكه في قصر المنتزه مبكرًا حين تحركت القوات المتمردة وأذاعت البيان الأكثر تمردًا، وقف جلال علوبة وقفته العسكرية بصدر البحار الواقف على مقدمة سفينة تغرق يصد الأنواء بقراراته :

ـ لتأمر قائد المنطقة الشمالية يا مولاي الآن وفورًا بأن تتخذ قواته مواقعها في الطريق الصحراوي على مداخل الإسكندرية، وتمنع قوات نجيب من الدخول إلى ثغر يتحول إلى ثغرة !

طاح الملك غاضبًا رافضًا :

ـ إيه اللي بتقوله ده يا جلال؟! إنت عايز جيشي يحارب بعضه والدم يغرق البلد !

أكان خوفًا من نصر ينهي جيشه، أم رعبًا من هزيمة تنهي عرشه؟ لكن جلال ساعتها لم يضغط على قرار الملك الذي أطاح باقتراحه في غضبه، بل أحب موقف فاروق وأكبر فيه مسؤوليته. لكن الملك نفسه عاد وطلب منه ملحًّا ومرتجيًا أن يجهز «المحروسة» كي يبحر هو وعائلته عليها، فلا وقت ليضيعه أمام دبابات تنوي قتله (كان نجيب ساعتها قد وصل الإسكندرية). وهذه المرة استغل

جلال كل حيله العاطفية مع الملك حتى يصرف عنه هذه الفكرة (كان قد أبلغه بها رئيس الحرس الملكي وعدد من حاشية الملك حين كلموه في التلفون ولما قابلوه):
ـ جلالتك لن تخرج من بلدك هاربًا، ولن تسمح لأحد أن يقول إن الملك فاروق فر فزعًا من جيشه !
ثم أكمل على الملك الذي كان قد ارتدى حلته العسكرية البحرية، وتهيأت بناته والملكة ناريمان بأزيائهن البيضاء المخصصة للسفر في الرحلات البحرية، حتى إن فؤاد ولي العهد كان يلبس ذات الرداء الأبيض في حضن مربيته :
ـ ثم من قال إن الجيش لن يلاحقنا ببوارجه ومدافعه أو حتى بطائراته لو أراد، ويدمر «المحروسة» لا قدر الله؟
وكان الله قد قدر أن يدمر عرش المحروس لا سفينته المحروسة !
تنهد جلال علوبة والسادات يظهر على الباب ليستدعيه لمقابلة نجيب (لا لواء ولا فريق هذه المرة. بلا هم!). حين دخل مكتب قائد المنطقة الشمالية الذي حوله نجيب إلى مكتبٍ لقيادته، نظر من نافذته المفتوحة على الباحة، ثم على الساحة، ثم على البحر حيث تظهر الأمواج حين تعلو والمد حين يمتد، فكأنه بحث بعينيه عن المدمرة البحرية «إبراهيم»، التي يقودها القائمقام بحري سليمان عزت، الذي اتصل به منذ ساعات من برج قيادة المدمرة وسأله (ظنه في البداية يمزح، ثم بانت جديته له حين تذكر جملة عزت التي لم يمل من تكرارها منذ سمع بيان الجيش في الإذاعة أنه لا ملكية بدون إخلاص):
ـ ما رأيك في أن أوجه مدفعية المدمرة الآن تجاه ثكنة مصطفى باشا وأجيب عاليها واطيها ونخلص من هذه الحكاية بطلقة مدفع؟
رد عليه علوبة :
ـ إنت مجنون؟! لو عملتها ستدمر حي مصطفى باشا بأكمله !
هل لو كان الأمر مقصورًا على الثكنة سيوافق علوبة؟لماذا لم يلعن الحي بأحيائه ودمر الانقلاب في جُحره ووأد التمرد في رحمه ولذهب مصطفى باشا نفسه إلى الجحيم؟ !
سلم جلال علوبة نفسه لعسكريته الآن، وأدى التحية وعظم السلام للفريق نجيب (رتبة الفريق واضحة على كتافتيه لم يضيّع وقتًا في وضعها)، الذي قام يصافحه ويستقبله بوجه ودود وملامح بشوشة. جلس قبالة مكتبه، وكان السادات هناك على حافة أريكة صغيرة، بينما زكريا محيي الدين يجلس على مقعد المكتب المواجه لجلال علوبة. ربما مرت لحظة صمت حتى نظر نجيب إلى زكريا ثم التفت إلى جلال :
ـ لعلك عرفت أن الملك قد وقَّع على وثيقة تنازله عن العرش لولي العهد، ووافق على مغادرة البلاد، وطلب أن يرحل على يخت «المحروسة» وبقيادتك شخصيًّا؟
كان فاروق يخشى تفجير طائرته، كما يخاف ضرب يخته، لكن السفير الأمريكي ضمن له الجيش، فاطمأن، وفضَّل «المحروسة» لأجل علوبة، فلا يريد أن يرحل مع وجه كارهٍ أو كريه لا يأمن غدره ولا يأتمن مهارته، ثم إنهم قبضوا على طياره الخاص المخلص حسن عاكف، وقد عرفوا محاولته الانتحارية لقذفهم بالقنابل في مبنى الجيش بالقاهرة. آه، ماذا لو كان قد أمر سليمان عزت بفعلها بمدفع المدمرة «إبراهيم» وكانت بضعة بيوت متهدمة إلى جانب ثكنة عسكرية لا تعني كثيرًا أمام إنقاذ ملك ومملكة من نفسها؟ !

أومأ جلال علوبة برأسه لعل إيماءته تعبر عن أي شيء، فلا يملك شيئًا ليقوله أمام هذا الكلام الذي سرعان ما أضاف عليه نجيب :
ـ ولقد تحرينا عنك (ذهبت نظرته مستأمنة ومستوثقة منزكريا محيي الدين) ، ونحن متأكدون من إخلاصك لبلدك وجيشك، فوافقنا على أن تقود «المحروسة»، على أن تعود بها إلى الإسكندرية عقب توصيل الملك .
ـ إلى أين؟
سأل علوبة، فلم يجب نجيب، فمن الواضح أنهم يجهلونحتى الآن وجهة الملك .
اندهش جلال، لكنه تجاهل غياب الإجابة وسأل :
ـ هل يمكن أن ترافق اليخت سفينتان حربيتان، فاليخت يحمل ملكًا سابقًا وملكًا حاليًّا، ثم إن هذه هي الإجراءات المعتادة في حالة سفر الملك في رحلات رسمية؟
نظر نجيب إلى زكريا الصموت الذي أجاب بحركة رفض برأسه، فقال نجيب وهو يتأمل جهاز تلفونه الأسود، لعله كان يريد أن يكلم جمال عبد الناصر في القاهرة :
ـ هل هي رحلة رسمية؟
لم ينتظر جوابًا، وحوَّل نظره عن التلفون، ثم أضاف مع الإيماءة الثانية من زكريا محيي الدين :
ـ لا، ستبحر المحروسة وحيدة !
مد نجيب يده بورقة التكليف، فنهض جلال من كرسيه ليتسلمها، مكتوبة بخط اليد وممهورة بتوقيع نجيب.. الفريق محمد نجيب .
*
ارتدت الأميرة فايزة أكثر فساتينها قتامة، لا يليق حتى بزيارات الحداد! وقد فاجأها هذا البله الملكي لأخيها وعائلته الذين يرتدون الأبيض كأنهم في نزهة بيضاء! ساعة الحريق لا يفكر المرء في اختيار أفضل الملابس التي سيرتديها وهو يفر لإنقاذ نفسه من سقوط حائط عليه أو انهيار شرفة فوق دماغه! الغم كالدخان في قلبها، يكاد يفرقع معه رباط مشد صدرها. هرعت إلى أخيها بعدما كلمها في التلفون بصوت ممزق بين ادعائه الثبات وادعائه الأخوة، يخبرها بأنه تنازل عن العرش وسيغادر مصر على ظهر «المحروسة». لم تكن تتمنى قَطُّ أن تسمع منه هذه الكلمات، رغم أنه قالها بنفس الطريقة التي كان يخبر بها مربيته الإنجليزية أن لعبته انكسرت (خائفًا وحزينًا، ولكن يبرئ نفسه من مسؤولية كسرها، ويلقي باللوم على هشاشة اللعبة، أو رداءة صناعتها، أو لعب أخته بها، أو الطريقة الخاطئة التي أمسكها بها الخادم، أو الهواء الذي هب فجأة في الغرفة... أي شيء وكل شيء مسؤول عن كسر اللعبة، إلا هو). أوجعها قلبها على أخيها، رغم أنها كانت تنتظر هذه المكالمة منذ سنوات، ليس منذ أذاع هؤلاء الضباط بيانهم، بل من قبل ذلك، بل من قبل أن يفكر هؤلاء الضباط المتمردون أن يتمردوا أصلًا !
ها هم الآن يتجمعون في قاعة الحرملك في الطابق الأول للقصر، المزينة بالرسوم والنقوش والثريات والستائر والسجاجيد والفازات والأيقونات واللوحات، وقد تحولت كلها إلى ألوان سائحة نائحة على ملك أرعن . طفل بدين في الثانية والثلاثين من عمره، قلتها له كثيرًا، طبعًا ليس وجهًا لوجه، فلم نكن نتحدث إلا في الملمات الرسمية واللقاءات الباردة الجافة، وبالإيماءات والعبارات المكررة البليدة. عمره ما سألني عن حالي، عن زوجي (أعرف أنه يكره زوجي رؤوف لأنه رفض التخلي عن جنسيته التركية، لكنه اليوم أسعد الأتراك بجنسيته!). لم يستفسر عن سعادتي (أو

حزني)، ولا حتى عن الجمعيات الخيرية التي كنت أشرف عليها وأنشط فيها، لا شكر، لا قُبلة على جبين، لا عناق نصف دافئ أو مثلج حتى، لا ضحكة مجلجلة، لا زيارة مفاجئة لبيتي، بل لم يسألني لا أنا ولا الحزينة الكئيبة فوزية عن رأينا في زوجته ناريمان، ولماذا نتبادل معها كراهية تناسبها تمامًا! كانت الحكاية ناقصة يا فاروق أن يتزوج طفل طفلة، بلا خيبة، أهي ناريمان تجلس الآن على حافة المقعد محنية الرأس محمرة العينين ذابلة وتائهة، وطبعًا تجلس فوق رأسها أمها المتسلطة غريبة الأطوار أصيلة هانم، جدة ولي العهد، بغرورها المنفوخ الذي لم تفلح ركلة الجيش في تفريغ هوائه. هذه الحماة سوف تعذب أخي فاروق أكثر من محمد نجيب، هذا الذي طلعلنا في المقدر! تتذكر حين أرسل أخوها ذيله اللطيف كريم ثابت ينقل لها قلق الملك وغضبه عما يجري في قصري من سهرات وحفلات، طبعًا كريم ثابت ثعبان كوبرا محترف، يدس سمه في شوكولاتة سويسرية، لكنه أعقل من أخي وأذكى وأدهى، ثم إنه أنيق حتى في نفاقه، ومهذب حتى في وقاحته، فقد قال ملاحظة فاروق كأنه هو شخصيًّا ضد هذه الملاحظات ومجبر كمستشار للملك على نقلها، ساعي بريد يكره بريده! لكنني هببت فيه هو بالذات، لازم يفهم إن مصر كلها تتحدث (لا تهمس، بل تتحدث) عن رفقته لفاروق في حفلات السهر وموائد القمار! أخي الغبي يحب أن يلعب وسط شهادة الشهود! قلت له بلغ فاروق يتلم ويلعب قمار وراء أسوار قصره، ويجلب معه كل البرتيتة الوسخة، بدلًا من أن يجلس في نادي محمد علي أو نادي السيارات ليفضحنا أمام الجميع، والمصيبة أنه يخسر! عمرك شفت ملك يخسر أمام رعاياه؟! أفهم أنهم ينافقونه ويكبون ثرواتهم على المائدة أمامه، لكن أن يخسر ملك فهذا ما لا يفعله إلا فاروق! لا دخل لي بالسياسة واللخبطة والعك الذي يحترفه الملك بتاعك يا كريم باشا! وأنا هنا في قصري أسمع من الباشوات والخواجات عن تصرفات ملك شخشيخة في أيدي شلة منتفعين، وأعرف أنهم في الحقيقة كلهم شخاشيخ في يده، هو نفسه نهم وطماع ويريد أن يضع يده على أي حاجة في أي حتة! أنا عارفة أخي، فبدلًا من أن يطلب مني أن أتوقف عن السهر مع ضيوفي والشرب واللهو، عليه هو أن يتوقف عما يفعله. يا سيدي أنا عايزة قدوة! تحدث نفسها وأي ضيف يجلس معها بعد الكأس الرابعة (ومع فوزية أحيانًا .. بلا كأس) أن فاروق سيضيع مملكته، منها لله جلالة أمي الملكة نازلي التي لم تقدر على تربيته، ولا تربية نفسها، بعدما تركت روحها في يد أحمد حسنين معلم ابنها ورائده ورئيس ديوانه. كادت فايزة تصرخ الآن في وجوههم جميعًا: ما الذي كنتم تنتظرونه من عيل وجد أمه عشيقة معلمه؟

اقترب أمين القصر من الملكة ناريمان، يهمس لها، لكن أصيلة هانم نطت بينهما طبعًا لتسمع وتتدخل. كان يخبر ملكته أنهم مضطرون لضيق الوقت لجمع كل ملابس العائلة الموجودة في قصر رأس التين، ولن يتمكنوا من جلب أي شيء من قصور القاهرة. كادت ناريمان تطق كمدًا، بينما كانت أصيلة مهتمة بالهمس في أذن ناريمان، وقد سمع الجميع همسها المنفعل تتأكد منها عن جمعها ما هو متوفر من مجوهراتها .

تركت الأميرة فايزة زوجها الواقف بجوارها كحارس قصر باكنجهام، متبلدًا، وقد أظهر في هذه اللحظة كل تركيته الأصيلة. وتوجهت نحو أختها فوزية التي تكابد الكمد بكل خلجاتها، بينما يقف على شطفات زجاج حادةويمسك بسلك شائك زوجها إسماعيل شيرين، مفروض أنه كان وزير حربية لمدة أربع وعشرين ساعة فقط منذ اثنتين وسبعين ساعة فقط، وهو الرجل الوحيد تقريبًا الذي كان يمكن أن يخالف فاروق الرأي في موقف أو قرار أو سلوك، ثم يعقب اختلافه معه صمت

وجفوة عدة أيام، ثم ينسى كلاهما ما كان، في انتظار ما سيكون. إسماعيل شيرين قد يملك إجابات عن أسئلتها :

ـ هل حدد جلالة الملك إلى أين يتجه؟

أمسكت ذراعه، وخرجت به من قاعة الحرملك، ووقفت عند الرواق الذي تزينه رسوم الآلات الموسيقية، فكادت تسمع من الجدران موسيقى مقطوعة «ضربات القدر» لـ«بيتهوفن»، وواصلت الأسئلة :

ـ هل اليخت جاهز؟ هل هو آمن؟

ثم صمتت، ولم تكن قد سمعت أي إجابة أصلًا، وعادت وأضافت :

ـ تفتكر ماذا سيفعل فينا الجيش يا إسماعيل؟

تذكرت لحظتها أختهم الثالثة فايقة، الموجودة في هلسنكي، وهي أميرة بعثة مصر في الألعاب الأوليمبية (الطريف أن فاروق سألها عندما أخبرها بنبأ الجيش عن أخبار نتائج البعثة في البطولة):

ـ هل ستتمكن فايقة من العودة مع زوجها يا إسماعيل؟ هل تظن أن هؤلاء الضباط شيوعيون كما يقول الملك؟

لحظتها كان أمير البحر جلال علوبة قد وصل .

*

ما إن دخل جلال علوبة على الملك في جناحهحتى التفت إليه فاروق مكدودًا قابضًا على سماعة التلفون المعلَّقة في الهواء الفاصل بين ذراعه وكتفه :

ـ شفت ما فعلوا بي يا جلال؟ !

الحقيقة أن جلال شاف وشفَّ من خجله وهو يرد على الملك :

ـ الحمد لله يا مولاي إن الأمور انتهت عند هذا الحد !

كان كلٌّ منهما يذكِّر نفسه بأن الجيش والحمد لله لم يقتله، وبأن كلًّا منهما لم يسمع نصيحة الآخر، فلا فاروق وافق علوبة في إجهاض الانقلاب ومنعهم من دخول الإسكندرية، ولا علوبة وافقه في الهروب سريعًا بمجرد إذاعة البيان! لم يريا ملامح ندمهما جيدًا وراء غلالات الدموع. اكتشف كلاهما الآن أنهما صديقان فعلًا وليسا ملكًا وياوره، ملكًا وقبطانه، لكن السفينة تغرق بصرف النظر عن الصداقة المكتشفة لحظة الغرق

استعاد جلال علوبة مرة أخرى عسكريته التي لا يغلب في استدعائها، وقال للملك :

ـ تبقت ثلاث ساعات، ولا بد من الاستعداد للإبحار (إلى أين؟ لا يزالان حائرَين، لكن نابولي كانت الميناء الذي رشحه الصمت بين الملك وقبطانه)، أستأذن جلالتكم .

سمح له بإشاحة ملكية بالانصراف والتصرف، بينما خرج علوبة على عَجل، وحيا الأميرة فايزة وإسماعيل شيرين في طريق عودته، وهرع نحوه أحد خدم الملك يسأله عما تتطلب الرحلة

ـ جهز لها ما كان يلزم أي رحلة بحرية !

قالها وهو يأمر ضابطًا، ظهر فجأة بزيه البحري، بالتوجه إلى البر بعربة لوري لإحضار كل ما يمكن الحصول عليه من طعام .

*

اقترب الأميرالاي أحمد كامل من الملك، وهمس له بأن موظفي القصر موجودون جميعًا في الجناح المجاور للرصيف البحري، يلتمسون إبلاغ جلالته أنهم حضروا على أمل لقائه ومقابلته عندما يشاء .
أومأ الملك فاروق ممتنًّا، ففهم كامل أنه إذن ملكي بإحضارهم، وبينما يخرج ناداه فاروق :
- أين «بوللي»؟
ظهر «بوللي» كأنه جني مصباح علاء الدين، حين اكتشف علاء الدين أنه مجرد حدوتة في كتاب عنوانه «ألف ليلة وليلة»، ذابلًا ومرتجًّا ومرتجفًا ومتخليًا عن فروة عنفوان الأسد صديق الملك ورفيقه، ظهر أرنبًا مذعورًا يرتدي بدلة في منتهى الأناقة، وحاول الملك صادقًا أن يطمئنه :
- معلش يا «بوللي»، الجيش مش حيعملك حاجة !
كان إعلانًا بالهزيمة الأخيرة له أمام الجيش، فقد رفض الجيش بمنتهى الحسم أن يصطحب معه «بوللي» رغم الإلحاح، وربما بسبب إلحاحه. اعتقدوا أن «بوللي» بردعة فاخرة سيقدرون عليها.
أحس «بوللي» بالخزيان والخذلان، انحنى ولثم كف الملك، وسحبه الأميرالاي أحمد كامل بنظراته خارجًا معه. أطرق فاروق يتحسس بيده أثر طعنة نزع «بوللي» منه، فأحسها ثقبًا. لحظتها دخل سكرتيره الخاص الدكتور حسين حسني، ففرد الملك ظهره. انكشف وراء حسين خيط صف من الموظفين والضباط جاءوا ليودعوا مليكهم. قام بطوله اعتزازًا بجزيرة هؤلاء المحبين المخلصين وسط بحر من الخونة! صافحه حسين حسني، ثم لم يملك نفسه فبكى بكاءً حارًّا على كتف الملك، ثم تراجع متمالكًا نفسه في الحضرة الملكية. شد الملك على يدي سكرتيره بكلتا يديه، وقال له بثقة لا علاقة لها على الإطلاق بالحبوط الذي يبدو عليه القصر :
- اسمع يا حسين، هذا الوضع لن يدوم، هذه هي مصر، ثلاث سنوات لا أكثر وكل هؤلاء الذين أركبوني يخت «المحروسة» سوف يتصارعون ويخلصون بعضهم على بعض، وربنا يلطف بالبلاد ويخيب ظني فيهم !
بدأ الصف يصافح الملك تباعًا بذات الحزن الواجب والوداع اللائق بولي النعم، لكنهم حين انصرفوا أمسك الملك بيد سكرتيره الخاص وقال له :
- سوف يقولون الكثير عني، لكن أنت تعرف الحقيقة !
دق كعب حذاء عسكري يرن على رخام القصر وهو يعلن للملك وصول السفير الأمريكي مستر «جيفرسون كافري ».
شعر الملك بأن موجة من البهجة اجتاحت قلبه عندما رأى «كافري». مدين هو بحياته له، وبتلك الفخامة الملكية التي تودعه بها مملكته. حفظ «كافري» حياته من الرصاصة، وكرامته من المهانة. النجاة بحياته قرار أمريكي يطوق عنقه، حتى إنه أراد أن يعبر عن حبه الجياش الآن للسفير الأمريكي بإهدائه مجموعة من طوابع البريد التي هي عنده أغلى ممتلكاته (أقل قليلًا من مملكته)، هوايته التي وقع في هواها، هل تذكره بطفولته؟ هل تمنحه تميزًا لم يهبه إياه عرش مملكة؟ هل تشبع حاجته للتنافس؟ هل تروي رغبته في الامتلاك؟ هل تهيج حاسة التباهي لديه؟ هي ثمينة طبعًا في سعرها، لكنها أقل من أسعار مقتنيات كثيرة لا يعيرها كل هذا الوله، ولا يفكر بها هدية امتنان لمن أنقذ حياته. لكن الأسى عاد ليطحن عظامه، فهو لم يقدر على إنقاذ مجموعاته في عابدين والقبة من براثن الرحيل المباغت! كأن فقدانه لمجموعة طوابعه داس على لغم في قلبه (الحمد لله، مجموعة العملات في حضن أحد صناديقه المرسلة إلى يخت «المحروسة»، وقد

حرص على وضعها بنفسه منذ لحظات. لم تفارق أصابعه، يجلوها ويمسحها، ويمسد عليها بقطعة قطيفة بيضاء، ويتأملها يتحسس بروزها ونتوءاتها ونقوشها، داخل علب زجاجية مؤطرة بخشب مطلي بالذهب وموضوعة في صندوق مبطن بالجوخ ومختوم بالتاج الملكي).
في خطواته نحو «كافري» فك كل صناديق مجموعاته من الطوابع والعملات من دماغه، وفتح ذراعيه معانقًا «كافري»، فهو يستحق شكرًا لا ملكية فيه، بل صداقة :
ـ أنت أعز صديق لي مستر «كافري»، وأنا سعيد جدًّا لأنك جئت لوداعي !
لو كان لديه وقت لقدم اعتذارًا وأبدى ندمًا لـ«كافري»، لكن رصيف الوداع قد امتلأ حشدًا. هما الآن عند غرفة الملك في الجناح المؤدي للرصيف البحري، على مقعدين وثيرين متجاورين ينتظران قدوم رئيس الحكومة ونجيب والنجيبيينلوداعه الرسمي. همَّ الملك أن يلتفت إلى السفير الأمريكي ويهاتفه: «إنه بمناسبة الرحيل القسري الجبري القهري عن قصري، أحب أن أعلن لك عن ندمي واعتذاري»، لكنه لم يقل شيئًا من هذا، كتمه في نفسه، ربما يقوله فيما بعد، ربما لن يقوله أبدًا، لكن حق هذه الليالي التي قضوها معًا في نهم المآدب، ورحلات الصيد، وسهرات الصيف، وأقنعة الحفلات التنكرية، وعشرات الكؤوس من الخمر التي تجرعها «كافري»، أن يصارحه يومًا بالحقيقة: إنه نادم حين لم يسمع «كافري» جيدًا ليلتها، عندما مسح العرق عن جبهته، وفك الصديري عن بدلته «التاكسيدو»، وخلع البابيون، وأزاح القبعة، وجفف بلل الخمر عن جانبي شفتيه، وأخبره :
ـ أنت تعرف يا جلالة الملك (رغم أن «كافري» كان مخمورًا، فإنه كان وقورًا لا يلهيه سكره عن دبلوماسيته) أن سياسة أمريكا تجاهكم لا تصنعها وزارة الخارجية فقط، بل هي أقل الأقلام التي تكتب ورق تلك السياسة، لذلك أود أن تلتقي بدبلوماسي يزور مصر زيارة قد تطول .
ضحك فاروق متخابثًا ومتساخفًا على «كافري »:
ـ هو دبلوماسي إذن؟
فهم طبعًا أنه ضابط مخابرات، ثم عندما التقى به فهم أكثر أنه ضابط مخابرات جاء لمهمة تفوق «كافري»، كان «كيم روزفلت». تصور «كيم» أنه يستطيع أن يسبر أغواره بعدة كلمات، وأن يديره بعدة نصائح. بل كان وقحًا إلى حد أنه اعتقد أنه ينقذني حين طلب مني أن أقاوم الشيوعية في مصر ببعض الشيوعية. صدى الضحكات المستخفة المستهزئة التي أطلقها فاروق بمنتهى التهذيب في وجه «كيم روزفلت»، يرن في أذنيه، و«كيم» لا يتورع عن اقتراحات للملك (شم فيها أنها أوامر أو تحذيرات) بأن يوافق على مشروع تحديد الملكية الزراعية، وهذا المشروع الجديد الذي جاء به وزير الشؤون الاجتماعية من أمريكا أحمد حسين، وظل يبغبغ به في الوزارة والبرلمان، الإصلاح الزراعي. يظن «كيم روزفلت» أنه يفهم بلدي أفضل مني، وهو حريص على مُلكي أكثر من ملك هذا المُلك! فهم أن «كيم روزفلت » غضب من اللقاء، أو رمى طوبته منه، حين وجد جريدة «أخبار اليوم» تجنح ضد القصر، وتضرب ضربات خفيفة تزداد وزنًا على مدار الشهور التالية لزيارة «كيم روزفلت». هو يعرف مصطفى أمين وأمريكيته، فقال شيئًا على سبيل الممازحة لـ«كافري » عما تنشره «أخبار اليوم » ، فعايره «كافري» يومها بأن مصر كلها تقول إنها جريدة السراي، فضحك الملك وقال يبدو أنها أصبحت جريدة السرايا الصفرا !
قام فاروق الآن من جلسته بجوار «كافري». وانتفض السفير لوقفته الملكية حزينًا وتعسًا، كأنما حان أوان وضع تابوت صديقه الملك في مقبرة جديدة بوادي الملوك. عانق الملك السفير في

حرارة، وطبع قُبلتين على خديه، كأنما يودع أخاه في الرضاعة. واندهش «كافري» لعاطفة فاروق الجياشة الممتنة، وزاد من اندهاشه أن الفريق نجيب متأخر عن موعده، وخشي أن الرجل لا يفي بوعده، فقد استجاب لدعوته أن يكون هو وضباطه في وداع الملك وداعًا ملكيًّا . أنسي نجيب كلماتي أم تناساها؟ أهو يبر بوعده أم يفر بعهده؟
ـ الأمور، سيادة الجنرال، يجب أن تجري بسلاسة كما جعلناها تمضي مع الإنجليز بسلاسة، ولا بأس من منح الملك بعضًا من الاحترام مقابل استسلامه السهل .
كان الملك قد وقف حين كانت الساعة قد بلغت السادسة إلا عشر دقائق، وكأن نارًا اشتعلت في بذلته البحرية. لا يطيق البقاء، ولا يريد التأخر عن موعد الإنذار، الإنذار الذي لم يقرأه يأمر بالمغادرة في موعد أقصاه السادسة، وقد وصل أقصاه. وقف عند وصيد الشرفة وراء الزجاج المفتوح، عند الردهة المؤدية للسلالم النازلة إلى الرصيف البحري. تابع بعينيه المخبأتين وراء العدستين الغامقتين زورقًا آليًّا راسيًا على الرصيف، تنزل إليه الملكة ناريمان ومعها البنات واحدة وراء الأخرى. كانت أصيلة هانم قد قطعت نفسها قطعًا من الحزن ورمتها في الزورق خلف ابنتها. اصطفت العيون في هذه اللحظة، وصوبت كل مآقيها ناحية فاروق. كانت الأميرة فوزية منحوتة للاكتئاب موضوعة في قاعة المصريات في متحف اللوفر. وإسماعيل شيرين تجمدت الدموع في عينيه وغالبًا هو نفسه تجمد. الأميرة فايزة كانت تتمنى أن تعانق أخاها لأول مرة، وتضمه بقوة إلى صدرها، ثم تصفعه على وجهه، فتطبع أصابعها على خديه. أما علي ماهر فقد كان يأمل ألا يكون هذا المشهد هو الفصل الأخير في مذكراته، فتكبد جسده عناء تحمل اللحظة بتصلب وبهوت وشحوب ودمعات مطمورة تحت جفنيه، همس للمرة العاشرة ملحًّا على أذن الملك :
ـ مولانا، لماذا لا تترك ولي العهد في بلده؟ هناك لجنة وصاية، وهو مليك البلاد وحاكمها الشرعي! أنا أضمن لك بشرفي حياته وأمانه !
ابتسم فاروق متماسكًا ومتعجبًا من هذا الرجل الذي أولاه ثقته ومحبته، وهو يبدي أمامه إخلاصًا حقيقيًّا وجهلًا مزريًا وعبطًا سياسيًّا يليق بأستاذملك مخلوع مخدوع :
ـ أنت نفسك لا تضمن حياتك ولا حكومتك يا باشا !
كأن الحكمة نزلت على فاروق في الوقت الضائع عند العرش الضائع، صمم على أن يركب ابنه الزورق نفسه، لكنه عاد برأسه لينظر إلى علي ماهر الذي بدا له على شفا البكاء :
ـ الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعله الآن، هو أن توضح أنني أتوقع أن تتكفل الدولة بمصاريف نجلي، الذي هو الآن، رسميًّا، ملك مصر .
أومأ علي ماهر واثقًا، لكن فاروق لم يصدق إيماءته ولا ثقته، وإن رضي بهما
ارتاح عندما رأى زبد البحر ترفسه ريش موتور الزورق الذي يبتعد في اتجاه يخت «المحروسة» الذي يبدو راسيًا عند الشمندورة الشامخة هناك على مبعدة ميل بحري أو أكثر (لكنه يبدو أبعد من الشمس التي لم يسمح لها غروب يوليو بالغياب حتى هذه الساعة، ثم إذا بذات اليخت يبدو أقرب وألصق من عدستي نظارته إلى عينيه). كان مركب قد نقل صناديق الأطعمة والمشروبات (لمن الخمر هذه المرة، فلا ضيوف أجانب ولا أمراء وأصدقاء معه؟ بضعة رفقاء من الخدم الإيطاليين، منهم الحلاق ومدرب الكلاب.. والكلاب). هبط فاروق سلالم الرصيف البحري الملكي (كان يعدها حين سافر للمرة الأولى مع معلمه أحمد حسنين، الثعلب الذي يبدو أنه لم يعلمه إلا صيد البط).

أطل بعينيه على هذا الحاجز البشري بينه وبين البحر، مئات من الجنود السودانيين حاملين البنادق مصطفين في صفوف على حافة الرصيف، هؤلاء الذين كانوا فجر اليوم متأهبين للموت من أجله، كان يمكن أن يخوض بهم حربًا، لكنه أبى خوفًا أو زهدًا أو يأسًا (هل سيصدقه أحد حين يقول إنه أبى حبًّا في بلده؟ أقنع نفسه أن مصر جاحدة).

وقف رئيس الحرس الملكي وقفة عسكرية صارمة، ودار على كعبيه دورة نصف كاملة، وتطلع إلى السماء، إلى العلم، إلى الصاري. يمسك في أسفل الصاري برباط الحبل المشدود المثبت فيه العلم المرفرف في هواء يوليو، فيفك عقدة الرباط، وينزله من فوق الصاري منزلقًا على عموده الحديدي، حتى يصل إلى يدي الضابط فيضمه ضمتين ثم ثلاثًا، ثم يتحول كأنه مثلث قماشي يطوي علم مصر الأخضر. ويدور نصف دورة كاملة، ويتقدم بخطوات منتظمة ناحية الملك، الذي نزل آخر درجات السلم الهابط إلى سطح الرصيف البحري، حاملًا العلم على ذراعيه. زيه العسكري المزدان بالشارات، وسيفه المعلق الممشوق، يشقان قلوب الواقفين من حرس الشرف. وعلي ماهر والسفير الأمريكي وموظفو القصر وعماله والعساكر السودانيون فوق الأسطح وعند الممرات وفوق حواف الرصيف، والبحارة الذين يتثبتون فوق زوارقهم الملكية والأميرية الراسية عند رصيف القصر البحري، وحرس الشرف يدق دقات الكعوب على البازلت بإيقاع منتظم وجماعي.

تخرق موسيقى السلام الوطني الأجواء (لا ينسى فاروق أن يذكِّر نفسه وهو ينتظر وصول الضابط بالعلم إليه أنه هو من بدل اسم السلام من السلام الملكي إلى السلام الوطني. بلا ملكي بلا نيلة !). تصعد الترمبونيات والفلاوت والقرب والطبول والكونترباصات بمعزوفة الوداع للملك الذي بدا راضيًا وصلبًا وملكيًّا أكثر من اللازم. أخذ العلم من ذراعي الضابط، ورفعه إلى شفتيه، ودس رأسه فوقه مُقبلًا لاثمًا، وحمله تحت ذراعه مطويًّا، واتجه إلى سلم حجري نزل به إلى الزورق الملكي ملوحًا للمودعين بكفه، ثم استدار موليًا ظهره للقصر، ويمَّم وجهه للبحر .

20

ضج محمد نجيب من هذا العبث، فصاح في ياوره إسماعيل فريد :

ـ يعني إيه مش عارفين الملك مسافر منين؟ !

كان التخبط قد وصل مداه، حتى إن سائق سيارة نجيب كان قد وصل إلى ميناء خفر السواحل، ونزلوا إليه جميعًا، نجيب وبجواره أحمد شوقي ومن خلفهم في السيارة التالية جمال سالم وحسين الشافعي وقبلهم إسماعيل فريد، وصعدوا إلى بلاط الرصيف، حينوجدوا الميناء خاليًا من أي مظاهر توحي بأن ملكًا فيه وأنه سيغادر منه .

قطع عليهم الحيرة ضابط الميناء الذي هرع إليهم مستغربًا حضورهم، ومستعجبًا أن الفريق نجيب ترك كل مهامالحركة المباركة. وقدم إليه في خفر السواحل، فلما صرخ فيه جمال سالم :

ـ أين الملك؟

رد الضابط :

ـ ولماذا يأتي الملك إلى هنا أصلًا؟ !

يوووه! كاد جمال سالم يطيح بالعصا في وجه الرجل، لكن القائمقام أحمد شوقي سارع فتدارك، وسأل الضابط سؤالًا محددًا :

ـ الملك لما بيروح «المحروسة» بيروح منين؟

رد الضابط في سلام نفسي عجيب :

ـ من رصيف قصر رأس التين !

انتفض نجيب غاضبًا وإن حاول كتم هذا الغضب بقدر ما يسمح له توتره. وهب في إسماعيل فريد بسؤال مستغرب متعجب متهكم :

ـ يعني إيه مش عارفين الملك مسافر منين؟ !

الإجابة السهلة (قل لنفسك) لم يجب بها أحد، بل ركبوا السيارتين وأمامهم ووراءهم سيارات أخرى في موكب متعجل متعثر يهرعونإلى قصر رأس التين، وقد ثارت أعصاب نجيب لتأخره عن الموعد المحدد لرحيل الملك :

ـ كان المفروض نبقى هناك الساعة السادسة مساءً !

جمال سالم وهو يسمع نجيب بينما يركب سيارته تمتم وهمهم :

ـ ما يغور الساعة السادسة لوحده! ما لزوم أن نودعه؟! أنا لا أفهم، طردناه ونروح نودعه بأي أمارة؟ !

ظل جمال سالم يبرطم في وجه حسين الشافعي الملتصق به في أريكة السيارة. نجيب يظن أنه وعد السفير الأمريكي، بينما السفير الأمريكي يظن أنه اشترط على محمد نجيب أن يكون في وداع الملك فاروق، ويمنحه الاحترام اللائق بملك اختار حقن دماء جيشه وشعبه وقبل التنازل! لماذا كان السفير مصممًا على هذا الطلب إن اشترطه؟ ولماذا تطوع به نجيب إن اقترحه؟ علي ماهر أبلغهم أن الملك طلب وداعًا رسميًّا ملكيًّا ولم يضف أنه قد طلب لا نجيب ولا غيره، أو لعل علي ماهر هو من أضاف، لكن لا شيء على الإطلاق يفرض عليهم توديع الملك

خشي الشافعي أن يسأل جمال سالم، الذي ظل يطنطن متذمرًا، طيب وإنت إيه اللي جايبك معانا؟ وآثر السكوت، وتأثر بغضب نجيب على غياب معلوماتهم، وأنهم هكذا ركبوا السيارات وذهبوا لميناء خطأ، لا أحد تحقق ولا أحد توثق ولا أحد لحق بهم فصحح ووجههم إلى الوجهة الصائبة
كانت مجموعات من المتظاهرين والمتطفلين والحائرين والمستثارينوالحزانى، ربما وقد وصلهم خبر رحيل الملك قبل أن يرحل وقبل أن يذاع رحيله، من ثرثرة الجنود، أو تفاخر الضباط الملطوعين في الشارع منذ الفجر، أو من همهمات البلاجات التي لم تفرغ من ناسها، أو من الأخبار التي تتناقل من كبائن ستانلي حتى شماسي الأنفوشي، قد وقفوا على جانبي الكورنيش عند رأس التين أمام سيارات الجيش وفي مواجهة أسوار وبوابات القصر، هتاف الإخوان المسلمين كان أعلى وأكثر تنظيمًا، بل وأحيانًا وحيدًا :
الله أكبر ولله الحمد
بينما الآخرون إن هتفوا فبأصوات منخفضة مفتتة متكسرة بكلمات وشعارات مبعثرة، لكن أكثر ما اتفقوا عليه هو مزاحمة نهر الطريق وتعطيل حركة السيارات، لكن نجيب هدأت ثائرته حين سمع هتافًا باسمه، ثم لم يجد في تعطل السيارة وبطئها وسط المتكالبين حولها من المتظاهرين شيئًا يعكر مزاجه، لما بدأت الأيدي تمتد لتلمسه وتحاول مصافحته، فابتسم لهم، وخلع قبعته ولوح بها إليهم، والتفت إلى أحمد شوقي الذي كان يعتبر نفسه الآن نائب نجيب، فهو أعلى رتبة تليه، وهو معه في سيارته، وهو مدير منطقة القاهرة العسكرية المركزية، وهو القائد الأعلى للكتيبة التي حاصرت قصر فاروق، وكل هؤلاء الضباط والجنود الواقفين بمدافعهم مرؤوسوه ورجاله، فنسي شوقي كذلك التأخر عن موعد الملك دون تبرم ولا تململ، وبات أميل إلى صياح جمال سالم في أن يغور الملك وما لزوم أن نودعه !
أفسحت السيارة لنفسها مسارها، ووصلوا إلى البوابة الخلفية التي تقود إلى الصعود إلى الرصيف البحري لقصر رأس التين. خشي السائق أن يكون الطريق غير صحيح هذه المرة، وقد كاد يدخل من بوابة القصر الرئيسية، لكنه أسرع فانتهز فرصة التزاحم وسأل جنديًا أمام القصر عن الرصيف البحري، فسأل الجندي جنديًا آخر، ثم تمكن جندي ثالث من حرس القصر الملكي أن يجيبهم من الداخل صارخًا على طريق مختصر، فشقه السائق ليلحق بالملك، فقد كان الفريق نجيب يضرب بعصاه الآن مسند المقعد توترًا، حيث تراجع زحام العشرات الذين أحاطوا به واختفى صدى الهتافات .
وصلوا أخيرًا، ونزل نجيب أولهم برشاقة من يريد اللحاق بموعدوعده (لمن؟ جمال سالم يرجح أنه وعد للسفير الأمريكي، وبات الآن مقتنعًا أنه وماله لما نودعه، أهو على الأقل نتأكد إنه غار، ولا نغضب الأمريكان، ثم نحرق دم الإنجليز قليلًا، إذا كان عندهم دم).
كان زورق الملك قد أبحر في المياه بعيدًا، بل كان قد وصل فعلًا إلى اليخت، الذي ربما أوشك على الإبحار من المرسى . كان أنور السادات هناك في برج مصلحة المواني والمنائر منذ عبر على قصر رأس التين وأدخل سليمان حافظ وصلاح الشاهد، وجاء ليتابع عملية الرحيل والمغادرة من خلال تقارير شفوية من ضباط بزيهم الأبيض الرائق، يحدقون في نظارات معظمة ومناظير معلَّقة على حوامل معدنية تتابع الحركة الملاحية وترصد تحرك الزوارق إلى الشمندورة حيث يخت «المحروسة»، ثم هسيس أجهزة لاسلكي، وزَن مؤشر معدني، وتكتكات دقات برقيات سريعة مشفرة. تطلع السادات إلى البحر، وطلب من أحد ضباط الصف جلب دليل التلفونات

الرسمي والاتصال بمبنى القيادة في القاهرة. رفع جمال عبد الناصر السماعة، ورد على عسكري التحويلة بالموافقة على الرد على السادات الذي كان قد أخذ السماعة بنفسه من ضابط الصف بعدما أدار القرص وكلم عسكري التحويلة في القاهرة :
ـ إديني يا ابني البكباشي جمال عبد الناصر .
امتعض من رذالة العسكري الذي سأله :
ـ نقول مين يا أفندم؟
ـ أنور السادات .
سأل جمال دون تضييع الوقت في السلامات :
ـ ما الأخبار يا أنور؟
ـ نابولي .
أخيرًا علم السادات من اتصالات برج المواني والمنائر باليخت، أن الملك قرر الرحيل إلى نابولي.
كان عبد
الناصر قد بدا منشغلًا بمعرفة خط سير «المحروسة» بالملك المحروس، فقد أخبره نجيب أن ماهر يرجح البرتغال أو إسبانيا، بينما قد تكون إيطاليا، وحسم جلال علوبة اتجاه البوصلة حين أعطى طاقم البحارة الأمر بالتوجه إلى نابولي
لحظة صمت قطعها السادات بهمس مبالغ فيه في منطقة وسطى بين السر السياسي والسر العاطفي، ثم قال :
ـ رشاد مهنا هنا في إسكندرية وعامل زفة ضباط معاه .
سمع تذمر جمال وغضبه، لكن صوتًا أعلى قد تمكن من أذنيه: كانت طلقات المدفعية تدوي الآن !
حين صعد محمد نجيب إلى الرصيف، وجد علي ماهر وضباط الحرس الملكي يلملمون اضطراب مشاعرهم، ويدسون آلات فرقة الموسيقات العسكرية في عبواتها الجلدية وصناديقها الخشبية، بينما يرفرف العلم الملكي وحيدًا فوق الصاري، وقد غادر علم مصر الأخضر تحت إبطي الملك. بحث نجيب بعينيه عن السفير الأمريكي فلم يجده، فأوشك أن يسأل عنه، حين استرد علي ماهر عقله من قلبه وأقبل على الفريق نجيب :
ـ إنتم اتأخرتم يا سيادة الفريق، جلالة الملك كان يود لقاءكم جدًّا !
تسمع جمال سالم الكلمات، فشعر أن علي ماهر لم يستوعب بعد أن ملكه قد صار سابقًا، لكنه لاحظ رد نجيب المتلهف :
ـ نحن أيضًا كنا نحب نشوفه !
ما صدق علي ماهر فاقترح :
ـ طيب ما ممكن يجهزوا لنش وتلحقوه !
تهلل نجيب موافقًا ومُرحبًا على الفور .
نزلوا إلى الزورق الذي كان جاهزًا ودائرًا. وجد نجيب جمال سالم محشورًا بجواره، حتى أنقذه إسماعيل فريد ووضع جسده بينهما . تحاشوا حافة الزورق ومنحوا أجسادهم المتلاصقة مسافة لا تسمح لرذاذ الموج وزبده الذي يطلقه رفاص اليخت أن يصيبا الكابات والكتافات، بينما كانت طلقات المدفعية المودعة للملك قد أطلقت طلقتها العاشرة من الإحدى والعشرين في تحية سلام ملكي رسمي. دار الزورق دورتين حول اليخت طبقًا للمراسم التي يحفظها طاقم البحر

ويصونونها، ثم أطلق الزورق التحية بنفيره. تأمل نجيب اليخت من أسفل، وشعر بضخامته وجسامة ما حدث، امتلأت روحه بالرهبة والجلال. طول اليخت يقارب نصف الكيلومتر، فكأنما مضى بهم الزورق شارعًا وميدانًا بجوار اليخت، وقد ظهرت طوابقه العليا الثلاثة هائلة، واللون الذهبي يسيطر على النظر بانعكاس أشعة الشمس الغاربة، وهذا الطوق الأبيض المنقوش عليه التاج الملكي فوق اسم «المحروسة ».رفع نجيب يده بتعظيم السلام للملك في اليخت، حيث كان واقفًا على سطح الطابق العلوي الثاني، حيث سطح المدفعية، وأمام باب الجناح الصيفي. وتبعه الآخرون بالتحية العسكرية للملك الذي لمحهم من علٍ، فأحنى رأسه ليطل عليهم ويتمكن من رؤية أكف التحايا العسكرية المعظمة. رآهم جلال علوبة فخفق قلبه، واختلطت بداخله مشاعر القلق مع الترقب مع خيوط واهنة من أمل تلتف حول نفسها فتتكعبل وتتلخبط وتتشابك .
ذهب علوبة إلى الملك يخبره بإشارات نجيب في الزورق بطلب الصعود إلى اليخت. تعجب فاروق، لكنه أعجب باللفتة. كان قلبه يهدر بالأحاسيس، من أقصى درجات العدمية واللامبالاة وبيع كل شيء لصالح راحة دماغه، إلى أقصى درجات الأسى والحزن والفقد، ولعن أمه وحساب مسائل الرياضياتالمرهقة في الجمع والطرح لمحاولة التحقق من قيمة ما لديه في الخارج من أموال سائلة («بوللي » كان يعرف كل شيء، وها هو قد راح، أو أنا الذي رحت وهو الذي بقي).
كان قد دخل صالون جناحه مبتعدًا منعزلًا عن الجميع، يتأمل الستائر المخملية الحمراء، والأرائك المذهبة، والتحف، واللوحات المعلقة، والزركشات على الجدران والأسقف، والمرايا المؤطرة بالعاج والذهب والزجاج اللامع الشفاف مضروب بخليط من الألوان الممزوجة بأشعة الشمس الحمراء القانية وزرقة السماء الكابية مع ذلك الأزرق المفروش على صفحة البحر. آه، ليس غريبًا أن يجري كل هذا في خضم البحر، البحر القلاب المتقلب الهائج المائج الغادر المطبطب العاصف، مده وجزره، صعوده وهبوطه، نواته وهدواته . زاد الفراغ في قلب فاروق واتسع، ملأه تمامًا، ساح في كل مسامه، فراغ في عقله فلم تعد فكرة ولا كلمة داخله، فراغ في قلبه لا حزن ولا فرح (بالقطع لا فرح) ولا أسى ولا حتى عدم، العيون تنظر في بياض كأنها تنظر داخلها وداخله، انسحبت عنه كل أحاسيس الوقت والحدث، كأنما لحظة يفرغ فيها عقله ذاكرته، ويرمي فيها قلبه ما امتلأ فيه من عواطف. حين شعر هرجلة ما خارج الجناح، شدته من حفرته البيضاء وشفطت البياض داخله، قام وذهب وفتح الباب ونظر فرأى من يشير إلى هناك، أسفل اليخت، في عرض البحر، رأى زورقًا يحتشد بالضباط. هل هذا محمد نجيب؟ ثم رآهم يرفعون أيديهم بالتحية العسكرية، فرفع يده يرد التحية وراحة تغمر روحه. عندما رأى علوبة ملكه طالبًا إرضاء غروره بصعود نجيب إليه، وعندما رأى علوبة قائد الجيش الجديد في زورق أسفل عينيه طالبًا إرضاء ضميره أو سفيره أو تقاليده، ما كان منه إلا أن خفض سرعة اليخت حتى أوقفه تمامًا، وأنزل سلمًا إلى الزورق الذي دنا والتصق بجسم اليخت، ثم صعد نجيب وقد سبقه في خفة إسماعيل فريد، بينما كان الثلاثة، أحمد شوقي وجمال سالم وحسين الشافعي، يصعدون تباعًا. كانت عيونهم مخطوفة باليخت الفخيم الرحيب، وتذكر جمال سالم فضيحة المليون جنيه التي خصصها الملك من ميزانية الدولة في تلاعبه بمال الشعب لتجديد «المحروسة». ها هو اليخت سيرجع لنا بمجرد أن يقذفك على الرصيف الذي ستنتهي عنده يا فاروق! كان المليون جنيه يقفز في وجوههم من كل ركن في اليخت، ويهبط عليهم من كل طابق. الأبواب الخشبية الثقيلة المنقوشة، والجدران المبطنة، والرايات المرفرفة، والمدافع المنصوبة اللامعة، كأنما للاستعراض والمباهاة، وهذا اللون الأحمر

الملكي الذي يطلي كل شيء ويطفو فوق اليخت، ثم ها هو الملك يخرج من مصعد هبط به إلى سطح الطابق الأول حيث مقدمة اليخت التي تشبه في انحنائها مراكب الفراعنة المرسومة على المعابد، وذلك المخطاف المعلق المرفوع والأوناش الشغالة. وقف الملك ينتظر قدومهم إليه. تحرك محمد نجيب بسرعة متحمسة ووقورة، وبعده تحرك القائمقام أحمد شوقي، ثم أشار جلال علوبة بيده حاجزًا جمال سالم وإسماعيل فريد وحسين الشافعي عن التقدم، فهؤلاء رتب لا يصح لها المثول القريب المواجه للملك. امتثل ثلاثتهم متبرمين من هذا الانضباط العسكري المفروض عليهم، وقبضت يد جمال سالم على عصاه التي اعتاد الطيارون الإمساك بها، بينما أصبحت لصيقة به كنظارته السوداء وتصلب ظهره المؤلم، يخبط بها فخذه .
كان جلال علوبة يمنع عن الشافعي رؤية وقفة الملك، ذلك الذي حاصره منذ ساعات فيقصر المنتزه الفارغ، بينما ضربات عصا جمال سالم على فخذه تطرق أذنيه .
تقدم نجيب مؤديًا التحية العسكرية، ورد عليها الملك ثابتًا، وقال بلهجة شديدة التهذيب أرادها درسًا مبطنًا في الأدب لهذا اللواء (رقيته للأسف، وجعلت منه فريقًا مكافأة على أنه أنهى عرشي! ها هو الضابط المجهول الذي صبت الإسكندرية كل شمسها عليه يقف قبالتي وجهًا لوجه لأول وأظن لآخر مرة):
ـ أعتذر لأنني لم أستطع انتظارك أكثر على الرصيف سيادة الفريق، غادرتفي تمام السادسة !
لا بد أن هذه حمرة خجل تجولت بين خدي نجيب وعينيه :
ـ لست أنا المسؤول عن هذا! كنا نأمل أن نحقق الخير فقط بهذا التحرك، لكن الأمور خرجت من أيدينا !
وذهبت إلى أي يدٍ يا سيادة الفريق؟! لم يقل الملك حرفًا من سؤاله، وزاد الصمت وثقل، فحاول نجيب أن يخرج من عجز المشاعر إلى قدرة الكلمات :
ـ جلالتك، لقد كنت أنا الضابط الوحيد الذي قدم استقالته بعد حصار الدبابات الإنجليزية للقصر في 4 فبراير 42 !
دائمًا يملك محمد نجيب حكاية ليرويها لأحد: روى للنحاس حين التقاه مغامرته بالقفز إلى منزله دفاعًا عن الدستور، وها هو يقص على الملك فاروق حدوتته الملكية المفضلة .
ـ نعم، كنت أنا الضابط الوحيد الذي فعلها يا جلالة الملك، وكتبت في استقالتي ...
بدأ نجيب يتلو استقالته التي من الواضح أنه يحفظها :
حيث إني لم أستطع أن أحمي مليكي وقت الخطر، فإني لأخجل من ارتداء بذلتي العسكرية والسير بها بين المواطنين، لذا أقدم استقالتي .
كان صوت نجيب يأتي إلى مسامع الضباط الواقفين خلفه متقطعًا وبعيدًا، حيث الهواء اللافح والموج العالي ونفضات القلوب وزَن المواتير البخارية، ويصل إلى مسامع الملك حروفًا مرمية وكلمات متقطعة، فقد كان تركيزه كله في ملامح هذا الوجه الذي بدا منحوتًا من طمي النيل، خليطًا من شعبي مصر والسودان معًا، إن هذا الرجل الذي لا يتذكر حكاية استقالته، والتي يبدو أن أحدًا لم يقبلها بدليل أنه منتصب أمامي يطرد مليكه الذي كان زعلانًا جدًّا لأنه لم يستطع أن يحميه، بدا للملك أنه رجل ساذج، نجيب هذا رجل طيب، وسوف يأكلون عظامه كما يأكلون عظام حمامة !
لا يزال نجيب يحدث روحه متخيلًا أنه يحادث الملك :

ـ فعلت ذلك يومها باسم الجيش كله، وكانت هي مشاعر كل الضباط الذين قاموا بالحركة اليوم (لم يكن فاروق قد وصله أنهم سموها «حركة»)، وهذا يدل على مبلغ ما كان عليه ولاؤنا لجلالتكم، أما الآن فقد تغيرت الأحوال !

أراد فاروق أن ينهي هذه الخطبة المملة، فتحرك ناحية نجيب وأومأ برأسه :

ـ على كل حال، إنني أتمنى للجيش كل خير. إن أمامك مهمة شاقة وصعبة !

كان نجيب يريد أن يكمل حكايته، ويخبر الملك أنه من فرط حبه وولائه للتاج الملكي ولشخصه الكريم، فقد أطلق على ابنه البكر اسم «فاروق»، لكن يد الملك أشارت ناحية الضباط الأربعة :

ـ عرفني بضباطك يا سيادة الفريق .

حين التفت إليهم الملك، وتوجه ناحيتهم، قدموا التحية العسكرية

فوجئ نجيب بالملك فاروق منتفضًا، وقد سلط وجهه ناحية جمال سالم الذي رفع يده بالتحية معظمًا. كانت العصا تحت إبط سالم الأخرى قد مسحت كل اهتمام فاروق بدماثة نجيب، وبتلك الموعظة التي تصورها نجيب مؤثرة ومبكية، وبمغزى القصة التي رواها. شخط فاروق في هذا الضابط الجاهل المستهتر المستخف بحضور الملك فيمسك عصا في حضرته مخالفًا القواعد العسكرية والملكية :

ـ شيل العصا دي من إيدك !

كان أمرًا ملكيًّا بكل ما فيه من شخطة مترفعة متعالية متأففة متكبرة متجبرة. لقد قالها فاروق كأنما يدافع عن عرشه، كأنها صيحته لهم (ولحكايات نجيب وقصصه): أنا الملك يا لمامة! أنا الملك! وكوني أرحل فهذا لأني لم أعد أريد أن أبقى! زهقت من هذا التاج الثقيل، وذلك الكاب السقيل، ومنكم ومني

استوعب جمال سالم صياح الملك ببطء، لم يتوقعه فصدمه. نفخ الملك كل جمرات النار الخامدة داخل سالمفاشتعلت، واهتز كل بدنه غضبًا. لن يهينه هذا الملك المطرود. إنه يكابر، يظن نفسه لا يزال قادرًا على الأمر والنهي، لن أجعل أمره الملكي الأخير موجهًا لي، هو مجرد ملك سابق، والله أضربه بالرصاص الآن ولنرَ من يتشدد له، ألم يكن رقيقًا وخرعًا حين لم يصمم على إعدام هذا التركي حفيد الدخاخني؟ لكن نجيب الذي انتشلته هذه الشخطة من شعوره بجلال الموقف وحكمة ما يقوله، نظر إلى جمال مؤديًا دوره كقائد عسكري، واكتفى بالنظرة كي تشرح أمره له (تحولت النظرة إلى رجاء). لكن جلال علوبة تدخل فورًا (هو أعلى رتبة من سالم، وأشد إخلاصًا للعسكرية فيما يظن)، فوقف بجوار جمال متحفزًا، لكن جمال قرر أن يشيل العصا، أزاحهاعلى إفريز السور، بينما أرخى وقفته العسكرية المنتبهة إلى «استرح» وهو ينفخ ربنا يطوّلك يا روح. كانت روح جمال سالم أقصر من أن تحتمل أي تطويل !

أشار لهم الملك بالانصراف، وقد ظهر السلم من خلفهم جاهزًا للهبوط إلى زورقهم. ما صدق جمال سالم، فكان أول من انصرف، بينما لحقه الشافعي وشوقي، وتأخر فريد لمرافقة نجيب الذي أخفض رأسه حتى صدر الملك ليسمع ما كان يقوله فاروق لحظتها هامسًا :

ـ عمومًا، إنتو سبقتوني في اللي عملتوه، اللي عملتوه دلوقتِ كنت راح أعمله !

كانت الكلمات تحمل غموضها وهي تنزل بالستارة على هذا المشهد الذي تراجعت أضواؤه مع مغيب الشمس .

كان جلال علوبة قد انتحى بنجيب جانبًا، وطلب منه الإذن في تأخر الإقلاع نصف ساعة لاستكمال التجهيزات، وبدأ في شرح تفاصيل التجهيزات، فقاطعه نجيب موافقًا برأسه وبكلمة كررها مرتين كرمًا :

ـ لا مانع، لا مانع .

شكره علوبة ممتنًّا، وتراجع خطوات للخلف تسمح لنجيب بالتلويح لطاقم اليخت بالتحية. هبط نجيب على السلم، ولحق به ياوره النشط، ونزلوا جميعًا إلى الزورق الذي أطلق التحية بصفارته وانطلق يبتعد عن اليخت. تابعه فاروق بنظراته من أعلى، وهو يبحث عن أي مشاعر داخله ليحس بها. رفع رأسه إلى قصر رأس التين، وهو يحدث نفسه: ألم يكن أفضل يا جدي أن يبقى هذا المكان كما كان أرض مزارع لأشجار التين على البحر؟ (لقد حكوا له كثيرًا عن أنه كان أفضل تين تزرعه مصر)، لكان التين أفضل لمصر جدًّا من قصر رأس التين !

21

كانت الفرحة البهيجة والمهتاجة بنجاحهم السلس في طرد الملك قد أخذتهم جميعًا. نجيب ظل يسمع صوته يتردد من الراديوهات كأنما يسمع صالح عبد الحي يجلجل ويتجلى. كان قد سجل البيان في مبنى ثكنة مصطفى باشا في غرفة مغلقة عليه وعلى أحد مهندسي الإذاعة الذي غابت ملامحه عن ذاكرة نجيب، التي لم تخزن في خلاياها إلا رهبة الموقف وجلال اللحظة، وسناكي القلق تنغز في قلبه، غيبت كل شيء أمامه إلا هذا الهواء الرطب الثقيل والنوافذ المغلقة التي تمنع تلاطم الموج وهديره من الوصول إلى شريط التسجيل الذي يدور كلما تكلم، كأن ما حاول أن يثبته «كوبرنيكوس» عن دوران الأرض لم يكن يحتاج إلا هذه اللحظة لإقناع نجيب. ها هي الأرض دارت، ها هو كل شيء دار ويدور. أكان حقًّا؟ أممكن فعلًا أن يرحل الملك وأنا أسجل هذا البيان ليأخذه أحد ضباطي ويسافر به إلى مبنى الإذاعة في القاهرة، فيدخل إلى استوديو الهواء ليسلم الشريط السري إلى ضابط آخر (يجهل أسماء هؤلاء الضباط، فالذي يعرفهمهو عبد الناصر)، ويجلس الضابط المناوب في مبنى القيادة في القاهرة بجوار جهاز التلفون ينتظر اتصال السادات من مصلحة الموانى والمنائر في الإسكندرية ليوصله بعبد الناصر فيبلغه برحيل الملك في يخته، ليتصل عبد الناصر بضابط الإذاعة فيأمر مذيعها بفض علبة الشريط المسجل ووضعه على آلة البث المباشر في الاستوديو المفرَّغ من عامليه لزوم السرية ولوازم الحيطة، ويذيعه في تمام السادسة مساء، حيث مصر بعد السادسة لن تكون مصر قبلها؟ (عمومًا نجيب لم يكن يحب مصر في الخامسة !).

صوت نجيب تتغالظ نبرته الرفيعة، ويستنطق الكلمات رنين القائد وقرع الحرب ووعظ الجوامع :

وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين، وتم التنفيذ في المواعيد المحددة دون حدوث ما يعكر الصفو. وإن نجاحنا إلى الآن في قضية البلاد يعود إلى تضافركم معنا بقلوبكم، وتنفيذكم لتعليماتنا، وإخلادكم إلى الهدوء والسكينة. وإني أعلن أن الفرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبأ، غير أنني أتوسل إليكم أن تستمروا في التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم في أمان. ولي كبير الأمل أنكم ستلبون ندائي في سبيل الوطن، وفقكم الله لما فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام .

لا يعرف (وربما لن يعرف، والأغلب أنه لن يهتم أن يعرف) من صاغ هذا البيان الذي يملك يقينًا أن الفرح سيفيض في صدور المصريين، ويقدم للشعب تعليمات الجيش التي تبدو كالأوامر، ثم تتحول في نهاية البيان إلى توسل للشعب أن يهدأ حتى يتمكن نجيب وضباطه من السير بقضيته (السير بها أين؟ وإلى أين؟ وهل يمكن للشعب أن يقابلهم في طريقهم للسير معهم؟ لعل تلك الأسئلة التي لم يطرحوها على أنفسهم هي التي فجرت بعد ساعات خناقة عبد الناصر معهم، وانفضاضه باستقالته قبل أن يبلعوا ما تبقى من شربات الفرح في شفاشق القيادة الزجاجية الموضوعة على مائدة الاجتماعات).

كان الهم المهم هو أن الجيش ينجح والشعب يهدأ، هذا هو المطلوب إذن، حتى إن الضباط خرجوا يحملون ميكروفونات يمسكونها بأيديهم المتوترة المتعرقة (لم يأمنوا تكليف صف الضباط أو جنود لهذه المهمة، وكان شرف الصراخ في الميكروفونات يطرب قلوبهم)، وركبوا في سيارات تجوب شوارع القاهرة والإسكندرية وأحياءهما من الساعة السادسة والنصف. تدور إطارات السيارات

وتلف، وتصيح وتصرخ حناجر الضباط في الميكروفونات بأن يلتزم الشعب الهدوء. كان الصمت إذن هو أبلغ علامات الرضا. نجيب كان يفضل المظاهرات الحاشدة والجماهير التي تتحلق حوله تلمسه وتتلمسه وتهتف باسمه، لكن جمال كان أحوط وأخوف من أن يكون الخروج خطرًا على الحركة، فلا ضمان عنده من الذي سيخرج، ولمن، ثم لم يكن يريد أن يكون مدينًا للإخوان بحشد وتحشيد وتأييد يطلبون ثمنه، ولا يأمن أن رجال القلم السياسي من صنائع إبراهيم إمام وزهران سليم يمكنهم أن يُخرجوا من جراب الحاوي فتوات الأحياء ومحترفي الانتخابات وشق المظاهرات وتخريب المؤتمرات من عملائهم ليفسد البوليس على الجيش هدفه، ثم إن الشغب الذي ظهر فعلًا في الإسكندرية، وذلك الحماس المتحامق لجمهور سعيد حتى الغضب أو غضوب حتى السعادة، مقلقان، حيث خرج فضرب واعتدى على مباني خواجات الإسكندرية وبيوتهم وحطم محلاتهم، ومن يدري لعلها تكون خطة البوليس السياسي لاستعداء واستدعاء الإنجليز، أو لعلهم الإنجليز وعملاءهم بأنفسهم من نفذوا. الأمر كله إذن يستلزم أن يسكت الشعب ويلزم بيته، بينما نعمل نحن ونوصل لهم الحرية حتى شراعات أبوابهم. ثم أليس هناك قرار حكومي بمنع المظاهرات؟

طوى ليل رحيل الملك التاريخ تحت إبطيه، وفرد نجيب ظهره وصدره في اليوم التالي مبتهجًا، كأنما تتفتح ألف وردة تتسلق قفصه الصدري، حتى إنه من فرط بهجته وقد عاد إلى مبنى قيادة الجيش في القاهرة أخذ حيدر باشا بالحضن. كان الأمر مثار تعجب حيدر، فانتفخت غدة غروره التي خشي نجيب من أن يفقعها فضحك وهو يهدهده كطفل :

ـ يا حيدر باشا، إنت الخير والبركة .

كان حيدر باشا قائد الجيش المطرود يتعامل متعاليًا مع قائد الجيش الطارد، دون أن يراعي فروق التوقيت، يشكو متذمرًا ومحتجًّا من هؤلاء الضباط الصغار (قال العيال ثم عاد وصححها بالصغار) الذين قبضوا عليه في فندق «سان استيفانو» بالأمس بعد طرد الملك، وقادوه في سيارة عسكرية نحو القاهرة، حيث أودعوه سجن الأجانب (اندهش نجيب، فلم يكن يعرف أنهم قبضوا على حيدر، ثم استغرب أنهم ذهبوا به إلى سجن الأجانب لا للكلية الحربية كما أودعوا القيادات الأخرى). تحولت الملامة إلى معاتبة، ثم إلى مكلمة، ثم إلى تمنيات بالتوفيق ورغبة في إبلاغ سلاماته إلى عبد الحكيم عامر :

ـ الولد العفريت الذي نجح في أن يخفي عن خاله أنه يقوم بانقلاب في الجيش ضد خاله نفسه! وكمان الولد صلاح سالم أنا عرفت إنه معكم، كان ضابطًا ممتازًا في مكتبي، ولما أشوف حكيم أنا سأتصرف معه !

ضحكة مقهقهة راقية من حيدر، ثم ضحكة متواضعة رائقة من نجيب :

ـ مع السلامة يا أفندم .

ذهب حيدر إلى قصره حرًّا تتابعه نظرات الصول رأفت شلبي الذي انحشر بين الحشود التي تكالبت بالكابات والكتافات على مبنى القيادة لتهنئة نجيب فيلحظة قرع طبول الفرح. تعجب شلبي من خروج حيدر الآمن وسط التحيات العسكرية وتعظيمات السلامات، والضباط يوسعون له الطريق، ويفسحون له بين الزحام مسافة ومساحة للوصول إلى سيارته الخاصة التي انتظرته بسائقها العسكري يفتح له بابها ليضعجسده بليونة ومرونة في أريكتها الخلفية، فقال الصول شاخطًا أنفاسًا من حنجرته :

ـ حيدر مشي هكذا، كأنه كان قائد فرقة الموسيقى العسكرية وليس قائد الفساد في الجيش كله !

رد عليه أحدهم :
ـ اسكت يا رأفت يا شلبي، خليك في نفسك يا حضرة الصول، وما الذي ستفهمه أنت أكثر من الفريق نجيب؟
وافق رأفت سريعًا على أنه لا يفهم أكثر من الفريق نجيب، لكن تمنى أن يكون الفريق نجيب يشعرمثله. خرج الفريق نجيب من مكتبه، لكن هذه المرة وهو يصافح ويودع الفريق حسين فريد رئيس الأركان الرأس الكبير الأول الذي سقط ليلة اقتحام مبنى القيادة، وكانت البسمات تتحول إلى ضحكات بينه وبين الفريق نجيب، وأحضان دافئة ومعانقات حانية. استعاد الصول رأفت شلبي بسرعة دور الممثل الذي يجيده من فرط قيامه في إجازاته وبعد ساعات خدمته بأدوار الكومبارس في أفلام «استوديو مصر»، ومشى وراء الفريق فريد مودعًا وهو يبرطم وراءه :
ـ يعني الجاويش الذي مات مقتولًا كي لا يقتحم يوسف صديق والضباط باب مكتبك مرمي في المشرحة حتى الآن، وأنت يا سيادة الفريق تخرج معززًا مكرمًا آمنًا مروحًا على بيتك! طيب ماذا أقول للعساكر الذين ماتوا على باب مبنى القيادة ولأهلهم؟ !
كان يؤدي دور يوسف وهبي في مرافعة لم يسمعها اللواء فريد، ثم عاد وأدى دور علي الكسار وهو يلتم على جنود وصولات تحلقوا حول نجيب يصافحونه ويعانقونه، والرجل يسلم مشاعره لهم سعيدًا، حتى قاطعهم ظهور صلاح سالم الذي شخط ونطر وفرق وأزاح وطرد، ونال رأفت شلبي منه قبضة خفيفة وصلاح سالم
يصرخ فيهم :
ـ كله على شغله !
فلما ظهر جمال سالم كان التفرق عن الفريق نجيب أسرع، خشية أن تطولهم عصاه المشرعة دومًا حتى إنها إن لم تجد من تضربه ضربت الهواء .
كان الأخَوان سالم قد حضرا لدعوة نجيب للانضمام إلى اجتماعهم الذي بدأ منذ ساعة، وكانجمال عبد الناصر قد أحسبالحرج أن نجيب في الغرفة المجاورة وقد طرق بابهم مرة في طريقه وألقى عليهم تحية الصباح (لعلهم أدركوا أن الصباح قد حل عندما صبح عليهم نجيب) ، فقال لزملائه :
ـ لا يصح أن نظل مجتمعين والرجل في الخارج وهو المفروض قائد الجيش الآن !
ثم بعد برهة من تأمل :
ـ وقائد الحركة !
ثم بعد برهة أكثر من التأمل الأعمق :
ـ على الأقل أمام الناس !
نظر إلى جمال وصلاح سالم، ففهما أنهما مدعوان لدعوة نجيب لسببين: الأول أن صلاح سالم كان مديرًا لمكتب نجيب كما كان لحيدر باشا كذلك، ثم لأن شقيقه جمال سالمأكثر من يصيب نجيب بالتحسب والتخوف. وافقا بهدوء لا يليق بهما، ثم عادا بنجيب الفرح الفخور، فأجلسه عبد الناصر على رأس المكتب، وأزاح كرسيه قليلًا بجواره، ثم استكمل ما كان قد بدأه :
ـ المفروض الآن نأخذ بعضنا ونسلم البلد للديمقراطية، وكل واحد فينا يرجع للثكنة والقشلاق، مهمتنا انتهت بنجاح، لقد قمنا بانقلاب لنعيد لهذا الشعب كرامته، وننتصر للدستور والحرية والديمقراطية، ونحن عساكر لن نصلح للحكم .
لحظتها كان كل واحد فيهم يتحسس الغراب الذي وقف على رأسه ينقر في خلايا مخه !

كانت الليلة أطول من ليالي الصيف، لم تفلح الأسقف العالية ولا النوافذ الفارعةالعريضة مفتوحة الشراعات في سحب هذا الحر الذي أعرقهم من العنق إلى الإبط، مع مرور الوقت ثقيلًا يشفط منهم سعادتهم المنتشية بنجاح انقلابهم (لم تكن كلمة «الحركة» قد التصقت بعد في ذاكرتهم وعلى ألسنتهم، فكانت كلمة «انقلاب» تنزلق عادية للغاية في وصف ما فعلوه دون لجلجة لا في ألفها ولا نونها وحتى بائها). خلعوا كاباتهم وحتى الأحزمة، وفكوا الأزرار، ونزعوا أقدامهم من الأحذية، فيما عدا محمد نجيب الذي كان حريصًا على كل مستلزماته العسكرية الوقورة. الأدخنة التي عبأت الغرفة هزمت هواءها المتجدد، ثم سحقته تمامًا حين قرر كمال الدين حسين، منعًا لتطاير أصواتهم بخلافاتهم خارج الغرفة، غلق الشبابيك، ولم ينتبه أحدهم لما فعل، ثم لما شخط فيه جمال سالم بعد سويعات أن يفتحها ليتنفسوا عاد وتراجع أمام نظراتهم جميعًا وفتحها، وليتفلق من يسمع صراخهم .

كان عبد الناصر مأخوذًا بتكتلهم السريع والمفاجئ ضده، سريعًا جدًّا وبعد أقل كثيرًا مما يتخيل من نجاحه في قيادتهم للسيطرة على الجيش وطرد الملك، وقد جلب بعضهم من بيوتهم، وآخرون كان يبحث لهم عن أي دور في الأيام الأربعة الماضية كي يشعرهم بأنهم مهمون فقرروا أن يخالفوه. متى اتفقوا ودبروا هذا الموقف؟ أهو شيء من خلف ظهره؟ لكن هل عبد الحكيم معهم؟ مستحيل! أهذا يعني أن آراءهم ومواقفهم تلقائية وعفوية؟ حتى لو كانت كذلك كيف لا يقتنعون ويسلمون بأنه يعرف أكثر ويوافقونه الرأي والقرار؟

كان عبد اللطيف البغدادي هو من يجأر الآن، وجمال سالم يزأر، وحتى حسن إبراهيم رجع صدى الصوت يعلو ليعارضه. أهو قرار سلاح الطيران يبلغه لي الطيارون الثلاثة؟ قال البغدادي مخاطبًا عبد الناصر بلهجة حاسمة :

ـ ما تقوله لن ينفع يا جمال !

نعم يا عبد اللطيف! صمت وصبر وامتص غلظتهم، ليكمل ما بدأه، وهو يطلب بنظراته تدخل حكيم حتى لا ينفجر فيهم وقد استغلوا هدوءه وطول باله. أكمل عبد الناصر :

ـ نحن فعلنا للبلد ما يستحقه منا، وواجبنا تجاهه، مشينا العناصر والقيادات الفاسدة في الجيش، وتولاه قائد منا (أشار هنا إلى محمد نجيب الذي أومأ برأسه ممتنًّا)، ووضعنا رجلًا محترمًا على رأس الوزارة، وطردنا الملك، وليس لنا الآن إلا أن نلتزم الطريق الديمقراطي، فنحن لم نقم بالحركة بغرض تولي السلطة ولا حكم البلد، بل من أجل الدستور والديمقراطية !

عاد البغدادي وهو يسرع بإلقاء الكلمات من فمه قبل أن تنفجر بين شدقيه من طول الكتمان :

ـ يبقى لم نفعل شيئًا أصلًا، طرد الملك ليس له أي نتيجة ولا أثر، لو تركنا الحكم الآن لركب فوق رقابنا ثانية مجموعة من الأحزاب التي يتحكم فيها باشوات وكبار ملاك الأراضي، يعني عملنا كل هذا كي نسلم مصر للنحاس وسراج الدين !

هنا شخط فيه عبد الناصر :

ـ يعني عملناه كي نسلمها لعبد اللطيف وعبد الناصر وعبد الحكيم !

ثم رمى سيجارته في المنفضة، وأضاف دون أن يسمح لأحد بمقاطعته :

ـ ما تقوله الآن هو طريق الدكتاتورية !

رد جمال سالم بمنتهى الأريحية :

ـ مالها الدكتاتورية؟! هي الدكتاتورية وحشة !

أضاف السادات محاولًا النزول بطبقة صوته إلى طبقة القرار :
ـ إنني أؤيد الدكتاتورية من منطلق الحرص على مصلحة مصر، فالشيء الذي ننجزه بالطريق الديمقراطي في سنة يمكن إنجازه عن طريق الدكتاتورية في يوم !
تعمق صلاح سالم في المعنى أكثر، وأضاف :
ـ بل في ساعة !
احتار عبد الناصر من «الكريشندو» الذي يعزفونه أمامه، وفار دمه تنورًا خصوصًا حين قرر كمال الدين حسين أن يعطيه درسًا في النهوض بمصر :
ـ يا جيمي (لا أحد يخاطبه بـ«جيمي» إلا حكيم، فتودد بها كمال إليه فضايقه أكثر)، لقد طرحنا مطالب وأهدافًا في منشورات الضباط الأحرار نحتاج الآن إلى تطبيقها، ولن يطبقها إلا نحن بأنفسنا !
لما لم يجد عبد الناصر عونًا من حكيم، قرر أن يسمح لنفسه بإطلاق ذخيرة في الهواء :
ـ بذمتك يا كمال، إنت قرأت كم منشور للتنظيم؟ نحن حتى لم نكن نكتبها في السنة الأخيرة! ومع ذلك احكِ لي يا كمال ما هي مطالبنا؟
أراد حكيم أن يخفي تهكم جمال بساتر من الكلمات المطمئنة والعجولة :
ـ عمومًا نحن نتناقش للوصول إلى قرار، وطبعًا ما نتفق عليه سيكون بعد اقتناع من كل واحد فينا، وأظن أن البلد كلها تنتظر ما سنفعله، ولازم نكون على قد المسؤولية !
استدعت نظراته محمد نجيب ليتكلم، لكن نجيب دس رأسه في دخان غليونه الكثيف متحاشيًا أن ينحاز إلى أحد .
تدخَّل صلاح سالم :
ـ بلا ديمقراطية، بلا كلام فارغ! هما الباشوات لما يشتروا أصوات الفلاحين الجهلة بقرشين، ولما يوزعوا لحمة يوم الانتخابات، تبقى ديمقراطية؟ !
وجد جمال سالم من يرتفع فوق مئذنته في الهجوم على الديمقراطية :
ـ لا يمكن للفلاح الحافي الأُمي أن يعرف مصلحته، بينضحك عليه من الباشا صاحب الأرض، نحن نعرف مصلحة البلد ومصلحة الفلاح نفسه، والواجب علينا إننا نعمل لمصلحته حتى لو كان هو نفسه يجهلها، نحن الذين طردنا الملك، بينما الباشوات كانوا يبوسون جزمته !
كان جمال سالم قد وقف الآن ويلوح بعصاه، كأنه يضرب طرابيش الباشوات ويسقطها من على رؤوسهم ويكمل :
ـ يا سلام، يعني المفروض وصلنا لما وصلنا إليه ثم نحمل البلد على صينية مثل جرسون في «جروبي»، ونحطها على الترابيزة قدام الأغنياء والباشوات وملاك الأراضي وأصحاب العزب والقصور، ونقولهم بالهنا والشفا؟ !
علَّق حسن إبراهيم لأول مرة بهدوء وبالفرنسية :
ـ بونا بيتيه .
كأنه لم يقل شيئًا، فقد دخل البغدادي بجملة محددة وقاطعة، كأنما يغلق الباب في وجه عبد الناصر :
ـ نحن مجلس القيادة، ممكن أعرف لما نترك القيادة للأحزاب ما الذي سنقوده؟ هل تريد يا جمال أن نعود إلى الثكنات؟

جمال عبد الناصر كان قد أطلق العنان لمشاعره المنضبطة كي تنفلت، فصرخ فيهم مدافعًا عن زعامته حين يدافع عن الديمقراطية، وأشار إلى نجيب :
ـ هذا الرجل قال في بيان الثالث والعشرين من يوليو إننا نحترم الدستور، والدستور الذي تلاعب به الملك هو ما خرجنا للدفاع عن احترامه والالتزام به، الدستور ليس فيه حكم جيش ولا مجلس قيادة ولا البغدادي وجمال وصلاح سالم! ما تقولونه الآن عن وعي أو عن جهل معناه الدكتاتورية، معناه طريق الدم، وأنا أفضل ألف مرة إعادة البرلمان الحزبي القديم وتسليم مقاليد البلاد للأحزاب المستغلة عن إننا نلجأ إلى أسلوب الدكتاتورية! هل مصر منكوبة لهذه الدرجة تخرج من دكتاتورية الملك والأحزاب إلى دكتاتورية الجيش؟
عاد السادات وأراد أن يهدئ غضب عبد الناصر :
ـ طيب، واضح أن هناك اتجاهين في الاجتماع، اتجاهًا يريد الديمقراطية، وآخر يرى أن الطريق الصحيح الذي يجب أن نلتزم به في قيادة البلد باعتبارنا مجلس القيادة هو الدكتاتورية .
أطلق عبد الناصر رصاص غضبه أخيرًا في أضعف صدر يتلقى هذا الرصاص، فشخط في السادات :
ـ إنت قاعد تلخص كلام الأعضاء، وتتكلم كلام بلا معنى، وتتصرف كأنك رئيس مجلس القيادة! فيه إيه يا أنور؟
انسحب أنور السادات بسرعة من التبة التي وقف عليها، وقد أدرك أنه كبش غضب عبد الناصر من بينهم جميعًا، فما كان ممكنًا أن يفعلها في حبيبه حكيم، ولا في آل سالم، وإلا كانوا ردوا العنف بالعنف، ولا يريد أن يستفز البغدادي ولا يعير حسن إبراهيم اهتمامًا، فصب مدفعيته عليه .
ـ أنا آسف جدًّا يا جمال، أعتذر بشدة! كنت أحاول أن أجد طريقًا وسطًا، وأنا لا رئيس مجلس ولا رئيس حاجة وولا حاجة !
كان انسحاب السادات قد أثر فيهم جميعًا. من أشفق عليه ومن استفزه عبد الناصر، واعتبر جمال وصلاح سالم أن هناك من انتزع منهما احتكارهما لحق أذى مشاعر الآخرين. كان الصمت طويلًا ينتظر أحدًا ليقطعه، ولم يكن أحد يمكنه أن يجازف بالحديث في تلك اللحظة إلا عبد الحكيم عامر، فمحمد نجيب الذي وضعوه قائدًا بدا شرفيًّا جدًّا في حضوره، وهانئًا جدًّا بأنه ليس معهم في هذا الفصل المشاغب :
ـ ديمقراطية يا جيمي، لكن قل لنا فقط خطواتها .
رد عبد الناصر سريعًا وهادئًا جدًّا، بينما حكيم يشعل له سيجارة ويقدمها له حتى فمه :
ـ انتخابات وبرلمان جديد يحكم ويطبق السياسة التي يريدها الشعب .
عقب صلاح سالم ساخرًا :
ـ عاش الوفد ولو فيها رفد !
تجاهله عبد الناصر، وعاد لينظر إلى السادات كأنما يعتذر له بتوجيه كلماته نحوه :
ـ هناك الإخوان ولن يسكتوا، والشيوعيون سيحاولون استغلال ما حصل، وحتى مصر الفتاة والحزب الوطني على ضعفهما سيبحثان عن مكان للتسلق والقفز من فوقه، ولا تزال أسرة محمد علي بيننا، والإنجليز في القناة... ثم لا تنسوا أرجوكم أننا أقل من تسعين ضابطًا فقط، قمنا بالانقلاب من بين أربعة آلاف ضابط! هل تظنون أننا وحدنا في البلد؟
رد صلاح سالم :

ـ خلاص، نبقى وحدنا في البلد !
ضاق عبد الناصربالتعليق وبمناكفتهم وعصيانهم الذي يوالي لكماته في فكيه، فقام وقال :
ـ إنت عايز دم يا صلاح !
الذي أجاب هو البغدادي :
ـ لن يكون هناك دم !
سيرة الدم لم تترك جمال سالم صامتًا، فقال قاطعًا :
ـ وما المشكلة إنه يكون فيها دم؟ !
ثم قرر أن يحكي عن تاريخ أمريكا، فقال :
ـ أمريكا أصبحت أعظم بلد في الدنيا ...
حسن إبراهيم قاطعه مصححًا :
ـ إنجلترا .
رد جمال سالم بضربة من عصاه على سطح المكتب :
ـ أمريكا، أعظم بلد في الدنيا بعد ما غرقت في الدم، حرب أهلية جعلتها البلد الأعظم .
أمريكا دعت عبد الحكيم لأن يسأل :
ـ أين خالد محيي الدين كان قالك الاتحاد السوفيتي هو الأعظم؟
علَّق صلاح سالم :
ـ آه الصاغ الأحمر راح فين؟
أخبرهم كمال الدين حسين أن خالد ظل في الإسكندرية بعد مغادرة الملك، لأنه مرتبط بأن يتسلم شقة أجرها للمصيف لمدة أسبوع، وكان دفع مقدمها ولا يريد حرمان عائلته من التصييف، فقاعد معهم يومين وراجع .
وجد جمال سالم نفسه منطلقًا في الضحك :
ـ سايب مجلس القيادة ومصير مصر كي يستلم شقة المصيف !
افتقد عبد الناصر خالد محيي الدين في هذه اللحظة، فقد كان ليوافقه على رأيه في التزام الديمقراطية، فالشيوعيون لا يتوقفون عن ترديد كلمتين طول الوقت: السلام، والديمقراطية. كان عبد الناصر يراهما غطاءين لأشياء أخرى، لكنه كان معجبًا بشكل الغطاءين (لاح وجه موريس أمام عبد الناصر الآن، وهو يقف على رصيف مطبعة الشيوعيين يسلمه منشورات الضباط الأحرار). عاد عبد الناصر من شروده إلىما يقوله عبد اللطيف البغدادي :
ـ نعمل تصويت، المسألة واضحة الآن جدًّا، نطرحها للتصويت .
تساءل السادات: لماذا لم يشخط عبد الناصر في البغدادي كما شخط في وجهي؟ لكنه احتفظ بتساؤله تحت فلتر السيجارة، بينما بدأ البغدادي فعلًا في طلب صوت كل واحد منهم بعدما رفع هو يده قائلًا :
ـ أنا أصوت للدكتاتورية .
بسرعة صاح جمال سالم :
ـ صوتي للدكتاتورية .
انتظر عبد الناصر من عبد الحكيم صوته متصورًا أنه سيصوت لصداقته ولمحالفته أيًّا كان رأيه، لكن صوت عبد الحكيم وإشارة يده المرفوعة قصمت صبره، قال عبد الحكيم :

ـ الدكتاتورية .
فخم السادات حروفها قائلًا :
ـ الدكتاتورية .
صلاح سالم قالها بجسده ووجهه، وللغرابة خلع نظارته الغامقة كأنه يريد أن يصوت بعينيه :
ـ صوتي للدكتاتورية .
حسن إبراهيم كان رافعًا يده من اللحظة الأولى، فلما رحموا تعبه تركوه ليقولها :
ـ الدكتاتورية .
تنهد كمال الدين حسين ومسح ذقنه بأصابعه (كان قد ذهب للوضوء لصلاة العشاء وعاد مبللًا بقطرات الماء):
ـ الدكتاتورية .
لم يبقَ إلا نجيب الذي التفت إليه عبد الناصر، فأومأ نجيب مبتسمًا وسط الدخان :
ـ الدكتاتورية .
هنا وقف عبد الناصر ملتهب الأعصاب وهو يردد كأنه يهتف :
ـ صوتي للديمقراطية، ولهذا فلن أقدر على أن أكمل المشوار معكم، أنا مستقيل !
بهتوا جميعًا، ثم سرعان ما قال عبد الحكيم :
ـ خلاص يا جيمي، نصوت مرة ثانية، لكن لنكن محددين جدًّا في التصويت حتى تكون الصورة واضحة .
استفسر صلاح سالم :
ـ بمعنى؟
فصَّل البغدادي :
ـ أنا فهمت حكيم، نصوت على استمرار الأحزاب القائمة كما هي، أم إلغائها، ويقود مجلس القيادة البلد لفترة زمنية محددة .
قال عبد الناصر :
ـ وما الجديد؟ إنه نفس التصويت: ديمقراطية أم دكتاتورية؟
قال نجيب :
ـ لكنها دكتاتورية مؤقتة !
الغريب أنهم صوتوا ثانية بالفعل، والأغرب أن عبد الحكيم ظل على صوته، لم يؤنس وحدة صوت صديقه .
رزع جمال عبد الناصر ببطن كفه خشب المكتب فتناثر رماد السجائر في المنفضة المستديرة، وسقطت أعقاب متحرقة على سطح المكتب، بينما ارتعشت للحظة السيجارة المعلقة بين إصبعيه، وقام نافرًا غضوبًا حانقًا، وقد احمرت كل المساحات الظاهرة من جسده: عيناه مع ملامح وجهه، عنقه، كفاه. اندفع نحو الباب وهو يقول بصوت زهوق حاد متدافع الألفاظ :
ـ لن ينفع هذا الكلام !
كان عبد الحكيم عامر أول (لا ثاني له) من ركض قافزًا من مقعده ناحية جمال عبد الناصر، وهرع منتهزًا فرصة تباطؤ خطوات عبد الناصرللخروج التي لا تتناسب مع سرعة إعلان تهديده

وتسرع قراره، وأطبق بكتفه على الباب الذي انفرج جزء منه، وأغلقه تمامًا، حتى إن ارتطام اللسان المعدني بإطار الباب الخشبي بدا كصوت شظية رصاصة :

ـ ارجع واقعد يا جيمي !

تسمر محمد نجيب المبهوت المتنازع بين شعورين: القلق مما يريده عبد الناصر، والفزع من غضبة عبد الناصر. أما جمال سالم فكان مستغربًا يكتم غليانه بقبضته على عصاه . ومسح صلاح سالم عرقًا يتجول فوق صلعته، ونظر إلى السادات الذي انكمش خجلان منذ صاح فيه جمال عبد الناصر، ويبدو أنه عاد إلى كهف يأوي إليه حين العاصفة. واحتار كمال الدين حسين فيما يفعل، لكنه كان مستقرًا عند شعوره بأن غموض ما يفعله عبد الناصر أعقد من أن يفهمه. وكان حسن إبراهيم يحلق في صمته الذي لا ينشغل أحد إطلاقًا بمتى يكف عن الطيران ويهبط به إلى الأرض. الوحيد الذي أوشك أن ينطق شاكيًا ومشككًا هو عبد اللطيف البغدادي، خاصة أنه من تزعم مناكفة ناصر، ويبدو أنه قام بدور الديك المنافس على نحو جيد. الغريب أن عبد الحكيم فشل في إقناع عبد الناصر بالبقاء أو المكوث لحظة لاستئناف الاجتماع، فقد نفض عبد الناصر يديه من كفي عبد الحكيم المربتتين، وتراجع عن الباب إلى المكتب فجمع عدة أوراق كانت أمامه يخط فيها ويشخبط، ثم سحب قلمه الحبر معها ووضعه في جيبه، وعاد إلى الباب الذي ظل حكيم يمنع بجسده عبد الناصر من الوصول إليه، بينما احتفظ عبد الناصر بذات النبرة الحادة :

ـ خلاص يا زملاء! أنا استقلت من مجلس القيادة، ولا دخل لي بكم، تفعلون ما تريدون، أنا بكباشي في الجيش المصري عملت واجبي وطردنا الملك ومروح بيتي !

كانوا يتجرعون على مهل ماء النار الذي أسقتهم إياه كلمات عبد الناصر حين رمقبعينيه في حكيم، فتلقى حكيم الرمقةأمرًا، فتحرك عن الباب الذي فتحه عبد الناصر وخرج من الغرفة مصفقًا درفته العالية الثقيلة وراءه، فصكت مسامعهم صممًا .

أربع وعشرون ساعة فقط من صفير يخت «المحروسة» راحلًا بالملك فاروق مطرودًا من هؤلاء التسعة عن عرش البلاد، لم يكن حتى فاروق قد وصل ساعتها إلى أي رصيف ميناء، بينما عصفت ريح عاتية بمن طردوه! كان محمد نجيب أكثرهم بللًا وبلبلة، ممتقع البشرة، وزائغ العينين اللتين عادتا وتركزتا على عبد الحكيم عامر، فهو الأحب إليه، وعلى صلاح سالم، فهو مدير مكتبه في الجيش حينًا من الوقت، لعلهما يقولان له إن ما فعله عبد الناصر لا يدعو للهلع. هو يدعو للقلق طبعًا، لكن لا يثير فزعًا، لكن البغدادي هو من قرر أن يسأل حكيم :

ـ ما العمل مع صاحبك يا حكيم؟

ابتسم حكيم، فهو لا يفقد ابتسامته، ولا يفرط في انبساطه ببساطة، كما بدا أنه الوحيد الذي يدرك سر غضبة

عبد الناصر التي بدت عارمة وغريبة، خصوصًا أنها غضبة من أجل الديمقراطية ! لم يكن أحدهم قد سمع عبد الناصر يتحدث بها وعنها كثيرًا في سنوات اجتماعاتهم ولا جلسات تنظيمهم، فلماذا بدت كأنها ابنة عمته النهارده؟! كان حكيم يتلقى نظراتهم المتسائلة دون أن تسمح أنفسهم لألسنتهم بنطق هذه الأسئلة: منذ متى كان عبد الناصر مؤمنًا هكذا بالديمقراطية؟ أليس هو الذي كان منذ أسابيع يقف على باب بيت حسين عامر يطلق عليه الرصاص ليقتله؟! (بالمناسبة يا حكيم، لم يتم القبض على حسين عامر حتى الآن، وتخلو حجرات الكلية الحربية التي تحولت إلى زنازين مدقوقة شبابيكها من الداخل والخارج بالمسامير، طول المسمار عشرة سنتيمترات، من السجين

اللواء حسين عامر). أليس عبد الناصر يا حكيم من كان عضوًا معنا في جماعة الإخوان؟ ومتى كانت هذه الجماعة ديمقراطية؟ ثم متى كان عبد الناصر وفديًّا نحاسيًّا وهو الذي شاركنا مرات أربع بالتخطيط، أو علم ورضي، أو علم ولم يبلغ، في محاولات اغتيال النحاس شخصيًّا؟ (هذه المرة كانت عينا السادات هي من تسأل وتضيف سؤالًا حول الثلاثين رجلًا الذين كنا سنقتلهم في نسختنا المصرية من ليلة السكاكين الطويلة).
أجاب حكيم بكلماته على أسئلة نظراتهم، وقال :
ـ نحن مجتمعون منذ عشر ساعات، وكلنا عصبيون للغاية، في الصبح سأذهب إلى جيمي في بيته وأهدِّيه، وكل حاجة ستعود كما كانت .
قام جمال سالم، فزاد طوله من أهمية وقوفه وسؤاله :
ـ على أي أساس؟
ـ لا أفهم !
نظر جمال سالم إلى أخيه صلاح، ثم إلى البغدادي، ثم ثبت عينيه عند نجيب الذي صار ريش الطاووس المنفوش على ظهره منتوفًا :
ـ على أساس أننا سنوافق على أن نحكم البلد بالديمقراطية كما يريد، أم أننا سنحكمها بالدكتاتورية كما قررت أغلبيتنا؟ أليست هذه هي الديمقراطية يا حكيم؟
لم يلتقط غرابة تطبيق الدكتاتورية عن طريق قرار ديمقراطي باحترام الأغلبية إلا السادات، الذي ضحك ثم كتم ضحكته خشية غضبة جمال سالم عليه، وهو لن يحتمل غضبتين من جمالين في اجتماع واحد !
في صباح اليوم التالي كان عبد الحكيم ينظر إلى السور وهم يهدمونه، فابتسم. همس إلى جمال سالم وهو يغذ السير نحو باب العمارة :
ـ جيمي سيكون شخصًا آخر غير ما كانه ليلًا .
كان نهار الصبح مشمسًا وحارًّا ورطبًا، فلم يرد جمال سالم على حكيم، مكتفيًا بتبرمه بالبرطمة وإشاحة يده بالعصا، فهو الوحيد الذي لم يعد إلى منزله منذ جاء من العريش، فلا زوجة ولا ولد، ولم يحتمل دلع عبد الناصر بالغياب فعلًا عن الحضور لمجلس القيادة (اسمنا الجديد أجمل من اسمنا القديم: الهيئة التأسيسية)، أيريد أن يبدو جادًّا في استقالته بالأمس؟ أرجل ننتخبه للقيادة صبيحة رحيل الملك مجددين الثقة فيه، ثم يعملها فينا ويستقيل بعدها بساعات لأننا لم نستجب لرغبة سيادته في الديمقراطية؟! ها هو يأتي مع حكيم لزيارة حضرته في البيت، لنأخذ بخاطره، ونعيده لقيادة الحركة التي اتقمص زعيمها وقعد في شقته كأنه يعاقب أصحابه بأنه لن يذهب معهم إلى السينما لأنه زعلان منهم! لكن الابتسامة لم تغادر وجه حكيم منذ رأى العمال يهدمون السور الذي يسد الشارع الذي يسكن فيه عبد الناصر، فيفتحونه للمرور من الجانبين بإشراف وحماس ضابط شاب يجمع معه عددًا من الجنود. لوح للضابطين الكبيرين بتعظيم السلام، وأنبأهما أنه هنا بتكليف من أحمد أنور مدير البوليس الحربي. ثم وجد عبد الحكيم عسكري حراسة يقف على باب العمارة ينتفض بالتحية، ثم يصعد معهما إلى الطابق الثاني حيث شقة عبد الناصر، فوجدوا عسكري حراسة آخر أمام بابها يكاد يلتصق بظهره في شراعة باب الضيوف الذي يقود إلى غرفة منفصلة عن باب الشقة الرئيسي. ضحك حكيم، ومحا ما جرى بالأمس من ذاكرته حين فتح عبد الناصر لهما الباب وأخفى ابتسامة منتصرة تحت شفتيه . فها هو صديقه يزوره لما استوحش غيابه

عدة ساعات عن الحضور، وكأن استقالته كانت جَدًّا وليست مجرد فورة غضب ذابت رغوتها بسرعة. جلس عبد الناصر الآن بينهما أهدأ حالًا، وأحلق ذقنًا، وأصفى بشرة، وأبهج عينًا، وأكثر تشوقًا، ينتظر كيف سيصالحه عبد الحكيم بشأن ما جرى بالأمس .

كان سليمان حافظ يدور في الغرفة مثل ملاكم في حلبة يطلق لكماته في الهواء مستعدًّا أو مهددًا لخصم متخيل (إلا إذا كان الهواء نفسه هو خصمه، وإن رجح عبد الرزاق السنهوري دون أن يخالجه شك أن سليمان يتخيل مصطفى النحاس أو فؤاد سراج الدين أمامه الآن في الحلبة وهو يكيل لهمالكماته). جسد سليمان حافظ يتحرك داخل بدلته الكاملة مستثارًا ومتأهبًا لدخول الفريق نجيب يصحبه ضباطه كي يُسمعهويشنف أذني الفريق وصحبه بتلك القريحة القانونية الألمعية، وهي تجلجل بحنجرة تلعلع بحجج وأدلة تجعل من أوراق الدستور أوراق نشافات للحبر .
يحتفظ السنهوري بهدوء القناصين في جلسته التي يملأ بها المقعد، بقامته الطويلة وبدانته الوقورة، ووجهه الممتلئ تحت الطربوش. لا تجري أفكاره ومشاعره مثل سليمان حافظ على ملامح وجهه، بل مخبوءة تحت خبرة خبزتها سنوات في أوروبا تتدرب فيها العقول تحت الثلوج، وسنوات أخريفي مناصب وزارية ورسمية، علمته أن الصمت مثل الصدق منجٍ، وأن تكتفي حين لا تكون مالك المركب بأن تكون صاحب المجداف. لكن حافظ الآن يريد أن ينادي نجيب وضباطه بعلو الصوت أن يحضروا حالًا بالًا، فهو لا يطيق صبرًا على أن يفجر قنبلته تحت مقعد حزب الوفد، ويخشى عليها أن تنفجر في رأسه. لكن نجيب كان مشغولًا حين وصلا في وقفته على عتبة السلالم المؤدية إلى مكتبه في مبنى قيادة الجيش (حيث أرسلهما علي ماهر وهو متقلب على جمر الشوق وكوم الشوك، لعرض وشرح طريقة تصنيع القنبلة ضد الوفد).
كان مندوبو الصحفقد تزاحموا في طريق الفريق محمد نجيب، وحاوطوه بدفاترهم الممدودة وأقلامهم المشرعة، وتكالبوا على الرجل، حتى إن ياوره إسماعيل فريد استخدم يديه وذراعيه وضباطًا جرى استدعاؤهم بإشارة منه لإبعاد مندوبي الصحف، وحشر أجسادهم بين الفريق نجيب وبينهم، لكنه فوجئ بنجيب نفسه يتجاوز ضباطه ويتداخل وسط مندوبي الصحف، ويسلم عليهم، بل يسمح لبعضهم من فرط حماسهم أو تزلفهم أن يحتضنوه ويقبلوه. كان يبتسم لوجه محررة شابة ترفعت عن التزاحم، ووقفت تمد يدها من خلف زملائها بقلمها بين إصبعيها تنادي :
ـ يا معالي الباشا .
رفع نجيب صوته فصمتوا، وغرسواأسنان أقلامهم الحبر (بعضهم يستخدم أقلام الكوبيا) في أوراقهم :
ـ أرجو ألا يناديني أحد إلا باسم محمد نجيب مجردًا من أي لقب !
كانت دموعه تطفر لامعة بين حدقتيه لحظتها، رغم اتساع ابتسامته للمحررة ذات الوجه الصبوح، التي لم تكتب شيئًا مما قال، فقد ارتبكت من نظرته المثبتة عندها، لكن محررًا آخر علا صوته بسؤال :
ـ سيادة الفريق نجيب ...
قاطعه نجيب وهو مغمور بتواضع أخجله فعلًا :
ـ لعلك ستسمع بياني الآن أعلن فيه تنازلي عن رتبة الفريق قانعًا برتبة اللواء مراعاة لحالة البلاد المالية !
تلقى نجيب الإعجاب تأوهات وتعليقات ودمعات تأثر وأسى .

بينما كان جمال عبد الناصر يعود لحظتها بصحبة عبد الحكيم وجمال سالم إلى مبنى القيادة، وقف عبد الناصر لوهلة لمح فيها تجمع مندوبي الصحفحول نجيب، ثم عاود صعود درجات السلالم أسرع وأقرب إلى القفز، ولحقه حكيم، بينما سرقت الجملة الأخيرة أذني جمال سالم، فضرب بعصاه ساقه غيظًا، فأي تكلفة مالية تلك التي تتحملها البلاد من فارق رتبة اللواء عن الفريق؟! أمصر ستنهض ماليًّا بتوفير أقل من ثلاثين جنيهًا في الشهر؟! لكنه فكر أن يسأل بمجرد وصوله إلى المكتب عن رواتب اللواء والفريق. مسكينة الست عائشة زوجة نجيب، لعلها كانت تمني نفسها ببوتاجاز في منزل القائد العام بديلًا عن باجور قائد الثورة! أدرك سالم اختفاء ناصر وحكيم عن ناظريه، فألقى باللوم على نجيب، فقد قرر منذ وصل من سيناء العريش أن نجيب يستحق اللوم على أي وكل شيء، لعله لم يستسغ صدارته، وربما لم ينسَ أنه لم يضمه إلى قائمة الضباط المرشحين في نادي الضباط. لا يعرف السبب، والأغرب أنه لا يريد أن يعرف السبب، فأعصابه لن تحتمل ألا تنفجر نقمة في وجه أحد خلال الاجتماعات والمناقشات، ولا وجه مناسبًا للانفجار إلا نجيب. هل تستفزه طيبته أم سذاجته أم غروره؟ طرح عن نفسه الأسئلة وهو يرى جمال عبد الناصر يستقبل ضابطًا صغيرًا قصيرًا في غرفة داخلية ويغلق الباب عليهما، دون أن يتمكن جمال سالم من معرفة هوية هذا الضابط، فلما قرر أن يقتحم الغرفة عليهما كان حكيم يجذبه من ذراعه ويخبره أن السنهوري وسليمان حافظ ينتظران في غرفة المؤتمرات .

تململ إسماعيل فريد من تلك الوقفة التي استعذبها نجيب، فأطال فيها مع مندوبي الصحفالذين واصلوا الأسئلة وهو يجيبهم، كأنه يلقي بيانات في إجاباته :

ـ إن أهم شيء في الوقت الحاضر هو تنظيم شؤون البلاد الداخلية، فإن سبب قيام الحركة هو أننا سئمنا استمرار الحياة بغير دستور أو بدستور يتدخل فيه المتطفلون، مما سبب الفساد في كل مرافق البلاد، وقد عظم الأمر إذ امتد الفساد إلى الجيش نفسه، ودخلت فيه المحسوبية، فكان لا بد من رفع السلاح ما دام للجيش رجاله !

كان إسماعيل فريد ساعتها يخشى أن يكون اللواء (وقد تنازل عن رتبة الفريق) نجيب، وهو يندد بالحياة من غير دستور أو بدون احترام الدستور (أيهما أقرب)، قد نسي حضور السنهوري وسليمان حافظ اللذين ألح علي ماهر على لقائهما والاجتماع العاجل بهما في مكالمته مع نجيب، وقد سمعها فريد كاملة، فقد طلب منه عبد الناصر أن يسمع مكالمات نجيب ويبلغه بتفاصيلها. لم يستغرب فريد الطلب، فهو أمر من رتبة أعلى طبعًا، ومن رئيس مباشر، أليس جمال عبد الناصر قد صار منذ الأمس مدير مكتب القائد العام؟

ـ ما فهمته أن الرجلين قادمان للتدخل في الدستور .

ـ ما فهمته، أم ما سمعته؟

ـ ما فهمت مما سمعته .

حين رآهما فريد بملابسهما الأنيقة أحسهما «لوريل» و«هاردي»، لكن في فيلم درامي . استأذنهما في الانتظار في غرفة المؤتمرات حتى يفرغ اللواء نجيب من اجتماعات عاجلة مجاملة لن تستغرق وقتًا .

حين هم نجيب بالانسلات من بين مندوبي الصحفوهو يبتسم ويصافح ويحنو ويربت، انطلق الصوت النسائي الوحيد يسأل، فالتفت إليها نجيب والتفتت رؤوس زملائها :

ـ هل كان تنازل الملك فاروق من ضمن خطط الجيش؟

كان صوتها يداري أنوثته البائنة في ذكورية الإلقاء. ابتسم لها نجيب حانيًا، ثم حوَّل الحنو إلى حسم قائد أمام جنوده :
ـ إن طلبات الجيش بدأت أولًا بجس النبض، ثم تأكد لنا أن التخلص من الثعبان لا يكفي فيه قطع ذيله فقط !
انشرح مندوبو الصحف بحديقة الحيوان التي فتحهااللواء نجيب، فهذه المرة الأولى التي يفتح فيها نيرانه على جلالة الملك، الذي ظل «جلالة الملك» في كل بيانات نجيب السابقة عن هذه اللحظة التي أخرج فيها ثعبانه ! كان نجيب راضيًا عن إجابته وعن ذلك الوجه النسائي الشاب الذي تلقى الإجابة بابتسامة إعجاب وامتنان (اختلط فيه الامتنان الشخصي بالوطني). غادرهم نجيب ونظرات إسماعيل فريد تحفظ وجوه هؤلاء المحررين حتى لا ينساهم بعدها، ولم يبذل جهدًا في تفحص المحررة الوحيدة، فهو لن ينساها، فهي المؤنت الوحيد في جمع المذكر السالم المحتشد. همس لأحد المحررين الذي تلقى السؤال شاعرًا بالاهتمام :
ـ ما اسم زميلتكم؟
ـ حكمت عبد الجواد .
ـ في أي جريدة؟
ـ «الجمهور المصري ».
أومأ إسماعيل فريد وهو يلهث خلف نجيب فيسبقه وهو يتمتم :
ـ آه، إنها جريدة أبو الخير نجيب .
*
أمسك جمال سالم بيد عبد اللطيف البغدادي، وصحبهما كمال الدين حسين، ولم ينتبهوا لحسن إبراهيم رغم أنه قد سبقهم جميعًا، ودخلوا على جمال عبد الناصر، وكان ينصرف من غرفته الضابط الصغير القصير الذي حياهم بتحية عسكرية متحمسة ومخلصة، شب فيها على حواف قدميه واستند على مشطي قدميه حتى يطيل قامته، ولمحوا اهتزاز كفه مفرودة الأصابع عند حافة كابه العسكري تأثرًا يشبه الارتعاش. لم يعره معظمهم اهتمامًا، لكن كمال الدين حسين حياه سريعًا، فتحول الضابط إلى انحناء مبالغ في تهذيبه وانصرف .
كان البغدادي قد أدرك أن إيمان عبد الناصر بالديمقراطية ليس عميقًا إلى درجة أنه يقدرعلى الغياب عن مجلس القيادة حتى الثانية عشرة ظهرًا. من كان يراه بالأمس وهو شاخط ساخط فيهم وعليهم لأنهم اختاروا طريق الدكتاتورية، لا يراه اليوم وهو نشط متقد ! لعله كان في حاجة إلى حمَّام بارد، واسترخاء على سرير غرفة نومه بجوار زوجته، حتى يطمئن إلى أهمية الدكتاتورية، فلم يقاوم كثيرًا حكيم وجمال سالم حين زاراه في البيت ووصلوا إلى حل وسط. هم سموه كذلك، لكن البغدادي يظنه تراجعًا واضحًا بائنًا متلبسًا من عبد الناصر، لكن حبهم واحترامهم له يجعلانهم يسمونه حلًّا وسطًا. كان حلهم هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها قبل إجراء انتخابات للبرلمان. لقد استخدموا نفس التعبير الذي أطلقه منذ شهور نجيب الهلالي بعدما حل البرلمان بغالبيته الوفدية، حيث دعا إلى تطهير مصر من الفساد الذي لم يكن يعني منه سوى تطيير رأس زعيم الأمة مصطفى النحاس وحزبه. ها هو التطهير يعود على ألسنة الضباط مطالبين به الأحزاب، ونسوا أنهم من سخروا منه في قشلاقاتهم، وقالوا إن الهلالي عايز يطاهر الأحزاب لا أن يطهرها، وسمح الضباط ذوو الألسنة البذيئة منهم في تصوير الأجهزة التناسلية حين طهارتها وختانها .

انتفض عبد اللطيف البغدادي غضبًا في جمال عبد الناصر، منتهزًا فرصة عودته المهرولة من استقالته :

ـ أنت أفرجت عن مصطفى وعلي أمين يا جمال من غير ما نتناقش؟ !

كان السادات قد وصل وكرر رأيه بمجرد سماع البغدادي :

ـ كان المفروض نعدمهما، لا أن نفرج عنهما !

ثم عاد وسحب لهجته اللائمة إلى جوفه، وعاد بلهجة أضعف وأعطف :

ـ لكن أكيد لديك رؤية لهذا القرار يا جمال .

ابتسم عبد الناصر وهو يقدر شماتتهم في تمسكه الرخو باستقالته. صحيح أنه يضغط على ضروسه، لكن ليس لدرجة أن يزور لأجلها طبيب الأسنان. يعرف إخلاصهم وشجاعتهم، فقد وضعوا رؤوسهم بين يديه وهم يصنعون تنظيمًا داخل الجيش، وحين أطاعوه وخرجوا لانقلاب كان يمكن ألا يعود أيهم إلى منزله بعدها أبدًا، لكنهم غفل من السياسة، كل التنظيمات التي دخلوها وهو معهم راحوها غضبًا واحتجاجًا، لكنهم لم يتعلموا منها شيئًا في السياسة. عندما زعقوا فيه وتمردوا عليه طالبين الدكتاتورية، لم يحسبوا حساب الإخوان بشُعبهم الأخطبوطية وبتنظيمهم الخاص في الجماعة وفي الجيش، ولا الشيوعيين، ولا الوفد بجماهيره الهائلة، ولا الصحف التي لا يملك أي ضابط من هؤلاء صديقًا واحدًا فيها (أنا وحدي من أعرف كبارهم)، فكيف نقول للناس دكتاتورية؟! إذا أردناها دكتاتورية فاتركوني أتصرف يا زملاء. كانت الأفكار التي تفلق رأسه حين تركهم مغاضبًا مستقيلًا تذهب به إلى أنه لو تركهم واستقال فعلًا لأغرقوا البلد، هو قائدهم، واختارهم على عينه، وأدرى الناس بحدود ما يصل إليه دماغ كل واحد فيهم، بل هناك بينهممن لا يعرفهم فعلًا وقد انضموا حديثًا أو قبيل ليلة من الانقلاب أو حتى ليلته، فكيف يأمن هؤلاء على بلد في لحظة عصيبة؟ هؤلاء جميعًا بمن فيهم أنا لم نكن نسعى إلا إلى تغيير حيدر وحسين عامر حين خرجنا في ليلة الانقلاب وبدأت الدنيا تتغير في صبحه، وحين طردنا الملك كنا جميعًا نجهل ماذا نفعل في اليوم التالي! بل إن خالد محيي الدين مثلًا راح يؤجر شقة المصيف، ليس في خطة الانقلاب التي كتبها بخط يده صفحة إضافية عما بعد نجاح الانقلاب. تهاويم وثرثرة وفضفضة وتخاريف كانوا يقولونها في مسامرات القشلاقات الليلية، أضحت الآن بالنسبة إليهم بعدما صاروا مجلس القيادة فلسفة في الحكم. عمومًا، عليه أن يحتمل هذه الخيابة أطول مدى ممكن حتى يعبر بهذا البلد جسرًا ولا يتركه في منتصف الطريق. ما علاقة هذا كله بالإفراج عن مصطفى وعلي أمين؟ أنتم تكرهونهما للغاية وتعتبرونهما صوتًا وبوقًا للملك فاروق وللأمريكان؟ حسنًا، ولماذا نغضب الأمريكان إذن؟ هم بجريدتهما أصدقاء «كافري» السفير الأمريكي، فلماذا نخسر سلك التلفون الموصول بين مكاتب الأخوين ومكاتب السفارة؟ ثم لماذا لا تصبح «أخبار اليوم» صوتنا وسوطنا، وقد رأى الأخوان أمين العين الحمراء، وتحولا بين ليلة وضحاها من بيوت العز والترف إلى زنازين مغلقة على مستقبلهما؟ إذا كان مصطفى أمين بندقية للإيجار، فلماذا لا أؤجرها لنا؟ «المصري» وأبو الفتح رهن أصابع النحاس وسراج الدين، وهم في ذلك أصحاب مصلحة وعقيدة (رغم أنهم أصحابي، لكنهم يشترون مني ولا يبيعون لي). «الأهرام» تركب مع من يسوق السيارة أيًّا كان! لم يستمر مع نفسه في عرض القائمة كاملة من إحسان إلى أبو الخير نجيب، فليس وقته، المهم أنه قال للبغدادي وقد خصه بالرد :

ـ هما بريئان فعلًا، فقد تحققنا من سنترال رمسيس، ولم يحدث أن اتصل مصطفى وعلي أمين بلندن خلال هذا الشهر إطلاقًا، ثم إن الإنجليز أنفسهم أبلغونا نحن أنهم لن يتدخلوا، ولم يتدخلوا فعلًا، فما مصلحتنا أن نسجن إذن ناسًا بريئة؟
تكلم حسن إبراهيم فالتفتوا إليه جميعًا :
ـ إنهما أسوأ من فاروق، وأسوأ من الإنجليز !
أكمل عبد الناصر حواره دون أن يعلق على كلام حسن إبراهيم :
ـ قررنا نطلع بيان من كم سطر نبرئ فيه مصطفى وعلي، أولًا لأنهما بريئان فعلًا ...
قبل أن يعود أحد ويطعن في براءتهما أضاف ناصر :
ـ بريئان على الأقل من التهمة التي حبسناهما من أجلها، وأملي نجيب بيانًا من عدة سطور، الحقيقة من كتبه هو صلاح سالم، كي نذيعه الآن في الإذاعة وننشره في الصحف لإعادة اعتبارهما. ثم ثانيًا لإظهار حسن نيتنا تجاه الصحفيين عمومًا .
تذمروا، وتشابكت كلماتهم الغضوب في حروف بعضها، لكنهم أبدوا استسلامًا غير مشغولين بالمناكفة مع عبد الناصر في موضوع هامشي فما صدقوا أن رجع عن قمصته . دخل عليهم حكيم وصلاح سالم يطلبان منهم الإسراع للاجتماع بالسنهوري وسليمان حافظ فقد سبقهم نجيب للقائهما
.
بدأوا في الخروج من الغرفة، وقد ثبت كمال الدين حسين نظرته عند اللوحة النحاسية الملتصقة بقطعة منقوشة من الخشب الملمع الموضوعة على حافة المكتب، مكتوب عليها بخط كوفي: «مدير مكتب القائد العام»، ثم رفع نظراته عنها، وأمسك بذراع جمال عبد الناصر وهو يخرج كآخر الخارجين من الغرفة، وسأله :
ـ هل كنت تريد شيئًا من اليوزباشي سامي شرف؟
لم يرد عبد الناصر سريعًا، لكنه أدرك أن كمال قائد لسامي في سلاح المدفعية. واصل كمال :
ـ كان هنا لما دخلنا .
ضحك جمال عبد الناصر وربت على كتف كمال الدين حسين، وقد بات متأكدًا أن زملاءه يزعجونه جدًّا :
ـ لا تقلق، هو لم يعد في المدفعية معك، أنا نقلته للمخابرات الحربية، ورئيسه الآن زكريا محيي الدين .
كان سامي شرف قد خرج من غرفة مدير مكتب القائد العام مربوطًا بعيني البكباشي جمال عبد الناصر، كان يعرفه أستاذًا له في دورة الترقية، يقوم بتدريسه مادة التحركات والمخابرات، وكان اسم عبد الناصر معروفًا
للضباط الشبان، فقد مروا عليه طلابًا في كلية أركان الحرب، لكنه باغته منذ قليل :
ـ إزيك يا أستاذ، إنت حتشتغل في المخابرات ومش فيها، إيه رأيك؟
لم يعرف سامي شرف اليوزباشي المرقى حديثًا أن له رأيًا أصلًا، لقد كانت مهمته منذ صباح الحركة التالي هي البقاء في مصلحة التلفونات والتلغراف في شارع الملكة نازلي، لمراقبة البرقيات الصادرة والواردة من وإلى المراسلين الأجانب في مصر، فإذا باستدعاء عبد الناصر له، ثم ألقى عليه هذه المهمة .

ـ هناك كلام أن مصطفى أمين عامل أرشيف سري خاص به وحده خارج الإطار التنظيمي لجريدة «أخبار اليوم»، وهناك معلومات أنه يستخدم محررين بعينهم يتلقون منه مرتبات شخصية وخاصة وبلا فواتيرللحصول على أخبار ومعلومات، والقيام بمهام خاصة ليست للنشر عن موضوعات وباشوات ومسؤولين وآخرين، والمطلوب منك تأكيد أو نفي هذا الموضوع، وإذا كان صحيحًا فأين هو هذا الأرشيف؟ وماذا يحوي؟

رد سامي بحماس معصور بخلاصة عصير الإخلاص :

ـ ربنا يقدرني يا أفندم .

لاحظ سامي شرف تلك الخزانة الحديدية الثقيلة التي فتحها عبد الناصر وهو يودعه، وقد حمل من على مكتبه ملفات وأظرفًا كبيرة محشوة بالورق، وأكداسًا من أوراق تبدو رسمية ومختومة وملفوفة بأربطة من حبال الدوبارة، يرصها في الخزانة

كان عبد الناصر قد أغلق باب الخزانة حين دخل عليهما ضباط القيادة، وبينما تداخلت السلامات والكلمات وضع عبد الناصر المفتاح في جيبه، وقد قرر أنيقرأ أولًا الملفات والأوراق التي أحضرها له حسين حمودة من خزانة أحمد طلعتحكمدار القاهرة .أمره أن يرافقه من زنزانته في الكلية الحربية إلى مكتبه في حكمدارية أمن القاهرة، ليفتح بمفتاحه الخزانة، ويسلم كل ما فيها من وثائق ومستندات وملفات وأوراق إليه، ثم قبل أن يعود حسين حمودة بحكمدار القاهرة إلى زنزانته يعبر في الطريق على مبنى القيادة ويسلم عبد الناصر في يده كل هذه الملفات. لم يأتمن عبد الناصر إخوانية حسين حمودة على هذه الملفات، فهي تحوي أسرارًا لا يجب أن يعرفها الآن إلا عبد الناصر نفسه، عاملًا حسابه أنه سيعطي بعضها أو كثيرها حسبما يرى إلى زكريا محيي الدين في الدور الأرضي حيث مقر المخابرات الحربية، ولكن بعد أن يحصل على ملفات أرشيف مصطفى أمين أيضًا .

وصل عبد الناصر إلى غرفة القائد العام، فلما رآه نجيب تهللت عيناه، ثم ركن ظهره إلى مسند مقعده، وسحب نفسًا من دخان غليونه، ونظر إلى السنهوري وسليمان حافظ :

ـ ها هو البكباشي جمال عبد الناصر قد وصل، يمكن الآن أن نسمع .

ثم أشار إلى السنهوري كي يتكلم حين جلس عبد الناصر بجوار نجيب، لكن سليمان حافظ هو من بادر بالوقوف عن مقعده، كأنما يبدأ مرافعته، متأملًا وجوه مجلس القيادة المحتشدين بآذانهم لسماع سيمفونيته القانونية، بينما حدق هو فقط في نجيب كأنه القاضي الذي يخاطبه وحده. بدا سليمان حافظ وهو يستعد لقتل حزب الوفد كقاتل لا يشبع بقتل عدوه، بل لا يهدأ هانئًا إلا حين يمثل بجثة قتيله .

23

ـ من منكم يريد أن يعود الوفد بنحاسه وسراجه وباشواته وفاسديه للحكم غدًا؟
شعر صلاح سالم أن سليمان حافظ يسأل السؤال كمدرس يسأل تلاميذ فصل عمن لوث السبورة أو كسر النافذة، فاحمرت عيناه خلف عدستي نظارته، وهمَّ بالرد ردعًا. وأحس البغدادي أن حافظ يلقي السؤال كتهمة يرميها مدع عام في وجه متهمين، فقد لف على وجوههم جميعًا بنظراته، وحين وصل تجاه نجيب تغيرت لهجته وارتخت وتلونت بأداء استعطافي :
ـ لا يمكن لهذه الحركة المباركة التي خرجت من قلب الجيش أن تعود وتهدم ما بنته قبل أن يعلو البناء !
تمزج صلاح سالم بالكلام الآن، فهو يحب البلاغة، خصوصًا لو بالغت في المدح والقدح. لكن جمال عبد الناصر فهم فورًا حين رمى نظرته على وجه السنهوري الوقور والصامت أن ما وصله صحيح: علي ماهر رئيس الوزراء يتخيلهم عيالًا يمكن أن يحكم من ورائهم ويحركهم بحباله وحيله، وأن الوفد هو السد الذي يمنعه من التلاعب بنجيب وضباطه، فعليه أن يهده أولًا. حسنًا إنهم جميعًا يريدون أن يحكموا منفردين: علي ماهر يتخيل نفسه الشيخ المجرب والعتيد الصنديد، ونجيب يتوهم أنه الزعيم المنتظر، ومجموعة زملائه تواقحوا عليه بالأمس وعصوه طلبًا للسلطة المطلقة. إذن لنرَ أين ستذهب بهم السلطة المطلقة! ومن سيتسلطها يا رفاقي ! واصل متابعة وصلة سليمان حافظ وهو يطفح بالأحقاد ويوزعها على الجميع بالتساوي :
ـ يشفق المرء على مصر من أن تعود لها تلك الأحزاب الفاسدة وهذا الوفد بأساليبه البغيضة ومناوراته القديمة وغروره المنتفخ !
لم يطق جمال سالم البلاغة التي يحبها صلاح سالم، وقاطع حافظ حادًّا :
ـ ما الموضوع بالضبط يا سليمان بك؟
أرجفت حدة جمال سالم وجه سليمان حافظ للحظة، وجعلته يقرر العودة إلى روب المحاماة، ويقطع عليهم دخان سجائرهم وفناجين قهوتهم وأكواب الشاي التي يجزع لأصوات رشفاتهم المزعجة منها :
ـ المادة الحادية والخمسون من الدستور ...
عاد جمال سالم وقاطعه :
ـ أي دستور؟! أليس معطلًا؟ !
تبرموا جميعًا من سؤال جمال سالم الذي يبدو فاقدًا للتركيز أو للصبر .
علَّق عبد الحكيم عامر شارحًا القانون، رغم أنه كان طالبًا في كلية الزراعة قبل أن يلتحق بالكلية الحربية :
ـ البرلمان هو المعطل والمنحل وليس الدستور !
قام صلاح سالم يبحث عن نسخة من الدستور في غرفة مكتب القائد العام، لكن حافظ لوح بها في يده الآن، بينما قدم السنهوري النسخة التي أخرجها من ملف ورقي معبأ بالأوراق والمذكرات تحت ذراعه المستندة على سطح المكتب، وقدمها لجمال عبد الناصر، فقدمها ناصر إلى صلاح كي يجلس، وأشار إلى نجيب، فأشار نجيب لحافظ أن يكمل :

ـ المادة الحادية والخمسون في الدستور تنص على ألا يتولى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا أمام مجلسي النواب والشيوخ مجتمعين اليمين التي يؤديها الملك أمامهما قبل مباشرة سلطته الدستورية، وللملك حسب أحكام الأمر الملكي رقم 23 لسنة 1922 اختيار هؤلاء الأوصياء، على أن يقر المجلسان اختياره .

عاد جمال عبد الناصر إلى الأشهر الستة التي كان فيها طالبًا في كلية الحقوق (طبعًا لم يكن وصل في المنهج إلى دراسة الدستور)، وتعجب البغدادي من أن حافظ يتلو المادة من الدستور من ذاكرته حفظًا دون أن يعود إلى أوراق الدستور الذي يمسك غلافه بين أصابعه، ومارس السادات دوره في تلخيص ما يقوله الآخرون متجاوزًا غضبة عبد الناصر بالأمس :

ـ نفهم من هذا أن الدستور ينص على عودة البرلمان كي يحلف أوصياء الملك الرضيع أحمد فؤاد أمامه، وهذا يقودنا إلى عودة حزب الوفد بأغلبيته ليحكم من خلال البرلمان .

أكمل البغدادي :

ـ وما الذي يمنع الوفد ساعتها من تشكيل حكومة برئاسة النحاس وتعيين قائد للجيش وإدارة شؤون البلاد؟

رد السنهوري فجأة :

ـ لا شيء يمنعه إطلاقًا !

عقب حافظ :

ـ تنفيذ هذه المادة يعني بلا أدنى ذرة من شك عودة الوفد لحكم البلاد خلال أربع وعشرين ساعة !

رد جمال عبد الناصر وهو لا يكتم إحساسًا بالفوز على نجيب ورفاقه :

ـ أليس هذا هو الدستور الذي خرجنا دفاعًا عنه أمام عبث الملك فاروق؟

أجاب السنهوري بوقار عميق يصد المزايدة التي دسها عبد الناصر في سؤاله إلى رجلي القانون اللذين جاءا إليهم كي يعبثوا معًا في الدستور ويعيثوا في مواده تحايلًا :

ـ بلى، هو الدستور الذي يجب أن نحترمه جميعًا، لهذا لا نطرح العبث به يا حضرة البكباشي (لم يحضره اسمه فأكمل) بل نقرأه قراءة قانونية تضمن احترام الدستور واحترام هذه الحركة المباركة التي قمتم بها لإنقاذ البلاد، وليس لوضعها مرة أخرى بين أيدي باشوات وحكومات كانت ألعوبة في يد الملك !

وجدها جمال عبد الناصر فرصة ليحفظ السنهوري اسمه ولا ينساه أبدًا :

ـ أظن يا دكتور سنهوري أنك كنت وزيرًا في حكومة من تلك الحكومات، ولم تكن حكومة الوفد بأغلبيته، بل حكومة أقلية من أحزاب ناصرت الملك !

قفز سليمان حافظ فورًا فوق كلمات عبد الناصر :

ـ يا حضرة البكباشي جمال عبد الناصر، أنا عرفت من كل زملائك، وقبلهم من اللواء نجيب، أنك العمود الفقري لهذا التنظيم الذي أنقذ مصر وطرد الملك، ولا أظن أن توافق على أن مهمتك انتهت !

أرضى عبد الناصر فيما تمنى، وبقي أن يضمن نجيب فأكمل :

ـ وأن وجود اللواء نجيب ومجلس القيادة خير لمصر من مجلس نواب يأتي ليصفي حساباته، ويطرد هذا ويعين ذاك، حسب الهوى الوفدي والرضا النحاسي والرغبة الزينبية !

استاء محمد نجيب من التهكم على النحاس وزينب الوكيل زوجته، ورأى امتعاض عبد الناصر من كراهية سليمان حافظ الحقودة على الوفد، فتدخَّل :
ـ يا سليمان بك، نحن تحت أمر الشعب وتحت أقدام الدستور !
لكنه أيضًا كان يريد البقاء في مجلس القيادة ليقود، حتى لو أقدام الدستور لم تكن فوق دماغه بالضبط، فأضاف :
ـ قل لنا الحل الذي طرحته على علي باشا ماهر دون أن يخل بالدستور .
كان الجو نهارًا بلا ضوء، فالنوافذ مغلقة، والستائر ثقيلة، والمراوح ذات الريشات الحديدية تعيد تدوير ذات الهواء الجاف القليل الذي لا يكفي توزيعه على كل هذه الصدور المتجالسة المتشاركة في الغرفة، خصوصًا أن دخان السجائر ينتفخ في دوائر وسحابات تذوي لتعود فتنتثر غبارًا من ذرات . ألمح عبد الناصر إلى نجيب، فلمحه فاهمًا، فضغط على زر الجرس، فدخل بسرعة كأنه يقتحم المكان ياوره إسماعيل فريد، فأومأ له
نجيب، فنادى فريد ثلاثة من الجنود دخلوا بحياء وخفر عسكري لا يخلو من حماس، فنفضوا منافض السجائر، ومسحوا الغبار عن الموائد الصغيرة ومكتب القائد، وأزاحوا الستائر، وفتحوا النوافذ، فإذا الليل قد أعلن احتلاله للقاهرة، لكن ضوء القمر ذا البياض الفضي كان يرش طلاءه على السماء .
دارت فناجين جديدة للقهوة، وأشعل السنهوري سيجارة عبد الناصر بولاعة أنيقة حاوطتها كف السنهوري السمينة حتى لا يطفئ شعلتها هواء قادم من المروحة القريبة. شكره عبد الناصر بابتسامة، وتدخل عبد الحكيم بوجهه فوق لهب الولاعة، وأخبر السنهوري أن عبد الناصر كان طالبًا في الحقوق قبل التحاقه بالحربية، وبينما أصر عبد الناصر أنه تلميذ السنهوري صمم السنهوري :
ـ العفو العفو .
كان سليمان حافظ قد استثمر الابتسامات التي توزعت والهمسات التي دارت، وذهب إلى اللواء نجيب فقدم له المذكرة المكتوبة بخط السنهوري الأنيق، وهمس له :
ـ سأشرحها للإخوة الآن .
جمال سالم لم يحتمل هذا الاسترخاء في اجتماع يحدد مصير مصر، فوقف وضرب العصا على فخذه ثم على حافة المكتب، فكأنما كان نداء ضابط عظيم على جنود السرية بأن يستيقظوا فاستيقظوا مفزوعين فعلًا. قال حافظ :
ـ تنص المادة الثانية والخمسون من الدستور على أنه عند وفاة الملك يجتمع البرلمان بحكم القانون خلال عشرة أيام من الوفاة، فإذا كان مجلس النواب منحلًّا، وكان الموعد المعين لاجتماعه بعد انتخاب أعضائه يجاوز اليوم العاشر، وجب أن يعود المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذي يخلفه .
أخيرًا تحدث حسن إبراهيم :
ـ لم أفهم .
شخط جمال سالم :
ـ يعني لو كنتم سمعتم كلامي وقتلنا الملك كنا حللنا المشكلة !
ابتسم عبد الحكيم :

ـ لا، لم نكن نحلها بقتل الملك يا جمال يا سالم !
رد جمال بثقة كاملة :
ـ لا، كانت اتحلت !
علَّق السادات :
ـ لكن المادة هنا تنظم حالة وفاة الملك، والملك هنا لم يمت !
قفز سليمان حافظ فخورًا :
ـ هنا المعضلة، الدستور لم يتعرض لحالة خلع وطرد الملك، طبعًا لم يكن ممكنًا، بل كان مستحيلًا، أن يفترض الدستور قيام ضباط الجيش الأبطال والشجعان بطرد الملك وتنازله عن العرش لولي عهده القاصر !
أجاب عبد الناصر عن سؤال لم يُسأل :
ـ لكن المفهوم من مادة الدستور هو غياب الملك، وليس شرطًا أن يكون بالوفاة !
عقب السنهوري :
ـ مفهوم سليم ومستقيم جدًّا، لكنه ليس المفهوم الوحيد .
أضاف حافظ :
ـ هناك فهم لنص الدستور الظاهر الواضح وهو وفاة الملك، أما ما نحن فيه فهو وضع استثنائي غير مسبوق ولا منصوص عليه دستوريًّا، وهو الطرد أو التنازل المجبر عن العرش، مما يستوجب تخريجة دستورية تلتزم روح الدستور ولا تعيد البلاد إلى مصطفى النحاس يضبط بأصابعه الوردةالحمراء في عروة سترته وهو يطالب بتسليمه الحكم .
نظر كمال الدين حسين مخفيًا حنقهإلى عبد الناصر وهو يرد كأنما يعيد عليهم حواره بالأمس الملتهب :
ـ لكن حتى لو لم نسلم للنحاس الحكم الآن، فمسيرنا نعمل انتخابات سوف تأتي به إلى الحكم !
أشاح حافظ بيده، وارتجت الأوراق، وتذبذبت حروفه بين العنف والعصبية وهو يخاطبهم :
ـ وهل ستتركونهم يخربون البلاد مرة أخرى؟! إنهم لن يتركونا، أقصد يتركوكم ساعة واحدة في مجلس القيادة حين ينعقد برلمانهم وتتشكل حكومتهم !
استغل حافظ صمتهم، فأيقن أنها كانت لكمة الجولة الأخيرة، وأضاف :
ـ يملك مجلس الوزراء دستوريًّا السلطة التشريعية في حالة غياب البرلمان .
ولأن دعوة البرلمان المنحل إلى العمل في حالة وفاة الملك هي استثناء لا يجوز القياس عليه، كان قدبدأ السنهوري دوره في العزف المنفردعلى قانونه طبقًا للنوتة الموسيقية :
ـ إذن، لا مانع في إنشاء وصاية مؤقتة عن طريق تعديل قانوني .
أومأ نجيب راضيًا ومعجبًا بالعقلية القانونية البارعة التي ألقت أمامه بحية موسى فإذا بها تسعى، لكن عبد الناصر قرر أن ينغص على الجميع فرحتهم، فهو لم يرَ الحية ولكن رأى السحرة :
ـ عظيم، يظل هذا رأيكم وأنتم أساتذتنا في القانون، لكننا مجلس القيادة لا نستطيع أن نقره ونقبل به إلا عندما يصدر كفتوى رسمية من مجلس الدولة، لو سيقتنع زملاؤكم الأفاضل بأننا نعطل الدستور .
رد حافظ :
ـ من قال إننا نعطله؟ !

رد عبد الناصر بوضوح قاطع :
ـ أنا !
وبعد صمت برهة كي يفهموا أن «أنا» هذه شيء كبير جدًّا، أكمل :
ـ أنا رأيي أن اقتراحكم تعطيل للدستور، وليس أنا فقط بل الأحزاب كلها وأولها الوفد ستقول نفس الكلام، كما أن الصحف كلها ستنشر لأساتذة قانون يرون عكس رأيكم، واسمحوا لي يا أستاذ سليمان، فأنت رجل حزب وطني ومعروف كراهية حزبك للوفد، وواضح لنا الآن تمامًا كراهيتك أنت الشخصية للوفد وللنحاس، ثم إن الأستاذ السنهوري من الحزب السعدي المنشق عن الوفد، وأنا كمجلس قيادة لن أقدر على تحمل نتائج فتوى ليست محل إجماع بل موضع تشكيك، يبقى نروح للجمعية العمومية لمجلس الدولة وهي التي تحسم !
اغتاظ نجيب من كلمات جمال الحاسمة والجارحة، لكنه لا يملك أمام منطقها أن ينطق، فالبكباشي ينظر عكس زملائه خارج الغرفة. كانت رؤوسهم جميعًا مطرقة، عدا حكيم الذي كان فخورًا بصديقه، وسأل نفسه: هل لو لعب معه الليلة مباراة شطرنج يمكن أن يفوز عليه؟ ها هو صديقه يحرك فيله أو طابيته على رقعة الشطرنج فيقلب الدور، مرة أخرى تذكر حين وجد كتابًا للشطرنج نائمًا في حضن جيمي ذات مرة، لم يفز عبد الحكيم على عبد الناصر في الشطرنج مؤخرًا، بل إن حكيم لم يعد يكمل أي دور شطرنج، فيقوم بعد دقائق معلنًا ملله من اللعبة بمجرد أن يدرك أن عبد الناصر مركز تمامًا على ألا يخسر. فاجأهم سليمان حافظ بحماسه الشديد :
ـ طبعًا، لا بد من موافقة مجلس الدولة، فقد أصدرنا قانونه الجديد فعلًا، وجعلناه مجلسًا مستقلًّا عن حق، ووضعنا له من الامتيازات ما يجعله في منأى عن أي تدخل أو أدنى مصلحة .
كان يقول خطبته ورأس السنهوري يومئ بالرضا والموافقة
ـ أنا واثق من موافقة لجنة الفتوى بمجلس الدولة
قالها سليمان حافظ، وشاركه عبد الناصر في سره الثقة، فقد أدرك أن الامتيازات التي منحها المجلس لنفسه يضرها كثيرًا أن يأتي برلمان الوفد ليناقشها، فينزع لقمة القاضي من الفرن قبل نضجها
كان جمال عبد الناصر أول من خرج من الاجتماع بعد أن تصافح حافظ والسنهوري مع نجيب، بل وتحمس حافظ أكثر فعانق نجيب وقبَّل وجنتيه، فانغمر نجيب بمشاعر جياشة أدمعت عينيه، بينما لم يفهم صلاح سالم هذا المشهد المنتزع من مسرحية ليوسف وهبي، لكن اكتفى من امتعاضه بقلب شفتيه، بينما كان البغدادي مع كمال الدين حسين يتبادلان إحساسهما بالراحة من أن طريق الدكتاتورية قد تعبَّد هذا المساء، لكن جمال سالم لم يغادر الغرفة قبل أن يفصح لأنور السادات عن مدى أسفه البالغ في أنه لم يقتل الملك فاروق، فضحك السادات وهو يعلق بينما يشعل سيجارة جديدة :
ـ نحن لا زلنا فيها .
أما حسن إبراهيم فحاول أن يلحق بعبد الناصر وحكيم، لكنهما كانا قد دلفا إلى مكتب عبد الناصر، فعاد إلى السنهوري وسليمان حافظ يسألهما على درجات السلالم، ولا تزال كفا نجيب وحافظ مشبوكتين :
ـ لكن من يحدد أسماء أعضاء مجلس الوصاية؟
كان سؤالًا يستحق عودة الجميع للاجتماع، لكن نجيب عاجله بالإجابة :

ـ دعنا نبدأ بالخطوة الأولى وهي فتوى مجلس الدولة .
أراد سليمان حافظ أن يشير على نجيب :
ـ هناك أسماء طرحها الملك قبل طرده، وهناك أسماء أخرى يقترحها ماهر باشا .
أومأ نجيب لائمًا حسن إبراهيم على السؤال :
ـ عظيم، كلها أمور مقدور عليها، لكن الأهم الآن أن نحترم الدستور .
*
عاد نجيب إلى مكتبه عابرًا غرفة الانتظار التي عجت بالضباط الساهرين، صافحوه وعانقوه، فشعر أنه في حاجة إلى استحمام طويل ينقذه من هذه العناقات الحارة والمتعرقة، بينما كانت وجوه بعض المدنيين شاخصة له بين الإعجاب والاندهاش والترقب. لم يتعرف عليهم، لعلهم مندوبو صحف ظلوا في أماكنهم طوال الليل الذي يبدو أنه قد استطال . لا بد أن هذه الصحفية الشابة قد عادت إلى منزلها، فلا وجوه نسائية حاضرة وسط هذه الخشونة التي تغالظت بالحماسة والانفعالات والسجائر في أروقة ومكاتب القيادة العامة. كان أحد المدنيين في بدلته الكاملة المهندمة يجلس وحيدًا منسيًّا في زاوية قصية، يتمشى القلق بين عينيه، لكن نجيب ابتسم له مطمئنًا وانصرف، بينما همَّ بأن يسأل إسماعيل فريد عن هذا الرجل المتأنق المرتج قلقًا، لكن نجيب رأى أحمد أنور مدير البوليس الحربي يعبره دون أن يحييه، ويتجه إلى مكتب جمال عبد الناصر. فار دمه وساءته جلافة أحمد أنور، لكن عناقًا مفاجئًا وقُبلة على كفه من أحد الضباط أنسته كل شيء إلا الفرحة البهيجة، حتى إنه قرر ألا يرجع الآن إلى منزله في الحلمية، لا يريد أن يغادر المكتب والوفود لا تنقطع عن زيارته حتى منتصف الليل. وما الذي ينتظره في البيت غير براد شاي على وابور جاز، وراديو خشبي متواضع يصدر وشيشًا يطغى على صوت الموسيقى المنبعثة على الأثير؟ فجأة تذكر ما سمعه أمس من أم كلثوم، وهي تنشد متمزجة أغنية «في حِمى الفاروق». لم ينشغل بهذا الأحمق الذي يذيع أغنية مديح للملك الذي لا يزال على باخرته مطرودًا من مصره وعرشه، بقدر انشغاله الموغل في القلق من أن اسم ولده الكبير «فاروق»، لحظتها بات حائرًا للغاية، هو القائد الذي قال للصحف صباحًا إن فاروق رأس الثعبان، ضناه وبكريه اسمه «فاروق»! ما الحل؟ لا بد أن هناك حلًّا !
كان عبد الناصر قد شخط في جمال القاضي، الضابط المسؤول عن الإذاعة منذ ليلة الانقلاب، وهو يقرعه كقائد وكأستاذ قديم له في الكلية يناديه بالطالب النائم الدائم :
ـ «في حِمى فاروق» يا قاضي؟ !
لهجة عبد الناصر خففت من اللوم، فهو يعرف ولاء جمال القاضي له، ولا ينسى دموعه المحشورة في عينيه عندما زار عبد الناصر وحدته في مستعمرة «نبتساليم» خلال حرب فلسطين :
ـ ما حكاية أغنية أم كلثوم «في حِمى الفاروق» يا قاضي؟ هل الإنجليز أعادوا الملك ونحن لا ندري؟ !
كان خطأ من أحد موظفي الإذاعة الذي لم يستوعب حقيقة أن هناك أسطوانات لن تدور مرة أخرى. استدعى عبد الناصر القاضي إلى المكتب، وها هو ينتظره منذ ساعات طويلة. مر على مكتب عبد الناصر يسأل عنه البكباشيعبد المنعم أمين، وقد سمع عنعبد الناصر مديحًا لدور أمينليلة الانقلاب وأنه كان بطلًا في سلاح المدفعية (طبعًا كان صلاح سالم بسلامته في سيناء غائبًا). أثناء

انتظاره المتوتر كان زكريا محيي الدين قد اتصل أكثر من مرة، وجاءه حسين الشافعي ومكث يلغو معه طويلًا ثم مضى، وبقي جمال القاضي قلقًا فوق كرسيه حتى دخل عليه عبد الناصر وعبد الحكيم، فانتفض مؤديًا التحية، ثم سرعان ما جاءهم أحمد أنور، وكان عبد الناصر يكمل حوارًا بدأه مع حكيم في الردهة :

ـ علي ماهر يخطط لحكم البلد وحده منفردًا بلا حسيب ولا رقيب، لا عايز الوفد يحكم، ولن يسمح للانتخابات أصلًا أن تنعقد! يملك هو وحكومته التشريع، فما لازمته البرلمان بالنسبة إليه؟ ثم هو لم يحله كي يحمله الوفد وزر هذه الجريمة، بل من فعلها هو نجيب الهلالي، فما المانع أن يستفيد منها؟

ـ ونحن؟

رد على حكيم :

ـ يرانا مجموعة ضباط صغار بلا خبرة، ونجيب راجل طيب يضحك عليه بكلمتين، وسليمان حافظ تمساح خرج من البحيرة لا يرى أمامه إلا النحاس يريد أن يفترسه ويمزع ضلوعه !

كان قد صافح القاضي وأنور، وقال :

ـ يا أحمد، جمال القاضي سيصبح نائبك في البوليس الحربي .

ابتسم أحمد موافقًا، بينما تهلل وجه القاضي الذي ظن أنه هنا للتكدير، لكنه أسرع وأراد أن يخلي مسؤوليته عن الإذاعة قبل أن يتفاجأ عبد الناصر ويعرف

في ذات النهار قامت الإذاعة ولم تقعد، كانت كأنما زارها اللواء نجيب. أحس جمال القاضي شيئًا غريبًا، بل أشياء أغرب، في همهمات ردهات مبنى الإذاعة في شارعالشريفين. نعم، كان حرس الجيش يحيطون بالمبنى، وهناك في مدخل المبنى ضابط أو اثنان، لكن الاستوديوهات والمكاتب ليس فيها سوى موظفيها ومذيعيها. لم يملك أحد من الضباط خبرة دهاليز الإذاعة، فكان انكشافها أمام أم كلثوم عاديًّا للغاية وطبيعيًّا جدًّا. لقد فزعت السيدة النابهة المهيبةمن إذاعة أغنيتها عن فاروق الملك المطرود، فأحستهامؤامرة عليها حبكها أحدهم (وخصومها كثر كما تتصور، وربما لصالح محمد عبد الوهاب كما تتوقع، وإلا فلماذا لم يذيعوا أغاني عبد الوهاب عن الملك وهي أكثر عددًا وأفرط مدحًا !) ، وقرر أن يسمع المصريون مطربتهم الأولى عقب أيام من الانقلاب وهي تغني للمنقلب عليه. قامتها التي تطول بكبريائها أطول من عدد سنتيمتراتها القصيرة خطت من باب الإذاعة إلى مكتبة الإذاعة التي تُحفظ فيها الأسطوانات وتُنقل من رفوفها وحوافظها إلى آلات البث على الهواء، وسط ترحيب الموظفين وتهليل المذيع المناوب في تلك الليلة. ومع التحيات الواجبات وتقبيل يد الست التي تمنح الشرف لمن يلامس بشرة يدها الممدودة، طلبت منهم، فاعتبروا الطلب أمرًا لا رجاءً، ولم يلتفتوا إلى أن هناك ضابطًا مسؤولًا مطلوبًا منه الموافقة أو السماح أو المنع أو العلم، فكأن أم كلثوم ضابطة أي ضابط! طلبت منهم أسطوانات أعدت بأسمائها قائمة مكتوبة على ورقة كراسة مسطرة، فجمعوها لها في

دقائق معدودة. سألت: هل هي النسخ الوحيدة المتوفرة هنا؟ أجابوا دون أن يفهموا لا المطلب ولا المقصد : أي نعم . لم تنتظر السيدة أم كلثوم أن تخرج من الإذاعة لتفعلها، بل حملت الأسطوانات أمامهم إلى صندوق يلقون فيه بقايا الأشرطة ويحفظون فيه المعدات التالفة فحطمت بيديها (كان معها ابن شقيقتها) الأسطوانات قطعًا وكسرات، ولم ترضَ بفتات ما كسرت، فعادت ودغدغتها حتى ما بقي من أسطواناتها ذرات الرمل الصخري الخام التي يحسبها الناظر بقايا ورق متفحم.

وشعرت بالرضا، وتقاسمته ابتسامات ومحبات موزعة على العاملين بالقسطاس. يبدو أنها كانت تريد شهودًا على مسرح، وقد مضت ولم يعلم الضابط المسؤول إلا من هؤلاء الشهود أن أم كلثوم تخلصت وحطمت كل أسطوانات أغانيها عن الملك فاروق التي تملكها الإذاعة، فهي لم تعد بعد في حمى الفاروق .

ضحك عبد الناصر فخورًا بمحبوبته التي ينتظرها في الخميس الأول من كل شهر، ولا يفك حزام روحه إلا لصوتها. عندما كان يقرأ في القصص عن فتيات الأحلام (على قلة القصص الرومانتيكية التي قرأها)، لم يكن يزور خياله إلا أم كلثوم، حتى سعدية الحبيبة الصبية البعيدة التي كانت ظلًّا في ذاكرته لا يبهت، وصورة الخطيبة بنت اللواء التي نوى أن يخطبها من أبيها فرفضوا متعالين، بقيتا شاحبتين في الظل، بينما تصمد سيدة الأحلام الوحيدة أم كلثوم. زاد إعجابه بذكائها إضافة إلى ولهه بصوتها وبشخصها، وزاد يقينه أن جمال القاضي لا بد أن يترك الإذاعة، خصوصًا أنه أغضب أم كلثوم، وتغالظ معها حين طلب منها أن تتنازل عن ستة وستين قرشًا وستة مليمات تتحصل عليها لكل دقيقة في أغنياتها التي تذيعها الإذاعة كمساهمة منها في العهد الجديد. أي عهد جديد هذا الذي يحتاج إلى ستة وستين قرشًا من كوكب الشرق؟ !

قال عبد الناصر لأحمد أنور :

ـ لقد اتفقت معك على أن نجتمع يوميًّا في مقر البوليس الحربي لدراسة المعلومات وتقديرها واتخاذ اللازم، لكن اعذرني لأني طلبت الاجتماع هنا في مكتبي !

ـ أبدًا ياحضرة البكباشي، سيادتك تؤمر ونحن نلبي يا أفندم .

الأفندم تعامل رسميًّا، وشدد على خطورة ما يقول :

ـ اجتماعي معك (وسيبقى القاضي معنا) يوميًّا وفي مكتبك، ولن نجتمع عندي مرة أخرى، فلا أريد أن نظهر هنا معًا كثيرًا أمام الزملاء. أنت تفهم طبعًا !

ـ طبعًا .

ابتسم عبد الحكيم وهو يتابع حوارهما، لكن اسم رشاد مهنا دق في طبلتي أذنيه حين سأل عبد الناصر أحمد أنور عنه

كان أحمد أنور كمن يقدم تقريره الشفوي :

ـ تحركات مريبة، زار سلاح المدفعية، قابلوه بالأحضان، ورفعوه فوق الأكتاف كأنه قائد الثورة، خطب فيهم، وهتفوا وصفقوا، وبعدها انفرد بعدد أقل منهم، ثم خرج في زفة وذهب إلى سلاح المشاة، لكن لم يدخل إليهم، بل خرج إليه عدد من الضباط وراحوا على بيته وطلبوا أكلًا من أبو شقرة !

دخل إبراهيم الطحاوي بعدما وقف مستأذنًا عبد الناصر فأذن له، وأكمل أحمد أنور ما كان يحكيه عن رشاد مهنا في الوقت الذي نظر إليه جمال عبد الناصر مستزيدًا، فزاده :

ـ إذا كنت سيادتك تسأل عن شعبيته، فهي ما زالت كبيرة، ويتعاملون معه على أنه شارك بدور البطولة في صناعة الانقلاب (عاد وقال «الحركة »).

يعرف جمال عبد الناصر أنور جيدًا منذ كان منتميًا إلى الإخوان، بل والطحاوي الذي يعمل في مكتبه الآن كان إخوانيًّا كذلك. لقد كان عبد الناصر يبحث في الإخوان عن تنظيم يحقق ما يحلم به من خلاله، لكن أمثال أحمد أنور والطحاوي كانا يبحثان عن ولاء زائد عن الحاجة يعطيانه، لذلك فهما أصلح من يجلس أمامه هذه الليلة ليقرر، ربما أيضًا يضيف إليهما القاضي المتفاني في

الإخلاص له، وأحمد طعيمة الرجل الذي لا يقول له لا أبدًا. كل هذا تحت عين صديقه حكيم الذي يمنحه روحه إن أراد، والوحيد الذي يمكن لجمال عبد الناصر أن يصارح نفسه بأنه يحبه، والوحيد الذي يسمح لنفسه بالثقة فيه .
ـ ما أخبار عبد المنعم عبد الرؤوف؟
رد الطحاوي :
ـ لقد أرسل طلبًا جديدًا للقاء سيادتك، هذا هو الطلب السابع في ثلاثة أيام !
أومأ عبد الناصر :
ـ سوف أتصرف في هذه المسألة، لكن لا أريد أن أؤخركم الليلة عن العودة إلى عائلاتكم .
ضحك عبد الحكيم :
ـ نحن في الفجر فعلًا وتأخرنا جميعًا .
تبادلوا الضحك الذي قطعه الطحاوي :
ـ يا أفندم، فيه مدني اسمه حافظ سابق، قاعد منتظر من صباحية ربنا، وسأله الضباط أكثر من مرة ماذا يريد فأجاب بأنه تم استدعاؤه !
أحس عبد الناصر بالمفاجأة ترفعه عن مقعده. قام فقاموا جميعًا وراءه. هرول فهرولوا كلهم خلفه، وهو يسأل :
ـ أين هو؟
ـ كان في مكتب اللواء نجيب، ولما مشى اللواء نجيب نزلناه للدور الأرضي .
كان عبد الناصر يخطف الدرجات خطفًا، نزولًا إلى الطابق الأرضي، وقاده الطحاوي إلى حيث ينتظر حافظ سابق
كان حافظ سابق قد تحلل تمامًا من أي قوة. توتره الذي جاء به خف، ليس لأنه اطمأن، بل لأنه فقد الشعور بأي شيء. الإرهاق والتعب والقلق والترقب، والأسئلة المصطخبة داخل رأسه، والوجوه التي رآها طوال اليوم، والأصوات والكلمات والخبطات والخطوات، والانتقال من غرفة إلى أخرى، وفناجين القهوة التي احتساها مدعوًّا عليها من ضابط اصطحبه صبحًا، ثم تركه إلى ضابط صادفه جالسًا، ثم تعددت عليه الوجوه والكابات. ظل حافظ سابق منكمشًا في قعدته، وقد زالت أناقته وهندمته التي حاول أن يتقنها مضطربًا، حين وجد مجموعة من جنود الشرطة العسكرية بالموتوسيكلات يقفون أمام بيته ثم تلحق بهم سيارة عسكرية ينزل منها عدد آخر من الضباط، يطلبون منه بسرعة لا تخلو من خشونة ارتداء ملابسه على عجل والتوجه معهم إلى مبنى القيادة. لم يجبه أحد عن سؤاله الطبيعي والمشروع: لماذا؟ ربما لأنهم لا يعرفون فعلًا، أو لأنهم لا يملكون أن يقولوا ما يعرفون. على مدى كل هذه الساعات ظل حافظ سابق يسأل نفسه: لماذا أنا هنا؟! لا صلة لي بالملك، ولا بالحاشية، ولا بضباط الجيش، ولا رجال الانقلاب، أنا مستشار من المحكمة للبيت ومن البيت للمحكمة، بل إذا كان لي أن أفخر بشيء فهو أنني من أصدر حكمًا أفرجت فيه عن كتاب خالد محمد خالد «من هنا نبدأ»، الذي صادرته الحكومة بأوامر ملكية، فتقدم المؤلف باستئناف فحكمت لصالحه وصالح حرية كتابه. أنا هنا لماذا؟
وجد جمال عبد الناصر أمامه الآن مصحوبًا بضباط كثر، وابتسم له عبد الناصر :
ـ أنا آسف يا سيادة المستشار عن طول انتظارك، كنا في اجتماعات طويلة، وأرجو أن تقبل أسفي !

أخجله أدب هذا البكباشي، ثم سرعان ما تحررت كل مشاعره المحبوسة حين سمع البكباشي يهنئه :

ـ مبروك، لقد أصدر مجلس القيادة قرارًا بتعيينك في منصب النائب العام !

24

«إيه يا نابولي يا مدينة الملوك المخلوعين؟ !».
قالها فاروق متنهدًا دون حزن، فهو لم يعد يحس فرحًا ولا حزنًا، ومنذ زمن، ليس منذ ركب يخت «المحروسة» مطرودًا من عرشه منذ ثلاث ليالٍ، بل منذ ركب على العرش نفسه وجلس فوق هذا الكرسي نحيفًا رشيقًا ومتأنقًا ووسيمًا، يسمع خطبة العرش في هذا البرلمان دائري السقف المنقوش بالمنمنمات الملونة، يخيم بالفخامة والرهبة على المكان المحتشد بكبراء وباشوات وأعيان البلد، يزفونني إلى مصر عريسًا ملكيًّا ملائكيًّا تنحني الجباه له والظهور، وتلثم الشفاه تقبيلًا ظهر كفه! هل يشعر بهذه العواطف المستغنية المتعالية دفاعًا عن ذاته المهانة بخلعه من العرش وطرده من بلده؟ نعم بلدي، ويؤسفني أنني الملك الوحيد الذي حكم هذا البلد من مئات السنين وأجيد اللهجة المصرية بل اللغة العربية أصلًا. حتى أبي، وقد خرج على ذات هذا اليخت طفلًا مصحوبًا مع أبيه الخديوِ إسماعيل المخلوع لذات المدينة، مدينة نابولي، ميناء الملوك المطرودين، لم يكن، وقد تربى في أزقة إيطاليا طوال سنين النفي والمنفى، يجيد العربية بمصريتها، بل يضفي عليها لكنة مخنثة بين التركية والإيطالية. لكنني الآن أقف على سطح اليخت، أرى مرفأ نابولي وأرض إيطاليا، وأبحث عن دمعة في القناة الدمعية فلا أجدها، وعن حزن مخزون في قاع قلبي فلا أعثر عليه، هل سيصدقني جلال علوبة قبطاني المخلص إذا قلت له إنني لست مهتمًّا؟ ربما لا، فهو لن يحب أن يعلم أن ملك بلاده ليس حزينًا على خلعه من عرش بلاده، فمن هو الأحمق الذي يصدق أنني الملك فاروق ملك مصر والسودان، وإنجلترا إن أمكنا، كما كان يهتف المتظاهرون في مسيراتهم ضد الإنجليز، لم يعد يهمه لا مصر ولا السودان ولا إنجلترا حتى لو تمكنا؟ !
اندهش، لكنه لم يستنكر، بل أكبر وقدَّر جلال علوبة ما فعله الملك بعد ساعة من عبور المكس، وغياب سرب المقاتلات المصرية عن سماء اليخت، كانت تودع فاروق احتفاءً، أو ترهبه ردعًا. سمع علوبة خطوات الحذاء الملكي يرن على درجات السلم الصاعدة إلى قمرة القيادة، فلما التفت رأى الملك بزيه البحري لم يخلعه بعد، بل حتى لم يتخلَّ عن قبعته، وبهذا الوجه الأبيض المشوب بالحمرة والمشرب بالعرق، وأضواء اليخت الفوسفورية تنعكس على زجاج نظارته السوداء، جادًّا وملكيًّا أكثر مما تحتمله صداقتهما خاطب علوبة قائلًا :
ـ حضرة أمير البحر، أريد إرسال برقية فورًا للفريق نجيب .
لم يسمح لعلوبة لا باستفهام ولا باستغراب، فقد أضاف وقد حفظ ما رتبه من كلمات البرقية، وهو يشير إلى الضابط البحري الجالس على جهاز الإرسال، وقد تلقى الإيماءة الملكية بالحماس، لكنه لم ينفذ إلا بعد أن رأى إصبع علوبة تأمره بالتنفيذ
ـ الفريق محمد نجيب القائد العام للجيش.. أتمنى لكم التوفيق في مهمتكم الصعبة
توقف فاروق عن الكلام، والضابط عن طرق دقات اللاسلكي، وعلوبة عن التفكير، كان ثلاثتهم يبحثون عن التوقيع، كيف سيكون توقيع الملك السابق: الملك الأب، جلالة الملك، الابن الرضيع؟ انحسمت البرقية حين أشاح الملك بكفه، وعاد إلى عتبة باب برج القيادة الزجاجي ثم التفت برأسه وهمس ممليًا التوقيع :
ـ فاروق .

أومأ علوبة مرتاحًا للضابط أن يكمل ما بدأ. وبينما كان الملك يهبط السلم عاد ودار بجسمه إلى علوبة :
ـ هل أنت متأكد أننا نتجه إلى نابولي؟
رد القبطان الملكي بابتسامة من لميفهم السؤال إلا مداعبة، لكن الملك قال وهو ينظر إلى الضابط الملاح ثم إلى ضابط البرقية :
ـ أنا سعيد أننا لم نسافر بالطائرة !
جلس الملك في جناحه، وقد تخفف من ملابسه الرسمية، واكتفى بقميص أبيض وبنطلون قصير، وحرر زراير القميص وهو يجلس على مقعد القاعة الصيفية، مستظلًّا بهذه السماء المقمرة. بدا اليخت أقل زحامًا وأكثر قفرًا من أيٍّ من رحلاته السابقة. جنود شرطته الستة وحلاقه وطباخه وأصابع يد من الإيطاليين يمضون ليلة ثقيلة حائرة كما يظن، بالذات طباخه، فالعشاء كان جافًّا وتافهًا ويسد النفس . ناريمان زارها الذكاء في زيارته النادرة لها ولم تُرِه وجهها، وتفرغت لكآبتها في جناحها. الأميرات الصغيرات الثلاث عبرن عليه مع مربيتهن وقبلنه، ربما بأوامر من المربية المسكينة الخائفة على راتبها. الملك الرضيع لم يبرح سريره ولا حضن مربيته وممرضته، ولا ذهب هو ليطمئن عليه، فما الذي يمكن أن يبوح به إلى لحم أبيض محمر مغلق العينين وبض اليدين؟ هل أقول له سحقًا للتاج الذي لن يضعه هذا الولد على رأسه أبدًا؟ لقد قلت لهم جميعًا لن يبقى من الملوك إلا ملك إنجلترا وملك الكوتشينة، حتى الكوتشينة لا يقدر على لعبها هنا وحده أو مع خدمه أطرق فاروق متهامسًا أنه سوف يحتفظ للملك الرضيع حتى يكبر بهذه البرقية التي قدمها له جلال علوبة منذ قليل، وقد تلقاها جهاز اللاسلكي في «المحروسة». أمعن فاروق في سطورها المكتوبة بخط نسخ رشيق مغبش الحبر، وهو لا يجد إلا الفوضى سبيلًا وحيدًا لقدرة صاحبها على إرسالها إلى اليخت، فضباط نجيب مشغولون أو مضطربون فرحًا ونشوة أو اندهاشًا من سلاسة قبوله بالرحيل (لن يقولوا عني وطنيًّا حفظ البلد من الدم، بل سيقولون جبانًا رعديدًا خاف من جيشه، وإن أرادوا الصدق فلا أظن أنني هذا ولا ذاك، بل رجل يشعر بالضجر، اثنان وثلاثون عامًا هي سنوات عمري، أكثر من نصفها أحكم هذا البلد، وكل ما في الحياة والحكم يدعو للملل أو مللي، لا شيء أشبعني حتى سمنت من فرط الجوع إلى ملء الفراغ وقتل الملل). هل أهذي أو أهزل؟ هل أرد على هذه البرقية التي تسللت من وراء نجيب: «مع السلامة يا جلالة الملك».. من عبد الحميد أباظة؟ من هذا الأباظي الذي يجهل اسمه ووجهه؟ لكنه الوحيد من خارج قصر رأس التين الذي أطل برأسه عبر برقيته ليودعني، شكرًا يا عبد الحميد، لقد تأثرت جدًّا ببرقيتك، لكنني أخشى أنك أرسلت مثلها تأييدًا للفريق نجيب! أرجوك أرسلها فعلًا لنجيب حتى تأمن على نفسك من برقيتك لي، أنا نفسي أرسلت لنجيب أدعو له بالتوفيق، افهم اللعبة يا عبد الحميد، فمصر هي ملكها، والملك اليوم لنجيب، لن يستمر فيه طويلًا وستضطر قريبًا لإرسال برقية أخرى لمن يملك بعده !
فجأة قام فاروق عن مقعده، وانتفض بجسده البدين نحو سماعة التلفون المذهبة، ورفعها فسمع صوت الزن ثم ضغط على حاملة السماعة فسمع الرن، لكنه عاد وأغلق قبل أن يجيب علوبة. كان يريد منه إغلاق أنوار اليخت كله، وإعتام «المحروسة» حتى لا تظهر في لج البحر لطوربيد أو لطائرة، قد يستهدفونني، لا بل إنهم يريدون قتل الملك الرضيع. عاد وهدأ، ثمرمى نفسه على السرير، وغاص في النوم بلا لحظة أرق فإن قتلوه لن يدفعوا فيه ثمن طوربيد .

*

أيقظوا جلال علوبة مفزوعين، جرس التلفون مع طرق الباب، مع نفير اليخت، مع خطوات متوترة تتحرك في ردهة الغرفة. على عجل ارتدى ملابسه العسكرية، وذهب إلى برج القيادة، فمد له الضابط بيد لم يبذل جهدًا في إخفاء رعشتها، تحمل تلك الإشارة اللاسلكية :

من القائد محمد نجيب

إلى أمير البحار قائد يخت «المحروسة »

نبلغكم أن المدعوين محمد حسن والطيار عاكف قد هربا داخل صندوق من الصناديق الموجودة فوق ظهر اليخت، كما أن الملك قام بتهريب سبائك ذهبية في صندوق آخر، ونأمركم بالتحفظ على الشخصين وسبائك الذهب .

من هو هذا التعس الذي دس هذه الأعاجيب على قائد الجيش؟ ومن أولها بدأنا التخريف والتخطيف! حدث علوبة نفسه، أي صناديق تلك التي تحوي شخصين شحطين، وقد صوَّر المحررون على رصيف القصر البحري الصناديق المشحونة على اللنش في الطريق إلى اليخت، وليس فيها صناديق يمكن أن تحوي بشرًا إلا لو قطعنا أعضاءهم قطعًا صالحة للتكديس في صندوق؟! ثم أي ذهب هذا الذي حملته «المحروسة»؟ لكن الشك غرس شوكة في قلب جلال علوبة، فلعل الملك فعلها بالفعل، فهو ليس ممن تأمن لصمته، ولا الذي تصدق وعده. ذهب علوبة مضطرًّا ومضطربًا، وصحب عددًا من جنوده، ونزل سلالم حديدية ثم درجات خشبية إلى الطابق الأول،

حيث المطابخ والمخازن، وتجول فيها وقلب محتوياتها، وفتح صناديقها المجلوبة من القصر، فلم يجد إلا صناديق خمر من النبيذ إلى الويسكي إلى الفودكا، وكلما فتح صندوقًا وجد خمرًا، ولم يجد لا خادمالملك ولا طيار الملك !

ـ لماذا كل هذه الخمور في يخت لا يشرب فيه صاحبه قطرة من خمر؟

أجابته عدة أفواه في المطبخ :

ـ هذه خمور نقدمها للضيوف .

زعق فيهم القبطان :

ـ أي ضيوف يا مغفلين سيستضيفهم الملك على يخت ركبه مطرودًا من عرشه، بل سنعود باليخت أول ما ينزل الملك وعائلته منه إلى الإسكندرية؟! غالبًا ستدلقون هذه الخمور في البحر، أو تسكرون بها، فنغرق جميعًا قبل الوصول إلى نابولي !

تركهم علوبة وهو ضاج بغباء ردهم أكثر من غباء خدم القصر الذين شحنوا الصناديق لليخت، ونزل إلى الطابق السفلي حيث الماكينات والغلايات وخزانات الوقود، ووقف وسط عمال الشحم والمازوت الملوثين بالهباب والفاغرين أفواههم من وجود القبطان أمير البحار بينهم. نظر إليهم متفحصًا يتملكه الغيظ والإحساس بالعبث، ثم نادى بصوت عالٍ :

ـ أنت هنا يا محمد يا حسن؟ أنت هنا يا عاكف؟

تعجب العمال من نداء القبطان، خصوصًا أنه لم ينتظر ردًّا ولا تعليقًا من أحد وانصرف .

حين صعد إلى طابق الملك (الذي كان قد وقف الآن أمام جناحه متكئًا على حافة اليخت مبتسمًا ومنشرحًا، وكأنه خارج من غرفة نومه صباح ليلة زفافه، وكان زفافًا ناجحًا كما يظهر في انشراحه)، وقدم له البرقية، قهقه الملك كثيرًا على طريقة يوسف وهبي في مسرحياته الدرامية،

حين يجن بطلها في نهاية الفصل الثالث، ثم التفت الملك إلى كبير المهندسين، وهو رجل أيرلندي التصق بذيل علوبة منذ صعد من طابق الغلايات والوقود، فقال له وهو ينهي القهقهة إلى ضحك أهدأ وأرق :
ـ إنه يوم جميل حقًّا يا «هوران »!
ردَّ «هوران» بصدق متحمس :
ـ نعم يا سيدي، إنه جو ملكي، فليباركه الله !
كان علوبة يريد أن يأخذ الله كبير المهندسين الآن من وجهه، كي يعرف من الملك كيف يجيب على برقية محمد نجيب
نظر الملك إلى علوبة، وقد قرر أن يمنحه خلاصة حكمة يومه غير الملكي الأول :
ـ اسمع يا جلال، محمد نجيب مسك النمر من ذيله، والنمر سيعضه وسيأكل عظمه قريبًا جدًّا .
*
كان نجيب مشوي الأعصاب في غرفة القائد العام يومها، وهو يتلقى صراخ جمال سالم فيه أن الملك ضحك علينا، وشحن الذهب الذي سرقه من البلد، وتركناه يهرب! بينما كان القائمقام أحمد شوقي يبلغ نجيب أنه قبض بنفسه على عاكف ومحمد حسنوأودعهما في قلعة قايتباي ثم تم ترحيلهما للكلية الحربية، إلا أن زكريا محيي الدين تدخَّل :
ـ صحيح، لكن «بوللي» اعترف أن الملك أخذ معه صناديق الذهب !
رد عبد الناصر الذي كان يرقب نجيب المأخوذ بتلك الفوضى الناعقة في فرح عرسه :
ـ «بوللي» أجنبي مقبوض عليه ومذعور، وممكن يقول أي حاجة لو أحس أنها ستخفف عقابه .
علَّق جمال سالم :
ـ يعني الملك بقى شريف !
تدخَّل محمد نجيب بعد أن أومأ لعبد الناصر :
ـ هل نثق في جلال علوبة؟
أجاب صلاح سالم :
ـ لا .
حاول شوقيأن يدافع عنه :
ـ هو رجل منضبط عسكريًّا وملتزم بالأوامر .
قاطعه صلاح سالم :
ـ لو فكر يخون أو لا يعود باليخت بعد أن يرمي الملك منه على رصيف نابولي، فإن عائلة علوبة كلها هنا !
استاء عبد الناصر مما أشار إليه صلاح سالم، لكن صلاح لم يصدق استياءه، فالذي يريد أن يستاء عليه أن يعلن هذا الاستياء لا أن يشيح برأسه إلى الناحية الأخرى .
وجه عبد الناصر كلامه إلى زكريا :
ـ أنت يا زكريا تكمل التحقيق مع «بوللي»، ومع كل من كان في رأس التين .
أضاف زكريا :
ـ هناك ضباط وحرس في «المحروسة» سيعودون معها، وهذه فرصة لاستجلاء الحقيقة .
قال صلاح سالم :

ـ الملك فاروق حرامي، ونهب البلد وهرب بصناديق الذهب معه، سواء حضرتك استجليت هذه الحقيقة أو استخبت منك !
لم يستأ جمال عبد الناصر من جملة صلاح سالم الأخيرة، فقد رأى صلاح نظرته الموافقة وإيماءته الراضية، وابتسامته الضيقة تتسع .
*
ـ لا ترد عليهم .
كانت هذه نصيحة الملك لجلال علوبة، لكن الأخير رفع كتفيه إعلانًا عن عدم قدرته على تجاهل الجيش، فقرر الملك وهما الآن على مائدة الشاي، وقد انصرفت الأميرات الثلاث بعد أن حضنهن فاروق كأنهن في رحلة صيد أو إجازة صيف :
ـ ابقَ معي يا علوبة، فقد صرت وحيدًا !
ـ لكن جلالتك لا بد لي من العودة باليخت إلى الإسكندرية .
ـ أنا لم أقل لك نخطفه ولا نبيعه في نابولي، ليرجع به مساعدك أو حتى لتضعه في المرسى، ويرسل نجيب من يعيده إلى مصر ولتظل أنت معي
ـ لكن أولادي وبيتي في مصر !
ـ ليأتوا لك .
مال الملك برأسه نحو جلال علوبة وهو يكاد يدمع من حقيقة أن «بوللي» لم يعد معه :
ـ سأعطيك مليون جنيه لتكون معي !
ضحك جلال علوبة، فهو على يقين أن الملك لن يمنحه جنيهًا، فالملك يأخذ ولا يعطي، ولا يظن أن كونه ملكًا منفيًّا مطرودًا الآن سوف يحرره من بخله ولا من نهمه .
شعر الملك بتردد علوبة وشكه :
ـ أنت صديقي، ولا أخفي عنك أن لي ثروة كبيرة بالخارج .
سأل علوبة فضولًا، وهو يثق أن الملك سيكذب :
ـ كم يا مولاي؟
رد الملك وهو موقن أن علوبة لن يصدقه :
ـ خمسة ملايين جنيه .
أومأ علوبة رافضًا برأسهوكفه وابتسامته عرض الملك، فلا حاجة للمقامرة مع ملك يمتلكعقل المراهق المقامر، سواء كان يمتلك فعلًا الملايين الخمسة أو لا يمتلكها .
كانت ساعات تفصلهم عن نابولي، فلم يطق فاروق ظهور ناريمان المثقل بالتعاسة، وهي تقترب منه على مائدة الغداء (الذي كان أسوأ كثيرًا مما يتوقع، وقد تعكر مزاجه بسبب غداء تافه لليوم التالي على التوالي، كما فرغت زجاجات «البيبسي كولا»). خفضت صوتها ورققته، وحاولت الطفلة ذات التسعة عشر عامًا من عمرها أن تقوم بدور الملكة وهمست له :
ـ أنا أعرف أن الملك عبد العزيز ملك السعودية يحبك .
نظر إليها مرتابًا، فأكملت مخفضة عينيها أكثر من نظرتها :
ـ نروح نعيش في السعودية أحسن من إيطاليا !
لم يرد الملك، وأدار وجهه عنها، وتأمل البحر الساكن. كتمت ناريمان حزنها، لكن دموعها طفرت من عينيها، أحزنها أنه لم يرد، وليس أنه رفض. ظل صامتًا في برود حتى ظهر جلال علوبة

ساعي بريد الكوابيس في تلك الأيام الثلاثة :
ـ مولاي .
كان هذا إيذانًا لناريمان أن تقف وتمضي مع انحناءة من جلال علوبة، أكمل بعدها ما جاء لأجله مستغلًّا شعور الملك براحة شديدة من مغادرة ناريمان مائدته :
ـ هذه المرة البرقية تطلب عدم نزول أفراد أو مهمات مع اليخت، وبالنسبة للأفراد ضرورة التأكد من جنسياتهم وعودتهم إلى الإسكندرية .
تذمر الملك من جلال علوبة الذي يزعجه بهذه التفاصيل، فأجابه بجملة جعلت جلال ينصرف مسرعًا وقد انكتم الألم في صدره :
ـ تعرف يا جلال أنني لا أملك جواز سفر !
ثم أضاف وجلال ينسحب متراجعًا بظهره دون أن يصرف عينيه عن الملك :
ـ ولا الملك أحمد فؤاد يملك جواز سفر !
وبينما بدا أن علوبة قد اختفى، ظل فاروق يحدث نفسه والبحر: ولا ناريمان ولا الأميرات الثلاث حين وصلوا إلى نابولي أخيرًا، أطلقت مدافع «المحروسة» طلقاتها، معلنة عن وصول اليخت الملكي، لكن الميناء ظل صامتًا إلا من صخبه المعتاد، ولم يتلقَ اليخت الملكي تحية بطلقات المدافع وفق مراسم استقبال الملوك المعتادة، هل لأن «المحروسة» تحمل ملكًا رضيعًا، أم لأن نابولي لم تعد تحتمل الملوك المخلوعين كما كانت؟ اقتربت «المحروسة» من الرصيف الذي لم يكن يقف عليه سوى عسكري إيطالي بملابس شرطة الميناء، وبجواره السفير المصري في روما، وبصحبته موظفان من القنصلية. همس فاروق لنفسه عندما أخبره علوبة بجاهزية السفير وملحقي القنصلية لاستقباله، أن لحظة سوداء مثل تلك التقت فيها أمه اللعينة وأخته الألعن باللعنة التي تحمل بطاقتها اسم رياض غالي، آه كم يكره أمه التي خانته، سبقته إلى المنفى مختارة وجاحدة، لكنه لن يتواصل معها، ولا يريد أن يراها، ولن يقبل أن تحادثه، بل سيسبها ويلعنها لو جرؤت وكلمته في إيطاليا وهي مرمية هناك في أمريكا. أوشك أن يسأل عن موظفي القنصلية في نابولي: هل منهم من يشبه هذا الحقير الذي خطف عقل أمه، وقلب أخته، وسُمعة عائلته، ودين أجداده؟ جدة الملك الحالي وأم الملك المطرود تتردد على كنائس أمريكا يا عزيزي جلال، لا يوجد أي كتاب مقدس سيغفر لهذه الأم عهرها
تقدَّم علوبة من الملك وهو يقف في مقدمة اليخت، وخلفه الملكة وبصحبتها الأميرات الثلاث، بينما الملك الرضيع في حضن مربيته . يستعرض الملك الضباط والحرس وحاشية القصر المصاحبة له، وقد قرر أن يحييهم بالاسم، ويضع كلمة منه في ذاكرة كل واحد فيهم وداعًا ووديعة :
ـ شكرًا يا نظير (إنه خادمه الألباني، فكأنما بينهما صلة دم الجد الدخاخني الذي صار مؤسس الأسرة العلوية في مصر).
دمعت عينا نظير وارتعشت كلماته غير المفهومة التي ردَّ بها على الملك الذي أدرك ثقل ظل اللحظة، فعجل بما تلاها :
ـ ممتن يا عابدين، شكرًا يا رستم، شكرًا يا آدم .
كانوا كلهم خدمًا يحملون الجنسية الألبانية، أدرك الآن أنه كان مصحوبًا بولاء ألباني لا مصري، حتى «إدوارد كافاتسي» الذي يصافحه الآن، و«جوزيب جارو»، وحلاقه «بيترو ديلافالي» الذي

عانقه بحرارة الرجل الوحيد الذي يسلم له عنقه (بل ويتركه يضع عليها شفرة الموس) ، كانوا إيطاليين .
انتقل بعدها إلى الفريق النسائي الفرنسي الذي كانت آنساته يعملن ممرضات ومربيات لأميراته الثلاث وملكه الصغير، فكان بكاؤهن أغزر وأضعف
فجأة تقدم أحد جنود «المحروسة »:
ـ نحن معك يا مولانا، ولن نتخلى عنك أبدًا !
كانوا جنودًا ستة، وهو أحدهم وواحدهم الذي نطق، لكن الآخرين همهموا بالموافقة والتأييد، فصاح فيهم جلال علوبة متذكرًا عسكريته :
ـ أنتم جنود مصر، ومأمورون من قيادتكم، وستعودون رغمًا عنكم !
كان يعرف أن الملك لن يتحملهم يومًا إضافيًّا، ولا يريد أن ينشغل برد جمائلهم وتعويض تضحياتهم، فوجد الملك حاسمًا معهم :
ـ نعم، أنتم جنود بلدكم، ولا بد من طاعة قيادة البلاد الآن !
كان رستم الألباني هو من أقدم على فعل أذهلهم ومسمرهم في خشب اليخت، فقد تقدم جريًا نحو حافة اليخت وقذف بنفسه في البحر، أخذوا وقتهم للخروج من الذهول والدخول في الفضول، وتمالك الملك نفسه بين الضحك والجد وهو ينظر إلى علوبة الذي صرخ في الجميع :
ـ هذا المجنون يتصور أننا سنعيده إلى مصر كما أمر الجيش !
تدخَّل الملك وهو يرى الجنود يلقون إلى رستم بحبل الإنقاذ المربوط بإطار مطاطي دائري، مرسوم عليه علم مصر الأخضر بهلاله ونجومه :
ـ أنتم مواطنون أجانب ولستم مصريين، والإيطاليون منكم على أرض بلادهم الآن، فليرحل من يريد ولا تقلقوا !
كان رستم قد عاد، بينما الملك ركب اللنش مع عائلته مصحوبًا بابتسامات لزجة من السفير، وتحيات تائهة ونظرات متطفلة من موظفيه وملحقي سفارته المتأنقين، وقد وصلوا إلى العبَّارة التي تمخر به إلى جزيرة كابري، حيث قرر أن يعيش .

25

ضحكت ضحكتها الأنثوية بوقار الغواية، تخرج مبحوحة مجروحةمن حنجرتها قبيل منتصف الليل بعد شربة من الكأس الرابعة، وقالت :

ـ الإنجليز انتهوا .

ثم أشاحت بيدها نافية ما قالته وهي تهز الكأس في يدها الأخرى، وتصحح :

ـ لا، بل بارك الله أمريكا .

كانت الأميرة فايزة تتحدث وسط ابتسامات وتحديقات وإيماءات وانحناءات والتفاتات واقترابات رؤوس كثيرة أحاطت بها، وهي تجلس واضعة ساقها البيضاء المتدثرة بذيل فستان وردي شفيف، وقد تدلت فردة حذائها الأسود اللامع الرفيع من فوق مشط قدمها، فعرف العارفون بها أنها وصلت إلى منطقة الرغبة في التحرر من عقدة لسانها الملكية التي تظل تربطها في أول كل سهرة، ثم لا تجد لها مبررًا، ولا تجدي معها مقاومة روحها المتمردة، فتنطلق لتعلق وتعارض وتثبت وتنفي وتتهكم وتسخر، وتمدح وتقدح كما يحلو لها، حتى فاروق حين كان لا يزال منذ أسابيع ملكًا لم يكن يسلم من تقريعها المعلن وتمردها المتواقح. تجلس مع أصحاب حددتهم بالاسم من المصريين والأجانب، لبوا دعوتها المتأخرة لقضاء السهرة في حفلة محدودة في فناء حديقة قصرها تحت ظلال هدوء وخلاء المعادي، لم تعد حفلاتها بذات الصخب والزحام وفساحة الدعوة وبذخ المشارب والأطعمة، لكنها عامرة بالحكايات المنتزعة من شفاه تبدو متماسكة وملمومة في ساعة الحفلة الأولى، ثم تنفرج وتنطلق تتطوع بالمعلومات من أضابير الدواليب الحكومية أو من تلغرافات السفارات والقنصليات الأجنبية. إن هذه الحديقة أو ذلك التراس الصيفي حول حوض الاستحمام المستطيل أو قاعة الاستقبال الهائلة المطلة على الشرفة الدائرية فوق الحديقة، جديرة بأن تخصص لها الحكومات أوسم جواسيسها وأكثرهم أناقة

انتظروا أن تشرح لهم الأميرة فايزة نهاية الإنجليز، ولماذا خص الله أمريكا كي يباركها في قصر الأميرة في المعادي، فلم تقل شيئًا. فجأة صمتت ثم تنهدت بضحكة ثم تركت أحدهم يقول كلامًا انشغل آخرون به وانسحبت بكأسها إلى رأسها

كان هذا الدبلوماسي الإنجليزي الذي يعمل في السفارة ضيفًا دائمًا على حفلاتها وعلى افتتاحات أسابيع الشتاء وكرنفالات الربيع التي تقيمها مبرة محمد علي التي ترأستها مع أختها فوزية (توقفت فوزية منذ رحيل فاروق عن تلك الأنشطة الخيرية ثم عن الأنشطة ثم عن الحركة!). كان الدبلوماسي المتباهي لا يمل من التودد لها منذ القُبلة الخفيفة التي يطبعها على أصابع كفها، إلى الانحناءة المهذبة التي يمنحها لها كلما صادف عينيها. يحكون كثيرًا عن نزقها وشططها، وكان فاروق يرسل إليها سخافاته الحكيمة يحذرها من أنها تشبه زوجة أبيهم شويكار. لا واحدة يمكن أن تشبه هذه العجوز المختلة يا أخي! ثم لماذا لا أكون شبيهة أمك يا روح أمك؟! لا لست روح أمك أبدًا، لو كنت روحها ما عاصتك بالطين، وداست عليك بكعب حذاء أنانيتها! تكلم عن صافيناز يا فاروق وليس عني، عن صافي التي أسميتها فريدة، ومصر كلها اعتبرتها محبوبتها الملائكية صاحبة الصون والعفاف، وهي تصفع كبرياءك المزعومة مع حبيبها، بينما أنت تبدو لشعبك الأبله منحرفًا فاسقًا! لكنني سأظل أميرة أيها المتزلفون المتوددون المتغزلون المتحرشون، ممنوعة عن

العامة، وحصينة عن الوثوب، ليكن خروفًا من تزوجته في جبنه أو تسامحه وانفتاحه ورقيه ورقته التي تسمون صاحبها خروفًا، لكن لن يكون هناك ثيران آخرون في الحظيرة! لا يزال هذا الدبلوماسي الإنجليزي متباهيًا أو متقربًا يحوم حولها وهو يخبرها أخيرًا بعد كأسه الأولى :
ـ دعا الملحق العسكري الإنجليزي ثلاثة من ضباط الانقلاب .
ضحكت وصححت له ساخرة :
ـ سموها «حركة» يا عزيزي .
ابتسم :
ـ هذا اسم التدليل .
ثم منح هيبته أهمية حين أضاف :
ـ جمال عبد الناصر، وزكريا محيي الدين، وصلاح سالم .
لم يكن يعني أي اسم لها أي شيء، هي تعرف نجيب فقط، ولا تتمنى أن تكون قد عرفته، لكن الدبلوماسي الذي بان لها إلى أي حد هو لزج، أضاف بعد كأسه الثالثة وابتسامتها الأولى :
ـ هل تعرفين ماذا كتب الملحق في تقريره للسفير وللوزارة؟
أومأت فضولًا دون أن تمنح الدبلوماسي أي فرصة للتفضل بما يلقيه تحت قدميها من أسرار سفارته :
ـ صلاح سالم مجادل متمكن وهو ألمع الثلاثة، زكريا محيي الدين سياسي رصين، أما جمال عبد الناصر فرجل صامت وسطحي التفكير .
في الليلة التالية كانت تفتش في رأسها عن اسم هذا الدبلوماسي الغبي الذي أتحفها بتقرير ملحقه العسكري الأغبى. كانت ناهد رشاد قد قابلتها أخيرًا، غداء من تلك الغداءات، حيث قررت نسوة ارتمين على الهامش أن يستدفئن استئناسًا أو استنطاقًا، كعوب أحذيتهن الرفيعة والعالية تدق فوق سطح بحيرة تجمدت بالثلج، يمكن أن يتشقق إن قررن التمخطر أو الرقص فوقه. تحسسن صلابة الهشاشة التي يعشن فيها هذا النهار، حين بدت كل حواراتهن قصيرة متلعثمة متحيرة، فضلًا عن خشيتهن جميعًا من وجود ناهد رشاد بينهن (من دعاها للغداء، فزوجها محبوس عند الضباط؟!).
ناهد رشاد وصيفة الملكة المخلوعة، ورفيقة الملك قبل أن يفارقها ويفارقنا، كانت أذكى من أن تظل في الغداء، لكنها طلبت بعينيها من الأميرة فايزة أن تودعها، فقامت الأميرة تلطفًا وفضولًا وانتحت بها جانبًا على عتبة درجة السلم، رمت كلتاهما حاجز الجفاء الذي كان بينهما منذ سنين، رغم أن فايزة لم تكن تكره ناهد، بل كانت معجبة بها وبعزيمتها المدهشة في إفساد حياة غريمتها ناريمان التي خطفت فاروق من بين ذراعيها، لا شك أنها حلمت بأن تصير ملكة حين يتزوجها فاروق، لكن جلالة النذل كان يريد بكرًا رشيدًا يفضها بضعفه، ويخشى على نفسه امرأة مجربة خبيرة سوف تكشفه في اللحظة التي سيفك فيها ربطة الروب، فاختار ناريمان الطفلة النكدة. شيء ما غامض في أخيها، اختار صافيناز (فريدته العجيبة) ، وناريمان، طفلتين في السادسة عشرة من عمريهما، ولعلهما كانتا أقل عمرًا حين تزوجهما، بينما كل صويحباته نساء أسن وأنضج وأخبر بالدنيا، يكتفي منهن بتشابك الأذرع وتربيت الظهر وقهقهة النكات ثقيلة الظل، والشائعات عن العشق والغرام والليالي الحمراء التي لا حمار فيها إلا لون سيارته الملكي! أكان يبحث عن أمه فيهن؟ أكانت عقدة «أوديب» التي طاردته فطاردها؟ كانت ناهد تتكلم وتنطق بسرعة ملهوفة كلمات غامضة وتبدو فارغة تمامًا، أتهذي فعلًا أم أنها جزعة حتى اللخبطة؟ يدفع الوصيفة

الجريحة أمل يشدها للتفاؤل، يهز قامتها الطويلة الممتلئة، ويجري دمها في عرق عنقها الملفوفة بعقد اللؤلؤ (لكنها تخشى من أن كل شيء تفتحه تجده مسدودًا). نعم هي وصيفة ملكة ورفيقة ملك (لا هي الأولى ولم تكن الثانية، لكن ليس مهمًّا الحقيقة، الأهم ما يتصوره الناس الحقيقة)، وهي موصومة بالعلاقات النحسات، سواء ملكها أو زوجها يوسف رشاد رئيس الحرس الحديدي المحبوس الذي لا يكف عن إزعاجها بتفاؤله في سجنه الذي تزوره فيه كل يوم، يأكل نهمًا مطمئنًا، ليزداد سمنة على سمنة ويتسع عرض منكبيه. كان يشعل داخلها، بتفاؤله الممزوج بالسذاجة، الأمل في أنور السادات الذي كان تحت إمرة زوجها في الحرس الحديدي، وأعاده للخدمة في الجيش بعد فصله وطرده طويلًا، ثم ما صار لديه شك أن السادات سيسعى للإفراج عنه امتنانًا وردًّا للجميل، أو تخوفًا من إذاعة أسرار محشورة في حنجرته. لكن ناهد عكرت عليه فخذ البطة التي يلتهمها، حين قالت له :

ـ ويمكن أن يقتلك حتى يخلصك من الشيء المحشور في حنجرتك !

كانت ناهد تثق أكثر مما يبدو في أنور السادات، فقد أدركت أنه كان عينًا لتنظيم الضباط الأحرار في الحرس

الحديدي، أو حتى في الجهازين بولاء مزدوج، فقد كان يعرف أن ناهد تكره الملك، بل هي التي دست منشورات الضباط الأحرار في مكتب الملك شخصيًّا في واقعة سوداء على دماغ القصر كله، لكن السادات ليس في كل الأحوال عندها كمثل مصطفىكمال صدقي حبيبها، بشجاعته وحماقته وجرأته ونزقه، إنه هو ملاكهاالحارس، في حالة صدقي هو شيطانها الحارس، عضو الضباط الأحرار، والضابط الذي انشق عن الملك بل خطط لاغتياله، هل يمكن أن يتخلى عنها؟ صحيح أنهيبالغ كثيرًا، بل لعله كان يكذب حين يضع نفسه في حكاياته لها في الصف الأول لتنظيم الضباط الأحرار، لكنه معهم، ثم إن الناس تعتقد أن أنور السادات عضو مجلس القيادة على سن ورمح، فهو الذي يظهر أكثر من زملائه في المحافل والمجالس، والذي يبدو أهمهم، ربما لأنه أشهرهم أو لأنه الصوت الذي أعلن بيان الانقلاب بصوته، فإن لم يكن صورة الانقلاب فعلى الأقل هو صوته. لكن صدقيقال لها الحقيقة، أنور الساداتمفيد طبعًا وموجود أكيد، لكن الرجل الأهم أطول من نجيب وأبيض من أنور، أمير الظلام لم يخرج من وراء الستارحتى الآن، إنه جمال عبد الناصر .

حين جاءت إلى الغداء كانت مترددة متلجلجة، لكنها الآن سعدت بمجيئها، فهي أفحمت من ظن أنها ستختبئ في بيتها أو أنها فقدت نفوذها، بل ها هي تستأذن مترفعة عن ثرثرتهم الساذجة، وتستدعي الأميرة فايزة بهمسها والتفاتها، لتخصها بما لم تعممه لهن. لكن ما الذي تريدينه من الأميرة فايزة يا ناهد؟ لا شيء أكثر من التباهي على أولئك الشمطاوات اللاتي لم يطقن أن تشرب رشفة من شايها بعد الغداء حتى أخذت القلقات المتوجسات يحثثنها أن تغادرهن. أحست فايزة أن شيئًا لدى ناهد .

ـ ناهد، ماذا سيفعل فينا نجيب؟

أطلقت ناهد رشاد رغم النهار ضحكة لا تسمعها من نفسها إلا ليلًا وخمرًا :

ـ نجيب لا حول له ولا قوة. الضابط الذي يملك كل شيء اسمه جمال عبد الناصر .

ثم قصت عليها قصصًا كثيرة سريعة عن أمير الظلام، تبدأ باسم جمال عبد الناصر وتنتهي به. قبَّلتها ناهد ثم أخرجت من حقيبتها عدة أوراق، وكورتها في يد الأميرة ومضت. استجمعت الأميرة

فايزة حكايات ناهد، وقبضت على الأوراق في يدها، ثم قرأت عنوانها المكتوب بالآلة الكاتبة، ثم قررت أن تبحث عن هذا الدبلوماسي الإنجليزي لتخلع حذاءها وتقذفه في وجهه (ألم تفعل تحية كاريوكا شيئًا من هذا في أحد أفلامها؟).

*

كانت قد تلقت صدمتها بطيئة وثقيلة، لكن لأنها كانت تنتظرها وتتوقعها فقد جاءت مكتومة، تركت كدمة لا جرحًا . أنهى الضباط مخصصات العائلة الملكية، راتبها السنوي الذي أوقفه فاروق عامًا كاملًا غضبًا عليها وتأديبًا لها، ثم أعاده بعدها أربعة آلاف جنيه وعدة مئات، تقاضت آخر ما صرفته منه في يوليو الفائت ألفين وثمانمائة جنيه، ثم علمت أنها آخر جنيهات ستخرج من خزانة المملكة المصرية للعائلة التي تملكها. همست وهي تصحو فجأة من النوم لزوجها :

ـ سيلغون الملكية يا رؤوف !

منذ خرج الملك من رأس التين وزوجها محمد علي رؤوف عاد مواطنًا تركيًّا تمامًا، تلك القشرة المصرية التي كان حريصًا على أن يضعها في كلامه نزعها كما نزع الطربوش من على رأسه يوم تزوج منها، فأغضب أخاها فاروق أن زوجها لا يرتدي الطربوش في حضرة الملك، ثم أمعن في إغضابه فرفض الحصول على الجنسية المصرية. الآن محمد علي رؤوف (تبذل أحيانًا مجهودًا، خصوصًا ليلًا، في مقاومة أن تنطق الاسم كما يطلقه عليه كارهوها وحاسدوها: محمد علي خروف) تركي عثمانلي، لا يريد أن يربط نفسه بالأسرة العلوية، ويقضي معظم أيامه مع أتراك القاهرة، ونهاراته المقضية في السفارة التركية زادت، كأنما صار دبلوماسيًّا فيها أو يجهز لسفرة قريبة سريعة يهجر فيها مصر مع فايزة أو بغيرها. إنه أستاذ برامج التسلية وتخطيط الرحلات الأول في المملكة المصرية. هل تريد أن تتسلى؟ استشر زوجي وسيقدم لك لائحة مذهلة من الأشياء الفارغة الرائعة كي تشغل وقتك، ثم اسأله عن التحف والأنتيكات فلن تجد مثيلًا لخبرته في الحفريات الجيولوجية والآدمية. لكنه على العموم يقدم لها خدمات جليلة بتركيته الناقحة عليه، فهو يصنع جسرًا للخروج للخارج ستكون هي من تعبره حين تقرر، أو لعلها تقفز منه، من يدري؟

أدهشها عبط شقيقتها فايقة التي رجعت إلى مصر مع زوجها الأعبط، هل تعود أميرة انخلع أخوها عن العرش وسافر خليفته الرضيع مع مرضعتهبعيدًا عن حفاضات مملكته، وفي مثل هذه العواصف العواتي ترجعين وتعودين من هلسنكي يا بنت نازلي؟! لكن لأختها أطفالها قبل أن يكون لها أملاكها وثرواتها ومخصصاتها في مصر، ولا تقدر على أن تتخلى عن هذا كله، إنها تحمل جرح هروبها الغائر مع نازلي أمها وفتحية. لعل مشهد عقد قرانها وإعادة مشهد زواجها بزوجها نفسه مرة أخرى، كما صمم فاروق واشترط لعودتها لمصر وللقصر ولميراثها وثروتها، لا يزال يبصم على عقلها بصمته. اشترط أن تتزوج فؤاد صادق على يد مأذون (وكيل شيخ الأزهر شخصيًّا)، وأن يكون فاروق وكيلها، على الرغم من أنها تزوجت ودخلت وفضت ما يفضه الزوج لزوجته قبل أن تتكرم عمامة الإمام الجليل وتشرعن الفض على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

عادت فايقة مرتين لخيبتين جزاها الله عنهما كل خير. تكلمت معها، فوجدت ما وجدته عند فوزية، نعامتان ملكيتان تضعان رأسيهما في الرمال حتى لا تسمعا ما يعكر الصفو وينكد القلب، حتى إنهما استقبلتا تعيين الأمير محمد عبد المنعم عضوًا في مجلس الوصاية، كأنه خبر تعيينه في مجلس نادي الجزيرة، لكن نادي الجزيرة هو ما جعلها تعرف

لا تنزل هي إلى نادي الجزيرة، بل أرادت دائمًا أن يصعد هو لها. نساء الجزيرة هن حلقة من حلقاتها النهارية التي أوسعتها في الأيام القلقة، كل شيء انتقل عبر الموائد والآذان التي خلعت أقراطها لتدع للإنصات حقه، لعلهن هوانم الوفد من خرجت من إحداهن هذه الجملة ساخطة :
ـ عبث بالدستور !
ربما قالت لها إحداهن إنها السيدة ثريا زوجة صاحب «المصري» أحمد أبو الفتح، ضحكت جدًّا الأميرة فايزة حين دوت هذه الجملة الحانقة بين الشفاه الأنثوية، هؤلاء الضباط الذين طردوا الملك لأنه يعبث بالدستور بدأوا هم سريعًا بالعبث به، يبدو أن قدر هذه المملكة أن يكون دستورها المعبوث قرين مليكها المرهوبأو لوائها المحبوب . تحسست لحظتها فايزة أوراق المنشورات المدسوسة في درج الكومودينو بجوار سريرها .
*
تبادل سليمان حافظ النظرات مع عبد الرزاق السنهوري، وفهم حافظ أن السنهوري كعادته سيترك له عزف القطعة الأولى. تجول حافظ بنظراته في الوجوه المتهيبة المتأهبة لسبب الاجتماع المتعجل المبكر، وهذا الإلحاح الذي مارسه حافظ باتصالات تلفونية خاطب فيها كل مستشار بنفسه بعد التحيات والسلامات، ومزيد من التواضع المبالغ فيه والتودد المفرط ثم التذكير بالقانون الجديد لمجلس الدولة الذي أقره مع دولة رئيس الوزراء، وكيف أن اللواء نجيب يقدر مجلس الدولة وحريص على استقلاليته، وليس كما فعلت الأحزاب القديمة ولا كما يبغي الوفد ويبتغيأن يكون القضاء مطية وفدية،ثم يعود سليمان حافظ ويعدد ما في القانون من مكتسبات وامتيازات، وأن نجيب حبيب علي باشا ماهر ونصيرالشعب، وأن الجيش لا يريد من الحكم دينارًا ولا درهمًا، فلما يُغشى على المستمع من مرافعة حافظ، ينهي المتصل المكالمة بأن السنهوري باشا سيكون سعيدًا بوفائكم، فأوفوا جميعًا في الصباح التالي، لكن الغريب أن العدد ليس كاملًا، بل غياب مستشاري المنصة يكاد يكون غالبًا، بل يكاد يعني أنه لم تتم دعوتهم. كان حافظ يعرف من يدعو، ولماذا يريد الاجتماع، ومن يجب أن يستبعدهم. هو اجتماع لقسم الرأي وليس لجمعية المجلس ولا لقضاته، وهو القسم المختص بإبداء الرأي والفتوى، هكذا قال للسنهوري حين حاول أن يكون أمينًا، وسأله أليس في هذا تجاهلًا للسادة القضاة. تحدث حافظ في القاعة التي جلس فيها المستشارون، لم يفتحوا الشبابيك حيث الهواء الداخل أحر وأثقل من الهواء المحبوس الموزع بينهم، كل حسب سعة صدره. عرض حافظ المعضلة الدستورية: هل ندعو مجلس النواب المنحل (ردد كلمة «المنحل» كثيرًا، ووضعها في كل جملة، وأنزلها فوق كل وقفة صمت، وملأ بها كل سطر كأنها من أوراد الصباح!) للانعقاد ليقسم أوصياء العرش اليمين أمامه، أم نضيف مادة تنص على أنه في حالة نزول الملك عن العرش، وانتقال وصاية الملك إلى خلف قاصر، يجوز لمجلس
الوزراء إذا كان مجلس النواب منحلًّا أن يؤلف هيئة للعرش تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك؟
كان السنهوري يصب نظراته من خلف عدسات نظارته المدورة علىالدكتور وحيد رأفت، الذي كانتكل خلجاته تنتفض رفضًا لما يقوله سليمان حافظ، يتحرك متقلقلًا عن كرسيه، متصفحًا وجوه مجاوريه ليرى وقع هذا الطين الذي يرميه حافظ على الدستور وعلى وجوههم: كيف لا ينزعجون ولا يحتجون ولا يغضبون على سليمان حافظ وهو يمزق الدستور، ويحوله إلى قطعة قماش

يفصلها كما يهوى خياط محترف لزبون ميسور؟! نهض وحيد رأفت عن كرسيه، أستاذ القانون الذي يحاول أن يرد عن الدستور الإهانة، لكن حافظ أقعده بكلمته وإشارته :

ـ نحن لم نفتح النقاش حتى الآن يا دكتور وحيد !

لكن وحيد تخلى عن تهذبه، ورمى تأدبه تحت الكرسي وهو يرد :

ـ أي نقاش يا سليمان بك؟ !

قالها متعجبًا متهكمًا بأعلى نبرة، يتحدث بها مع طالب مستهتر من طلبته في كلية الحقوق، لو قال أحد طلابه ما قاله حافظ لرد عليه بأن المناقشة الأمينة الحرة حول كيفية اغتصاب امرأة لا تجعل الاغتصاب شرعيًّا

غمغم مستشارون من هؤلاء الذين رأوا في عينَي السنهوري شيئًا من عدم الرضا على مقاطعة رأفت لحافظ، وتداخل آخرون في إبداء الرغبة في إكمال حافظ بك كلامه :

ـ وما الجديد الذي يمكن أن يضيفه أصلًا؟

ـ وضع البلد .

ـ أنا لا يهمني وضع البلد إذا كان الدستور سيوضع على الرف، أو يتحول إلى بدلة تشريفة، ثم هذه مسألة لا يصح أن ينفرد في مناقشتها المستشارون الإداريون فقط، ونستبعد منها قضاة المنصة، فالقصة ليست ورقًا يُحكى ولا مواد تكتب، بل قضاء يقضي وباطل ينقضي !

ـ نحن لا نريد أن نسمع عاطفة وفدية وحزبية هنا

عندها خلع رأفت نظارته وشخط :

ـ بل ما أسمعه من الأخ حافظ هو صوت الغريزة الكارهة !

نعم هي الكراهية يا وحيد، فقل ما عندك كما يحلو لك، لا أنا أنكر ولا أنا أنفي. كان سليمان حافظ يكظم غيظه من عكارة وحيد رأفت التي تفسد عليه بحيرته الهادئة، لكنه تمالك أعصابه تمامًا، غلفها بحديد واقٍ. دع وحيد يفرغ طاقته كما يريد، وليذهب إلى أصدقائه الوفديين، ويحكي لهم عن بطولته أمام حافظ والسنهوري. أمعن حافظ في التحدي البارد :

ـ لنترك للزميل الدكتور رأفت حقه كاملًا في طرح رأيه !

لحظتها فطن وحيد رأفت إلى أن كل شيء مطبوخ ينتظر نهم التهامه، وأن حافظ والسنهوري ما كانا ليجمعا هذا العدد في هذا المكان إلا وقد حسباها بالورقة والقلم والعدد والنفر! لكنه لم يسمح لنفسه أن يرى عورة الدستور أمامه ولا يسترها، فقرر أن يحاضرهم، فشرح الدستور وقدَّم الحجج والأسانيد والسوابق في الدول الأخرى، وظل يتحدث حتى شعر بالإجهاد، فاستفزه الصمت المطبق فطق ضاجًّا :

ـ ما يطرحه الأخوان السنهوري وحافظ هو تحايل على الدستور، بل عبث به والتفاف حوله يمنع مجلس النواب المنتخب من الشعب (وهي من المرات النادرة التي كانت فيها الانتخابات حرة) من العودة للانعقاد، فتظل الحكومة متسلطة وحدها على التشريع وعلى القانون، والله أعلم ما المخبوءلنا بعد هذا التلاعب من ألعاب، تحدفنا إلى ماكان في عهد فاروق الذي طرده الجيش، فالدستور إذن ورقة نطويها إن احتجنا، ونفردها إن أردنا، ونمزقها إن رغبنا !

كادت أنفاسه اللاهثة تسحب روحه معها، فقفز فوق صمته صوت أحدهم يثرثر ثرثرة قانونية أثارت غثيانه، ومضى آخرون فتداخلوا يردون بقطع من أدب التزلف، وبأبيات من معلقات النفاق. والعجيب أن السنهوري الغائص في كرسيه ودخان سجائره صامت لا يفند ولا يحاجج، وحافظ

الواقف طوال الوقت يدور ويلف ويقبل ويدبر على صفوف الوجوه، فلا يعلق ولا يقاطع إلا بهمهمة أو ابتسامة أو إيماءة، أو طلب قهوة من الساعي، أو الإشارة للساعي نفسه بتزويد دوارق المياه، وجلب قطع التوفي من مكتبه ووضعها أمام الزملاء، ورفع أكواب الشاي المشروب واستبدال فناجين القهوة المغموسة فيها أعقاب السجائر، وإفراغ منافض السجائر، وفتح شباك لتغيير الهواء أو جلب مروحة إضافية من القاعة المجاورة، ولا شيء عن الدستور الذي يظن وحيد رأفت أنه يدافع عنه بينما هو يدافع عن الوفد الذي سيبوء بالخيبة وبؤت أنا مع السنهوري بالفوز .

تكلم حافظ أخيرًا :

ـ أيها الزملاء الأجلاء، لقد اكتشفت حالًا (قالها وهو ينظر إلى ساعته) أن هذا الاجتماع مستمر منذ سبع ساعات، وقد آن أوان الحسم بالتصويت .

عادت لوحيد رأفت ثورته :

ـ التصويت لن يطهر القانون المعيب !

رد أحدهم :

ـ الغسل أصل الطهارة .

كتم حافظ ضحكته، بينما خشي السنهوري أن يكون رأفت قد سمع الجملة المتهكمة، فيزداد ثورة تفسد عليهم دقائق الساعات السبع الأخيرة !

كانت نتيجة التصويت هي الإجماع ما عدا صوتًا واحدًا هو صوت وحيد رأفت الذي علا صوته الآن :

ـ سيدي الرئيس، أتشرف بتقديم استقالتي من مجلس الدولة اليوم !

همس سليمان حافظ :

ـ حصل لنا الشرف !

لم يكن يهم الأميرة فايزة من هذا كله إلا أن الأمير محمد عبد المنعم صار عضوًا في مجلس الوصاية. لقد جاءوا إذن بالأمير الذي لا يقول «لا»، ولا يقول «نعم»، لسبب بسيط للغاية أنه لا يقول شيئًا. كان طبيعيًّا للغاية، ومحمد عبد المنعم هو ممثل العائلة المالكة (الذي لا تتذكر شكله إن كان له شكل)، أن يوقع على مرسوم بتخفيض مخصصات البيت المالك من مائة ألف جنيه سنويًّا إلى أربعة وعشرين ألفًا... لتذهب معهم إلى الجحيم يا سمو الأمير، أو إلى كابري مع ملكك الخائب !

*

قالت لزوجها على الصبح سينهون الملكية، كأنها حلمت بالأمر فجرًا أو عرفت بالخبر من فم سكير مهم ليلًا، فنامت بالمعلومة لتصحو بالنبوءة. على الإفطار الذي احتلت القهوة فيه مكان البيض والجبن الفرنسي، قررت بعد الرشفة الأولى العودة للنوم، وهي تحلف أنها لو تزوجت من مدربها في الفروسية الضابط في الحرس الملكي محمد علي شاهين لكانت زوجة سعيدة. منه لله فاروق التعس الذي رفض وصمم على تزويجها من أمير من الأسرة المالكة، فراوغت وعاندت ورفضت حتى ضاع منها محمد علي شاهين، واختاروا لها بعد يأس من عنوسة الأميرة محمد علي رؤوف سليلالعائلة الملكية التركية البائدة . تغطس تحت لحافها الحريري وهي تتحسر على جسد أميرة في الثلاثين من عمرها، لم يرتوِ على الرغم من ظمئه بماء الشغف قَطُّ .

قالت لزوجها وقد خبأت رأسها تحت الغطاء، ولم تعد تعرف هل لا يزال في الغرفة أم خرج :
ـ عرفت من محاسن سعودي أنهم سيصادرون أراضي الملك وأكيد عائلته، وينوون إصدار قانون لتحديد الملكية الزراعية .
ثم تنهدت :
ـ يعني راحت علينا الأربعة آلاف والخمسمائة فدان يا رؤوف !
رد رؤوف مستفهمًا :
ـ من هي محاسن سعودي؟
صمتت عن الرد زاهدة، لكن صوت أنفاسه المنتظمة زادهحضورًا، فرفعت اللحاف عن وجهها، ودارت بعينيها في الغرفة، فوجدته جالسًا على المقعد القطيفي، وخلفه النافذة ترمي ظلال ستائرها على وجهه ينتظر إجابتها عن سؤاله. لمرة نادرة تجد زوجها مهتمًّا، والغريب أنها مرة تستحق فعلًا. طردت النوم من عينيها، لكن ليس إلى درجة أن تنزل عن السرير، واستندت على جدار الفراش الخشبي المنجد بالقطنوالمنقوش برسوم الخيوط المذهبة :
ـ هل تملك وقتًا؟
رد رافعًا كتفيه :
ـ لا شيء نملكه الآن يا فايزة إلا الوقت !
رأت لحظتها وسامته تعود إلى وجهه مع ابتسامة حانية يحاول أن يبدي فيها مسؤوليته عن سعادتها. كان يطل طوال زواجهما على مشاعرها من شرفة عالية، ها هو نزل منها الآن ليشاهد مشاعرها عن قرب. سألت نفسها: لماذا قررا منذ زواجهما أن الحب ليس ضروريًّا إلى هذا الحد؟! كم تمنت أن تكون مثل شقيقتها الصغرى فتحية، تتزوج من تحبه حتى لو كان تافهًا نصابًا مثل رياض غالي، لكنها صنعت لنفسها قصتها عن الأميرة التي أحبت الشاب الفقير (تخلت عن مملكتها وتخلى هو عن دينه ... تلح فايزة على نفسها دومًا أن إسلام رياض غالي هو ورقة لن يصدقها لا محمد ولا المسيح). حتى أختها فايقة غامرت وتزوجت رجلًا من الشعب (دبلوماسيًّا فليكن، لكن ليس أميرًا ولا حفيد ملكة ولا عثمانيًّا تركيًّا مثل زوجها)، بل غامرت وواجهت ملكها (الأخ فاروق الغبي)، وأرغمته على القبول بزيجتها. طبعًا الإمبراطورة فوزية أختي الحزينة، فبعدما تركت ابنتها في إيران وودعت تاج إمبراطوريتها، كل الصفحات التالية في قصتها تبدو هامشية، وإن كان والله زوجها إسماعيل شيرين وزير الحربية لأربع وعشرين ساعة فقط، رجل طيب يليق بحزنها. أما أنا فلم أتشبث بمحمد علي شاهين، فارسي الجميل الرشيق الوسيم ضابط الفروسية الملكي، وخرجت من كتاب قصص الأميرات الذي كادت تنتهي صفحاته، بل يرمى في نار المدفأة الحجرية .
ـ محاسن سعودي زوجة عبد المنعم أمين
ـ ومن هو الأخ عبد المنعم أمين؟
ـ البكباشي عبد المنعم أمين لو سمحت !
قالتها فايزة وهي تشير إليه بسبابتها، ثم أدركت أنها تحتاج جلسة تدريم أظافرها قبل خروجها للغداء، فهي لم تكف عن قضمها طوال الليل .

26

ـ دعك من الضباط التسعة الآن، وقل لي رأيك في الضباط الأربعة !
عاد عبد الحكيم بظهره إلى مسند المقعد، وتنهد مبتسمًا قبل أن يجيب عن سؤال عبد الناصر .
كان عبد الناصر قد أزاح نظراته عن وجه حكيم، وصوب مقلتيهعلى شراعة باب الغرفة المطل على السلم، وقد سمع حركة جنديٍّ الحراسة أمام الباب، وتذكر ليلة عودته من مبنى قيادة الجيش ناقمًا غاضبًا بعدما قرر زملاؤه الذهاب إلى الدكتاتورية ما استطاعوا إليها سبيلًا، ثم سمع دقات الباب في مساءات الليل بعد دبيب حرس يبدو أكثر مما اعتاده، وهمهمات سمعها فحيحًا، وقفزات على درجات السلم بأحذية ثقيلة، فسحبته اللحظة إلى يومياته التي سجلها في حرب فلسطين، كأنما صدى السطور التي كتبها تتلى عليه في ذلك المساء الكئيب، تحية وأطفاله في الداخل خشي عليهم كما ذات الخشية التي أرعدته في فلسطين :
لاحظت أن هناك دمًا يتساقط على القميص، فسألت الجاويش الذي أخبرني أن هناك جرحًا بسيطًا في ذقني، نظرت فوجدت أن الدماء تبلل القميص حول الجيب الشمال، وأن القميص به خرم متسع، وكان محل الإصابة يظهر في منتهى الخطورة فوق القلب. أخبرني الطبيب أنها شظية وليست رصاصة. في غرفة العمليات وجدوا شظيتين بالجرح، ارتفعت روحي المعنوية وحمدت الله، فأول ما خطر على بالي عند الإصابة كان الأولاد وأمهم (نعم هو لا يكتب اسم زوجته حتى في يومياته، وهو لا يحكي عنها إلا نادرًا لغير نفسه ولغير أطفاله)لقد فقدت الأمل في النجاة ولكن الله كريم .
لف الفوطة التي جفف بها رأسه من غسيل الماء منذ لحظات حول رقبته (الإعدام الواقف على الباب سيكون بالرصاص وليس شنقًا عمومًا)، حين سحب ترباس الباب ليفتحه، كأنما الدقيقة التي دخل فيها حقل الألغام في عراق المنشية بفلسطين، قرر أن يواجه مصيره بشجاعة، وإن أحس أنه جاء سريعًا جدًّا وخاطفًا للغاية، ومن الأصدقاء وليس من الأعداء، من هؤلاء الذين قادهم لطرد الملك، جاءوا ليقتادوه إلى المجهول، فتح الباب ونجا كما عبر يومها حقل الألغام آمنًا، صاح فيمن رآه :
ـ الله يخرب بيتك، خضتني يا إبراهيم !
إبراهيم طلعت، المحامي وصديقه القديم (حاول إبراهيم طلعت أن يتذكر من قال أمامه قريبًا إن كثيرين يصفون عبد الناصر بالصديق، لكن ليس لعبد الناصر إلا صديق واحد هو عبد الحكيم عامر)، لم يفهم لماذا خض عبد الناصر! هل لهذا الوقت المتأخر الذي جاء ليزوره فيه؟ أجاب عبد الناصر عن تساؤل عيني إبراهيم الحائرتين :
ـ تصدق؟ كنت فاكر إنهم جاءوا كي يقبضوا عليَّ !
ـ من هؤلاء؟ ومن يجرؤ؟
اكتشف عبد الناصر أنه كشف مخبوء خوفه بسهولة عرت مشاعره، فسترها وقال لإبراهيم وهو يدعوه للجلوس :
ـ الزملاء في القيادة يتصورون أنني خدعتهم، وأنني أريد الحكم الديمقراطي كي أسلم البلد للوفد !
ولاء إبراهيم طلعت الوفدي الحار الذي استهدفه عبد الناصر قفز من داخله فورًا :

ـ وماله لما تسلم البلد للوفد؟ أليس هو حزب الأمة وصاحب الشعبية والشرعية؟
ضحك عبد الناصر مستردًّا قيادة نفسه وهو يعلق على تعجب إبراهيم طلعت الذي أضاف مستنكرًا مستغربًا :
ـ وهل تصل إلى درجة أن أصدقاءك (آه لعله بلا أصدقاء فعلًا... زملاءك) يمكن أن يقبضوا عليك؟
ـ جائز جدًّا. لا أستبعد أي شيء .
كانت زيارة إبراهيم طلعت من الإسكندرية للقاهرة لشقة عبد الناصر، زخات مطر على رأسهحول أهمية أن ينتصر الجيش للدستور والديمقراطية، وألا يستسلم عبد الناصر لعلي ماهر وسليمان حافظ والسنهوري. أحس عبد الناصر أن أحمد أبو الفتح هو الذي أرسله، أو فؤاد سراج الدين بعثه إليه رسولًا أو جاسوسًا. إبراهيم طلعت أطيب من الطيبة، لكنه وفدي كما جندي المراسلة، ربما لهذا يحبه، مدب وشفاف، ولا يوجد أي حاجز بيولوجي بين قلبه ولسانه. سمعه عبد الناصر بنصف اهتمام، ولكن منحه ثلاثة أرباع الأمل بأن الدستور فوق الرؤوس، لكنه لم يشرح لإبراهيم طلعت هل الدستور فوق الكابات أيضًا !
لم يملك عبد الناصر إجابة يومها، لكنه بات يملك أكثر من الإجابة الآن، وعبد الحكيم يجلس وحده معه في غرفة شقته، وقد دخل عسكري المراسلة بالصينية تحمل كوبي الشاي الزجاجيين. بادر عبد الحكيم بجمع الأوراق التي وضعها عبد الناصر على المائدة الصغيرة في صالون غرفة الضيوف، ورفعها عن المائدة حتى يتيح للعسكري الحائر مكانًا لوضع الصينية. ضحك عبد الناصر وهو يقول لعبد الحكيم :
ـ لقد ألغينا نظام المراسلة في الجيش، لكنه صمم على البقاء معنا في البيت !
تحمس العسكري بلهجته الريفية تقطر طميها مع حروفها، ووقف وقفة انتباه مجند كانت أقصى أحلامه أن يرضى عنه حضرة الصول :
ـ أرجع بلدنا فلا أجد لقمة آكلها، أبي فقير على قد حاله، وأنا لا مؤاخذة لا قراءة ولا كتابة .
كان من هؤلاء العساكر الذين أوقعتهم القرعة في التجنيد الإجباري، ولأنه لا يملك عشرين جنيهًا يدفعها بدلًا عن خدمته العسكرية، ليتم إعفاؤه رسميًّا من التجنيد، فقد تجند كغيره من الذين جندوا لعدم قدرتهم على دفع البدلية
تبادل ناصر وحكيم النظرات، ففهم كلاهما أن هذا الفتى الذي يتحدث كأنه لم يخرج من جرن بلدهم، يجهل حتى الآن أنه يقف في حضرة من ألغوا نظام المراسلة، وأحدثوا في الجيش انقلابًا، وقلبوا البلد كلها رأسًا على عقب، يشبه هؤلاء العساكر الذين حارب بهم عبد الناصر وعبد الحكيم وزملاؤهم في حرب فلسطين، لم تكن لديهم إلا الشجاعة الريفية ليقدموها فقدموها، لكن انهزموا من أصحاب الشجاعة التي تحمل إمكانيات وتملك خطة. كان العسكري يستعيد وقفته أمام دوار العمدة حين تخابث توددًا :
ـ ثم أمشي وأتخلى عن شرف خدمة حضرة البكباشي جمال! هو أنا مجنون أخرج نفسي من الجنة؟ !
ابتسم كلاهما، ثم خاطبه عبد الحكيم ضاحكًا بل مطبطبًا على ظهره :
ـ لا والبكباشي جمال لا يخلصه أن يطردك من الجنة .
ثم أضاف ضاحكًا :

ـ ويا ترى هل يدفعون لك أجرًا جيدًا في الجنة؟
ضحك جمال، بينما شعر العسكري بالارتباك والحيرة ثم انطلق قائلًا :
ـ ولو ببلاش، أنا أخدمه بعيني !
قهقه حكيم، وقد أشار جمال للعسكري بالخروج فخرج :
ـ طيب ما تعينه في مجلس القيادة إذا كان بهذا الإخلاص !
ـ إنت عايزه يروح من الجنة لجهنم حدف
ثم جذب الورق من يد عبد الحكيم وقال :
ـ ما رأيك؟ الزملاء على وشك الوصول .
كان عبد الناصر قد قرر (قدمه كاقتراح) أن يجتمع همالتسعة في بيته قبل الذهاب إلى مقر قيادة الجيش للاجتماع بحضور نجيب، فلا يختلفون أمامه، ولا يقدر على أن يغير ما أجمعوا عليه وتوصلوا إليه من قرارات . لم يشأ الحديث معهم في التلفون الذي ركبه في البيت منذ أسبوع فقط، فقد اتفق مع زكريا محيي الدين على أن تصله من المخابرات تقارير عن كل مكالمات الضباط (وبالتأكيد لم يستثنِ زكريا تلفونه من التنصت. ابتسم
عبد الناصر عندما جال الخاطر في ذهنه، ولم يساوره شك في أن زكريا يتنصت حتى على نفسه) ، وشمل التنصت القائمة التي كان معمولًا بها أيام الملك في التنصت على المكالمات للسياسيين والوزراء والباشوات والشيوعيين والأجانب. حين استفسر من زكريا عن إمكانية ضم العائلة المالكة إلى قائمة المتنصت عليهم، ضحك زكريا وقال إنها ضمن القائمة القديمة أيضًا، التغيير الوحيد بعد طرد الملك هو نقل التقارير من القلم السياسي والمباحث العامة إلى المخابرات الحربية .
دعا هذا الصباح عبد الحكيم قبل موعدهم حتى يعرض عليه قراره (قدمه كاقتراح):
ـ لا ينفع أن نتجاهل دور زملاء آخرين في الانقلاب، ولا يصح أن نجتمع في مجلس القيادة ونقرر من غير ما يشاركوا معنا، ثم الأسلحة كلها بدأت تسأل لماذا هؤلاء التسعة فقط، وكل واحد ركب مدرعة ولَّا خطب في العساكر ليلة الانقلاب يرى نفسه بطلًا ومشاركًا في الخطة والنصر! فما بالك بهذه الأسماء الأربعة؟
كان عبد الحكيم يفهم ما لم يكتبه عبد الناصر في الأوراق التي خطها بيده في سطور منتظمة بحروف واضحة وبأرقام ودوائر، وليس فيها كشط واحد ولا شخبطة على كلمة أو اسم. لقد فكر واستقر، ويريد منه فقط أن يوافقه، حيث لن يعترض أحد لو وافق عبد الحكيم عامر. آه لو كان عبد الناصر واضحًا أكثر معه، أو ربما كلاهما لا يحتاجان إلى الوضوح، فلا غموض بين مرآتين .
رد حكيم :
ـ قطعًا نجيب موضوع مقطوع به، لازم في مجلس القيادة، وطبعًا لا جدال في زكريا محيي الدين، ثم هو الآن مسؤول المخابرات الحربية، فالمفروض إن أسرار الجيش كلها معه، لكن أليست مشكلة أن يكون في مجلس القيادة شقيقان مثل آل سالم، وكذلك أولاد عم مثل خالد وزكريا؟
أطرق عبد الناصر موافقًا، لكن رافعًا كتفيه كأنما يعلن وما الحيلة هنا؟
أضاف حكيم ضاحكًا:
ـ ناقص لنا اثنان أولاد خالة !

عاد للورقة وأردف:
ـ ثم طبعًا يوسف صديق، صحيح أنه لم يكن معنا منذ اليوم الأول وانضم متأخرًا، لكن ما فعله ليلة الانقلاب أنقذ رقابنا كلنا، وهو سبب ما نحن فيه الآن، لكن لماذا حسين الشافعي في الفرسان وليس ثروت عكاشة؟
ـ لأن الشافعي الأقدم .
ابتسم حكيم، فالشافعي الأقدم فعلًا، لكنه كذلك الأسهل والألين، ولا يريد عبد الناصر ممثلًا إضافيًّا لسلاح الفرسان من عينة خالد محيي الدين (الذي رجع من المصيف) ينافسه في عدد الكتب التي قرأها .
ـ طيب وعبد المنعم أمين؟
ـ لعب دورًا مهمًّا جدًّا، بل ورئيسيًّا، ليلة الحركة في سلاح المدفعية .
آه، يأبى عبد الناصر أن يكشف حركات قطعه على رقعة الشطرنج حتى وهو لا يلاعبه، بل يلاعب السبعة القادمين الآن إليه في غرفة ضيوفه ذات الباب المنفصل عن شقته التي يقف أمامها عسكريان، ويخدمه داخلها عسكري فلاح يعتقد أن الجنة تقع في شارع يسكنه حضرة البكباشي .
إذن عبد الناصر سيضم عبد المنعم أمين البكباشي المليونير صاحب العزبة، لكن حكيم يتمزج كأنه الآن يسمع أسطوانات «الجاز» الأمريكي تدور وتصدح فوق اسم عبد المنعم أمين ... آه يا جيمي! لا تنسَ أن صندوق الشطرنج كان في درج دولابي !
قال حكيم :
ـ موافق طبعًا .
عندما دخل السبعة الآخرون تباعًا، كان كل واحد فيهم يحمل نسخة من جريدة مصطفى أمين «الأخبار»، حيث الصفحة الأولى وعنوان كبير بالأسود الثخين: «قصة الضباط التسعة». كانت النسخة نفسها على مائدة عبد الناصر على الصفحة نفسها
صاح صلاح سالم مستخفًّا :
ـ زكريا يقول إن الضباط في الفرسان والمدفعية غضبى جدًّا من المقال .
نظر عبد الناصر إلى حكيم، فقال حكيم لهم :
ـ لهم حق .
لم يتمالكحكيم نفسه من التصفيق إعجابًا بعبد الناصر. يا أخي ما هذه العقلية الألمعية؟! مصطفى أمين الذين رفضوا جميعًا الإفراج عنه، بل السادات كان يريد إعدامه، جاء من السجن إلى مقر قيادة الجيش وانتظر مع التابعي وصحفي آخر أظن اسمه هيكل، محمد هيكل، فوقف مصطفى أمين أمامنا بطوله الفارع وجسمه الجسيم، يستعرض قدراتهوخبراته واتصالاته وصلاته وصولاته وجولاته، ويُخرج منكُميه الأرانب ومن طربوشه الحمام، ويعرض خدماته للجيش الباسل . وسبحان الله! فجمال عبد الناصر يخصه بأن يكتب قصة تأسيس التنظيم وقيادة الحركة، ويدعه يكشف لأول مرة هو دون غيره بل هو قبل غيره أسماء مجلس القيادة! لم يفعلها عبد الناصر مع أحمد أبو الفتح (الذي يزوره في حديقة جورناله «المصري» مساء، ويمكث معه في حديقته ساعات من الليل)، لأن أبو الفتح رجل الوفد وقلمه، ولا قدَّمها إلى إحسان عبد القدوس، رغم أن إحسان من قاد الحملة الصحفية عن الأسلحة الفاسدة (صحيح أنها كلها محض وهم، ويعرف عبد الناصر قبل غيره أنه لم تكن هناك رصاصة واحدة فاسدة في حرب فلسطين، وبرأت المحكمة كل

المتهمين بصفقات شراء فاسدة للأسلحة لم يصل منها أصلًا لفلسطين صندوق واحد من الذخيرة حتى، آه هذه فرصة كي أقترح على عبد الناصر أن نعيد محاكمة هؤلاء المتهمين، فكيف يحصلون على براءة في قضية الأسلحة الفاسدة التي برأ الضباط أنفسهم بها من الهزيمة الساحقة، وانتقموا من قياداتهم التي خذلتهم بل وعبر فوقها الضباط الأحرار إلى قصر عابدين). عبد الناصر قرر أن ينشر مصطفى أمين الأسرار وحده في جريدته، جريدة الملك المعادية للوفد، لا، بل هي الجريدة التي يشارك الأمريكان في حبر طباعتها. كان عبد الناصر قد اختار ساعي بريد موثوقًا به محترفًا بينه وبين الأمريكان. يبدو أن سامي شرف قد حصل على أرشيف مصطفى أمين السري يا جيمي!
قد يستغرب عبد الناصر لو عرف أنني أعرف، هذه مشكلته، إن عبد الناصر يخيل له أحيانًا أنه أقوى مني داخل الجيش، غدًا سيفهم !
تأمل عبد الحكيم عنوان الجريدة في الصفحة الأولى بصورة جمال عبد الناصر وحده (صورنا نحن في الصفحة الداخلية، لقد فهم مصطفى أمين من القائد الحقيقي ورمى كل قيشاطه عليه، وأوصلإذن إلى قوات الجيش من هو قائدهم الحقيقي، ناصر لا نجيب، وأعلم مصر كلها، طرابيش وعمائم ولاسات وشالات وأفنديةوباشوات، أن عبد الناصر هو صانع الحركة وقائدها الذي آنله أن يخرج على خشبة المسرح). سمع صلاح سالم يقرأ مجلجلًا عناوين المقال :
ـ من هم التسعة؟ الصحف كلها لم تستطع أن تكشف سرهم، إن كل الناس تتخبط في أسمائهم، من هم؟ أين هم؟ ماذا يفعلون؟ إن «الأخبار» ستنشر من اليوم قصتهم كاملة، وهي قصة خطيرة .
قهقه جمال سالم، كأنه في جلسة مرح في ميس الطيارين :
ـ قال يعني هو الذي اكتشف وعرف السر، ما كل الصحفيين يعرفون، لكن من الذي سمح له بالنشر؟ ومن الذي أملاه ابن اللئيمة؟
لم يحدد جمال سالم من يقصد بـ«ابن اللئيمة»، أمصطفى أم من أبلغه؟
ابتسم عبد الناصر :
ـ السادات .
قهقه السادات :
ـ أنا يا جمال؟ الحقيقة هو أنا فعلًا، وبعد جلسة مطولة، لكن بناء على أوامر جمال، هو الذي أخبره وأمرني أقعد معه أحكي له سر الضباط التسعة !
تحاشى السادات أن يخبرهم أنه تكلم مع عبد الناصر في التلفون (كل مجلس القيادة ركب تلفونات في بيوتهم منذ أيام، الوحيد الذي كان هناك تلفون في بيته قبل الانقلاب هو محمد نجيب)، وقرأ له ومصطفى أمين بجواره في شقته بالروضة المقال كاملًا، ولم يحذف ويغير فيه عبد الناصر إلا ثلاث كلمات .
أمسك كمال الدين حسين بالجريدة وهو يقرأ منها :
ـ إن جمال عبد الناصر يعرض الأمر على مجلس التسعة، ويتحدث بأعصابه الحديدية الصارمة، وبوجهه الهادئ الجامد .
لكن البغدادي قاطعه وقرأ من الجريدة المطوية التي رفعها عندعينيه :
ـ وكان وجه عبد الحكيم عامر وهو ثعلب ماكر داهية لا يقول شيئًا، كان ساكنًا وكأنه مستغرق في حلم جميل، وكأنه في دنيا أخرى لا يسمع ما يجري في الغرفة الأخرى .
قهقه صلاح سالم :

ـ عبد الحكيم كان نايم، إنت يا جيمي الذي أمليته هذا الكلام .
علَّق عبد الناصر مبتسمًا :
ـ حالم لا نائم .
جمال سالم سألهم دون أن يفرد الجريدة ويقرأها بنفسه، فقد فهم الآن أنها أوصاف كتبها ناصر والسادات غالبًا :
ـ ماذا قال عني؟
حسن إبراهيم هو من أسرع وعلا صوته بما كتبه مصطفى أمين عن كمال الدين حسين، وهو ينقل نظراته من كمال إلى عبد الناصر إلى الجريدة، أهذا رأيك في كمال؟
ـ وكان كمال الدين حسين جالسًا كما يجلس المدفع، مستعدًّا للانطلاق، وكأن جسمه قطعة كتل من الديناميت والصواريخ المستعد للانطلاق .
علَّق جمال سالم :
ـ ما هذا الكلام الفارغ؟ ماذا كتب عني؟
طوى صلاح نسخته من الجريدة ووضعها أمام عيني أخيه :
ـ كاتب شعر، البحتري ناشر قصيدة عن الضباط التسعة في جريدة «الأخبار ».
ضحكوا. كانت الجلسة تتحول إلى حفلة سمر في ليالي المعسكرات الطويلة، فقرر حكيم أن يمرر ما أراد عبد الناصر أن يتم، فطرح الأسماء الأربعة للانضمام إلى مجلس القيادة، فوافقوا ببعض الغيرة المغطاة بالمرح، لكن عندما وصلوا تباعًا إلى مبنى قيادة الجيش كان الغليان قد ملأ بخاره المكان كله .
*
دخل الياور إسماعيل فريد إلى مكتبه، وأبلغه أن مجلس القيادة ينتظر سيادته. تعجب اللواء نجيب، فقد اعتاد عبد الناصر وصلاح، أو السادات وكمال، أو اثنان ثلاثة منهم، أن يحضروا إليه ويستأذنوه في عقد الاجتماع ويدعوه له! ابتلع هذا التغير الذي لحق بهم دون أن يقف في حلقه طويلًا. طوى الجريدة أمامه ووضعها على يمينه. تحمل سر الضباط التسعة إذن. لم يسمح لنفسه بالانزعاج، فمن حق جمال عبد الناصر وصحبه أن يعرف الناس بهم، وأن ينشروا صورهم في الصحف، ليس له أن يتشكى، فالحقيقة أن صوره تملأ أغلفة المجلات المصرية والأجنبية، وأخباره تلاحقها الصحف، كأن تروس المطابع لا تدور إلا بها، والوفود المهنئة المحتفية المتسائلة الراجية تحتشد ليل نهار على باب مكتبه، لكنه لم يكتفِ بالجلوس في مكتبه، بل أحب أن يكون بين الناس، فإذا به يرى نفسه كل ساعة في مكان، يتنقل كأنه في أرض معركة يأمر ويقود، ينبه ويشير، والقلوب تهفو إليه، والأيدي تتبرك بمصافحته وملامسة كتفه، والوجوه تصرخ بالفرح لمحياه. كان يتحول معلمًا وطبيبًا وواعظًا وقسيسًا وحاخامًا ومحاميًا وقاضيًا وصعيديًّا وفلاحًا وسودانيًّا في اليوم ألف مرة. حين يلتقي بكل مجموعة يجد نفسه وقد ارتدى ثوبها ووضع عمامتها. أول أمس في جامع سلاح الفرسان بعد انتهاء صلاة الجمعة وقف خطيبًا فوق درجة المنبر :
ـ أرجو بهذه المناسبة أن أوضح أمرًا مهمًّا، وهو معنى التمسك بالدين، فالتمسك بالدين ليس معناه التعصب إطلاقًا، بل إن ديننا دين سمح، يحض على المحافظة على إخواننا أهل الكتب السماويةعامة، وأن نحافظ على الذميين (لو سمعه مصطفى النحاس وهو يصف المسيحيين واليهود بأهل الذمة لأنزله من على المنبر، ينهره ويوبخه ويشخط فيه :لست خطيب جامع ولا

شيخًا يا سيادة اللواء!)، فإنهم مواطنونا، نحافظ عليهم ونرعاهم، وهذا من مبادئ وآداب القرآن. واستمسكوا بالله، ولو أن أحدكم وقع في مأزق وتذكر الله عز وجل، فإنه لا بد خارج منه سالمًا، ولقد لمست هذا بنفسي أثناء حركتنا التي قمنا بها .
بعدها بساعات وقف في بطريركية الأقباط خطيبًا ردًّا على كلمة غبطة البطريرك :
ـ لقد قامت الحركة على أكتاف الضباط المصريين من مسلمين وأقباط لا فرق بينهم، بل الجميع في الوطن سواء .
في الطريق إلى البطريركية الكاثوليكية بعدها بساعة، طلب من إسماعيل فريد أن يسأل عبد الناصر عن أي أسماء لضباط أقباط شاركوا في الحركة، وإذا لم يرد عليه عبد الناصر فليسأل زكريا محيي الدين في المخابرات. لم يصله رد وهو في قلب البطريركية الكاثوليكية في كوبري القبة (رغم قرب المسافة من مبنى قيادة الجيش)، لكنه وقف وسط القساوسة يخطب :
ـ في الواقع، كان الفضل في نجاح الحركة الأخيرة راجعًا إلى استعداد النفوس لها، ولتكتم القائمين بها، وإلى اتحاد أفكار القائمين عليها .
في الثامنة من صباح اليوم التالي، زار وحدات الجيش المعسكرة بمنطقة الجبل الأصفر، وبدأ بسلاح الحدود :
ـ ولي كلمة لا بد أن أقولها، وهي ألا تجعلوا المادة كل شيء في حياتكم، فإن الجندي الذي تعاقد مع الموت ووهب حياته ودمه، لا يمكن أن ينظر إلى المادة .
بعدها في سلاح الإشارة ثم المهندسين ثم سلاح المهمات في المعادي :
ـ إن شعارنا دائمًا إنكار الذات، فما فسدت أمورنا منذ عام 1919 إلا من حب الظهور وحب الزعامة، ولهذا يجب أن نتجنب هذه النقائص .
كان يجد نفسه أمام هذا الموج البشري الهادر بالحب والحفاوة، مدفوعًا بأن يرتجل كلمة، فالجميع يريد أن يسمع منه، ويتلهف على نصائح القائد وحكمته، فأودع كلماته كل حنكة السنين وخبرة العمر. كانت خلاياه تتجدد في كل لقاء واجتماع بالجيش أو بشعب الحياة المدنية، لا يحس رهقًا ولا إرهاقًا، لا جهدًا ولا إجهادًا، الأمل الذي يراه في العيون يشع داخله قوة، والحب الذي تنطق به القلوب تجاهه يلهب عواطفه. وقف ذات مرة كأنما يمتطي حصان أحمد عرابي في حشد لم يكن يراه إلا ضبابًا من الوجوه المزدحمة، وصرخ بصوته المبحوح :
ـ لقد أردنا أن نمحو الوساخة ونبدأ من جديد !
ربما كانت المرة الأولى التي تدخل فيها كلمة «الوساخة» قاموس الخطب السياسية في مصر، وتنتقل إلى صفحات الصحف، وتنقل في الإذاعة في انتظار النظافة القادمة. إسماعيل فريد أو محمد رياض، ضباطه الثقاة، يشهدان دموعه تطفر، كلما عاد من اجتماع إلى السيارة يركبها فلا يصدق ما جرى ويجري فتجري مشاعره في قنواته الدمعية .
قام ممسكًا بعصاه وغليونه متوجهًا إلى غرفة الاجتماع بمجلس القيادة كي يترأسه مطمئنًّا، لا شيء كان ينغص عليه إلا رشاد مهنا، وها هو قد غار إلى مجلس الوصاية. بارع هذا الجمال عبد الناصر حين أبدع فكرة
تعيينه في مجلس الوصاية، والله العظيم رأيت دموع رشاد مهنا التي لا تليق بقامته الفارعة، وحدة قسماته التي يسن سنانها كلما رآه هو شخصيًّا كأنما يتحداه. إذا كانت لك شهرتك في الجيش يا نجيب فأنا أفوقك شهرة ولنتبارَ! إذا كنت على رأس مجلس قيادة، فأنا على رأس الجيش كله! نعم،

كانت هذه مشاعره المتحفزة، لكن حركة تعيينه ضمن أوصياء العرش أخرجته من الجيش، وبعد مرور أيام أدرك أنها أخرجته من قيادة البلد. فالمنصب للتوقيع والتمرير لكل ما يصدره مجلس الوزراء مأمورًا بمجلس القيادة (أنا يا رشاد). ابتسم نجيب عندما تذكر سليمان حافظ ألعبان القانون، الذي اقترح تعيين رشاد مهنا وزيرًا للمواصلات لمدة يوم واحد فقط، ثم يستقيل فيكتمل الشرط القانوني لتعيينه في مجلس الوصاية الذي لا يشغله أحد بأقل من درجة وزير. إلى عابدين يا رشاد يا مهنا، واترك لي كوبري القبة وحدي يا عزيزي! لكنه لن يكف عن التنغيص، إنه شوكة يا جمال، لا، لا داعي لأشرح لجمال تخوفي من مهنا، فلا حاجة لأقدم نفسي متخوفًا، ولا حاجة لعبد الناصر في مزيد من معرفة خطر مهنا، فهذا الشاب يشم الخطر كما يتشمم الثعلب قن الدجاج، أحبه فعلًا، بل أحبهم جميعًا، فقط لو يخفف الأخوان سالم من غلظتهما ولو قليلًا، لكن هذه الجماهير التي تزحف لي وأصعد لها سوف تُسكت الجميع، حتى الإنجليز أنفسهم، ما أخبار الإنجليز صحيح؟ بالتأكيد جمال عبد الناصر لديه فكرة عما سنفعله معهم، اتفاقية أخرى مثلما كان يفعل النحاس؟ لكن هل النحاس من سيفعل؟ وأين أنا؟

*

كانت اللحظة التي أبلغ فيها سليمان حافظ رئيس حكومته علي ماهر بأن مجلس الدولة انتهى إلى عدم دعوة مجلس النواب للانعقاد، لحظة بهيجة كتم فرحتها في صدره . ثم لما اجتمع مع الضباط ليسمعوا ويقطعوا بقرارهم، تعلَّق بوجه هذا الضابط الذي يبدو كل يوم أطول قامة من أمسه. آه يا عبد الناصر، ألم تكن متسرعًا في تسليم البلد للأحزاب؟ تهللت مسامه، وانبسطت كل أساريره، وأراد أن يقبل مجلس القيادة واحدًا تلو الآخر (بمن فيهم الأخوان سالم) حين وافقوا على ما طرحه وشرحه سليمان حافظ في الاجتماع المشترك بين الحكومة ومجلس القيادة . كان صدر علي ماهر يضيق بكل هذه القبعات العسكرية، وبكل هذه البذلات الكاكية التي تحاصر قراراته، لكنه لا يريدهم أن يعودوا إلى القشلاقات. ليس الآن، فسوف يعود معهم إلى بيته إن عادوا إلى الثكنات. هو يحتاج إلى دباباتهم في الشوارع كي يمنع عنه الوفد والإخوان والشيوعيين، وكي يدير مملكة مهترئة. هل سمع هؤلاء الضباط ما قاله وزير المالية؟ لقد تراجعت صادرات مصر من القطن هذا العام قرابة الربع. وامتنعت بريطانيا في ظل حكم جلالته المعظم عن استيراد محصول مصر الوحيد بقرابة الخمسين في المائة، هل يفهمون هذه النسبة؟ بعضهم درس التجارة كما عرفت، وبعضهم شيوعي كما فهمت، والاقتصاد يشغل الاثنين، وبعضهم إخواني، أو لعلهم كلهم، كما يروج الإخوان وأصدقائي في القصر الملكي، والإخوان تجار في كل شيء. فيفهمون أن مصر على وشك الإفلاس، لكنهم لا يكترثون بهؤلاء الوزراء (اخترتهم على عيني)، بل يشيحون ويهمسون ويتلفتون ويشخبطون على أوراقهم ويتهامسون بينهم حين يقول وزير شيئًا أو يحلل وضعًا أو يشرح قرارًا. أهي الريبة، أم المصيبة التي تجعل من خريجي أي تنظيم سري (لأ وتنظيم سري مغلق داخل جيش منغلق أصلًا) يتعاملون مع الكائنات خارج التنظيم كأنها أشرار يتربصون، ويحسبون كل صيحة عليهم هي العدو؟ لقد ظل أخوه أحمد ماهر منذ أيام شبابه يستريب ويخشى من حوله بذات مشاعره التي جبل عليها حين كان عضوًا في الفرقة السوداء، التنظيم السري لثورة 1919، ظل يخشى الغدر حتى جاءه على باب مكتبه، وهو رئيس وزراء مصر، واغتاله ولد إخواني بطلقات رصاص (ولد آخر عضو تنظيم سري آخر كتنظيمك القديم يا أخي).

علي ماهر رغم حماس حافظ المشتعل، وحماس السنهوري الرزين، يشعر أن هؤلاء الضباط قدتحولوا إلى ملوك فوقهم نجيبملك الملوك. إنهم لا ينظرون في عينيه أبدًا. كان رئيسًا لوزراء وديوان ملك واحد، فبات يحتاج إلى موافقة كل هؤلاء الملوكعلى أي قرار! تسلَّمهم كما تسلَّم فاروق في باكورة عهده: شابًّا محبوبًا وهم شباب محبوبون، بريئًا عديم الخبرة وهم أبرياء منعدمي الخبرة. يتفاءل به وبهم المصريون الذينيئسوا من اليأس . والنداهة ندهت فاروق، وزنَّ التاج على رأسه طنًّا وطنينًا، مما يجعل ماهر يخشى أن تثقل الكابات أيضًا منتفخة ثم تطير برؤوس هؤلاء الضباط الشبان، بينه وبينهم أربعون عامًا من الدهر، لكن ها هو شيخهم محمد نجيب نفسه يبدو في موسم تلقيح الطواويس .
اتفضل يا سليمان يا حافظ اشرح لهم مطالب تطهير الأحزاب حتى نتمكن من إجراء انتخابات نزيهة، وابقى قابلني لو تطهرت، وقابلني لو عمل هؤلاء الضباط انتخابات نزيهة أصلًا! أنا وأنت والسنهوري، وحتى هذه القبعات العسكرية، نعرف أن تطهير الأحزاب من الحزبية مطلب أبله، لا يخرج حتى من فم عبيط القرية، كيف نطلب من الأحزاب ألا تكون أحزابًا؟! إننا فقط نشعل حربًا أهلية داخل كل حزب، ليأكل فيها الأعضاء بعضهم بعضًا، والحقيقة أنهم يستحقون، طاب الآكل والمأكول، وإننا نتواطأ في جريمة رائعة لإنقاذ مصر من جرائم أفظع
العجيب أن نجيب خرج من الاجتماع هائجًا ضد الأحزاب! صرح وصاح وهدر وهدد أمام جموع الصحفيين في استوديو الإذاعة، في مؤتمر من مؤتمراته التي لا ينفك سرادق أحدها حتى ينصب آخر، في خطبة عصماء من تلك التي يبح فيها صوته، قال :
ـ إننا لا يمكن أن نطمئن إلى مناورات رجال السياسة، ولن نمكنهم من تحقيق أغراضهم ومواصلة ألاعيبهم، ولقد قام بعضهم بأعمال واتصالات مريبة، وفي غير صالح البلاد، ولن نتهاون في أي أمر من أمور التطهير مهما يكن !
لم يكن نجيب قد سأل أحدًا ممن حوله عما دار في هذه الاتصالات، إذا كانت هناك اتصالات أصلًا، بل كان يسمع من سليمان حافظ بأذن، وبالأخرى يسمع ما يصرخ به صلاح سالم في الاجتماعات، أو ما يقوله زكريا محيي الدين، ويصمت عن التعليق عليه جمال عبد الناصر. كلام عن ألاعيب، عن مناورات، عن باشوات، عن مؤامرات. لا تفاصيل سأل عنها ولا جاءته، ولكنه لا يحتمل ما يمكن أن يحدث لمصر من هؤلاء الساسة، حين يقابلهم وهم يحضرون إلى مكتبه يوميًّا وفودًا وأفرادًا يرحب بهم، ويعانقهم ويتضاحك معهم ويحبهم جدًّا، لكنه حين يرى عيون الضباط المتشككة والمنزعجة، ويتابع وخزاتهم في رجالات السياسة، يجد نفسه مندفعًا بالحماسة يخوض حربه لتطهير الأحزاب. يسأله مندوب «الأهرام »:
ـ وإذا لم تطهر الأحزاب نفسها كما يجب، فماذا ستفعلون؟
لم يقل أحد لمحمد نجيب معنى «كما يجب»! ما المطلوب بالضبط كي يجب الأمر؟ لكنه يعلنها مدوية صائحًا خابطًا بغليونه على سطح المكتب :
ـ نطهرها بالقوة !
يعجب التعبير جدًّا مندوب «الأهرام»، يدرك أن «الأخبار» لو حصلت على هذا التصريح لجعلته عنوانًا رئيسيًّا في الصفحة الأولى، ووضعت تحته رسمًا كاريكاتيريًّا لمصطفى النحاس تحت مقصلة أو مطرقة .
يكمل محمد نجيب :

ـ وقد اتفقنا مع الحكومة على ذلك (سيبتسم علي ماهر راضيًا، وسيرقص سليمان حافظ متخليًا عن وقاره، عندما يقرآن هذا التصريح: نطهرها بالقوة)، وكفى البلاد ما عانت من فساد عم أرجاءها، إننا ننصح ثم نحذر وننذر، فإذا لم تستمع الأحزاب إلى نصحنا وتحذيرنا وإنذارنا، فسيكون لنا معها شأن آخر !

ها قد اختارت «الأهرام» عنوانها: «القائد العام يتحدث إلى الشعب. إننا ننصح ثم نحذر ثم ننذر، ثم يكون لنا شأن آخر ».

كان سليمان حافظ يعرض على السنهوري هذا الشأن الآخر .

كان سليمان حافظ يقتل بصخب، بينما السنهوري يفضل القتل الهادئ. فالذي يمكن أن تقتله برصاصة، لا مبرر لتقذفه بدانة مدفع !

27

ـ أنا سعيد بكم جدًّا يا أولادي !
قالها السفير الأمريكي كأنه يتحدث من فوق سرج حصانه، يستل عود ثقاب طويلًا، ويحكه في العمود الخشبي، فتصدر طقطقة لهب صغيرة يشعل بها سيجارته، ثم يرفع قبعته تحية احترام لهم، ثم تنزل تترات النهاية في فيلم «كاوبوي» معروض في سينما «مترو جولدن ماير» في وسط القاهرة .
كان «كافري» متحمسًا للغاية وهو يتصفح وجوه الضباط أمامه، يترك تذكر أسمائهم إلى موظفيه في السفارة، الحقيقة هم ليسوا موظفيه أصلًا وليس له عليهم كلمة، إنهم ضباط المخابرات المركزية الأمريكية، وكل من في الغرفة يعرف، لكنهم كلهم يمثلون معه (حتى المتفرجون). لا ينكر أنه كان محبًّا ومتعاطفًا للغاية مع الملك فاروق، لكنه يئس منه منذ فترة، وهؤلاء الضباط أحق كثيرًا بالحماس، لم يكن مبالغًا في التعبير عن مشاعره العطوفة حين قال عنهم «أولادي». دعك من سنهم الصغيرة، ولكنهم يذكرونه بهؤلاء الضباط الذين غيروا معه دول أمريكا اللاتينية حين ساند انقلاباتهم (وصنع بعضها على عينه)، لكن ضباط مصر أكثر شبابًا وحماسًا وارتباكًا كذلك. المشهد أطلق كل طاقته في التفاؤل .
ضباط يوليو الذين أطاحوا بفاروق (لا تنسوا كم ساعدناكم في سيناريو طرد الملك وإخراج الإنجليز من مشهد النهاية في نهاية الفيلم)، حكام مصر الفعليون، يجلسون أمامه ومعه في بيت أحدهم الذي يحمل مسحة ملوكية من الثراء والترف، ملامحهم جميعًا بين السعادة والفضول، الشعور بالأهمية والإحساسبالحذر، الصمت المعبر والكلام بالإنجليزية بفصاحة ناشفة، وحدها سيدة البيت الأنيقة تبدو غريبة على هؤلاء الضباط تمامًا !
كان جمال عبد الناصر يزور بيت عبد المنعم أمين الريفي لأول مرة. يريد أن يصحح المعلومة، فهو ليس بيتًا، إنه ذلك القصر الصغير الذي تحيطه أسوار عالية تكسوها خضرة الحشائش وأغصان الأشجار الكثيفة، الذي تنفتح بوابته الحديدية عن ممشى طويل للسيارات تظلله تكعيبات العنب الممتدة، وينتهي بمدخل من سلالم رخامية تقود إلى تراس واسع فسيح مطل على حديقة من الفواكه والزهور. يريد أن يصحح مرة ثانية، فهو لا يزور عبد المنعم أمين في بيته (قصره)، بل سافر إليه، فالبيت في العزبة التي يملكها أمين في نهاية ريف المرج. كان معه في السيارة التي يقودها بنفسه عبد الحكيم عامر، بينما في السيارة الأخرى التي تتبعهم كان صلاح سالم وجمال سالم وزكريا محيي الدين .
عندما وصلوا وجد حسن التهامي يتعامل كأنه صاحب البيت، كان التهامي قد عيَّن نفسه رئيسًا لحرس عبد الناصر، هو في المخابرات مع زكريا، لكن فجأة قفز في مكتب عبد الناصر في مبنى القيادة، واعتبر نفسه مسؤولًا عن أمن وحياة عبد الناصر الذي رحَّب، فلم يكن يجدي كثيرًا النقاش مع حسن التهامي. لا ينسى أبدًا وجهه المبلول بالعرق، وملامحه تتحول إلى انقباضات وتقطيبات متشنجة، وهو يطلق الرصاص على حسين عامر، كل رصاصاته كانت طائشة ومجنونة تمامًا، فشلت في قتل رجل يبعد عنه عشرة أمتار، لكن عبد الناصر لا يزال يذكر وجه حسن التهامي، وهو يعود إلى السيارة ويجلس بجواره بعد تنفيذ العملية مطمئنًّا هادئًا بلا ذرة من تأثر، بلا لمحة

من انزعاج، كأنه لم يقتل رجلًا منذ عدة ثوانٍ، كأنه فرغ من شرب ينسونه المفضل، كأنه إنسان آخر انشق عن الأول. صافحه الآن مبتسمًا معتبرًا أنه يصافح التهاميين، وليس تهاميًّا واحدًا، ثم ها هويدلف إلى بيت (قصر) عبد المنعم أمين، ملاحظًا الانبساط والروقان الذي يطفو على تعامل حسن التهامي (كلًّا، التهاميين)مع زوار البيت الأمريكان .

استقبلهم عبد المنعم أمين، يرتدي بدلة أنيقة برابطة عنق حريرية، ومنديل أبيض يظهر بتشكيل هرمي فوق الجيب، وابتسامة أوسع من بيته. كانت تقف بجواره زوجته محاسن سعودي، بفستان أبيض يكشف عن ذراعيها، وينساب قماشه يحيط برشاقتها، وعقد من اللؤلؤ يطوق عنقها ويرسو على صدرها الناهد. صافحوها جميعًا برقة واحترام وتحفظ؛ ليست كزوجاتهم، زوجاتهم ربات بيوت، لم يكملن الشوط الأول في التعليم، بنات عم أو بنات الجيران أو شقيقات الأصدقاء، لقد عاش هؤلاء الضباط معًا في قشلاقات الجيش وخيمات المعسكرات، لكنهم لا يتحدثون عن الزوجات، لا يذكرون أسماء زوجاتهم لبعضهم، والإشارات دائمًا عن الزوجة بـ«البيت» أو «الأولاد» أو «المدام»، ثم الزوجات غير مدعوات للقاءات، بل موجودات خارج غرفة الصالون ينادين على حضرة الصاغ أو البكباشي لتناول صينية الشاي من خلف الباب، تعود بعدها الزوجة بصينية الكحك ويكون الزوج منتظرًا يدها الممدودة بها فيأخذها عنها. بالكثير يقول أحدهم في نهاية الجلسة وهو يغادر: ابقى اشكرلنا المدام تعبناها معنا. ربما تتزاور زوجتان منهما أحيانًا، ويلتقي الأطفال بالأطفال، لكن ليس إلى درجة أن يصبحن صديقات، فتظل العلاقات ذكورية تمامًا، فهم في النهاية ضباط محافظون، وأعضاء سابقون في الإخوان المسلمين، ومواطنون ريفيون حيث المرأة للبيت... لكن محاسن سعودي زوجة عبد المنعم أمين غيرهن، هي تعمل وتشتغل في شركة (هي تملكها في الحقيقة) خاصة بالتوكيلات الصناعية والتجارية، وتتعامل مع الشركات الأجنبية في مصر، مما تتسع معه حلقات معارفها بالموظفين والدبلوماسيين في السفارات الأجنبية، لكن السفارة الأمريكية تحديدًا هي الأكثر تماسًّا معها، البضائع الأمريكية تغزو العالم، كما أنها لا تحب الإنجليز فهم يحتلون بلدها، ولا تفضل الارتباط بدوائر السفارة البريطانية التي تضعها تحت ظلال الشك والاشتباه، خاصة أن زوجها ضابط نابه ومعروف بين زملائه وقياداته، فضلًا عن أنها تعرف انتماءه لتنظيم سري داخل الجيش. كان مغامرًا بكل شيء حين قرر الانضمام إلى هذا التنظيم، الثروة التي كونها من ميراثه وأطيان عائلته، المكانة التي عليها زوجته وشركتها في مجتمع المال في البلد الذي لا يسمح بسهولة أن يخطو حذاء نسائي على أرض الفرص والصفقات، السجن أو الإفلاس أو حتى الإعدام أو كلهم معًا، كانت المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها زوجها وهي معه، لكنها في النهاية مصر التي نضحي من أجلها. ثم لم يكن الوضع يحتمل السكوت، فالذي يعيش داخل هذه الحلقات الأجنبية والمالية يرى ثروات مصر المبددة، وفرصها الضائعة على الموائد، لكن ها هو التنظيم السري يصير علنيًّا، وجمال عبد الناصر يعترف بفضل عبد المنعم في نجاح الانقلاب، ويعينه في مجلس القيادة، ويكون بيتها هو أول من يجمع السفير الأمريكي ورجاله مع مجلس القيادة ينوره زوجها !

فخامة البيت أزعجت عبد الناصر، لم يقل له زكريا محيي الدين حجم ثراء زميلهم، كان يعرف أنه ميسور وابن أسرة غنية، لكن هذا الحد صدمه قليلًا، التحف والأثاث والنجف والسجاجيد والستائر والأبسطة واللوحات هي ما صدمته كثيرًا؛ فهذا الترف لا يمكن الدفاع عنه أمام الضباط الصغار، ثم هذا العز سيجعل كل متكلم خطيبًا محقًّا حين يغمز بأن عبد المنعم أمين بحكم طبقته أقرب

للباشوات والبكوات ومنحاز لهم، ونحن ندعو لتطهير هؤلاء أو التطهر من هؤلاء! أمسك عبد الناصر عن انطباعاته ليتفرغ للسفير الأمريكي الذي دخل مصحوبًا بعبد المنعم وزوجته، وهلل احتفاء بهم، وهمَّ بعناقهم بحرارة أمريكية أسعدت جمال سالم جدًّا، ولم تنضم شفتا عبد المنعم أمين أبدًا طوال الوقت، فهما مبتسمتان منفرجتان مفتخرتان. كان الفرق شاسعًا بين بدل عبد الناصر وزملائه شديدة العادية، التي قضوا بها ليلة كاملة في اجتماعاتهم فأضافت كرمشاتها والغبار العالق بقماشها المتواضع مزيدًا من العادية المفرطة، وبين هذه الدرجة من التأنق الأرستقراطي التي تنطق في ملابس السفير الأمريكي ورجال السفارة (حتى «ليكلاند»، هذا الأعور صاحب العصابة على عينه يبدو كأنه «كاري جرانت» ببدلته البيضاء، أو في أقل الأحوال «همفري بوجارت »).
كانوا خمسة من ضباط القيادة مبهدلين ومرهقين، بدوا هذا المساء أمام السفير الأمريكي الذي اعتاد على مآدب «الردنجوت» و«الإسموكنج» في القاهرة، مراهقين يملكون دولة، فنطق بالجملة :
ـ أنا سعيد بكم جدًّا يا أولادي !
كانت عيناه مصوبتين تجاه عبد الناصر، فالتقرير الذي قرأه هذا الصباح يعلق لافتة كبيرة على جبهة عبد الناصر، أنا القائد الحقيقي، تحدث معي، فتحدث معه .
ـ أشكر أخي عبد المنعم، ومضيفتنا الحسناء محاسن هانم (قال هانم باللغة العربية فابتسمت الهانم راضية شاكرة. لم يكف عبد المنعم عن الابتسام من أول الجلسة والآن زادت أكثر) على هذه الفرصة التي وفروها لي بلقاء غير رسمي مع هؤلاء الضباط الذين صنعوا التاريخ في بلاد النيل. أعرف أن هناك لقاءات سابقة جرت بين بعضهم وزملائي هنا (أشار إلى «ليكلاند» وإلى «إيفانز» صديق علي صبري المبتسم بإيماءة رأس إلى عبد الناصر).
كان السفير يعرف عن لقاء على نيل الزمالك في بيت عبد المنعم أمين القاهري، الذي اجتمع فيه عبد الناصر وعبد الحكيم وصلاح سالم، مع «لويس جونز» مستشار السفارة الأمريكية و«ليكلاند» على مائدة عشاء استمرت أكثر من أربع ساعات وانتهت عند الواحدة بعد منتصف الليل (لعله أطول عشاء سمع عنه السفير، فهذه الساعات الأربع تكفيه لأكل بقرة وشرب صندوق من الويسكي) لكن اليوم (ونحن في آخر نهاره وفي عزبة ريفية جميلة) قد نحتاج إلى أكثر من أربع ساعات يا عزيزي الجنرال الصغير .
ابتسم عبد الناصر ابتسامة منضبطة سرعان ما اختفت، ليمنح كلماته مهابتها، ويلجم خفة زملائه الفرحة بالسفير :
ـ نحن بدورنا نشكرك على بيانك الأخير .
كان عبد الناصر يشكره على أبعد من سطور البيان (فهو من وجهة نظره كان بيانًا نيئًا)، ولعل السفير قد فهم فأشار ناحيته بكفه الممدودة في الهواء محييًا، بينما تبادل عبد المنعم أمين نظرات مفعمة بالرضا مع زوجته، فهي تعرف أن البيان بطولة زوجها
كان عبد المنعم أمين الوحيد الذي يلتزم بالاستئذان للدخول إلى مكتب عبد الناصر، رغم أن كل أعضاء مجلس القيادة لم يكونوا على هذا التحسب أو الانضباط أو التهذب الرسمي مع صديقهم ورفيق السلاح، فلا أحد يستأذن، بل يدخلون كالمقتحمين ويخرجون كالمتنزهين، رغم نظرات عبد الناصر المنزعجة، لهذا كان يحب هذا الأدب الأرستقراطي عند أمين
ـ اتفضل طبعًا يا حضرة البكباشي

رحب بأمين الذي وقف قليلًا حتى أشار إليه بالجلوس، وقد أحس أن أمين يفرط في هذا الأدب الجم
:
ـ الأمريكان أعدوا البيان فعلًا .
ـ عظيم !
أبدى عبد الناصر سعادة مقرونة بالكبرياء، فالسفارة الأمريكية بجلالة قدرها عرضت على عبد المنعم أمين أن تصدر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بيانًا لتأييد النظام الجديد في مصر، فأبلغه بالعرض فوافق، فأبلغهم أمين الموافقة، فأملى المستر «لويس جونز» نص البيان على عبد المنعم أمين، الذي جاء مسرعًا بالصيغة إلى عبد الناصر .
ـ إنهم يطلبون موافقتك عليه
الأمريكان يسألون الإذن بالبيان، ثم يطلبون الموافقة على نصه، ويعرفون طرق باب من، ولا يخطئون العنوان إلى المكتب المجاور (مكتب نجيب)! وافق عبد الناصر طبعًا على البيان، فهو أراده كما هو تمامًا: لا حارًّا يقدمهم كأن أمريكا ترعاهم، ولا باردًا كأن أمريكا تتركهم وديعة للإنجليز. لم يكن يخفى عليه (ولا عبد المنعم أمين المهذب المتحمس قطعًا) أن أمريكا تحاول أن ترث الإنجليز في المنطقة كلها ودُرتها هي مصر، وأنهم كانوا يعرفون بتنظيم الضباط الأحرار وينتظرونه. ولم يمانع عبد الناصر في أن يستعين (أمين رأيه أن يتحالف، وجمال سالم كذلك) بالأمريكان في مواجهة الإنجليز. فعلها فاروق وحاول الاستعانة بالألمان خلال الحرب العالمية الثانية وفشل (الحقيقة حاول معه الضباط حيث كان عزيز المصري يجرنا للألمان جرًّا)، لكن الفرصة الآن مع الأمريكان سانحة واللحظة فارقة، ثم ليس لي إلا هذا الطريق. فليدلني أحد على طريق آخر! لا شيء نملكه أمام الإنجليز كي يعقدوا اتفاقية جلاء ويغوروا في داهية إلا الأمريكان! وليس أمام الأمريكان غيرنا (أو غيري)، فنحن الذين أطحنا بالملك ورقتهم البائسة وخيارهم اليائس، ونحن طازجون تمامًا فوق شجرة الحكم، كما أنهم إمبراطورية طازجة! ليست إذن دعوة التطهير التي أوعز بها الأمريكان إلى نجيب الهلالي، ونسقوها مع مرتضى المراغي، وروجوها مع مصطفى أمين، تخص رجال السياسة القدامى، بل تدهسالسياسة القديمة ذاتها !
كان عبد الناصر يواصل ما بعد الشكر الواجب للسفير :
ـ كل ما نريده الآن هو جلاء القوات البريطانية عن القناة، وكل ما نريده من أمريكا هو أن تساعدنا في التعامل مع هذه الإمبراطورية العجوز .
ضحك «كافري »:
ـ أهذا فقط كل ما تريده من أمريكا؟ !
ثم التفت إلى «إيفانز» و«ليكلاند» وهو يشير إليهما :
ـ أمريكا تستطيع أن تعطي أكثر من ذلك !
ـ قطعًا، لكن هل يمكن أن تعطي أهم من ذلك؟
رد «ليكلاند» هذه المرة :
ـ سيادة السفير والحكومة الأمريكية تتفهم تمامًا حاجتكم إلى اتفاقية جلاء مع الإنجليز، فلا بد من تقديم شيء لهذا الشعب يخرج به من سنوات كفاح صعبة .
رد صلاح سالم حاسمًا بلغة إنجليزية شيكسبيرية أعجبت السفير :
ـ اِلإنجليز هم العقبة الوحيدة !

علّق «كافري» سريعًا :
ـ عقبة فعلًا، ولكن ليست العقبة الوحيدة !
رفع عبد الناصر نظراته إليه، منتظرًا أن يضيف السفير إلى ما قاله، لكن «كافري» صمت، بينما كانت السيدة محاسن تشرف على وضع أنواع الأطعمة الدسمة على مائدة طويلة، ذكَّرت عبد الناصر بالمائدة التي كان يجلس عليها في مأدبة الملك فاروق نهار حريق القاهرة، فقد كان مدعوًّا من ضمن ضباط الجيش للاحتفال بسبوع ولي العهد (كان محمد نجيب هناك، ولما رأيا بعضهما ابتسما وتبادلا تحيات بإيماءات الرؤوس عن بعد، فاللواء كان مع اللواءات والباشوات).
«إيفانز» هو من تكلم :
ـ أظن أنكم في حاجة إلى أن تمنحوا الناس شيئًا يتمسكون به، يلتفون به حولكم، رحيل الملك أثار فرحة قد تطول أو تقصر !
كانوا قد جلسوا الآن على مقاعد السفرة، وكان أمين حريصًا، أو للدقة كانت محاسن أحرص، على أن يكون السفير على رأس المائدة بينما عبد الناصر على رأسها المقابل. كانت تشير لعبد الناصر بمقعد جلوسه، وليس كما فعل زملاؤه الذين راحوا يجلسون حسب وقفتهم والمقعد الأقرب. شكر عبد الناصر لها ذوقها، لكنه أصر على أن يجلس أمين في هذا المكان فهو صاحب البيت، لكن أمين صمم على اقتراح زوجته. وفهم الأمريكان تمامًا ما يحدث أمامهم، لكن زكريا محيي الدين هو الوحيد من الضباط الذي فهم، حتى حكيم كان يرى الأمر لطفًا لا خطة .
تحدث السفير بصوت عالٍ، وقد سعد للغاية بنوع النبيذ المعتق الذي كان موجودًا بجوار طبقه :
ـ الخطر في تصورنا الآن هو الفوضى، وليس الجلاء عن القناة، طبعًا سنقوم بدورنا مع الإنجليز، ودعني أصل لهذه النقطة بعد قليل، لكن الذي يفيدنا أكثر هو أن تكونوا أكثر قوة .
رد صلاح سالم مقاطعًا :
ـ حتى الآن سيادة السفير لم يتم تسليمنا صفقة السلاح التي اشترتها حكومة نجيب الهلالي من أمريكا! صفقة بمليون دولار ولم تصل بعد كل هذه الشهور !
تدخَّل عبد الناصر :
ـ هي صفقة أسلحة للأمن الداخلي، وهذا لا يهمنا الآن كثيرًا بقدر ما يهمنا تسليح الجيش نفسه، فالإنجليز أوقفوا تسليمنا كل صفقات السلاح التي وقعتها حكومات سابقة معهم .
رد «كافري »:
ـ أعرف، وهذا فعلًا شيء مهم يا «إيفانز ».
أشار إلى «إيفانز» الذي بلع لقمة وهو يومئ بالاهتمام، وأكمل السفير :
ـ لديكم فرصة الآن لتنفيذ إصلاحات تصنع لكم شعبية، وهذا مطلوب، وتضم لكم طبقات من الشعب، وهذا مهم، وتقطعون بها الطريق على الشيوعيين الذين يخططون طول الوقت لاستغلال معاناة الفقراء من الفلاحين والعمال. هذه هي العقبة الأهم يا صديقي !
كان يشير بسكينته إلى عبد الناصر، لكن جمال سالم هو من ضحك، وتخيل أن خالد محيي الدين يسمع هذا الكلام معهم، ثم التفت إلى زكريا محيي الدين وهمس في أذنه :
ـ هو صحيح إن يوسف صديق شيوعي هو الآخر؟
ابتسم زكريا خجلًا من أن همس جمال سالم هو أداء زكريا حين يصرخ، وأومأ بأنه ليس وقته، خصوصًا أن عبد الناصر كان قد أشار إلى جمال سالم بالإنصات إلى ما يقوله السفير الآن. لحق

سالم بما تبقى من كلام «كافري»، ومن حسن حظه أنه كان يعيد ويزيد ويلف ويدور فلم يفته شيء :
ـ كنت أتابع منذ فترة نشاط رجل سياسة ذكي، السيد أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية في وقت النحاس والهلالي كذلك، لقد حاول الرجل أن يطبق شيئًا من العدالة في ملكية الأراضي الزراعية في مصر .
نظر إلى «ليكلاند» وسأل :
ـ هل كان رئيس جمعية تُسمى «الفلاح» يا «ليكلاند»؟ دعني أتذكر بنفسي .
لكن عبد الناصر هو من تذكر لحظتها ما سمعه من أصدقاء خالد محيي الدين الشيوعيين، ربما من أحمد فؤاد المحامي اليساري الوحيد الذي يستنظفه عبد الناصر من تلك الشلة التي تعرف عليها عندما اقترب من الشيوعيين في «تنظيم حدتو». ابتسم بينه وبين نفسه، ابتسم عميقا جدًّا وبخفاء أعمق لدرجة أنه كشر. هل يدرك السفير الأمريكي أنه يجلس على مائدة واحدة مع ضابط انتمى يومًا ما إلى الشيوعيين، وكان يحمل اسمًا حركيًّا؟ نعم سيد «كافري»، كان اسمي الحركي «موريس»، لا لم أكن عضوًا طبعًا، بل و«موريس» نفسه كان صبيًّا شيوعيًّا يسلمني منشوراتنا المطبوعة في مطبعتهم، لكن الشيوعيين اعتبروني «موريسًا» فلم أمانع، اسألهم بعد قليل سيقولون نعم كان معنا، كما لو سألت الإخوان لحلفوا لك أنني أقسمت اليمين في تلك الغرفة المظلمة، لكنني لست معهم سيدي السفير، أنا مع هذا البلد! نعم أتذكر ما ردده الشيوعيون حول أحمد حسين أنه أمريكي الهوى، وأن ما يسعى لتطبيقه عن الإصلاح الزراعي هدفه هو امتصاص غضب الفلاحين وإعادة توزيع الثروة مما يجهض انتفاضات الفقراء، إنه مشروع أمريكي لمحاربة الشيوعية، وليس بحثًا عن العدالة للفلاحين في مواجهة كبار الملاك، لكن حسين نفسه ومشروعه أيضًا، يا للغرابة، تعرض لهجوم من كبار الملاك والباشوات، وسموه «الوزير الأحمر» واتهموه بالشيوعية. مسكين هذا الرجل الذي أغلقوا عليه الباب من درفتيه! لكنه على الأقل يعلم الآن أن السفير الأمريكي، ووراءه رجال الحكومة الأمريكية قطعًا، معجبون به. أيعود أحمد حسين نفسه الذي درس واشتغل في أمريكا ذات نفسها بمشروع شيوعي من واشنطن؟
حين خرجوا ليجلسوا تحت ظلال الزيزفون في الجنينة، وقد أحاطهم سياج من الأشجار القصيرة المقلمة تضيء بأنوار الفوانيس المعلقة فوق أعمدة حديدية مثبتة في أركان تلك البرجولة، سأله «كافري» وهو يسحب نفسًا من سيجاره الكوبي كأنه يسحبه من هافانا مباشرة :
ـ لكن، ما الجديد الذي سنقدمه للإنجليز عن السودان؟
*

في خطوات واسعة تغلب قصر قامة نجيب الهلالي، اتجه ناحية عبد الناصر وصافحه بحماس مشوب بعصبية من كلا الساعدين. كان الهلالي في قصره، وانتظر حضور عبد الناصر الذي جاء في موعده دون تأخير، لكنه استغرب مجيئه في ساعة الليل هذه مرتديًا زيه العسكري. هل هو إعلان للقوة، أم أن الرجل قادم من قيادة الجيش، فلا فسحة له كي يرتدي بدلته المدنية، ويحضر لموعده في حي المعادي منضبطًا في ساعته؟ هذا هو الشاب الذي أنهى حكومته الأخيرة بعد أربع وعشرين ساعة فقط من تشكيلها، لقد أدخله التاريخ من باب ضيق، لكن عمومًا للتاريخ أبواب كثيرة، وقد دخلها وخرج منها كثيرون، حتى لا نعرف كم دخل ومن خرج. يبدو أن هذه الحقيقة صحبت عبد الناصر معه إلى قصر الهلالي. قاد سيارته إليه بنفسه في هذا الحي البعيد الغارق في

الهدوء حتى إن للصمت فيه صوتًا، ولم يأتِ بحرس ولا زملاء، وحيدًا، احترامًا للرجل، فلم يرَ مبررًا لإزعاجه بما يشبه المظاهرة من بذلات الضباط، استهل كلامه بمديح وثناء لطيف :
ـ كلنا تلاميذك يا نجيب باشا، ليس فقط في السياسة، ولكنني كنت طالبًا في كلية الحقوق قبل التحاقي بالحربية، وحضرت لحضرتك محاضرات ممتعة تعلمت منها كثيرًا، ودرست كتابك العظيم «شرح القانون المدني في العقود »!
ها هو يقلد محمد نجيب ويحكي لكل مسؤول قصة، فهو أيضًا أعرب عن تلمذته للدكتور السنهوري في كلية الحقوق! أكانت ستة أشهر كافية لكل هؤلاء الأساتذة يا جيمي؟ طبعًا ليس مهمًّا أن يكون هذا حقيقيًّا أم لا، ولكنه ذوق واحترام .
أعجب الهلالي فأحبه بسرعة، لكن خبرة الوزير والسياسي ورئيس الحكومة والأستاذ الجامعي التي تسكن نظارة الهلالي، رأت في هذا الشاب طويل القامة أبعد من مجرد مغامر عسكري قام بانقلاب نجح لأسباب شديدة السذاجة (مرتضى المراغي ينفعل كلما استعاد تفاصيل ليلة الثالث والعشرين من يوليو، ويحلف أن حيدر كان خائنًا، وأن فاروق كان خائبًا، وأن الأمريكان كانوا متحالفين مع الضباط، وأن الإنجليز لم يكونوا ممانعين). وجد الهلالي في عبد الناصر فرصة للقضاء على الوفد، لا بأس، لا مانع لدى الهلالي من أن يرمي هذا الفتى بالجميع من فوق السفينة (وأولهم محمد نجيب)، فقد عفت نفسي منهم كلهم
مضى الوقت مع الشاي والعصائر، وقد عاد الهلالي أستاذًا في الحقوق يشرح له (هذه المرة الأمر حقيقي)، حتى سأله عبد الناصر :
ـ حضرتك آخر من تفاوض مع الإنجليز، فلماذا فشلت؟
ـ بسبب السودان .
استعاد الهلالي بالسؤال وضع الأستاذية (بأكبر قدر ممكن من التواضع)، وهو يختلس النظر إلى هذه القبعة العسكرية الموضوعة أمام عبد الناصر على المائدة، وبجوارها كأس من عصير الليمون، والغريب أن أنوار النجفة الضخمة التي تتدلى من السقف بحلقات من السلسلة الحديدية المطلية تعكس ضوءها على هذا التاج المرسوم على مقدمة الكاب، فتومض لتخفت وتخفت لتومض :
ـ السودان هي معضلة المفاوضات مع الإنجليز منذ ثورة 1919. إن طلبت رأيي الآن، فأنا على يقين أن الجلاء الإنجليزي عن مصر ليس مشكلة، بل لعل الإنجليز يريدونه أكثر منا، لكن بمقابل واحد: أن تنفصل السودان عن مصر، ألا يكون التاج الملكي لمملكة مصر والسودان !
ـ ولمَ لا؟
اندهش الهلالي من السؤال، فأمهل نفسه لعل عبد الناصر يغيره أو يعيد صياغته، لكنه لما لم يفعل أجاب :
ـ هذا ما لم يجرؤ على الموافقة عليه لا الملك ولا الوفد ولا أنا! لقد مات المصريون من أجل أن تبقى السودان مصرية تحت التاج، ولا أظن أن أحدًا كان يمكنه أن يفرط في السودان رغم أنها الصخرة التي تحطمت عليها كل مفاوضات !
ـ لكنني علمت أن وزير الخارجية في حكومة الوفد الأخيرة، الدكتور محمد صلاح الدين، قال في الأمم المتحدة في بداية السنةإنه يدعو إلى استفتاء السودانيين، والسودانيون أنفسهم هم منيقررون هل يريدون

البقاء تحت حكم مصر أم الاستقلال عن مصر وعن إنجلترا !
هذا إذن الضابط الذي أجلسك في قصرك في المعادي يا هلالي، وأرسل ملكك إلى كابري، يفاجئك، أولًا لأنه اهتم ودرس ما جرى من محمد صلاح الدين، وثانيًا لأنه يؤيده :
ـ صحيح، لكن لعلك لا تعرف أن وزراء الحكومة كلهم وقفوا ضد رأيه، وهاجموه في الوفد وصحفه وبرلمانه، وكانت جلسة حكومية معدة لمحاسبته، وربما لإقالته، بسبب هذه التصريحات التي تعني التراجع عن الموقف المصري المحسوم في التمسك بالسودان، ولم يمنع هذه الإقالة إلا حريق القاهرة الذي أقال الحكومة كلها، وليس وزير خارجيتها فقط، وعندما تولى علي باشا ماهر الحكومة ثم توليتها أنا، وهذا التصريح مقبور وكأنه كالعدم !
ثم عاد وتوقف للحظة متأملًا وقع ذلك الحسم على وجه هذا الضابط، فلم يلمح له وقعًا .
عندما استأذن عبد الناصر للانصراف، كان الهلالي قد قدم له ملفًّا ورقيًّا أزرق يضم نسخة من ورقة قدمها البريطانيون لحكومته في المفاوضات، وقال له وهو يشد على يديه :
ـ الإنجليز لا يمانعون في الانسحاب من القناة، هم فقط يريدون بعض الترتيبات العسكرية .
ثم أطرق وهو على وصيد الباب :
ـ لكنها السودان .
*

وجد علي ماهر، الضابطَ الأطول والأهم يدخل عليه في مكتبه بمقر الحكومة . نفذ قرار إلغاء المقر الصيفي للحكومة، حيث انتهى انتقال الحكم إلى الإسكندرية صيفًا منذ اليوم التالي لرحيل الملك، فلم يطق الضباط أن يحكمهم رئيس وزراء يبعد عنهم أكثر من مائتي كيلومتر، وأن تكون ردهات الحكومة بعيدة عن ممرات قيادة الجيش، فعجلوا إقفال أبواب الحكومة ودرفها على الشاطئ، وأرجعوا وزراءها وموظفيها من بيوتات البحر إلى قاهرة الحر، بلا ترف ولا هرف، الحكومة إذن حيث قصر الأميرة شويكار الذي زاره علي ماهر نفسه حين كان قصرًا للسكنى والتبغدد، وقضى بعضًا من لياليه في أمسيات وسهرات كثيرة في عهدي الملكين فؤاد وفاروق، وعاد ودخله وقد تحول مقرًّا لمجلس الوزراء بعدما باعته شويكار للحكومة، ولم تنمحِ منه آثار العز والفخامة، وإن كان قد فقد بريقه ليكتسب هيبة. كان مجيء عبد الناصر مفاجئًا، لكنه رحب به مستبشرًا، فالمرات التي جمعته مع الضباط كانت تنعقد في مبنى قيادة الجيش، وها هو ضابطهم الأخطر يأتي إلى مبنى الحكومة، أهو التنازل والتواضع أم الإشراف والإملاء؟
لقد ضج من شكاوى تنهال على رأسه من وزرائه الذين فشلوا في السيطرة على تلك الوجوه العسكرية التي تدخل على مكاتبهم وغرف مسؤولي وموظفي الوزارة، فيبلغونهم أنهم مندوبو القيادة، ويعطون تعليمات، ويطلبون مستندات، وينهون وينهرون! لا بد من أن أطرح هذه المسألة على اللواء نجيب، لكن ها هو عبد الناصر قد جاء، ولعله يقضي في الأمر مبرمًا، لكن خير؟ ما الذي جاء به أصلًا؟
فوجئ بأن جمال عبد الناصر يحمل في يديه ملف المفاوضات المصرية البريطانية، وأنه حين أخرج الأوراق من الملف، كان قد كتب على هامشها وفوق بعض فقراتها أسئلة بخط اليد وملاحظات وعلامات استفهام وتعجب. بقدر ما أعجبته مذاكرة الضابط، بقدر ما اندهش: ما له هو بالمفاوضات؟! هل ينوون حكم البلد لدرجة أنهم قرروا أن يتفاوضوا بأنفسهم؟ !
*

تابع عبد الناصر الآن صلاح سالم، الذي كان يمسح نظارته الغامقة، وهو يشرح للسفير الأمريكي ذلك الشرح الذي يحفظه عبد الناصر من كثرة ما سمعه من صلاح أنه يرتدي هذه النظارة بعد حرب فلسطين حيث تأثر رمد عينيه بالشمس والصحراء والدخان والحرائق والشظايا التي عانى منها في طريقه عشرات الساعات للفالوجا التي حاصرها اليهود. حين عاد صلاح سالم وارتدى نظارته، نظر إليه عبد الناصر مبتسمًا، ثم أدار وجهه مخاطبًا السفير :
ـ نعم، لدينا جديد في مسألة السودان !
دخل عليه صلاح سالم المكتب وقد ضاق بهذا الزحام الذي امتص دمه طوال النهار من مقابلات تخص الجيش، حيث يتشارك معحكيم وكمال الدين حسين في الإشراف على قوات الجيش، وحيثزوار لا ينتهون، ونقاشات لا تتوقف، وقرارات تقف على الباب، واجتماعات بالساعات. منهك للغاية وقف أمام عبد الناصر الجالس وراء مكتبه يتحدث في التلفون وفي يده سيجارة وأمامه ثلاثة من الزوار وأعقاب سجائر تشكل ثروة لجامعي أعقاب السجائر من متشردي الشوارع .
شخط صلاح سالم متجاهلًا ازدحام عبد الناصر ومكتبه وسماعة التلفون على أذنه :
ـ على فكرة، الأخ خضر عمر من قيادات حزب الأشقاء في السودان .
رد عبد الناصر وقد كتم التلفون بيده ونظر إلى زواره مبتسمًا، ثم إلى صلاح سالم :
ـ أعرفه، ماله؟
ـ ينتظر في الخارج، يريد مقابلتك .
ـ هو قالك إنه يريد مقابلتي؟
ـ لأ، لكن لو سألته سيقول بالتأكيد إنه يريد مقابلتك !
قال عبد الناصر مسرعًا :
ـ قابله إنت يا سيدي !
ـ وأنا مالي؟
صوت صلاح سالم علا، فأخفض عبد الناصر صوته :
ـ صلاح !
ووزع نظرته بينه وبين زواره، فهمس صلاح سالم :
ـ لا دخل لي بالاتصالات السياسية يا جيمي، أنا مسؤول عن أسلحة الجيش .
رد عبد الناصر بسرعة ردًّا يغير تاريخ العلاقات المصرية السودانية إلى الأبد :
ـ يا سيدي إنت مسؤول عن الجيش، وعندك وحدة عسكرية من الجيش في السودان، تبقى مسؤول عن السودان .
ذهب صلاح وقابل الأخ خضر عمر السوداني، وأهلًا وسهلًا ونورت، ومالأخبار، وشايف الدنيا، وحكايات عن والد صلاح سالم الذي خدم في السودان، وكم ذكرى من طفولته مع أبيه في الخرطوم، ومع السلامة يا أخ خضر، نورت يا زول، ثم قهقهة متبادلة .
في صباح اليوم التالي اجتمع مجلس القيادة :
ـ لا يمكن ترك الحكومة تتصرف بطريقتها !
ـ نحن مسؤولون أمام الناس عما يحدث في البلد
ـ ثم التطهير كيف يحدث بعيدًا عن عيوننا؟
ـ نخاف من اللعب وراء ظهورنا

حسم عبد الناصر النقاش :
ـ كل ضابط منا يبقى مسؤولًا عن الإشراف على وزارة .
ـ ممتاز
ـ كمال الدين حسين، وزارة المعارف، ما رأيك؟
كان السادات يسأل نفسه: لماذا اختار المعارف حيث التعليم والمناهج والمدارس والمعلمون لكمال الدين حسين؟! لا أحد يعرف، بمن فيهم كمال الدين حسين نفسه. لا هو صاحب خبرة في التعليم، ولا كان مهتمًّا ومعنيًّا به، وحجم معارفه لا يسمح له حتى بزيارةوزارة المعارف، فضلًا عن أن يكون المشرف عليها، ولم يسمعه أحد من قبلها يتحدث عن التعليم أصلًا إلا نقمته الدائمة من انحلال عيال هذا الزمن! لكن السؤال تحول إلى أسئلة .
ـ البغدادي، التموين
ـ قوي
ـ جمال سالم، ما رأيك في الداخلية والمالية؟
ـ ما علاقتهمابيعض؟
ـ يعني رافض .
ـ لأ موافق، ونشوف علاقتهما فيما بعد
ـ حسن إبراهيم، الخارجية
لم يرد حسن إبراهيم من فرط دبلوماسيته التي اكتسبها فورًا عندما سمع اسمه مشرفًا على الخارجية. عاد عبد الناصر ونظر إلى عبد المنعم أمين وقال :
ـ طيب يبقى عبد المنعم هو المشرف على وزارة الخارجية .
ولكي لا يستاء حسن إبراهيم :
ـ وأنت معه يا حسن .
ثم عاد إلى عبد الحكيم بوجهه وقلبه :
ـ عبد الحكيم ...
ـ شؤون مجلس الوزراء .
ـ طبعًا
انتظر خالد محيي الدين دوره، فكانت من نصيبه وزارتا الصناعة والتجارة. ألم يحصل على بكالوريوس تجارة أثناء خدمته في الجيش؟
ثم كانت اللحظة التي ثبت عبد الناصر عينيه في نظارة صلاح سالم :
ـ صلاح سالم، السودان .
ـ منه لله خضر عمر !
كانت كل معلومات صلاح سالم عن السودان أن والده لا يزال يتقاضى معاشه أول كل شهر من حكومة الخرطوم، وأن حماه كان ضابطًا في الجيش في السودان، ومنذ تزوج صلاح ابنته وهو يبدأ جلساته العائلية كلها من قراءة فاتحة ابنته إلى وفاته بجملة: «لما كنت في السودان». غير هذا لا شيء عن السودان. ليس عند صلاح سالم فقط، بل إن مجلس القيادة كله كانت أول مناقشة له عن السودان، منذ كان تنظيمًا سريًّا، هي هذه اللحظة التي كلفوا فيها صلاح سالم بالسودان

كاد صلاح سالم يسأل عبد الناصر أمام السفير الأمريكي: صحيح، ما الجديد الذي لدينا عن السودان؟

28

ـ هل هذا كلام جد؟

ـ جدًّا .

أجاب زكريا محيي الدين، ووجهه يضفي بملامحه الحادة خطورة أكبر على كلامه. أطرق عبد الناصر واضعًا ذقنه عند ترقوته، شاخصًا في زكريا :

ـ هو موجود هنا؟

ـ لو تريد مقابلته أرسل في إحضاره فورًا .

كان عبد الناصر في زيارته الصباحية اليومية للمخابرات الحربية، حيث هذا المقر الصغير في الدور الأرضي لمبنى القيادة الذي شغله زكريا ومجموعة اختارها عبد الناصر بعناية منذ اليوم الأول من الحركة. المكان صموت بلا هذا الصخب الذي يملأ أرجاء مبنى القيادة، ولا يشهد هذا التدفق اليومي من مئات الزوار من دبلوماسيين وصحفيين أجانب ومصريين وسياسيين وعسكريين، بل أقارب وجيران الضباط الذين انتهكواتقريبًا هيبة المكان ورهبته. انتقل الغموض إلى هذا المقر، طابقان ومدخل خاص وعدة غرف لا تحمل فخامة ورفاهة مبنى قيادة الجيش، لكنها نجحت في تصنيع هذه الدائرة من الصيت المفزع داخل الجيش، فرائحة شواء تخرج طوال الوقت من هذا المبنى الذي يشاركه مقر البوليس الحربي في دق أسياخ القلق في قلوب الجيش .

تعامل زكريا مع صمت عبد الناصر المطرق موافقة، فرفع سماعة التلفون وتحدث :

ـ هاتولي رأفت شلبي .

اعتبرها عبد الناصر مجرد البداية التي ينتظرها، فلا يمكن أن تنجح مجموعة ضباط في قلب نظام حكم إلا ويحاول ضباط آخرون أن يفعلوها، إنها الدوامة التي يخشاها منذ اللحظة التي حاول أن ينبه فيها زملاءه بعد الإطاحة بالملك طالبًا العودة إلى الديمقراطية :

ـ الجيش حين يدخل في السياسة لا يخرج منها !

لكنهم أبوا، صحيح أنه يكتشف كل يوم أن هذا البلد لن يصلح معه من وما سبق أن أفسده، وأن مصر تستحقه هو بعدما رآهم جميعًا، وأحس أنهم رجال من القش، سواء في الأحزاب أو الحكومة أو الجيش، لكن لا شيء يمكن أن ينجح إلا بالجيش، ولا يمكن للجيش أن ينجح إلا به، وإذا أفلت الجيش منه (وبهم) ضاعت البلد. قال لزكريا :

ـ كنت أنتظرها من ضباط الإخوان، فأبو المكارم وعبد المنعم عبد الرؤوف جاهزان لأي قرار من مكتب الإرشاد بالقفز على الجيش، وربما بدرجة أقل كنت أتوقعها من الضباط الشيوعيين .

رد زكريا باردًا :

ـ كل هؤلاء عندي أسماؤهم وتحركاتهم ولقاءاتهم، ولاتقلق فلن يخيبوا ظنك .

ـ لكن توصل لدرجة رأفت شلبي؟! هذا له دلالة خطيرة !

ـ للغاية .

نظر عبد الناصر إليه يحاول أن يسبر ما وراء عينيه :

ـ مثل؟

ـ إن الخطر ليس بالضرورة قادمًا من التيارات السياسية داخل الجيش .

ـ بالضبط. يظهر إن الملك فاروق كان عنده حق !
ـ في ماذا بالضبط؟
ـ عندما أرسل إلى نجيب برقية من على «المحروسة»، متمنيًا لنا التوفيق في مهمتنا الصعبة، طلع هناك أصعب كثيرًا من مهمة طرد الملك ...
ثم أضاف متعجبًا، وابتسم بمرارة، يختلط في نبرته التهكم بالتعجب :
ـ الصولات الأحرار !
أخرج زكريا من ملف موضوع أمامه ورقة قدمها لعبد الناصر :
ـ هذا هو المنشور .
أمسك به عبد الناصر وهو لا يزال ينظر إلى زكريا :
ـ منشور واحد !
ـ لم نترك له فرصة للثاني .
قالها فخورًا، لكن بأكبر قدر ممكن من محاولة التواضع. بدأ عبد الناصر يقرأ المنشور المكتوب بخط اليد والمطبوع بطريقة رديئة لا تتناسب مع دقة الخط وأناقته. العنوان هو «الصولات الأحرار»، قرأه عبد الناصر بصوت عالٍ، وعلّق زكريا :
ـ يدعو الأخ رأفت شلبي الصولات من زملائه لتنظيم الصولات الأحرار، فإنهم عماد الجيش الحقيقي، ويريد أن يطهروا الجيش من الضباط الذين انقلبوا على قياداتهم، ويتسلم الصولات قيادة الجيش !
ـ هل له أي خلفية سياسية؟
ابتسم زكريا رغمًا عنه :
ـ له خلفية فنية !
اندهش عبد الناصر، فأجاب زكريا على دهشته :
ـ هو ممثل في المسرح الشعبي وكومبارس ظهر في كذا فيلم .
ـ لن يكون الكومبارس الوحيد الذي يريد أن يصبح بطلًا !
استأذن ضابط وقد طرق الباب وقدم التحية العسكرية، وأخبر زكريا أن الصول رأفت شلبي بالخارج، فأمر زكريا بإحضاره. دخل جنديان يقودان رجلًا بدا وجهه مألوفًا لعبد الناصر، لعله رآه في مبنى القيادة ضمن زحام العساكر المتكالبين، أو ربما في فيلم من الأفلام السينمائية العربية التي يصحب تحية إليها. أشار له عبد الناصر بالجلوس، وفهم رأفت فورًا من هو القائد هنا في هذه الغرفة. حدق فيه عبد الناصر بنظرات رجل فوجئ بوجود فأر في دولابه :
ـ إنت فاهم ما فعلته يا رأفت؟
نظر إليه رأفت مستعينًا بخبرات ممثل يريد أن يثبت نفسه أمام المخرج :
ـ هذه بلدنا كما هي بلدكم، وهذا جيشنا أكثر منكم، أنا أخدم فيه من أيام ما حضرتك كنت في الكلية !
التفت عبد الناصر إلى زكريا :
ـ هل هذه الإجابة شجاعة أم صفاقة؟
ـ جهل بعيد عنك !
نهر زكريا رأفت وشخط فيه :

ـ قم انتباه يا صول رأفت !
وقف رأفت انتباهًا محاولًا التماسك، وأكمل زكريا بهدوء ثلجي، كأنه لم يشخط منذ لحظة :
ـ لقد اعترف عليك كل من تحدثت معهم وحاولت تجنيدهم من الصولات والعساكر !
ـ خونة
ـ وضبطنا المطبعة البالوظة التي طبعت فيها المنشور .
صمت رأفت شلبي، فأكمل زكريا :
ـ من وراءك يا رأفت؟
ـ لا أفهم !
ـ يعني من دفع لك كي تفعل هذا الجنان؟
ـ الذي دفع لكم !
استغرب عبد الناصر من هذا الغضب الغريب الذي يحمله رأفت شلبي في قلبه وعينيه. هل هو مجرد كومبارس أو صول ضئيل الشأن انضرب في دماغه، أم أن وراءه من يحركه ويشجعه حتى إنه لا يبدي ندمًا ولا يطلب عفوًا ولا يدافع عن نفسه بل يهاجمنا؟
التفت زكريا إلى عبد الناصر :
ـ لا حل إلا محاكمة عسكرية .
ـ وعاجلة
ـ الليلة
لم يهتز رأفت شلبي كثيرًا، حتى إن عبد الناصر شك في سلامة عقله، لكنه كان أول من يشاهد عبد الناصر تمرده في جيشه، فأمعن في ملامحه، فقد يرى مثلها كثيرًا في الأيام المقبلة، وهو أكثر ما يخشاه وأشق ما يتوقعه. كان زكريا قد صرف قائد تنظيم «الصولات الأحرار» المجهض، بينما قام عبد الناصر وهو يسأله :
ـ حضرت الكشوف؟
وقف زكريا :
ـ كلها .
جمع أوراقًا في ملف وقدمه إلى عبد الناصر الذي ألقى نظره متعجلة مهمومة على الكشوف حتى وصل إلى آخرها :
ـ أليس العدد كبيرًا؟
ـ لا أعتقد .
ـ هذه نسبة عشرة في المائة من ضباط الجيش !
ـ لا تنسَ أننا قمنا بحركتنا بتسعين ضابطًا، يعني اتنين في المائة من عدد الضباط، فعشرة في المائة تعمل أكثر مما فعلناه بكثير .
ـ هذا غير «الصولات الأحرار» أيضًا !
قالها ساخرًا ممرورًا، ورد زكريا على المرارة بجدية السؤال عند وقوفهما على باب الغرفة وهو يهم بفتحه :
ـ برأيك، بمَ تحكم المحكمة العسكرية على رأفت شلبي؟
قال عبد الناصر بسرعة فاجأت زكريا :

ـ اتركها تحكم بالإعدام !
قبل أن يبدي زكريا رأيًا أضاف عبد الناصر :
ـ سنخففه بعدها، لكن الإعدام كبداية أفضل .
أومأ زكريا يستفهم من عبد الناصر عنوجهته التالية :
ـ إلى أين؟
ـ إلى «الأعدقاء ».
ـ الإخوان المسلمون .
ـ الإخوان آه، لكن المسلمون فيها نظر
ابتسم زكريا :
ـ عندك ولّا عندهم؟
نظر عبد الناصر نظرة تلومه على ادعاء جهله :
ـ يا زكريا !
رد زكريا بنظرة تتنصل من تهمة مراقبة عبد الناصر :
ـ سمعت إنكم رايحين بيت صالح أبو رقيق لمقابلة المرشد شخصيًّا وإرشاده .
ـ إنكم؟! ألن تحضر معنا؟ تعالَ اسمع بنفسك !
أشار زكريا بعلامة الرحيل لعدد من الضباط خرجوا من مكاتبهم ووقفوا في الردهة مبتسمين يتابعون وقفتهما، وحيوهما بتحية عسكرية، بينما قال زكريا :
ـ ربنا معنا .
رد عبد الناصر وهو يغادر الغرفة :
ـ لازم ربنا يبقى معنا إذا كنا رايحين نقابل الشيطان شخصيًّا !
وصلا إلى السيارة الجيب، حيث قفز السائق منها عند رؤيتهما ووقف منتبهًا، وقد فتح الباب لعبد الناصر الذي استمهل زكريا قبل الولوج إلى المقعد الخلفي، وسأله :
ـ ما رأيك في إبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة؟
ركبا السيارة، وتمجلس السائق خلف عجلة القيادة، بينما لم يجب زكريا إلا بعد لحظات لم يستغربها عبد الناصر :
ـ من حيث؟
ـ الإخلاص مثلًا .
التفت زكريا بجانب وجهه، ثم مستديرًا إلى عبد الناصر وسأله :
ـ هم مخلصون طبعًا، لكن السؤال الإخلاص لمن؟
معجب عبد الناصر بقطع الثلج التي تسري في عروق زكريا محيي الدين بديلًا عن كرات الدم الحمراء والبيضاء، أصاب سؤاله المرمى بهدف الفوز .
أكمل زكريا وهو يخفض من نبرة صوته، بينما يرمي نظراته على السائق ويميل برأسه نحو أذن عبد الناصر أكثر :
ـ عدد من الضباط يرى أن الإخلاص للجيش غير الإخلاص لمجلس قيادة الضباط الأحرار، والبعض شايف إن الإخلاص للقيادة وليس للمجلس، والبعض يرى الإخلاص للتنظيم وليس

للمجلس الذي لم ينتخبوه، وضباط مخلصون للقائد العام والبعض يبحث عمن يملك القرار فيخلص له .
أومأ عبد الناصر :
ـ والطحاوي وطعيمة من أي نوع من الإخلاص؟
يعرف زكريا أن رأيه لن يكون الوحيد الذي يطلبه عبد الناصر، بل ربما سأل أحمد أنور وجمال القاضي عن رأي البوليس الحربي في هذين الاسمين :
ـ هما مخلصان بالتأكيد لمن سيطلب منهما الإخلاص، ولمن يقدر هذا الإخلاص .
ـ إخلاص الثعالب، أم إخلاص الدببة؟
ـ إخلاص الكلاب !
قالها زكريا بكل البرودة المتوفرة في ثلاجة فاكهة .
ابتسم عبد الناصر، وأشعل سيجارته وشد أنفاسها وأطلق دخانها، ثم ضحكفجأة وهو يشير إلى بيت :
ـ اقف هنا.
نزل من السيارةيتبعه زكريا، وقد وقفا لحظة على الرصيف، وهمس عبد الناصروهو يدهس سيجارته بكعب حذائه :
ـ وصلنا إلى بيت الزواحف !
*
بدأت حفلة الكذب .
يجلسون في غرفة الصالون التي امتلأت بمقاعد خشبية مجلوبة من مائدة السفرة موضوعة بين أرائك الصالون وكراسيه الثقيلة، كي يتمكن كل هذا الحضور من الجلوس. عند باب البيت كان عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين ينتظران عبد الناصر وزكريا، وصعدوا معًا، لكن الإخوان كانوا أزحم مما اعتقد عبد الناصر. تصور أن اللقاء سيكون مغلقًا أو مقصورًا على عدد محدود من مكتب الإرشاديصاحب المرشد،لكنه فوجئ بهذا العدد الذي يمنحه صفة الاجتماع الرسمي، وربما حاول المرشد أن يشهد الإخوان كلهم على ما سيقوله أو ما سيسمعه، أو ربما خشي من دعوة أحد فيغضب أحد آخر فدعا الجميع، حتى عبد الرحمن السندي خصم المرشد الخصيم موجود. يعرف عبد الناصر هذه النار المتقدة تحت إناء الإخوان منذ فترة، يطحنون في عظام بعضهم منذ تلك اللحظة التي أطيح فيها بالمرشد المؤقت حسن الباقوري، وتمكين حسن الهضيبي من مقعد المرشد، الرجل الذي جيء به من خارج التنظيم كي يصبح واجهة تحل مشكلة اقتتالهم على خلافة البنا، فقد أعياهم التلاكم والتصارع في حلبة الجماعة، فأتوا بهذا المستشار المتقاعد ليصبح مرشدًا، فلا ينتصر عدو على خصم، ويخرج الجميع فائزًا، لكن الهضيبي بدأ يتعامل كأنه مرشد حقيقي، وكأنه خليفة البنا فعلًا، فجرح وأدمى وفصل عبد الرحمن السندي زعيم التنظيم الخاص والرجل الأقوى في الجماعة، رجل الدم والقتل، ثم اضطر مجبرًا إلى إعادته لرأب الصدع الذي اتسع، لكن النفوس لم تصفُ ولن تصفو، والغليان يبخر في قدور الإخوان وقلوبهم. هذه الوجوه المحيطة به بابتسامات عبد الرحمن البنا، وإيماءات الشيخ محمد فرغلي، وإشارات عبد القادر عودة (مستشار محكمة هو الآخر، يعرف أن عضويته في مكتب الإرشاد كانت مهددة، حيث لم يمضِ على انضمامه للإخوان خمس سنوات كما تنص لائحتهم، لكنه حلف وأقسم وجلب شهودًا أنه عضو في الجماعة منذ زمن

طويل، وبايع البنا شخصيًّا، واتفق معه على إخفاء إخوانيته نظرًا لوجوده على منصة القضاء. آه أيها الكذبة، إنكم تحتاجون الرفاعية يا أفاعي كي أتمكن من إخراجكم من أوكاركم) ، وها هي تحيات صاحب البيت صالح أبو رقيق المداهنة، ونظرات عبد الرحمن السندي التي ترسل إليه شفرات، فيجيبها بشفرات مماثلة، كأنما يتخاطبان بشفرة «مورس» معًا، وصمت حسن الهضيبي، وتلك الوجوه التي يجهل أسماءها، لكن لا يجهلها أبدًا. يفهمهم عبد الناصر، فهذه الجماعة تلصق على شفاهها الابتسامات التي تغطي فوهات اللهب داخلهم، يتخيل الهضيبي أنه سيضحك عليه ببيان هزيل: «والإخوان المسلمون بطبيعة دعوتهم خير سند لهذه الحركة، يظاهرونها ويشدون أزرها حتى تبلغ مداها من الإصلاح، وتحقق البلاد ما تصبو إليه من عزة وإسعاد». شكرًا يا سيدي، لكنك في البيان نفسه ترمي لنا بالتعليمات: «إن الهيئة التأسيسية للإخوان سوف تجتمع في نهاية الأسبوع لتقرر رأي الإخوان فيما يجب أن يقترن بهذه النهضة المباركة من خطوات الإصلاح الشامل، ليدرك بها الوطن آماله ويستكمل بها مجده». أأنت يا فضيلة المرشد الذي سيقرر ما يجب (يجب؟ يجب على من؟)، وخطوات الإصلاح الشامل؟ (من سيخطوها إذن؟ نحن أم أنتم؟ ولماذا لم تخطوها قبلنا يا شيخ؟). تأمل عبد الناصر ملامح الهضيبي وهو يحاول أن ينزع القناع عنه، هذا الرجل يكره ما فعلناه، هو مغموس في طبقة الأغنياء المترفة مع تدين معتم، لكنه سنًّا وفكرًا ومصلحة ضد ليلة الثالث والعشرين من يوليو، فهو صهر لرجال فاروق وكبار ملاك فاروق وعجائز فاروق، لهذا جاء رده متأخرًا حين أبلغته «أننا سنتحرك» عبر حسن عشماوي (الوحيد الذي يتعامل معه عبد الناصر على أن الطابع البشري فيه يغلب الطابع الإخواني)، وجاء بيانه متأخرًا جدًّا وباليًا للغاية. لكن ماذا يفعل عبد الناصر وهو في حاجة إلى هذا التنظيم الذي يرقد ثعابينه في الجيش وتتراص عناصرهم في الشوارع وتمتلئ مخابئهم بالسلاح؟ (وفي بعضها خبأت سلاحنا نحن شخصيًّا لتعرفوا من يستخدم من يا بلهاء، لكن لا قوة لي الآن كافية ولا قادرة على مواجهتهم. ربما يقدر قريبًا وسريعًا، هي مسألة وقت فقط كي يملك ما يقطع به ذيلهم بل ورأسهم). تمتلئ حصونهم صحيح بالثغرات، وأسوار قلعتهم متهدمة، لكن الهجوم في هذا التوقيت تعجل وتهور، الأفضل هو ما يفعله هنا، الابتسام والصمت والمصافحات والمعانقات، والرد على كذبهم بأكذب منه، فقط ليخفف كمال الدين حسين من ملامح فرحته التي تفرش وجهه، كأنه في كوشة حفل زفافه. لا ينسى كمال الدين حسين أبدًا إخوانيته، ربما ليس عضوًا في التنظيم فعلًا لكنه لا يزال عضوًا في أفكارهم .

بين الصواني الموضوعة والمرصوصة والمرفوعة كان المرشد راضيًا عن تلك الجلسة، ومهيئًا لأن يسمع هؤلاء الضباط الذين جاءوا يطلبون المباركة والرضا والمحالفة. سأمنحهم ما أرادوا إن سلموا بما شئنا، لقد جاءوا للغداء مرتدين ملابسهم العسكرية، حسنًا إنهم يظهرون بها في كل محفل ومجلس كأنهم لا يخلعونها أبدًا كأنها صولجانهم المتباهي، أليسوا جميعًا أعضاء في الإخوان؟ أينكرون الآن حين نجحوا؟ ألم يبلغني أنهم جميعًا، حتى الشيوعيين خالد وصديق، كانوا إخوانًا؟ أليس هؤلاء من أخبرني عنهم عبد المنعم عبد الرؤوف واحدًا واحدًا؟ ليس فيهم مثل هذا الرجل ولاء وفداء للجماعة، ليته ما غادرهم وظل يقودهم لينقادوا، لكنه أمر الله، لعل في انفصالهم عنا خيرًا لنا، فلو كانوا قد فشلوا من كان يعرف ماذا ليصيبنا! ثم يكفيني من تنظيمات لا أمسك بزمامها، هذا النظام الخاص بعبد الرحمن السندي المناكف المتعجرف. يؤذي هؤلاء المحبطون من فشلهم في القفز على خلافة البناأنفسهم حين يتصورون أنفسهم ورثة للرجل، نعم كانوا قربه

ولصقه، لكنهم كانوا أدواته، وسيظلون أدوات الجماعة لا قادتها ولا مرشديها. أدماغ السندي تحل محل دماغ البنا؟! أي خيبة أصابت هذا وهؤلاء ليظنوا هذا المظن؟! لكن دعنا الآن من السندي (وحتى الباقوري المتحين للحظة قفز فوق الجماعة أو خارجها)، ولنركز مع هذا الشاب المتحذلق الذي يعتقد أنه يمكن أن يركب حصان الجماعة ويستعير سيفها، بينما نصفق له ونشتغل عنده خدمًا لطموحه وطوعًا لمراميه! إن محمد نجيب أقرب وأوقر وأرق وأطيب، ثم هو أخيب وأضعف وأهيف وأبله، فلماذا لا يكون هو وليس هذا الضابط المتماكر الذي يفتح شفتيه عن ابتسامات مصطنعة ويضمها على شر أصيل؟! لنرَ ماذا يفهم هذا الضابط خارج أسوار قشلاقه !
طالت كلمات المجاملات، حتى باتت لزجة ومملة، ثم بدأت مدائح متبادلة بين الضباط والإخوان للأستاذ وفضيلة المرشد والإمام الشهيد (يستخدمون هذه التعبيرات وصفًا لحسن البنا، بل هناك من أضاف رضي الله عنه). قال كمال الدين حسين :
ـ إن ما فعلناه كان استلهامًا من روح الأستاذ الشهيد حسن البنا .
وأضاف حسن الهضيبي، وكانت عيون الإخوان تنتظر كلماته، لكن السندي كان مكتفيًا بالنظرات المتبادلة بينه وبين عبد الناصر :
ـ هذا قول جميل، لكن يجب أن نلحقه بالعمل الأجمل .
عبد الحكيم عامر اعتبر ما قاله كمال الدين حسين مجاملة عاطفية تليق بزميله الذي يحرص على عرض تدينه هو وحسين الشافعي، كأنهما شيخان أزهريان دخلا غرفة اجتماعات الضباط الأحرار خطأ. لكن رد الهضيبي أقلقه .لم يتركهم الهضيبي لتفسير ما وراء كلماته، بل أزاح عن المغزى الستار :
ـ أعتقد يا حضرة البكباشي جمال إنه مهم في هذه الفترة، ولما تتعرض له البلد من مخاطر وعواقب، ولما في
هذه المرحلة من دقة وحرج، أن ما تقررونه يكون معروفًا لدينا قبل أن يعلن عنه ويعلم به الناس .
رفع عبد الناصر كفه فوقركبته وهو جالس يشير لعبد الحكيم بألا يرد، بينما كان زكريا أثلج من أن ينفعل، أما ابتسامة كمال الدين حسين فاتسعت دون أن يفهم زملاؤه هل بسبب دهشته مما قيل أو تأييدًا لما فهم .
واصل الهضيبي كلماته التي قالها ببطء وتؤدة قاضٍ يلقي منطوق الحكم على المتهمين، والسندي يتابع تعكرات وجه عبد الناصر الذي يجاهد نفسه مجهدًا ليكظم غيظ الغضب :
ـ نحن القوى التي تساند هذه الحركة سواء في الجيش أو الشارع، وأهدافنا من اليوم الأول واحدة، لقد كرهنا فساد الأحزاب التي تسعى لدنياها بدناءتها، وتفسخ هذا المجتمع الذي تحللت أطيافه، وجمهورنا سواء من الأعضاء أو المحبين أو من يؤمنون بالقرآن سبيلًا يريدون للجماعة أن تنتصر لله وشرع الله .
التفت لأول مرة وواجه وجه عبد الناصر :
ـ اعذرني لصراحتي، فنحن قوم لا نتخابث ولا نراوغ .
ضحك عبد الحكيم في سره حتى شخر ودمعت عيناه من كتم حنجرته (أنتم الخبث نفسه يا فضيلة المرشد، والمادة الخام للمراوغة، ومع ذلك لندع عبد الناصر يرد، فلم نأتِ لنفسد حفل الكذب، بل لنشارك فيه). كان الهضيبي يومئ تلبية لإيماءات إخوانه المستحسنة والمتحمسة والمؤيدة
وقف عبد الرحمن البنا فجأة وسألهم :

ـ هل أنتم متوضئون؟
لم يستوعبوا السؤال، لكنه لم ينتظر الإجابة :
ـ وجبت صلاة العصر .
ثم بدأ في أذان قيام الصلاة، فإذا بهم قد فتحوا أبواب الشرفة وفرشوا سجاجيد للصلاة، وتقدم المرشد فوقف للإمامة، بينما ظهر فجأة مصورون يحملون كاميراتهم ويلتقطون انتظامهم في صفوف الصلاة وركوعهم وسجودهم والمرشد إمام الضباط. يبدو أن الوضوء لم يكن مطلوبًا لهذه الصلاة بقدر ما كان ضوء الفلاشات مطلوبًا، لكن لا بأس. قالها عبد الناصر لنفسه رغم شكه في ثواب صلاة الجماعة مع هذه الجماعة بالذات، لكن ما يهم الآن ألا يكون الإخوان ضدك، وليس مهمًّا حتى أن يكونوا معك. بعدها ختموا الصلاة (من الجيد أنه لا صلاة سنة قبل وبعدالعصر).
ترك عبد الناصر كمال الدين حسين يخطب خطبة عصماء عن الإسلام والدولة، وعبد القادر عودة يترافع عن أهمية الدين في المجتمعات، وسمح لنفسه بالضحك على قفشات سخيفة أطلقها الإخوان في محاولة للاستظراف السمج، لكن أعادهم عبد الناصر إلى ما قبل الصلاة، حين خاطب المرشد عند أول لحظة صمت وقبل أن يبدأ الشيخ فرغلي موعظة حسنة همَّ بها :
ـ هل فهمت مقصد فضيلتك على نحو صحيح لو قلت إنك تريد منا أن نعرض عليكم قراراتنا لتوافقوا عليها أو ترفضوها أولًا؟
تلكأ الهضيبي في الرد بما يعني الموافقة على فهم عبد الناصر الصحيح، لكنه لحق به قبل أن يواصل :
ـ ما أريد أن أقوله هو أننا شركاء، ولسنا مجرد نصحاء .
ـ شركاء في الأهداف، لكن ليس في الوسائل
هم الهضيبي بالتعليق، لكن عبد الناصر رفع درجة نبرته ومنحها حدة ما :
ـ هذه وصاية وليست حتى شراكة !
تجاهل الهضيبي مقاطعة عبد الناصر، وقال كأنه يتلو آية :
ـ عندمانقول إننا لا بد أن نطبق شريعة الله، فهذا ليس وصاية، بل هو الحق المبين .
ثم طلب الهضيبي بإيماءة من رأسه شيئًا من عبد القادر عودة الذي لبى، فأخرج من جيب جاكت بدلته ورقة مطوية فردها، والمرشد يستمهل قارئها بكف يده :
ـ هذا برنامج الإخوان الذي أقرته الجماعة .
كان الهضيبي يعلم أن عبد الناصر قد وصله إعادة انتخابه مرشدًا عامًّا للجماعة، فكأنما تجديد وتأكيد للبيعة في مواجهة تمرد السندي المكتوم. السندي صديقك يا عبد الناصر، جاسوسك المفضل وليس الوحيد !
بدأ عودة يقرأ مؤكدًا على حروفه، كأنها تعليمات المرشد للضباط بالسمع والطاعة :
ـ يجب محاكمة جميع الوزراء السابقين الذين ساعدوا الملك السابق، أو مارسوا الظلم والفساد (قولولنا إنكم تريدون أن نقتل لكم إبراهيم عبد الهادي انتقامًا لدم حسن البنا بدلًا من أن تتورطوا أنتم في قتله).
واستمر عبد القادر عودة في قائمة «يجبيات» الجماعة :
ـ يجب إعادة النظر في قضية الأسلحة الفاسدة (ينافقون الضباط، ماشي). يجب الاهتمام بتعليم الدين في المدارس وتحريم الموبقات كالقمار والخمور والرقص والأفلام والمحلات الخليعة (كان

عبد الحكيم عامر ينتظر أن يعلنوا الخلافة الآن على الغداء! لكن الخلافة نفسها كان فيها خمور ورقص، ولو كانت أيامها أفلام لعملوا أفلامًا، ثم ألم تكن دور البغاء والجواري وملك اليمين أجدع من أي محلات خليعة يا فضيلة المرشد؟). يجب وضع حد للملكية الزراعية، على أن يتم بيع ما تستولي عليه الحكومة من الملكيات الزائدة عن الحد للفلاحين المعدمين (ضحك حكيم في سره، فالإخوان والأمريكان تافين في بق بعض، ثم تذكر أن عبد الناصر قرر تعيين الوزير أحمد حسين سفيرًا لمصر في الولايات المتحدة الأمريكية في أقرب وقت، فالرجل موضع حب السفير و«إيفانز» و«ليكلاند» أنصار تحديد الملكية من أجل عيون الفلاح المصري!). يجب إلغاء الفوائد على القروض وودائع البنوك وتأميم البنك الأهلي وإغلاق بورصة عقود القطن (كان كمال الدين حسين معجبًا للغاية بهذه الـ«يجب»، فظل يهز رأسه موافقًا حتى شخط فيه عبد الحكيم بنظراته).

ثم لعلع عبد القادر عودة وهو ينظر إلى المرشد يتبادلان الاستحسان وهو يقرأ :

ـ يجب وضع دستور جديد على أسس الشريعة الإسلامية .

حاول عبد الناصر أن ينهي فرمانات الباب العالي التي يسمعها :

ـ وهل ما قمنا به ونقوم به إلا لإعلاء شرع الله؟

قال عبد الناصر، وهمهم كمال الدين حسين :

ـ طبعًا طبعًا .

واصل عبد الناصر وكفه الموضوعة على ركبته ترتفع أكثر تطلب من زملائه تركه وحده ليتكلم :

ـ الوقوف ضد الظلم، ومواجهة الفساد، وتطهير البلد من الانتهازيين والعملاء، هو شرع الله .

رد الهضيبي :

ـ ومنع محلات الخمور، وإغلاق الحانات والبارات، شرع الله .

ـ هل تريد أن أغلق هذه المحلات فعلًا؟

ـ فورًا، اليوم قبل غد .

ـ ولماذا لم تطلب ذلك من الملك فاروق يا فضيلة المرشد؟

ارتفعت حرارة الجو، وكانت النوافذ مغلقة والمروحة الوحيدة مختفية خلف هذا الحشد الذي يبدو أنه زاد أكثر بعد أداء صلاة العصر، وكان محمد فرغلي هو من رد على عبد الناصر :

ـ لم نكن قد قمنا بحركتنا المباركة !

لم يتمالك عبد الحكيم نفسه، فأجاب :

ـ جائز أنكم باركتم، لكن هي حركتنا، نحن الضباط الأحرار الذين طهرنا الجيش وطردنا الملك !

علَّق فرغلي :

ـ الضباط الأطهار هم الذين فعلوها !

لم يفهم أحد هل هذا مدح للضباط الأحرار أم أنه يقصد ضباطًا آخرين، فلما وجد عبد القادرعودة صمتًا قرر أن يملأه كمحامٍ :

ـ نعم، جنود الله هم الذين فعلوها، فلولا عناية الله ما نجحت، وهو ما يجعلنا نهدف جميعًا إلى رضا المولى سبحانه وتعالى، وأن نيمم وجهنا شطره فلا نتفرق ونعتصم بحبل الله. الضباط في مجلس القيادة وفي الجيش إخوان وإخواننا، وما يقوله فضيلة المرشد يعود بالخير على مصر وعلى هذا الشعب، فحين نتخلص من الرذائل فهو التطهير المنشود، وليس فقط التطهير الخاص بفصل العناصر الفاسدة من الوزارات والجيش .

ـ أنا لن أقوم بتطهير ديني يا فضيلة الشيخ، ما نفعله هو تطهير سياسي !
كان رد عبد الناصر الذي أضاف عليه ليخفف من حمضيته أو قلويته :
ـ ممكن أمنع الأقل من واحد وعشرين عامًا من دخول هذه الملاهي، وسنوقف تراخيصها .
ـ بل وتمنع دور السينما والمسرح
هذه صدمت كمال الدين حسين، ولو سمعها الشافعي لصدم كذلك
ثم نظر عبد الناصر إلى المرشد وقال بلهجة استضعافية :
ـ يا فضيلة المرشد، أنت تطلب مني طلبات لا طاقة لي بها !
ـ لكني مصمم عليها
ـ طيب نتكلم بصراحة وبوضوح، إنت لك بنت في كلية الطب، هل ابنتك تذهب إلى السينما؟ نعم تذهب إلى السينما طبعًا. طيب إذا كان الرجل في بيته ليس قادرًا على أن يمنع أولاده أو بناته عن الذهاب إلى السينما، فلماذا تريد مني قفل السينمات؟
ثم قرر عبد الناصر أن يعرض مقابلًا يرضيه ويطمئن المرشد، فأضاف :
ـ أنا واجبي هو رقابة السينما والمسرح لحماية المجتمع .
ـ والحجاب؟
قالها المرشد كأنه تذكرها حالًا. رد عبد الناصر :
ـ ماله الحجاب؟
ـ يجب أن نصدر قانونًا بإلزام النساء في البلد بالحجاب، بالزي الديني كما كان العهد قبل ثورة 19 .
علَّق عبد الحكيم :
ـ اليشمك .
ساعتها أخفض عبد الناصر صوته ومنحه شيئًا من الرجاء :
ـ لكن ابنة فضيلتك لا ترتدي هذا الحجاب، فكيف أفرضه على عشرين مليونًا؟ ثم نحن لسنا وحدنا في البلد !
لم يصدق عبد الناصر أن هذا ما يناقشه مع المرشد والإخوان. أهذا ما يشغلهم الآن؟ تبادل النظرات مع عبد الحكيم. إنها زيارة مجاملة، فما هذا الجنون الذي راحت له هذه المناقشات؟ لقد أدرك عبد الناصر أن المرشد يجعل من نفسه مرشدًا عليه لا على مكتب الإرشاد، يفرض برنامجًا سياسيًّا ويطلب تطبيقه فورًا، يصنع خلافًا أو اختبارًا للقوة أو جلبًا للاستفزاز، لكنه لم يصدق أن تكون هذه الأفكار وهابي على أمريكاني على عثمانلي، التي لم يسمع بها يومًا في حظائر الإخوان، هي التي تتحول إلى مطالب بل وبلهجة الأوامر
حين خرج الضباط الأربعة إلى سياراتهم، فاجأهم زكريا محيي الدين، وكأنما ليضيف هذا إلى تقريره عن الاجتماع :
ـ أنا نسيت، ماذا قدموا لنا على الغداء؟
قال عبد الناصر :
ـ سم .
*

عاد عبد الناصر إلى مكتبه، وألقى عليه الملف الذي جلبه من مكتب زكريا. فك رابطة العنق، وأشعل سيجارته، ومسح عرقه، وقلب الأوراق المكتوبة بخط اليد في قوائم مرقمة، وأخذ يراجع أسماء الأربعمائة وخمسين ضابطًا من رتبة لواء إلى رائد، الذين قرروا أن يفصلوهم من الجيش.

رن جرس التلفون، كان زكريا على الخط يسأله :

- هل تحب أن تكون في هيئة محاكمة رأفت شلبي؟

- لا .

- هل تريد حضور المحاكمة؟

- لا .

ـ شيوعيون أولاد كلب !
ـ مؤامرة
ـ مخربون
ظلَّت الأوصاف تنطلق في فضاء الغرفة كالقنابل اليدوية، بينما عبد الناصر يحكم إغلاق فمه على أعصابه التي تطق شررًا. الانفعال المتوتر أخذ بعقول الضباط الذين توزعت ردود أفعالهم على ما يجري في كفر الدوار بين البهوت والسكوت والترقب كما خالد محيي الدين ويوسف صديق، أو إنزال اللعنات والشتائم والتنمر والاستئساد مثل جمال وصلاح سالم وعبد المنعم أمين. لم يقدم أحد منهم حلًّا رغم هذا الرطن واللعن. المرة الأولى التي يجدهم فيها محمد نجيب مضطربين فاضطرب أكثر. لا الإنجليز ولا الملك ولا الوفد من يثير عليهم ريح العاصفة الآن، بل مجموعة من العمال (ليست مجموعة، بل ستة آلاف عامل). بدأ يخاف هذا الرجل على ما صار يملكه! تحير عبد الناصر كيف كان يتصرف هؤلاء في معركة فلسطين، إذا كان أي ضغط أو خطر يمكن أن يفكك أعصابهم هكذا؟ كان قد دعاهم إلى الاجتماع بعد أن فضوه وعادوا إلى تلك الغرفة التي يقضون فيها منذ أسابيع أطول مما قضوا في خيام معسكراتهم أو عنابر ثكناتهم، منتصف الليل إذن يسلم إلى بواكير الصبح، والحيرة تحدفهم من بر إلى بحر .
التفت إلى زكريا محيي الدين :
ـ هل لا تزال الأحداث مستمرة؟
رد مطرقًا برأسه، ومد يده إلى ورقة صغيرة مطوية وفتحها :
ـ طبقًا لآخر بيان بالمستجدات، مستمرة .
ـ وعاطف نصار؟
ـ البكباشي نصار وصل إلى هناك بقوات المنطقة الشمالية .
ـ هل كلمته؟
ـ يقول إن العمال يهتفون: «يحيا اتحاد العمال»، «عاش محمد نجيب»، «يحيا القائد العام»، «أنقذنا يا منقذ الشعب »!
تحرك منقذ الشعب على مقعده مرتاحًا وموليًا وجهه بغليونه ودخانه ناحية عبد الناصر، وقال متنفسًا راحة :
ـ واضح إن الموضوع مطمئن .
صرخ فيه صلاح سالم :
ـ إنت مصدق الهتاف بحياتك؟! هذا ضحك على الدقون، يأكلون بعقلك حلاوة !
أطفأ صلاح سالم النور الذي أضاء ملامح نجيب الذي دفع سحابات الدخان لتغطي وجهه المتغضن بالانزعاج .
تأوه أنور السادات فجأة، ثم كتم حرجه وصوته وهو ينهر كمال الدين حسين بنظراته. كان كمال قد شبك أصابعه الثقيلة على فخذ السادات وقرصه قرصة أرجفت السيجارة في يد السادات، فتناثر

رماد دخانها وكادت تفلت نفسها من أصابعه، بينما تشاغل كمال الدين حسين عن عتاب السادات بسؤاله :
ـ السكوت على ما يحدث لن ينفع يا أنور !
عبد الحكيم عامر الذي يعرف رغبة كمال في المداعبة الثقيلة بالقرص حين يستولي عليه الغيظ من شيء أو شخص، أشار للسادات أن يتحمل السخافة ففينا الذي يكفينا، وقدم سيجارة جديدة للسادات فقد لاحظ فراغ علبته .
حسين الشافعي هم أن يتكلم، لكن عبد المنعم أمين كان أسرع :
ـ لو تركنا العمال يقومون بإضرابات بدون ما نتدخل ونوقفهم عند حدهم، فسيتسع الخرق على الراتق، وسنجد كل يوم عشرة وعشرين إضرابًا وتدب الفوضى !
كان عبد المنعم أمين يقول هذه الكلمات بحرارة وحماس كأن الإضراب في مصنع من ممتلكاته، ثم إنه كرر نفس الرأي بعشر طرق طوال الساعات التي مشت فوق صدورهم بجنازيرها البطيئة .
تدخَّل جمال سالم يلوم صلاح أخاه على سكوته وهو يلوح مهددًا الهواء بعصاه :
ـ ماذا نفعل يا صلاح؟ هؤلاء شيوعيون بالتأكيد !
ثم أشار وهو يخبط بيده على سطح المائدة إلى خالد محيي الدين :
ـ أصحابك يا خالد !
ثم التفت إلى زكريا وهو يشخط فيه مداعبًا :
ـ شف لنا حلًّا في ابن عمك يا زيكو !
لم يستجب زكريا بأكثر من حركة رموشه .
بينما ضحك خالد ضحكة تحاول أن تكسر حدة جمال سالم، وقضمها :
ـ يا ريت في مصر ستة آلاف عامل شيوعي !
ضرب صلاح سالم بكرباج لسانه :
ـ يكفي ستة عمال فقط ويقلبون علينا البلد !
لم يرَ لحظتها أحد عيني صلاح سالم من وراء زجاج نظارته السوداء، لكنهم تيقنوا أنهما تلونتا بالحمرة .
نطق حسن إبراهيم بكلمة واحدة، فقد لاحظ أنه لم يشاركهم في حوارهم آخر ساعتين، قال :
ـ صحيح .
كان جمال سالم قد استدار برأسه إلى يوسف صديق :
ـ ألست صاحبهم أنت أيضًا؟
كان يوسف صديق منذ انضم إلى مجلس القيادة يتصرف كرجل يجلس في مجلس حرب، فيظل على جديته وصرامته، لا يحيد بابتسامة أو يفرط بضحكة، بل يرد على الدعابة بالجفاء، والصوت العالي بأعلى منه. اعتبر نفسه طوال الوقت ضيفًا عليهم، فهم ليسوا أصدقاء عُمر ولا رفقة سلاح، وليس بينهم طول العشرة وألفة الصحبة، لا دخلوا بيته ولا دخل بيوتهم، لم يقرأ لأي واحد فيهم قصائد مما يكتبها، بل ونشر بعضها في صحف ومجلات، يعاملونه كالرجل الذي صنعت أهميته صدفة خروجه المبكر ليلة الانقلاب، وتحوَّل امتنانهم المفترض له إلى إنكار لدوره أو تجاهل لبطولته، ثم إن فيهم خفة لا تعجبه، وبينهم تواطؤ لا يرتاح إليه، رغم أنه انضم إلى الإخوان المسلمين مثلهم فترة، فقد تركها وبقي منها فيه دروس الجهاد في سبيل الله، بينما بقي منها فيهم

حس استعلاء الفرقة الناجية، ولم ينضم إلى الشيوعيين، فليس عضوًا في «تنظيم حدتو» الذي ينتمي إليه خالد محيي الدين (ومر به وعبر عليه جمال عبد الناصر أيضًا)، إلا أنه يرى في الشيوعية طريقًا أخضر (صحيح أن راياته حمراء) للعدل والحرية في هذا العالم، ورغم ذلك فخالد محيي الدين لا يعترف شأن الشيوعيين بشيوعية وشيوعيين خارج تنظيمه (ثم أنا الشيوعي الوحيد الذي أعرفه، الذي يصلي ويصوم). نظر إليه عبد الناصر نظرة تنم عن رغبته بألا يرد على جمال سالم، فقرر صديق أن يسأله عن الحقيقة فيما نسمع عما حدث في كفر الدوار !

*

حين وصل عبد الناصر إلى بيته كان كل ما فيه يستهدف السرير، عقله وجسمه، لكنه تعشى من الغداء الذي سخنته زوجته، وأخبرها أن تحضر له الشاي حيث يجلس فارشًا أوراقه أمامه على السفرة، وأن تذهب
للنوم فوراءه شغل. كان يحمل معه عدة صحف لم يكمل قراءتها، وملفات ضباط طلبها من زكريا (خصوصًا ملف رشاد مهنا)، وتقارير البوليس الحربي عن اجتماعات يعقدها الضباط في سلاح الفرسان والمدفعية، يجهز للتعليق عليها بتأشيرات وإعادتها لأحمد أنور. لم يتمكن بسبب الاجتماعات الطويلة والزيارات الملحة والنقاشات الصاخبة (صوت جمال سالم وصلاح أخيه يرن في الأسقف العالية لغرف مبنى القيادة) من إنهاء هذه المهام في المكتب .
أمسك بالقلم، وبدأ يضع خطوطًا تحت مقال شخص اسمه «سيد قطب» (سيطلب من زكريا أو من مصطفى أمين تفاصيل عنه). العنوان شده: «استجواب إلى البطل محمد نجيب». لقد اعتاد أن يمر على تمجيد وتفخيم محمد نجيب وحمل البخور له باعتباره نفاقًا طبيعيًّا (كان يعلق خلف سريره ورقة جورنال مقطوعة على مقال لأحد الكُتَّاب يمدح فيه الحركة المجيدة، ويسب الدين والملة للملك فاروق، وقد كتب عبد الناصر بخط يده بقلم حبر على المقال كأنما يشطب عليه: النفاق)، لكن تخوف عبد الناصر من أن هذا النفاق سيفسد نجيب ولا شك، وسيلعب برأسه إذا كان لعب برؤوسنا جميعًا، فما بالك بهذا الشيخ الذي جاءه المجد على كبر وعلى فجأة يا جمال؟!). واضح أن كاتب المقال يعاتب محمد نجيب ويعاتبنا (وصفنا بأننا معاونوه، وإن كان كريمًا فوصفنا بالأبطال) على الاكتفاء بخلع الملك . أثقل عبد الناصر ثخانة الخط تحت هذه العبارات :
لكنكم يا سيدي بدلًا من أن تسيروا في هذا الطريق حتى نهايته، بدلًا من أن تضربوا الحديد وهو ساخن، بدلًا من أن تقتحموا أوكار اللصوص، بدلًا من أن تهدموا حصون الرجعية، بدلًا من أن تحطموا الأجهزة التي استخدمها الملك الراحل لقتل الشعب... وكان الكثيرون منهم قد آووا إلى الأوكار والجحور يرجفون عندما ضربتم ضربتكم الأولى... انسحبتم إلى الثكنات، فخرجت الخفافيش من القبور، خرجت تتحدث عن الدستور وحكم الدستور. باسم الملايين الذين لم يسمحوا لكم بالعودة إلى الثكنات لأن مهمتكم لم تنتهِ أكملوا ضربتكم .
تنهد جمال عبد الناصر، ولم يمنع نفسه من الإعجاب بما قرأ، والاهتمام بما وضع تحته خطًّا، سائلًا نفسه وقد ساوره شك أنشيئًا حدث لا يعرفه: وهل انسحبنا إلى الثكنات ياأخ سيد؟ ثم من أنت لتتحدث باسم الملايين؟ ثم لنرَ ماذا كتب مصطفى أمين اليوم عن الملك، مثير هذا الرجل فعلًا، إنه يمطره بملفات يومية عن كل شيء في مصر، يرسلها عبر أحد مخلصيه في ملفات زرقاء وحمراء، ومكتوبة بخط يده الأنيق، ومنسقة ومقسمة لعناوين، ومصاغة باحتراف. كل هذا لي، إنها تقارير تأتي بما لم يأتِ به زكريا في مخابراته الحربية، ولا أحمد أنور ببوليسه الحربي، فمصطفى

أمين أنفذ منهم في المجتمع، ويده طائلة حشا القصور والأحزاب، إنه جهاز مخابرات متنقل (دعني أقول هذا التعبير للصحفي محمد هيكل، استنضفه منذ جاءه في القيادة وبدأ يظهر له مرواحًا ومجيئًا، يبدو أن مصطفى كلفه بي مهمة رئيسية وربما وحيدة . ذكي هذا الصحفي ودماغه صاحية، ثم إن زكريا أخبرني أن ضابط السفارة الأمريكية يزور هيكل في «أخبار اليوم»، كلما زار مصطفى أمين. عمومًا لقد أخبرني هيكل بهذه اللقاءات، بل كان يحكي لي عنها أكثر مما طلبت).

ضحك عبد الناصر وهو يخط تحت هذه السطور في «الأخبار »:

لقد انتهى عهد الساسة المحترفين، وقد حقق محمد نجيب وعلي ماهر للبلاد في ثلاثة أيام ما لم يحققه غيرهما في ثلاثين عامًا. وتذكروا أن الذين يبكون على الدستور اليوم هم قاتلوه. يجب أن يتحرر هذا الشعب من تلك الأصنام التي عبدها .

يا ترى أي صنم يدعونا لنهدمه أولًا، اللات أم العزى، يا أخ مصطفى؟ ثم باغته رنين التلفون فأسقط الفأس (المخصصة لتحطيم الأصنام) من يده. منذ ساعتها كل ما يرِد من كفر الدوار يضغط على رأسه ويهرس أعصابه، يريد تفاصيل أكثر فتأتيه تفاصيل أكثر غموضًا، الإشارة الأولى جاءته من أحمد أنور في البوليس الحربي الذي أسرع يتصل به على تلفون البيت (عرف منذ ركبه في البيت لأول مرة أنه سيجلب المصائب) يخبره أن شيئًا حدث في كفر الدوار

ـ ما هو بالضبط؟

ـ يبدو أنه إضراب عمالي .

ـ يبدو؟ !

ـ المعلومات أولية وجاءتني عن طريق المنطقة الشمالية

ما حقيقة الإضراب، وحجمه، ومكانه، وسببه؟ من يقوم به؟ من وراءه؟ ما هي مطالبه؟ ثم إضراب داخل مصنع لماذا يقلق إلى هذا الحد الذي يجعل زكريا محيي الدين يدخل عليه غرفة مكتبه عند وصوله آخر الليل وقد غادر البيت متوجسًا قلقًا ومتحسسًا خطرًاإلى مبنى القيادة؟

*

ـ هناك شيء كبير في كفر الدوار !

رد عبد الناصر مستفسرًا :

ـ هل تقصد إضراب العمال؟

لم يندهش زكريا أن عبد الناصرعرف، لكنه تأكد أنه لا يعرف بدقة :

ـ ليس مجرد إضراب كبير، بل مظاهرات داخل المصنع وتتجه خارجه !

ـ علي ماهر نائم! أين الداخلية؟

ـ جائز نائم فعلًا، فهو ينام مبكرًا، لكن هو وزير الداخلية أيضًا وأكيد صحوه، لكن أنا خائف من الداخلية أكثر !

ـ لماذا؟

ـ مأمور كفر الدوار راح فعلًا المصنع، ومعه قوة المركز كله، لكنه شخص متهور، ثم ...

سكت زكريا وهو يفتح قوسين بنظراته حتى يضع بين كلامه جملة اعتراضية :

ـ ألم يخبرك أحمد أنور ولا جمال القاضي؟

ـ بماذا؟

ـ هذا المأمور، اسمه نعمان العشماوي، عولج منذ فترة في مصحة نفسية بالإسكندرية .
اندهش عبد الناصر :
ـ ولا يزال في الخدمة !
ـ بل لا يزال في كفر الدوار منذ عشر سنوات .
ـ ابعت فورًا لعاطف نصار يروح المصنع !
أدرك عبد الناصر أن كفر الدوار أجلسته في مبنى القيادة بين مكتبه وغرفة الاجتماعات أربعًا وعشرين ساعة كاملة حين فتح صلاح سالم الباب وصاح على عسكري أن يجلب ساندويتشات فول وطعمية، فالليل طال وقد جعنا. ظهر جمال القاضي قادمًا من البوليس الحربي واقفًا على الباب المفتوح، فأمسك صلاح سالم بذراعه ودخل به إلى اجتماعهم، لكن القاضي احتفظ بوقوفه أمام عبد الناصر كأنه يخاطبه وحده، بعدما ألقى التحية العسكرية لمحمد نجيب الذي كان قد أعياه السهر والجدل. قال القاضي بصوت يستشعر الخطر :
ـ اتقتل اثنان من العمال !
نطق يوسف صديق ملتاعًا :
ـ يا نهار أسود !
كان السادات قد فتح درفتي الشباك العاليتين فعلًا، وأطل شفق الصبح خجولًا على الغرفة .
نظر عبد الناصر إلى زكريا :
ـ هل نعمان المأمور وراء هذه المصيبة؟
رفع زكريا كتفيه يرفع الإجابة عن كاهله، بينما تكلم جمال القاضي :
ـ العمال بايتين في المصنع، وعددهم بيزيد، وناويين على مظاهرات باكر !
ـ باكر؟ لقد أصبحنا باكر فعلًا
قالها صلاح سالم، لكن يوسف صديق كان قد وقف متعرق الوجه، وتحولت عيناه إلى حمرة قانية، حتى خشي عبد الناصر أن يكون نزيف رئتيه قد عاد إليه في هذه اللحظة :
ـ ما نستجيب لطلباتهم .
قام جمال سالم وتوجه ناحيته، فلما رأى عيني صديق المحدقتين والمحمرتين بدل طريقه وذهب إلى خالد محيي الدين :
ـ نستجيب لهم وبكره يطلب غيرهم وغيرهم ويخربون، ونسترضيهم ويعملون مظاهرات ونتحايل عليهم. تبقى فوضى !
ـ تبقى كارثة
قالها عبد المنعم أمين .
أومأ عبد الناصر لجمال القاضي :
ـ عايز تفاصيل أكثر، واعمل مكالماتك من هنا، وشف لي المأمور المجنون ماذا فعل !
خرج القاضي، وعاد صلاح سالم بعدما أغلق الباب :
ـ لازم إنهاء الإضراب بسرعة !
ـ كيف؟
ـ بالقوة !
ـ ما نوافق على مطالبهم .

ـ ما هي مطالبهم أصلًا؟
ـ مهما كانت مطالبهم .
ـ مستحيل حتى لو كانت عشرة مليم !
ـ لماذا؟
ـ لأنه ابتزاز، ولو استجبنا ضعفنا، ولو ضعفنا سيأكلوننا !
ـ هذه مشكلة الحكومة وليست مشكلتنا .
صمت، لا أحد علَّق على هذه الجملة من فرط سذاجتها، اعتبروا أنهم لم يسمعوها أصلًا، ولم يشر أحد إلى أن خالد محيي الدين هو المشرف على وزارة الصناعة، لكن عبد الناصر قطع الصمت :
ـ طبعًا سنحتاج إلى الحكومة، ثم أين حافظ سابق؟
ـ من؟
ـ حافظ سابق، النائب العام .
*
عضه الندم أنه ليس داخل المصنع، صحا من النوم على وقع الخبر الذي جاءه ساخنًا لهيبًا، فلم يقفز في رأسه إلا اسم شقيقه محمد الذي يصغره بعامين ويعمل معه في المصنع. الإضراب مستمر منذ وردية الليل والدنيا مقلوبة. على قدر ما انتعشت روحه بأنهم أخيرًا فعلوها، إلا أنه غضب من نفسه أنه ليس معهم، وأن محمد هناك وهو الصبي الغض، صحيح أنه أكبر منه بعامين فقط لكن تفرق، ثم هو الأقدم في هذه الشركة، انتظر هذا اليوم الذي يسترجل فيه العمال ويأبون الذل . العمال المفصولون الذين يترددون على المصنع يلتمسون من المدير الظالم حسين الجمال العودة عن فصلهم، حيث انقطع عيشهم، وفقدوا رزقهم، وجاع عيالهم . هذا المنظر كان يكمم أفواه زملائهم العمال (الذين لم يفصلوا بعد) عن النطق، وكل من يرفع الصوت بطلب الحق يخرس مفصولًا، وينضم إلى هذه الوجوه الشاحبة الحزنانة التي تتخلى عن كرامتها كلما تخلت عن قطعة من عفش البيت لتبيعها وتسد جوع عيالها، فتحضر إلى المصنع فيراها العمال فتنتشر عدوى تنكيس الرؤوس .
كان دم مصطفى خميس يفور ويصيح فيهم محاولًا رش ماء يطفئ فورانه :
ـ لازم نتحرك ونرفض الذل! لنا حقوق ولا بد منها !
ـ ماذا نعمل؟
ـ نعمل إضراب .
ـ وماذا يفيد الإضراب؟ إنت مش شايف؟ !
شاف ما يشيرون إليه، هؤلاء الخفراء الذين ينتشرون في ساحات المصانع الثلاثة وعنابر الغزل، يتجولون ممسكين بعصي قصيرة وخرزانات ملفوفة مقابضها بحزام من الجلد، كأنهم حراس سجن فخورون بسلطة الضبط والربط والضرب والركل. ثلاثمائة وخمسون خفيرًا، وأكثر من ثلاثين جنديًّا وضابط صف، في مكتب الضابط الأمني، يطلق عليه عشرة آلاف عامل (بمن فيهم المرتعدون والمنافقون والصامتون) «مكتب الظلم»، فلا شيء يمكن أن تلقاه في هذه المصانع الثلاثة التي تتبع بنك مصر إلا الظلم. هذه الخمسمائة فدان الممتدة أمام عينيه منذ سبع سنوات، حيث جاء صبيًّا في الثانية عشرة من عمره إلى هذا المصنع ليعمل (أي عمل وأي شغلانة) مودعًا التوجيهية قبل أن يحصل عليها، حتى يشارك في عبء أكل وشرب ومعيشة إخواته التسعة وهو

يتجرع ماء نار الظلم. ليس الظلم فقط من المصنع الذي شغَّله باثني عشر قرشًا، وصلت بعد سبع سنوات، وقد صار مساعد أمين مخزن القطن في شركة مصر للغزل الرفيع شخصيًّا، إلى ثمانية عشر قرشًا، بل من الحياة التي تدور بغزلها على عنقه فتخنقه حين يرى الأبواب كلها مسدودة، والغد كلما ظنه قادمًا بالفرج يعود كالأمس حاملًا الخيبة. ليس له مكان في مساكن العمال والموظفين التي بنتها الشركة على هذه الأرض، كأنه مطرود مع زملائه من جنة هذه الأسقف التي لا تضم إلا خُمس العمال، بينما أربعة أخماسهم مثله يمشون مترجلين عدة كيلومترات إلى قراهم وبيوتهم للمبيت على فراشهم مع زوجاتهم وأحزانهم وشقائهم وعيالهم. حتى النادي الرياضي والسينما والعيادة والمطعم حين تفتح أبوابها لهم، فإنها تنغلق على المن والأذى، فكلما طالب أحدهم بميزان العدل في الأجور بين عمال المصنعين الآخرين (صباغي البيضا ومصر للحرير الصناعي) أمالوا كفة الميزان إلى المعايرة بالسينما والعيادة. وحين يصيح أحدهم رفضًا للتفرقة بين العمال والموظفين، حيث يحصل الموظفون على منحة سنوية توازي أجر ثلاثة أشهر ونصف لا يحصل عليها العمال، نابذوهم بأنهم جهلة لا يحسون بالخير ولا تثمر فيهم الحسنة التي يحسدهم عليها الأهالي في القرى الذين تبلى أقدامهم الحافية سلفًا على تشغيل عيالهم في المصنع. وعندما يئن أحدهم يفصلونه، وإذا أخطأ واحد منهم أمام ماكينة أو آلة ضربه الخفراء وركلوه. المرة التي رأى فيها صفعة من كف غليظة تهوي على قفا زميل له في العنابر فينحني مرتجًّا تحت عنفها ويركع من ألم إهانتها، هي التي جعلته ينفض عنه هذا الرضا بالمقسوم، ويمحو المكتوب على الجبين من جبينه. تمرد فبحث عمن ينتشله من شلله، وجد الكتب فقرأها، سمع الذين يقولون عن أنفسهم إخوان مسلمين، هذا الذي اسمه مصطفى أبو اليزيد، وذلك الآخر أحمد عبد المقصود الذي دعاه للانضمام إلى جمعية «مصر الفتاة» التي بات اسمها «الحزب الاشتراكي»، لكنه لم يرتح لهما، ثم قرر أنه يساري .
كلام هؤلاء اليساريين أعجبه، لم يكن عضوًا في تنظيم النجم الأحمر كما يدعي زملاؤه الثلاثة من عمال المصنع الحمر، وهو ينكر ويحلف على المصحف أنه ليس منهم، لكن يبدو أنهم يتباهون به أمام يساريين آخرين منافسينلا يعرفهم في المصنع. يجد فيما يقولونه موالًا يغنيه في ليل الشقاء فيبرده، وأحلامًا تأتي في برد الشتاء فتدفئه. أيام تلد ليالي، وليالٍ تنفتق عن أيام، والدنيا ترمي بلاءها عليهم، لكنه لا يزال شابًّا،
ولا يزال هناك مستقبل، لكن المستقبل جاء فعلًا، قام انقلاب أو حركة (يسمونها كما يريدون)، المهم أن المستقبل اتنيل جاء على نفس الميناء الذي غادر فيه ملك الماضي الإسكندرية. ثم ها هم عمال صباغي البيضا أضربوا مطالبين بزيادة أجورهم وتأسيس نقابة ترعى شؤونهم، نجحوا، لم يعنهم هذا الدنيء حسين الجمال رئيس شركة الغزل (شركتنا المنكوبة) الذي راح للعمال المضربين في مصنع البيضا، وشخط متفاخرًا أنه سوف يؤدبهم ويجعلهم نسوان مثل عمالشركته. أنحن نسوان يا حسين يا جمال؟! ربما هذه الجملة التي مضغها العمال مع الدم في أفواههم هي التي داست على زر مكن الغضب فغضبوا. لم يكن خميس يتوقع (كان ينتظر لكن لم يكن يتوقع) أنهم من باب الغيرة من مصنع البيضا (خمسة وعشرون قرشًا في اليوم أجرًا بدلًا من الثمانية عشر قرشًا... عقبالنا)، ومن جرح الكرامة أنهم نسوان، سوف يسرعون بإعلان الإضراب حتى فاجأهفي هذا الصبح، فجرى لاهثًا نحو المصنع، فلم يجد إلا مئات العساكر بملابس الجيش الكاكية ومدرعات وعربات عسكرية وبنادق مرفوعة بالسناكي المشرعة على الأكتاف وطول الأذرع،

وجنود البوليس ممن توزعوا متفرقين بين منثورين ومختفين، وقد سمع عن فرار مأمورهم البغيض المخلول نعمان بعد أن تضرج دم عاملين برصاص بوليس تعجل القتل .
تناثرت الحكايات التي تنطقها الأفواه المجاورة اللاهثة وهم في طريقهم للمصنع، حيث العمال المهرولون وأهالي العمال الذين جاءوا ملهوفين بما عرفوا من سقوط قتيلين، مرتجفين بالقلق، يسألون بعضهم لألف مرة عن اسمي القتيلين حتى يتأكدوا من نجاة الأب أو الابن أو الأخ الذين هرعوا للاطمئنان عليه، ومعرفة ما يحدث في المصنع. سقط قتيلان أول ما حضر المأمور برجاله، ثم قرر اللعين أن يستدعي كامل قوة مديرية البحيرة، ثم هاج وماج وجمع الخفراء والمخبرين، ودابر طايح حول المصنع. بعدها جاءت قوات الجيش وتسلمت قيادة الموقف. لكن غضب مصطفى خميس نافس فرحه بالإضراب وقلقه على أخيه، وغلب حزنه على دم زملائه أمله في أن يحس المستقبل على دمه، فقرر وهو العامل صاحب ملف الخدمة النظيف الخالي تمامًا من أي جزاء أو عقوبة أو وقف عن العمل أو خصم من الأجر أن يضع في ملف خدمته أنه أضرب، وهو العامل الذي لم يرفع صوته في المصنع ضد زميل لا في حوار ولا جدال ولا شجار، قرر أن يعلو صوته فوق سماء المصنع بالهتافات. وجد عشرات من العمال وقد تجمعوا حول أبي اليزيد الإخواني الذي كان يخطب فيهم ويصيح بأن اللواء محمد نجيب قادم بنفسه للمصنع كي يقابل العمال. انتشت الجموع بالنبأ الذي يجهل خميس من أين جاء به أبو اليزيد لكنه أبهجه، فالمستقبل قادم إذن يرتدي قبعة عسكرية. كانوا يتجهون (ومعهم أهالي بجلاليبهم وأقدامهم الحافية) ناحية المصنع الذي بدا الآن محجوزًا بجنود الجيش الواقفين. انتشى أمله عندما رأى أحمد عبد المقصود الاشتراكي مجلجلًا بالصوت يدعو الزملاء إلى الانضمام للإضراب في المصنع. لم يقترب العساكر منهم، ولا احتكت بهم قوات الجيش التي حاصرت المكان وملأت الأفق باللون الكاكي، لكنها سمحت لهم بالمرور إلى زملاء ملأوا الساحة في حلقات ودوائر، ثم وجد خميس نفسه يقفز فوق كتفي زميلين رحبا بتسلقه، فشجاعته ونحافته دعمتا موقفه، فوقف فوقهما يطلق لحنجرته السراح بالصياح (لم يصب خميس بالالتهاب الرئوي كما كثير من عمال الغزل فلا يزال صوته الشاب شابًّا في صحته وخشونته):

يحيا اتحاد العمال

مطالب العمال عادلة

تطهير الشركة من المأجورين

ألهبته الأصوات الصائحة، فأنسته الليالي النائحة حين ردت عليه بالهتاف :

يسقط حسين الجمال

كان هتافًا يتجمع بين الحناجر ليصنع نشيدًا، وكانت الوجوه التي أقبلت حوله تزداد وتتجمع وتتسع، لم يكن يرى من ملامحها إلا الأيدي التي تلوح، غمامة من العرق من حر الصيف تغشى عينيه، لكنه يحررها بيده، ويعلو بصوته :

إلغاء الفصل التعسفي

كان العدد ألفًا، لا، صار ألفين، ثلاثة آلاف، لعلهم أكثر، محتشدين الأكتاف بالأكتاف، والرؤوس متماسة منتصبة متقدمة من ناحية مساكن العمال وفيلات الموظفين، تعبر هذا الشريط المحصور بين المباني والواصل بين ساحتي السكن والمصنع ويسمونه الكوبري. ظهرت من بعيد بوابة المصنع التي تسلقها عمال يشاركون الهتاف، ووجوه تنط الفرحة منها فوق الأسوار :

عاش اللواء محمد نجيب
أنقذنا كما أنقذت مصر
وخميس يشير للمئات الذين يحيطون به وهو يهتف بأن يبطئوا الحركة حتى يتجمع الكل، سيارات بضائع المصنع وعدد من سيارات الموظفين والمديرين تتراص مركونة في الساحة قبالة البوابة الداخلية، ومكتب الأمن على يسار البوابة مغلق، وإن وقف على رصيفه نفر من الخفراء. لمح الخفير عبده القزم يتقافز لتطول عيناه منظر المظاهرة، ينتقل خميس من كتفين يحملانه إلى كتفين أخريين، ثم يمسك زميلان بقدميه يرفعانه واقفًا على كفيهما وساعديهما ليهتف :
يحيا اتحاد العمال
ويسقط حسين الجمال
كان يرى منشورات يقذفها العمال من فوق أسوار وبوابات المصنع لزملائهم، تنقلت ورقة من أيادٍ لأخرى حتى وصلته من يد منفعلة مكموشة ومكرمشة، فردها وبدأ يقرأها بصوته على الجموع التي أخفضت وشيشها وتوقفت عن همهمتها، وبدأت مع كل مطلب يتلوه خميس تهتف :
مطالب العمال عادلة
كان محمد البقري يشد ساقه الآن، نعم يعرفه، شده من دولاب ذاكرته، إنه عامل أكبر منه بسنة أو اتنين، شاربه الرفيع ووجهه الخشن وحماسه الذي يملأ المصنع، وتدخله في كل حوار برأي، ومخالفته لكل فكرة بنقرة، جعلت منه وجهًا مألوفًا ومحبوبًا رغم تشكيه الدائم بحمولة الشقاء على ظهره من خمسة عيال أنجبهم ليحنوا ظهره، وأم بائعة فجل لو باعت محصول حقل فجللما تمكن من أن يكملوا عشاء العائلة كل ليلة. اسمه البقري، ولا يتذكر اسمه الأول، عيناه تصرخان عليه بالفرحة، وبلل صوته من العرق يطالبه :
اقرأ كل مطلب مرتين
نفذ ما طلبه منه، بينما رآه يبعد ويشق طريقه وسط المئات وهو يردد الهتاف ويشير بالقبضة ويرفع الذراع، ثم يمسك بيد زميل ثم ثانٍ وثالث كي يتقدموا إلى بوابة المصنع. فجأة رأى خميس من فوق الرؤوس ضبابًا أسود، إنه دخان تلمع تحته شرارات حريق. لم يفهم من أين جاء هذا الدخان! ثم سمع الأصوات تخبو وتخفض نبرتها وتتفكك جماعيتها مع صوت قرقعات وطرقعات. التفت حائرًا بين الهتاف والالتفاف، فرأى قوات الجيش تهرول وسياراتها تتحرك، ثم صفوف من المظاهرة تتحلل ثم تجري وتفر، ثم صوت طلقات رصاص يدوي، يبحث عنها من أين جاءت وإلى أين اتجهت! سيطر الهلع والفزع، واهتزت الأكتاف التي تحمله، ثم وجد تلك الأيدي الثقيلة وكعوب البنادق الحادة تهوي به وحامليه فوق الأرض، وتجثم أجساد العساكر فوقه وتجره وتسحله، وهو يلمح أسوار المصنع وبوابته خالية تمامًا بلا أحد، ثم يحجبها الغبار والظلام الذي حط على عينيه .

لم ينم، ولا يظن أن أحدًا قد نام. وصل إلى كفر الدوار في موكب من السيارات الجيب العسكرية تدوس أسفلتًا وتثير ترابًا وتدخل طرقًا وتعبر ساحات، والناس تتبع إطارات السيارات مدهوشة، وتتابع اهتزاز الكابات على الرؤوس متخوفة. إنه يمر بين مساكن وقرى العمال وعائلاتهم، إنهم محاطون بعساكر البوليس والخفر، لكن بين هؤلاء جميعًا وفيهم أبناء أو إخوة في هذه المصانع الثلاثة، وفي هذه الشركة تعسة الحظ التي أنحسته بمجيئه إليها في تلك الظهيرة القائظة، فيبدو أن هذا الصيف يأبى أن يسلم نفسه للخريف .

نزل من السيارة مصحوبًا بالعشرات من الضباط والجنود، حسبه الجميع محمد نجيب، ثم طأطأت رؤوسهم مع طموحهم لما رأوه وجهًا غيره

كأنما شق نفسه في أجساد الجنود وظهر مرحبًا، كأنما يستقبل قائدًا في ميدان حرب :

ـ منور كفر الدوار يا سيادة البكباشي .

حدق فيه عبد المنعم أمين جالبًا اسمه على طرف لسانه من بكرة الأسماء التي تلف في رأسه من صباحية ربنا :

ـ منورة بأهلها .

ثم أخيرًا التقط الاسم من ذاكرته :

ـ أهلًا يا بكباشي عاطف نصار .

تسلمه قائد المنطقة الشمالية بمصافحة متصلبة الكفين، وسار به إلى جوانب البوابة كي يرى بنفسه حقيقة الوضع. دخان الحرائق يصنع سحابات من السواد فوق سيارات متفحمة تقف قبالة أسوار الشركة، مع أبواب مخلوعة، ونوافذ محطمة، وإطارات ممزقة من سيارات أخرى، بينما تقف عربات على جانبها تكشف عن محاولات نصف ناجحة لقلبها، مياه المطافئ كونت بحيرات صغيرة في الأرض صنعت طينًا ووحلًا أمام مكاتب الأمن التي طالتها أيد غاضبة حطمت دواليبها وأدراجها. تعجب أمين من أن الحجرات خالية من الأوراق. أكل هذا التخريب ولا ورقة واحدة منسية أو ممزقة أو مبعثرة؟ !

لم يكن عاطف نصار وحده من تكلم، فالكلمات جاءت مندفعة ومتداخلة من ألسنة تزاحمت على طبلتي أذنيه. الكلمة التي ترددت فتكررت كأنما يقولها محموم من آثار ارتفاع الحرارة التي ترجف جسمه: تخريب! ثم بكل تنويعاتها: مخربون، خربوا، خراب، تخريب

بادره عاطف نصار همسًا ارتفع مع صخب الثرثرات المتلاحق :

ـ عملية مدبرة طبعًا، قبضنا على العمال المتورطين متلبسين !

كانوا قد أفسحوا له الطريق إلى غرفة مدير الشركة، ودفعوه إلى دخولها، وحشر ضباط أنفسهم معه في الدرفة الوحيدة المفتوحة، بينما أمر نصار العساكر بإغلاق الباب لمنع هذا الزحام المتكالب من الولوج معهم إلى حيث عضو مجلس القيادة الذي جاء خصيصًا ليرأس أول محكمة عسكرية لمتهمين لا يرتدون زي الجيش ولا يلبسون كاباته

لماذا أنا؟ ولماذا أحد آخر؟ ولماذا ليس أنا تحديدًا؟ كان عبد المنعم أمين يحدث نفسه طوال الطريق إلى كفر الدوار ومنذ خرج من مبنى قيادة الجيش، لم يفرغ من الأسئلة إلا لسماع بيان اللواء نجيب

في الإذاعة الذي قرأه مذيع متحمس منحه أهمية بيان حرب :
... فإن القائد العام يعلن جميع طوائف الشعب ـ وخاصة العمال ـ أن أي خروج على النظام أو إثارة الفوضى سيعتبر خيانة ضد الوطن، وجزاء الخيانة معروف للجميع، وعلى من له شكوى أن يتقدم بها بالطريق القانوني. إن النظام يجب أن يسود مهما كان الثمن، وقد أعذر من أنذر !
إذن هو ذاهب إلى كفر الدوار لمواجهة الخونة والفوضى، ولا يحمل في جعبته إلا شيئًا واحدًا فقط معروفًا له ولنجيب ولعبد الناصر وللجميع، وهو: جزاء الخيانة. نزل من مقر القيادة مؤمنًا حتى الصلاة للنظام الذي يجب أن يسود . كان قد قضى ساعات الليل موصولة بالنهار بين الأربعة عشر ضابطًا أعضاء القيادة، لا نوم ولا حتى نعاس، لا راحة ولا حتى التقاط أنفاس، فقد كان القلق من الفوضى قد تحول إلى توتر ثم إلى توجس ثم إلى خوف ثم إلى ذعر. إذا سمحوا للفوضى فالبلد سينفك من يدهم، وسيطمع فيهم الغريب والقريب، ولن يستطيع مجلس القيادة أن يواجه الإنجليز، ولا أن يطهر مصر، وسيصغرون جدًّا أمام الأمريكان بسفيرهم بمخابراتهم بخارجيتهم. فمن الذي سيثق في ضباط تمكن عدد من العمال الشيوعيين من فرتكة حركتهم بين يوم وليلة؟ لقد قتلوا جنديين من الجيش اليوم فكم يقتلون غدًا! رفعوا السلاح ضد عناصر من الجيش فيجهزون إذن السلاح ضد قيادات الجيش! لا بد إذن من التصرف العاجل الحاسم، ولا بد من المحاكمة السريعة القاطعة، والحكم لا يمكن أن يكون إلا جزاء الخيانة طبعًا. لعله هو صاحب الفكرة التي أطلقت تأوهات الإعجاب والرضا وصيحات الحماس بينهم :
ـ تنعقد المحاكمة في نفس المصنع الذي شهد المؤامرة .
لم يأتِ في ذهن أحدهم أنه شيء قريب جدًّا، بل لصيق تمامًا، بما فعله الإنجليز في «حادثة دنشواي»، حين حاكموا زهران وفلاحي دنشواي في الجرن الذي سقط فيه قتيلا الجيش الإنجليزي! ولا جال بخاطر عبد المنعم أمين أيضًا وطبعًا! من الذي يمكن أن يتذكر دنشواي في تلك الساعة؟! ثم نحن جيش مصر الذين أنقذناها من الملك ورجاله وقادة جيشه الفاسدين، ما لنا نحن وإنجليز دنشواي؟! ومال هؤلاء الخونة من العمال بفلاحي دنشواي الأبرياء؟! لكن عبد الناصر في أغلب الأمر هو الذي نظر إليه واقترح عليه بكلمته وكلفه بنظرته :
ـ البكباشي عبد المنعم أمين يرأس المحكمة العسكرية .
أم أنا من تطوع؟ أتطوعت فعلًا ولو بالحماس المتقد لمواجهة الفوضى، أم تطوعت قولًا، وليس عبد الناصر هو من كلفني وسط موافقة الجميع؟ نعم، لا أحد تطوع، لا أنا ولا غيري، فعبد الناصر وزكريا هما من أعدا القرارات وحددا الأسماء. هل كان هذا قبل حضور النائب العام أم بعده؟ ليس مهمًّا الآن، فهو أمام مهمة إنقاذ الحركة من الفوضى، لا ليس الحركة، بل مصر نفسها وذاتها. أليس جمال سالم هو من نط من كرسيه وصرخ فيهم :
ـ خلاص بقى فيها دم !
لم يكن دم العمال المسكوب ما غضب جمال سالم لأجله، ربما تألم لخاطر دم العمال القتلى، لكنه غضب لدم العساكر القتلى، فليست كل الدماء سواء، أفمن قُتل مخربًا كمن قُتل مدافعًا عن النظام؟! لقد هتف العمال كما بلغه: عاش محمد نجيب منقذ مصر من الفوضى. نعم هو منقذها من الفوضى، ونحن معه، بل نحن قبله، ننقذها من الفوضى حتى لو الفوضى جاءت ممن هتف لنا .
انتحى جمال عبد الناصر بالنائب العام حافظ سابق، وكان قد وصل قبيل وصول وزير العدل ورئيس محكمة الاستئناف، فلما اكتمل ثلاثتهم شاركهم عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين. كان

غريبًا أن يحضر هؤلاء إلى مبنى الجيش لا الحكومة، أو يجتمعون أصلًا في مكاتبهم الرسمية، لكنهم كما بدا لعبد المنعم أمين قد جاءوا تلبية لاستدعاء، جاءوا جنودًا لا قضاة. كان القضاة ووزيرهم يرتدون بدلهم الكاملة المؤنقة ذات المناديل وأربطة العنق، كانت سوداء لزوم الجدية أو الحداد. انتهوا إلى أشياء قانونية تفصيلية لم ينشغل بها عبد المنعم أمين كثيرًا، فقد اتصل بالتلفون بزوجته يخبرها بالموقف، وبأنه مسافر إلى كفر الدوار بنفسه. أكبرت فيه هذا الحماس لإنقاذ البلد، وتهيبت وجوده وسط عمال غاضبين ومتهورين وشيوعيين كما وصلها من مكالمات سبقته، لكنه طمأنها :
ـ ليس معقولًا أن نتركهم يعبثون في المصانع والشركات، ويهدرون على البلد ثروتها وإنتاجها، كفاية ما نحن فيه من أزمة اقتصادية طاحنة !
وافقته، لكنها وهي تدعو له دعته لأن ينتبه فقلبها متوغوش .
ظل صلاح سالم يخطب فيهم أن أصحاب هذه الشركة، كما أبلغه الصحفيون الذين يتخاطفون الكلمات من
أفواه ضباط مجلس القيادة منذ الصباح، هم: حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي، وإلياس أندراوس مستشار الملك الاقتصادي، ثم أضاف وهو يغلي ويرمي فحمًا في موقد غضبهم :
ـ إلياس أندراوس ابن الكلب كان يتقاضى من شركة كفر الدوار عشرة آلاف جنيه نظير عضويته في مجلس الإدارة، واشترى ألفي سهم من أسهم الشركة لحساب الملك بسعر ثلاثة جنيهات ونصف، ثم بعدها نزل سعرها في البورصة، يقوم هذا الأفاق ويجبر بنك مصر على إعادة شرائها من الملك، لكن لكي يزداد الفجر والجبروت يرتفع سعر السهم إلى سبعة جنيهات ونصف، فبمنتهى الوساخة يلزم الشركة بدفع فارق السعر للملك !
كانت حدوتة صلاح سالم دليلًا لا يقبل الطعن أمامهم جميعًا على تورط أندراوس في إضراب العمال وتخريب المصنع. تنازل عبد المنعم أمين عن أي منازلة أمام صلاح سالم، فلن يقول له إن وزير المالية الحالي عضو في مجلس إدارة الشركة نفسها، وإن أعضاء مجلس الإدارة لا يملكون الشركة، بل هو مال المساهمين في بنك مصر، ثم إن أعضاء مجلس الإدارة يجهلون تمامًا في العادة أي تفاصيل عن العمال وأجورهم، وبالتأكيد لا يعرفون عاملًا واحدًا من آلاف العمال في الشركة، وهم بالمناسبة مكروهون بالضرورة من العمال، فلن يقدروا على إقناع عامل واحد بإدارة آلة، فما بالك بتفجير فوضى! ثم إنهم لا يجتمعون إلا لمامًا، ولا يزورون مقر الشركة. أندراوس ذاته ربما يجهل مكان الشركة نفسها، ثم ما المصلحة التي ستعود عليهم من إضراب يعطل الإنتاج ويخسر الشركة؟ ليس هناك من متهم يا صلاحإلا العمال المتآمرون !
عندما وجد زملاءه، حتى خالد محيي الدين (الشيوعي المهذب ابن الأصولوالمشرف المسؤول على وزارة الصناعة)، يقبلون بأن هناك مؤامرة منرجال الملكشارك فيها العمال، صمت أمين عن أي مرافعة للدفاع عن موقف أندراوس وعفيفي خشية أن يتهموه بأنه الرأسمالي الذي يدعو إلى دكتاتورية صناعية. هو يدعو فعلًا للرأسمالية وللصناعة، أما الدكتاتورية فكلهم يدعون لها وليس هو فقط .
كان علي ماهر قد وصل إلى مكتب نجيب، ومرت أوراق ما، وقرارات صاغها النائب العام، وغالبًا تحدثوا طويلًا مع سليمان حافظ والسنهوري، فانتهى الأمر إلى هذه الورقة التي تسلمها من زكريا حين عاد الأربعة عشر للاجتماع الذي بدأه محمد نجيب بحماس ممزوج بدخان الغليون :

ـ لقد أرسلت بيانًا للإذاعة قلت فيه إن هذا الحادث من تدبير بعض الخونة، وأعلنت موافقة مجلس الوزراء على تشكيل مجلس عسكري عالٍ، له كافة السلطات اللازمة لمحاكمة المسؤولين في قضايا الجنايات التي وقعت من عمال هذه الشركة ومدبري هذه الحوادث !
سأل يوسف صديق عمن هم بعض هؤلاء الخونة، فأجاب محمد نجيب بالالتفات إلى عبد الناصر الذي ترك الصمت مفروشًا على سطح المكتب بينهم. زكريا محيي الدين هو من تكلم :
ـ الجيش قبض على تسعة وعشرين عاملًا .
اعتبره يوسف صديق عددًا مبالغًا فيه من الخونة، لكنه لن يسبق المحكمة في حكمها
كان عبد المنعم أمين قد فرغ متنهدًا من قراءة الورقة، بينما بدأ زكريا محيي الدين يتلوها عليهم وهو يسلم نسخة منها إلى حسن إبراهيم الذي ابتهج مبتسمًا حين وضعها تحت عينيه :
ـ تتشكل هيئة المحكمة من البكباشي عبد المنعم أمين من سلاح المدفعية (رئيسًا)، وعضوية أربعة ضباط، وأعضاء أربعة آخرين احتياطيين منهم (التفت إلى حسن إبراهيم) قائد أسراب حسن إبراهيم من السلاح الجوي .
أضاف عبد الناصر موجهًا كلامه إلى عبد المنعم :
ـ معك أيضًا في الأعضاء الاحتياطيين اليوزباشي جمال القاضي عن البوليس الحربي، نحن لا نريد أن نضيع وقتًا أو نفاجأ بأي عقبات في المحكمة !
عاد زكريا وقرأ :
ـ تعقد هذه المحكمة في بندر كفر الدوار في المكان الذي يختاره رئيسها .
علَّق عبد المنعم أمين ممارسًا مهمته كرئيس محكمة وهو لا يزال بينهم :
ـ في المصنع نفسه .
وعلى بركة الله كان يركب السيارة الجيب التي تكاثرت سيارات موكبها كلما تجاوزوا مدينة في الطريق الزراعي، حتى دخل موكبهم حاشدًا إلى كفر الدوار، وحطت أحذيتهم العسكرية على تراب المصنع
سأل قائد المنطقة الشمالية :
ـ أين المتهمون؟
ـ في السجن .
ـ اجلبوهم إلى المصنع حالًا
ثم أضاف عبد المنعم أمين متسائلًا :
ـ لكن أنا شايف عمالًا داخل المصنع والعساكر محاصرينهم !
أومأ نصار موافقًا وشارحًا :
ـ أصل أنا احتجزت خمسمائة وسبعة وستين عاملًا داخل المصنع .
ـ هل هم متهمون؟
ـ لا .
ـ إذن؟
ـ أكيد سنحتاج منهم شهودًا أو ربما متهمين آخرين !
ـ جائز .
*

عندما جلس البكباشي عبد المنعم أمين على هذا المقعد الخشبي، جرت رعشة تحت بذلته العسكرية من قدميه حتى صدغيه. فهذه المرة الأولى التي يرأس فيها محكمة عسكرية، بل هي المرة الأولى التي يحضر فيها محكمة عسكرية، إن كان لهذه المحكمة شبه أو شبيه فيما مضى من محاكمات. محكمة في مصنع، في غرفة أفرغوها من محتوياتها ووضعوا فيها تلك المائدة الصغيرة التي يجلس خلفها وعن يمينه وشماله أعضاء هيئة المحكمة بملابسهم العسكرية ووجوههم المتأهبة، وعيونهم المستنفرة تتجول في هذه الكراسي الموزعة في صفوف أمامهم، حيث يملأها مندوبو الصحف، يمسكون بأوراقهم ودفاتر مثنية ومطوية، ينقرون بأسنان أقلامهم حروفًا وسطورًا، لعلها تشبه هذا الذي قرأه في الصحف التي أحضروها معهم من القاهرة .

تعجب عبد المنعم أمين مما كتبه الأخ سيد قطب رغم إعجابه بقرع الطبل الذي يسمعه بين سطوره. كتب إن «حوادث كفر الدوار لا ينبغي أن تخيفنا، إنه أخطبوط الإقطاعية والرأسمالية والاستعمار والشيوعية، إنه لا بد من أن يفعل شيئًا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة». الطبل حماسي ومهم وضروري للانتباه، لكن كيف يجمع بين الرأسمالية والشيوعية في وكر وسطر واحد؟! أهما معًا يدفعان العمال لهذا الإضراب وذلك التخريب؟! الشيوعية آه وطبعًا، لكن الرأسمالية لأ! وبأي أمارة؟ لكنه هنا كي يقطع ذيل الأفعى حتى يصلوا في مجلس القيادة إلى رأسها. إن المجلس كله ينتظر منه أن يقضي على الفتنة في مهدها، ويرسل من كفر الدوار رسالة جيش لن يساوم على أمن البلد واستقراره. لقد أعذرنا كثيرًا وبقي أن ننذر !

يقف جنود في مدخل الغرفة ويحيطون بجدرانها، فهذا المساء الحار يشهد أول محكمة (لا يظن أنها ستكون الأخيرة) يشكِّلها الجيش ليحاكم مدنيين مذنبين من أذناب الملك والاستعمار. هؤلاء العمال عاثوا تخريبًا وإفسادًا في المصنع، شهد بعينيه حطام مكاتب وسيارات محروقة، لقد قضى بقايا النهار وأوائل الليل في فيلا من فيلات العاملين بالشركة في هذه المدينة الصغيرة التي أنشأها بنك مصر للعمال والموظفين، كيف يتبجح

هؤلاء العمال المأجورون ويمثلون دور الضحية بينما هذه المساكن لم يحلم بها أهلهم يومًا؟! نادٍ رياضي بملاعب، وحمَّام سباحة، وحدائق ونادٍ اجتماعي وسينما، ماذا يريدون أكثر؟! لا، إنما العمال أبرياء، وإنما هذه العناصر المنحرفة هي التي تغسل عقول العمال وتتاجر بهم! لقد قضى اليوم يسمع هذه الأصوات النائحة على ما جرى من تخريب، والمنددة لهذه المؤامرة، والمفزوعة من خطر داهم قادم. وتلقى عشرات المكالمات التلفونية من القريب والغريب، ومن نجيب، وعبد الناصر، وكاد يسمع من ورائهم صراخ جمال وصلاح سالم، تطلب منه (وحين يأتي الطلب من قادة فهو أمر) أن ينهي المحاكمة سريعًا، ولا يسمح بتسويف ولا تأخير، فالوضع لا يسمح، والأمن لا بد أن يستتب. وقائد الجناح حسن إبراهيم يجلس في الصف الأول أمامه، يذكره أنه عضو مجلس القيادة الذي ينتظر علامة تراخٍ منه فيجلس مكانه على رأس المحكمة. وها هو جمال القاضي العضو الاحتياطي للمحكمة، يأمر ضباطًا وعساكر من رجاله في البوليس الحربي فيملأون المصنع وغرفة المحكمة، ويلتقطون الشاردة والواردة، ويبخون في الحر قيظًا. لن يشكو من أن الإضاءة سيئة، والنوافذ مغلقة، والغرفة خلت من أي مروحة، ووطء الأحذية العسكرية على خشب الأرض ثقيل الصوت. التفت إلى الدفراوي نائب الأحكام العسكري، فتلقى منه إيماءة بأن الكل جاهز، ثم سمع الصوت يدوي من حنجرة عسكرية :

ـ محكمة .

سمعها كأنها نفس نغمة ورنة ونبرة وحماسة كلمة «هجوم» التي يصيحون بها في بداية المعركة حين يبدو العدو جاهزًا للهزيمة

امتدت يد خشنة قبضت على ذراع مصطفى خميس، وشدته من قرفصته على الأرض، فقام من جوار محمد البقري الملتصق بالحائط مستسلمًا، بينما كان بؤبؤا عيني البقري ينتفضان، وأصابعه تتخشب تنشب في بطني كفيه . كانوا قد حضروا ضمن التسعة والعشرين عاملًا المحبوسين من مركز الشرطة إلى المصنع، وقد استغربوا عندما أدخلوهم في عربة لوري عند حلول الليل على ساحات الشركة، فلماذا يعودون إليها؟ أليس هناك تحقيق سيجري معهم في النيابة كما سمعوا؟ لكنهم عرفوا أن المحاكمة ستكون في المصنع، أخبرهم بالخبر عدد من المحامين وجدوهم عند باب الغرفة التي كدس العساكر المتهمين فيها، وغلَّقوا عليهم الأبواب (لم يكن بها شبابيك أصلًا فهي غرفة في مخزن الشركة ذلك الذي يحفظ خميس كل أمتاره ترابًا وأشولة وأرضًا). كانت عصي تلوح، وشخطات تزمجر تمنعهم من تبادل الأحاديث في تلك الغرفة المقبضة، لكن الهمسات تسللت من الأفواه إلى الآذان بين تخوف بعضهم مما ينتظرهم، وتخفف بعضهم من القلق حيث إننا أبرياء ولم نفعل شيئًا. وبينما تشكى أحدهم من استمرار الظلم حتى ممن ظنوا أنهم جاءوا ليرفعوه عنهم، كان أحدهم يلح واثقًا أنهم هنا بالتأكيد لمقابلة اللواء محمد نجيب الذي جاء ليلتقي بهم شخصيًّا. لكن خميس ظل صامتًا، حتى عندما أدخلوه غرفة، فهم أنها المحكمة، ورأى أكبر عدد من الضباط يراه في حياته القصيرة في مكان واحد ظل على صمته. أوقفوه في ركن في مقدمة الغرفة حيث مائدة يجلس خلفها الضباط، يحرس ظهره عسكريان. لا يفهم لماذا خلا قلبه من القلق، وفرغت عيناه من أي خوف، وحطت عليه سكينة سكوت! هل اللحظات التي تحرر فيها من قهرته وصاح وصرخ وهتف ووقف على الأكتاف وقرأ مطالب العمال (العادلة) منحته قوة أم راحة؟ هل صدمة سقوطه على الأرض بين الركل واللكم ثم رفعه بالأيدي والأذرع ورميه في اللوري وحجزه في المركز، جعلته ينتقل من أمل إلى يأس في لمحة من زمن، فجمدت قلبه وبلدت مشاعره؟ كل هذه العيون تنظر إليه متهمة وحاقدة ومستنكرة ومستنفرة. لماذا؟! وهذا الرجل الذي يشير إليه بسبابته مضخمًا من صوته ومصوبًا رصاص حروفه تجاهه، ما هذا الكلام الذي يردده بنفس الحماسة التي كان يهتف بها هو صباح الأمس :

ـ اشترك مع آخرين مجهولين في تجمهر قوامه أكثر من خمسة أشخاص بقصد ارتكاب الجرائم عمدًا، وقد استعمل المتجمهرون القوة والعنف، وكان بعضهم يحمل أسلحة وآلات يؤدي استعمالها إلى الموت المحقق، فقتلوا عمدًا كلًّا من: الجندي أحمد محمود مبروك، والجندي أحمد محمد نصر الدين .

هل يقصدني أنا؟ ليس مهمًّا كل ما قاله في أول كلامه، لكن ما هذا الذي يفتريه عليَّ، قتلوا عمدًا جندي أحمد وآخر اسمه أحمد أيضًا! من الذي قتلهما؟ أنا؟! كيف؟! ومتى؟! وأين هذا السلاح؟! أحقيقي ما أسمع أم أنني أتوهم؟ هل هذا كابوس في ليلة سوداء على سرير بيتنا حيث ينام جنبي العيال إخواتي؟ ما الذي يحدث بالضبط؟ !

سمع من ينادي على الشاهد الأول الذي أقسم يمينًا .

ـ ما معلوماتك؟

ـ أنا تعينت قائد القوة في هذا المصنع منذ الساعة الثانية والربع بعد ظهر أمس، وبينما كنت على باب المصنع الداخلي شاهدت جمعًا غفيرًا من الأهالي قادمًا من ناحية مساكن عائلات الموظفين،

وكانوا يحملون العصي وجذوع الأشجار، فلما اقتربوا من نقطة الكوبري جهزت الجنود وأمرتهم بإطلاق النار على الأرض، لكن المتظاهرين استمروا في التقدم نحو باب المصنع، فاضطررت للأمر بإطلاق النار عليهم، ففروا هاربين، وأرسلت ضابطًا لمعاينة مكان الحادث فعاد ومعه المتهم مصطفى خميس، وقال إنه كان يتزعم المظاهرة، وقال أيضًا إن هناك ثلاث جثث لبعض الأهالي على مقربة من مكان الحادث .
ثم جاء الشاهد الثاني (الشهود يدخلون من باب المحكمة فيقسمون ويدلون ويعودون وهو لم يرَ منهم أحدًا، هم شهود عليه لم يشاهدهم قَطُّ، لا يتذكرهم بالأمس، ولا حتى الآن بمجرد ما يغادرون الوقفة التي يقفونها أمام مائدة المحكمة).
ـ الملازم منير عبد العظيم .
ـ ما معلوماتك؟
ـ أنا كنت عند الكوبري في حوالي الساعة الحادية عشرة، ثم انضم إليَّ الصاغ محمد ناجي، وعند الثانية والنصف كانت المظاهرة قادمة، ورأيت المتهم يسير في المقدمة وهو يحمل «برنيطة» في يده يشير بها إلى المتجمهرين، وقمت بالقبض عليه .
برنيطة؟! هل كنت ألبس برنيطة على رأسي؟ لماذا لا أتذكرها؟ نعم أملك تلك الطاقية البيضاء ذات الكاب والخرمين في بطنها، يضحك أخي الصغير حين تخرج منهما خصلات شعري فتبدو قرنين، لكن هل كنت ألبسها بالأمس؟ أين هي؟ هل سقطت؟ هل ضاعت؟ هل كنت ألبسها فعلًا؟
شاهد آخر اسمه الجندي سعد فرج ميخائيل .
ـ ما معلوماتك؟
ـ أنا كنت باحرس الكوبري، ورأيت المتظاهرين قادمين، فطلبت منهم الرجوع فتأخروا، لكن المتهم تقدم ودفعني فسقطت على الأرض، وسقطت البندقية من يدي وانكسرت، وارتمى عليَّ، وجاء زملائي وخلصوني منه، وكان فيه شخص واقف بالقرب منه فقال امسكوه لأنه هو الذي قاد المظاهرة، فقبضنا عليه .
ـ هل تم القبض عليه قبل إطلاق النار أم بعده؟
ـ قبل إطلاق النار .
أي إطلاق نار؟! نعم سمعت رصاصًا، لكن كان قادمًا من بعيد. ثم من هذا الذي ضربت؟! احتمال أكون دفعته فعلًا وهم يضربونني ويجرونني ويسقطونني من فوق أكتاف زملائي، لكن كسرت بندقيته؟! ما هذا الكلام؟! حتى لو فعلت، أفكنت أترك هذا العسكري يطلق الرصاص ويقتل زملائي؟ ثم أي بندقية تلك التي أستطيع أن أكسرها بيدي كأنها عود قصب؟! هؤلاء أناس يكذبون.
استمد من كذبهم قوته، ومن صدقه ثباته. يبدو أنهم طلبوا راحة للغد، وقد طال الليل فأمسكوا به من ذراعيه ومضوا إلى حجرة المخزن التي باتت محبسًا، وتكدس مع العمال المحتجزين يستفهمون منه عما جرى، يسألونه عما سئل واتهم به، وهو يجيب بالصمت. لكن راحة باله، وثبات عينيه، وطيف الابتسامة على شفتيه، وقضمه النهم لقطع العيش الناشف وغموس الجبنة التي أحضروها لهم عشاء، منح زملاءه طمأنينة. خميس المتهم الأول ولا على باله، لكن البقري كان يعتقد أن السكينة سارقة خميس. العيال وأمهم وأمه يشغلون البقري، فهذه العركة الكبيرة لن تنتهي على خير، فقد توجس من مجيء الضباط الكبار من مصر، ومن العجلة في المحاكمة، ومن دخلتهم هم إلى المصنع في لوري

المحبوسين، مما دهس أي أمل عنده في أنها حبسة عادية. لم يكن يعرف المخزنجي خميس، ولا تحادثا معًا في سنوات الخدمة، فما له هو والمخزن! أنا عامل على ماكينة غزل، منظر الخيوط الرفيعة المنسلة الممتدة أبات فيه وأصبح عليه! لكنه اقترب متجاوزًا أكتافًا وظهورًا ليهمس في أذن خميس :
ـ غريبة إن أبو اليزيد الإخواني ليس معنا في المتهمين !
كان المتهم الثالث يخاطب المتهم الأول، فاتجه لهما المتهم الثاني عبد المقصود عبد الجواد يسحبه الفضول والقلق لجلستهما، اقترب من البقري وسأله مشيرًا إلى خميس :
ـ قالك حاجة؟
استطلعت عيونهما معًا وجه خميس الذي أومأ مطمئنًّا، ثم أزاح جسده قليلًا للخلف ومال برأسه لليمين وأغمض عينيه ونام .
في صباح اليوم التالي كان في ذات الوقفة أمام نفس الوجوه، لكنه اعتبرهم ضبابًا لا ضباطًا، تركهم في غمرة انشغالهم به وفرغ منهم، لا شأن يعنيه الآن مما يحدث حوله، فكلها أمور ناس كذابة، فلينتهوا من كذبهم بسرعة فالله العليم! المهم ألا يقلق أبوه، ولا تحزن أمه، فالمسألة كم يوم ويخرج، لازم محمد أخوه يشرح لهم أن ابنهم بريء، وأن هذه المحكمة كلها شغل تخويف وإرهاب، وهو لن يخاف، ولن يرهب، ولا يفرق معه إلا أنه غضب غضبة الحق. لنسمع الآن الباطل وهو يتمطع على الصبح
حدق عبد المنعم أمين في وجه هذا الولد. متهم غريب، صموت وثابت وواثق. من وراء هذا المأجور يمنحه تلك الشجاعة؟ ضاق بما سمعه من المحامي الذي وقف أمامه الآن وسط زحام ملأ الغرفة وضاق بها عن ليل الأمس، وقد زاد مندوبو الصحف وظهر جنود شرطة برفقة رجال الجيش
ـ المحامي عن المتهم مصطفى خميس، أتقدم إلى هيئة المحكمة الموقرة بطلب للتأجيل للاطلاع على التحقيقات والأدلة وشهادات شهود الإثبات وتقديم شهود النفي
نظر عبد المنعم أمين إلى حسن إبراهيم الجالس في مواجهته مستفهمًا من أين جاء هذا المحامي، ومستغربًا من طلباته، ولم يعرف كيف يتصرف القضاة في مثل هذه المماحكات من المحامين، لكنه حصل على نفس الاستفهامات والاستغرابات من زميله في مجلس القيادة واحتياطيه في رئاسة المحكمة. همس له الدفراوي بأن هذا المحامي ووجوهًا أخرى حوله تابعون للنقابات العمالية. أمعن عبد المنعم أمين في بدلاتهم السوداء وهيئاتهم التي لم تحصل على إعجابه: إن هؤلاء السذج المتذاكين يظنون أنفسهم أمام محكمة عمالية وليست عسكرية! رد حاسمًا :
ـ نحن في ظروف عصيبة ومرحلة دقيقة وخطيرة! وسبب إنشاء هذه المحكمة يتنافى مع طلب التأجيل !
تخيل المحامي أنه يفحمه :
ـ أنا لا أطلب أكثر من يومين !
قرر عبد المنعم أمين أن يضعه في حجمه، ويثبت له خطورة اللحظة :
ـ سنعطيك ساعة، من الساعة عشرة حتى الساعة الحادية عشرة، ولديك فرصة للاطلاع وتكوين فكرة .
بهت المحامي من التأجيل الذي منحه له رئيس المحكمة، فأجاب معتقدًا أنه يقدم برهانًا قاطعًا :

ـ إن هناك مراجع يجب أن نطلع عليها !
وجدها عبد المنعم أمين فرصة لإعطائه درسًا في احترام هذه الكتافات التي يتعامل معها :
ـ إن مصلحة الوطن لا تحتمل التأجيل! لماذا لم تحضر معك المراجع؟ !
كانت نبرة أمين غاضبة لائمة، وأحس المحامي أن رئيس المحكمة يعامله كأنه ملازم عنده في الكتيبة، فتبادل النظرات القلقة مع زملائه الذين أربكهم موقف المحكمة. بضع همهمات وكلمات متحيرة ثم انتهوا إلى الانسحاب. أحس عبد المنعم أمين أنهم جاءوا لينسحبوا لا ليترافعوا، بالنسبة إليه كان انسحابًا من معركة لا من محكمة، كان استسلامًا مبكرًا جدًّا، وتخليًا عن واجب ومهمة، فالعسكري يحارب حتى لو بغير ذخيرة في بندقيته. هل يريدون تخريب المحكمة فيدَّعون أنها ظالمة لم تسمح للمتهم بمحامٍ؟ إنهم يتاجرون بكل شيء هؤلاء المأجورون! التفت إلى المتهم :
ـ خميس، من حقك أن ننتدب لك ضابطًا للدفاع عنك .
كان المحامون قد خرجوا، وتقدم الصحفيون بسرعة لاحتلال أماكنهم
رد خميس متحدثًا لأول مرة، وخرجت كلماته عالية بلا تردد ولا تلعثم :
ـ لا، أنا عايز محامي !
شخط فيه أمين :
ـ ولماذا لم توكل محاميًا؟
رد خميس كأنه ينهر أمين على قلة فهمه :
ـ متى؟! لقد قبضوا عليَّ ومنعوني من الاتصال بأي شخص، فكيف كنت سأوكل محاميًا عني؟ !
استفزته لهجة الولد، وكاد يستدعيه ليصفعه على وجهه، لكنه تماسك وتمسك بدوره كرئيس محكمة تنقذ وطنًا من الفوضى! التفت إلى أعضاء المحكمة الذين انتبه إليهم أخيرًا لعلهم يغيثونه في هذا الموقف: هل يستدعي المحامين الذين انسحبوا ويأمرهم بالعودة، مهددًا مرهبًا أو مرغبًا، متوعدًا أو متوددًا؟هل يفرض على المتهم ضابطًا ليدافع عنه، ونِخلص وإن شا الله عنه ما وافق؟ من هذا الفسل الخائن كي ننتظر منه موافقة أو رفضًا؟ لكنه انتبه إلى كلمات تصعد فتملأ هواء المحكمة، أصوات تتداخل وتنادي عليه، إنهم مندوبو الصحف. ما هذا الصخب الفارغ؟ وماذا يقولون؟ أنصت للحظة وهو يطلب منهم بكفه أن يكفوا عن تداخل الأصوات كي يسمعهم. لقد سمعهم أخيرًا :
ـ يوجد بيننا صحفي يحمل ليسانس حقوق .
ثم إضافة من فم آخر :
ـ مقيد بجداول المحامين يا حضرة البكباشي .
*
كان مصطفى أمين يقف بينهم معلمًا يمنح دروسه، وقائدًا يعطي تكليفاته :
ـ فريق منكم يتصل برجال البوليس ويعرف تطور الحادث من وجهة نظرهم، وكيف تصرفوا، ومن أطلق النار، ولماذا، ومن هم الضحايا من البوليس، والتفاصيل الكاملة لاستشهاد كل واحد منهم .
تدخَّل موسى صبري :
ـ علمت أنهم أوقفوا مأمور كفر الدوار وحكمدار البحيرة عن العمل .
علَّق مصطفى أمين :

ـ نريد تفاصيل عن الأسباب، وهل سيتم التحقيق معه؟ ومن الذي أصدر القرار الحكومة أم مجلس القيادة؟
ثم أشار إلى الصحفيين الذين تجمعوا حول مكتبه :
ـ وفريق منكم يتصل بالعمال الذين شاركوا في المظاهرة ولم يُقبض عليهم، نعرف ما البذرة الأولى للمظاهرة، وهل هناك اتفاق مبيت بينهم، ومن الذي اشترك في الاتفاق، ومن أي مكان بدأوا، وهل هناك منشورات، ماذا تقول المنشورات ومن وزعها، هل لهم ميول سياسية، من هم قادة المظاهرة، هل هم زعماء للعمال معروفون أم ظهروا فقط خلال المظاهرة. وفريق ثالث يرابط بجوار مركز التحقيق ويحصل على التحقيقات ويحاول بأي طريقة أن يتحدث مع المتهمين، بأي طريقة .
التفت إلى موسى صبري بنظارته وشاربهوشبابه ونباهته ونحافته :
ـ عايز رسم خريطة لمنطقة المصنع ومسار المظاهرات وأماكن الاشتباك .
ثم لف بنظراته عليهم :
ـ أريد صور التخريب الذي وقع، ووجوه المتهمين، ووجوه رجال الشرطة، وغرفة التحقيق، صورة الوجه النادم خبر، الوجه المصاب خبر، وجه ضابط جريء خبر .
استقر عند موسى صبري وأضاف :
ـ تنظم الاتصال بينكم في كفر الدوار وبين مكتبنا في الإسكندرية، الاتصالات بالتلفون. تلفون في المصنع، في بيت بجواره، في محل بقالة، يبقى تلفونكم فورًا ولو تأجروه. وعربيات تنقل أفلام الصور والورق بين كفر الدوار وإسكندرية طول الوقت .
ثم أخيرًا وهو يكاد يلقي بهم من مركب ليسبحوا أمامه :
ـ موسى صبري رئيس البعثة، وكل مادة يتم تسليمها له سيتولى إعادة صياغتها ومراجعتها وربطها وتنسيقها .
هو مصطفى أمين، عيناه تلمعان بالشغف، وملامحه تنطق بالهمة، والسيجارة متأرجحة في فمه، ويده اليمنى منشغلة في خط حروف وكلمات على ورقه الأبيض المخصص لمالك ورئيس تحرير «الأخبار». زال عن الرجل قلقه الصغير ليترك الفرصة لقلق أكبر يلتهمه توترًا ويلهمه دهاء. كسب المعركة بسرعة مع منافسيه على قلب عبد الناصر. لا يظن أن عبد الناصر يحبه، لكنه ليس مهتمًّا بالعواطف (ومتى اهتم؟)، العواطف مخصصة للحب وللنساء ولرعشة القلب بالوجد عند همسة امرأة، لمسة امرأة، لكن السياسيين لا حب ولا يحزنون. هو يحب سعد زغلول، فهو في حكم الجد أو الخال، لكن لو لحق به صحفيًّا كان يمكن أن يهاجمه ويداهنه، يقدح ويمدح، يدعمه ويخذله، فالصحافة (صحافتي وأنا سيدها) تضع العاطفة في درج المكتب، وتترك أرقام التوزيع وأرباح الأسهم وصيحات الإعجاب أو الكراهية أو الدهشة والصدمة هي التي تدير القرار. ها هو عبد الناصر نفسه يخصني بأسماء أعضاء التنظيم السري الذي قام بالانقلاب الذي سميناه «حركة»، وأقطع ذراعي أننا سنسميه «ثورة» بعد أسابيع أو ربما أيام، وقد أسميه أنا أول من يُسمي. لعل الثورة قادمة في سطر من مقالات الرأي فآخذها وأضعها عنوانًا للصفحة الأولى، وإن تأخرت سأبادر بها. ولماذا لا نطلق عليها «ثورة» إن أراد الناس أو أصحابها أو حتى منافقوها ذلك؟ نحن لسنا في كلية، ندرس الحقوق والعلوم السياسية أو التاريخ لكي نطبق عليها معايير العلم، بل معايير المشاعر هي التي تحكم وتتحكم !

لا ينسى تلك القنبلة التي انفجرت داخله شظايا من الخطر والتوجس والحيرة حين زعق فيه عبد الناصر في مكالمته بالتلفون صباح نشر مقال «قصة الضباط التسعة». كان صوته حادًّا وجافًّا، وسلطويًّا تمامًا، عامله كضابط يؤنب صوله، عندما يناديه بـ«مصطفى» محذوفًا منه الأستاذ يعتبره تباسطًا وصداقة يفرح بها، لكن هذه اللحظة بدا تعاليًا وانتقاصًا :

ـ ما كتبته ونشرته يثير الفتنة في الجيش! وهذا النشر يضر القوات المسلحة، ويعمل داخلها أزمة، وقد أرسلت لك قائد الجناح جمال سالم للتحقيق الفوري معك !

ثم أغلق التلفون بجفاء حتى لم يسمح له بالرد. لكن كل ملامح مصطفى أمين الجزعة انفرجت، وقذف السيجارة التي انطفأت بين إصبعيه في منفضة السجائر المليئة بأعقاب سجائر الصباح المحترقة، وأشعل سيجارة جديدة سحب أنفاسها كاملة، وشفتاه تعودان رويدًا رويدًا إلى الابتسام؛ إن عبد الناصر لم يتركه يرد لأنه لا يريد أن يسجل ما سيقول في تلك المسجلة التي تتنصت على كل مكالمات مقر القيادة، لا يريد أن يعلم أحدٌ أن عبد الناصر هو صاحب القصة، وأن السادات راجعها معه بالحرف، وسط إعجاب مشترك بينهما بمهارة ورشاقة وروعة ما كتبه. ثم أي تحقيق هذا الذي يحضر المحقق فيه إلى الصحفي لا أن يستدعيه إلى مقر التحقيق؟! ثم بأي صفة يحقق معي جمال سالم أو غيره من الضباط؟ أين النيابة؟ أين القانون؟ بصرف النظر عن أنه لا نيابة ولا قانون في ظل هذه الأيام التي تتسلم فيها مصر أيد جديدة، إلا أن هذا تحقيق يطمئن للغاية. ثم اطمأن جدًّا عندما حضر بعدها بدقائق فعلًا جمال سالم، ودخل عليه رغم عصاه الملوحة والمرفوعة دومًا، إلا أنه ضحك حتى القهقهة وجلجل بصوته حتى الفرقعة :

ـ عملها فيك عبد الناصر! ضباط المدفعية والفرسان قلبوا الدنيا على المقال، فعمل فيها غضبان، وزعق فيك في التلفون قصادهم، والمفروض أنا قادم لأحقق معك، فاطلب لي فنجان قهوة، واحكِ لي عن ليالي فاروق التي تكتب عنها، قل لي ما حكايته مع كاميليا .

ضحك مصطفى أمين وشكر كاميليا للغاية

كان قد فاجأ بسؤاله موسى صبريوهو يهم بالخروج مسافرًاإلى كفر الدوار :

ـ ما أخبار أبو الخير نجيب؟

ابتسم موسى صبري مندهشًا من السؤال عن صحفي هو أبعد مسافة كونية عن السائل، فأبو الخيرصاحب ورئيس تحرير جريدة صغيرة فقيرة لكنها صاخبة، تكاد لا تثير حتى الحشائش تحت أقدام فيل «أخبار اليوم». لم يكن يظن قَطُّ أن مصطفى أمين يهتم أو ينشغل حتى ولو بالسؤال عن هذه الجريدة وصاحبها !

لكن مصطفى أمين سر يقبع في نهاية المتاهة، ومن الصعب أن تجد طريق الخروج من المتاهة التي تحيرك في باب التسالي الذي تنشره الجريدة، حيث يقف رجل كارتوني الشكل أمام مدخل متاهة ملفوفة الخطوط ومتعرجة الطرق وملتوية ومنحنية ومتداخلة تنتهي بسهم إلى بيته، والفائز من يستطيع المرور بين كل هذه الممرات في المتاهة إلى بيته. سهلها عليه مصطفى أمين وسأله :

ـ هناك صحفية اسمها حكمت عبد الجواد .

ـ صحيح

ـ تشتغل في «الجمهور المصري» عند أبو الخير نجيب

ـ فعلًا

أطفأ سيجارته، وقال له بأداء سريع ومتعجل لكنه يخلو تمامًا من العفوية :

ـ قدم لها عرضًا بالعمل هنا في «أخبار اليوم»، وبضعف المرتب !
ثم أضاف بعد برهة صمت :
ـ بثلاثة أضعاف المرتب !
ثم أخفض صوته وانشغل بكتابة عنوان :
ـ أظنك تعرفها جيدًا .
الغريب أن حكمت موجودة الآن في غرفة المحكمة في مصنع كفر الدوار، لكنها ليست مَن صاحت مع الصائحين للبكباشي عبد المنعم أمين يشيرون له ويرشدونه عني محاميًا! منه لله عبد المنعم الصاوي، كان الأعلى صوتًا والأكثر حماسًا لتوريطي في هذه الورطة السوداء! محامٍ لمتهم بالمشاركة في مؤامرة على حركة الجيش، متهم خائن يدمر الوطن، والمفروض أتحول أنا من صحفي يجهز عناوين غاضبة عليه، لاعنة فيه، إلى محامٍ عنه! نعم، أنا ما زلت في جدول المحامين، لكني لم أعد أمارس المهنة، لكنه أيضًا المتهم الأول وبلا محامٍ وبلا حيلة ولا حول، بل إن عقوبته الإعدام، فهناك قتيلان من الجنود! لكن أنا الذي ذقت الاتهامات والسجن لا يجب أن أتخلى عن أن أكون صوتًا لمتهم، ولو كان مخربًا! هل نسيت ليالي السجن مع أنور السادات الذي كان المعلم الكبير في تلك الزنزانة؟ كان بالنسبة لنا جميعًا كما نطلق عليه فعلًا «الحاج أنور». سنه وخبراته التليدة في السجون والسياسة والتنظيمات والمحابس، جعلته «الحاج المعلم ». حين كان يخطط وينفذ خطة الهروب لنا كان حنونًا عليَّ باعتباري صاحب العود الأخضر الذي لم يستوِ وينضج ويتلطم بخبرات السياسة والحبس بعد. هو الآن واحد من ضباط مجلس القيادة، وسيتفهم موافقتي على أن أكون محاميًا لهذا المتهم، أم أنهم سيعتبرونني لست متحمسًا لحركة الجيش لأنني أدافع عمن تآمر عليها، بل من قاد مظاهرة
لحساب دولة أجنبية، كما يتردد على أفواه الضباط والمحققين وموظفي الشركة منذ جئت إلى كفر الدوار، حتى إن محمد نجيب نفسه أذاع بيانًا باتهام موكلي، ثم عناوين صحفنا تدمغ موكلي بالجريمة؟! هل سأظل عودًا أخضر عند أنور السادات؟ لكن ماذا أفعل أيضًا مع مصطفى أمين؟ أرسلني صحفيًّا فأعود له محاميًا! لكنه بالتأكيد سيكون سعيدًا جدًّا (بل سيمنحني مكافأة وسيفتح لي الصفحات لرواية هذه التجربة التي ينفرد بها صحفي جريدته). تنبه موسى على صوت رئيس المحكمة :
ـ الأخ موسى صبري، هل تقبل الدفاع عن المتهم؟
وقف تحت خيمة الصمت الرهيبة في القاعة، وخطب فهو نجم اللحظة الآن :
ـ لقد جئت إلى هذه القاعة صحفيًّا يسعى وراء الحقيقة (سيظل يسعى، لكنه لن يحصل عليها)، وتطور الموقف إلى هذه المفاجأة، مما يعفيني من مهمتي الصحفية، ويدفعني إلى قبول الدفاع عن متهم تسعى المحكمة إلى أن تعرف حقيقته. إنني أقبل الدفاع عنه .
كان موج الإغراء عاليًا جدًّا، حتى إنه لن يتمكن من مقاومته. لقد أنهى تردده (إن كان قد تردد) في دقيقة واحدة، لكنه تحسب من منحنى خطر، وتذكَّر نفسه حبيس القفص مثل هذا المتهم ومن قريب (صحيح ليس في القاعة قفص بالحديد، لكن قفص الاتهامات أشد حديدية)، فأضاف لرئيس المحكمة الذي لم يعتقد أن هذا الأمر ضروري، لكنه التفت إلى المتهم وهما يسمعان معًا كلام الأخ الصحفي المحامي :
ـ أقبل الدفاع عنه، إذا قبل المتهم لي هذه المهمة .

لم يرد المتهم، صاعدًا فوق هذا الهرج، كأنما يجلسمربعًا قدميه على مصطبة في ساحة المصنع. فلما رأى فيه موسى صبري عدم مبالاته بالموافقة، وفي رئيس المحكمة عدم اكتراثه بموافقة المتهم، أضاف :
ـ أرجو أن تتيح لي المحكمة فرصة للاجتماع بالمتهم على انفراد حتى يتخذ كلانا قراره .
كانت همهمات الإعجاب من زملائه تنافس تمتمات الاندهاش من تلكؤه عن المهمة التاريخية: هل يجد صحفيٌّ التاريخ أمامه فيتردد عن حذف نفسه عليه؟
*
رجرجة مفاجئة لعربة السجن في القطار أربكت العساكر، وأيقظت بعضهم من غفوة، لكنها لم تصل إلى مصطفى خميس الذي ظل على هذا الهدوء الذي يشبه اللامبالاة، وتلك الثقة التي تشابه العدمية، بل لعله ابتسم ابتسامة لمت بسرعة شفاهها وهو يرى في الكنبة الخشبية القريبة محمد البقري ووجهه يرتعش للحظة مع تلك الرجرجة، ثم تتحول الرعشة إلى تلك التقطيبة المنعقدة بين حاجبيه، وبشفتيه المزمومتين بعينيه المطفأتين. بينما يستسلم خميس بسلاسة إلى سلاسل الحديد والكلابشات في مقبضيه منذ تم ترحيلهما إلى محطة كفر الدوار، ثم أركبوهما العربة المخصصة لنقل السجناء في نهاية القطار الذاهب إلى القاهرة، فإن البقري يتحرك بذراعه ورسغه داخل الكلبش الضيق المحكم، فيحتك به ويؤلمه، فكأنما يذكِّر نفسه طوال الوقت بقيوده ليزداد انقباضًا. لوهلة استمد من هدوء خميس بعض الطمأنينة، فيبدو أن هذا المخزنجي يعلم ما لا يعلمه، فيهدئه الأمل وتثبته الثقة. لكنه مع مُضي الوقت بدأ يظن أن خميس يعاني مسًّا، فكأن هذه الملامح لرجل مدعو للسفر لزيارة أهرامات الجيزة! إنها تلك النظرة الساكنة التي تثير غيظ البقري وحنقه، وهي نفسها التي حيرت الجورنالجي الذي تحول محاميًا وهو ينتحي به جانبًا في غرفة المحاكمة على مبعدة مترين أو ثلاثة في أقصى ركن الغرفة، وتحولت عيناه من خلف النظارة السميكة وفوق قسماته الصعيدية إلى القيام بدور أخ كبير يحايل أخاه الصغير، كي يعتذر لوالده عن خطأ ارتكبه، فصدمه الأخ الصغير بسؤاله :
ـ لماذا تريد الدفاع عني؟
كان خميس خشنًا وبريئًا ومباشرًا في استفهامه، لكن الأخ الكبير أجاب سريعًا :
ـ لو أنت أردت ووافقت .
هل هو عنيد بطبعه، أم أن المأساة التي حلت على دماغه ولَّدت عناده؟ فقد رد :
ـ أوافق غصبًا عني، فمن أين أحضر أو أوكل محاميًا؟
ـ لن أترافع عنك رغمًا عنك !
ـ وكيف أثق فيك؟
هالت موسى صبري صلابة خميس، فهو يتصرف ويتكلم ليس كمتهم أو ضحية أو مذنب، هو يتكلم ليس كمستضعف قليل الحيلة، بل كرجل يملك حقوقًا ويمتلك قرارًا! شيء ما غامض يكمن في ذلك الرأس، وسكون ما كامن في ذلك الصدر. كانت اتهامات خميس بأنه قاتل ومخرب ومأجور ومتآمر ترن في رأسه، فقد سمعها (وكتبها) ألف مرة في الثماني والأربعين ساعة الماضية، وستحتاج أكثر بكثير من نظرة خميس الهادئة وكلماته الواثقة كي يبدد أثر هذه الاتهامات
:
ـ وكيف أثق أنا بك؟

تحيَّر خميس من هذا السؤال المهاجم، فهذا صحفي مستدعى لأن يكون محاميًا بعد انسحاب محامي العمال لأن المحكمة منعت عنه كل طلباته، بينما الأخ الجورنالجي وافق على أن يكون محامي الصدفة، ربما بسبب المفاجأة أو الشهرة أو الورطة أو الشعور بالأهمية المباغت، فيستحق أن أشك فيه. وتشوش موسى صبري من نظرات هذا المتهم، فمصر كلها، من بيانات الإذاعة إلى رئيس المحكمة، يتهمونه بأنه قاتل ومخرب، بينما ينزعج أنني لا أثق فيه!

الهمهمات والهمسات والنداءات والخطوات والخبطات، زادت في الغرفة كأنها ضجرت من هذا الوقت الطويل الذي يستغرقه نقاش بين محامٍ وموكله التقيا لأول مرة أثناء المحاكمة.

ـ على كل حال أنا مرتاح لك

بدأ موسى شغل المحامين:

ـ هذا لا يكفي، لا بد أن تصارحني بالحقيقة كاملة، اعترف لي بكل شيء وسرك في قلبي، اعترافًا ينير لي الحقيقة فأحاول إنقاذك بكل قوتي!

رد خميس بمنتهى الهدوء الذي تجاوز الهدوء إلى البرود:

ـ أنا لم أفعل شيئًا.

ـ أنا لن أشي بك، ولن أضغط عليك للاعتراف. أنا لا أعرف أعضاء المحكمة، ولا أكلمك كصحفي سأنشر كلامك في الجورنال. أنا هنا والآن محامٍ، ومحاميك أنت!

أعجب خميس بكلام الرجل الجورنالجي المحامي، لكن إعجابه لم يثمر أي شيء سوى نفس الجملة رددها:

ـ أنا لم أفعل أي شيء! ولا أي حاجة مما سمعتها!

أخذه المحامي من ذراعه وسلمه للعسكري الذي اتجه به إلى ركنه الأول، وعاد موسى إلى مكانه أمام رئيس المحكمة الذي رفع رأسه إليه متسائلًا فأومأ راضيًا، فالتفت البكباشي عبد المنعم أمين إلى المتهم:

ـ هل وافقت أن توكل هذا المحامي عنك يا خميس؟

أومأ خميس موافقًا، لكن أمين شخط فيه:

ـ عايز أسمع صوتك!

ـ وافقت.

بعدها شعر خميس بالرضا على موافقته، فقد تحول صوت الجورنالجي إلى صوت محامٍ، وبدأ يخطب متحمسًا، وقال كلامًا حلوًا وجدعًا:

ـ إن أصحاب المصلحة في التظاهر ضد الحركة المباركة ليسوا هم العمال، لكنهم الباشوات والرأسماليون الذين يديرون هذا المصنع، والذين جاءت الحركة لكي تنتزع منهم حقوق العمال. اسألوا إلياس أندراوس وأمثاله، ولا

تسألوا خميس!

استمع الجورنالجي المحامي إلى هذا الشاهد الذي يضع شهادته بين يدي المحكمة:

ـ كنت معينًا يوم الحادث عند الكوبري ومعي ستة عساكر، وجدنا مظاهرة قادمة، وكان هذا (وأشار إلى المتهم) أمامهم، وكانوا ماسكين عصيان وفروع شجر، وهو كان شايل خشب، ولابس برنيطة بيضاء، ولما وصلوا عندنا قلنالهم ارجعوا، لم يسمعوا الكلام، ودوروا فينا الضرب، وحضرة الصاغ كان موجودًا، فلما شافهم مدورين فينا الضرب أمرنا بضرب النار، وقال «فادي

نفسك يا عسكري»، فضربنا والناس جريت، ومنهم ثلاثة وقفوا، منهم هذا الجدع (وأشار إلى المتهم).
سأله :
ـ هل قبضت على المتهم قبل إطلاق النار أم بعده؟
ـ قبل إطلاق النار .
ـ من الذي قبض عليه؟
ـ كلنا قفشناه مرة واحدة، أنا لما وجدت المتظاهرين جريوا، أشار الخفير على المتهم وكان واقفًا وسط المصابين، وقال هو من كان يقود المظاهرة .
ـ من قال إن هذا الرجل كان بيقود المظاهرة؟
ـ خفير الشركة .
وسأل الجورنالجي المحامي شاهدًا آخر :
ـ هل كان المتظاهرون يحملون سلاحًا؟
ـ كان معاهم حبال وقطع خشب وزجاجات «كوكاكولا ».
ـ ماذا كان يلبس المتهم؟
ـ كان يلبس برنيطة خوص وفي يده سيخ حديد .
لكنهم سألوا شهودًا آخرين، وجاءوا بشهود إضافيين، بعدما راح موسى صبري يلح عليهم جميعًا محاصرًا شهاداتهم بسؤال واحد :
ـ هل تم القبض على مصطفى خميس قبل أو بعد إطلاق النار؟
أجابوا جميعًا أنه تم القبض عليه قبل إطلاق النار على العساكر، لكن جميعًا آخرين وجميعًا إضافيين ظهروا فجأة كشهود، ليس فجأة تمامًا، فقد ظهروا في اليوم الثاني في الجلسة الثالثة ـ والأخيرة ـ للمحاكمة !
بعد أن ذهب المحامي والصحفيون إلى استراحات الشركة حيث قضوا الليل، بينما كان السادة الضباط في فيلات الشركة، لم يترك عبد المنعم أمين سماعة التلفون، حيث يحول له عامل التحويلة مكالمات مع اللواء نجيب والبكباشي عبد الناصر وزوجة أمين السيدة محاسن، وكان يحكي لهم ما جرى في المحكمة، ويحكي لها ما جرى في مكالماته مع نجيب وعبد الناصر، ويختلط مع المكالمات كلها سباب ولعن في المؤامرة والتخريب والشيوعية، ويستغرب عبد المنعم أمين أن أحدًا لم يأتِ بسيرة الشيوعية والشيوعيين في المحكمة
قال الشهود الجدد إنه تم القبض على المتهم عقب إطلاق النار! لعل موسى صبري ساعتها قد تأكد أن خميس الصامت لن يفيده حتى إن تكلم، فتكلم هو :
ـ هناك تناقض بين الشهود في أقوالهم بخصوص ساعة القبض على المتهم الأول، وهذا يفتح مساحة كبيرة للشك، وثغرة واضحة في صدقهم أو صحة أقوالهم أو على الأقل دقتهم. ثم هناك سيدي الرئيس تناقض آخر فيما سمعناه في ملابس المتهم ساعة القبض عليه أو خلال المظاهرة، فهناك شهود قالوا إنه يرتدي برنيطة بيضاء، وآخرون قالوا إنه يرتدي برنيطة خوص (يضيف خميس لنفسه شهادة ثالثة، أنه لم يلبس برنيطة أصلًا، وإن كان متأكدًا أنه لو لبس فلن تكون برنيطة خوص)، ثم إن كل الشهود من رجال الأمن! (قالها وسط استغراب شديد من رجال الأمن لاستغرابه). ثم يسرني أن أقرر أنه لا يوجد عامل واحد حاول حرق المصانع، ومواد الغزل كما

تعلمون سريعة الالتهاب، بل حافظ العمال جميعًا على آلاتهم وماكيناتهم ومصانعهم، ولم يمسها أحد بتخريب أو تدمير أو تحريق. وهذه شهادة على براءة موكلي وكل العمال براءة ناصعة، بل العمال ومنهم وفيهم المتهم الأول كما روى شهود كانوا يطفئون الحرائق بأياديهم العارية (قال خميس لنفسه إنه لم يشهد حريقًا ولم يطفئه، وما رآه هو الدخان فقط، لكنه كلام محترم على العموم)، وهي شهادة قاطعة بأن الخائن الذي أحرق وقتل لم يوجد بين العمال ولا داخل المصانع، بل خارجهم وخارجها !

فوجئ خميس أن المحامي أمامه هنا، في القطار، في عربة السجن

كان موسى صبري قد علم بترحيل خميس والبقري في القطار القادم من كفر الدوار، فشده صراع المحامي والصحفي داخله لأن يسافر إلى بنها حيث يركب من هناك بعد إلحاح ومحايلات وتلويحات وإغراءات للضباط والعساكر، وصعد إلى عربة السجن، فقابل البقري الذي كان مبهوتًا منذ اللحظة التي شهد فيها مهندسٌ بأن عبد المقصود المتهم الثاني لم يحرق السيارات، بل صبي صغير رآه المهندس يحرقها ويجري، بينما لم يشهد للبقري أحد، كلهم راحوا يشهدون ضده ويلعنون حرائقه وإضرابه وهتافاته سرًّا وعلانية، وهو ينكمش ضعفًا وهوانًا ويلهث حالفًا بالله :

ـ ورب العباد مظلوم يا ناس! يا رب إنت على الظالم !

أخذ موسى صبري يستنطق خميس ويسأله مع عجيج القطار وضجيج عجلاته، عن لقائه بوالديه في المنطقة الشمالية، حيث زاراه هناك، وعن حال أخيه، وهل فصلوه من المصنع بعد الحكم؟ حاول أن يعثر على أي مبرر لثقة وثبات خميس، وكلما مد سؤاله في بئر خميس وجد فراغًا. ظل خميس على ذات السكون الهادئ والسكوت المطمئن، فانفجرت الحيرة شظايا داخل قلب موسى صبري، فالمتهم لم يعد متهمًا الآن، بل صار محكومًا عليه بالإعدام! هل وعده أحد أنه لن يُعدم وسيُخفف الحكم؟ وإن كان قد وصله وعدٌ، فلماذا لم يصل البقري المحطم الذي لا يكف عن النداء على عياله بالاسم مرتجفًا وملهوفًا كأنه يعدهم أن يزورهم بعد موته شبحًا؟

ظل معهما في عربة القطار حتى محطة مصر، حيث نزل تاركًا المحامي الوجل الخاسر في القطار العائد. وسيكتفي بالصحفي يرافقه عمره الباقي، فقط عمر خميس الذي سيرحل، ومعه البقري

كان عبد المنعم أمين قد ارتج تمامًا، وتبدَّل وجهه، وتعكَّر قلبه، وتنكَّدت نفسه، بل ارتجف داخل بذلته العسكرية، وتبللت أصابعه وبطن كفه، عندما رأى الحكم مكتوبًا في سطور أمامه، يقدِّمه إليه سكرتير المحكمة العسكرية كي يوقِّعه بصفته رئيس المحكمة :

الأشغال الشاقة المؤبدة لاثني عشر متهمًا، والسجن خمس عشرة سنة لثلاثة من المتهمين، والإعدام لخميس والبقري .

كلمة «الإعدام» تضخمت جدًّا في الورقة وانتفخت وبرزت حتى خنقت عنقه. كان غطاء القلم الحبر مرفوعًا، والقلم في يده كعمود من لهب . وقَّع بسرعة كأنه يرمي ثعبانًا من فوق حجره . استغرب نفسه ووجع قلبه على هؤلاء الخونة، حتى إنه أشاح بيده، ورفض أن يقرأ الحكم في المحكمة على المتهمين والمحامين ومندوبي الجرائد، وطلب من عاطف نصار قائد المنطقة الشمالية أن يقرأه بنفسه! عندما كان عبد المنعم أمين يسمع الحكم منطوقًا يجري في هواء الغرفة، كان يرتعش كأنه سيظل يرتعش إلى الأبد !

31

ليضرب الموج كما شاء أو يرتفع كما يهوى، فعندي العصا التي تشقه، هنا في جيبي. اضطجع سليمان حافظ على ذلك المقعد يواجه البحر على كورنيش الإسكندرية من شرفة فندق «سيسل» في تلك الإجازة المختطفة من صيف القاهرة ومن القاهرة نفسها .
كما كتبت وثيقة تنازل الملك فاروق (هو لم يكتبها، بل كتبها السنهوري، لكنه يعتبر نفسه من كتبها)، ووضعتها في جيبي (وضعها في حقيبته، لكن هذه ليست شهادة أمام محكمة تستوجب الدقة)، فها هي ورقة رحيل علي ماهر رئيس الحكومة مطوية في جيبي. لم يعد الرجل مناسبًا للقيادة ولا لرجال الجيش، مهما حاولت معه فهو قديم لا يريد أن يتخلى عن عتاقته. هذا وقت تحنيط المومياوات، مومياء مصطفى النحاس لها قبرها الذي أحفره شبرًا شبرًا وليتسع القبر لحزب الوفد كله، لكن الآن الخلاص السريع العجول النظيف من علي ماهر هو الأهم. هو يحبه فعلًا ويحترمه، لكن ليس أكثر من الحب ولا أعلى من الاحترام، لكنه حائل إزاحته ضرورة، حتى يأتي بديله، ولن أسمح بأن يكون إلا هذا الرجل الجالس قبالتي !
ملأ الأريكة أمامه جسم السنهوري الضخم الذي لم يتخفف من بدلته الكاملة بالصديري ورابطة العنق، يحتسي قهوته ويدخن سيجارته، وديع وداعة دب يستريح على جذع شجرة في غابة. كل الحبال إذن في يدك الآن وبين أصابعك يا سليمان، حدث النمل أو اؤمر الهدهد أو استدعِ بلقيس، تفضل فالضباط ضجوا من تلكؤ علي ماهر وتمنعه في القبول بقانون تحديد الملكية، إنهم يعولون على هذا القانون كأنهم انقلبوا لأجله، فجأة أصبحوا صرعى إصدار قانون تحديد الملكية، وهلعى من أي رفض له. فهم أنها توصية من الأمريكان الذين يلتحف بهم الضباط تدفئة ورعاية، لكنها خطوة ذكية طبعًا، يكسبون الفلاحين والفقراء، ويصنعون مكسبًا يلحق بطرد الملك، ثم الأعمق الذي يستحيل ألا يكون عبد الناصر (ليس نجيب، فنجيب أكثر طيبة وأقل ذكاء) يكسر مفاصل تلك الأحزاب التي تقف على سيقان كبار ملاك الأراضي، عبد الناصر يريد أن يبترها لهم، بل يدفعهم للدفاع عن أملاكهم وأطيانهم فينشغلون بها عن الضباط! علي ماهر يرى الأمر صعبًا ومتعجلًا، بل وينحشر في زوره جدًّا، هو ليس ممن ينطبق عليهم القانون، ولكن من قال إنه ليس هناك قانون قادم سينطبق عليه؟
باخت همة علي ماهر، وخاب سعيه، فتكوم الأسى في قلبه، أحس أن هؤلاء المراهقين استغفلوه ولعبوا به، وهو من كان يظن أنهم عصاه يتوكأ عليها وله فيها مآرب أخرى، فيحركها كما يبغي، فبغوا عليه وبخوا فيه سمهم. كانت الحكومة تتهاوى تحت سطوة الضباط الذين ظهروا في كل وزارة، فأمروا ونهوا يستندون إلى القوة لا القانون، وكلما سأل محمد نجيب أحاله إلى عبد الناصر، فيجيبه أن مجلس القيادة لا دخل له بهم .
ولكنهم يقولون إنهم مندوبو القيادة! ثم هناك ضباطك مشرفون عن كل وزارة، فيفاجأ وزيرها بقرار لم يصدره يُنفذ، وبإجراء لم يقرره يُطبق، وبمستخدم لم يفصله يُفصل، وبموظف لم يعينه يُعين !
ثم يتنصل عبد الناصر من هذا كله كلما اتصل به، حتى أفهمه سليمان حافظ أن عبد الناصر لا يريد أن يثير غضب هؤلاء الضباط من الصف الثاني والثالث الملتحقين بتنظيم الضباط الأحرار

الذين يتغلغلون في الوزارات ودواوين الحكومة ومؤسسات الدولة، كأنهم صقور تزور أقفاص الطيور تتباهى بين غربان العهد البائد. إنهم يبددون العهد كي يصبح بائدًا يا معالي دولة رئيس الوزراء

يشعر علي ماهر أنه محاصر، فهو محسوب على العهد البائد، ولعله مندوب هذا العهد كي يبدده ويباد معه، وهو ملحق على العهد الحاضر لكن كمفتش في وزارة المعارف وجد نفسه مشرفًا على رحلة طلبة في قصر عابدين. لكنه ثعلب عجوز، لا يجوز أن يستسلم، فها هو يودع المجلس العسكري الذي ذهب لمحاكمة عمال كفر الدوار، وها هو يستقبله كمن عاد من غزو روما، وها هو يوقع المراسيم والقوانين برفد موظفين، ويوافق متحمسًا على تطهير الأحزاب، كأنه مولود لهذه المهمة، فينشر بيانًا (كتبه سليمان حافظ وقرأه عليه متقدًا مستثارًا، كأنه ذرة فشار تقلى وتتقافز حماسًا):

إن الشعب يضيق ذرعًا بالأحزاب، وأن الخصومة السياسية وصلت إلى حد الجريمة، والأحزاب الحالية في مصر هي قوة تركيز للتدخل الأجنبي .

فكر أن يصارح سليمان حافظ بأن هذه الجملة قاسية للغاية، فهي تتهم الأحزاب بالخيانة، لكنه تراجع عن مصارحته، فلأتهمها بالخيانة ويحصل ما يحصل، فحين تجد عدوك تحت قدميك لا ترفعهما عنه !

كان علي ماهر يظن، وبعض الظن إثم وبعضه الآخر حلال، أنه سيقدر على الضباط، وينفرد بحكم البلاد تحت رعايتهم وحمايتهم، لكنه يصحو كل يوم على إهماله وتجاهله، ويأوي إلى فراشه كل ليلة على حيرة رئيس حكومة لا يملك من أمره شيئًا، حتى قانون تحديد الملكية الذي طلعوا فيه فجأة ليس كما كان مطروحًا في أيام فاروق، بل أشد غلظة وأكثر عجلة، ثم ما الصالح في أن نعادي طبقة هي العمود الثابت للاقتصاد في البلد؟ ثم إنه قانون لا كتبه خبراء الحكومة، ولا شارك فيه وزراؤها، ولا شاوره فيه أحد، ورق ملقى على سطح مكتبه مأمور بإصداره وتشريعه، أهكذا صار الأمر؟ أهكذا انحط أمري؟ صرت مثل رشاد مهنا عضو الوصاية على العرش، الذي سمعه غاضبًا حانقًا يعترض على تجاهله رغم أنه ثلث ملك (ثلثاه الآخران الأمير محمد عبد المنعم الذي لا حول له ولا قوة، وبهي الدينبركات الذي لا حس له ولا صوت). مهنا زميل الضباط، ورئيس بعضهم، ومنافس نجيب على زعامتهم قبل ليلة حركتهم المباركة، ومع ذلك رموه في قصر عابدين منفيًّا عن النفوذ، فيحتج ويرتج في مكالمات تلفونية لي كل صبح كأن لي في الأمر يدًا! ويشخط وينطر في محمد نجيب كأن له في المسألة سهمًا! وبينما نجيب يرتدي البذلة العسكرية متطاوسًا، ويلوح بعصاه فخورًا، ويقضي أيامه متجولًا وخطيبًا في معسكرات الجيش واحتفالات الجمعيات والجوامع والكنائس والمعابد، أجلس أنا في قصر الأميرة شويكار، أرى موظفي الحكومة وهم يطأون سجاجيده، وضباط الجيش وهم لا يعيرون لوحاته البديعة نظرة! فلأجعل بالي طويلًا، وأهدئ من روعي، فليس معقولًا أن أُلدغ مرة أخرى بحكومة لا تستمر أسابيع، وأُزاح من فاروق ثم من نجيب، وكأن علي ماهر هان حتى فقد مهارته! سأغير في الغد بعض وزراء الحكومة، سأستغني عن هؤلاء الذين يتذمرون من تدخلات الضباط، أو الذين أفهمني سليمان حافظ أن دمهم ثقيل على الضباط (وربما عليه، فهو لصيق نجيب هذه الأيام، لكن لا بأس فحافظ يحرق معي مراكب الوفد عن العودة، ويصب معي خرسانة حكم طليق من قيود برلمان)، لكن سأؤجل

موضوع قانون تحديد الملكية، ولن أغلب أن أحتال على الوقت حتى يطول، وعلى الضباط حتى يفهموا .
*

ناداه سليمان حافظ :
ـ تعالَ يا إبراهيم .
أليس هذا الوجه معروفًا، نعم إنه هو، هذا المحامي صديق جمال عبد الناصر فيما أظن، بل هو شريك جلسات عبد الناصر في حديقة جريدة «المصري» مع أحمد أبو الفتح، نعم إنه تلميذ السنهوري باشا في الحقوق أيضًا
كان إبراهيم طلعت قد عبر بهم ومر عليهم في شرفة الفندق، فلما سمع اسمه عاد برأسه فوجد السنهوري، فبش وجهه لأستاذه الذي رد له الابتسامة، بينما كان سليمان حافظ يجره من ذراعه ليجلسه بينهما، وقد تبادلوا السلامات والتحيات. واستغرب السنهوري من تلك الحفاوة التي يقدمها سليمان لهذا الوفدي المتقد، وفهم فورًا أن سليمان حافظ يحلب الشاب ما عنده من خفايا، حين صاح فيه لائمًا مقرعًا :
ـ بقى يا راجل، رايح تصالح الوفد على مجلس القيادة !
بدا إبراهيم طلعت مندهشًا، فقرر سليمان حافظ أن يقسو عليه فيدهشه أكثر :
ـ هذه هي الفرصة الذهبية للقضاء على الوفد وإلى الأبد !
وجد السنهوري في كلمات حافظ فجاجة في الكشف عن مشاعره، وتورطًا في الكشف عن خططه، واستفزته للغاية هذه الخفة التي يختال بها حافظ، لكنه فوجئ أكثر حين أضاف :
ـ شفت خرجتم من لقاء عبد الناصر بفؤاد سراج الدين فرحين بما آتاكم، فعملها فيكم مصطفى أمين وهيكل وبصقوا لكم في البئر !
*

خلع صلاح سالم فردتي حذائه ووضعهما بجانبه، بعدما قرفص على السجادة الوثيرة ناعمة الملمس المزينة برسوم الورود، والمفروشة في صالون بيت زميلهم عيسى سراج الدين الذي لم يكن موجودًا في الغرفة أصلًا، بل كان حريصًا على الإشراف على خدمه وهم يقدمون أطباق عناقيد العنب، والبطيخ المقطع مستطيلات صغيرة منزوعة القشرة (وليس كما اعتاد صلاح سالم أن يراه ويأكله كمثلثات هرمية قاعدتها قشرة البطيخ الخضراء الصلبة)، وصواني الشاي بإبريق خزفي أبيض مؤطرة فوهته بخيوط ذهبية، وفناجين حوافها خيوط مذهبة، ووعاء صغير يضم قطع السكر .
اطمأن عيسى إلى أنه ضابط مهمات شاطر في منزله، ثم تركهم مع زعيم عائلته (ورجل زعيم الأمة الأثير) فؤاد سراج الدين، الذي قابلهم بتحيات وقورة وابتسامات منضبطة لا تتملق ولا تندلق، وعوده الفارع وسمنته يملآن بدلته الأنيقة، وسيجاره بين إصبعيه السبابة والوسطى، بينما كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يتركان القائمقام أحمد شوقي يتقدمهما باعتبارات الأقدمية، ومحاولة التواضع أمام فؤاد سراج الدين، للاختباء وراء وجه يخفي أهميتهما عن الرجل الأهم في السياسة المصرية، فيتركانه يتصرف دون أن يتحسب ردود أفعالهما (هذه طريقة عبد الناصر، عليم بها حكيم، فيترك عبد الناصر يستخدم أسلوب المثنى للتعبير عن مواقفه إدراكًا أنه آمن لتأييد حكيم، أو لأنه يعتبر نفسه وحكيم واحدًا). أما صلاح سالم، فحاول أن يقدم لفؤاد باشا

عرضًا موجزًا في أنهم صنف آخر غير هؤلاء السياسيين الذين خبرهم الباشا، فجلس على الأرض مقرفصًا خالعًا حذاءه حتى يجيب له من الآخر. كان أحمد شوقي سعيدًا بالحضور، فهي مفاوضات وجوده فيها يعني أهميته . فمنذ دفع رشاد مهنا إلى وصاية العرش منفيًّا بركلة في الهواء، فرغ المكان التالي وراء محمد نجيب ولا يملأه غيره، فهو الرتبة العسكرية الأعلى بعد نجيب، ثم هو الضابط الذي صاحب نجيب على يخت «المحروسة» مودعين الملك باسم «الحركة المباركة» (كانت ليلتها انقلابًا)، ثم إن دوره ليلة الثالث والعشرين من يوليو حاسم، بل هو الحسم (لن ينسى أبدًا لحظة رأى ابنه الضابط شريكًا معه في الانقلاب، دخلا التاريخ وأدخلا مصر التاريخ، لكنه يخشى مع ازدحام مجلس القيادة بالأسماء الأقل رتبة والأكثر ولاء لعبد الناصر أن يخرج هو من التاريخ، بل ومن الجغرافيا، بلا حول ولا طَول . لهذا فقد كان عصبيًّا ومتوترًا، وصوته بدأ يرتفع، وغضبه شرع يظهر، ويبدو أن عبد الناصر بدعوته له لحضور هذا اللقاء إنما أفاق لمن يجب أن يتقدم الصفوف).
تبادل أحمد أبو الفتح وإبراهيم طلعت نظرات غيظ وتعجب مما فعله صلاح سالم (هل يمارس جنانه حتى على الباشا؟!)، وكانا قد دعاهما الباشا وعبد الناصر كل على حدة للقاء، فجاءا في الطائرة من الإسكندرية، ووصلا منزل عيسى متأخرين، فلما دخلا ووجدا جلسة صلاح سالم على السجادة خالعًا الحذاء (ثم إن الجوربين في قدمي الرجل منذ الصباح في اجتماعاتهم التي لا تنتهي في مجلس القيادة ولا يضمنان رائحتهما)، اعتبرا تصرفه قلة ذوق، ولجآ إلى عبد الناصر بعيونهما، فتجاهلهما بصمته وبالتفاته إلى حبات عنب فالتقطها يلتقمها، بينما قال صلاح سالم كأنما أراد أن يرمي شرابه وتحديه وفظاظته في وجه الباشا :
ـ لكن قل لي يا باشا، كيف تمتلك وحدك عشرين ألف فدان في بلدك كفر الجرايدة؟
صوب عبد الناصر نظراته على فؤاد سراج الدين، لعله يرى رجفة رموش، أو اهتزاز سيجار بين إصبعيه، أو رعشة في فكه، أو تعكرًا في وجهه، لكنه لم يرَ شيئًا، نفس الابتسامة المنضبطة والعيون الواسعة الغامضة !
فهم سراج الدين أن هذا الضابط يتحامق عليه ويستفزه . لمعة صلعته، ونظارته السوداء، وشرابه الميري الرديء، وقرفصته، ثم مد ساقيه مستندًا على كرسي الصالون، تصلح رسمة على غلاف مجلة إعلانًا عن الانقلاب! لعلهم يريدون أن يقولوا لي ما رأيك الآن يا فؤاد باشا؟ من الذي نجح وفعلها؟ ألسنا نحن من أرسلنا لك مندوبنا (كان اسمه جمال القاضي) ندعوك لأن يخلع الوفد الملك وسيدعمكم الجيش ويقف بجواركم ويؤيدكم، فرفضت متعاليًا تعطينا درسًا لنا أنت ونحاسك بأن يبتعد الجيش عن السياسة؟ لم نبتعد يا باشا! وها أنت الذي تأتي هذه المرة لتجلس أمامنا فنعطيك درسنا في الوطنية ! من الذي فعلها وفاز؟ ومن الذي أحجم عنها وخاب؟ وها هم يلقون عليك يا باشا باتهام أنك إقطاعي مستغل ناهب للفلاحين، حيث تمتلك عشرين ألف فدان! اتفضل اغضب وتعصَّب وتطاول وتهكَّم وأفلت أعصابك، واستأذن عيسى قريبك وخذ بعضك وارحل غضوبًا مغاضبًا !
قفزت كلمات إبراهيم طلعت في الهواء مع وقفته التي دارى فيها جلسة الباشا عنهم، كأنما يمنعه من الرد :
ـ اسمع يا جمال بك، المناقشة بطريقة الأخ صلاح لن تكون مجدية! أرجو أن ترأس الاجتماع وتكون الأسئلة بطريقة منظمة إذا كنتم جادين في أن يثمر الاجتماع! ثم أنت نفسك الذي طلبت

الاجتماع وليس فؤاد باشا !
احتد صلاح سالم ونظر إلى إبراهيم طلعت من تحت حيث يقرفص :
ـ ما هي طريقة الأخ صلاح بقى إن شاء الله؟! ثم أنا كلامي صحيح مائة في المائة يا جدع إنت !
اعتدل عبد الناصر، وترك حبات العنب أخيرًا :
ـ اهدأ يا صلاح !
لقد أراد إبراهيم صديقه القديم المشاغب والمتعافي أن يجعل من الجلسة اجتماعًا ومن الاجتماع تفاوضًا، فاستخدم بسرعة حيله كبرلماني سابق ومحامٍ حالي، كاتب صحفي أحيانًا ومتظاهر دائم، ليفرض مسار الاجتماع. يحب عبد الناصر نقاء هذا الرجل وحماسه، ويغرم تمامًا ببراءته الساذجة :
ـ خلاص يا إبراهيم، يتولى القائمقام أحمد شوقي رئاسة الاجتماع .
حاول عبد الناصر أن يضرب الأمرين معًا بحجر واحد: تهدئة طلعت وصلاح، وإطفاء هذا اللهب في عيني أحمد أبو الفتح الذي يتدحرج كل يوم إحباطه من عبد الناصر، حيث لم يعد الصحفي الوحيد الذي يعتبر نفسه صديقه بل وموجهه السياسي كما يظن. أبو الفتح يحاسبني على أخطائه في تقديره لقوته ولضعفي! ثم محاولًا التودد إلى أحمد شوقي حتى يهدأ قليلًا في حواراته مع الضباط في الأسلحة، حيث يذهب ويجيء مع نجيب ومن خلفه، وهو يستقبل الانتقادات المتناثرة ضد مجلس القيادة بإنصات وانتباه وتشجيع
لكن إبراهيم طلعت الحرون تغاشم وقاطعه :
ـ لا يا جمال بك !
والله يُشكر أن وضع وراء اسمي لقب «بك»، الألقاب التي طالبني مرشد الإخوان بإلغائها. حصيف إبراهيم طلعت الطيب، فهو يناديني دائمًا بـ«جمال» بلا وصف سابق ولا لاحق، لكنه هنا يبدي توقيرًا، وربما محاولة لإبعاد نفسه عني أمام الباشا .
واصل إبراهيم :
ـ أنا لا أعرف القائمقام أحمد شوقي مع شديد احترامي وتقديري لشخصه، وبصرف النظر عن الرتب العسكرية، ولذلك ترأس أنت الاجتماع، ولا أظن أن الإخوة العسكريين سيرفضون .
لحظتها لاحظ أحمد أبو الفتح الكابات العسكرية المرصوصة بجوار بعضها على مائدة الصالون. سلم جمال أمره لله بعدما وافق العسكريون فعلًا على توليه رئاسة الاجتماع وكانت إيماءة أحمد شوقي الراضية إيذانًا بأن يتكلم :
ـ الأخ صلاح بالتأكيد يريد السؤال عن موقف فؤاد باشا من قانون تحديد الملكية، لكنه طرح سؤالًا آخر عن ملكية الباشا لعشرين ألف فدان في الجرايدة، ممكن فؤاد باشا يجيب عن السؤال الثاني ثم نعود إلى السؤال الأول؟
سبق أن قال له أحمد أبو الفتح إن عبد الناصر هو قائد الانقلاب الحقيقي، وقد فهم من مقال مصطفى أمين من السطر الأول أنه مقال مملى ومجهز، وأنه رسالة لمن يقرأ بين السطور وما وراءها بأن من يريد أن يتكلم مع الجيش فليذهب إلى عبد الناصر ودعكم من تضييع الوقت مع محمد نجيب. تنهد فؤاد باشا مبتسمًا في تمام الرضا، وقال :
ـ أنا وأسرتي نمتلك ثلاثة آلاف فدان، جزء منها نمتلكها بالميراث، والجزء الآخر من الأراضي البور التي استصلحتها .

ثم قرر أن يوجه كلامه إلى نظارة صلاح سالم السوداء، وهو يدرك أنه يحدق من خلالها :
ـ وأنا مستعد للتنازل للدولة عن أي قدر أو مساحة من الأراضي تزيد على ذلك .
ثم قرر أن يخاطب العقل، فوجه نظراته إلى عبد الناصر :
ـ وطبعًا يمكن التأكد من صدق وصحة كلامي بالعودة إلى دفاتر الأملاكالزراعية .
أومأ عبد الناصر مبتسمًا، بينما كانت سعادة عبد الحكيم عامر المفرطة بالإجابة تثير استغراب أحمد أبو الفتح استغرابًا أعلى كثيرًا من ببغائية صلاح سالم بأرقام ومعلومات من ثرثرات المقاهي، ووافق أحمد شوقي متعجبًا من عبث صلاح سالم وسعيدًا بهزيمته، بينما صلاح سالم لم يبدِ أي رد فعل، فلا أحد يرى عينيه، وقد تحولت معلوماته الصحيحة بنسبة مائة في المائة إلى هراء بنسبة لا تقل عن المائة في المائة. قال عبد الناصر :
ـ معلش يا صلاح، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا !
لم يُرد فؤاد باشا أن يصيب صلاح سالم بأي حرج بسؤاله عن الفاسق، فأسرع بالإضافة :
ـ أما مشروع قانون تحديد الملكية طبقًا للذي نشرته «المصري» (أشار إلى أبو الفتح) فأنا فؤاد سراج الدين بصفتي الشخصية أوافق عليه من حيث المبدأ .
هب صلاح سالم فيه بحدة :
ـ ماذا يعني من حيث المبدأ؟ !
حاول فؤاد باشا إخفاء اللهجة التعليمية في كلماته وهو يرد :
ـ كل قانون في الدنيا يتم طرحه أولًا للموافقة عليه من حيث المبدأ، ثم لو تمت الموافقة عليه يطرح لمناقشة تفاصيله وتعديلاته .
ثم عاد إلى نظارة صلاح سالم فخاطبها :
ـ بالمناسبة، لو صدر هذا القانون بنفس مواده المنشورة بدون تعديل فأنا شخصيًّا وعائلتي لن نضار بصدوره ولن نفقد فدانًا واحدًا، أقول لكم بل إن تسعين في المائة من أعضاء حزب الوفد لن يضاروا بهذا القانون، أنتم كنتم كرماء جدًّا عندما جعلتم الحد الأقصى لملكية الفرد مائتي فدان .
قالها مبتسمًا، بينما رد عبد الناصر بسرعة :
ـ هل تعرف يا باشا أن إبراهيم طلعت ممن كتبوا هذا القانون؟
*
كان عبد الناصر ملهوفًا على قانون تحديد الملكية الزراعية، حتى إنه قال لإبراهيم طلعت :
ـ عايزه بكرة .
قانون يوضع ويكتب ويصاغ في يوم وليلة! اندهش طلعت الذي فاجأه عبد الناصر باستدعاء عاجل وهو يؤنبه على وجوده في الإسكندرية، فأجاب :
ـ أنا إسكندراني على فكرة يا جمال، ولست في الإسكندرية أقضي إجازة صيفية !
لم يستوعب إبراهيم طلعت إلحاح عبد الناصر في الحصول على دراسة عن تحديد الملكية سمع عنها منه، ثم تطور الإلحاح إلى مطالبته العجولة بصياغة الدراسة قانونًا. كان عبد الناصر يريد أن يتخلص من هذا الطنين الذي يأتيه من الجميع: علي صبري قال له إن «إيفانز» حين قابله في السفارة الأمريكية سأله متى تصدرون قانون تحديد الملكية ! عبد المنعم أمين منذ اجتماعهم مع «كافري» وهو يسأله صبح كل يوم عن القانون، فالسفير يلح عليه محفزًا ومتحفزًا! مصطفى أمين

أخبره في ستة تقارير من تقاريره المفصلة المسلية أن «ليكلاند» حث على إصدار القانون بسرعة !
يومها كان مصطفى أمين قد عرف أن السفير الأمريكي أرسل تقريرًا عن العشاء الذي جمعه بمجلس القيادة. هذه المرة سمح عبد الناصر بأن يكون نجيب في الاجتماع، بل لقد وقف خطوة خلفه، وصمت طويلًا، وترك زملاءه يجيبون أكثر. «ليكلاند» كان يعرف نص التقرير، فأخذ يحوم حول الحواف في حديثه مع مصطفى أمين وصورة التقرير تنطبع في رأسه :
بدعوة منهم تعشيت الليلة مع نجيب وتسعة من ضباطه الأساسيين، أكدوا مرة أخرى على رغبتهم في صداقة الولايات المتحدة (لم يعرف السفير أن عبد الناصر هو من حدَّد الأسماء التي ستحضر اللقاء، وبأرق ما امتلك من لياقة كان حريصًا على أن يغيب المزعجون لأمريكا والمنزعجون منها من الاجتماع). ناقشت معهم الإصلاح الزراعي (كان هذا هو توصيف السفير لقانون تحديد الملكية، ثم سمع «ليكلاند » التعبير نفسه ينتقل إلى أفواه الضباط) ، فقالوا إنه من ناحية لا بد من عمل شيء وفي الحال بخصوص الفوران الشعبي بين الفلاحين، ولكن من الناحية الأخرى فإنهم يرون إمكانية إفساد الاقتصاد المصري كله لو تطرفوا في هذا الأمر (كان نجيب هو من يحاول أن يقدم آراء تبدو أعقل وأهدأ، واضح أنه سمعها خارج مجلس القيادة، فحاول أن يلجم حماس الضباط حين يعرض الاعتراض أمام السفير شخصيًّا) ، أو بعبارة أخرى، لا يمكن إعطاء حوالي 17 أو 18 مليون فلاح قطعًا من الأرض، ثم تتوقع أن ينتجوا شيئًا له قيمة. وهم يشعرون بالحرج لأنهم تحدثوا كثيرًا عن الإصلاح الزراعي علنًا (لم يشارك أي ضابط فيما قاله نجيب، الذي تصور نفسه رئيسهم فعلًا في هذا الاجتماع من فرط ما تكلم ومن شدة ما صمتوا. كان ينتهز الفرصة في أن يتحدث بصراحة دون أن يهجم عليه غضب جمال سالم، أو يتهجم عليه حنق صلاح سالم. أما عبد الناصر فقد كان متأملًا آخرها معه، ومع الأمريكان . وحده جمال سالم الذي جلجل تأييدًا للقانون، ومسح بكل حجج نجيب الأرض، لكن بعد خروجهم من الاجتماع، هذا ما أخبره به أصدقاؤه الضباط وبعض مما فهمه منهم على عشاء في اليوم التالي). اعترف الضباط أنهم تسرعوا في الإفراج عن الشيوعيين، وقد قاموا باعتقال بعضهم .
هل يا ترى سينقل مصطفى أمين أو علي صبري أو عبد المنعم أمين لجمال عبد الناصر لو عرفوا منه أن نجيب وقف في وداع السفير وحيدًا منتهزًا فرصة الانفراد به، فكتب في التقرير يقول :
أما عن الإخوان المسلمين فقد اعترف لي محمد نجيب على انفراد من الآخرين، بأن هناك بعض الخطر من ناحيتهم، لأن عددًا من الضباط والجنود ينتمون إلى الإخوان، ولكنه يعتقد أنه يمكنه السيطرة على الوضع .
مسكين نجيب هذا! ما الذي يخيف الأمريكان من الإخوان يا جنرال؟ لا مشكلة أبدًا فيمن يقدر على أن ينقل ولاءه كما ينقل أثاثه. إن اللواء نجيب هو دليل «ليكلاند» على أن الإمبراطورية البريطانية تخفت وتخبو، فإنهم يرون أن الجنرال نجيب أهم وأفضل من عبد الناصر. من الجيد أن الولايات المتحدة تملك خبرة لاس فيجاس في السياسة. كان مهمًّا أن يطمئن «ليكلاند » مصطفى أمين أن الضباط طبقًا لتقرير «كافري» «أكدوا أنهم سيواصلون جهودهم لإضعاف الوفد». أطلق قلمك يا رجل كما تهوى ولا تتردد، لكن «ليكلاند» كان مترددًا جدًّا حين سأله مصطفى :
ـ هل تحدث الضباط مع السفير الأمريكيعن حوادث كفر الدوار؟
فأجاب :

ـ إنهم يعتقدون أن حوادث كفر الدوار الأخيرة محركة من الخارج .
لكنه سكت تمامًا ولم يكمل ما جاء في تقرير السفير: «وأنهم لم يقرروا إعدام الرجل الذي حاكموه، وقد سألني نجيب رأيي هل يشنقه أو يغير الحكم إلى السجن المؤبد وقد تهربت من الجواب ».
يبدو أن جمال سالم من يومها تصور نفسه مبعوث العناية الإلهية للفلاح المصري (الغريبة التي تثير دهشة عبد الناصر أن جمال سالم ابن ضابط، ولم يمسك لا هو ولا أبوه ولا أخوه في يوم من الأيام فأسًا، بل حتى حكيم
ابن العمدة وزكريا وخالد من آل محيي الدين أصحاب أعيان وأطيان لكن ليسوا فلاحين، إلا إذا كانت الفلاحة هي قضاء الإجازة في ساعات العصاري في الغيطان مع الأصدقاء القدامى).
وقد زاره أحمد حسين الوزير السابق وصاحب المشروع القديم، بناء على طلب أصدقاء مشتركين كما قال، وعرض عليه أي مساندة ومساعدة في إصدار القانون، بعدها عينه عبد الناصر سفيرًا لمصر في واشنطن، الرجل المناسب في المكان الأكثر مناسبة، ثم بدأت أخبار القانون تتناثر وتنتشر، ويتطلع الناس إلى حلم موعود طالما رجوه وروجوا له في العهد البائد، ثم أحبطه الملك وكبار الملاك. صدور القانون صفارة نوبة صحيان جديدة للحركة وللشعب، المكسب سيكون واسعًا، قالها عبد الناصر لعبد الحكيم وهما ينتظران حضور إبراهيم طلعت، وواصل :
ـ نضرب به الباشوات ونكسر احتكارهم، نعلن أننا مختلفون تمامًا عن رجال السياسة القدامى الذين طنطنوا به ثم تخلوا عنه، يصبح من حقنا حلم جيل عاش على حلم التوزيع العادل للأرض، وصلنا لقلب وعقل ملايين الفلاحين وغيرنا في حياتهم، صنعنا شعبية هائلة للجيش، أرضينا الأمريكان الذين يخافون من الشيوعيين، وأرضينا الشيوعيين الذين يطالبون بالقضاء على الرأسمالية، هل تتذكر منشورات الضباط الأحرار التي كتبها لنا أحمد فؤاد وحبايبك في «تنظيم حدتو»؟
ـ طبعًا،وفي كل منشور يكتب لكالاستعمار الأنجلوأمريكي، اتفضل أهو اتفضل يا سيدياالأمريكان طلعوا «حدتو » أكثر وعايزين تحديد الملكية .
كان عبد الناصر قد صحا يومها مستدعيًا الدكتور راشد البراوي، حيث كان قد قرأ له مقالًا عن تحديد الملكية في إحدى الصحف، وسأل عنه زكريا، الذي أجاب بعدها بقليل (بعدما اتصل بضباط من القسم المخصوص والقلم السياسي الذي بات تحت ولاية المخابرات الحربية، وصارت ملفاته في أدراج ودواليب زكريا) بأنه أستاذ في كلية التجارة، ورجل اشتراكي، ومترجم كتاب «كارل ماركس»: «رأس المال»، وهو مأمون الجانب
لكن زكريا لا يرى أن أحدًا مأمون الجانب، فكل شخص له جوانب عديدة وإن أمنا جانبًا منه فقد لا نأمن جانبًا آخر. لم يحكِ زكريا لعبد الناصر ما سمعه من حسن طلعت ضابط القلم السياسي المختص بمكافحة الشيوعية، وكان الضابط يقولها قلقًا ملفوفًا في الفخر والتفاخر :
ـ فوجئت جدًّا يا زكريا بك كما لم أفاجأ في حياتي عند رؤيتي للبكباشي جمال عبد الناصر، فقد وجدت أن حضرة البكباشي هو «موريس» شخصيًّا .
ـ «موريس»؟ !
ـ نعم. كنا نراقب الشيوعيين ونتعرف على تحركاتهم، فشاهدنا خلال ذلك شخصًا طويل القامة معقوف الأنف يلبس البنطلون والقميص، ويتصل ببعض الشيوعيين ومنهم زعيم التنظيم نفسه، وعلمنا أن الاسم التنظيمي لهذا الشخص الطويل صاحب الأنف المعقوف هو «موريس ».
ـ وهل قمت بضبطه؟

ضحك حسن طلعت مقهقهًا، ماذا فعلًا لو كان قبض يومها على «موريس عبد الناصر»؟
- لا. الحمد لله .
لا يثق زكريا محيي الدين كثيرًا في تحريات البوليس السياسي، لكنه يعرف أن عبد الناصر تجول بين الإخوان ومصر الفتاة والشيوعيين، وليس بعيدًا أن يكون «موريس» أو «عبد الحفيظ» أو «كوهين»، لو كان في هذا طريق لإنقاذ البلد من الاحتلال والفساد .
جاء راشد البراوي، وعاجله عبد الناصر بالعجلة في كتابة القانون، فأخذ متحمسًا يلقي محاضرة عن تاريخ مصر أنصت لها عبد الناصر ضجرًا، وقاطعها عبد الحكيم بابتسامة إعجاب ساهمت في رضا الدكتور البراوي وانصرافه بسرعة لتجهيز القانون. فلما حضر إبراهيم طلعت وفاتحوه في ذات القانون قال إنه عندما كان في البرلمان كانت هناك مشروعات جاهزة من عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين، وإننا لسنا في حاجة إلى صياغة جديدة أصلًا، ثم ذهب للقاء أحمد فؤاد وراشد البراوي لتجهيز صياغة سارع بنشرها في جريدة «المصري» بعنوان عريض: «نص مشروع قانون تحديد الملكية الزراعية الذي قدمه مجلس القيادة للوزارة لإصداره ».
بعدها بساعات وجد أحمد أبو الفتح شخصيًّا في بهو الفندق يصيح فيه حانقًا :
- رحنا في داهية !
كان محمد نجيب قد خرج ساخطًا من ذلك الطوق الذي يحيطه من المحررين (متجاهلًا تلك المحررة الشابة التي يرتاح لوجهها وأسئلتها) ، فقد سألوه عن مشروع القانون الذي قدمه مجلس القيادة ونشرته «المصري»، فاهتاج متساميًا على السؤال :
- هذا كلام غير صحيح! لا مشروع ولا قانون ولا قدمنا شيئًا للحكومة !
سارع محرر الجريدة المسائية الوحيدة «الزمان» إلى جريدته، ليضرب بتصريح اللواء محمد نجيب جريدة «المصري» في مقتل. فما كان من أحمد أبو الفتح إلا أن أخذ إبراهيم طلعت في يده من الفندق إلى مجلس القيادة، ولم يكن باب مكتب عبد الناصر (المجاور لنجيب) مغلقًا أمامهما. دخل إبراهيم طلعت وقرر أن يعفي أبو الفتح من إهدار كبريائه الصحفية أمام عبد الناصر، خصوصًا أنه هو من أرسل القانون ومن تحمَّل مسؤولية صدقه :
- يا جمال، جريدة «الزمان» ستصدر وهي تحمل تكذيب اللواء نجيب لمشروع قانون تحديد الملكية !
رد جمال بثقة هادئة، مقاطعًا برطمة طلعت التي لم تتوقف :
- جريدة «الزمان» ستصدر وعنوانها الرئيسي هو ما نشرته جريدة «المصري» بالحرف الواحد !
فلما جلسا يلتقطان أنفاسهما عرفا أن عبد الناصر أرسل قوة من الجنود برئاسة ضابط، وقامت بمصادرة ما تمت طباعته من نسخ تحمل تكذيب نجيب، وأمروهم بإعادة طبع العدد يحمل خبرًا رئيسيًّا بأن اللواء نجيب ذات نفسه صرح بأن ما نشرته جريدة «المصري» هو نفس المشروع الذي قدمه مجلس القيادة للوزارة لإصداره بمرسوم قانون .
تهلل إبراهيم طلعت فرحًا وغرورًا بصديقه، لكنه لمح سحابة غمٍّ على وجه أبو الفتح. فيما بعد حين خرجا من مكتب عبد الناصر، بل من مبنى القيادة، سأله عن سبب هذا الغم، فرد أبو الفتح :
- أنا خايف !
بهت طلعت :
- لماذا؟ !

ـ الذي حصل مع جريدة «الزمان» اليوم، يمكن أن يحدث غدًا مع «المصري »!
*
طرد إبراهيم طلعت تخوف أبو الفتح من رأسه الآن، وهو ينقل نظراته بين أبو الفتح وعبد الناصر وفؤاد باشا في بيت عيسى سراج الدين. طرب قلبه حين رأى صلاح سالم يرتدي حذاءه ويقف ليجلس على كرسيه مائلًا بصدره ناحية فؤاد سراج الدين. لم يكن يصدق أنه سيفهم مشاعر صلاح سالم من حذائه! كان الباشا يؤكد لهم على تأييده قانون تحديد الملكية، ويؤكد لطلعت ما سمعه ألف مرة من أن فؤاد سراج الدين يملك القدرة على أن يفطر مع الشيوعيين، ويتغدى مع الإقطاعيين، ويتناول الشاي مع الاشتراكيين، ويتعشى مع الرأسماليين، ويكسب الجميع! خرج من أفكاره ليسمع فؤاد باشا يكمل شيئًا قد بدأه :
ـ في ظل حكم الوفد، وفي المدة التي شغلتها سكرتيرًا للحزب، تقررت مجانية التعليم، وصدر قانون الضمان الاجتماعي، وتضاعفت الضريبة على الأطيان، واتخذت الحكومة موقف الحياد في الحرب الكورية، ومنعت
إسرائيل من المرور في قناة السويس، وألغيت معاهدة 1936، وكنا على وشك قطع العلاقات مع بريطانيا بعد معركة الإسماعيلية في 25 يناير لولا حريق القاهرة .
أفرج صلاح سالم عن طيبته وصاح :
ـ عدَّاك العيب يا باشا .
هنا رفع عبد الحكيم صوته وكفه معه :
ـ أحب أن أقول لإخواننا المدنيين إننا جادون في تسليم البلد لأصحابها، وليس لنا أي مطمع في الحكم، فنحن عسكريون ولا نعرف أسلوب السياسة، وليست لنا أي خبرة تؤهلنا لتولي الحكم. وقد طلب منا كثيرون أن نتولى الحكم بواسطة وكلاء الوزارات، ووافق زملاؤنا في مجلس القيادة، لكننا كما قلنا، جادون في إعادة الحياة الدستورية والعودة إلى ثكناتنا للتفرغ لإنهاء الاحتلال !
زغرد قلب طلعت، حتى كاد يقفز فيقبِّلهم جميعًا مع حضن حار حتى لصلاح سالم. لم يكن أبو الفتح في فرحته، ربما كان سعيدًا لكن ليس لدرجة القفز والتقبيل والتحضين. لكن فؤاد سراج الدين استقبل كلام عبد الحكيم عامر بابتسامة رجل لا تكفيه الوعود ليُصدِّق، ولا يصح أن يتجاهل حسن النوايا حين يعلن أمامه، فقال :
ـ هذه غيرة وطنية عظيمة تليق بكم !
ثم لم يضف إلا الصمت الذي قطعه عبد الناصر :
ـ لقد استقبلنا كثيرًا من أعضاء الأحزاب السياسية في الفترة الأخيرة، والحقيقة معظمهم، في الماضي وحتى الآن، ليسوا على مستوى النزاهة والسلوك الوطني، ولازم الأحزاب تتخلص منهم، والوفد مطلوب منه قبل الجميع أنه يطهِّر نفسه من مثل هؤلاء الأشخاص، ويكون قادة الحزب فوق كل الشبهات وممثلين لكل الطبقات !
عبَّر سراج الدين بهزات من رأسه عن شيء ما قد يشبه الموافقة، لكن كلامه لم يهتز حين رد :
ـ طبيعي أن تثور بعض الشبهات على بعض رجال الأحزاب، خصوصًا لو كانوا في الحكم، لكن بالنسبة للوفد لا أقدر على وعدكم بشيء قبل الرجوع إلى النحاس باشا !
ضحك عبد الناصر كأنما لينهي النقاش :
ـ طيب مجلس القيادة له طلب يا باشا، نريد أحمد أبو الفتح وإبراهيم طلعت أعضاء في قيادة الوفد .

رد سراج الدين بضحكة أعلى :
ـ اعتبرهم أعضاء فورًا !
لكن إبراهيم طلعت الحرون قاطع ضحكاتهم :
ـ أنا وأحمد لا نوافق! نحن لا نقبل أن يتم فرضنا على حزبنا من جهة خارجية !
أدرك عبد الناصر أنه في حاجة إلى التدخل قبل أن يتدخل صلاح سالم :
ـ شفت يا باشا فرسان العصور الوسطى؟ !
*
كانت كل ملامح سليمان حافظ تصرخ بالشماتة في هذا الشاب ذي الشارب الأسود والأنف العريض، المتباهي بوفديته، بل بنحاسيته، وقد خاب سعيه بسطر في الجورنال. لما تناثرت الحكايات والتأويلات والاقتباسات والعنعنات حول لقاء فؤاد سراج الدين برجال مجلس القيادة، بدأ منسوب الغضب يفيض عند كثيرين، لكنه لم يغضب، فقد كان مشغولًا، وانشغل أكثر بتوسيع الحفرة التي يحفرها للوفد في القانون الذي يعده لتنظيم الأحزاب. ليجلسوا مع بعضهم كما شاءوا، فالزبد يذهب جفاء، فهو يصنع مسامير أحد وأثقل لصلب الوفد !
لكن بينما حافظ منكب على عمله، كان هناك من أنجز عمله، فها هي «أخبار اليوم» تنشر في مجلة من مجلاتها يرأسها هيكل، أن فؤاد سراج الدين صرح بعد هذا الاجتماع بأنه وضع الضباط في جيبه. زنت الجملة كالنحلة في مسامع الجميع: ميس الضباط في كل سلاح، ومكاتب مجلس القيادة، وردهات مقرات الأحزاب، وحفلات استقبال السفارة الأمريكية، وتلفونات مجلس الوزراء والوزارات، وبين كراسي المقاهي، وفي شرفات الفنادق! لن يطيق الضباط الإهانة التي تخدش الهيبة وتكسر الرهبة! وحتى لو كان الخبر كذبًا أو أن سراج الدين لم يقله (هو أذكى من أن يشد ذيل الأسد) ، لكن النشر أدى دوره وأثمر شجرته! لقد فعلها مصطفى أمين ورجاله إذن وبصق في البئر ماء نار !
أعصاب علي ماهر تفككت، وضاق صدره بما يمتلئ به: تجاهل الضباط له، مجلس القيادة الذي صارت مهمته الأولى هي قيادة علي ماهر، هوسهم بقانون تحديد الملكية الزراعية، بيانهم عن إجراء انتخابات خلال ستة أشهر الذي أصدروه بعد دقائق من بيانه الذي هاجم الأحزاب، السفير الأمريكي الذي صار يزور ويُزار منهم، كأنهم مجلس قيادة تكساس، دون أن يعيره أحد همًّا أو اهتمامًا، طريقة كلام جمال وصلاح سالم معه وعنه: «رجل السراي طول عمره، فاكر نفسه ملك»، انحشار سليمان حافظ في أذن محمد نجيب، وكل ما يسأله في حاجة يرد عليه بأنه اتفق مع اللواء نجيب، رايح مجلس القيادة، راجع من مجلس القيادة، وزاد وغطى لقاؤهم مع فؤاد سراج الدين
قرر أن يلف من حول مجلس القيادة، وعثر في رشاد مهنا على رأس الرجاء الصالح. تواصل واتصل، جلس وناقش، قدم ورقًا، وحصل على توقيع مهنا باعتباره الوصي العسكري على العرش، وقرر إجراء تعديل في حكومته وتغيير وزرائها. تركه سليمان حافظ يُحكم الحبل على رقبته، فقط حاول أن يتأكد من خشونة الحبل ومتانته، فقد كان اسم عبد الرزاق السنهوري كرئيس الحكومة الجديدة قد وصل إلى كل مكاتب الوزارة ما عدا مكتب علي ماهر
في فندق «سيسل»، وعلى واجهة البحر، رمى سليمان حافظ قواقع الودع إلى إبراهيم طلعت الذي كان يشرب شايه في كوب زجاجي نشاز وسط كل هذه الفناجين الخزفية :

ـ يا إبراهيم، أنت تؤمن بتناسخ الأرواح؟
أذهل السؤال السنهوري، لكنه أطاح بعقل إبراهيم طلعت :
ـ لأ. لكن لماذا؟ !
رد سليمان حافظ وقد صعد صدره حتى عينيه اعتزازًا :
ـ أنا بدأت أؤمن بتناسخ الأرواح .
لم يملك السنهوري نفسه من ابتسامة تجاوزت حدودها إلى الضحكة المكتومة، بينما طار عقل إبراهيم طلعت وحاول أن يلتقطه ليعيده حتى يكمل سماع ما يضيفه سليمان حافظ الآن :
ـ أنا معتقد يقينًا أن سيدنا محمد بُعث في محمد نجيب، وأن جمال عبد الناصر هو أبو بكر الصديق، وأن عبد الحكيم عامر هو عمر، وأن صلاح سالم هو علي بن أبي طالب !
لم يطق طلعت، وفرقت معه جدًّا علي بن أبي طالب، فعلَّق ساخرًا :
ـ طيب وأبو لهب تناسخ في أي روح؟ !
شخط فيه حافظ :
ـ أنا أتكلم جدًّا وليس هزلًا !
ثم تحمس حتى إنه وقف قفزًا :
ـ لماذا لا يعيد محمد نجيب شخصية أحمد عرابي؟
ابتسم السنهوري ووجد نفسه متورطًا في التعليق :
ـ معقولة يا سليمان بك؟! كنت تقول عنه منذ لحظة أنه روح النبي محمد، فجأة ينزل لأحمد عرابي؟ !
قاوح حافظ :
ـ لا، لا زلت عند إيماني بتناسخ الأرواح وبأنهم أرواح النبي والصحابة، لكن أحاول إقناع هذا الرجل (أشار إلى طلعت) الذي لا يعتقد في التناسخ !
رد طلعت :
ـ يا سليمان بك، إنت اقتنعت بتناسخ الأرواح منذ خمس دقائق فقط! ثم من قال لك إن أحمد عرابي حاجة عظيمة أصلًا؟
ـ يا خبر أسود! ماذا تقول؟
ـ يا رجل، أنت حزب وطني، وتعرف كيف هاجم مصطفى كامل أحمد عرابي !
ـ لا، لا أعرف، هل تعرف أنت يا سنهوري باشا؟
رد السنهوري مقررًا إنهاء حصة الميتافيزيقا التاريخية :
ـ استعد يا إبراهيم أنت وأبو الفتح، أنتما معي في الحكومة الجديدة، فكرا بسرعة وأبلغاني عايزين أي وزارتين .
فهم طلعت أن عبد الناصر كلف السنهوري بالحكومة فعلًا :
ـ أنا لا عايز وزارة، ولا ليَّ في الحكومة .
كان سليمان حافظ يفكر حائرًا: هل هذا الشاب تناسخ روح أبي ذر الغفاري، أم أنه مجرد وفدي فوضوي صعلوك يحبه عبد الناصر؟
*

سمع محمد نجيب اسمه، فلم يعرف هل هي الزغرودة في قلبه تصفق لها عيناه، أم أنها صفارة غارة تنغلق لها أذناه! حدق من وراء دخان غليونه إلى وجه عبد الناصر، يريد أن يفك طلسم هذا الهدوء، أيوافق أم يرفض؟ بينما نجيب نفسه ينطق ملحًّا ومغمغمًا ومتعففًا :

ـ لا مستحيل يا سليمان بك، أنا لا أقبل أبدًا !

كان كل شيء في الغرفة دائخًا تمامًا تحت هذا السهر الثقيل والانقلابات التي تطيح في أفكارهم وأمزجتهم ومواقفهم، حتى إنهم يكونون زهادًا رهبانًا في لحظة، ثم يتحولون نهامًا فجعانًا في لحظة تالية، فرسان في موقف وقُطَّاع طرق في الموقف التالي. حيروا سليمان حافظ الواقف أمامهم متجولًا بحركاته وكلماته، يخرج عشرات الأرانب من كميه حين يعجزه مكر الثعالب فيلجأ إلى شغل الحواة. كان مبتئسًا عندما تخلوا عن السنهوري بخفقة رأس وطرفة عين. والسنهوري منذ دار الكلام عنه وحوله طأطأ رأسه وطوى طموحه تحت إبطه .

الغرفة تضيق بجدرانها على عقولهم وهم جالسون منذ مطلع الليل حتى أوشك النهار أن ينفلق، وصخب الغضب يرتفع ويرن بينهم كقرع الأجراس. محمد نجيب اعتبر ما فعله علي ماهر حين لجأ إلى رشاد مهنا التفافًا وقحًا. ثم اعتبر عبد الحكيم ما فعله رشاد مهنا نفسه تجاوزًا وخطلًا، فكيف يوافق على تعديل وزاري بأسماء غير التي أبلغه بها مجلس القيادة؟ وكيف ينفرد بالتوقيع على قرار الحكومة بدون أن يأخذ التمام؟ وحكى أنور السادات شائعات مريعة عن علي ماهر في قصر الملك، وقصصًا شنيعة عن رشاد مهنا في قصر عابدين. بينما سب صلاح سالم، ولعن جمال سالم، هذا الباشا العجوز الذي ربى ملكًا خليعًا. وتحدث زكريا عن عدم ثقته في الرجل منذ اليوم الأول. وقال خالد محيي الدين إن علي ماهر لحق بالماضي. وأضاف كمال الدين حسين أنه لا مشكلة في وجوده في الحاضر ضيف شرف. وقال حسين الشافعي كلامًا مبهمًا لم يهتم به إلا حسن إبراهيم، فسأله عن معناه، فلم يجب حسين ولم يلح حسن. وتبرم يوسف صديق من ماهر ومهنا ومن زملائه. وحسمها عبد الناصر حين قال :

ـ قصة علي ماهر انتهت، نحن الآن نتكلم عن الحكومة الجديدة .

كان هذا بعد ثلاث ساعات من الجدل المرتجل الذي يثير حفيظة سليمان حافظ، فهو معتاد على أنيحول كل شيء أمامه إلى مذكرة قانونية، ويقسم الأمور إلى فقرات ألف وباء وجيم، وإلى مواد واحد واثنين وثلاثة. لا يطيق العشوائية، ويضج بالارتجال، بينما هؤلاء الضباط عشوائيون مرتجلون، يتنقلون من رأي إلى آخر دونما روية ولا انتهاء من نقطة ولا إتمام فكرة! يتعجب حتى إنه كاد يصرخ: كيف أنهم ضباط منهجهم الضبط والربط؟ كيف قاموا بانقلاب ناجح إذا كانوا لا ينظرون أبعد من بوز جزمهم العسكرية؟ لكنه عاد وتذكر أن عبد الناصر نفسه حكى له (ولكثيرين أمامه) أن فرص نجاح الانقلاب لم تتجاوز عشرين في المائة، والحال كما عاشه ورآه مع هؤلاء الضباط يؤكد أن عبد الناصر كان مبالغًا للغاية، فالنجاح كان معدومًا لولا أن الملك ورجاله كانوا أكثر عشوائية وارتجالًا من المنقلبين عليهم !

حاول حافظ أن يقدم نفسه باعتباره مخلصًا للرجل الذي عمل معه، فأخذ يترافع دفاعًا عن علي ماهر، وإن كان متأكدًا من خسارة موكله للقضية، أولًا لأن محاميه (الذي هو حافظ) ضاق بعناده العجوز، وثانيًا لأنه خان محاميه (الذي هو حافظ) حين لعب بذيله من خلفه .

فرغوا من تكفين حكومة علي ماهر، التي نشرت الصحف عن وزرائها الجدد منذ ساعات، وقرروا إقالتها قبل أن يقسم الوزراء اليمين (تمامًا كما حدث مع حكومات الملك الأربع الأخيرة

التي كان يقيلها ويعينها كأنما ورق كوتشينة في دور «كونكان»). ها هم يغيرون علي ماهر بعد قرابة أربعة وأربعين يومًا، وهي أقل من الستين يومًا التي ترأس فيها حكومته الأخيرة أيام الملك!
لكن كل هذا لا يهم سليمان حافظ، فهو يتوق إلى إصدار القانونين اللذين انتهى من طبخهما حتى ملأت روائحهما روحه. ليس مهمًّا القانون الأول، فهو تحديد الملكية الزراعية الذي كانوا لهفى عليه، وطاردوا علي ماهر ليصدره، فلما أجَّله عُجل بذبحه. المهم هو القانون الثاني، حيث ستنطلق الألعاب النارية ابتهاجًا بقانون تحديد الملكية، تخفي صراخ الأحزاب الملتاع حين يجدون قانون تنظيم الأحزاب الذي أعده، كمن يصنع من فقراته دواليب ثلاجة جثث في مشرحة قصر العيني، خصوصًا أن السنهوري أغوى الضباط بأن تطبيق قانون تحديد الملكية سوف يستغرق وقتًا لجمع حصاده، فالأجدى تأجيل الانتخابات حتى يستوي عوده وتتجذر جذوره، فجهز حافظ قانونًا على عينه، وبإطلاق يده يتعامل مع الأحزاب الموجودة كأنها لم تكن، ويطالبها بإعادة إشهار تتطلب شروطًا لا هدف لها إلا القضاء على الوفد، والتعجيل بالذبيحة، فرأس النحاس ستكون قبل جسم الوفد! لهذا لا وقت لدى حافظ يضيعه في ثرثرة هؤلاء التي تعطله عن تحقيق هذا الحلم الذي يكبر كل ليلة في منامه، ولن يسمح لما حدث الآن أن يقضي على خطته
كان علي صبري قد دخل، فتبدلت حياة السنهوري !
باب الغرفة ينفتح وينغلق عشرات المرات، سواء خروجًا أو دخولًا من ضباط مجلس القيادة بين الصلاة، وقضاء الحاجة، وجلب علب سجائر جديدة، والرد على تلفونات تستدعيهم في غرف مكاتبهم، ولقاءات سريعة خاطفة لزملائهم أو زائريهم، أو مقاطعات من عساكر يقدمون الشايات والقهوات، ويبدلون دوارق المياه، ويفرغون منفضات السجائر، ويحضرون فطائر وشطائر للغداء والعشاء ولسحور الصائمين (عدَّى شهر رمضان، بل احتفلنا منذ أسبوع بعيد الأضحى، لكنه صيام تطوع) وحتى للإفطار المبكر، أو ضباط يهمسون لعبد الناصر فيخرج معهم للحظات ثم يعود، أو يقدمون له أوراقًا صغيرة تحمل أخبارًا (يعرضها دومًا على زكريا محيي الدين ثم يشاركونها بالضرورة مع عبد الحكيم عامر)، وبين هؤلاء كان علي صبري الذي تنحى جانبًا بجمال سالم، ثم ناديا عبد الناصر، ثم توقفوا عن الكلام متأملين السنهوري، ثم عاودوا الحديث، ثم خرج لهم خالد محيي الدين، ولحقه زكريا، ثم لبثوا في تهامس للحظات، ثم عادوا إلى الغرفة وقد تحولالهمس إلى همهمة ثم غمغمة، ثم أومأعبد الناصر، لكن من تكلم هو جمال سالم :
ـ طبعًا أنتم تعلمون تقديرنا ومحبتنا للدكتور السنهوري ومكانته المرموقة، وقد لمسنا بالفعل خلال تعاملنا معه
منذ ليلة طرد فاروق مدى وطنيته وولائه لبلده ومحبته للجيش .
لا أحد في الغرفة مستهدف بضمير المخاطب في كلمة «تعلمون» إلا السنهوري نفسه وسليمان حافظ، فأصغى كلاهما منتظرين كلمة «لكن» التي تعطل كل ما جاء قبلها، وقد جاءت :
ـ لكن، هناك تحفظ واضح وحاسم على تعيينه رئيسًا للحكومة !
كان يوسف صديق الجازز على ضروسه طوال الوقت، والسانن أسنانه طوال الاجتماع، أول من تكلم :
ـ من أين وممن هذا التحفظ؟
قال جمال سالم بمنتهى الأريحية والشفافية :
ـ من السفير الأمريكي .

بهت الجميع، لكن يوسف صديق احمر وجهه، وكان يبذل جهدًا خارقًا ليكتم شيئًا يغلي في قلبه.
أكمل جمال سالم :
ـ الأمريكان شايفين إنك شيوعي يا دكتور سنهوري !
عانى السنهوري لحظتها من عمى مؤقت، حيث بدا أنه لا يرى الجالسين أمامه وحوله. وجفل سليمان حافظ، ثم جرى عقله ليجد باب الإنقاذ من الحريق . عبد المنعم أمين هو من شرح، ويبدو أنه سبق وشرح فتجاهلوه، وعز عليه أنهم صدقوا الآن علي صبري حين نقل إليهم رسالة السفير الأمريكي التي كان يعلمها أمين يقينًا وأخبرهم حين سمع باسم السنهوري مرشحًا بينهم لرئاسة الحكومة أنه كان وزيرًا في حكومة من حكومات فاروق، لكن الأهم أن الأمريكان سمعوا بترشيحه، ويعارضونه تمامًا، ويرفضون أن يتولى رئاسة الحكومة شيوعي، ثم أعاد صياغة ما قاله سابقًا الآن أمام السنهوري :
ـ طبعًا نحن لا نستطيع خسارة الأمريكان، ولا نقدر على تحديهم، فأمريكا هي من تقف معنا ضد إنجلترا وتناصر الحركة وتدعمنا في الداخل والخارج، وتقارير السفارة تقول إن الصحافة العالمية تقول إن سيادة المستشار السنهوري شيوعي، وإنه وقَّع بيانًا شيوعيًّا عالميًّا .
تنبه السنهوري، وخرج صوته منزلقًا من صمته :
ـ صحيح أن هذا الكلام يتردد عني (لم يقل تهمة، فاستفز جمال سالم وأحس أنه شيوعي فعلًا والأمريكان عندهم حق) نتيجة توقيعي على بيان لمنع استخدام السلاح النووي !
قفز جمال سالم منطورًا من مقعده :
ـ يعني كلامهم سليم! حد يا دكتور يوقع على عريضة لمنع النووي الذي هزم هتلر وأنقذ العالم؟ !
رد السنهوري، وبدا أنه يعتذر أكثر منه يشرح :
ـ كنت جالسًا على أحد المقاهي، ومر علينا شاب يجمع توقيعات على هذا البيان، ووقعت، ونُشر في صحف العالم لأن كثيرًا من السياسيين والمفكرين والشخصيات العامة وقعت من كافة أنحاء العالم، هذا حدث من قرابة عام أو أزيد قليلًا .
علَّق صلاح سالم :
ـ هذا يعتبر عند الأمريكان عملًا خطيرًا !
وأضاف جمال سالم :
ـ علي صبري يقول إن «إيفانز» يقول إن السفير يقول لا داعي لأن تخسروا الرأي العام الأمريكي بهذه السهولة !
طق يوسف صديق، وتكسرت ضلوعه من الغضب المكتوم: أنحن أذيال لأمريكا؟! السفير الأمريكي يرفض تعيين رئيس حكومة فنخضع ونستسلم؟! أراد أن ينفجر فيهم: لقد احتاجت إنجلترا ذات المليون جندي في مصر في 4 فبراير سنة 1942إلى تحريك دباباتها وقواتها، وحاصرت قصر عابدين، وهددت الملك كي يأتي بمصطفى النحاس زعيم الأمة الحقيقي رئيسًا للحكومة، فلما خضع بتنا نلعن إنجلترا والنحاس والملك، ثم تأتون الآن، وبكلمة من السفير الأمريكي من غير ما يكون له قاعدة بها ثمانون ألف جندي في قناة السويس، ولا دبابات تحاصر مبنى مجلس القيادة، بل مجرد كلمة همس بها في أذن سكرتيره ليقولها لسكرتير عبد الناصر، فننفذها راضخين !
الغريب أنه لم يقل شيئًا
رفع السنهوري صوته متماسكًا وقاطعًا :

ـ إذن نبحث عن مرشح آخر .
ما صدقوا جميعًا، عاد الأكسجين إلى الغرفة فأنقذهم من الاختناق، وسارع كل واحد فيهم يلتقط ورقة توت مما ألقاها أمامهم السنهوري ليستر بها عورته !
قلب سليمان حافظ عاد للنبض، ثم تسارعت دقاته لما أضاف السنهوري :
ـ وأنا أرشح الأستاذ سليمان حافظ لرئاسة الحكومة .
سكت حافظ مترقبًا، وقد تهلل نجيب بالموافقة :
ـ ممتاز! سليمان بك رجل هذه اللحظة !
بينما سمع موافقات تتنوع بين الحماس والرغبة في الخلاص من علي ماهر أو أي حاجة والسلام. لكن حافظ لا يصلح لدور الرجل الأول، هو يعلم ذلك عن خبيئة نفسه، يفضل أن يكون أمير الظلام، يدبر ويشير ويملي ويحيك ويحبك من وراء الستار، ثم الوجود في المقدمة مع هؤلاء الضباط كأنما تضع نفسك أمام فوهة مدفع. لا أحد يحميني، لا حزب، ولا جماعة، ولا شعبية، ولا شهرة، ولا تاريخ معروفًا، ورجال السياسة أكرههم ويكرهونني، والإخوان مريبون ومستريبون، والضباط لا يأمنون ولا يؤتمنون، سيقول لي هذا الفسل إبراهيم طلعت: ألست من تراهم متناسخي أرواح محمد وأبي بكر وعمر وعلي؟! نعم يا أخويا، لكنهم الآن يتناسخون سقيفة بني ساعدة! الأسلم أن أرميها في حجرهم فيتلقفونها، إن وافقوني على فكرتي نلت الرضا، وإن أبوا تراجعت عن تمنعي، إن هللوا لما سأعرضه الآن وكان في بالي منذ فترة أحوم حوله وأقيس عمق بئره كان بها وفزت بجثة الوفد. أليس صديقهم السفير الأمريكي من نصحهم بإضعاف حزب الوفد لأنه حزب يخضع للإرادة الشعبية مما يفتح الباب للشيوعيين؟ (عبد المنعم أمين وخالد محيي الدين تشاغبا أمامي حول هذه النصيحة الأمريكية، وقطع الحوار ليلتها عبد الناصر بادعاء أنه لا يوافق).
صاح حافظ كأنه «أرشميدس» وقد وجدها :
ـ بل يرأس الحكومة اللواء محمد نجيب .
ثم دلَّك كل غدد نجيب :
ـ وهو قادر بشعبيته الجارفة في الداخل والخارج على أن يقود البلاد .
كان واثقًا أن نجيب سيتمنَّع، وأنهم سوف يتأبون ويلوكون نفس الكلام عن تعهدهم بألَّا يشاركوا في الحكم، وألَّا يتولوا سلطة، وألَّا يحصلوا على أي منصب، بل وألَّا تتم ترقيتهم عن رتبهم الحالية إلا بالقواعد العادلة العادية في الجيش، ولكن حافظ كان يدرك أنه كلام صلب تقف وراءه نوايا هشة، وأن الإلحاح في تكرار هذه الحجة إنما هو محاولة لإقناع أنفسهم لا إقناعه !
السنهوري تدخَّل وسط ضجيجهم :
ـ هذا هو الحل الوحيد والصائب، وتولي اللواء نجيب الرئاسة يضع السلطتين السيادية والتنفيذية في يد واحدة، وتكون قيادة البلاد أيسر وأسلس، ولا نهدر وقتًا في جدال مع رئيس حكومة خارج الجيش، ونفوز بثقة
الشعب، ونضمن التزام كل السلطات بمبادئ الحكم النزيه الذي سعيتم لإقراره، وطردتم الملك لأجله، وتطهرون الأحزاب بسببه .
خرج عبد الناصر، ولبث قليلًا في غرفته يتحدث مع أحمد أنور مدير البوليس الحربي على التلفون، ثم عاد وأومأ إلى زكريا، ثم سمعوا عبد الناصر يقول لهم إن القوات تحركت، ثم أشار

إلى نجيب بالموافقة
وافق نجيب، وخطب فيهم كأنه يدلي ببيان في الإذاعة فاقدًا السيطرة على حماسه :
- لا يسعني أمام رغبتكم وإرادتكم إلا أن أوافق ملبيًا نداء وطني !
الذين كانوا يرفضون منذ دقائق نهضوا وتهللوا وانبسطوا وتبادلوا التهاني، وبعضهم عانق من يقف أمامه صدفة، وشدوا على أيدي بعضهم
كان السفير الأمريكي قد أرسل برقيته بالفعل إلى الخارجية الأمريكية :
أبديت اعتراضًا شخصيًّا على أن تضم الوزارة السنهوري موقِّع نداء ستوكهولم للسلام، أو الشيوعي البراوي، وقد احترم العسكريون اعتراضي وأبعدوا الاثنين .
*
انفتحت بوابة القصر في تلك الساعة من الليل، يصاحبها زعيق وشخط وزجر من أصحاب القبعات العسكرية التي هبطت من سيارات الجيب واللوري الضخم الذي أيقظ ضجيج موتوره النيام وأقلق راحة اليقظى. أطل فؤاد سراج الدينمن شرفة غرفة النوم المطلة على الجنينة، بروبهالحريري، يرتديه فوق بيجامته البيضاء، ممسكًا بالجريدة التي كان يقرأها في السرير، والسيجار المعلق بين إصبعيه. انقبض قلبه، وضاقت عيناه، عندما رأى تلك الأشباح تدفع البواب والحارس والجنايني وتقتحم الجنينة، وتقفز فوق سلالم التراس، ثم تتوقف متمهلة حتى يدخل ضابطان مهرولان بخطوات منتظمة، يوزعان العساكر على الأركان بإشارات أيديهم. أضواء المصابيح تلقي أشعتها على المنحوتات فوق الأعمدة، وعلى نقوش الحرفين «الفاء» و«السين» باللغة الإنجليزية على البوابة الحديدية والمقابض والنوافذ العالية، ورائحة الشجر الكثيف المعطرة بعشرات من الورود المفتحة تملأ الجو الرائق، تعكره غضبة الضابطين من هذه الفخامة التي استفزت فيهما الحقد والاحترام معًا، فتعجلا الخروج من هذا الامتحان الليلي الثقيل، فأمرا العساكر بالدخول للباب الرئيسي الذي انفتح الآن، ووقف أمامهم فؤاد سراج الدين بنفسه، وقد وقف خلفه ثلاثة من خدم القصر بدوا مبهوتين، فهي المرة الأولى التي تنقلب فيها السياسة على سيدهم، حتى إن البوليس يقتحم القصر وينتهك كبرياء وحرمة الباشا، ثم هي المرة الأولى التي يفتح الباشا الباب بنفسه لأحد، وبالبيجامة وروب النوم، فهذا جلل خطر. وقفوا محميين بظهر سيدهم الثابت، ورغم فظاظة المسلك فإن كلام الضابط كان مهذبًا :
- لو تسمح تتفضل معنا يا معالي الباشا .
- إلى أين؟
- نحن البوليس الحربي .
- عظيم! إلى أين؟
- سجن الأجانب .
لم يجد الباشا أي مبرر لسؤالهم عن الدستور والقانون، ولكن سألهم عن إمكانية ارتداء ملابسه الرسمية، فوافق الضابط، فعاد سؤاله :
- هل أحضر حقيبة ملابس معي؟
رد الضابط الآخر يقطع حيرة زميله :
- يبقى أحسن يا باشا .

صعد فؤاد سراج الدين ليخبر زوجته التي ترجاها ألا تنزل معه، فقد أيقظها من نعاسها قبل هبوطه إليهم هامسًا :
ـ الظاهر إنهم جاءوا لاعتقالي !
لم تستوعب، وحاولت أن تجمع حروفه مرتبة في ذهنها المشوش بالنوم وباليقظة على الصدمة :
ـ من؟
ـ الجيش .
انتظرته على عتبة غرفة النوم، ثم شهقت عندما رأت جنودًا يظهرون خلفه وهو في طريقه إليها. أحس فزعها الذي لم يستغربه، لكن تحديقها فوق كتفيه هو الذي جعله يلتفت، فوجد عددًا من العساكر في ردهة طابق القصر الأول. نظر إليهم شزرًا وإنذارًا، فثبتوا مكانهم حائرين بين جلال الباشا وأوامر الضباط، بين فخامة المكان المرهبة وعواقب مخالفة الأوامر المرعبة. اكتفى الباشا بتراجعهم خطوات عنه ورؤوسهم التي تدلت مرتبكة، وربت على كتف زوجته وضمها إلى صدره وهو يعود بها إلى غرفة النوم
ركب الباشا في الكنبة الخلفية للسيارة الجيب، وانحشر بجواره الضابط الأكثر نحافة، بينما صنعت السيارات الأخرى واللوري ثم لوري آخر ظهر منتظرًا على مدخل الشارع، موكبًا يقود الباشا إلى سجن الأجانب. ابتعد الباشا عن قصره وهو يشعر بتلك المرارة التي تعصر معدته تتقلص بين القلويات والحمضيات. ماذا يريد هؤلاء الضباط بالضبط؟ لم تكن المرة الأولى التي ينال فيها غضب سلطة وتقلبها ضده، فعلها نجيب الهلالي واحتجزه في بيته في العزبة شهورًا، لكن هذه المرة مختلفة، ويشعر أنه لو خرج منها فلن تكون الأخيرة. هؤلاء الضباط مرتبكون للغاية، ويمكن أن يفعلوا أي شيء وكل شيء! لكن اعتقاله يعني أن ارتباكهم قد انتهى، والقراراتخذ واضحًا. إنهم يخلون البلد من الوفد كي يحكموا هم والإخوان بمباركة الأمريكان وعدم ممانعة الإنجليز، لا شيء آخر! كانوا يضحكون معه ويقهقهون، ويشكو له عبد الناصر سوء ما لقوا وضغوط ما يعانون، ويبحث معه تشكيل اللجنة العليا للوفد الذي ينوون تسليم الحكم بعد الانتخابات إليه، وعدَّاك العيب يا باشا كما قال هذا الضابط غريب الأطوار، ثم ينشر رجالهم في الصحافة أخابيل عن اللقاء، وينسبون لي كلامًا يجرحهم ويهينهم، ثم تتوزع البلد وتتنازعها الشائعات عن خلافاتهم مع علي ماهر الذي يريد حكمًا بلا برلمان، بينما هم يحلفون بالله أن الانتخابات ستُجرى، وأنهم ليسوا طامحين لحكم ولا أصحاب كراسي، ثم يرسلون كتيبة ليعتقلوني! لا أحد يقول لي إنهم شباب وهذا ما يمليه شبابهم المتحمس الغرير! فأنا أكبرهم بسبع سنوات أو أقل، وأصغر من نجيبهم، ودخلت البرلمان والحكومة أصغر منهم جميعًا سنًّا، ولم يكن حماسي حماس طالب، ولا وطنيتي هي رمي الآخرين في وطنيتهم! هذا ليس شبابهم بل زيهم، لا ليس زيهم، بل هذه إخوانيتهم، لا أحد مثل الإخوان يمكن أن يخفي ويبطن ويكذب ويخون. يريدون أن يلصقوا بماهر وسليمان حافظ المسؤولية عن الشر والاستبداد الذي لاح ثم وصل حتى باب بيته. لا، مستحيل أن يكون ماهر وحافظ سذجًا يغامرون باتخاذ قرارات بعيدة عن هوى الجيش، هم ليسوا غرًّا في الحياة ولا السياسة حتى يلاعبوا التمساح في بحيرته، لا شيء مما يفعلونه إلا برضا الضباط أو طلبًا لرضاهم. قالها النحاس باشا، وقد ضاق صدره حين حاولت أن أقنعه أنهم ضباط طيبون يجيء منهم، وأنهم وعدوه بالديمقراطية والانتخابات، وقد أشاح بيده مستخفًّا ومتعاليًا جدًّا على ما أقول :

ـ الجيش هو الذي يحكم من خلال بعض المدنيين الهلافيت الذين ارتضوا أن يكونوا العصا التي يضرب بها الشعب! بلا ماهر بلا حافظ بلا كلام فارغ تطمئن به نفسك !
أحس فؤاد سراج الدين صواب قلب النحاس الصافي. لقد أنزل نفسه في قصر السياسة إلى البدروم، حيث حلبة اللعب الآن القواعد فيها أنها بلا قواعد. خفق قلبه مرتجفًا: هل عملوها وجنوا واعتقلوا النحاس باشا... زعيم الأمة؟
بحث خالد محيي الدين بعينيه متوجسًا عن اسم مصطفى النحاس فلم يجده، فتنهد مرتاحًا، لكنه ارتج حين قال صلاح سالم :
ـ أين اسم مصطفى النحاس؟
لم يُرد عبد الناصر أن يقررها وحده، بل رماها في حجرهم كي يجد ما يدافع به عن نفسه. زكريا محيي الدين هو من أعد قائمة الأسماء، ولم يحذف منها عبد الناصر اسمًا وأضاف إليها قليلًا، ثم دخل إلى غرفة المؤتمر حيث جلس في انتظار قدومهم. دخل عليه إسماعيل فريد ينبئه أن اللواء نجيب ينهي لقاء مع محرر مجلة «التايم» وقادم فورًا، ثم انزلق من بين يدي فريد، حسن التهامي، الذي أغلق الباب في ظهر فريد، واتجه نحو عبد الناصر في حركة بطيئة وانحناءة غريبة وهمس مسرحي :
ـ شبيك لبيك، التهامي بين يديك .
اعتاد عبد الناصر خطل وهبل التهامي المعجونين بالخبث الريفي المتأصل، فلم يكن يستغرب جمله الغريبة ولا تهويماته المريبة، لكنه استعجله الآن في العودة من نوبات جنونه وقول ما يريد قوله بدون حركاته إياها لأن زملاءه على وشك الحضور، فقال التهامي مسرعًا إيقاعه :
ـ حاجتين، الأولى إني نجحت أجعلهم أربعة .
ـ من الأربعة؟ ولماذا ليسوا ثلاثة أو خمسة؟
ـ هل ستتكلم وتضيع وقتك ولا تتركني أكمل؟
ـ اتفضل خلصني !
ـ زودت العدد من اثنين إلى أربعة ضباط من المخابرات الأمريكية، سيقومون بعمل تدريبات ودورات لنا في المخابرات الحربية، ولو عايز أضم ضباطًا من البوليس فلا مانع .
ـ لا، كفاية الحربية، سأقول لك أسماءهم بعد المؤتمر
ـ الحاجة الثانية
ثم أخرج من جيب الجاكت مجموعة من الأوراق المطوية المكتوبة بخط اليد المنمنم، وقدمها لعبد الناصر الذي فردها ثم أعادها إليه :
ـ هاتهالي البيت بعد المؤتمر .
أشار له التهامي بسبابته :
ـ لن تطيق صبرًا على قراءتها !
ـ هل فيها شيء خطير؟
ـ كل شيء خطير !
ـ أنت لوحدك يا تهامي في هذه المسألة؟
ـ طبعًا، وهل تأتمن غيري؟
ـ الحقيقة لأ .

ـ لكن عايز تركز في مكالمة البغدادي وكمال الدين حسين، لما تسمعها أحسن مما تقرأها
دخل عبد الحكيم فخرج التهامي بعد أن حياه بكبرياء بونابرتي أضحك عبد الحكيم :
ـ اسمع يا جمال، هذا الولد مجنون فلا تعتمد عليه في شيء !
رد عبد الناصر ضاحكًا :
ـ لكن المجنون ينفع في المهمات المجنونة !
توافدوا جميعًا وجلسوا، بينما دخل نجيب فقام بعضهم تحية وتوقيرًا، بينما تكاسل الأخوان سالم عن الوقوف، وضغط صلاح كتف حسن إبراهيم فأجلسه قبل أن يتمكن من الوقوف. فطن نجيب لما يحصل، لكنه تجاهله وجلس وهو يطلب منهم ألا يتعبوا أنفسهم بالوقوف عند دخوله. وضع زكريا القائمة أمامهم :
ـ هذه قائمة الاعتقالات .
جزع يوسف صديق :
ـ اعتقالات؟! من؟ ولماذا؟
رد زكريا ببرود هادئ :
ـ اعتقالات لمجموعة من السياسيين .
ـ منذ متى نعتقل السياسيين؟ !
سأل يوسف صديق، وأجاب جمال سالم :
ـ من الآن !
أضاف صلاح سالم :
ـ هناك قانون تنظيم الأحزاب، ولن يحترمه أحد وينفذه إلا عندما يجدون السياسيين الفاسدين في السجن !
ـ ومن هم السياسيون الفاسدون؟
قالها خالد محيي الدين، وعلَّق يوسف صديق مقاطعًا :
ـ ومن الذي يحدد أصلًا أنهم فاسدون؟
أجابه السادات :
ـ الشعب .
ثم رماها صلاح سالم في وجوههم :
ـ الشعب المضحوك عليه والمغطاة عيونه كالثور في الساقية كل السنين التي عدت! نحن الذين نحدد أنهم فاسدون !
ـ ونحنممثلو الشعب وحماته .
قالها السادات، بينما بدأ البغدادي يسأل عن الأسماء حين تفحص خالد محيي الدين القائمة فوجدها تخلو من النحاس، ثم صك أذنيه سؤال صلاح سالم عن زعيم الأمة، فمال برأسه على صلاح وقد كان بجواره :
ـ صلاح! لا داعي لاسم النحاس، كبيرة قوي وصعبة جدًّا إننا نحبس زعيم الأمة، خليفة سعد زغلول !
تحمس صلاح وقد لمعت عيناه :
ـ خلاص، أوافقك على حذف النحاس، بشرط ...

ـ موافق .
ـ طيب اعرفه أولًا
ـ من الذي تريد ألا نعتقله؟
ـ حيدر باشا .
لم يكن أحد قد فكر أصلًا في أن يسجنه، ومن يسجن من يدين له بما فعله، ثم لو كان أحد قد طلب لرفض عبد الحكيم عامر، لكن خالد محيي الدين رآها فرصة لإنقاذ النحاس على الأقل من لسان صلاح سالم وإلحاحه
وافقوا جميعًا على جميع أسماء القائمة، وتوقف يوسف صديق عن أي لجاجة رغم أنه لم يحصل على أي إجابة !
حين نزل فؤاد سراج الدين من العربة العسكرية على بوابة سجن الأجانب، أدرك أنه ليس المعتقل الوحيد. وحين دلف إلى ردهة العنبر الذي أدخلوه فيه عرف أنهم ستة وسبعون سياسيًّا. تناثرت أسماء، وظهرت وجوه، وجحظت عيون، وصاحت أصوات، وجرجرت أقدام، وانفتحت أبواب، وانغلقت درفات، وتهامست بحات،
وانكسرت نظرات، فاستبشع العدد، واستهول أنهم سجنوا كل هؤلاء، حتى نجيب الهلالي الذي كان عبد الناصر يزوره في قصره منذ عدة ليالٍ! أيشمل التطهير الرجل الذي أعلن التطهير؟! ها هو الذي سجنك وحدد إقامتك يا فؤاد باشا مسجون معك، هناك رئيس حكومة آخر سجين هنا إذن، إنه إبراهيم عبد الهادي، لعل الإخوان يقيمون الأفراح الآن، صحيح ولا سجين إخواني بينهم. سمع تحية تأتيه من مرتضى المراغي من خلف درفة باب، فرد التحية المتحسرة المتأسية المتأسفة بأحسن منها بما يليق بوزير داخلية سجين يحيي وزير الداخلية الذي جاء بعده على مقعد الوزارة، وجاء قبله إلى زنزانة السجن، ثم سأل نفسه: هل يمكن أن يكون مصطفى النحاس المعتقل السابع والسبعين؟

«ها أنتِ يا كابري وكأنكِ قدري !».
ارتخت أصابع فاروق على سور شرفة غرفته المطلة على البحر، كأنما الشرفة في حضن البحر قريبة وحميمة ووشيكة العوم أو الغرق فيه، كأنما البحر يطارده من رأس التين إلى جزيرة كابري. الشارع الضيق المتعرج الملاصق لحافة جبل مشرف على البحر، هادئ بلا زحام. وجوه بقايا السائحين بملابس متحررة من حر صيف يرحل ومبتهجة برائحة اليود تتجول في كسل نشيط. الحركة عادية إلا من بعض المصورين يحملون كاميراتهم، يتقافزون من رصيف الفندق إلى رصيف الشاطئترقبًا لظهور ملك بدين مطاح به يقيم في فندق المدينة. عاد فاروق بجسده ثم بالتفاتة رأسه إلى داخل غرفته، خشي من أن تتعرف عليه العيون المشرئبة ويعثر عليه الفضول المتوثب. عاد راضيًا على أن هناك من لا يزال مصممًا على صلاحية صورته للصحف، وأهمية أخباره لمجلات السياسة والمشاهير. صحيح أنه غير مكترث، فالمولود مشهورًا وغنيًّا وصاحب سمو، فقط لأنه تزحلق من رحم أمه إلى فراش حريري، تتلقفه منامات حريرية وتلفه بطانيات حريرية، سوف يسأم كل هذا الحرير سريعًا. الشهرة مهمة لمن يسعى إليها، لمن صنعها لنفسه بنفسه، لكن الملوك يرونها عادية ويحسون عبئها. عندما يتأمل عائلته، حتى أمه العاهرة الوقورة هربت من تاجها ومن ملوكيتها ومن شهرتها فشهرت به. هو لا يسعى إلى الشهرة لكنها جاءته، وهو لا يريدها لكنه يفتقدها إن ملته وانصرفت عنه، لعلها آخر ما تبقى له من الملك؛ الشهرة وهذا اللمعان الذي يبرق في عيون الناس حين يسمعون أن ملكًا ولو سابقًا يجلس في المائدة المجاورة لهم في المطعم .
ولج إلى غرفته، وجلس قليلًا على أريكة أمام السرير. أسوأ ما في الإقامة في هذا الفندق منذ جاء هو إجباره على رؤية ومحادثة ناريمان كل يوم! في مصر كانت القصور الفارهة والأجنحة البعيدة والحاشية الحاشدة تفصل عنه هذا الالتصاق الثقيل! لا يطيق وجه ناريمان المكدود. الملكة الأم لا تجيد دور الملكة التي فقد زوجها عرشه ليرثه بالحياة وليدها الرضيع، مثقلة بالغم. ماذا لو عرفت أن ابنها لن يبقى ملكًا أبدًا؟ سيتحين هؤلاء الضباط الفرص حتى يرموه عن عرش أجداده! ليس كما تتخيل باكية وهي تسحب الأكسجين من الهواء فتقول متخوفة إنهم سوف يضعون الأمير محمد عبد المنعم ملكًا ويخلعون ابنها كما خلعوا زوجها. الأمير عبد المنعم أضعف من أن يطمح، وأضأل من أن يفكروا فيه، بل إن ما يفعلونه في مصر يشي بأنهم يرمون لما هو أبعد. إنهم يعيثون في قصوري، آه ليست قصوري وليس لي فيها حبة خردل أيها اللمامة، بل هي قصور بلدكم !
هجَّ من الغرفة إلى الردهة الواسعة الممتدة تضم ملكه الضائع، مجرد طابق في فندق إيطالي على بحر كابري، التي تفرش شاطئها رمال قصور الملك المتهدمة التي تصاغرت إلى عدة غرف في طابق واحد تضم سبعة وعشرين فردًا هم حاشية ملك حالي لا يملك إلا صراخه المسرسع، وهو يبول على نفسه في لفافات إنجليزية، وملك مطرود يبول حظه على رأسه وهو يرعى ما تبقى له من مجد بين أربع غرف فقط هي ما تبقت من قصور الملك المفدى ملك مصر والسودان وإنجلترا إن أمكن، كما كانوا يهتفون بها في المظاهرات .

لم يدخل غرفة السكرتارية إلا مرة أو اثنتين لاستقبال بعض الزائرين المترددين بين أن يتعاطفوا معه أو يعطفوا عليه، فيصادفون هذا الهدوء الرزين الساكن في المنطقة بين عينيه وذقنه، فيتحيرون أهو السلام أم الاستسلام؟ أهي الصدمة أم الحكمة؟ أهو زاهد أم شارد؟ أتلك مرحلة أم هي النهاية؟ لا يتكلم إلا كلمات وقورة موزونة ملكية الطابع بطيئة الإيقاع متفلسفة السطح. إنهم لن يصدقوه مهما قال

هناك غرفته الفسيحة، جناح يبذل مالكو الفندق جهدًا هائلًا ليليق بوصفه الجناح الملكي، لكنه يبدو على ما فيه من جهد كأنه غرفة شماشرجي في قصر عابدين! ثم هذه غرفة ناريمان، ليظل وجودها بعيدًا عنه رغم إلحاحها الصموت الدامع بأن تبقى معه في غرفته كأنهما عروسان في شهر العسل أو عجوزان في إجازة ما بعد التقاعد. الملك الرضيع بمربيته في غرفة، بينما بناته الثلاث في غرفة واحدة، وهو أكثر ما ينقر قلبه، كأن غرابًا ينعق وينقر في لحم قلبه عندما يرى البنات الثلاث في غرفتهن الوحيدة، بعدما كن يرتعن بشقاوة الطفولة ونزقها وبراءتها في أجنحة القصور وحدائقها، وتلاعبهن ألف يد لنساء الحاشية وخدمها ومربياتها، يركبن الخيل التي تعلَّمن ركوبها على يد «لافارج» أمهر فارس في فرنسا، وتملك كل منهن عربة تجرها الجياد في ممرات القصور وحدائقها (حدائقنا) التي تقفز فيها الغزلان وتصدح فيها الطيور المحلقة، ويركض وراء عربة كل أميرة منهن كلبها الخاص (لم أحضر كلبي معي !). منذ بكائهن الجزع في رأس التين، عند قعقعة الرصاص وانفجار الأسمنت في الحوائط، لم يبكين لأنهن يجهلن ما جرى . هي مجرد إجازة ألطف ورحلة أطرف، لكن الإجازة مضت والصيف لم يعد صيفًا! اقترب الملك الأب منهن، وتشاغل بهن أكثر، لكن شيئًا يفصله عن هذا الحنان الوارف ببناته، عند نقطة معينة يفقد اهتمامه بل وحنانه. هل الحنان ضعف؟ يجوز، هو عمومًا يخشاه إن حن أو تلقى حنانًا، لم يعتد عليه، كل شيء في حياته كان محجوبًا بحجاب ملكي، طفولته لم يعشها مع أمه المبتعدة بأوامر أبيه، بل عاشها مع المربيات، طوال صباه رأى النساء أكثر من الرجال، ربما لهذا السبب لم تكن النساء شواغله ولا متعته الحقيقية، بتن على الهامش طوال الوقت، حتى قضت صافيناز التي سميتها «فريدة» على ذلك الماء النادر في قاع البئر الفارغ، فخانته وهجرته وأظهرته كأنه المتبلد بينما هي الباردة، الخشن بينما هي الغليظة. ثم جاءت أمه وقضت على قطرات الماء الملتصقة بحجر قاع البئر الجاف. ليست أمًّا تلك التي يضبطها ابنها خليعة متهتكة تتقلب على فراش رجل يخونه مرتين : مرة حين ينام مع أمه، ومرة حين يلعب دور الأستاذ المربي والرائد الأمين في القصر نفسه الذي يتسلل في ردهاته ليقابل أمه النهمة الشرهة! لولا أن قتلت حادثة السيارة أحمد حسنين يا نازلي، لكنت قتلته بيدي العاريتين! ضحك فاروق من نفسه، يمكن أن يكذب على الناس عندما يردد هذه الجملة غضوبًا لعَّانًا حين تأتي سيرة حسنين وعاهرته، لكن الحقيقة أنه ظل سنين مستمرئًا الخيانة، لا هو لام أمه، ولا ردع رئيس ديوانه، وكان كلٌّ منهما يمسك بقرن من قرنيه! بناته الأميرات الجميلات الصغيرات حفيدات عاهرة وبنات خائنة! ما أتعس هذا الدم الأزرق الذي يجري في عروقهن ! لم يعانقهن كثيرًا، لكنه هنا في كابري تخلى عن الملك للأب أكثر، وحضنهن أحضانًا تساوي كل سنواتهن الماضية، عانقهن وهو ملك مسكين أكثر مما حضنهن وهو ملك مكين !

قرر أن يسافرن فور بداية العام الدراسي إلى سويسرا، كلف محاميه الإيطالي بإنهاء كل الإجراءات بعيدًا عن تدخل السفارة أو السكرتارية المنتدبة من الحكومة للملكين الأب والابن، فإنهم

جواسيس لنجيب، وربما للأمريكان والصهاينة! لعل أحدًا لم يفرح بتنازلي عن العرش أكثر من الصهاينة، فإنهم لم ينسوا أنني من حاربتهم في فلسطين، وأنني من أعلنتهم عدوًّا ولم أستكن ولم أصالح! نعم انهزمت، لكن جيشي هو من انهزم ولست أنا، وهو الجيش نفسه الذي انقلب على مُلكي، وبدلًا من أن ينتقموا من إسرائيل قرروا أن ينتقموا ممن دفعهم لمحاربة إسرائيل! هل «كافري» الذي سمعت أنه يُسمي نجيب وضباطه «أولادي»، سيهديهم إلى الصلح مع الصهاينة مقابل جلاء الإنجليز؟ لا، غالبًا سيبدأون بالسودان، لكن ليذهب الجميع إلى الجحيم، ولتذهب بناتي إلى سويسرا في مدارس داخلية للتعلم، لن يبقوا في غرفة في فندق، ولن يعيشوا مع ناريمان طفلة تربي أطفالًا، ولن أتفرغ أنا لتربية أميرات فالملوك ليسوا آباء. المهم أن أختار قصرًا أو فيلًا هنا في كابري حيث أكمل مشوار عمري، فالملك انتهى، والملكية في غسق الغروب، ولن يبقى التاج في مصر. فمن يقرأ ما ينشره هذا المصطفى أمين في جرائده (يأتيني بها زوار وتصلني من السفارة، كأنهم يحاولون إغاظتي ويسمعني إياها أصدقاء) عن فضائح الملك فاروق (فضائحي) وسهراته ونزواته النزقة المستهترة، وتلك الأكاذيب المنتفخة المجللة بالتزوير، يدرك أنها باتفاق مع هؤلاء الضباط، تمامًا كما كان ما ينشره ضد الوفد ومصطفى النحاس وزوجته زينب الوكيل باتفاق ورعاية من قصري (طبعًا لم أتدخل شخصيًّا، فهذه مهام الصغار من رجال القصر والديوان الملكي)! يدرك أن أمينلم يخط حرفًا ولم ينشر كلمة إلا مأمورًا ومأذونًا! من يقرأ هذه الحلقات التي أعترف أنها مسلية للغاية، وكنت أتمنى أن أكون بطلها فعلًا، يفهم فورًا أنهم يهينون الملكية ويشوهونها أمام الناس حتى يسقطوها قريبًا! التاج يمرمغ في الوحل، حتى إذا وضعه أحد فوق رأسه رأى فيه المصريون طينًا لا ألماظًا، وحلًا لا بريقًا !

هذا الملك الذي ينشر عنه مصطفى، والجرائد التي جرت وراءه ونافسته، لا يستحق أن يبكيه أحد، لا هو ولا الملكية أصلًا! لست حاقدًا على هذا الصحفي، فهو معذور، يحاول أن يرضي الضباط من جهة، والأمريكان من جهة أخرى، بل لعلها نصيحة السفارة ومستشاريها للضباط: أن لوثوا سمعة الملكية حتى تفرشوا الأرض سجادًا للجمهورية! ثم كل المشكلات الراهنة والقادمة هي بسبب هذا الملك المترف المسرف المنحرف الفاسد! لا

توجد أموال في الدولة لأن هذا الحرامي سرقها! جريدة تقول إنها ثلاثون مليون جنيه، وبعض الصحف تشط وتحط عند رقم ثلاثمائة مليون جنيه إسترليني! كأني أمشي بثروة تعادل الرصيد القومي لدولة أوروبية في جيبي يا أولاد الرعاع! طبعًا حتى تستولوا بعد شهرين ثلاثة على أراضي الملك وأطيانه وأمواله، وتزعمون بعد سنتين ثلاثة أن الملك المطرود هو سبب عجزكم وفشلكم عن سداد احتياجات الناس! إنه صديقكم «جوبلز» الذي تحبونه وكنتم تناصرونه في الحرب العالمية (مثلي تمامًا، ألا تتذكرون أننا معًا كنا ألمان الهوى يا ضباطي وجيشي؟!)، الذي علمكم تكرار الكذبة مائة مرة حتى تصبح عند القائل والسامع حقيقة! أأنا نمت مع كل هؤلاء الفتيات الصغيرات والراقصات والممثلات؟! يا ليتني كنت فعلت! ما هذه القوة الشمشونية التي يصفني بها هذا الجورنالجي وخدم الضباط؟! لو أعظم طبيب في العالم فلا يمكن أن يعطيني حقنة أتمكن بها من غزو مهابل كل هؤلاء النساء! ثم أنا من أطاردهن وألاحقهن؟! فعلًا أنتم لم تكونوا ملوكًا قَطُّ، فماذا تعرفون عن هوى النساء بالملوك؟! المرأة تهوى تاج الملك لا عضوه، والملك يبحث عن المرأة التي تريده عضوًا لا تاجًا! يبدو أن هذه القصص التي ينشرونها تروي ظمأ حرمانهم الجنسي! لماذا ينشغلون بالجنس إلى هذا الحد المحموم؟! هل لأن الإخوان المسلمين

يقودون الضباط من أذرعهم إلى طريق يبدو مسدودًا؟ هل يحاولون إرضاء الإخوان الذين بقوا وحيدين وراءهم (لا، الإخوان أمامهم أو هكذا يظن الإخوان أو هكذا يهيأ للرائي!) بعدما أصدروا قانونهم بتنظيم الأحزاب واستثنوا الإخوان، كأنما يتركون لهم البلد سداحًا مداحًا؟ ألا يفهم نجيب أن هذه جماعة مستأجرة؟ من يدفع إيجار الإخوان اليوم يا سيادة اللواء قد لا يقدر على سداد إيجارهم غدًا! سأرى قريبًا عندما تتصارع الثعالب على دجاجك يا مصر، يا مملكتي الضائعة
ها هم رموا علي ماهر تحت عجلات القطار، واستغنوا عنه، لما فرغوا من حاجتهم إليه! صفعوا كبرياءه المغرورة وقد تصور أنه سيطوي الضباط تحت جناحه، فكسروا هذا الجناح ونتفوا ريشه! ويتجمعون الآن لينهشوك يا نحاس بعد أن اعتقلوا فؤادك وسراجك! إنهم يدوسون بدباباتهم رجال الأحزاب، ولن يبقى معهم إلا الشيوعيون الذين يحقدون على القصور، كأنها قصوري وليست قصور البلد! كأنني أخذتها معي إلى كابري، بينما أبحث عن فيلًا تلمني أنا وعائلتي! لقد جمعوا عشرين لوحة عارية من غرف قصر القبة! لماذا اللوحات العارية يا لواء نجيب؟! لماذا اختار رجالك اللوحات العارية فقط؟! هل تعرف أن العُري هنا فن وليس فضيحة؟ هل اللوحات العارية المرسومة بريشات أعظم فناني الأرض المعلقة على جدران وحوائط القصر هي سبب احتلال الإنجليز لمصر وهزيمتكم في فلسطين؟ إنكم تعرضونها كأنها علامات فسق ومجون، فتهيجون الدهماء، وتشترون ود الإخوان الذين يستعدون للانقضاض على كراسيكم يا سذج، وسيسارعون بإغلاق كل المسارح وصالات الرقص، أليست هذه مطالب هضيبي الإخوان لكم؟ أتعتقدون أنني أجهل ما يحدث في بلدي؟ خذوا بالكم، السفارة الأمريكية كما هي في القاهرة فهي في روما، والقنصليات الدبلوماسية تملأ نابولي، وضباط المخابرات الذين يظهرون على موائدكم وفي حفلاتكم يزورني زملاؤهم في مطاعم كابري ومحلات نابولي القريبة. الإخوان الذين يروجون لعناصرهم وللناس ولكم أن الملاهي أكثر شرًّا من احتلال البلاد بواسطة قوات أجنبية، بذمة أبيكم أليست هذه هي كلمات حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين؟ لماذا فزعتم حين شاهدتم صور عذارى النيل التي صممها فنان أبي الإيطالي المفضل «فيروتشي» في قاعة الموسيقى بقصر رأس التين؟ لا أحد منهم دخل قصري (ربما نجيب حضر مرة أو أكثر بحكم رتبته، لكنني لا أتذكر أنني رأيته طبعًا ولن أتذكر). هل سألتم أصدقاءكم في السفارة الأمريكية، الذين صحبهم عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادتكم الميمون لزيارات للقصور، عن رأيهم في هذه اللوحات التي يخدش حياءكم عُريها؟ هل هم من نصحوكم بتصوير مجموعتي المتكاملة من الكوتشينة، ومنها ما هو نادر ويرجع إلى العصر الأول لهذه اللعبة، وفيها أوراق اللعب التي استخدمها ملوك فرنسا وأباطرة الصين، وأول أوراق تستخدم في أول كازينو في مونت كارلو؟ سكتم عن كل هذا، وقدمتم فقط ورقة تحمل صورة امرأة عارية (ما كل هذا العُري الذي يروق لكم الحديث عنه؟!) وذلك العنوان الذي برق على صفحات صحفكم: «عجلة الروليت الحديثة في غرفة فاروق للقمار»! نعم يا رمم، أنا ملك يلعب القمار (دخلي السنوي يتجاوز المائة ألف جنيه إسترليني. لعلكم تتذكرون أنني ملك!)، ليكن ما يكون، لست ملاكًا ولا قديسًا، أنا ملك ملء جسدي شباب، وحشو عقلي نزق، أنا حر، لعبت قمارًا وسألعب (ناريمان تخرج معي للعشاء في ملاهي كابري العتيقة تتخيل أنني نسيت اللعب، لكنني كنت أتخير الأفضل وأتحين الأهدأ، فأتركها بعد العشاء ترجع بدموعها التي تستدعيها بهزة رمش، وأتوجه إلى صالة اللعب، فيقف البعض مهللين والبعض متطفلين والبعض فارغين والبعض طامعينٍ في ملك يخسر، فإذا بي أكسبهم لأعلمهم أن ملك الكوتشينة صديق قديم

لملك مصر). لم ألعب قَطّ في أي قصر من القصور، ولا يوجد ما يُسمى «غرفة القمار» بقصر القبة، ولا فيها جهاز اخترعه فاروق لمشاهدة الصور الفاضحة وهو في فراشه (لو أردت صورًا فاضحة لأحضرت الفاضحات حتى غرفتي فأراها حية ومتحركة ومتجسدة، لا صورًا ثابتة وورقًا مطبوعًا، بل كنت أنا المصور يا جوعى ما بين الفخذين!)، إنها آلة سينمائية ألمانية يستخدمها هواة التصوير لعمل المونتاج، فنحن من العائلات التي تهوى التصوير السينمائي لتسجيل المناسبات الكبرى! إنها كنوز، احتفظوا بها وضعوها في متحف كما تفعل الأمم الأخرى (كنت أنوي أن أفعلها والله لذكرى أبي)، وليكن المتحف باسم «نجيب»، المهم ألا تتركوها لدعايات الإخوان وأحقاد الشيوعيين ولصوص سوف يظهرون حتمًا بينكم. لقد حطمتم تمثالًا نصفيًّا بالحجم الطبيعي لأبي في محطة السكة الحديد تخليدًا لذكراه ودورهفي تحديث أنظمة السكة الحديدية في مصر، بل نزعتم شواربه البارزة المنحوتة بعدما كسرتم رأسه وحفرتم عينيه، ثم بصقتم عليه ودستم فوقه بأحذيتكم يا حفاة! إن النازيين لم يفعلوا في تماثيل الحلفاء كما فعلتم! والحلفاء لم يحطموا تمثالًا للنازيين يا أوباش! لكنكم أوباشي أنا، فأنتم رعاياي، فلا ألومن إلا نفسي، فأنا ملك الغوغاء والدهماء والحفاة ومحطمي التماثيل! لم أغادركم إلا منذ شهور، فظهر المستخبي، وبان شر المداري، وانكشفتُ حين اكتشفتكم !

*

لم تطق فايزة نفسها وصاحت :

ـ بلا أميرة بلا زفت !

كانت فوزية بقاعها العميق الذي لا يصعد للسقف أبدًا تطالب فايزة أن تهدأ، فصوتها عالٍ ونبرتها الرداحة لا تليق بأميرة، فانفعلت فايزة وصاحت :

ـ بلا أميرة بلا زفت! أنا قاعدة أقولك يا فوزية ...

توقفت وهلة ثم أكملت بلهجة متهكمة :

ـ يا أميرة فوزية ...

تركت فراغًا من الصمت كي تستوعب فوزية أنها تسخر من إمارتها المهذبة، ثم أضافت :

ـ إنهم سيحطمون الأسرة المالكة، وإننا لن نجد ما نعيش به، وأنتِ تطلبين مني أن أخفض صوتي وأتكلم كأميرة !

قامت من جلستها في الشرفة الفسيحة المطلة على كورنيش الإسكندرية، وأطفأت سيجارتها ودست عقبها في المنفضة تهرسه، كأنها تفرج عن غيظها فيه، ثم رجعت إلى غرفة ذلك القصر السكندري المتأنق، فلما رأت لوحة على الحائط تأوهت وعادت بجسدها متلهفة إلى فوزية التي لم تبرح كرسيها :

ـ أهذه لوحة لـ«مودلياني»؟

أومأت فوزية بابتسامة شجية تحمل فخرًا ما على شفتيها :

ـ نعم .

انفجرت فايزة صارخة، ورجت فوزية مخضوضة :

ـ سوف يأخذونها منك، ليس القصر وحده، بل اللوحة نفسها، بل كل اللوحات !

جلست على الكرسي :

ـ هل تظنين أن هؤلاء الضباط يعرفون الفرق بين «موديلياني» و«سيزان»؟ عرفتِ ماذا فعلوا في لوحات فاروق؟
ثم أشعلت سيجارة أخرى بأصابع مرتعشة وهي تتهكم على نفسها، تجلس على أقرب مقعد في الغرفة قبالة فوزية التي لم تتحرك من أريكتها في البلكونة تعطيها ظهر كتفها، وتتوزع نظراتها بالعدل بين أشجار حديقتها الصغيرة وموج البحر اللافح بزفارة هواء الكورنيش :
ـ ما هي هذه اللوحات التي أبكي عليها الآن وأنا خائفة على أرواحنا وعلى أنفسنا؟! إنهم ينوون قتلنا يا فوزية! على الأقل لو لم نهرب فسوف يطردوننا !
كانت فايزة تخفي عن نفسها وليس عن شقيقاتها أنها باعت أرضها في المرج، ألف فدان بمائة ألف جنيه، قبيل صدور قانون تحديد الملكية. كانت تعلم من مستشار السفارة الأمريكية، فأسرعت واستعجلت الخلاص من ألف فدان مرة واحدة. هي ما زالت قلقة مما سيفعله المشتري بعدما صدر القانون الذي كان يجهل أنه ينزع عنه أرضًا اشتراها منذ يومين. كلما هدأ قلقها يقلقها أكثر توجس زوجها من طرقة الباب أو رنة جرس التلفون، فكان يقضي يومه في السفارة التركية ويعود مع هبوط الفجر ليصحو فيلجأ إليها كرة أخرى، خصوصًا لما عرف أنها تنازلت عن مائة فدان كي تنجي أرضها من القانون، ولما امتعض رؤوف فاجأته بأنها تنازلت عن قصرها نفسه لرؤوف شخصيًّا. أنت زوجي وأولى. ابتسم فاهمًا أنها لم تتنازل له لأنه زوجها، بل لأنه تركي الجنسية. تحمي قصرها بجنسية زوجها
نفضت فايزة عن سترتها البيضاء نثار دخان التبغ المحروق، وأحكمت البروش الماسي المثبت بجوار ياقة السترة، ثم سحبت قدميها الصغيرتين الملفوفتين في جوربها الشفاف من حذائها الأسود، وألقت به بطرف أصابع قدميها على الأرض، ووضعت ساقًا على ساق، ثم ندت منها آهة مع سؤالها لفوزية :
ـ فاكرة إني أبالغ؟
قامت، واتجهت إلى الشرفة مندفعة، وشدت فوزية من يدها مع هبوب رياح محملة بنثرات من البرد أرجفت جلديهما، ودخلت بها إلى الغرفة، وأغلقت بابها فأعتمتها. لم تتجه لا فايزة ولا فوزية لزر الكهرباء لتنيرا المصابيح، واكتفيا بهذه الأشعة الناحلة تتسرب من خصاص النوافذ العالية على الأثاث والحوائط. قعدت فايزة فقد أعياها صمت أختها التي جاءتها الإسكندرية كي تنطق وتتحرك فأسكتها سكونها، حتى زوج أختها إسماعيل شيرين وزير حربية اليوم الواحدالدمث المنحوس أبدى استسلامًا، وآثر الابتعاد عن نقاشهما محتجًّا بانشغاله، فتخاشنت معه :
ـ ماذا وراءك يا إسماعيل؟ لا شغلة ولا مشغلة، لا وزارة ولا وظيفة ولا عزبة، هل تجري على المائتي فدان التي بقيت لفوزية من أكثر من أربعة آلاف فدان؟
كانت فايزة تملك أراضي أكثر مما تملكه فوزية (وكانت فايقة وفتحية أكثر منهما أرضًا)، وكان يعرف أنها باعت أرضًا قبل قانون تحديد الملكية، بل ويجزم أنها هرَّبت أموالًا عبر معارف زوجها، لكنه آثر أن يرد عليها بابتسامته الوديعةوصمته المهذب، فأفلتت أعصابها بإرادتها وأضافت :
ـ هل تفتكر إن القضية التي رفعتها لفوزية بالقوامة على أموال نازلي وفتحية سوف تنفعك؟
هنا التفت إلى فوزية وأخبرها واقفًا :
ـ على فكرة، الملكة نازلي أقامت دعوى لرفع الحجر الذيفرضه مجلس البلاط عليها !

تدخَّلت فايزة :
ـ أمك فاكرة يا فوزية إن طرد فاروق سيجعل محمد نجيب يعيد لها أراضيها وقصورها ورصيدها!
واضح أنها لا تقرأ الصحف الأمريكية .
أشارت إلى إسماعيل شيرين :
ـ الأمريكان يهللون في جرائدهم لقانون تحديد الملكية، إنهم حمير يتخيلون أن هذا القانون سوف ينقذ مصر من الشيوعية !
ـ لا تشغلي بالك بالسياسة يا فايزة
كان إسماعيل شيرين من رد عليها أخيرًا، فأجابته ساخطة :
ـ يلعن أبو السياسة! أنا مشغولة بمستقبلنا! كيف سنعيش في هذا البلد؟
همست فوزية :
ـ سنعيش .
علَّق إسماعيل شيرين وهو يغادر الغرفة ويخاطب زوجته :
ـ لا أظن أن مجلس البلاط سيوافق على رفع الحجر عن الملكة نازلي، والمحامي أكد لي أنكِ ستكونين القيّمة على أموالها، خصوصًا بعد شهادة الأمراء بأنكِ أكثر شخصية صالحة لهذه المهمة .
ثم ودع فايزة :
ـ سلميلي على محمد رؤوف يا فايزة .
لما خرجتا إلى الشرفة وصاحت وصرخت فايزة ثم عادت بأختها إلى الغرفة، قررت أن تحكي لها ما سمعته من أفواه مخمورة بالحقيقة، وألسنة تهوى الثرثرة المسائية عن أسرار الصباح في مبنى قيادة الجيش. كانت الكلمات تأتيها بالإنجليزية، والإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية، بل وبالفرنسية تروي ما يجري :
ـ هل تعرفين أن جمال عبد الناصر عيَّن إخوانيًّا حارسًا على أموال فاروق؟
ردت فوزية :
ـ من جمال عبد الناصر؟
تنهدت فايزة تحاول إعادة روحها التي طلعت :
ـ هو القائد الحقيقي للانقلاب، وليس هذا السوداني محمد نجيب .
استغربت فوزية، ثم لم تكترث بوضع علامات استفهام جديدة أمام كلمات أختها، فهي تعرف كم هي نشطة في تلك الأوساط، ونجمة في هذه الحفلات التي تفيض عليها بمعلومات وحكايات تزعجها أكثر مما تهدئ روعها. تركتها فوزية تروي حكايتها بين دوائر الدخان المنفوث من سجائرها التي لا تكمل إحداها، فتطفئها بعد نفسين، ثم تعود وتشعل أخرى تلقى نفس المصير بعد ثوانٍ كفيلة بتطيير دائرة دخان، وتلحقها بثالثة :
ـ اسمه عبد العزيز السيد .
ـ من؟
ـ الإخواني الذي أصبح حارسًا على أموال الملك. ألم تسمعيني؟
أضافت فايزة ربما كي تُسمعها بتركيز أكثر :
ـ نام على سرير الملك. تخيلي !

ـ من؟ عبد الناصر؟
ـ ركزي أرجوكِ يا فوزية ! عبد الناصر تقريبًا لا يترك مكتبه في مبنى القيادة، وإن كنت سمعت أنه يبحث عن بيت جديد .
قالت جملتها الاعتراضية تحمل مع حروفها تحسرًا وأكملت :
ـ الأخ الإخواني هو الذي نام على سرير فاروق! ألم تقرئي هذا العنوان في الجرائد «الحارس على أموال الملك ينام على سرير الملك باستراحة رأس الحكمة»؟
أحست فوزية بالغثيان فأحست بها فايزة :
ـ بالضبط، كما فهمت فتألمت وانزعجت، الذي يريد أن ينام على سرير الملك سيحب أن ينام على أسرَّة الأميرات !
كانت الأميرة فايقة قد وصلت مع زوجها فؤاد صادق، فلما عرف أن إسماعيل شيرين خرج وأن رؤوف لم يصحب فايزة مكث قليلًا، ثم انصرف مستأذنًا تاركًا الأميرات الأخوات الثلاث معًا في تلك الغرفة التي صممت فايقة على إضاءتها. ظهر أحد الخدم بزيه الأبيض، وحزامه الأحمر النظيف والمكوي، وأسنانه البيضاء التي ظهرت حين همَّ بسؤال فايقة عما تشربه، فنهرته فايزة وهي تغلق باب الغرفة في وجهه، وتقذفه بنظراتها تنهره عن لجاجة المحاولة، وهي تبرطم لشقيقتيها :
ـ هؤلاء الخدم جواسيس للضباط، لا تتكلم واحدة منكن أمامهم بكلمة، ولا تأتمنهم على أي حاجة !
ذهبت إلى المائدة المتحركة الموضوعة في ركن الغرفة الفسيحة وفوقها قوارير الخمر والنبيذ، فنزعت غطاء زجاجة شمبانيا وهي تشير لهما، فرفضتا المشاركة، فصبَّت لنفسها شيئًا من الشمبانيا :
ـ هل كلمت واحدة فينا فاروق في كابري؟
جاء الصمت مجيبًا، فنقرت فايزة بخاتمها على حافة الكأس :
ـ بالمناسبة يا فوزية، أرض المعمورة أجرها الحارس على أموال الملك للإخوان المسلمين، أرض الملك صارت معسكرًا صيفيًّا للإخوان !
أطرقت فايقة :
ـ ماذا تريدين أن نفعل يا فايزة؟ !
ـ لا أعرف. كل ما أعرفه الآن هو القرار الوزاري رقم ع خمسة وتسعين شرطة ستة وثلاثين على أربعة بتشكيل لجان جرد محتويات السرايات والقصور الملكية .
اندهشتا من أنها تحفظ رقم ونص القرار، وتأكدتا أن فايزة توشك على الانفجار
سألت فايقة :
ـ ماذا سيفعلون بها؟
وأجابت فايزة :
ـ بل ماذا سيفعلون بنا؟
حط عليهن السكون والسكوت، ثم صبت فايزة كأس الشمبانيا في جوفها وهي تلعن أخاها وأمها، ثم فتحت حقيبتها السوداء الفخيمة الصغيرة مطلية الحواف بالذهب، وأخرجت منها الأوراق التي قدمتها لها ناهد رشاد وهي تحلفها ألا تريها لأحد، وتمتمت فايزة :

ـ أحب أقرأ لكما تقرير شعبة الضباط الأحرار بسلاح الفرسان إلى حضرة القائد العام للقوات المسلحة .
نظرت إليهما وقد وضعت الكأس على المائدة، وتخبط قاعها الدائري على زجاج المائدة ثلاث مرات، كأنها دقات مسرح :
ـ هل عندكما وقت؟
تذكرت أنها تسأل هذا السؤال كثيرًا، ورنت إجابة زوجها عليه في رأسها فضحكت، وهل لدينا الآن إلا الوقت. قفزت فجأة إلى الجرامافون الأمريكي في علبته الخشبية المنقوشة برسوم السلم الموسيقي، ووضعت إبرة الأسطوانة التي أصدرت موسيقى أوبرا إيطالية. وعندما بدأت «السوبرانو» في الغناء بصوتها الجهير العريض، بدأت فايزة تقرأ وهي تعرف أن أختيها ستتجاوزان عن الأخطاء الفادحة التي ستنطق بها الكلمات العربية ...
وضع عبد الناصر قناع الصمت على وجهه، يوزع نظراته بالتساوي على الجميع، في هذا الحضور الكثيف بالحماس المفرط والصياح المتشنج في ميس ضباط الفرسان، محاولًا أن يمتصهما بهدوئه الصموت المنضبط. رغم الشواغل فهو حريص على أن يحضر جلسات الضباط الأسبوعية في ميس الفرسان وأيضًا في المدفعية. سلاحان يزرعان أرضه ألغامًا! لا يتوقف ضباطهما عن الرغي واللغو والتفلسف وحك الرأس ودس الأنف ورفع الصوت وضم القبضة وتلويح الذراع، غضبًا، نقمةً، اعتراضًا، مطالب، شروطًا. صدعته تقارير زكريا محيي الدين، لكنه هنا بينهم يدرك أن التقارير أقل توترًا وأخف ريبة مما يرى! واضح أن خالد محيي الدين في الفرسان ليس قويًّا، أو لعله متواطئ محرض لهم. ما لم يقله في مجلس القيادة يجرؤ على تسخين ضباط الفرسان وجلجلة ألسنتهم به. كما أن عبد المنعم أمين وصلاح سالم فقدا العلاقة مع سلاح المدفعية، بل صارا عبئًا على السلاح وعليه، فضباط المدفعية يراكمان العداء لكليهما بأسرع مما يظن وبأعمق مما يصل. روائح شياط حريق الضغائن تملأ هواء ميس الضباط، لن ينسى جمال منصور ومحسن عبد الخالق أنه أخفى عنهما موعد الحركة، وأنه دفعهما خارج هذه الليلة التاريخية، وأنه مع مرور الأسابيع لم يكلفهما بشيء. جمال منصور، الرجل الذي أطلق على التنظيم اسم «الضباط الأحرار» يرى الضباط الأحرار أحرارًا منه، بعادًا عنه بمجلس قيادة لا يجد فيه من يصل إلى قامته في نضاله ضد الملك وداخل الجيش، لن ينسى جرحه الذي يتحسسه كل صبح لا هو ولا محسن عبد الخالق. لكن عبد الناصر يسمع منهما الآن كلامًا وجيهًا. إنهما في هذا الميس وهذا الاجتماع الأسبوعي المقلق، أكثر ثقافة وأفهم سياسة من المحشور معهم في مجلس القيادة، لكنهما أكثر طموحًا وشغبًا ومناكفة! ها هو بينهم يمنحهم الإحساس بأهميتهم، ويقدم نفسه قريبًا منهم، لم يتكسب شيئًا ولم ينفصل عن زملائه . منذ ظهرت أسماء ووجوه مجلس القيادة في الصحف وفي صحبة نجيب، منذ أشرف كل واحد فيهم على وزارة أو اثنتين أو ثلاث، منذ بدأ أعضاء مجلس القيادة يركبون سيارات الجيب وينطلقون إلى أي مكان في البلد مصحوبين بالأهمية، منذ بدأت الزوجات يتحدثن للزوجات، والرتب الصغيرة تتلاسن حول الرتب الكبيرة، والسائقون وعساكر المراسلة يثرثرون في وحداتهم، والجيش يتذمر وكأننا وقعنا في غواية السلطة، ونرث الملك في مجلس القيادة، ونخلف الوفد في الحكومة! لا، ليس الجيش الذي يتذمر، بل هؤلاء المزعجون في الفرسان والمدفعية !

أنصت إلى ما يقولونه عن الملك المطرود. كانت الكلمات كأنها قنابل صوتية تدوي في هذه القاعة الواسعة التي تضيق صدور أصحابها :
ـ لم ينتهِ خطر الملك السابق بمجرد عزله وطرده خارج البلاد، فوجوده على قيد الحياة خارج الحدود خطر مهدد لأمن الحركة التي قمنا بها، ثم إنه يملك نفوذه التام بالنسبة للطبقة الرجعية الموجودة الآن داخل البلاد !
ثم يكمل آخر مقاطعًا ومضيفًا :
ـ فاروق لا يزال ورقة في يد الإنجليز يمكنهم لعبها على مائدة المغامرات السياسية، وما أسهل إحداث الإشكالات السياسية الدولية بالنسبة إليهم !
يطرح ثالث السؤال للأول :
ـ إذن ماذا نفعل؟
فيرد الأول جاهزًا بإجابته :
ـ الاستمرار والإكثار من نشر فضائحه ومخازي عهده سواء في داخل البلاد أو في الخارج، وتنشر هذه الفضائح مؤيدة بالمستندات الرسمية لأنها بالنسبة للشعب لم تكن في العهد الماضي إلا إشاعات تُروى يصح تصديقها أو تكذيبها، وعلينا الآن أن نؤكدها للشعب على أنها حقائق ثابتة بالمستندات، حتى نغرس في الشعب كراهية عهده وشخصه. أما بالنسبة للخارج فيكون ذلك لحمايتنا .
ثم وقف الثالث الذي سأل السؤال للأول، يصخب بصوته مدمدمًا :
ـ أصبح فاروق شخصًا مهدور الدم، ووجب العمل على اغتياله ليدفع ثمن ما قدمت يداه، ولمنع خطره في المستقبل، وهناك الكثيرون من الفدائيين الذين يتمنون القضاء عليه !
ثم التفتوا جميعًا إلى جمال عبد الناصر الذي رآهم يستحلون الدم ولا يجدون فيه عقبة ولا مشكلة، بل يعرضون الموت فداء لقتل فاروق! أخافه حماسهم، كما أرعدته موافقتهم الجماعية في مجلس القيادة على إعدام خميس والبقري! لم يبدِ عبد الناصر قبولًا ولا رفضًا ولا تجاوبًا ولا نفورًا، لم يقدموا له أكثر مما فكر فيه بل ومضى في تنفيذه، لكن حكاية قتل فاروق هذه لعب بالنار، نزق يخلو من الحذق. اكتفى أمام عيونهم
المتطلعة بإيماءات التأمل والتدبر، لكن جمالمنصور قرر أن يرفع صوته وهو يقدم توصياتهم مكتوبة، تلك التي تسمعها فوزية وفايقة الآن تتعثر حروفها بين شفتي أختهما الحرون فايزة :
النظام الملكي نظام فاسد كنظام حكم للدول المتخلفة، فهو نظام دكتاتوري فاسد مهما تستر وراء حجاب الدستور والبرلمان ومسؤولية الوزارة، هذه كلها ما هي إلا أستار تخفي خلفها نظامه الفاسد. وحركة الجيش لم تقم ضد فاروق لشخصه أو لعهده الأسود فقط، بل قامت أساسًا ضد نظام حكم البلاد، وهو نظام الحكم الملكي الدستوري الفاشل، سواء كان الملك هو فاروق أم غيره. وعلى ذلك كان من الواجب أن يُقضى على الملكية في نفس اللحظة التي عُزل فيها فاروق. فإذا كانت الظروف قد أخَّرت هذه الخطوة، فليكن أساس عملنا من الآن هو العمل على إلغاء النظام الملكي بالتدريج حتى نقضي عليه نهائيًّا. فالنظام الملكي والعائلة المالكة خطر لا مناص من إزالته لتأمين الحركة. ولا توجد لدينا مبررات قوية للإبقاء على الأسرة المالكة التي لا يحوي تاريخها سوى اعتداء على حقوق الشعب واختلاس لأقواته .

حدقت فايزة في وجهي فوزية وفايقة، وهي تلتقط أنفاسها من قراءة مرهقة أثقلت لسانها وقلبها، وأرعشت أصابعها، وأسخنت جلدها. كانت فوزية تضمر في مقعدها، بينما فايقة ترتجف بجسدها كله، فقامت فايزة وحملت زجاجة نبيذ أبيض وضعتها بيدها على المائدة البيضاوية الصغيرة بين مقعدي أختيها، وباليد الأخرى أنزلت من بين أصابعها رأسي كأسين أبقتهما على المائدة، وعادت إلى الورق المكتوب بالآلة الكاتبة المفرود على كرسيها، فأمسكت به وواصلت قراءته وهي تعلم أن القادم أسود :

يجدر بنا أن نعمل بتدريج سريع للقضاء على النظام الملكي والعائلة المالكة بالخطوات الآتية

(أ) تصفية أملاك العائلة خصوصًا بعد تنفيذ قانون تحديد الملكية، ومطالبتهم بمتأخرات الضرائب، ثم نوعز إليهم بالتهديد والوعيد المستتر حتى يرحلوا عن البلاد بالحسنى .

(ب) إلغاء مخصصات العائلة المالكة تمامًا من ميزانية الدولة، فلا معنى لأن تدفع الدولة من مال الشعب مرتبات لأفراد العائلة بدون عمل مقابل يؤدونه للدولة .

(ج) الحد من حريتهم في التنقل داخل حدود الدولة وخارجها، والإكثار من المراقبة وتحديد الإقامة، وأن ترفع عنهم كل مظاهر العظمة والأبهة .

صمتت فايزة وقد بللت الدموع كلماتها، وارتعشت على لسانها كل حروفها. كانت ألواح الثلج التي تحجز الأخوات صاحبات الفاءات الثلاث تتفكك وتذوي بحرارة الخطر. من وراء ضباب دموع لهيبة تغطي عينيها قرأت فايزة الفقرة الختامية :

وقد ظهرت فعلًا في الفترة الأخيرة صحة آرائنا وإمكان تنفيذها، فقد بدأ الأمير محمد علي في الشروع في مغادرة البلاد للإقامة في الخارج، وسيلحق به باقي أفراد الأسرة، لو نشطنا في مضايقتهم للتعجيل بخروجهم جميعًا .

فرت فوزية من الكلمات التي تطاردها نحو الشرفة، حيث انحنت على سورها تنظر إلى البحر، تغرق في موجه وهي على بره، سمعتها فايزة وفايقة تهمس :

ـ على الضفة الأخرى من هذا البحر يعيش فاروق الآن !

صاحت فايزة حانقة :

ـ داهية تأخذه !

كانت قد طوت الأوراق ولم تكمل لهن خطة لجنة الضباط الأحرار التي يطرحونها حلًّا لمعضلة فاروق المطرود. ماذا سيفعلن لو قرأت عليهما تلك السطور إلا الحسرة والدموع :

أصبح فاروق شخصًا مهدور الدم، ووجب العمل على اغتياله ليدفع ثمن ما قدمت يداه، ولمنع خطره في المستقبل، وهناك الكثيرون من الفدائيين الذين يتمنون القضاء عليه .

انغرست أظافر فايزة في بطن كفها، وهي تقبض على الورق وتبرطم :

ـ يستاهل، رمانا في مصيبة هذا المختل !

*

الحرس الألباني المخصوص، مع هؤلاء الضباط المعينين من الحكومة المصرية، وآخرون من ضباط إيطاليين مكلفون من حكومتهم بحماية الملك الرضيع ووالده البدين، تحركوا جميعًا مهرولين مصاحبين الملك فاروق وهو يخرج من الفندق. رغم مرور الأسابيع إلا أن هناك منتظرين من المصورين لم يشبعوا نهمهم بعد لصور الملك، مع أن أجرها قل وطلبها تراجع إلا أنه لا يزال كفيلًا بتوفير بعض لقم العيش لمصورين يعتاشون على لقطات المشاهير، ويبدو أن

منهم أحدًا يعمل لصالح محمد نجيب ورجاله، يحشر نفسه بين المصورين، أو لعل مصطفى أمين قد أرسله ليستخدم هذه الصور في مقالاته الرائجة. كانت ملامح فاروق متجمدة مسحوبًا منها أي أثر للتأثر، بينه وبين نفسه كان يتمنى أن يلكم المصور الذي التقط صورًا له مع بناته وزوجته على شاطئ البحر في هذه الجزيرة، يرتدي بنطلونه القصير وقبعته الأفرنجية ونظارته الغامقة، وبطنه العالية عارية، وفخذاه تملآن الصورة، بينما بناته بملابس البحر يعمن، وزوجته بفستان صيفي ونظارة سوداء أنيقة، وإذا بالعناوين والتعليقات عن الملك العاري على الشاطئ، وعن الأميرات المنحلات العاريات! أتريدون ملكًا يرتدي بدلة سموكنج فوق الماء، وصبايا يرتدين اليشمك وهن يسبحن؟! أي انحراف وانحلال في ملك بالمايوه على رمل شاطئ؟! صار طبيعيًّا أن يسأل الصحفيون عمال الفندق ويرشوهم من أجل الإجابة: ماذا نأكل؟ ماذا نشرب؟ عدد قمصاني؟ لون قميص نوم ناريمان؟ فهذه عناوين صحف الضباط الذين يريدون إعماء الناس عن إعدام عمال كفر الدوار الفقراء! سيسأل المصريون: كيف نعدم عاملين لأنهما طلبا زيادة أجورهم، إن الملك نفسه لم يفعل ذلك؟! وسيردون عليهم بأن الملك سمح لبناته بارتداء المايوهات، ولزوجته بأن ترتدي قميص نوم حريري أحمر !

نزل الملك فاروق من سيارته أمام قصر مطل على البحر، تأمله وتأهب لدخوله والتجول فيه، وقف على وصيد البوابة الحديدية وخطا في الممشى وسط الحديقة الصغيرة، يتفاوض الآن مع مالكيه، هل يشتريه أم يؤجره؟ لا، ليشتره أفضل فهو مستقر لا ممر. سيكون هذا قصري، بل وقصر الملك الرضيع الذي لن يفطم وهو ملك. فالذي يفعله نجيب ورجاله في القصور الملكية حيث تتبختر أحذيتهم العسكرية في غرفها وقاعاتها، يعني أنهم لا ينتظرون ملكًا ليسكنها! ثم بعد أن صادروا أرضي لن تكون لديَّ إلا هذه الحديقة، تسعة وخمسون ألف فدان ملكية فاروقية، لم يبقَ لك بعدها إلا تلك الحديقة في كابري يا فاروق

كأنها تدلك قلبه هذه الشابة (عمرها اثنتان وثلاثون سنة، لكن نجيب أوقفها عند الثانية والعشرين)، ابتسم لها ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة صارت قهقهة. كانت حكمت تقول لمحمد نجيب وقد بذلت مجهودًا في تغليظ أنوثتها كي تبدو جادة ومحايدة :

ـ فعلًا يا سيادة اللواء، أنت لست كبيرًا في السن كما تحاول أن تؤكد، وضباط مجلس القيادة ليسوا في عمر أبنائك، ممكن يكونون إخوتك الأصغر .

أشاح نجيب بيده كأنه يدفع عنه إغراء هائلًا :

ـ لا لا، أنا مثل أبيهم .

صممت حكمت على رأيها وقد ضايقها عناده :

ـ لست عجوزًا ولا يجب أن تصدقهم .

كان وجهها يملأ عينيه، حتى إنه أزاح غليونه جانبًا حتى لا يحجب دخانه عن عينيه وجهها المضيء الرائق: العيون العسليةالمكحلة، والأحمر يطلي شفتين بالبهجة، وأنف مصبوب كأنه منحوت معروض في متحف، أما العنق فنفرتيتية النزعة تحيطها ياقتا فستان محتشم، تحسبًا لأنوثة صاحبته، تنتشر فيه نقوش الورد. صوبت نظراتها على وجهه فخجل من جرأتها المعجبة .

كان منذ ساعات قد وجد نفسه يلتفت إليها عند وقفتها مع زملائها مندوبي الصحف، وألقى عليها التحية مبتسمًا برقة تخيل أنها أبوية :

ـ كيف حالكِ يا أستاذة؟

فورًا وضعها في مكانة متميزة عن زملائها الرجال الفوارين بالحماسة في التحلق حوله والتنافس على طرح الأسئلة على اللواء منقذ مصر. ابتسموا وضحكوا واعتبروا أن عطف اللواء الإنسان على صحفية شابة وحيدة بين زملائها الرجال إنما هو إنصاف للمرأة، وإعلان لعهد جديد بين الدولة والصحافة. ردت حكمت على اللواء برأس ثابت وابتسامة سعيدة وفخر منضبط :

ـ الحمد لله يا قائد مصر !

اتسعت ابتسامته لها، ثم انهمرت عليه الأسئلة المتداخلة التي حجز أصحابها عنه وجهها، فقد بدت تهم بسؤال أو إكمال كلام، لكنه قرر أن يرد على فوضاهم :

ـ النظام هو أحسن شيء في بنيان الأمة، وثقوا أننا نستطيع أن نكون شعبًا مثاليًّا لو كنا نظاميين .

ثم أشار لهم :

ـ انشروا هذا الكلام على لساني نداءً للشعب كله .

ثم واصل وصوته يقوده للحماس :

ـ النظام موجود عندنا منذ قديم الأزل منذ أيام الفراعنة، وتحضنا عليه الكتب السماوية جميعًا، وفي الصلاة نقف في صف واحد، ويقول لنا الإمام في صلاة الجماعة استقيموا، وهذا هو النظام ولا شك .

جاءه صوت حكمت جريئًا بينما ملامحها تتخفى خلف أجسام زملائها :

ـ ماذا تقول للمعترضين على قانون تحديد الملكية يا سيادة اللواء؟

طرب لصوتها فهدأت لهجته ونزل بنبرته من طبقة الجواب إلى طبقة القرار :

ـ أنا أسأل إذا كان لأحدكم بيت مهدم، فهل يبني فوق الهدم، أم ينظف أولًا ثم يضع الأساس ثم يرفع البناء طوبة فوق طوبة؟ إن هذا هو ما نفعله اليوم، وقد تحملنا الفقر عشرات السنين، فلا يضيرنا أن نتحمله سنة أخرى لنبدأ بعد ذلك حياة نظيفة عظيمة. ولقد قمنا بأعمال كثيرة عظيمة، فقررنا مشروع تحديد الملكية وننفذه الآن، وحددنا الإيجارات الزراعية، وخفضنا إيجارات المساكن، وكل هذا من أجلكم، وبهذه الإجراءات وبمنع خروج الأموال إلى الخارج سوف يضطر أصحاب رؤوس الأموال إلى استغلالها داخل البلاد، فتفتح المصانع التي ستحتاج إلى عمال فيرتفع مستوى حياتكم .

سألت حكمت نفسها: هل يمكن أن تتحقق الأمور بتلك البساطة المدرسية التي يتحدث بها اللواء نجيب؟ ووقفت بسؤالها أمام رؤوس زملائها :

ـ ولكن، تردد أنكم يا أفندم اعترضت على قانون تحديد الملكية قبل صدوره؟

تتداخل الأصوات الصاعدة على سلالم مبنى مجلس الوزراء، يبدو أنه وفد عمال يرتدون بذلات الشغل كأنهم يخرجون من استعراض فيلم لفريد الأطرش، ومعهم جموع فلاحين متأنقين بالجلاليب واللاسات والابتسامات الواسعة، لعله استعراض الأوبريت في نهاية الفيلم فعلًا. انكسرت حلقة الصحفيين المحيطين باللواء نجيب، وتفككت أمام اندفاعات أفراد الوفد المهلل، بينما قاد الحرس اللواء نجيب للدخول إلى غرفة مكتبه خشية أن يقتحمه الوفد المنتشي برؤيته وهم يهتفون :

عاش اللواء محمد نجيب

أسند نجيب يده على كتف رئيس حرسه الصاغ محمد رياض، وصاح فيهم :

ـ اهتفوا معي لوادي النيل، ولا تهتفوا لمحمد نجيب، فما أنا إلا واحد منكم، ولا أزيد عليكم في شيء، وكفانا زعامات تُبنى على الهتافات !

ارتفعت الهتافات تملأ أسقف قصر الأميرة شويكار العالية (مبنى مجلس الوزراء)، وحجزت أيدي الحرس تدافع الوفودعن الوصول إلى نجيب، وأدخلوهم إلى قاعة الاستقبال والانتظار، بينما تفرق الصحفيون المعجبون بتواضع نجيب الجم، ولكن حكمت تساءلت: من هي الزعامات التي كانت تُبنى على الهتافات؟ من يقصد اللواء نجيب؟

مكثت ساعتين في مكتب السكرتارية، وسأل ياور نجيب الصاغ إسماعيل فريد :

ـ من هذه الآنسة؟

ـ صحفية تنتظر اللواء نجيب .

ـ مستحيل اليوم! عندنا لقاءات ومقابلات ستأكل النهار كله !

ـ أبلغتُ اللواء نجيب برغبتها في المقابلة، وأمرني أن تبقى لتدخل بعد نهاية اجتماعه .

التفت فريد إلى حكمت، وقال بابتسامة مجاملة تخفي لهجة الأمر الحادة :

ـ عشر دقائق تكفي للحوار يا أستاذة، ولا تنشريه إلا بعد أن نراجعه معكِ !

ثم أضاف :

ـ من أي جورنال؟

ـ «الجمهور المصري ».

أومأ فريد :

ـ الأستاذ أبو الخير نجيب .

لم يخف إعجابه وتعجبه

كان نجيبيشعر براحة أكثر في مكتب رئيس الحكومة، المبنى مدني ليس فيه من الكاكيات والكابات إلا هو وياوره وحرسه، القصر ليس فارهًا يستفزه، ولا صغيرًا يهينه. أبدى رئيس حرسه محمد رياض انزعاجًا من ابتعادهم عن مبنى قيادة الجيش، فهو متوجس دومًا ومستريب حتى من ياوره إسماعيل فريد، فلا يجب أن
يكون هناك ولاء لأحد إلا للقائد العام، فكان نجيب يربت على كتفه حين يبدي تخوفاته :
ـ لا داعي لجو المؤامرات هذا يا رياض! هؤلاء أبنائي وأحرص عليَّ من أنفسهم، ثم إن الأخوان سالم ناس طيبون فعلًا، لا تغرنك عصبيتهم .
حين دخلت حكمت وجلست وأحست طيبة القائد، وترقَّق صوته ونعمت ملامحه وقل دخان غليونه ولمعت عيناه واتسعت ابتسامته، سألت بحذق أنثى وجدت اللحظة المناسبة التي تلقي فيها سؤالها :
ـ هل تصدِّق على إعدام خميس والبقري يا سيادة اللواء؟
أنزلته إلى الأرض الآن فنفخ في الغليون يدفع الدخان ليحجبه عنها. كان اجتماع مجلس القيادة للتصديق على أحكام الإعدام لعمال كفر الدوار دوارًا في رأسه منذ ليلتها، لم يخفت حماسه، ولا هدأ انفعاله، ولا تراجع عن رأيه، ولا تردد في موقفه. لماذا يحسها الآن سميحة ابنته الوحيدة الكبيرة التي ماتت في ريعانها ودفن بيديه ريحانته الحبيبة؟ أتحمل حكمت روح سميحة ما جعله يألفها ويودها، أم أنها نبشت بأصابعها عواطفه التي كان قد قبرها في قلبه منذ فقد سميحة؟
تأهب أن يجيب سؤالها جاهزًا لأن يقول لها الحقيقة ...
كان عبد الناصر واضحا جدًّا في غموضه، لم يرفع صوته، بل لم يتكلم أصلًا، وترك الحبال تلف على أعناق الجميع ولا حاجة لأن يصوِّت لصالح الإعدام ما دام الإجماع واضحًا. حين يجلس في حديقة جريدة «المصري» في المساء، ويسمع الاحتجاجات والاعتراضات وثرثرات رجال السياسة المتنقلة على ألسنة الصحفيين، سيكون سهلًا عليه جدًّا أن يتخلص من مسؤولية إعدام خميس والبقري، فهو لم يصوِّت للقرار، نعم تنفيذ الإعدام يقتضي تصديق القائد العام، والقائد العام ليس عامًّا لهذه الدرجة وليس قائدًا أصلًا، بل هو رجل طيب ووطني مخلص، وإن كان رأسه بدأ يعوج قليلًا، وصوته يعلو أكثر، وطلباته تزيد، وغروره ينتفخ، وخطبه تتكاثر، وقد صدَّق هتافات الجماهير، وتصفيق الحضور، وأحضان العساكر والضباط في الجولات، وقبلات الأطفال في الاستقبالات، وباقات ورود الهوانم، لكنه يبقى طيبًا مستسلمًا لرأي المجلس وأغلبيته (رغم أن فئرانًا كثيرة تلعب في صدور الأخوان سالم والبغدادي وزكريا). بالتأكيد أخبره إسماعيل فريد أو محمد رياض أننا نجتمع في بيتي أو في مكتبي قبل أن ينضم لنا. هو طيب لكن ليس غبيًّا، حتى لو غبي فهو ليس أعمى، القرارات تكون جاهزة قبل دخوله، والتصويت لا يتغير أبدًا، الثلاثة عشر صوتًا معًا دائمًا، فلا يملك إلا أن يكون الرابع عشر، لعله اليوم قلق من صمتي ومن يوسف صديق وخالد محيي الدين وهما يحاولان إقناعنا بعدم التصديق على إعدام هذين العاملين . يوسف كسيف العينين وكسير القلب، يملك رأيًا لكنه لا يملك حججًا، وإن ملكها لا يجيد الإقناع، يغضب في منتصف جملته، يزهق وسط كلام أحدهم، ييأس سريعًا، كأنه جالس على شوك، كأنه زائر غريب في مجلس غرباء. وافق عبد الناصر على اقتراحه الملحاح بإصدار مجلة تتحدث باسم مجلس القيادة (فوافق الجميع مستخفين بمجلة وهم يملكون أصواتًا في كل الجرائد والمجلات)، وكلفه بإدارتها (ولم يكن أحد متحمسًا لمنافسته عليها). مرت أسابيع ملأ فيها صفحات المجلة بالشيوعيين! يوسف صديق غريب فعلًا، يثير أعصاب جمال سالم وكمال الدين حسين، كلما رأوا ماء الوضوء

يقطر من ذراعيه المشمرتين ويسبقهما على سجادة الصلاة، فيستغربان أن شيوعيًّا يصلي، فيصكهما بجوابه :
ـ أنا المستغرب أنكما تصليان رغم أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي !
يرد جمال سالم عنيفًا :
ـ لسنا بتوع منكر يا يوسف !
ـ صحيح، أشهد أنكما مش بتوع منكر، لكن بتوع بغي .
كل يوم يكسب يوسف صديق خسارة أحدهم، حتى خالد محيي الدين الأقرب إلى أفكاره أبعد عنه تنظيميًّا للغاية، ولاؤه مع تنظيمه أكثر من ولائه لأفكاره. عندما قرأ عبد الناصر بيان «تنظيم حدتو» الذي يشجب ويندد بإضراب عمال كفر الدوار اندهش فعلًا: هل الشيوعيون صاروا يحبون مجلس القيادة إلى هذا الحد، أم أنهم يعتقدون أن عمال كفر الدوار أعضاء في تنظيمات شيوعية أخرى لا يصح أن تبدو منتصرة بقدرتها على تحريض وتحريك العمال؟ لكن هل يوافق «حدتو» على إعدام خميس والبقري؟ يبدو خالد معترضًا، لكنه كالعادة قوي في إعلان رأيه، ضعيف في الدفاع عنه، شجاع في إثبات موقفه، ومستسلم أمام تجاهل هذا الموقف :
ـ الإعدام سيفتح الباب أمام الدم !
رد صلاح سالم :
ـ لا بد من الضرب بيد من حديد كي ننقذ الحركة من أعدائها !
زعق جمال سالم :
ـ لو تهاونا مع هؤلاء الخونة وقلبنا رق وضعفنا فسيركبوننا، وقل ساعتها على الحركة كلها يا رحمن يا رحيم !
وجدها نجيب فرصة سانحة لملاينة خشونة الأخوان سالم :
ـ هذه تهمة خيانة عظمى، وأنا مع الأخ صلاح، لازم نضرب بيد من حديد، وكما قال الأخ جمال سالملو تهاونا معهم لضاعت البلد .
علَّق يوسف صديق صاخبًا :
ـ إعدام عيلين سينقذ البلد؟! معقولة هذا الكلام يا سيادة الرئيس؟ !
تصدى جمال سالم :
ـ معقولة يا أخ يوسف، معقولة جدًّا، فهؤلاء العيال ليسوا وحدهم، وتحركهم أيدي الأعداء !
عرف عبد الحكيم أن عبد الناصر لا يريد التدخل لمنع الإعدام، وإلا لاجتمعوا صباحًا أو بالأمس في بيته أو مكتبه واستقروا على ما سيقولونه أمام نجيب، لكنه ترك الأمر دون تربيط ولا تضبيط، بما يعني أن الأمر على هواه أو على الأقل ليس ضده، لكنه يفهم عدم رغبته في التورط، فلا يزال يحافظ على صورة الديمقراطي المتعفف! يا جيمي، ما أنت من يومين ساجن أكثر من سبعين سياسي وفاصل أكثر من أربعمائة ضابط
ـ نحن لم نغادر مكاتبنا ولا رجعنا بيوتنا منذ يومين، أظن أن الكل أوضح موقفه .
كان القرار محسومًا إلى حد أن أحدًا لم يتكلم
في اليوم التالي كان مصطفى خميس يدخل مكتب اللواء نجيب. طلب نجيب أن يجلبوا له هذا الولد، فهو أقل من واحد وعشرين عامًا سن الرشد. لم يستدعِ محمد البقري، فقد رأى إعدامه واجبًا، لكن خميس أزعجه بسنه الصغيرة وبهذا الإعجاب المتعجب الذي سمعه عنه من أفواه الضباط. لن

يغره أنهم هتفوا باسمه في المظاهرات فهي خدعة، أولًا مصر كلها تهتف باسمه، ثانيًا من يهتف باسمه لا يحرق حشائش الأرض ويوزع النار على السيارات وفي المكاتب والمصانع! فجأة تذكر نجيب مشكلته التي تجري مثل جمرة صغيرة من فحم محترق في عروقه، ابنه الكبير، ليس ابنه هو المشكلة ولكن اسم ابنه، فاروق محمد نجيب، لن يستأمن إلا رئيس حرسه محمد رياض على هذا السر، حتى لو أذيع فهذا علامة على عصر تغيَّر وعهد تبدَّل، هو من غيَّره وهو من يبدِّله، فلا ضير في أن يغيِّر اسم ابنه
ـ حضرة اليوزباشي
ـ أؤمر يا أفندم
ـ موضوع صغير وحسَّاس وقد يسبب حرجًا، لكن لا بد منه، عايز نعمل شهادة ميلادجديدة لابني فاروق ...
سكت لحظة كان فضول رياض يقف فيها عند أنفه .
ـ يبقى صلاح
ـ نعم؟ !
ـ نغير اسم فاروق ويبقى اسمه الجديد رسميًّا في بطاقتي وبطاقته وشهادات المدرسة صلاح محمد نجيب .
عندما دخل مصطفى خميس، أدرك نجيب أنه صبي صعب، لا يشي وجهه بأي تهيب من دخوله مكتب رئيس مجلس القيادة وقائد الجيش، ولا اهتز رمش، ولا ارتعش جفن، ولا انحنى ظهر، ولا انكسرت عين، ولا تودَّد، ولا تقرَّب، ولا استضعف نفسه، ولا نافق، ولا نطق أصلًا! أشار نجيب للضابط الذي اصطحبه بالخروج، وللعسكري الذي يقيده بالكلابشات الحديدية أن يفكها ويخرج. وبينما يعمل العسكري مفتاحه في قفل الكلابشات، كان خميس مرفوع الرأس، لم يتابع بعينيه عمل العسكري، ولم تتجول نظراته في حوائط الغرفة ولا صورها وفرشها ونوافذها، بل صوب حدقتيه في المترين المربعين اللذين يحيطان نجيب بمكتبه. أدى العسكري التحية منسحبًا مع الضابط الذي أغلق الباب وراءهما
ـ اقعد يا ابني
قرر نجيب أن يكون أبًا لا لواء، لعل الولد يطمئن
قعد الولد، ولاحظ نجيب أنه لم يجلس على حافة المقعد شأن الخائفين أو المنافقين أو المنتظرين أمرًا أو المتهيبين، بل شد جسمه وأسند ظهره وكأنه قاعد على كرسي في فرح أخته الكبيرة
ـ أنا مشفق عليك يا ابني، وعارف إنك مجرد ولد مضحوك عليك واستغلك من وراءك، لهذا قل لي من الذي حرضك؟ أخبرني بأسماء الذين أمروك بحرق وتخريب المصنع وتهييج العمال، وأنا أعدك بتخفيف حكم الإعدام، أنت لا زلت صغيرًا ولك أن تعيش وتحيا
رد برأس مرفوع :
ـ أنا لم أفعل شيئًا تعدمونني عليه !
نهرته نظرات نجيب عن الكذب، لكنه لم يلن :
ـ ولا فيه ورائي ولا قدامي أحد !
طقت عينا نجيب غضبًا، صلابة الولد أعجزته، فخبط على سطح المكتب، وخطب في الولد عن الأعداء والخيانة والجرائم والشيوعيين والملك والأحزاب، وأنكم لست عمالًا بل قتلة، وسفكتم دماء

ضباط البوليس والجيش! الغريب أن نجيب هو من ارتجف، بينما ظل خميس جالسًا ثابتًا، فشخط نجيب :
ـ يا حضرة الضابط، يا عسكري ...
لم يسمعه أحد خلف الباب، فتذكر جرسًا بجواره فضغط عليه وهو حانق زاعق :
ـ خلاص نعدمك! ليس أمامنا إلا تطبيق القانون !
كان إسماعيل فريد قد دخل .
ـ إسماعيل، خذوه من قدامي !
اقترب إسماعيل بسرعة ناحية خميس، وأقامه من جلسته، وسحبه وهو ينادي على ضابط السجن يندفع وراءه العسكري الذي أقدم بحماس على وضع الكلابشات مرة أخرى في يدي خميس. كان نجيب يقلب أوراقًا وينفث دخانًا ويسمع قرقعة الحديد في يد الولد، وخطوات أقدامهم وهم يمضون خارج الغرفة، ودرفة الباب تنغلق بحركة المقبض المعدني .
التفت إلى حكمت وهي تجلس في ذات المقعد الذي جلس عليه خميس :
ـ عندما تعودين إلى جورنالك اليوم، ستعرفين أن الحكم قد تم تنفيذه .
شهقت حكمت :
ـ اتشنق !
وجد نفسه يمسك بالكاب، يقبض عليه وهو يخاطبها خطيبًا :
ـ كي يكون عبرة لمن يعتبر! هذه مصر يا أستاذة التي لن نتركها لأخطبوط الإقطاع والاستعمار والشيوعية !
كانوا قد أخبروه لما سأل، أن خميس ظل ثابتًا وهو يردد، وهم يلفون حبل المشنقة على عنقه، أنه لم يخطئ، وأن لا إله إلا الله، بينما البقري هو من كان مهتزًّا يبكي حال ومصير عياله وزوجته بعد شنقه، وأنه كان يدعو على الظلمة... وعليه ... على اللواء نجيب !
دخل إسماعيل فريد بعدما طرق باب الغرفة :
ـ سيادة الرئيس، البكباشي جمال عبد الناصر يذكرك بموعدكم مع النحاس باشا .
*
كاد عمال النظافة يلموا ريش الطاووس كل يوم من على أرض وسجاد وأرائك وكراسي غرفة مكتب سليمان حافظ. كان حافظ طاووسًا ينفش ريشه حتى يكاد يلفح بجناحيه العابرين حوله، ويسقط الأثاث واللوحات في ممرات مبنى مجلس الوزراء رائحًا راجعًا من مكتبه إلى مكتب محمد نجيب. لم يدرك حافظ معنى جملة «مقاليد الأمور» شأن ما أدركها منذ صار نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية. حافظ ليس مهتمًّا بأي أمور، بل بأمور معينة محددة: إنهاء مصطفى النحاس، والقضاء على حزب الوفد. هي مهمة مقدسة أن ينسف الصنم. هذه الأغلبية المستبدة المغرورة التي تحتكر تمثيل الأمة وتضحك على الشعب منذ زغلولها المقامر لا بد أن تفنى. إن هؤلاء الضباط لم يطردوا ملكًا حتى يفسحوا المكان لملك وحيد فريد، لم يخلعوا ملك الذهب ليجلسوا ملك النحاس، وها هو قانون تنظيم الأحزاب عصا موسى في يوم الزينة، تلقف ما صنع الوفد منذ ثلاثة وثلاثين عامًا. نجيب صار معه تمامًا، تخلص من حب النحاس والولاء للوفد بأسرع مما يتخيل. أقنعه فتحي رضوان، يااه! الحمد لله أن هداني عقلي للاستعانة بفتحي رضوان صديقي المحامي الصنديد وعضو الحزب الوطني المخلص، والثائر الخطيب الذي تمكن من قلوب ضباط الحركة

مع أول اجتماع وأول مرافعة تكلم فيها عن ثورة تطيح بالقديم وتدوس على الماضي وتهدم البناء المتداعي لتقيم بناء جديدًا، وأنتم أيها الضباط حلم هذا الوطن، وراية هذه الأمة الجديدة، لا تتركوا الساحة لغيركم، ولا تأمنوا ناصية هؤلاء الذين اعتادوا الانحراف حتى أدمنوه وتدينوا به. صار فتحي رضوان بعد هذه الخطبة وزير دولة في حكومة محمد نجيب، تلك الحكومة التي تجمع ستًّا من أصدقائي الذين يشاركونني في تقطيع ذيل الوفد الثعباني ورأسه. إنهم يقولون إن لحم الثعابين دسم وشهي، ثعابين الصحراء كما ثعابين البحر. مقاليد الأمور كلها بين أصابعي، مواد قانون أحكمت صناعته مع السنهوري يكاد يجعلني رئيس كل الأحزاب وربها الأعلى، فها هو لأول مرة يشمل تكوين حزب سياسي شرط إخطار وزير الداخلية (أنا)، ثم لوزير الداخلية (أنا) حق الاعتراض على تشكيل الحزب وقيامه، ولوزير الداخلية (أنا) أن يطلب حسب الأحوال حل الحزب أو وقف نشاطه أو إسقاط عضوية أحد أعضائه أو تصحيح الوضع الخاطئ . ابقى قابلني يا نحاس، فالأحزاب الخمسة التي كانت قائمة ليلة الثالث والعشرين من يوليو انتهت، وعليها أن تتقدم بطلب جديد لتكوينها مرة أخرى، والطلب الجديد ملك يميني (هذا تعبير آخر اكتشف مذاقه واشتهى تذوقه في مكتب وزير الداخلية).
أول ما فعله حافظ أن رفض تولي مصطفى النحاس رئاسة الحزب. قالها لمحمد نجيب بغواية تتفوق على شيطان قابيل حين حرَّضه على أخيه هابيل («لن يظهر أي غراب يداري سوأة أحد في هذا المشهد »):
ـ النحاس دمل لازم يتفقع، مصر لها زعيم واحد الآن، ولا يصح أن يكون لها سوى هذا الزعيم الواحد، ألا تسمع هتافات الناس لك في كل مكان تولي وجهك شطره، يحيا نجيب منقذ الأمة؟
كان نجيب يتململ من هذه الكلمات بقدرات تمثيلية فاشلة، حمرة الخجل تضرج خديه، ولمعة العينين تضيء ظلام الغرفة، والعنق تشتد طولًا، والأصابع تقبض على كاب القبعة العسكرية كأنها تاجه، ودخان الغليون يحلق في السماء مع أحلامه .
يبتسم حافظ، هل أقولها ألف مرة لفتحي رضوان المتخوف، والسنهوري المتحسب، يخشيان أن أكون ضاغطًا أكثر من اللازم نافخًا في الكير حتى يكاد يحرقني :
ـ إذا كان نجيب وعبد الناصر ضد ما أنوي لأوقفا ما أفعل، ربما يكون عبد الناصر ممتعضًا من الوسيلة، لكنه ليس ضد الهدف، إن أخشى ما أخشاه أن عبد الناصر يأبى الإطاحة العاجلة القاصمة للنحاس، لأن من سيرث شعبيته هو محمد نجيب .
يرد فتحي رضوان في أكثر من جلسة وأكثر من مناسبة :
ـ أنت تحب الأطوع يا سليمان !
كان فتحي رضوان قد دخل الحلبة مراهنًا على علاقة طفيفة قديمة مع أنور السادات، وهو كان العسكري الأبرز في عوالم السياسة العلنية والمتلاطمة، وكان محاميًا لمتهم من ضمن رفقاء السادات في قضية اغتيال أمين عثمان، لكنه اكتشف بعد جلستين أو ثلاث أن السادات أبهت لونًا في تلك الخريطة، غير مؤثر وليس متنفذًا، بل هو ظل لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم، فاتسعت رؤية رضوان حتى شملتهم جميعًا بالنصح والدهاء المحتجز في قوقعة الإحباط التي احتوت أعضاء الحزب الوطني، الحزب الأقدم والأصغر والأكثر وطنية كما ظن وآمن، ولكنه حين سقط في بحر العسل اكتشف أن شعار حزبه القديم «لا تفاوض إلا بعد الجلاء» عبث يجب أن يجلو عن عقله، فأسس الحزب الوطني الجديد، وتصارع مع قياداته القديمة على شرعية وراثة التاريخ. حين

جلس على مقعد الوزير لم يجد مشكلة في التفاوض مع الإنجليز ما دام هو أو حكومته من سيتفاوض، لكن يجب أن نزيح القديم ولو بالقوة، بل بالقوة. سليمان حافظ يصنع قوتنا القانونية مسلحًا بالسنهوري الذئب الوديع، فيضعان كل يوم قانونًا يشرعن لهؤلاء الضباط الوطنيين السيطرة والتمكين من زمام البلد. لكن حافظ يراهن على نجيب عجوز مجلس القيادة، بينما رضوان اشترى كل تذاكر الأحصنة حيث راهن عليها جميعًا . لا ينسى ضحكة حافظ المتألقة رضا حين سمع اقتراح فتحي رضوان الذي صار قرارًا وإقرارًا بأنهما يخططان معًا .
كان نجيب أول من انبهر، ثم كان صمت عبد الناصر دليلًا على استحسانه الفكرة منتظرًا اسمه فيها، قال رضوان :
ـ لا يصح أن يظل مجلس القيادة في غرفة الاجتماعات يخطط لوطن ويبني أمة ويهدم قديمًا ويعز جديدًا دون أن يتعرف الشعب، الفلاحون في القرى، والشباب في الريف، والرجال في الصعيد، على هذه الوجوه التي انتشلتهم للنور ! يجب أن يلتقوا بكم، ويستمعوا إلى قلوبكم وهي تخاطبهم بألسنتكم فلننزل إلى الشعب حيثما كان. اللواء نجيب وأنتم معه تتجولون في البلاد، ستجدون قلوبًا مفتوحة، وأذرعًا مرحبة، وعقولًا مستجيبة، فتتولى الإذاعة نقل تلك الاستقبالات العظيمة، ويلتقط المصورون هذه الصور لينشروها في الصحف، وليصطف الجمهور على أرصفة محطات السكة الحديد يلوحون لكم !
مع إيماءة نجيب المعجبة، أضاف حافظ خشية ألا يكونوا قد أدركوا هدف فتحي رضوان الأهم :
ـ إنهم يقولون إن النحاس زعيم الأمة، والوفد حزب الأغلبية، إذن ليرَ العالم من هو زعيم الأمة، ومن ملكوا أغلبية القلوب !
أضاف فتحي رضوان :
ـ ولنبدأ بقرى هؤلاء الضباط الذين صنعوا التاريخ، وهم يلتقون بأهلهم في الريف والصعيد، ولتشهدوا بأنفسكم أنكم أنتم المختارون والمنتظرون منذ غاب أحمد عرابي ومصطفى كامل !
ثم جلجل رضوان :
ـ ليركب عرابي ورفاقه الحصان من جديد، يزلزلون الخديوِ وأعوانه وأذنابه !
كان رضوان جاهزًا بمواعيد الزيارات وخطة اللقاءات. وكان سليمان حافظ أجهز بإعداد قرار إنشاء وزارة جديدة اقترحها فتحي رضوان، وتحمس لها الأخوان سالم، ووافق عليها عبد الناصر، هي وزارة الإرشاد القومي، وصاغ مع رضوان والسنهوري مهمتها :
ـ توجيه أفراد الأمة وإرشادهم إلى ما يرفع مستواهم المادي والأدبي، وتقوية روحهم المعنوية وشعورهم بالمسؤولية، وتحفيزهم إلى التعاون والتضحية ومضاعفة الجهد في خدمة الوطن .
فلما سأل يوسف صديق :
ـ أهناك وزارة بهذه المهام في العالم؟
أجاب فتحي رضوان :
ـ نعم، في الاتحاد السوفيتي يا عزيزي .
لكن حافظ قال فخورًا :
ـ وكانت في ألمانيا النازية .
صاح صلاح سالم فرحًا :
ـ إنها وزارة «جوبلز ».

*

اقتحم عليه فتحي رضوان عرين مكتبه :

ـ يا حافظ بك، سمعت أن اللواء نجيب وعبد الناصر حددا موعدًا لزيارة النحاس !

تنفس سليمان غلًّا :

ـ لا تنزعج، فهي زيارة مفروضة على اللواء نجيب، وهي أقرب لزيارات العزاء الواجب .

ثم ضحك متشفيًا :

ـ لا تنسَ أنهم اعتقلوا فؤاد سراج الدين بعدما قابلوه بربطة المعلم !

شاركه رضوان الضحك قلقًا :

ـ بل إن عبد الناصر زار نجيب الهلالي ومكث عنده ساعات يسمع نصائحه في مفاوضة الإنجليز !

أكمل حافظ :

ـ ثم اعتقله مع فؤاد سراج الدين وعشرات آخرين، ربما زارهم عبد الناصر أيضًا !

ـ السؤال: هل يتقبل النحاس العزاء؟

كان حافظ مطمئنًّا أن النار أضرمت في حزب الوفد، وأنه على وشك أن يرى رماد حريقه لما خرج من عنده محمد صلاح الدين. كان محمد صلاح الدين وزير خارجية حكومة الوفد الأخيرة، والنجم اللامع بها، والمنافس الأشوس لفؤاد سراج الدين، فإذا به يأتي سليمان حافظ كمن يحمل كفنه في يده :

ـ أنا لا أطلب رأي سليمان حافظ وزير الداخلية، بل رأي سليمان حافظ صديقي العزيز .

ـ إذن يقول لك صديقك العزيز ما يقوله لك وزير الداخلية، لا تعرضوا النحاس لهذه التجربة، لو قدمتم اسمه رئيسًا للحزب فإن لديَّ (ثم صحح: لدينا) أسبابًا خطيرة للاعتراض عليه ورفضه

لم يسأل محمد صلاح الدين عن الأسباب، فهي ليست أسبابًا وليست خطيرة، فالأسباب هي سليمان حافظ وعبد الرزاق السنهوري وفتحي رضوان ومحمد نجيب ربما، ولعله هذا الضابط الذي اجتمع بي يطلب رأيي في المفاوضات مع الإنجليز، ويسألني عما طرحته في الأمم المتحدة ليلة حريق القاهرة عن استعداد الحكومة للموافقة على استفتاء السودان على الاستقلال عن مصر، فأحدث الأمر حريقًا لم يطفئه إلا حريق القاهرة الأضخم، كان فؤاد سراج الدين يجهز محاكمتي في مجلس الوزراء ورفدي من الوفد، نعم اسمه جمال عبد الناصر هذا الضابط، ويبدو أهمهم وزعيمهم، إنه سراج الدين للنحاس فيما أظن

ـ ولكن هل من صالح البلد أن نجرح رجلًا من أكبر زعمائها؟

رد حافظ :

ـ نعم، من صالحها وصالحه، أي محب للنحاس وحريص على كرامته ينصحه بالابتعاد، ويكفيه ما فعله فيه أصهاره وأهله وحاشيته !

ثم نغز صلاح الدين بسهم يغري ويهدد :

ـ ثم لا يجب أن ينسى أن فؤاد سراج الدين في المعتقل ولم تقم البلد ولا قعدت لأجل حبيب زعيمهم !

انتبه محمد صلاح الدين إلى أن سليمان حافظ هو من يجلس على نفس المقعد الذي جلس عليه فؤاد سراج الدين وزير الداخلية الأسبق المعتقل، ومرتضى المراغي وزير الداخلية السابق المعتقل،

وتساءل في أبعد أعماقه غورًا: هل يمكن أن يلحق بهما يومًا وزير الداخلية الحالي، فيرث مقعدهما في السجن كما ورثه في الحكم؟
ـ اعمل على إقناعه يا صلاح باشا، وقد طعن في السن وألم به المرض وأدى واجبه كاملًا أو منقوصًا، فهذا أمره لله وللتاريخ .
ـ يبدو أن أمره لله وللتاريخ ولك أيضًا، فأنت تحكم وتعترض عليه وتمنعه من رئاسة الوفد !
ـ نعم، ليكن رئيس الوفد رجلًا مثلك لا غبار عليه وموضع المحبة والرضا من الجميع، إن نجيب يحبك ونحن أصدقاء منذ زمن رغم الخلاف حول وفدك ونحاسك
كان سهم سليمان حافظ المسموم قد أصاب كبد الوفد، فتنازل عن رئاسة النحاس، وتقدم محمد صلاح الدين بأوراق الحزب لوزير الداخلية، فاستقال أعضاء كثر احتجاجًا (منهم أحمد أبو الفتح، وهذا المحامي الأحمق إبراهيم طلعت، فليس غريبًا أن أعدا أنفسهما لتولي مقاعد في الحكومة، فجاءت على غير هواهم وضد وفدهم، بل سكنها إخوان مسلمون لأول مرة)، وتفشى الفشل في أوصال الحزب، يقطعها ويبترها، خصوصًا أن حافظ خدع محمد صلاح الدين حين قدم النحاس كعقبة وحيدة للموافقة على تكوين حزب الوفد، فقد رفض أوراق الحزب لأن آخرين ضمن وكلائه، ثم شهر سيفه وأعلن رفض تولي النحاس الرئاسة الشرفية، فقرر الوفد اللجوء إلى القضاء، بينما كان سليمان حافظ يجهز سكينه الأحد والأبرد والأتلم .
ـ أوَتفعلها يا حافظ فعلًا؟
ـ بل قل أوَنفعلها يا أخ فتحي .
ـ وهل أعددت العدة؟
ـ نعم، لكنني أتحين اللحظة .
ـ ألا تخشي زيارة نجيب وعبد الناصر للنحاس أن تحدث أمرًا؟
التفت سليمان حافظ إلى السنهوري، الذي كان حاضرًا صامتًا يحب أن يحضر الذبيحة ويرى دماءها، لكن لا يضع قدميه في بحيرة الدم حتى لا يلوث به حذاءه، فيرجع إلى أبعد نقطة في الغرفة حتى لا يصيبه نثار دم الذبيحة، وقال لرضوان وهو يشير على السنهوري :
ـ هل تقرأ له يا سنهوري باشا تعديلات قانون القضاء أم أقرأها أنا؟
رد فتحي رضوان :
ـ بل أقرأها أنا .
وجذب من يد سليمان حافظ الورقة المكتوبة بخط السنهوري الأنيق، وبدأ يقرأ تاليًا ما فهمه التقاطًا من تلك المواد المكتوبة أمامه :
تشكيل لجنة قضائية تنظر في صلاحية رجال القضاء والنيابة العمومية، وتملك حق فصل من لا ترى صلاحيته .
ثم رفع رأسه في الوجهين يواجههما، فلما رأى وهجًا عند سليمان ووداعة عند السنهوري أكمل :
ولها أن تحرم القاضي أو عضو النيابة كل حقه أو بعضه في المعاش أو المكافأة، وتبلغ اللجنة قرارات العزل لوزير العدل الذي يصدر مرسومًا ينفذ القرارات .
شد سليمان حافظ الورقة من يد فتحي رضوان الذي سأله :
ـ هل وافق مجلس القيادة على هذا القانون؟
ـ ما رأيك؟ هل سيرفضون؟

صمت فتحي رضوان الذي نقل بعينيه السؤال إلى السنهوري الذي نطق في هدوء :
- يبدو أنك انشغلت في الأيام الأخيرة يا أخ فتحي. لقد صدر بالفعل .
*

جلس الشك على كنبة السيارة الجيب بجوار نجيب وعبد الناصر، تنطلق بهما في موكب صغير من موتوسيكلات وسيارات حراسة إلى جاردن سيتي حيث قصر النحاس باشا. يعرف عبد الناصر الطريق جيدًا، فقد عاينه مع بعض ضباط التنظيم لوضع خطة اغتيال مصطفى النحاس، بل جاءه أكثر من مرة يراقب، بعدما فشل السادات مرة، وفشل مصطفى صدقي مرة، في محاولاتهما اغتيال النحاس بالرصاص والتفجير. بدا الرجل محصنًا ضد القتل، سواء حاول قتله الثوريون أو الملكيون. كان يسمع أن النحاس فيه حاجة لله، لكن عبد الناصر يؤمن بالله ولا يؤمن بهذه الحاجة !
لقد اتصل منذ أيام بمكرم عبيد صديق النحاس الذي انقلب عليه وانشق على الوفد بعدما كان الرجل الثاني، كان صدعًا في قلعة الوفد الحصينة أسقط جدارًا فيها، لكنه لم يسقطها، وحضر إليه مكرم عبيد متحمسًا للقاء ضباط العهد الجديد. كان قد طلب منه «الكتاب الأسود » الذي ألَّفه ونشره وضم فيه كل المخالفات المالية للنحاس وزوجته في عهد حكوماته. انتهى الكتاب على فاشوش، وذهب تأثيره مع الزبد الذي يذهب جفاء، لكن من قال إنه لا يمكن إعادة تدويره واستدعاء تشغيله؟ هي اتهامات من العهد البائد لم نخترعها ولم نكن أصحابها، فلنحقق إن تطلب الأمر، ولنلوح بها إن آن الوقت. عمومًا هو سلاح في درج المكتب حتى لو كان سلاحًا فاسدًا، فلم تنفعنا أكثر من الأسلحة الفاسدة . مكرم عبيد لا يزال يحتفظ بحقده حيًّا، وناره لم تخبُ بين جنبات صدره، فقد أحضر عشر نسخ من «الكتاب الأسود» بل ربما صار أكثر سوادًا. لقد كان قلبه السياسي يدرك أنه لو تراجع الضباط عن المشهد، ولو تنحى نجيب عن الصدارة وعاد إلى القشلاق مع رجاله، فإن النحاس سيكون الزعيم الوحيد والأوحد، وسيطيب له ولزينب الوكيل وجه مصر صبوحًا !
لم يكن نجيب متحمسًا لهذه الزيارة، وأبعد من أن يفهم سر حماس عبد الناصر لها: هل هو عبد الحكيم عامر وبيت أبيه العمدة الوفدي الذي يدفع حكيم وصديقه لهوى الوفد بين الحين والآخر؟ ثم نحن اعتقلنا فؤاد سراج الدين من كذا أسبوع ونروح اليوم للقاء زعيمه لتهدئة خاطره أو كسب وده؟! طيب ما نفرج عن فؤاد سراج الدين أولى بها هدية للرجل في زيارتنا الأولى له! ثم حضور النحاس يعني غيابنا! أبعدما كدنا نملك قلوب الناس نعود إلى الثكنات يا جمال؟! طبعًا، فهو رجل الظل الذي يزعجه رجل النور. لا بد أن أنصت بعد ذلك إلى محمد رياض، فهذا الشاب ليس رئيس حرسي فقط، بل هو ابن مخلص، وضابط وفي، وعينه على مجلس القيادة الذي يراه يضم الأخرق والأحمق، ويرى أن عبد الناصر طموح لا يعترف بأن اللواء نجيب زعيمه، وأن الشعب هواه نجيبي، والسودان عشقه نجيبي. بمناسبة السودان فلأسأل عبد الناصر :
- هل قرأت المشروع الذي أرسله إلينا الأمريكان؟ مشروع اتفاقية السودان؟
- طبعًا .
- ورأيك؟
- نحن قدمنا نسخة، والإنجليز قدموا نسخة، والأمريكان عاملين نسخة وسيطة، لكن في النهاية الاتفاقية لازم تتم .
- لست قلقًا من أن السودانيين عندما يحصلونعلى استقلالهم وحكمهم الذاتي ويخرج الإنجليز من أرضهم، سوف يوافقون في الاستفتاء على اتحادهم مع مصر .

ـ صلاح سالم شايل المهمة فوق أكتافه
امتعض نجيب من ذكر اسم صلاح سالم أصلًا، ومقرونًا بالسودان، بل ومن تجاهل عبد الناصر أن العمود الفقري لموافقة السودانيين على الاتحاد مع مصر هو محمد نجيب معشوق الشعب السوداني يا جمال !
تمتم نجيب :
ـ لا أظن أننا سنجيب النحاس لو سألنا عن السودان، فالرجل عاش عمره يرفض أن يفرط في السودان، وفشل في مفاوضاته مع الإنجليز لأجلها .
نفر عبد الناصر من لهجة النصيحة المخلوطة بالأمر والنهي، وتعجب من نجيب، فالرجل يلتزم بالحدود الفاصلة بينهما جيدًا، ويجيد دور الواجهة الأنيقة، لكنه يتغير فعلًا، بل ويريد أن يحدد جدول اللقاء مع النحاس كذلك! أشاح عبد الناصر بوجهه ناحية النافذة المفتوحة، وتابع وجه الصول الذي يركب موتوسيكل يحيط بالسيارة، وسأل نفسه: ماذا لو سأل هذا الصول عن قائد هذه الحركة؟ هل نجيب الواجهة، أم جمال الرافعة؟ تذكَّر الصول رأفت شلبي الذي حاول أن يشكل تنظيم «الصولات الأحرار»، لن يكون رأفت شلبي فقط هو من يسعى في الجيش بأحرار جدد، بل الأحرار القدامى أنفسهم بدأوا يتململون طالبين الغنائم أو ناقمين على من كانت غنائمه أوفر وأثمن! رأفت شلبي حكم عليه المجلس العسكري بالإعدام، لعلهم يتعظون، ولعله يكون المربوط الذي يخيف ضربه السائب. لكنه أبلغ زكريا أن يخفف الحكم إلى المؤبد بعدما طلب محاميه عرض المتهم على مستشفى الأمراض النفسية. حسنًا سيكون سجنه بجوار مستشفى العباسية يا متر! حين أوشكوا على الدخول إلى شارع قصر النحاس، سأله نجيب وقد فهم صمته إجابة عن سؤاله الأول فلاحقه بالثاني :
ـ هل سنظل ساكتين على رشاد مهنا؟
يخشى محمد نجيب على نفوذه وسلطته وشعبيته من رشاد مهنا أكثر كثيرًا من خشيته من النحاس. رشاد مهنا أول ضابط يشكِّل تنظيمًا للضباط داخل الجيش، فليس بعيدًا أنه يمكن أن يشكِّل تنظيمًا جديدًا وهو جالس على مقعده في لجنة الوصاية على العرش، ثم إنه الأكثر شعبية والأوثق صلة بالضباط، وله مريدوه ومحبوه، فضلًا عن أن كل من لم يحصل على مناب في مائدة يوليو يطمع في وليمة جديدة. آه من هؤلاء الصغار الانتهازيين الذين يدبون كالنمل ويلسعون كالدبابير في جسد الجيش، ليسمموا على البلد حركتها ويقعدوا قيامتها! لن نتحول إلى سوريا، فمصر ليست سوريا! فلن يشهد الجيش كل عدة شهور انقلابًا على الانقلاب السابق، ثم انقلابًا لاحقًا على الحالي، لا وربي، لن تكون أبدًا يا عبد الناصر! لكن هل كان خطأ جسيمًا (كان خطأ. بات يعرف الآن. لكن هل كان جسيمًا فعلًا؟) حين وضع كل ضابط في مجلس القيادة مشرفًا على وزارة، فاستعان كل ضابط بضباط من الأصدقاء والمقربين والمتقربين، فاتسعت دوائر المنتفعين، لكنها أوسعت كذلك دائرة المتطلعين الناقمين؟ عمومًا لنصنع للتاريخ مجرى جديدًا يعبر منه نهره. التفت إلى نجيب وهو ينزل من باب السيارة يسبقه :
ـ رشاد مهنا لازم يمشي !
أراحت الجملة نجيب، ونزلت على قلبه بلسمًا وعلى معدته عسلًا، فانفرجت ملامح وجهه، واستعاد بسمته الطيبة الحنونة، وتواضعت عيناه تمامًا حين ظهر مصطفى النحاس أمامهما مرحبًا .

لم يقدر النحاس على رفض الزيارة والامتناع عن استقبالهما متحججًا بأي حجة، لا المرض سينفع، بل لعله سيحفزهما أكثر للقيام بواجب عيادة المريض، وقد يأتون بأطباء الجيش معهم، ولا حجة الانشغال، فما الذي يشغلني؟ ولا السفر للعزبة، فقد يمنعونه أصلًا بل وقد يصادرون العزبة! أبلغهم ترحيبه بالزيارة، وحددوا موعدها، وإن كان قلبه مغلقًا تمامًا لن تفلح زيارة في فتحه ولا حتى ثقبه بخرم. هؤلاء الضباط يكرهونه، وهذا المحمد نجيب إما واجهة زجاجية هشة، أو أنه استحلى كرسي رئيس الحكومة، واستقبالات الجمهور المرحب المهلل، وباقات الورود التي تسلمتها يده من أيادي الصبيات الصغيرات على أبواب المؤسسات التي يزورها، وقطع الحلوى التي تناولها وسط ضحك وإعجاب ورضا سيدات الجمعيات التي حضر معارضها، والهتافات التي تلاحقه وهو يصعد السلالم في مبنى، وتلك الحركات التي تخيل على الناس وتهلل لها الصحف عن نزول نجيب من زيارة لقريب في عمارة، فيجد على السلم طفلة تصافحه وتناديه «بابا نجيب » ، وتجذبه للقاء عائلتها في الشقة المفتوحة، فيدخل معها فلا يجد أسرتها التي غادرت لزيارة أو لشغل، فيمكث مع الطفلة ومربيتها يشرب فنجانًا من القهوة أعدته له المربية الجنوبية، ويلاعب الطفلة حتى تعود العائلة فيذهلها وجود رئيس مجلس القيادة وقائد الجيش في شقتهم، ويأتي الجيران والأحباب والحي كله لمصافحة زعيم الجيش وقائد الحركة، وتنشر الصحف الصور (أين كان المصورون؟) مع صور أخرى لنجيب وهو يجلس في مدخل عمارة أخرى يحتسي القهوة مع الخفراء وحراس العقار في مسامرة بين القائد وشعبه. هل تريد أن أنزل أجول الشوارع يا نجيب لنرى ونشهد؟ هل يبارزني هؤلاء الضباط مبارزة رخيصة؟ لكنهم يجهلون مصطفى النحاس! يحضرون إلى بيتي ليسترضوني مثلًا، أم ليتبرأوا من سليمان حافظ؟ ألم أقل إنهم يجهلونني؟ أم يظنون أنني كبرت وخرفت، ويمكن لكلمة أن تهدئ عجوزًا كما أن كلمة مدح واستعطاف تسلبه مشاعره؟

حين جلس النحاس جلسا. ما كل هذا التأدب والتهذيب... والتمثيل؟! أومأ النحاس لهما بالإلحاح للجلوس، فقد ضاق صدره أكثر حين رأى هذا التودد على ملامحهم المبتسمة الفرحة. أهؤلاء سائقو القطار الذي سيدهس الجميع؟ أهم قادة البلاد الجدد تعلموا التكاذب والتقنع بهذه السرعة؟ لما جاءت القهوات كان نجيب يحكي قصص الذكريات التي كانت حتى الأمس لا تشغل أحدًا إلا زوجته، فصارت اليوم ذكريات تتلى في الاجتماعات والمؤتمرات واجتماعات مجلسي القيادة والوزارة وصفحات الصحف وأغلفة المجلات. المدهش أنه لا يزال طيبًا، ينفعل في عواطفه فيقول إنني قائد الأمة وإنه قائد الجيش! ألا يثرثر الصحفيون الذين ارتموا في حجر الضباط ويقولون إنني قلت لنجيب إنه زعيم ثمانين ألف ضابط، وإنني زعيم ثمانية عشر مليونًا؟ هذا ليذكوا غيرة، أم ليقسموا البلد، أم ليظهروني كأنني أطلب الود وأمد اليد ثم جاءوا لينثروا الورد بيننا؟ هل جاءوا بهدية في زيارتهم الأولى لبيتي؟ هذه نقطة مهمة للغاية سوف تلفت اهتمام زينب، وستسأل عنها، وستذم طويلًا هذه الجليطة! أيحمل هؤلاء وردًا يا زوجتي الغالية؟! عنوان الصحيفة «كم تبلغ ثروة حرم الرئيس مصطفى النحاس؟»، كأنه معلق على رأسي نجيب وعبد الناصر منذ دخلا بابي! العنوان الذي ألح مصطفى أمين وجماعته وروز اليوسف في نشره مسلسلًا! أيلتفت عبد الناصر بعينيه في البيت لعله يجد دليلًا على ما نشروه أن ثمن المفروشات والنجف في منزلنا تقدر بخمسة آلاف جنيه؟ فلتنظر إلى السقف يا ابني لتتأكد من هذه النجفة وتلك وهناك المعلقة فوق السلم. ها، ما رأيك؟ هل لديك قدرة على تثمين المنقولات؟ هل هذه الابتسامة التي يرسمها نجيب على وجهه

اعتذار على أنهم نزعوا من زوجتي مائة وستة عشر فدانًا، أم استئذان للمزيد؟ هل تظن يا حضرة البكباشي (أأنت ممن حاولوا قتلي ضمن من حاولوا؟) أنني لا أعرف أن «الكتاب الأسود» في درج مكتبك؟ لعلك لا تقدر ثرثرة مكرم عبيد البليغة وغروره المعجباني كثيرًا. لقد اعتقلت أنتيا سيد نجيب أربعة وأربعين فردًا من عائلة زوجتي، هل تعرف ذلك، أم أنك قلم يوقِّع وعين تتعامى عن الأسماء، أم أن عزيز مصر الجديد الذي تصحبه معك هو من يتخذ القرارات وأنت سادر في غفلتك أو راضٍ هانئ، تصدِّر للناس طيبتك ومحبتك وتدع أيدي ضباطك مغموسة في وحلك؟ لا أكاد أصدق أنكم هنا بعدما قبضتم على فؤاد سراج الدين وأقارب زوجتي وصادرتم أرضها، ومنعتم رئاستي للحزب الذي كنت أسمنته وحديده منذ ابتناه سعد زغلول في قلوب الناس وغيطان النيل! آه ماذا يقول محمد نجيب الآن لأسمع، فلا بأس من بعض التسلية في هذا اللقاء المضجر .
ـ إننا قصدنا من وراء هذه الزيارة أن نطمئنك على أننا غير راضين عن تصرفات سليمان حافظ وعن تحديه لك بالذات
ثم أضاف عبد الناصر سريعًا، كأنما ليؤكد للنحاس من فيهما القائد الحقيقي، أو لأنه لمس ضعفًا في أداء نجيب المسرحي فكاد يحول المشهد التراجيدي إلى كوميدي :
ـ إننا نخشى أن يدفعك تصرف سليمان حافظ المتشفي والمنتقم إلى أن ينضم الوفد سرًّا أو جهرًا إلى الشيوعية التي نحاربها ولا نثق بها، ونريد أن يظل الوفد على تأييده للحركة التي لا تزال تصمم على إعادة الحياة النيابية وتطهير الأحزاب وتشكيلها من جديد بأشخاص لا شبهة فيهم ولا اعتراض عليهم .
ضاق صدر النحاس أكثر مما كان ضيقًا بما يسمع، فالواجب الآن أن يتعاطف معهما وهما يواجهان الوحش
الكاسر والغول الغادر سليمان حافظ! وبدلًا من أن يدخلوه قفصه، فإنهم يطلبون مني وأنا تحت مخالبه، وحوافره منغرزة في لحمي، أن أتأكد أنهم أبرياء ولا دخل لهم به، ربما لأموت وأنا راضٍ عنهم! طيب يا جنرال، أنت لست مسؤولًا كرئيس حكومة عن وزير داخليتك (فلأكن أعبط مما تتخيلون وأصدق)، فهل سليمان حافظ من يشهر بزوجتي على صفحات رجالكم في الصحف؟ هل حافظ هو من اعتقل فؤاد سراج الدين وأربعة وأربعين من عائلة زوجتي، ولم يكن قد صار وزير داخلية بعد؟
لن يقدر النحاس على أن يسخر من ضيوفه، ولا أن يواجه تنصلهم الكذوب بالصراحة الواجبة، فهو لا يأمنهم، ثم هو مستضيفهم. ولم يكن عبد الناصر ينتظر من الرجل أن يصدق شيئًا مما قالوه، فهو كلام لا يصمد أمام عقل طفل، لكنه أراد أن يسمع الوفديون بالزيارة، وأن يجس عروق النحاس إن نفرت وغضبت أو لجمت وكتمت، يريد أن يقرأ ملامح الرجل عن قرب وعن لصق وجه بوجه بعيدًا عن تهويمات أحمد أبو الفتح الذي يتحدث عن نحاس آخر، نحاس الماضي، أو تهديدات إبراهيم طلعت الجموح الذي يتعامل مع النحاس كأنه قطب صوفي، شيخ الطريقة النحاسية صاحب الكرامة . ها هو الزعيم العجوز يتقاعد عن مكانه ومكانته أمام عينيه، لكن هيا بنا نسمع حشرجات المحتضرين، لعلنا نسمع ما يفيد أو يصلح للذكريات .
كان النحاس باشا قد عاد بظهره إلى مسند الأريكة التي يجلس عليها، وجمع أعصابه المشتتة غضبًا عند طرف لسانه الذي أخذته رجفة ثواني ثم أطلق كلماته موزونة بأكبر قدر من انضباط الأعصاب، بينما عبد الناصر يستوثق من عين النحاس الحولاء :

ـ إما أنكم غير راضين عن تصرفات سليمان حافظ، فكان من الواجب أن توقفوه عند حده، وأن تقولوا له إنه لا يليق به أن يجعل الخلافات الشخصية والحزازات القديمة تسيطر على تصرفاته، حيث يضع القوانين لينتقم بها، وإما أنكم يا سيادة اللواء أو بعضكم راضٍ عن هذه التصرفات، وإلا لما أبقيتموه معكم حتى الآن وزيرًا للداخلية، وهو يخلق لكم كل يوم مشكلة جديدة .
هل هذا آخرك يا دولة الرئيس ورفعة الباشا؟ ما كل هذه الرقة في الكلام المداري والاتهامات المخفية؟ طيب عظيم، ماذا ستفعل إذن؟ كيف ستتصرف وأنت تعلم أننا راضون عما يفعل حافظ؟ كان عبد الناصر يلف بكلماته في رأسه، بينما اللواء نجيب يلف ويدور بما يشبه النفي أو الاعتذار، ويلوك كلمات المدح على الفارغ والمليان، وكاد يعيد حكاية ذكرياته يوم زار النحاس، لكن النحاس لم يصبر هذه المرة أن يسمع، فقال مستخدمًا أحن لهجة في صوته :
ـ أحذركم من إلغاء الأحزاب وإلغاء الوفد بالذات، لأن هذا سيثير عاصفة من الاستياء إذا لم تظهر حالًا فستظهر آثارها فيما بعد. واعلموا أن الوفد ليس حزبًا سياسيًّا، إنما هو يمثل كافة التيارات في مصر، وطوال عهد الوفد لم يظهر أي خلاف طائفي، وكان الإخوان والشيوعيون يستظلون جميعًا بالوفد، لهذا كان الوفد الحصن الذي يؤوي الجميع منجاة من كل تطرف ديني أو شيوعي .
هذا تحذير في صيغة استجداء يا معالي الرئيس! صمت جمال عبد الناصر ونظر إلى نجيب: هل فهم نجيب أن النحاس ضعيف جدًّا كما أنه بصير جدًّا، يدرك أن الخطوة التالية إلغاء الأحزاب لأجل إلغاء الوفد؟ بينما نجيب يحلف يمينًا أنه لنتلغى الأحزاب طول ما هو قائد لهذه الحركة وللحكومة، وبذل مجهودًا جهيدًا في إثبات ولائه للديمقراطية، بينما لم يصدقه النحاس لحظة. لكن عبد الناصر الذي عاد إلى كهف الصمت توقف عند أن الوفد ليس مجرد حزب بل يمثل كافة التيارات، إذن أهلًا وسهلًا بك يا دولة الرئيس في تنظيمي القادم، هيئة التحرير، ثم ألست أنت زعيم الوفد الذي ظهر على جناحيه الإخوان والشيوعيون، فتمكنوا من الشعب وتملكوا العامة والمثقفين وتغلغلوا في الجيش بالعمامة والمنجل؟ النبي تسكت يا زعيم الأمة، فالأمة لم تعد منذ زمن وفدية ولن تعود! هذا اللواء الفارغ الذي يجلس أمامك متخيلًا أنه قائد الجيش أوقع الشعب في غرامه، والتف الناس حوله، وحين يظهر في تجمع أو جماعة يهفو إليه الجميع، وملأت صوره الصحف، وتزينت بصورته الجدران والأسوار، وقد يرث مقعدك في القلوب بعد شهر أو شهرين ولعله ورث فعلًا! اجلس في بيتك يا نحاس باشا، فالوقت وقت الجنرالات لا الباشوات! كان النحاس يلفظ نصائحه الأخيرة على الباب يودعهما :
ـ هذه نصيحة لكم لوجه الله، باسم تجاربي كلها، وأنا لا أطمع في حكم، وأتمنى لكم التوفيق، لكن أحذركم من هذا الخطأ الذي يلجأ إليه العسكريون دائمًا .
ـ شكرًا يا باشا

قرر سليمان حافظ أن يطعمهم من الشجرة التي وعدوا الناس ألا يقربوها، فعرض اقتراحه واضحًا عاريًا يثيرهم بإغراء واجهات علب الليل المحتشمة :

ـ الوفد يقيم دعوى أمام مجلس الدولة ضد القوانين والقرارات التي اتخذها مجلس القيادة، وهذا قد يقضي على كثير مما أنجزتم لهذا البلد !

فار وثار البغدادي، بينما تطاحنت أسنان كمال الدين حسين، ولكن الذي صرخ هو صلاح سالم :

ـ فاكرينا طراطير !

بينما أضاف جمال سالم :

ـ وهل القضاء يجن ويحكم بهذا الحكم؟

لكن أنور السادات هو من سأل بهدوء صبور، وقد فهم أنه سيرى أول حيلة في فقرة الساحر :

ـ والحل يا سليمان بك؟

أخرج سليمان حافظ دون محاولة لإبهار الجمهور الأرنب من العصا :

ـ هذا نص مرسوم أعددته مع المستشار السنهوري .

لمس بجنب كفه الورقة ومسح عليها وقرأ :

يعتبر من أعمال السيادة، وفقًا للمادة السابعة من قانون مجلس الدولة، والمادة الثامنة عشرة من قانون نظام القضاء، كل تدبير اتخذه أو يتخذه القائد العام للقوات المسلحة باعتباره رئيس حركة الجيش التي قامت في الثالث والعشرين من يوليو عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، بقصد حماية هذه الحركة والنظام القائم عليها، إذا اتخذ هذا التدبير في مدة لا تتجاوز ستة أشهر من ذلك التاريخ، وتنتهي هذه التدابير بانتهاء هذا الأجل .

نطق حسن إبراهيم لأول مرة طوال الساعات الست، قال :

ـ لم أفهم شيئًا من هذا الكلام؟ !

رمى عبد الحكيم وعبد الناصر ابتسامتين بينهما، بينما شرح سليمان حافظ وقد خذله السؤال وغياب تأوهات الإعجاب وربما التصفيق :

ـ هذا المرسوم يحصِّن أي قرار اتخذه القائد العام، ولا يمكن أن يتم الطعن فيه أمام القضاء !

أراد جمال سالم أن يزيد من الشعر بيتًا لحسن إبراهيم :

ـ يعني نحن أحرار فيما نفعله، ولن يحاسبنا قضاء ولا يحزنون !

أشار عبد الناصر إلى سليمان حافظ :

ـ لكن أفهم من صياغة هذا المرسوم أن التحصين لقرارات القائد العام رئيس حركة الجيش، وليس القرارات التي يتخذها مجلس القيادة؟

ارتعشت وجنتا نجيب، وأشاح بوجهه ناحية النافذة المغلقة، وحلَّق محدقًا في فضاء الغرفة الواسع الذي يضيق عليه، والسقف العالي الذي ينخفض حتى يكاد يلامس رأسه، فلا يقدر على زجر عبد الناصر على السؤال كاتمًا حنقه، فقد تلقى تقريعًا كافيًا هذا الصباح، فقد سحبه السفير الأمريكي في الكلام حين جالسه مع عبد الناصر، وأمطره بمدائح نفخت أوداجه :

ـ جنرال نجيب، نحن سعداء بأنكم لا تصرحون أبدًا بتلك التصريحات العنيفة التي يزعجنا بها ضباط سوريا بعد انقلاباتهم. أنتم نموذج للتعقل الوطني الذي يريد لبلدكم الخير بمحاربة الفساد وبناء حكومة ذات كفاءة وإصلاح الأحزاب، ولا شيء غريبًا ولا منفرًا عن إسرائيل .
انزلق لسان نجيب لحظتها، ونسي في غمرة البخور الذي أطلقه السفير الأمريكي أنه بطل حرب فلسطين، فتورط وتحدث بإنجليزية شيكسبيرية :
ـ أنا لا يهمني فلسطين !
بعدما غادر «كافري» سمع من عبد الناصر قلقه من استخدام واستغلال هذه العبارة، وسرعان ما أمسك نجيب بالتلفون، وجرى وراء السفير طوال النهار حتى عثر عليه، وطلب سحب التصريح، فوافق «كافري»، فلم يكن مهتمًّا بأن يسمع التصريح آخرون، المهم أنه هو من سمعه .
عاد نجيب بمسامعه إلى الاجتماع
أجاب حافظ :
ـ يا حضرة البكباشي، كل القرارات التي تصدر عن مجلس تذيل بتوقيع رئيس المجلس، فهو والمجلس سواء .
تدخَّل جمال سالم حاشرًا جسمه وصوته بين حافظ وعبد الناصر :
ـ خلاص، نغير الصياغة، بسيطة .
علَّق يوسف صديق وقد احمر وجهه، وندت حبات عرق فوق جبهته، وتكلم حائرًا بين الجلوس والوقوف :
ـ المسألة ليست في صيغة المرسوم بل في فحواه، هل نحن طردنا الملك كي تصبح قراراتنا نحن المقدسة، وغير قابلة للطعن والتقاضي؟ !
استغرب صلاح سالم للغاية من السؤال :
ـ وهل نفعل هذا لأنفسنا، أم لبلدنا وللشعب الذي كان نائمًا مستسلمًا خانعًا خاضعًا وجئنا فأيقظناه وأنقذناه؟ !
شارك جمال سالم في العزف بالترومبيت، وتحدث باعتباره سيد الإصلاح الزراعي :
ـ لقد استولينا على مائة وسبعة وثمانين ألف فدان، يملكها مائة واثنا عشر من كبار الملاك، كي نوزعها على الفلاحين، هل تريد أن يقيموا دعاوى على قراراتنا ويلغيها قاضٍ عنده خمسمائة فدان أو ابن واحد من الباشوات؟! ماذا جرى لك يا أخ يوسف؟ !
تدخَّل عبد المنعم أمين، وكان قد استأذن لمكالمات عاجلة وعاد فسمع كلام يوسف صديق :
ـ أليست هذه هي الاشتراكية يا أخ يوسف التي تنادي بها؟
رد صديق متخاشنًا :
ـ اشتراكية السفير الأمريكي !
تذمر عبد المنعم أمين، واستنجد بنظراته بعبد الناصر، لكن زكريا هو من حاول أن يحسم الأمر :
ـ هل مفروض إننا نستأذن في تطهير البلد من الخونة والمأجورين والمستغلين؟ !
رد يوسف صديق :
ـ لأ يا زكريا، لكن نحن نفعل كل هذه الإجراءات كي نمهد الطريق لحكم ديمقراطي حر، وليس لتحصين أنفسنا !
قاطعه السادات :

ـ لا، لم نتفق على هذا !
لمح عبد الناصر ساعتها جمال القاضي يقف على باب الغرفة مترددًا محجمًا عن الدخول وسط صخب النقاش، ومتحمسًا للوصول إلى عبد الناصر، فيما يبدو أنه أمر عاجل. كان الداخلون والخارجون إلى الغرفة خلال هذه الاجتماعات الطويلة كثيرين، وبدا دخول جمال القاضي طبيعيًّا، فهو نائب مدير البوليس الحربي، لكنه لم يكن
كذلك عند عبد الناصر، فهو يجتمع بالقاضي ومديره أحمد أنور بشكل منفرد كل يوم، فلماذا يبدو مهتمًّا بأن يحدثه في اجتماع المجلس؟ أشار له بالدخول والوصول عنده، ثم همس القاضي في المساحة الفاصلة بين شفتيه وأذن عبد الناصر الذي بدأ يبتسم، ثم يضحك، ثم يسأله عن أصل الحكاية، وهو ممسك بورقة ترتجف بين يديه الضاحكتين، حكى جمال القاضي :
ـ كان صلاح سالم يقود سيارته الجيب متجهًا إلى منشية البكري، وأثناء مروره في ميدان باب الحديد، فوجئ بسيارة ملاكي يقودها رجل وتجلس في الخلف سيدة حسناء، ولاحظ صلاح أن السيارة مسرعة، وفجأة انحرفت السيارة واحتكت بسيارته بقوة، وتوقف صلاح سالم قائلًا للسواق: «مش تحاسبوا يا جماعة!»، وفوجئ صلاح بالسائق وهو يوجه إليه سيلًا من الشتائم والسباب وانطلق بسيارته، فما كان من صلاح إلا أن انطلق وراءه بسرعة، وظل يتعقبه إلى أن وصلوا إلى محل يملكه رجل اسمه الزعبلاوي من أشهر محلات أطقم الكراسي الحديدية في مصر !
أومأ عبد الناصر بأنه يعرفه طبعًا، ثم أضاف بنفس درجة همس صوته :
ـ هل كان صلاح يقود سيارته بنفسه؟
ـ واضح أنه نعم .
ـ أكمِل
واصل القاضي حكايته :
ـ نزلت السيدة الحسناء ودخلت المحل، ونزل الصاغ صلاح سالم من سيارته ولحق بها وعاتبها على قلة أدب سائقها، وبدلًا من اعتذارها له فوجئ بها تشتمه أيضًا، ففقد الصاغ صلاح أعصابه أمام هذه الإهانة فضربها بالقلم على وجهها !
ـ يا نهار أسود! الله يخرب عقلك يا صلاح
ثم اختلس عبد الناصر نظرة إلى صلاح المحموم الآن بالرغبة في إفحام يوسف صديق، وضحك كاتمًا قهقهته، وكان قد أخذ يد القاضي وابتعدا إلى ركن الغرفة الأبعد، بينما القاضي يكمل :
ـ حتى هذه اللحظة لم تكن السيدة تعرف أنها شتمت الصاغ صلاح سالم، ولم يكن هو يعرف أنه ضرب الممثلة الشهيرة نعيمة عاكف !
صاح عبد الناصر واضعًا كفه على فمه :
ـ يا خبر أبيض، ضرب «لهاليبو»؟ !
تعجب جمال القاضي من أستاذه وقائده الذي يعرف فيلم «لهاليبو» لنعيمة عاكف، وقرر أن يسأله عن رأيه فيه لكن بعد أن ينتهي من هذه المشكلة المرمية على كتفيه :
ـ المهم أن «لهاليبو» فاجأت الصاغ صلاح وحاولت ضربه ومسكت بخناقه وبهدلته، والزبائن في المحل يتفرجون ويستغربون، وصاحب المحل يحاول فك الاشتباك وهو يقول لها: «هتودي نفسك في داهية، هذا الصاغ صلاح سالم عضو مجلس القيادة يا ست نعيمة!». وانهارت نعيمة عاكف وبكت، وحاول بعض الزبائن الاعتداء عليها بعد أن عرفوا شخصية صلاح سالم، وشخط صلاح

في الناس وأمرهم بالانصراف، واتصل بي تلفونيًّا، ويكاد صوته ينفجر من الغضب والصراخ، وحكى ما جرى له، وختم المكالمة بقوله: «أنا اتهنت والقيادة اتهانت من هذه السيدة! وأنا باكلمك دلوقتِ من محل الزعبلاوي». المهم أنني هدأته وطيبت خاطره، وكان أحمد أنور قالي لازم نعمل ما يأمر به الصاغ صلاح، فأرسلت سيارة من البوليس الحربي بها اثنان عساكر لإحضارها إلى البوليس الحربي، وبمجرد أن وصلت نعيمة عاكف ...

ـ «لهاليبو» في البوليس الحربي؟ !

قالها عبد الناصر متسليًا جدًّا، وواصل الإنصات إلى قصة صلاح ونعيمة، ناسيًا تمامًا مرسوم تحصين قرارات مجلس القيادة :

ـ قعدناها في غرفة لوحدها حوالي ساعتين تقريبًا، وكانت منهارة تمامًا. ثم دخلت عليها الحجرة، وقلتلها حضرتك غلطتِ في حق الصاغ صلاح سالم، وهو عضو مجلس القيادة، وهو مصمم على تقديمك للمحاكمة، وإحنا قاعدين نتحايل عليه مفيش داعي لكنه مصمم، فازداد بكاؤها وهي تقول: «يا سعادة البيه، ما يعرفك إلا اللي يجهلك، أنا ما كنتش أعرف.. سواقي هو اللي شتمه.. في الأول.. ولما سعادة البيه حاول يوقف عربيتنا ونزل ورايا عند محل الزعبلاوي، افتكرته واحد قليل الأدب جاي يعاكسني ويضربني وحصل اللي حصل!». قلت لنعيمة نسيب الموضوع شوية لغاية ما الصاغ صلاح يهدى والمشكلة تتحل بإذن الله! وسألتني نعيمة: «طب أقدر أمشي دلوقتِ؟». فقلتلها لا، إنتِ هتفضلي عندنا شوية لغاية ما نشوف هنعمل إيه. وخرجت من غرفتها، وحانت ساعة الغداء، فأرسلنا لإحضار كباب من أبو شقرة (بعشرة قروش)، وأدخلنا إليها الكباب، ورفضت أن تأكل! يا أفندم الست نازلة بكاء، وحالتها تصعب على الكافر، وحاولت تهدئتها ورجوتها أن تأكل لكنها رفضت تمامًا. وخطرت لي فكرة للخروج من هذا المأزق الغريب، فطلبت من نعيمة عاكف أن تكتب اعتذارًا للصاغ صلاح سالم، فيتنازل عن فكرة المحاكمة، وفوجئت بها تقول لي إنها لا تعرف الكتابة !

اندهش عبد الناصر تمامًا :

ـ معقولة! أمية !

ـ أنا أيضًا اندهشت، واقترحت عليها أن أمسك يدها وتقول هي صياغة الاعتذار وأتولى أنا تحريك يدها إلى أن تنتهي من كتابة الاعتذار .

ـ لا يا راجل! أمسكت يدها؟ !

ـ آه، كي تكتب .

ـ فكرة غريبة جدًّا! واضح إنكم جربتم هذه الطريقة على سجناء كتبوا اعترافاتهم على طريقة نعيمة عاكف !

حاول القاضي أن يبرئ نفسه من تزييف اعترافات معتقلين، لكن عبد الناصر استعجله أن يكمل، وكان زملاؤه ينادونه فيتجاهلهم ويشير لهم بالصبر، بينما شك صلاح سالم في وقفتهما فصمت عن حوارات استفزاز يوسف صديق وتركه لأخيه جمال الذي قفز في الحلبة يكمل الجولة .

كان جمال القاضي يمسك بالورقة التي في يد عبد الناصر ويقرأها له مفككًا الخط الغريب :

عزيزي صلاح،

بكل دقة في قلبي، وكل شعرة من رمش عيني، أنا أعتذرلك وأقولك أنا آسفة جدًّا وحقك عليَّ وما تزعلش مني، ويا بخت من قدر وعفي وسامح، والترضية اللي تؤمرني بيها أنا تحت أمرك فيها،

ومرة ثانية أنا باعتذرلك وحقك عليَّ، وأرجوك أن تصفح عني وتسامحني .
خطف عبد الناصر الورقة، وعاد إلى مائدة الاجتماعات، فجلس وأخذ يقرأ الاعتذار مرة أخرى، ثم باغت مشهده الجميع، فقد كان صوته متقطع الأنفاس من الاهتزاز مقهقهًا. وكان عبد الحكيم عامر هو من سأل القاضي :
ـ ما الحكاية؟
كان ضحك عبد الناصرقد جرح وقار سليمان حافظ الذي شك أنه يجلسفي مجلس اتحاد طلبة، بينما كان نجيب مرحًا بمرح عبد الناصر الذي عدى الجميع بالابتسامات، فيما عدا صلاح سالم الذي توجس مما يدور، بينما عبد الناصر يطلب من القاضي أن يرد على سؤال عبد الحكيم ويحكي، فحكى، فسرى ضحك قرقع المكان كله، وعبد الناصر يقرأ بصوت عالٍ الورقة :
ـ عزيزي صلاح، بكل دقة في قلبي، وكل شعرة من رمش عيني، أنا أعتذرلك وأقولك أنا آسفة جدًّا وحقك عليَّ وما تزعلش مني ...
لكن الضحك منعه من المواصلة، بينما شخط صلاح سالم في القاضي من وراء نظارته السوداء :
ـ ما هذا الكلام الفارغ يا قاضي؟! امشي يا وله من هنا! نحن نحدد مصير البلد وأنت مشغول بنعيمة عاكف؟! خليها مرمية في السجن عندك تتأدب !
لكن عبد الناصر في استراحة بين ضحكتين قال :
ـ خلاص يا صلاح اغفرلها، الست بتعتذرلك برمش عينها !
انفجر صلاح في الضحك فجأة، فسمح للآخرين بالقهقهة المتحسبة عدوانيته، وقال مشيحًا بكفه :
ـ رح أفرج عنها .
كان يوسف صديق قد وصل إلى درجة من الغيظ قد تمزِّق رئته، بينما سليمان حافظ يحاول أن يستعيد مصير البلد من مصير نعيمة عاكف، ووجدها فرصة كي يطرح عليهم فكرته حول قانون جرائم الغدر. هذه المرة امتلك اهتمامهم ووضعه في جيبه
*
أمر عبد الناصر سائقه بالركوب مع سائق عامر والسير وراءه، بينما اختلى بحكيم بعد هذه الساعات الطويلة في مجلس القيادة. كان الوقت غامضًا بالنسبة لهما، هل هو مغيب يودع النهار أم صبح يفلفص من الليل؟ كانت أيامهمتائهة بين الغسق والشفق . يشعر عبد الناصر باختفاء ذبذبات التوتر في الهواء اللافف حول عنقه بوجود حكيم بجانبه، وسط زحام الوجوه، وصخب النقاشات، وضباب المشاعر، وسحب القلق، وسرابات الثقة. تهدأ روحه بألفة وجود عبد الحكيم، كأنهما في سكنهما القديم في غرفتهما الأقدم. يتشمم دفء الصحبة وأمان الصداقة وإخلاص المحبة، الرجل الذي ينام معه في غرفة واحدة، وربما سرير واحد، آمنًا دون جفلة توتر ولا رجفة قلق، ولا تخوف من تربص، ولا توجس من ترصد، صاحبه ورفيقه وصهره وشريكه، يعرفه الجميع لكن حكيم هو من يفهمه . أهو شريكي أم ذراعي اليمنى؟ لم أسأله يومًا هذا السؤال، ويا ليتني لا أسأله أبدًا ! عبد الحكيم أشعل سيجارة لعبد الناصر وقدمها له، بينما استمهل نفسه لحظة للكلام قبل أن يشعل سيجارته :
ـ الوفد طلع مومياء .
ـ صحيح، لكن المومياء تحتاج إلى تابوت .حافظ والسنهوري ومعهما فتحي رضوان يسعون لقتل الوفد، دون أن يتحسبوا ماذا سنفعل بالجثة! مشي الوفد الليلة وألغينا الأحزاب، ألسنا في حاجة إلى

بدائل تسندنا في حركتنا وقراراتنا، وتدعمنا في الشارع، وتنظم الجماهير التي تؤيدنا بعواطفها وفرحانة بنا، وتواجه الوفد المعشش في كل حتة والإخوان اللابدين في كل عشة؟
كان قد وقف عند بيت حكيم في قشلاق العباسية، وقد انتبه الجنود وزنهرت الحراسة، ولم يبرح ناصر وحكيم سيارتهما :
ـ انزل اشرب قهوة ولا نعمل غداء .
لا يبرح العمدة مقعده في قلب عبد الحكيم عامر. كل الابتسامات التي يراها عبد الناصر متوددة، لكن ابتسامة حكيم هي وحدها الودودة، كرمه ودفئه ورائحة العائلة التي تنضح من تصرفاته تربت على عبد الناصر الذي استمر يشرح :
ـ شفت الإخوان، رغم كل خلافاتهم متماسكين، والمرشد عندهم ربنا، أنا بقى عايز تنظيم مثل الإخوان لكن بمبادئنا نحن، ولاء وطاعة وتوحد بيننا جميعًا، لا وقت للخلافات وشغل الأحزاب ولزوم السياسة، عايزين البلد تقوم !
ضحك حكيم :
ـ هل بتحفَّظ طعيمة والطحاوي هذا الكلام؟
ـ زكريا لا يتوقف عن التجسس عليَّ !
ـ علينا كلنا يا أخويا
ثم أردف مقهقهًا :
ـ لكن أنت الوحيد الذي تقرأ كل التقارير حتى عن نفسك، خذ بالك هما الطحاوي وطعيمة إخوان زمان، لكن وديني ما قرأوا كتابًا واحدًا في حياتهم، ولا دخلوا مكتبة الكلية التي كنت مغرق نفسك فيها .
ـ بمناسبة التقارير، الزملاء في مجلس القيادة نسوا أسلحتهم، والاجتماعات في الفرسان والمدفعية خطر، لن نستطيع أن نفعل شيئًا للبلد لو الجيش اهتز تحتنا وفك من يدنا !
ـ فعلًا، الوضع بدأ يقلق
ـ لازم نشوف حلًّا في رشاد مهنا
ـ وعبد المنعم عبد الرؤوف .
ـ أنا سأقابل السندي الليلة
ـ يا جدع انزل نأكل لقمة بلا سندي بلا نيلة !
أدار عبد الناصر موتور السيارة، وربت على كتف حكيم :
ـ أنا بقالي يومين لم أدخل حمَّام بيتنا، ونصف فوط البيت بقت عندي في المكتب !
ـ فاكر لما كنا بنغسل الهدوم مع بعض، وأنا أقولك ما نجيب شغالة تغسل، تقولي لا يمكن حد يشوف غياري؟
ـ عيب يا جدع اختشي
نزلا، وتصافحا واحتضنا، وفهم سائق عبد الناصر أنه سيتسلم السواقة الآن فاتجه إلى مقعد السائق، بينما همس عبد الناصر ضاحكًا في أذن حكيم :
ـ الراجل السفير الأمريكاني يطلق علينا في سكراته «عصابة روبن هود »!
انصرف عبد الناصر، وودعه حكيم ووقف أمام باب البيت وقد صافح الحرس، وسأل عن كل واحد بالاسم مطمئنًّا على أحوالهم، فإذا بعبد الناصر قد عاد برأسه من نافذة السيارة التي فتحها

وأطل برأسه حتى رأس حكيم :
ـ ممكن تفاتح عبد المنعم أمين في إن الكلام كثر حول زوجته، تتكلم كثيرًا وتتدخل أكثر، وحفلاتها زادت .
أومأ حكيم موافقًا، ثم رفع كفه محييًا صديقه
*
ـ أنا قلت ألجألك يا أخ عبد الرحمن .
قالها عبد الناصر ونظر في هاتين العينين الناضحتين بالحقد المقدس، المرهق بحمولته من الحقد والقداسة. إنه عبد الرحمن السندي المخيف، صاحب الاسم الرنان الطنان في آذان الإخوان، رئيس التنظيم الخاص الذي أرجف وأرعب وأخاف وأفزع، يجلس أمام عبد الناصر الآن في غرفة الصالون في شقته. منذ سنوات جلس عبد الناصر أمامه في بيت غريب في غرفة أغرب وأقسم الولاء للإخوان. كان هو السندي ولا شك من تلقى البيعة منه، القسمات المخفية تحت عتمة الغرفة، وجدية الوجه الصارم، والكف الصغيرة التي لا تبدو كف فلاح خشنة ولا كف عامل مجهدة، بل كف تأمر وتتلقى البيعة. لم يحب عبد الناصر السندي حين رأى وحين سمع، لكنه أعجب به كما تعجب. حسن البنا عند عبد الناصر مبهر في بناء تنظيم، لكن الأكثر إبهارًا هو السندي، فقد بنى تنظيمًا سريًّا داخل تنظيم علني، ويختار رجاله ممسوسين بالجهاد للجماعة، وولاؤهم أعمى وأصم وأبكم لقائدهم السندي وحده، ويخفيهم حتى عن مرشد الإخوان، ويخيفه بهم. هذا رجل لم يكمل تعليمه ليكمل رسالته، ويدخل جماعة ليصبح بعد قليل من الوقت أقوى من مرشدها المؤسس. ما رأيك يا سندي، ها هو عبد الناصر بنى تنظيمًا داخل الجيش مفترض أنه سري، ونجح فيما لم ينجح فيه أحد؟ لم يكن السندي متعاطفًا مع تنظيم الإخوان داخل الجيش، ولم يكن يراه إلا ضربًا من عبث، ليس لأنه ضد اختراق الجيش بالإخوان، بل لأنه ضد اختراق الجيش بالصاغ محمود لبيب. لقد انتزعوا منه بهدوء وبربية خلية الضباط، وأوكلوها لمحمود
لبيب، ضابط مثلهم. صمت السندي عن تخلي الخلية التي بايعت على يديه، لأنه لم يحب هؤلاء الضباط ولا وثق فيهم وفي إيمانهم وولائهم للجماعة. رأى هذا النفور الذي يطل من عيني عبد الناصر منذ اللحظة الذي تساءل فيها عن دور الضباط في الجماعة وعن أهداف الجماعة، إنه تساؤل أزعجه، وإنه يبحث عن دور فهذا أزعجه أكثر، ثم هذه الجملة التي رددها فترددت :
ـ إن خطة انتظار الشعب كي يتأهل دينيًّا وينتمي للإخوان حتى يصل الإخوان إلى الحكم طويلة جدًّا، ثم إنها لا تجعل لضباط الجيش دورًا ملموسًا ونصبح تابعين لا متبوعين .
الغريب أن صلاح شادي الذي نقل هذا الكلام للمرشد لم يرد ويردع عبد الناصر عن تبجحه وتحججه، فهو مسؤول مكتب الوحدات في جماعة الإخوان، ويتبع له تنظيم الجيش بخلية جمال عبد الناصر، فكان أولى به بداهة ودهاء أن يلجم تساؤل هذا الضابط، ويعلمه ولاء العضو، ويعطيه درسًا في السمع والطاعة، لكنه لم يفعل لأنه رخو لا يقدر على تلك المكانة التي منحها له البنا نكاية في أن السندي الذي أمات وأحيا، حاول أن يقتطع من إقطاعيات الجماعة التي تحت يدي، فخيل إليه أنه في غزوة حنين، ويملك أن يعطي وأن يمنع، واستغلوا الزج بي في السجن، فها هي الجماعة انحلت والبنا اغتيل، ثم في النهاية يخطفون منه منصب المرشد ليغنمه هذا الفارغ العويل حسن الهضيبي. إنها المؤامرة التي شارك فيها حسن الباقوري الذي طمح لمنصب المرشد، فلما رآني منافسًا قاهرًا التف مع غيره ليبايعوا هذا الفسل. والله لن يهنأوا بها، وها هو الباقوري

حين وجد الهضيبي يتمكن ويتقوى ويتسلطن على كرسيه، يهجر حلم المرشد الذي سكن تحت عمامته دهرًا، ويقبل بمنصب الوزير مع عبد الناصر . ها هو هذا الشاب الذي دخل عليه في يوم ما يبايعه، فأدرك السندي بعيني خبير في فرز الرجال، وفحص القلوب بالنظرات، وكشف الغور من الوجه، أن هذا الضابط الأخضر حائر، يسعى بطفولة الدين ومراهقة السياسة ليكون عضوًا في تنظيم الإخوان، معجبًا بالحشد والضبط والربط والقوة والرهبة، لا يزال أمامه حتى يتعلم ويستوعب، الكثير من الوقت والجهد، خصوصًا تلك النظرة المعتزة بكتافتيه وكاكية بذلته. السندي الذي جند العشرات والمئات، وكان يقذف بهم للنار، فإن قال اقتلوا فلانًا قتلوا، أحرقوا هناك حرقوا، فجروا هنا فجروا، هو الذي جعل من حسن الصباح وحشاشينه تاريخًا حقًّا، فقد صنع السندي حشاشينه بعد مئات السنين التي ظنوا أن أحدًا لن يقدر عليها ثانية أبدًا فقدر، هو حسن الصباح مضافًا إليه روماتيزم صدري مزمن. هذا الولد يجلس الآن على عرش مصر، ودعك من الرجل الطيب محمد نجيب، فهذا أشد خيال مآتة وقارًا اختاره عبد الناصر المنتصر . وعبد الناصر يلاعب الإخوان، فدعه يلاعبهم، بل لأساعده وأعينه على اللعب والتلاعب، فالهضيبي يجب أن يعرف من هو الحاكم بأمر الإخوان، ومن هو الأحق بالحق في خلافة البنا الذي حين تخلى عني تخلى الله عنه. نحن في جهاد لله، ولا فضل للقاعدين على المحاربين. كيف يظن هؤلاء العالة المتكسبون من الإخوان أنهم قادرون على مغالبتي؟ إن هذا الهضيبي مغفل، وصل به الأمر أن يكلف غيري برئاسة التنظيم الخاص، أأهبل هذا الرجل لا يعي، أم خنيس خبيث ألعوبة الماسونية ويد الإنجليز في تفتيت الجماعة وتشتيت رجالها القوامين وإذهاب ريحها؟ ليس لهذه الجماعة بغيري قيامة، وليس لهذا الهضيبي أن يغلبني أبدًا. أعرف أن عبد الناصر أتى بي متقويًا على المرشد، وأنه يطلب مني المحالفة، يريد أن يركب الجماعة ويسوقها لصالحه، يضرب بها هذا ويهدد بها ذاك، ويستعين بها على الوفد، ويعتمد عليها في الشارع والجامع، ويضمنها في الجامعة، ويصنع منها قبضات وصفعات، يردع بها كل خصم، ويروع بها كل عدو. إنه يريد آلاف الإخوان متظاهرين ضد الأحزاب، حالفين باسم الجيش، جمهورًا يهلل ويكبر لما يفعل. حسنًا، وما الثمن؟ هو يريد الجماعة ولا يرى مفتاحها مع الهضيبي، ويسعى عند مبايعه القديم لبيعة جديدة، لكنها هذه المرة بيعة مشروطة، أو بيعة مقايضة، امشوا خلفي (أو معي كي لا تتحرجوا) وأنا أمكنكم من مفاصل الدولة ومفارق الحكم. يتخيل عبد الناصر أنه يتعامل مع رفاقه السذج الطيبين في مجلس القيادة، أو أنه يتفاوض مع زميله اللدود عبد المنعم عبد الرؤوف. طيب رؤوف، رجل غشيم بهيم أحيانًا، هو الطين اللازب المخلوق منه السمع والطاعة، لكن أنا لست غريرًا يا فتى الإخوان الضال كي تغريني بما لن تنوي على فعله، أيها الثعلب متى تخلى ثعلب عن دجاج حظيرته؟ أأتعاون معك كي تأخذني لحمًا وترميني عند أول ناصية عظمًا؟ أنا السندي يا ولد، لا تظن أن كابك والحرس الذين يقفون ديدبانات على باب شقتك، وفي مدخل العمارة، وعلى أول الشارع، وتلك السيارة الجيب المركونة عند الرصيف، سوف يجعلون بروجك مشيدة. عمومًا سأتركك تظن أنك تلعب بي لأنني أحب لعبتك، فهذه الجماعة مختطفة، وهؤلاء الإخوان يخونونني. أنا أريد الجماعة وأنت تريد محالفتها، أنا أستعيد قيادتي وأنت تسعد بانقلابك .

كان السندي قد وصل إلى خلاصة خلاصه من إخلاصه للبنا عند باب شقة عبد الناصر: لو أن لهذه الجماعة أن تعيش، فلتعش بي ومعي، وإن قررت إبعادي وإقصائي فلتمت الجماعة حتى لو مت معها، فالإخوان بغير السندي إخوان بغير إخوانيتها. أنا جذر الجماعة وبذرها وزارعها

وحاصدها، لن يحدث معي ما حدث مع السكري نائب البنا الذي أسس وبنى فدفنه البنا تحت بنائه، لست أنا الذي تجعل مني يا بنا من قبرك وبهضيبك فحمًا لبخار قطارك وتدوس عجلاتك فوق عظمي أبدًا !
سمع الجملة هكذا من عبد الناصر :
ـ قلت ألجألك يا أخ عبد الرحمن، وأنت تعرف الاحترام والمودة والمعزة التي أكنها لك .
جائز الاحترام فأنت تحترم القوي المكين، لكن حكاية المودة والمعزة هذه فإنها من زوائد الكلم. أنصت السندي محاولًا بجهاد شديد منح شفتيه شكل الابتسام، هو عمومًا لا يبتسم كثيرًا، بل لا تبتسم أبدًا شفتاه، جهامة جلل المسؤولية وعظم المهمة أثقلتها، فلما حاصروه بالسجن سنوات وبالهضيبي مرشدًاأغلقتها .
ـ إنت عارف طبعًا يا أخ عبد الرحمن ما فعله المرشد معي ونحن نشكل الحكومة، بعدما رشح لي الشيخ الباقوري وأحمد حسني وزيرين من الإخوان ضمن الحكومة، رجع في كلامه وقالك لأ، منير الدلة وحسن عشماوي، هل هذا كلام؟ بعدما بلغت الاثنين وتقابلنا ووافقا ونزلت الأسماء يتراجع؟! والمفروض نبلع الإحراج والإهانة ونوافق. لقد كنت أريد للإخوان أن يعرفوا أننا يد واحدة في حكم البلد، ثم حكومة اللواء نجيب من المدنيين كلها، وأخذنا من الأحزاب القديمة الحزب الوطني فقط، وكان لا بد يبقى فيها الإخوان. خذلني المرشد رغم أن الشيخ الباقوري كان عظيمًا حين قرر الاستقالة من مكتب الإرشاد كي يبقى وزيرًا معنا، وأيضًا أحمد حسني، إنت عارف معنى إننا نجعل وزير العدل إخوانيًّا؟
أومأ السندي لما سمع جملة عظمة الباقوري، أي عظمة تلك إلا لو كانت عظمة من عظام السلطة التي يركض وراءها الباقوري، فلما أعيته في الإخوان وذاب شمع حلمه بمنصب المرشد، جمع الشمع الذائب وذهب به إلى الحكومة؟ إن الباقوري يكره الهضيبي الذي حطم حلمه، أكثر مما يحب عبد الناصر الذي وضع له قطعة من جبنة الحكم في المصيدة، ثم إن المرشد لم يرشحه ممثلًا عن الجماعة في الحكومة إلا للتخلص من منافسته ومزاحمته على مقعد المرشد، ولم يتراجع عن الترشيح إلا عندما خشي من أن يكون الباقوري ورقة على مائدة عبد الناصر وعمامة الجيش الإخوانية (والحقيقة كان عنده حق، وعملها الباقوري فعلًا، فصار خطيب الحفلات والمؤتمرات والسرادقات والقشلاقات، ولم يبخل بأي آية قرآنية ولا حديث نبوي على محمد نجيب وحركته). أمسك الباقوري باللحظة، وأحب أحمد حسني لقب الوزير، لكنهما لم يتمردا على الإخوان، بل مردا على النفاق، انضما لنجيب رئيسًا للحكومة ولعبد الناصر رئيسًا للحكم .
عاد عبد الناصر برأسه للخلف بعدما قام وتناول صينية الشاي من عسكري المراسلة المقيم على الخدمة في الشقة، وقدمها بنفسه إلى السندي الذي بدأ يسأل نفسه عن هذا التواضع وتلك الحفاوة: أصنيعة عبد الناصر المفاوض أم عبد الناصر المضيف؟ لكن عبد الناصر المفاوض حين عاد برأسه للخلف ثم نظر من أعلى قد كسب عبد الناصر المضيف وهو يقول :
ـ لقد أصدرنا قرارًا بالعفو عن كل المسجونين سياسيًّا أيام الملك، ولكننا استثنينا الشيوعيين ولم نعفُ عنهم، أليس في هذا دليل عمن نحن وكيف نفكر وماذا نريد؟
أومأ السندي محدثًا نفسه بالسوء: بل دليل على أنكم تطلبون ود الأمريكان، ففتحتم أبواب الحريةأمام السجناء جميعًا عدا الشيوعيين، أحكمت أقفال زنازينهم سعيًا لمحبة الأمريكان ورسالة للسفارةبأنكم على العهد، كما رفضتم السنهوري رئيسًا للحكومة لما بلغكم رفض الأمريكان له

واتهامه بالشيوعية! حسنًا يا جمال يا عبد الناصر، أحسن تقدير ذكائي فأنا في موقع أستاذك أيها البكباشي !
ـ ثم ذهبت للمرشد مع زملائي، بل ومرتين التقيت به وثلاثًا .
تساءل السندي: متى يعتقل عبد الناصر المرشد فعلًا؟ فكل من زارهم عبد الناصر سجنهم! وحمد الله أنه يزور عبد الناصر وليس عبد الناصر من زاره
ـ ورغم كل ما فعلناه فلا يزال الإخوان يلعبون من ورائي في الجيش، طبعًا أنت تعرف ما يفعله عبد المنعم عبد الرؤوف واجتماعات ضباط وصولات الإخوان ولعبهم مع رشاد مهنا، يعني هل يتصور الإخوان أن رشاد مهنا أقرب للإخوان من جمال عبد الناصر؟ معقولة هذا السلوك يا أخ عبد الرحمن؟! أنا على يقين أن عبد الرؤوف لا يتصرف بنفسه، فهو ملتزم بقرارات المرشد كأنها قرارات قادمة من جبريل، فهذا ليس تصرفًا فرديًّا ولا نابعًا من أن عبد الرؤوف فاكر نفسه صاحب تنظيم الضباط الأحرار، لأ، الحقيقة لأ، عبد الرؤوف ينفذ أوامر المرشد
ثم تحسس عبد الناصر موضع جرح السندي ودس ملحًا :
ـ أنا أتكلم معك بحرية رغم أنك مسؤول التنظيم الخاص، والمفروض أن يدك تطول كل عضو في الجماعة وكلمتك فوق المرشد .
ابن اللئيمة يعرف أنني لست كذلك، وأنني في زاوية الحلبة واللكمات تضرب من كل جهة، فيعايرني أم يستفزني أم يحرضني أم كل هذا معًا؟ خلاص فهمت يا عبد الناصر ماذا تريد، قلها إذن. لكن عبد الناصر كان يخبئ سهمه الأخير، منذ دخل السندي وقوته تتقشر أمام عبد الناصر، رآه ضعيفًا مخذولًا يطلب بكبرياء المعتد العون، نمر جريح يداري جرحه بعشب يابس من غابة محروقة، الإخوان يتطاحنون مع بعضهم، والسندي غير مصدق أنه محاصر من نكرات الجماعة الذين ما كانوا يملكون رفع عيونهم أمامه ما بالك برؤوسهم، يتطاولون عليه وطالوا تنظيمه، ينزعونه عنه وهو ينازعهم، يريد المرشد أن يرث سيد فايز مساعد السندي وساعده، التنظيم الخاص من السندي الذي يريدونه فردًا ضعيفًا ضئيلًا يتلقى الأوامر من مسؤول أسرته ويطيع فضيلة مرشده، السندي لن يستسلم
تأمل عبد الناصر نظرات السندي الكاسرة تتكسر، فقواه بابتسامة ورجاء :
ـ أرجو أن تكون موجودًا غدًا في المركز العام للإخوان المسلمين .
تنبه السندي، وسلم دهشته لسؤاله :
ـ لماذا؟ !
كان قد تذكر نفس الرجاء الذي سمعه من عبد الناصر منذ شهر أو يزيد، وكان في بيت السندي ليلتها، وكان عبد الناصر يتمم صفقة شراء بعض وده وجزء من ولائه فأبلغه :
ـ يصدر غدًا عفو عن المحكوم عليهم من الإخوان في قضية قتل المستشار أحمد الخازندار .
وقع الخبر في قلب السندي فأرعشه، فهؤلاء رجاله، وهو صاحب خطة القتل وقراره، وكأن عبد الناصر حين يفرج عن قتلة مدانين معترفين متلبسين إنما يفرِّط في دم المستشار المغتال، وكأنمايقدم للسندي ولاء بالدم. ثم أضاف البكباشي الذي وقف ربماكي يتحدث من علٍ إلى السندي القصير :
ـ أيضًا صدر قرار بالعفو عن الإخوان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في قضية قتل محمود النقراشي رئيس الوزراء الذي حل جماعة الإخوان .

انطلقت زغاريد في قلب السندي، فلم يلبث قتلة النقراشي إذن إلا قرابة أربع سنين فقط، لو كانوا قد قتلوا بهائم عزبة النقراشيلمكثوا أكثر من هذا الوقت في السجن، إن عبد الناصر يغازل الإخوان غزلًا لا يمكن وصفه بالعفيف، فما العفة فيما يفعله؟ بل هو غزل صريح مكشوف أقرب إلى التغنج، خصوصًا عندما أضاف له أن العفو سيشمل الإخوان المحكوم عليهم في قضية إلقاء قنابل على المدرسة الخديوية .

أضاف عبد الناصر :

ـ هذا عفو خاص، وليس عفوًا عامًّا للسجناء في قضايا سياسية يا أخ عبد الرحمن .

كاد السندي لحظتها يطلب من عبد الناصر أن يكف عن هذا الاندلاق العاطفي، لكن الرجل أسقاه بعد أن أطعمه حين أضاف :

ـ سيخرج الإخوان المعفو عنهم من السجن إلى مقر المركز العام للإخوان، وطبعًا سيستقبلهم إخوانهم أبطالًا، فمن أولى بهذه اللحظة من قائدهم عبد الرحمن السندي، يحصد فخر اللحظة وفرحها، لا الهضيبي الذي كان بعيدًا قصيًّا غريبًا عن الجماعة يوم قتلوا ويوم حوكموا !

شكر السندي عبد الناصر وحمد الله وحمده ليلتها، وها هو يندهش اليوم من تكرار طلبه ثانية بأن يذهب إلى مقر الإخوان غدًا :

ـ ما الذي سيحدث غدًا في المركز العام يا أخ جمال؟ أمفرج عنهم وقد خلت السجون من الإخوان منذ قامت حركتكم المباركة؟

قالها بشبح من ابتسامة، فرد عليه عبد الناصر :

ـ بل سيزوركم أحمد طعيمة وإبراهيم الطحاوي .

أومأ السندي متذكرًا الاسمين، فهما ضابطان كانا في جماعة الإخوان أيضًا، وشردا في تنظيم عبد الناصر، ولعل لهما مكانة الثعالب الصغيرة تحت ظلال الكروم. أكمل عبد الناصر خبره :

ـ وسيعرضان على الإخوان عرضًا مهمًّا أريدك أن تسمعه .

ـ أسمع العرض؟

ـ لا، بل تسمع رد الإخوان .

ثم أضاف عبد الناصر وهو يميل برأسه وجذعه ناحية السندي :

ـ سنعلن هيئة التحرير، تنظيم جديد يضم كل عناصر الأمة بديلًا عن هذه الأحزاب الفاسدة، العرض أن الإخوان ينضمون للهيئة وأنت تبقى أمينها العام .

رجع السندي برأسه وظهره وعقله للخلف . عبد الناصر إذن يقدم الجزرة للإخوان ويخبئ وراء ظهره العصا، الإخوان لن يقبلوا تسليم جماعتهم لعبد الناصر، ولعبته الجديدة. وعبد الناصر لن يقبل أن يستمر الإخوان يلعبون وحدهم لعبتهم القديمة .

أومأ السندي موافقًا، ليذهب غدًا ويشهد الإخوان وهم يشعلون فتيل عبد الناصر

جلجلت هتافات الطلبة فأطربته وبلبلته، كان يتمنى هذه اللحظة منذ خضاره، أن يقف في طلبة الجامعة خطيبًا زعيمًا، فحصل عليها، لكنهم يهتفون للحرية وليس الجلاء. أين هؤلاء الطلبة الإخوان؟ أحين أحتاج إليهم يتوارون؟ ترك الصخب السياسي والمظاهرات الطلابية والأحزاب التي تضطرم داخل أسوار الجامعة، وذهب عبد الناصرإلى الكلية التي تخرج منها بعد شهور قليلة ضابطًا برتبة ملازم، بينما زملاؤه في الحقوق ما كانوا قد أنهوا السنة الثانية من الجامعة، وهو يعلق على كتافته نجمة، ويأمر وينهى في عساكر أكبر سنًّا، وصولات في عمر والده. ماذا لو كنتُ أنابالطربوش لا الكاب؟ ماذا لو كنتُ قد دخلت الآن مبنى الجامعة وتجولت في ساحتها دون هذه البذلة العسكرية التي صنعت للبلد مجدًا وحررت كرامتها من هؤلاء الصبية الذين كادوا يضيعونها بالهتافات؟ ماذا لو مت وأنا طالب ثانوي منذ سبعة عشر عامًا في المظاهرات التي مات فيها محمد عبد المجيد مرسي الطالب الشهيد الذي جئت اليوم أحيي مع الطلاب يومه، يوم الشهيد؟

ـ إن أقل ما يعمل لتخليد ذكرى الشهداء، أن يقام على القاعدة المعدة لتمثال الملك فؤاد رمزٌ لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم فداء وطنهم. أما التخليد الحقيقي لذكراهم فهو أن نحقق ما ناضلوا لأجله وضحوا في سبيله بأرواحهم، وإني أعاهدكم في هذا المكان أن نعمل مخلصين على ذلك .

كانوا ينتظرون طلوع اللواء نجيب عليهم، فحصلوا على هذا البكباشي الذي تعرف بعضهم على صوره في المجلات والصحف. انشغل طلاب في هتافات، وآخرون في مساجلات، بينما كان أساتذة الجامعة الذين حضروا حبورًا أو فضلوا ووقفوا حول مدير الجامعة الواقف في انتباه مانحًا بعينيه ويديه أوامر إلى عمال الجامعة الذين يحملون باقات الزهور الكبيرة الدائرية التي جلبوها من بستان كلية الزراعة، بأن ينقلوها ناحية النصب ذي القاعدة الجرانيتية حيث يشير البكباشي عبد الناصر، وحيث سيسير نحوها بعد لحظات متسلمًا منهم أكبر باقة زهور دائرية ليضعها بشريطها الأبيض المكتوب عليه بخط نسخ فخيم: «يوم الشهيد ».

ـ إن مما يدعو إلى اطمئنان الجميع أن يقود الأمة في هذه الفترة التاريخية الفاصلة محمد نجيب، وهو رجل من الشعب، لا يعيش إلا من أجل الشعب، ويتألم لآلام الشعب .

سيغضب منه الأخوان سالم بسبب هذه الكلمات عندما تنقلها الإذاعة وتنشرها الصحف: لماذا تنفخ في نجيب يا جمال؟ سيرد عليهما بأن الرجل لا بد أن يطمئن لنا كي لا يُعقِّد علينا خططنا. لكن الأخوان سالم أو غيرهما لا يملكون خططًا، أنت وحدك الذي تملك خطتك يا جمال! صحيح، لكننا الآن على وشك أن نفعل شيئًا قد يشق أو يشقق ركنًا في الجيش، فعلينا أن نرممه بنجيب. ثم لقد فعلنا ما لن يمر سهلًا، لقد أطحنا برشاد مهنا من وصاية العرش !

كانت تلك الساعة هي أهم ساعات محمد نجيب اهتياجًا وابتهاجًا، فقد تخلص من منافسه، ومن المسمار المدقوق في ظهره ينخز فيه وينغزه. كانت لهجة رشاد مهنا الحانقة، ونظراته المتعالية، وتعجرفه الذي لا يستند إلا على هواء منفوخ وهباء منثور، تواجه نجيب في جلسته أمامه في قصر عابدين، وهو يكرر للمرة المائة أنه ليس طرطورًا، وأنه هو من هو في الجيش وتاريخ الجيش وصدارة الجيش، ولا مانع من تكرار حكاية دعمه لهفي انتخابات نادي الضباط، وأنه من صنع الانتخابات، ومن وضع نجيب على مقعد الرئيس. لم يعد أدب نجيب يحتمل، وضاقت طاقته عن

الصبر، وكادت زراير ياقة قميصه تنفلت من انتفاخ عروق عنقه غيظًا مما يسمعه. لهذا عندما فاتح عبد الناصر ليلتها مما جرى من رشاد مهنا، وعندما زاد زكريا شارحًا أن مهنا يتصل بعدد من الضباط (وماذا في ذلك من ضرر أو أثر؟ سأل يوسف صديق فتجاهلوه)، ويلتقي بضباط ممن طهرنا الجيش منهم، وممن تركوا الخدمة (طول عمره محبوب وموضع ثقة الضباط وله أفضال على كثيرين، فمن الطبيعي أن يلتقي ويقابل ويتصل ويواصل! علَّق يوسف صديق فأصروا على تجاهله)، وكل حواراته مع هؤلاء الضباط عن تصرفات مجلس القيادة التي لا يتم عرضها على الضباط الأحرار، ولا رقيب ولا حسيب عليهم (علينا) وهناك الأقدم منهم رتبة والأكثر منهم خبرة، ولم يخرجوا ليلة الثالث والعشرين من يوليو إلا ليرحل حيدر باشا وحسين عامر، وليس ليقودوا الجيش ويحكموا البلد (هذا كلام صحيح وعداه العيب، هل نحن طلاب حكم أم مندوبون عن شعب كي نجري انتخابات حرة بديلًا عن المزورة، ويحكم حزب الأغلبية بديلًا عن أحزاب القصر التي تتحرك كعرائس بحبال في يد سيدها؟ وقف يوسف صديق بوجهه محمرًّا، وصدره متصدرًا، وصوته مجلجلًا، كأنما يقرأ قصيدة من قصائده مفخمة الحروف على أسماعهم، فتلقوا كلامهبين عابث وعابس ومتمتم ومهمهم)، تدخَّل عبد الناصر سائلًا نجيب :

ـ ما رأيك يا سيادة الرئيس؟

يحب حكيم جدًّا تلك الطريقة التي يضع فيها عبد الناصر نجيب في جيب جاكتته مع المنديل، حين يخاطبه بالرئيس ويبجل رتبته ويسلم برئاسته. يفعلها عبد الناصر حين يريد أن يقرر نجيب شيئًا لا يريد عبد الناصر أن يبادر به هو، ولا يبغي أن يسجل أحد أنه من عرضه وتبناه، بل يفضل أن يكون مضطرًّا للموافقة عليه لأن اللواء نجيب شايف، أو لأن الزملاء أجمعوا، ولم يكن ممكنًا أن أخالف أو أرفض! ليس أنا بل نجيب، ليس أنا بل الزملاء. هذه القاعدة التي يبرئ بها عبد الناصر نفسه أمام ضباط الجيش إن غضبوا، ورجال السياسة والصحافة إن تغاضبوا. لكن حكيم المبهور بهذا الصديق الفلتة، يدرك أن شيئًا ما كان له أن يحدث إلا لو أراده عبد الناصر، فليس هو من يضطر، لكن من هواياته لعب الشطرنج ولعب دور المضطر .

طبعًا تدحرج نجيب للفخ، حيث عواطفه المزهوة تقوده :

ـ لا أظن أننا نستطيع أن نتعاون مع مهنا مرة ثانية، إنه يعطلنا ويعوق خطواتنا ويؤلب علينا ضباطنا !

ثم كانت سعادته غامرة وهو يقرأ ما أملاه على ياوره إسماعيل فريد، وجاء به إلى الاجتماع فخورًا، وقد عرضه على سليمان حافظ فعدل فيه شيئًا وأضاف عليه وحذف منه، ثم سلمه شافيًا للمجلس وهو يقرأه عليهم :

يؤسفنا، وقد رشح الجيش أحد ضباطه في مجلس الوصاية المؤقت، وطلب منه أن يلتزم حدود وظيفته ولا دخل له بشؤون الحكم، أن تناسى حضرة الوصي القائمقام محمد رشاد مهنا حدود وظيفته، فأخذ تارة يتصل بالوزراء طالبًا إجابة مطالب شتى أكثرها وساطات ومحسوبيات، وتارة أخرى يتصل برجال الإدارة، وتمادى إلى أن حدث يومًا أن أمر مباشرة بمصادرة إحدى الصحف بل وسحب رخصة أخرى. وقد نُبه المرة تلو المرة، ولكنه تجاهل ما كان يوجَّه إليه من نصح وإرشاد. فحدث أن سمح لنفسه أن يعارض علنًا قانون تحديد الملكية، رغم علمه التام بأن هذا القانون هو حجر الزاوية في الإصلاح الشامل الذي تريده الأمة والجيش وقيادته التي قامت بتوجيه الحركة .

لم يكن عبد الناصر يمانع من قذف مهنا من الشرفة، لكن لهجة البيان تحمل غلَّ نجيب. بينما كان حكيم يرى اللهجة حادة ولا تليق. وكان يوسف صديق يرى أن رشاد مهنا لم يخطئ فعلًا، وأنه راجل محترم حين لا يرضى أن يكون طرطورًا، وأن مجلس القيادة ليس محقًّا في حدفه بعيدًا. وخالدمحيي الدين كان رأيه أن مهنا يستاهل، لأن مصر لا يمكن أن تشهد انشقاقًا في القيادة في هذا التوقيت، وإذا كان الاختيار بين مهنا ونجيب، فيختار نجيب، فهو الأقرب لنا والذي خاطر معنا. أما بقية ضباط القيادة فكانوا مستعدين لكسر قلة خلف مهنا ولا يهمهم في شيء .
بل بلغ به التمادي أبعده، فأخذ يدلي بالتصريحات العامة للصحف والمجلات المصرية والأجنبية، وبعض هذه التصريحات من صميم سياسة الدولة، وهذا ما لا يجوز بحال أن يصدر من وصي على العرش. فتناول موضوع السودان (داس على قدم صلاح سالم المسؤول عن ملف السودان، الذي اعتبر هذه التصريحات حربًا ضروسًا تعطل خططه المرسومة وحملاته الناجحة وعلاقاته الوثيقة التي لا ينام الليل من أجلها) ، ومواضيع شتى داخلية. وأخذ يتصل بدور الصحف موحيًا إليها بالقيام بدعاية واسعة، ودأب على بث روح التفرقة، حتى خيل للبعض أن هناك جملة اتجاهات للجيش، وليس اتجاهًا واحدًا قويًّا نحو غاية مرسومة (لم يكن السادات مطمئنًا لحكاية أن في الجيش اتجاهًا واحدًا وأن هناك أصلًا غاية مرسومة) ، ولقد تحملت القيادة العامة تصرفاته هذه على مضض أسبوعًا تلو أسبوع، إلى أن تقدم حضرته لنا رسميًّا بطلب تدخله الفعلي في كل أمر من أمور الحكم منذ أيام. ومن ذلك ظهر لنا بوضوح أن حضرته لم يستطع التمشي مع أهداف الحركة والسير
على مبادئها المرسومة (ضحك يوسف صديق في سره، فلا أحد يعرف تلك المبادئ، وهو نفسه يجهلها ويجهل إن كانت مرسومة أو منقوشة أو مخطوطة، وإن كانوا قد رسموها من ورائه فلم يبلغه أحد بها) ، ولذلك قررنا إعفاءه من منصب الوصاية على العرش. وليعلم الجميع أن هذه الحركة قائمة على المبادئ ولن يقف في سبيلها نزوات أشخاص أو أطماع أفراد .
كان عبد الناصر يعلم يقينًا أن رشاد مهنا ليس آخر هؤلاء الأشخاص ولا الأفراد . لن يكون رشاد مهنا ممن لا بواكي لهم، بل سيدب في الأرض، ويحرق بعض الزرع، وسيحزن له البعض ويحرن له آخرون .
ودع مدير الجامعة وبعض موظفي مكتبه جمال عبد الناصر عند السلالم التي قادته إلى سيارته الجيب، وأدهش عبد الناصر غياب الطلاب عن مصاحبته حتى سيارته. لعلهم غير مبالين، وربما تعاملوا معه كمندوب عن نجيب وليس قائد الحركة التي أعزتهم ورفعت أعناقهم! حين خرجت به السيارة من الجامعة تصحبها سيارة حراسة ويتقدمها موتوسيكل كونستابل انضم له آخر على بوابة الجامعة، تأمل عنوان الجريدة المسائية الأحمر الكبير يقول :
اللواء محمد نجيب: على الأبرياء والشرفاء أن يطمئنوا، مصر دولة عظمى، ولكننا لا نريد فتحًا ولا استعمارًا .
ففهم عبد الناصر فورًا أنه خطاب الصبح في وفد السودان
ألا تزال تلك الملصقات ملزوقة على الجدران؟ ألم أطلب من أحمد أنور أن ينزعها من كل مكان؟ سأضربه على دماغه! ألم يجمعها من باعة الجرائد وأسلحة الجيش ومن مكاتب الصحفيين، ويكلف عساكره بتمزيقها ستين حتة كما أمرته؟ لكن يبدو أنها وصلت إلى أبعد من قدرته على ملاحقتها! ها هو الملصق يعبره بعينيه، ليس ملصقًا واحدًا، بل ربما عشرة ملزوقين متلاصقين: «نحن حماة

الدستور». يا له من مناكف غريب هذا الأحمر الطيب يوسف صديق، أعطيته فرصة ليتولى الإشراف على أول مجلة تصدر باسم الحركة، فضيعها وكاد يضيعنا، أهذه هدية توزعها مع العدد يا يوسف؟! لأ وأيضًا طبع آلافًا أزيد من نسخ المجلة (رسم لجنود يمسكون صاري العلم يرفعونه، وفي الخلفية قبة البرلمان، والعنوان ضخم مكتوب: نحن حماة الدستور)، فتلقفته الأيدي، وطار به الحزبيون والطلبة الذين كانوا يهتفون به منذ قليل أمامه! نعم نحن حماة الدستور، لكن ليس هذا الدستور، بل دستورنا نحن المنتظر. أكلهم يرمون بلاهم على كتفي وكتافتي؟ لؤم البغدادي، وإخوانية كمال الدين حسين، وغموض السادات، وجنان صلاح سالم، وجمال سالم الأجن، وعبد المنعم أمين الذي لا يمسك زمام زوجته، وصديق الذي لا يمسك لسانه، بل ويقول زكريا إنه متزوج من شيوعية! يعني يا ربي عضو أمريكاني متزوج من رأسمالية عتيدة، وعضو يساري متزوج من شيوعية شديدة؟! الشكر والحمد لله على تحية كاظم .

خاطب عبد الناصر سائقه :

ـ أنت تعرف الطريق إلى الجزيرة؟

غمض الكلام على فهم السائق الذي التفت بنصف وجهه إلى عبد الناصر مستوضحًا بملامحه، فشرح له عبد الناصر العنوان :

ـ على مبنى المرسى الملكي في الجزيرة، عند كوبري قصر النيل .

لم يكن أحد قد أبلغ السائق عن المكان، لأن أحدًا لم يكن يعرف، فقط عبد الناصر وزكريا وأحمد أنور هم من اتفقوا على التلاقي في المكان عقب انتهاء عبد الناصر من احتفال الجامعة. حين وصل وجد المبنى خاليًا، مهيبًا بأسواره وجدرانه العالية، بنقوش أعمدته وبهاء واجهته، بجلجلة موج النيل يضرب في رصيفه، برفرفة أعلامه تلعلع نجومه في عز الظهر. فجأة ظهر زكريا ومعه أحمد أنور يرحبان به، ويقودانه نحو المدخل المقوس إلى البهو المفتوح والسلالم الملكية. صعدوا خلفه وهو يقفز سلمة وراء أخرى. كانوا قد قرروا أن ينتقل مقرهم إلى هنا، حيث مرسى اليخوت الملكية الذي منع حريق القاهرة الملك من أن يفتتحه ويرسو فيه بيخوته، ها هو يستقبلهم قادة بدون يخوت ملكية. لقد قرروا أن يبعدوا عن مبنى قيادة الجيش، آن الأوان أن يستقلوا كقادة للبلد لا كضباط في الجيش، واختاروا هذا المكان. لعل أحدًا من ضباط القصور الملكية هو من اقترحه عليهم، وطلب زكريا وأنور من جمال عبد الناصر أن يقرر، فجاء معهما ليتفقده. حين وقف في شرفة الطابق الأول، فجمع النيل بين عينيه، أخبرهم بموافقته. سينتقلون بعد أيام إلى هذا المبنى وقد تجهز لاستقبال قادة الثورة، فقد قرروا كذلك أنها ثورة وليست انقلابًا ولا حركة، وهم صاروا مجلس قيادة الثورة

*

تدق ساعة جامعة القاهرة تعلن منتصف الليل في الراديو الذي أدار قرصه فتحي رضوان ليغلقه. كان هو والسنهوري وسليمان حافظ ممن تقفز قلوبهم قفز لاعبي جمباز يتنافسون في الدورة الأولمبية، ضبطوا رقص قلوبهم بإغلاق زارير البدل عليها. حاول عبد الناصر أن يبدو منغَّص المزاج كأن شيئًا جرى على غير ما يرغب، أو أنه متنازل عن موقف لصالح الأغلبية، لكنه فشل في إقناع حتى عساكر المراسلة حاملي فناجين القهوة وأكواب الشاي ودوارق المياه بأنه مغصوب على أمره. لا يليق عليه هذا الدور إطلاقًا. ربما يوسف صديق الذي كان محتارًا يحاول إقناع نفسه بأنه، مضطرًّا،وافق على أن يهدم كي يبني بناء جديدًا. ألح نجيب على وصِفه طوال الساعات

الماضية بالبناء على نظافة، وزعق كثيرًا متحمسًا ومؤكدًا ومكررًا مستغلًّا أن الأخوان سالم يؤيدانه بحماس لمرة نادرة :
ـ لقد ترك الطغاة لنا البلاد خرابًا، وواجبنا هو أن نبنيها من جديد بناء نظيفًا يليق بسمعتنا النظيفة الجديدة التي كسبناها في الخارج !
ثم لما وجد سكوتًا كالتجاوب وإنصاتًا كالتأييد، أخذ يزيد من نبرة صوته علوًّا، ومن إحساسه كقائد للبلاد سموًّا، ومن تجاهل نظرات عبد الناصر الغامضة تجاهلًا :
ـ لقد قلت في خطابي منذ يومين للأمة كلها إنه يجب علينا أن نتحد وأن نتعاون، فكلنا يد واحدة: الجيش والشعب .
كان نجيب قد غفل عن أنهم كانوا معه في الخطاب، وأنه أعاده عليهم اليوم عدة مرات، وأنهم مجتمعون من الثالثة عصرًا حتى منتصف الليل، لكنهم تركوه في حماسه المتقد بعدما راح سليمان حافظ يغرس نصله في كبد الدستور ويقوره :
ـ مستحيل أن تحققوا إنجازات هذه الثورة التي أشعلتموها في البلد نارًا ونورًا من خلال هذا الدستور! أبسط الأشياء أننا لا نستطيع أن نستبعد من الأحزاب أو الحياة السياسية هؤلاء القدامى من الوزراء الذين عاثوا فيها فسادًا، فالدستور يحميهم !
أكمل فتحي رضوان (الذي صار منذ الأمس وزيرًا للإرشاد القومي، الوزارة التي اقترحها لفت وعادت إليه في أقل من شهر وسقطت في حجره):
ـ إن ما فعلتموه ليس انقلابًا ولا حركة، بل ثورة، ويجب أن تستمر، وتكمل ثوريتها، وتزيح القديم العفن، وتبني الجديد الطاهر، وتقضي على الظلم والاستغلال وعهود الظلام، لتحيي بلدًا حرًّا كريمًا لا وقت فيه إلا للبناء والعمل والإنتاج !
اتسعت أذنا نجيب مع رئتيه وعينيه وهو يسمع فتحي رضوان يضيف :
ـ وكم أسعدني أن السيد الرئيس قائد الجيش قد رفع شعارًا أخذ يردده في كل محفل ولقاء على جمهور الأمة، وهو شعار «الاتحاد والنظام والعمل»، وأظن أننا في حاجة إلى أن نتخذه شعارًا للأمة ولتلك الثورة المجيدة !
ثم عاد وهو يشير إلى السنهوري في جلسته الكهنوتية كأنه بطريرك القانون، أو الصنم الذي تركه النبي إبراهيم دون أن يحطمه فبقي حتى الآن :
ـ طبعًا أستاذنا السنهوري باشا هو الأعلم بيننا، وأظنه يوافقني على ما قالهونشره وأذاعه الأستاذ القانوني الدكتورالسيد صبري، بأن ما فعلهالجيش هوثورة تلغي أي وضع دستوري وقانوني قائم، وتصنع لنفسها قانونها ودستورها، وما سماه هو بلغة أهل الصنعة «الفقه الثوري»، وقد وافقه كثير من جهابذة القانون، ولعلكم تابعتم
المقالات الكثيرة التي تتابعت تعدد عيوب دستور 23 وتطالب بإسقاطه .
كان السادات يعلم أن هذه المقالات هي تعليمات من عبد الناصر لمصطفى أمين الذي استكتب أصحابها، فلما شم آخرون أنها أفكار مطلوبة ومرضي عنها شمروا الأكمام وكتبوا مثلها وأضعافها وتكاثرت المقالات كالأرانب، بينما ظل أحمد أبو الفتح وحده في «المصري» يهاتي دفاعًا عن الدستور والحياة الدستورية، بينما يسمععبد الناصر في حديقة الجورنال مساء، يتشكى له مندكتاتورية زملائه. ابتسم السادات، وأومأ موافقًا ممتنًّا عندما همس له عبد الناصر قبيل دخولهما الاجتماع بأن يستعد للإشراف على الضباط الذين سيكلفهم زكريا محيي الدين بالرقابة على

الصحف. متى؟ قريبًا. تؤمر يا جمال (لا يملك السادات امتياز أن يخاطبه بـ«جيمي» كما يفعل عبد الحكيم المنفرد بذلك الامتياز وحده).
تدخَّل جمال سالم :
ـ كلنا متفقون على أن هذا الشعب انضحك عليه بهذا الدستور، وتلك الأحزاب التي استغلت الفلاح الأُمي المطحون، واشترت صوته كما تحكمت في لقمته !
والتفت إلى يوسف صديق شاخطًا فيه بدون مناسبة :
ـ نحن يا أخ يوسف يا صديق بما فعلناه في تحديد ملكية الأراضي، ولما نوزعها على الفلاحين ...
وفجأة التفت إلى عبد الناصر :
ـ أنا عامل خطة لا تخر المياه يا جمال، وشغلت فيها كل الأفندية بدل الرغي واللت والعجن، قعدتهم اشتغلوا في اللجنة على حاجة معتبرة .
ثم عاد برأسه إلى يوسف صديق :
ـ نقوم نأكل الفلاح الجوعان وعياله الجهلة، فيتحررون من الباشا والبك، وساعتها يمتلكون قرارهم .
رد خالد محيي الدين ممزجًا كلماته بابتسامته :
ـ هذا كلام شيوعي عظيم !
ـ بلا شيوعية بلا خراء، هذا كلام وطني
قبل أن ينتقل جمال سالم في تشبيهاته من الخراء إلى ما هو أخرى، جرى عبد الحكيم على سطور البيان بعينيه يراجع الصياغة التي كتبها سليمان حافظ وتدخَّل معه فتحي رضوان، البيان الذي يسجله نجيب خلال دقائق لإعلانه في الإذاعة فورًا حتى يصحو الناس على حقيقة جديدة، أو نظيفة على رأي نجيب، وقال :
ـ لماذا لا ننتظر ونذيعه صباحًابدلًا من الساعة واحدة بعد منتصفالليل؟
ـ خير البر عاجله .
قالها فتحي رضوان كأنه مأذون يعقد زيجة عاجلة يستر فيها متورطين لا عروسين، بينما قال سليمان حافظ :
ـ لنطرق الحديد وهو ساخن .
بينما علَّق صلاح سالم :
ـ لنجعل الناس تصطبح بالأخبار السعيدة .
رد صديق :
ـ أي أخبار سعيدة في إلغاء دستور ظل الناس يهتفون بحياته ويطلبون تطبيقه واحترامه على مدار عشرين عامًا؟ !
رد صلاح :
ـ كانوا مغفلين ولازم يفوقوا !
ـ وإحنا لما خرجنا، ولما قلنا من أول يوم إننا قمنا من أجل احترام الدستور، كنا مغفلين؟
ـ طبعًا .
بدأ سليمان حافظ في مرافعة قصيرة سريعة وهو ضيق الصدر :
ـ نحننلغي الدستور الذي كان منحة من الملك كي تصنع الثورة دستورًا أقوى وأعظم .

أشار عبد الناصر لمحمد نجيب المكلل بدخان الغليون يحيط رأسه، بأن يقرأ إن كان مصممًا على القراءة، فقرأ :
بني وطني، عندما قام الجيش بثورته في الثالث والعشرين من يوليو الماضي (خلاص أصبحت ثورة في أقل من ستة أشهر! هذه هي المرة الأولى التي يمنح نجيب لنفسه ولزملائه شرف القيام بثورة، فأكد على مخارج ألفاظها، وفخَّم الثاء، ولف مع الواو أكثر من اللازم، ووقف عند التاء تيهًا) ، كانت البلاد إلى حال من الفساد والانحلال أدى إليها تحكم ملك مستهتر، وقيام حياة سياسية معيبة، وحكم نيابي غير سليم (أشاح يوسف صديق برأسه كأنما يبتعد عن شظايا تلك الكلمات حتى لا تصيب وجهه). ولقد كان ذلك الملك يتخذ من الدستور مطية لأهوائه، ويجد فيه من الثغرات ما يمكِّن من ذلك، بمعاونة أولئك الذين كانوا يقومون بحكم البلاد ويصرِّفون أمورها، من أجل ذلك قامت الثورة (كي تحفظ للدستور هيبته ومكانته، وليس لتلغيه يا لواء نجيب! تمتمة يوسف صديق ظلت في فمه، بينما كان صلاح سالم يومئ برأسه موافقًا ومتحمسًا، وإن كان رأيه أن نجيب لا بد أن يقرأه في الإذاعة بأخشن من هذه النبرة وأعلى من هذه الطبقة الصوتية . عبد الناصر كان يقلب في أوراق أمامه ويرسل ورقًا مطويًّا إلى زكريا في طرف المائدة الآخر) ، ولم يكن هدفها مجرد التخلص من ذلك الملك (البغدادي التفت إلى كمال الدين حسين مبتسمًا، حيث يعرفان كما غيرهما أن هدفهم كان إبعاد حسين عامر عن وزارة الحربية وهو الذي لم يأتِ وزيرًا أصلًا) ، وإنما كانت تستهدف الوصول بالبلاد إلى ما هو أسمى مقصدًا، وأبعد مدى، وأبقى على مر الزمان، من توفير أسباب القومية السليمة التي كانت ترتكز على دعائم من الحرية والعدالة والنظام، حتى ينصرف أبناء الشعب إلى العمل المنتج وخير الوطن وبنيه (همس جمال سالم بصوت عالٍ مشجعًا: نعم يشتغل الناس وينتجون من غير ما نضيع وقتنا في سياسة وانتخابات ووجع قلب). والآن بعد أن بدأت حركة البناء وشملت كل مرافق الحياة في البلاد، سياسية واقتصادية واجتماعية، أصبح لزامًا أن نغير الأوضاع التي كادت تودي بالبلاد، والتي يسندها ذلك الدستور المليء بالثغرات، ولكي نؤدي الأمانة التي وضعها الله في أعناقنا (هبت عاصفة من نار على قلب يوسف صديق، وكادت تشعل في بذلته حريقًا: وضعها الله في أعناقنا؟! الله بنفسه يا نجيب؟! من أوهم زملائي أنهم مبعوثون من الذات الإلهية؟! من صنع منهم في عدة شهور مندوبين لله خصهم برسالة وأمانة؟ ! نظر إليه محمد نجيب ممعنًا، وقد أزاح ما تبقى من دخان من أمام عينيه، ووجه كلمات البيان القادمة خصيصًا إلى يوسف صديق، فهو رجل طيب وصديق فعلًا، لا خبث ولا لؤم كما زملائه، ولا قلة أدب كما الأخوان سالم، حاول أن يقنعه بعينيه قبل كلمات سليمان حافظ التي يقرأها عليهم، ولعله حاول أن يقنع نفسه حين يقتنع يوسف صديق)لا مناص من أن نستبدل ذلك الدستور بدستور آخر جديد، يمكِّن للأمة أن تصل إلى أهدافها حتى تكون بحق مصدر السلطات. وهأنذا أعلن باسم الشعب سقوط ذلك الدستور، دستور 23 (خبط بعضهم على المائدة بأكفهم جزلًا، لكن يوسف صديق رشق نظراته إلى خالد محيي الدين يصرخ عليه: أي شعب هذا الذي نتحدث باسمه؟! أين توكيلات سعد زغلول أو انتخابات مصطفى النحاس كي نقولها هكذا بمنتهى الثقة المغرورة باسم الشعب؟! نحن حتى لم نعد قادرين على أن نتحدث باسم الجيش أصلًا حتى نتحدث باسم الشعب ! لكن خالد محيي الدين كان مستاء من استخدام تعبير «سقوط الدستور»، لماذا لا يكون «إلغاء الدستور»؟) ، وإنه ليسعدني أن أعلن في نفس الوقت إلى بني

وطني أن الحكومة آخذة في تأليف لجنة تضع مشروع دستور جديد يقره الشعب، ويكون منزهًا من عيوب الدستور الزائل، ومحققًا لآمال الأمة في حكم نيابي نظيف سليم .
تنهد محمد نجيب، بينما صفق الأخوان سالم، فأعقبهما حسن إبراهيم والشافعي بالتصفيق، بينما تمتم كمال الدين حسين: الله الله! كانت شفتا نجيب قد وصلتا من الابتسام حتى حلمتي أذنيه، بينما تقطيبة جبين يوسف
صديق تعكر بهجة الجلسة، وحاول خالد أن يسأل :
ـ من سيحدد اللجنة التي ستصوغ الدستور الجديد؟ ثم ألا يستحسن أن نعلن أسماءها عقب البيان حتى نؤكد جديتنا؟
أضاف عبد الحكيم سؤالًا آخر، وقد أنهى رشفة الشاي من كوبه :
ـ طيب وعلى ما تكتب اللجنة الدستور الجديد بمَ نحكم هذا البلد؟
التفت عبد الناصر إلى نجيب، الذي استدار إلى سليمان حافظ، الذي نظر إلى فتحي رضوان، الذي قال :
ـ هذه أسئلة وجيهة، لكن الإذاعة تنتظر البيان بصوت سيادة الرئيس، نسجله ونذيعه ثم نجتمع للإجابةعن هذه الأسئلة، ونحن والحمد لله (أشار إلى السنهوري الذي لا يزال على جلسته الكهنوتية ولعله نعس بعض الوقت) نملك لكل حادث حديثًا .
*
غمرته رائحة البحر ببرد الشتاء الذي يوقظ خلايا الروح النائمة . ها هي الإسكندرية مولد الصبا تغازل عبد الناصر الذي جاءها اليوم راكبًا حصان عرابي. قطع الطريق من قصر عابدين إلى ثكنات المنطقة الشمالية، وهو متقلب الأفكار تأخذه وتعيده، تريحه وتتعبه، ترفعه وتحطه. كانت أوامره حاسمة بنقل محطة إذاعة قصر عابدين إلى مبنى البوليس الحربي في باب الحديد، ورغم ذلك لم تنفذ الأوامر. كان محمد نجيب يعرقل القرار ويأمر ببقائها حيث هي ببرجها الهوائي واستوديوهها المجهز في ذلك القبو الفخيم في قصر عابدين. شيء ما ينكش قلبه بالقلق، كلما تذكر أنه لو كان الملك فاروق في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من يوليو، لكان قد خرج على الناس بصوته من إذاعة القصر التي تستطيع أن تصل في بثها حتى الإسكندرية، وقضى على بيان الجيش في مبناها في شارع الشريفين. حمد الله على نعمة الصيف، لكنه ظل مبتئسًا بتعصي نجيب عليه وتصميمه الفظ على بقاء الإذاعة في قصرها. أيظن أنه يحتاج إليها بعدما أجلى رشاد مهنا من قصر عابدين وأجلسه في بيته؟ طردنا مهنا، واستقال بهي الدين بركات، وصار القصر خاليًا إلا من الأمير محمد عبد المنعم الوصي الوحيد على العرش، الذي يفرط في الطيبة حتى الخبث، والذي يسلم نفسه لنا حتى الريبة، غالبًا يظن أنه لو جعل من خده مداسًا لوضعناه على العرش بديلًا لابن فاروق، وربما ينيمنا حتى يهرِّب أكبر قدر من ثروته، طبعًا إنهم يحاولون استكمال سرقة البلد قبل أن نقطع أياديهم قريبًا. ضحك عبد الناصر رغمًا عنه، وهو يتذكر الأمير عبد المنعم وصي العرش المريب المستريب، يسأل ضابط المكتب الفني لمجلس قيادة الثورة عندما ذهب إليه بأوراق قرارات ليوقع عليها، فقال هامسًا للضابط (الذي نقل لي مقلدًا ذات الصوت وبذات الأداء الأميري):
ـ هل قالوا لك (يقصدنا نحن طبعًا) أن أقرأ ما يرسل إليَّ وأوقِّع، أم أوقِّع فقط؟

الغريب أنه تحسبًا واحترازًا كان يوقع فقط وبسرعة، مسددًا نظرته على خانة التوقيع دون أن يقرأ حرفًا من الأوراق! ألهذا الحد ضعاف جبناء؟! إن هذه العائلة الملكية مخوخة فعلًا !
أنعشت الإسكندرية عبد الناصر الذي تفادى أن يمر السائق بسيارته الجيب على الحي الذي لا يزال يسكنه أبوه مع زوجة أبيه وإخوته. لا يجد في نفسه طاقة على أن يرى عنايات زوجة أبيه تتصنع الود معه، وتتخلى عن فظاظتها حينأبعدتهعن بيت أبيه سنين، والآن وقد علمت أنه من قادة البلد، ولعل إخوته شرحوا لها أنه قائدها الحقيقي، أحبته فجأة، وأظهرت حنانًا مدعيًا وتملقًا يستفزه. صحيح أنه لم يرها كل هذه الشهور، لكنه سمع كلمات أبيه تنقل له تحياتها ومباركاتها ودعواتها (لأ خليها لها)، ومكالماتها لتحية منذ أدخل التلفون إلى شقته، التي تسأل فيها عن العيال وأخبارهم. أشك أنها تعرف أسماءهم أصلًا، ومع ذلك بدت تحفظ أعياد ميلادهم فجأة! عمومًا سيراهم الليلة قطعًا في فرح أخيه عز العرب، وسيحضر عبد الحكيم من مصر مع زوجته. وقد سبقته تحية مع الأولاد منذ الأمس. لا بد أن يحجز من الآن شقة للمصيف، ويجب أن تكون أوسع بل ومنفصلة، ربما بيت صغير حتى يحتاط له بالحراسة، وينعزل فيه عن جيران مزعجين، يا ترى من يعيش، لكن مهم أن يعمل حسابه من الآن .
نزل من السيارة وقد وقف الصاغ عاطف نصار مرحبًا به على باب المعسكر. شيء من الشك كالشوك في صدر عبد الناصر مما يصله عن عاطف نصار، ومما يقرأه في تقارير زكريا محيي الدين. حين جلس في مكتبه وجد هذه الرقاقة من الكذب تقف بين وجهيهما، نصار يتواصل مع رشاد مهنا (سمع بنفسه شريط مراقبة المكالمة، وكانت اللهجة دافئة والولاءات مكشوفة، رغم خلو الكلام من خطورة ظاهرة)، وكذا فإنه يؤججنار النقمة في قشلاقات الإسكندرية التي يتناقل لها لغو ميس المدفعية وميس الفرسان المتبلبلوالمبلبل، ثم إن الإسكندرية بعيدة عن القرار وعن مجلس الثورة، فلا إسكندراني في القيادة، ولا ممثلمن القوات البحرية، كان سؤالهم الوجيه: لماذا يكون في مجلس القيادة ثلاثة طيارين، رغم أن أربعة طيارين أول عن آخر كانوا أعضاء في تنظيم الضباط الأحرار، ثم كل ما تملكه مصر هو أربع عشرة طائرة قتالية، تدمرت منها إحدى عشرة طائرة في حرب فلسطين، يعني ثلاثة طيارين يمثلون أربعة طيارين فقط، بينما سلاح البحرية كاملًا مكملًا بلا مندوب واحد في القيادة؟! المفروض أن عاطف نصار هو قائد تنظيم الضباط الأحرار في الإسكندرية، ولكن يبدو أنه غضوب حرون، يشعر بالعزلة أو الاستبعاد، فضلًا عن منافسة دفينة تطل من قبوها بينه وبين آخرين يمطرون زكريا ببلاغات عن نصار .
ـ ما أخبار كفر الدوار يا عاطف؟
كان نصار قد استغرب بما فيه الكفاية قدوم عبد الناصر بمفرده إلى الإسكندرية، بل تفاجأ بكمين مدخل الزراعي يبلغه بمرور البكباشي جمال عبد الناصر. لم يكن مرتاحًا لهذه الزيارة التفتيشية المباغتة، فضلًا عن أن تحذيرات كثيرة جاءته من ضباط المدفعية أن رجال عبد الناصر وزكريا مركزون معه هذه الأيام، خصوصًا في علاقته برشاد مهنا المغضوب عليه والمحتجز في بيته، وقد زاره مع ضباط آخرين منذ عدة ليالٍ. ألا تعرف أن كل ضابط يدخل بيت رشاد مهنا يُكتب اسمه في ملف زكريا محيي الدين، بل هناك ضباط يحضرون مع زملائهم لمجرد نقل ما يجري في هذه الزيارات؟
ـ تمام يا جمال (بانت نفرة عروق عبد الناصر في وجهه، وتجلمدت حدقتاه عندما سمعه يقول اسمه، كأنما لا يزال ما بينهما هو ما بينهما منذ شهور، ولم يستوعب فوات الوقت وفروق

التوقيت)، الوضع مستتب ومستقر من يوم إعدام خميس والبقري ولا أحد ينطق وكله ماشي كالسيف .
أزعجوا جمال عبد الناصر كثيرًا وخوفوه بأن العمال لن يسكتوا بعد إعدام خميس والبقري، وأن العالم لن يدعهم يفلتون بدم هذين المخربين. فالذي يرى عدد البيانات المتراكمة على مكتبي أرسلتها منظمات العمال العالمية لظن أنهم سيحتلون مصر فوق احتلال الإنجليز، لكن كل هذا الضجيج كان عجيجًا بلا أثر وعجينًا بلا خبز. كان مصطفى أمين وهيكل، وعبد المنعم أمين قبلهما، يؤكدون أن الأمريكان لن يسمحوا بأي قرار ضد مجلس القيادة بسبب إعدام العاملين. نعم الشيوعية نشطة، والشيوعيون في مصر ولاؤهم لموسكو أكثر من ولائهم للقاهرة، كلهم عملاء أولاد كلب، وأنا أعرفهم جيدًا، لكن الأمريكان أقوى وأمهر، ثم إن الإعدام كان ضروريًّا بل حتميًّا حتى لو كنت ضد تنفيذه، ولم أكن ممانعًا تخفيف الحكم أصلًا، لكن ما من شك أنه كان رادعًا، فلو كنا خنعنا كان زمان عمال مصر كلها يضربون عن العمل، وقفز على أكتافنا الشيوعيون وركبوا ظهر البلد ليفسدوا ما نكافح من أجل تحقيقه لبلدنا
ظلت الثرثرة تروح وتجيء بين عبد الناصر ونصار، ثم خرجا، فصافح عبد الناصر عددًا من الضباط، وتبادل معهم حوارات بذل جهدًا حقيقيًّا في جعلها مرحة، ثم سكت وقتًا طويلًا في ميس البحرية ليسمع ما يدور في صدور الضباط. أعجبه سليمان عزت، وفكر أن يسأل عن تقارير المخابرات الحربية عنه، وهل يعرفه زكريا محيي الدين شخصيًّا، لكنه أراد امتحانًا سريعًا مقتضبًا فسأله :
- ما أخبار أمير البحر جلال علوبة؟
كان جلال علوبة بعدما سلم «المحروسة»، وسلم على محمد نجيب، قد أُهمل متروكًا في بيته، لا هو قائد للبحرية ولا هو معزول عنها، ثم نزعوا منه قيادة البحرية، ثم احتجزوه قليلًا، ثم رفد سريعًا، ثم جلس في بيته قبطانغرفة نومه، فجاءت إجابة سليمان عزت دافئة :
- بخير الحمد لله .
- ماذا يفعل الآن؟
- يصطاد. ماذا يفعل بحار متقاعد يا حضرة البكباشي إلا أن يصطاد؟
حمد سليمان عزت للمرة الألف الله، وشكر علوبة أنه لم يفشِ سر خطته في تدمير ثكنة مصطفى باشا وهدمها على رأس محمد نجيب بقذيفة مدفع من المدمرة «إبراهيم ».
اختلى عبد الناصرفي الظهيرة بعدد من تنظيم الضباط الأحرار في منزل أحدهم، وأنصت إلى الطحين الدائر بين الأفواه عن غياب اتصال بين مجلس القيادة وبين التنظيم، وأسئلة حول عبد المنعم أمين وزوجته، وشم روايح الإخوان في بعض الأفواه، وسمع جعجعة الشيوعيين من بعض الحناجر، لكن شيئًا حادًّا شق جرحًا في حلقه حين سمع سؤالًا عن موعد انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط القادمة !
طنينالسؤال حفر ثُقبًا في أذنيه حتى وجد نفسه أمام بيت إبراهيم طلعت فصعد، يحب هذا الرجل (حب عبد الناصر يعني أنه لا يكرهه ثم لا يشك فيه ثم لا يتشكك في نواياه). عندما دق جرس الباب لم يكن يعرف لماذا جاء، وما الذي يريده من لقاء هذا الرجل! رسالة لأحمد أبو الفتح مثلًا؟ لكن أبو الفتح ليس بعيدًا بل هو أقرب، فالمسافة من مبنى قيادة الثورة في الجزيرة وجريدة «المصري» أقل من خمس دقائق. أهي رسالة لحزب الوفد؟ وأي رسالة أكثر من أن فؤاد سراج

الدين في السجن؟! فتح إبراهيم الباب متفاجئًا مبتهجًا ومأخوذًا بشرف الزيارة وأحضان وعناق. ألم أقل إنه رجل طيب؟ نسي وأنا واقف على عتبة الباب منع النحاس من رئاسة بل وعضوية حزبه، واعتقال سراج الدين، والرقابة على الصحف، وحلف بكل أيمانات المسلمين أن لازم نتغدى مع بعض، ثم للغرابة كان الغداء جاهزًا ببط ورقاق، كانت السمنة فيه تتألق بالنفس السكندراني للسيدة زوجته !

ـ والله الملك كان عنده حق .

كانت هذه الجملة ممزوجة بآخر نسيرة من صدر البط، وأضاف عبد الناصر بينما يشمر إبراهيم كم البيجامة ليتمكن من دس أصابعه في صينية الرقاق :

ـ كان عنده حق لما قال إن سليمان حافظ تمساح عجوز .

رد إبراهيم :

ـ ليس الرك على التمساح، بل على البحيرة والصياد، أنتم وراء كل العك الذي يعكه سليمان حافظ !

ـ أفكاره كلها مركزة على حكومة عسكرية تتولى إدارة البلاد، وكلامه له صدى عند الكثيرين من أعضاء المجلس خصوصًا الأخوان سالم .

ـ ألا من سبيل لإيقاف هذا العك؟

ـ لا أقدر يا إبراهيم! ما لنا نحن والقانون، لسنا قانونيين وهو الرجل القانوني الذي يمسك وزارة الداخلية وفاتح مع القضاء ومجلس الدولة ويسنده السنهوري! ليست شغلتنا القانون! يعني لما يقرر أكبر رجال القانون في مصر ويقولون أي كلام، ويؤكدون أن هذا هو القانون، وأن هذا هو الصح، ونبص نلاقي كل المستشارين تقريبًا يوافقون على كلامهم، ولو قلت أنا إن سليمان حافظ وكل المستشارين رأيهم غلط، طيب من يصدقني؟ طبعًا ولا أحد !

انسدت نفس إبراهيم طلعت قطعًا عن الأكل، فنظر إلى عبد الناصر الذي بدأ شبعه يبطئ شهيته :

ـ لكن أنت تعرف أن هذا الكلام كله خطأ وغلط وسيودي بالبلد في داهية !

رفع عبد الناصر يده من الأطباق والصواني ومسحها في فوطة قطنية وقد فك طيتها المثلثة :

ـ ماذا أفعل؟ هبلة ومسكوها طبلة !

ثم ألقى قنبلته اليدوية في صينية البط :

ـ أنت لا تتخيل إلى أي حد اعترضت في موضوع حل الأحزاب، لكن فشلت ولم أقدر على عمل حاجة !

حملق إبراهيم في وجهه، ثم خص عينيه بحملقة أعمق وأطول وأغرب، ثم همس متمتمًا متلعثمًا :

ـ لكن الأحزاب لم تحل !

لم يسمع إبراهيم كلمات عبد الناصر بوضوح، رغم الثلاثين سنتيمترًا فقط الفاصلة بين رأسيهما، فقد بدا كأنه يحدث نفسه متأسفًا أنه أفسد على الرجل بطه :

ـ بكل أسف، القرار صدر بإجماع الموجودين تقريبًا، وبعد يومين أو ثلاثة سوف يعلنه محمد نجيب !

كل ما حاول أن يحافظ عليه إبراهيم طلعت من آداب الضيافة، انهار مع هذا الارتجاج الذي أحسه في مخه، والشلل الذي أطبق على صدره، ومرضه الرئوي الذي طق برئتيه من جنبيه في هذه

اللحظة (استغرب أنه لم تنتبه رغبة في القيء، ربما استخسارًا لروعة البط والرقاق وحرصًا على كرامة طعام زوجته)، وأخيرًا انفجرت كلماته :
ـ والله حرام! حرام عليك !
شخط عبد الناصر بنبرة مستنكرة ونظرة مؤنبة :
ـ إيه هو اللي حرام؟ !
رد طلعت ببعض التخوف والتحوط وبمسحة من التأدب :
ـ اللي بتعملوه في البلد !
ثم نطر كل هذا التخوف والتحوط والأدب، وتغور الضيافة والضيف :
ـ اللي بتعمله أنت !
رد عبد الناصر مندهشًا :
ـ أنا؟ !
ـ أيوه أنت
ـ أنا؟
ـ أنت مسؤول، مسؤول أمام الله وأمام التاريخ، أنت رئيس الحركة، أنت قائد الحركة، أنت كل حاجة، فلا تبرر الخطيئة وتجيب شماعة تعلقها عليها، لا سليمان حافظ، ولا السنهوري، ولا زملاءك. كنت تقدر تقول «لأ»، و«لأ» لما تقولها أنت يعني «لأ»، والكل ساعتها سيقول «لأ »!
زوجة إبراهيم طلعت التي تتسمعه الآن من الردهة، إما أنها كانت تشهق هولًا وخوفًا، أو تصفق احترامًا وتبجيلًا لشجاعة زوجها، أو كانت حائرة بين هذا وذاك .
جاءت اللحظة التي يرتدي فيها جمال عبد الناصر روب محاماة الستة أشهر التي تعلمها في كلية الحقوق، ويدافع فيها عن نفسه :
ـ اللي إيده في الميه مش زي اللي إيده في النار! تعرف زملائي يا إبراهيم الذين تقول إنني رئيسهم؟ ليس لديهم مانع أبدًا إنهم ـ لو قدروا ـ يعتقلونني، أو يقبضون عليَّ ويحاكمونني، ويشنقونني لو يقدرون، ويرمونني في السجن. صدقني !
تراجع إبراهيم طلعت للخلف كثيرًا جدًّا، ربما صدَّق وتعاطف، أو تفهَّم وأشفق، أو أحبط ويئس، وقرر أن يلعب دور المضيف الحاتمي :
ـ والله أصدقك (ندم أنه حلف، لكنه ضيفه رغم كل شيء)، فليفعل الله ما يشاء. أهلًا وسهلًا. زارنا النبي .
بين دعوة للشاي، طيب للقهوة، طيب نعمل ليمون، وبين تمنع من عبد الناصر لارتباطات مواعيد وعمل وزيارة
قصيرة، وإلحاح على دعوةحضور قران عز العرب، وتحجج من إبراهيم طلعت بالصحة المعتلة، علَّق عبد الناصر :
ـ فعلًا صحتك لا تعجبني، خد بالك من صحتك يا إبراهيم .
ظهرت الزوجة مبتسمة مرحبة الآن، وهي تداري قلقها عنعيون زوجها وضيفها، فرحب بها عبد الناصر وهو يشكرها على الطعام الشهي ويوصيها على زوجها :
ـ يا مدام، أرجوكِ خذي بالك من صحته، ولا تسمحي له بإجهاد نفسه، فزوجكِ يعيش على أعصابه. أنتِ مسؤولة عن صحته !

قام مستأذنًا مصممًا، لكن الزوجة استخدمت حقها كصاحبة منزل، وأجبرته برجاءات عطوفة مضيافة أن يشرب فنجانًا من القهوة، فرضخ وعدل الدعوة إلى فنجان من الشاي .
بعد ذلك بأيام، ندم إبراهيم طلعت لأنه ذهب إلى المحكمة للترافع في إحدى قضاياه، فقد وصل إلى البيت بعدها والإعياء يضرب في كل جسده سكاكين ومطارق، وصعد السلم بطيئًا مرتكنًا على السور حينًا والحائط حينًا حتى اقترب من شقته، فإذا بباب الشقة مفتوحًا وأقدام وسيقان كثيرة تصدم عيني طلعت الصاعد على السلم . قفز رغم الاعتلال عدة درجات متبقية من السلم حتى وقف متصلبًا أمام الباب، فدخل، فظهر جمع من الضباط والعساكر موزعين في جنبات الشقة، ورأى ضابطًا من المباحث العامة يعرفه يجلس على المقعد الذي كان يجلس عليه عبد الناصر منذ أيام. قام الضابط وقد كست ملامحه علامات الحزن، تواجه علامات الغضب والدهشة والاستنكار التي تجولت في وجه طلعت، وقال له بصوت أوقف حركة الضباط والعساكر في الشقة تمامًا :
ـ للأسف يا أستاذ إبراهيم، صدر أمر باعتقالك !
ظهرت زوجته من خلف ظهور العساكر، وهي تمد يدها له بحقيبة ملابسه، فقد كانت جهزتها وأحكمت إغلاقها منذ سبقوه إلى البيت. مدرَّبة هي على تجهيز حقيبة الاعتقال منذ سنوات، زار فيها زوجها كل سجون مصر أيام الملك، وقاومت ذهولها وزوجها يُقبض عليه من الذين طردوا الملك! تبادلا الأسى والأمل بين نظراتهما، وهو يتناول منها الحقيبة، بينما أمر الضابط زملاءه الآخرين بأن يخلوا الشقة، فخرجوا، وأمسك هو بذراع إبراهيم طلعت ومشيا معًا حتى باب الشقة، ثم نقل عينيه المندهشتين بينه وبين زوجته المحزونة :
ـ ما الحكاية؟ ألم يكن جمال عبد الناصر يتناول عندكم الغداء من كم يوم؟! كيف يعتقلك؟ !
كتم إبراهيم طلعت غيظه المتفجر، وقال :
ـ لازم لم يعجبه البط !

36

ـ كأس أخرى لجلالة الملك .
ابتسامة محترفة قدمها عامل البار الإيطالي مع الكأس لملك مصر الوسيم الأنيق البدين، يجلس على قرص مقعد البار الجلدي المرتفع، بالكاد يسع مؤخرة الملك الذي يرتدي البدلة البيضاء ذات الأزرار الذهبية، والسيجار في فمه، والقبعة على سطح البار أمامه، يتبادل الضحكات النزقة مع سيدة شقراء جلست وحيدة على المقعد المجاور، فجرَّت حبال الكلام مع ملك مصر المنفي الذي انجر، وبدأت ثرثرات يتابعها عامل البار مستغربًا وهو يمنح الملك كأسه الثانية من «الكوكاكولا»، ألح على «البيبسي»، فلما أخبره أنها غير متوفرة وإن أراد فسيرسل فورًا لشرائها، وافق بأدب جم على التواضع ونيل طلب لم يطلبه. كانت السيدة تحكي له عن ذكرياتها خلال رحلة للأقصر وأسوان، واعتبر عامل البار حكايات السيدة فظاظة لا تليق باحترافها، فهي صائدة أغنياء الرجال في المحل الثري، لا يجب أن تذكره هذه السيدة بمصر وهو ملكها المطرود، لقد رأى صور فاروق في كثير من الصحف، لكنه على الحقيقة يبدو أقل سمنة، وأكثر بياضًا، وأبعد ما تكون ملامحه عن ملك منفي، حتى إنه لم يبدِ تأثرًا بكلام السيدة عن جمال الأقصر وأسوان، رغم أنه يجيد الإيطالية إلى درجة قدرته على تبادل شتائم شوارع إيطالية بامتياز في أي خناقة في أزقة روما. تجول عامل البار بعينيه متوجسًا يبحث عن صحفي كامن وراء مائدة أو مصور صحفي خلف زجاج المطعم أو في الممر المفضي للمطبخ، كانوا يتكاثرون منذ شهور حين زارهم الملك لأول مرة، الآن قل العدد وتراجع، لكن الأمور لا تسلم من مرة يضيء فيها فلاش كاميرا أو يدس فيها صحفي دفتره في صدر الملك تفتيشًا عن تصريح يثير ضجة، يبتسم الملك ويتجاهله، وينشق المحل عن ضابط إيطالي مكلف بحمايته أو من حراسة الملك الألبانية يطلب بتهذيب ملول رحيل الصحفي ومصوره

كانت المرأة محترفة، لم يخطئ فاروق قراءة عرضها بمجرد تحسسها لؤلؤ عقد جيدها، لكنه استمر في لعب دور الملك المعجب، فهو أفضل أدواره في اللحظات الأولى مع النساء. يلتفت بين لحظة وأخرى إلى الممر الذي يقود إلى قاعة المطعم الرئيسية، حيث ترك ناريمان وحدها على المائدة منذ قليل، لتجلس وتغير جوًّا وتفكر في أمها أصيلة قليلًا. فقد مللت هذه السحنة الكئيبة، والعين الذابلة قلقًا وحزنًا، والدمع الذي يطفر فجأة ولأي سبب، ماذاأفعل لها؟ ماذا تطلب مني؟ أن أصحبها إلى خارج الفيلا بدلًا من أن أسهر وحدي؟ طيب، ها نحن معًا في المطعم الأفخر في روما، وقد تركنا فؤاد في كنف مربيته في كابري، فهل كففتِ عن التنكيد على مولاكِ؟ صامتة أو مترددة أو متبرمة! أسئلة صغيرة كثيرة، قلق وتوتر واستغراق في المستقبل المجهول، ما تخرسي! لهذا السبب أنا لا أطيق الخروج معكِ، كفاية جلساتنا في الفيلا على مائدة الطعام، أو في الحديقة ساعة الغروب، أو على حوض السباحة مع البنات. وها هن سافرن للتعلم في سويسرا، فدعيني لنفسي وانشغلي بفساتينك التي جلبتها أمكِ أصيلة من مصر، فقد انبسطت بالفساتين التي تسلمتها آتية من مصر بموافقة السيد مدير مكتب القائد العام للشؤون الفنية، وممهورة بتوقيع القائد العام شخصيًّا. يا لها من عالم فاضية! أفساتين امرأة تقتضي كل هذا الانشغال واللجان والتوقيعات، واستدعاء السيدة أصيلة هانم شخصيًّا لفرز الفساتين والتعرف عليها واستلامها في محضر

رسمي؟! طبعًا أنتم ترونها فساتين فاخرة باهظة لزوجة الملك المترف الخليع الذي يتبارى مصطفى أمين في نشر قصصه الوهمية (للأمانة مسلية، وتقدمني فحلًا طلوقًا في مزرعة خيول، يركب أجمل الفرسات الفرائس، وهذا يشعرني بالرضا. لعل هذا الرجل الحربائي إن قابلني لأقنعني أنه كان يكتب تلك الفضائح لا ليذم فيَّ، ويبرئ نفسه من منافقتي سنوات بصحيفة دفع فيها قصريما دفع الأمريكان، بل كي يرفع من شأن رجولتي وذكورتي، فمن هو الرجل الشرقي الذي لا يحلم أن يكون فاروقًا غازي أجساد النساء؟).
أتخيل أصيلة هانم منكسرة، رغم محاولتها البائسة في التعامل كجدة الملك الرضيع، تفتح دواليب الملكة، وتتجول بين رفوف وشماعات ملابسها متحسرة، وتشعر بما لم تشعر به ابنتها: أن تسليم الفساتين يعني غيابًا طويلًا عن القصر، بل ربما انقطاعًا عنه، فلا هي ستعود الملكة الأم، ولا هي سترجع رفقة ذراع الملك السابق. أصيلة تملك خبثًا بقدر طمعها، وستفهم ما لم تفهمه ابنتها التي فرحت بفستان زفافها الذي قالوا لها إنه أحدث مشكلة كبيرة لهم في النقل حيث حجمه الضخم ووزنه الأثقل. طبعًا يا ضباط جيشي الوطنيين، أكان ممكنًا أن يكون ثوب زفاف الملكة كفستان أخت حضرتك الذي ذهبت العائلة كلها لشرائه من صيدناوي أو خاطته الست ماريكا اليونانية في ورشة خياطتها في حيالظاهر؟! إنه الفستان المرصع بعشرة آلاف فص من الماس، الذي استغرقت صناعته أربعة آلاف ساعة يا ضباطي الأعزاء! أنا واثق طبعًا أن أصيلة هانم عدت الفصوص فصًّا فصًّا ألفًا فألفًا، حتى تتيقن من أن فصًّا واحدًا لم يفلت من بين العشرة آلاف فص! بلهاء يا أصيلة، لا تفهمين الفرق بين الفص الزجاجي والألماسي، يا رب يكونون قد أبدلوها كلها كي تموتي كمدًا يا أصيلة، فأنتِ لا تستحقين مع ابنتكِ فستانًا من «جيرمان ليكونت» الباريسي، ولا هؤلاء العشرين صنايعيًّا الذين عكفوا على صناعة فستان زوجة الملك فاروق! ولو بيدي لمزقت الطرحة الدانتيلا الفينيسية. عمومًا كي تهنأوا يا ضباط جيشي البواسل، فالفستان بخمسة آلاف وخمسمائة جنيه، فلماذا لم تصادروه مع فساتينها عندًا فيها وفي أمها؟
هأنذا على البار أتأمل تلك الزجاجات الملونة تحوي كل أنواع الخمور الشهية المغوية بأحجام مختلفة وأشكال متباينة، مرصوصة خلف عامل البار صاحب الجاكت الأبيض والفراشة السوداء على قميصه، يريد أن يسمع شيئًا يحكيه لزملائه على المقهى عن ملك رآه الليلة يشرب «الكوكاكولا». هأنذا أحادث امرأة تافهة تظن أنها اصطادت ملكًا يعاني النفي والهجر والوحدة! أريد أن أقول لها لا تصدقي الصحف والمجلات أيتها العاهرة الأنيقة، فلست ملكًا قابلًا للاصطياد، بل أنا الصياد البارع! هل تريدين أن أقدم لكِ أرقام هواتف نجمات إيطاليات وأوروبيات ينتظرن اتصالي أو صحبتي في حفل أو سهرة أو نادي لعب؟ ضحك فجأة حتى ظنت المرأة أنه مخمور (سيشرح لها البارمان حقيقة «الكوكاكولا» في كأسي فستندهش وتصدم)، لقد تذكر إمبراطور الحبشة الذي لقن هؤلاء الضباط درسًا حين أرسل يطلب رد هداياه للملك فاروق: ألم تخلعوه وتنفوه وتضعواأوصياء تساقطوا وراء بعضهم، ولم يبقَ إلا الأمير الكليل محمد عبد المنعم الذي يرتعد الآن وهو يحاول إنقاذ ثروته من تحت كتافاتهم؟ كانت هدية «هيلا سيلاسي» لا تنسى طبعًا، صحيح أن فاروق لا يركز كثيرًا في الهدايا بعدما يطمئن على استلامها ويتحسسها ويضعها بين يديه ثم يشبع منها بعد دقيقة أو أكثر أو ربما أقل، ويردها إلى يد الشماشرجي كي يلحقها بغيرها من الهدايا التي لا يتذكرها ولا تزور خاطره غالبًا إلا حين يقرر منح هدايا لملوك أو رؤساء أو كبراء أجانب، ساعتها يسأل ما الهدية التي جلبها لي قبلًا؟ ربما زاد عليه ليعلمه أنه ليس أقل كرمًا،

وأحيانًا يعاقبه بهدية أرخص وأضأل شأنًا تليق بهزال هديته لفاروق ملك مصر والسودان. برافو يا «هيلا سيلاسي»، فقد أجبرتهم على البحث والجرد وتسليم هديته «قلادة سليمان»، وردها إلى سفارة الحبشة خشية غضب الإمبراطور. أما هؤلاء الأفاقون الرعاع الذين قدموا هدايا لجلالة الملك المفدى، فلما عرفوا رد هدية «هيلا سيلاسي» هرعوا لاستردادهداياهم وقدموا للضباطإيصالات ومواصفات، فقد تلقوا ركلات على مؤخراتهم تفرقع وتدوي، عندما رفض الضباط إعادتها لهم حيث قدموها نفاقًا وتزلفًا! ها، طلعتم منافقين ولستم ضحايا، قررتم التزلف لهم كما تزلفتم لي إذن، ونلتم جزاء وفاقًا! يكتم فاروق ضحكة أعلى، ثم يقرر لها أن تنطلق بحريتها، لقد تقدم كثيرون بطلبات لرد هدايا لم يهدوها أصلًا، لقد كانوا ينصبون على ضباط نجيب، ومن يعرف؟ لعل لهم شركاء في النصب، لكن نجيب طلع شاطر وفهمها، لا ليس نجيب، فقد انكشف هذا اللواء الدامع دومًا، فالذي يديره كالعروس في صندوق الموسيقى هو بكباشي في مثل عمري، هو جمال عبد الناصر، لا أشك لحظة أنه سيطيح باللواء الطيب سريعًا، كما قذف بعلي ماهر من السفينة خلفي، وكما داس على مصطفى النحاس زعيم الأمة وألغى وفده! هل رأيت يا معالي دولة رئيس الوزراء، يا زعيم زعماء رعاع الأمة، ماذا فعلت بك الأمة أيها العجوز المتعالي؟ أين غطرستك وكبرياؤك وتوهمك أن مصر كلها بين كفيك ووراء ظهرك؟ أهؤلاء الضباط ضربوك ظهرًا وقفا وبطنًا وصدرًا، ولم يرتفع رأس واحد يقول لهم: لا، عيب، الديمقراطية، إرادة الأمة، العبث بالدستور؟ أهم ألغوا الدستور نفسه يا نحاس! «هأو هأو» على رأي محمود شكوكو الأراجوز (لست الأراجوز الوحيد في مصر يا شكوكو، تعال لي وأنا أعدِّد لك الأراجوزات من القصر إلى الأحزاب والوزارات واحدًا واحدًا بالاسم والوجه والطرطور !).

فجأة ظهرت ناريمان قادمة نحو البار. انتبه عامل البار قبل ملك البار، فنظر إليه بحياء كي يأخذ حذره، فلما أدرك فاروق المشهد مال على السيدة الشقراء، ولامس رأسها، ووضع كفه على فخذها البائنة من تحت فستانها، وقهقه عاليًا، كأنما يغيظ زوجته الملكة التي اغتاظت فعلًا، وانفجرت ملامحها كمدًا، وطفرت دمعًا، فكأن فاروق بلغ نشوته فهدأ، ونزل عن المقعد محييًا المرأة ومستأذنًا وقائلًا لها بإيطالية ملكية :

ـ أرجو أن أكون في شرف انتظارك، حينما تقررين العودة لزيارة الأقصر وأسوان يا سيدتي، أنصحكِ هذه المرة بـ«أولد كتراكت» فهو فندقي الأثير .

ودعها وهو يعرف أن السيدة تصورته واهمًا مخبولًا يتخيل أنه سيعود إلى مصر ثانية. بالراحة عليَّ يا عاهرتي المتهتكة، لعلي أنتظرك كمدير للفندق لا كملك والد! لا أريد العودة إلى هذا البلد مرة أخرى، أنا ما صدقت خلصت منه! مضى نحو ناريمان المتثبتة في الأرض مرتعشة البدن ومحمرة العينين ومكتومة على قلبها، وأمسك بيدها، وهمس لها بفرنسية متأنقة :

ـ تفضلي معي يا جلالة الملكة قبل أن تبرد وجبتنا الشهية .

كانت أصابعها ترتجف وهي ممسكة بالشوكة تخبط بها طبقها حين تنزع منه قطعة دجاج نصف مطهية، بينما كان فاروق منغمسًا في التهام أطباق طعامه، ممتلئ الفم، متخليًا عن عرشه لأفخاذ البط وقطع اللحم، يحيطه لون المفارش الأبيض، والمصابيح الحمراء ذات الشمعات المشتعلة، ولوحات الحيطان الملونة، والورود المرشوقة في فازات نحيلة طويلة موضوعة في منتصف الموائد، والجرسونات بالملابس السوداء الرسمية ذات الشكل الموحد بالابتسامات الموحدة. سمعها تقول شيئًا كأنه احتجاج على لطعتها وحيدة، بينما هو في البار يحادث امرأة، فقال لها :

ـ هل قالت لكِ أمكِ إن اللجنة التي يرأسها علي ماهر النذل لكتابة دستور جديد يزعم الضباط إصداره سينص على إعلان الجمهورية؟
لم تفهم شيئًا مما قال لأنها أيضًا لم تسمعه، فلم يهتم وواصل وهو يرفع كأس الماء أمام وجهه :
ـ في صحة أسرة محمد علي باشا الكبير !
كان قد أشعل سيجاره وينفث دخانه منتعشًا :
ـ هذا الدخان في صحة جدي الدخاخني العظيم، وسوف يتحول عرشه إلى دخان قريبًا !
ضحك طليقًا :
ـ افرحي، ستكونين آخر ملكات مصر !
أتظنني مغفلًا هذه الصبية الغرة؟ نعم أسمع مكالماتكِ لأمكِ في مصر، وأنتِ تشكين وتبكين. يقلد صوتها وأداءها ساخرًا: أنا باموت يا ماما، فاروق سيقتلني .
الحقيقة أنتِ تستاهلين القتل أكثر من محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعلي ماهر وسليمان حافظ (مصطفى النحاس كان يستحق القتل من زمان، وقد حاولت وفشلت، والحمد لله أن يوسف رشاد الأهبل لم يقدر هو وضباطه على قتله، فليس هناك أجمل من التشفي فيه والوفد تحت بيادات الجيش، جيشي يا زعيم الأمة!). لم تكن مرة أو مرتين، لا، أظن ثلاثًا، سممت بدني وأنا عائد من سهرة لعب للورق، وتكلمت ولخبطت في الكلام، فزعقت فيها فدفعتها عني، وربما صفعتها، فهل الرعب الذي ركبها والصريخ والفضيحة التي توقظ بها الحرس والخدم تليق بملكة، أم بسيدة شلق كأمها؟ أكيد أصيلة تعرف أن مكالمات ابنتها مسموعة ومراقبة من الجيش، ولعلها تتاجر بهذه المكالمات وتستعطف ضباط نجيب لإغاثة الملكة الضحية في المنفى مع زوجها المليك الخسيس!
هي فرصة لمصطفى أمين لكتابة قصصه الساخنة، ويكمل خبطات «أخبار اليوم» منذ كان يكتب عن هروب جمل من السلخانة إلى قصر عابدين، وزيارة الملك فاروق للسلخانة، ولقائه بكبار أعيان الحي الذين قالوا له ما دام الجمل لجأ إلى قصر عابدين يبقى في الأمان (يا ابن الجنية!)، وكيف أن الملك يعرف أسماء الصناع الماهرين واحدًا واحدًا في مصر، وليس في مصر داعية للعامل المصري أعظم من الملك فاروق الذي كثيرًا ما يردد معتزًّا «لقد صُنع هذا بأيدٍ مصرية» وهو يطلع زائريه على مصنوعات مصرية دقيقة ناجحة. هذا هو أنا، أو من كنت أنا يا مصطفى حين كنت تتهكم على هذا الصحفي اللعين، نعم، فاكر اسمه حتى الآن، أبو الخير نجيب، حين كتب مقال «التيجان الهاوية» يهاجم فيه فساد فاروق (الذي هو أنا)، ويتم التحقيق معه بتهمة العيب في الذات الملكية، وسط صخب في الحياة الصحفية دفاعًا عن الرجل، بينما أنت يا مصطفى تنشر في الأخبار عنوان «الملك فاروق يرأس المجلس الأعلى للفقر»، وتبرز تصريحاتي الحانية «لقد جئت بحق الفقير في حمايته من المرض والجوع»، وأبو الخير نجيب الذي يتحامق في وطنيته حتى إنه يخصص مكافأة ألف جنيه في عنوان ضخم بارز في صفحته الأولى لمن يقتل جنديًّا إنجليزيًّا في منطقة القناة، بينما تنشر «أخبار اليوم» عنوان «ويل للأمة التي تظن أن حكم الشعب هو حكم الفوضى»! أين أبو الخير هذا الآن مع نجيب وعبد الناصر؟ وهل قبض ثمن تيجانه الهاوية أم تحصل الثمن مصطفى أمين فقط؟ آه يا أخ أبو الخير، لقد تهاوت التيجان فعلًا كما تنبأت أيها الصعلوك، وها هي ملكة التاج الهاوي ترسل رسالة لأمها :
أنا مش طايقة أقعد دقيقة واحدة في إيطاليا! فاروق بيضربني ويطول إيده وحكايته زادت !

فاروق حاف هكذا يا بنت الرجل الذي مات كمدًا على زواجكِ بي؟! لكنكِ لستِ الخائنة الوحيدة، ألم تسمعي ما قاله كريم ثابت عني في محكمة الغدر؟ الغدر بمن يا كريم؟ لم يجد أي غضاضة في أن يغدر بي عند أسياد جدد! أنا أعاني من مرض وشذوذ يا مستشاري الصحفي وصديقي الأثير؟! اللعنة عليك وأنت تقف أمام قضاة عينوهم على أعينهم ليشهروا بي ويفرشوا الأرض لهم لإسقاط الملكية وحرمان ابني من عرشي، واستخدموك وأنت تعرف، واستغلوك وأنت تعلم، بل وأنت تعرض أكثر! أتريد أن تكون مصطفى أمين آخر؟ ألست صحفيًّا أمهر، وقلمًا أبرع باتصالات أوصل، لكنك كنت في القصر وكان خارجه؟

كان كريم ثابت ببدلته البيضاء، واعتداده بنفسه، يتجاهل لغة الحط من شأنه التي يدسها رئيس محكمة الغدر في طيات اتهاماته، يقف مدافعًا عن نفسه بالهجوم على فاروق، هذا الشاب الخائب الذي لم ينصت إليه ويسمع كلامه ويعمل بنصائحه، فأودى بنا كلنا إلى داهية. ليسمع الناس الحقيقة لعلها تفيدهم وتفيدني :

ـ حضرتك سألت سؤالًا: كيف كان يعلم الملك؟ وإزاي كانت بتجيله المعلومات؟ فأنا أحب أوضح النقطة دي مش دفاعًا عن نفسي. فهل كنا بنبلغه ونأخذ النتيجة كما يقال؟ لا، اللي كان بيحصل إنه ما كانش فيه عمل بيحصل في الحكومة، إلا بعد استئذان الملك، أيًّا كان هذا العمل، مش بس إنشاء كوبري أو مستودع أو غيره من الأعمال الكبيرة اللي طبيعي إنه يعلم بها، وإنما إيه رأي حضرة الرئيس في ترشيح مدير للتنظيم كان يعرض على الملك وهل يوافق أو لا يوافق: قنصل مصر في ليفربول عايز ييجي 15 يوم إجازة علشان أمه عيانة، حركة ترقيات البوليس بموافقته، حركة ترقيات الجيش بموافقته، تغيير الملابس الصيفية بالشتوية للجيش والبوليس، ومتى يغيرون هذه الملابس، والشتاء يبتدئ في 15 نوفمبر في مصر و10 نوفمبر في الإسكندرية، وإذا ما صدرتش الموافقة ما كانوش يغيروا. كيف كان يعرض عليه كل هذا، حتى إن رول مجلس الوزراء من أيام الملك فؤاد كان ييجي إلى السراي قبل الجلسة بأيام، بيرفع رول مجلس الوزراء إلى الملك يطلع عليه، والمسألة اللي عايز يأخرها يأخرها، واللي عايز ينظرها تنظر، فكل الترشيحات والتعيينات والترقيات كانت بتعرض عليه، حتى ترشيح مدير المجاري لازم استئذان السراي، ووكيل الديوان يرفع بيها البوستة. وكان يحدث هذا في جميع العهود باستمرار، أغلبية وغير أغلبية. وأنا دخلت السراي لقيت الحال كده، وترفع البوستة للملك ويرجعها وتوزع على المختصين وعليها التأشيرات إما بالموافقة أو الرفض أو بتعليماته، وكانت بتروحله شنط كل شنطة قد كده، وفيها مذكرات عن كل شيء، حتى عدد الغزلان في أدفينا وأنشاص ومات منهم كام. ورغم سهره ولعبه كان بيشوف البوستة، ودي غريبة من الراجل ده، التأشيرات إما بخطه، وإما بخط واحد من الشماشرجية اللي في خدمته .

شكرًا يا كريم يا نذل على هذه الشهادة الأمينة! كان فاروق يتابع قراءة الصفحات التي تنشرها الصحف المصرية من المحاكمة، مل يومًا وزهق يومًا آخر، لكنه عاد وقرأها، وهي التي تأتيه نسخها من السفارة، ربما لحرق دمه أو حرق جسوره مع مملكته. كلما قرأ أيقن مع غليان الدم وبخار النقمة الصاعد من فمه على وجهه، أن رضيعه لن يرى عرشًا، وأحسن والله بدلًا من أن تحيطه وجوه مثل هؤلاء! أكريم لئيم حتى إنه يمتدحني أمامهم، أم أنه يرمي كل الذنوب على رأسي؟! أي ذنوب يا أفندية وأنتم ذنبي الأكبر؟ !

ها هو كريم ثابت يتطوع مبادرًا ويعرض نفسه طولًا وعرضًا ولسانًا وقلمًا عليهم، ويقول :

ـ الملك كان بيعرف كل شيء، وكان قائد بوليس السراي الأميرالاي أحمد كامل بيكتبله تقارير يومية بكل ما
يقال عنه في البلد. ويوم ما حصل إضرابات في الجامعة ونزلوا صورته ومزقوها وشتموه وهتفوا ضده، ولما هتفوا ضده في المدارس وضد ناريمان، كان عارف قبل ما نعرف، عرف هذا كاملًا مفصلًا عن طريق الأميرالاي أحمد كامل. وكل ما كان يكتب عليه في أوروبا كان بيطلع عليه، كانت المجلات بتحجز في المطارات ويطلع عليها، ويطلع عليها اللي حواليه. حتى افتتاح المدارس والكباري وغير ذلك، لو حضراتكم طلبتم الأوراق من الديوان حتشوفوا العجب، وحتشوفوا إنه كان بيستشار في كل شيء، ويطلب إذنه في كل شيء، وفي عهد جميع الوزارات .
ويسأله رئيس المحكمة التي تم تشكيلها خصيصًا للغادرين من أمثال كريم ثابت :
ـ يعني الملك كان مريضًا مرضًا جسمانيًّا؟
ـ مفيش شك .
مفيش شك يا كريم، يا دكتور كريم! لكن من قال إنني لست مريضًا وأنتم تصيبون أي أحد بالمرض؟! ملككم مريض، إذن أنتم شعب أكثر مرضًا، أو ممرض، أسقطتم المريض لكن ماذا يفعل وطن مريض يسقطه مرضى؟! ابقوا قابلوني، وإنت قابلني أيها الصديق الخائن! أيسألونك هل هذا المرض سبب انحرافه وتصرفاته، فترد «أي نعم»؟ !
ـ شذوذ في طبيعته، وكنت معتقدًا أنه مع الوقت ومع التجارب والأزمات حيتحسن، وكنت أقول ده شاب دلوعة وجاهل! ملك وغني وما اتوجهش التوجيه الصحيح! لكن أنا لاحظت، مع الأسف الشديد، إن الشذوذ كان بيزداد يوم بعد يوم، ولا ينقص. وده أول ما ضرب في ذهني إن المسألة مش مسألة نزوات، يمكن السيطرة عليها أو التغلب عليها. إلى أن كنت يوم من الأيام في زيارة صديق طبيب، فأطلعني على كتاب في تكوين الشواذ، وقرأ لي صفحة خيل إليَّ أن الكاتب الأمريكي أو الإنجليزي وضع شخص فاروق أمامه، وقعد يوصفه، فأيقنت أنه لن يتحسن مع الوقت، ولهذا استقلت في أول فرصة
ما رأيكِ في هذه الخسة يا ناريمان؟ متى تنضمين إليها يا ملكة مصر الأخيرة؟ فجأة وجدها تتجمد ثم تسقط من مقعدها مغشيًّا عليها . يا لفضائحك يا ناريمان! ينهض حانقًا ومسرعًا فيأخذها بين يديه، ويتجمع الجرسونات المتحمسون، ويقف الزبائن ببدلاتهم الفخمة وتأنقهم الليلي يتابعون ويعرضون خدماتهم على الملك التعس، ويبدي أحدهم لهفًا أخلص، فهو طبيب كما يعرِّف نفسه، يحاول إفاقة الملكة المغشي عليها، ثم يأخذها فاروق وحارسه الألباني والضابط الإيطالي المتبرعان لمساندته في رفع الملكة الغاثية بين يقظة وغفلة إلى السيارة، مومئًا برأسه للزبائن معتذرًا عن إزعاج زوجته الطفلة لهم، متداريًا بين أكتاف حاشيته الهزيلة .
زعقت فيه أصيلة هانم متخلية عن أي أصل وأي هوانمية :
ـ إنت واطي ودون، وعمرك ما عرفت الأصول، وأنا عايزه بنتي معي !
مبهوتًا كان يسمع أصيلة هانم التي انحدفت عليه في إيطاليا، مقتحمة حياته وفيلَّته. طبعًا سمح لها الضباط بالسفر لإذلالي، تتطاول كسيدة من السلخانة، وتخلع حياءها المستور وراء طمعها، وقد أدركت أن كل شيء زال وباد، كما العهد البائد الذي يرغون ويزبدون به في إذاعة القاهرة .
ـ لا مانع، لكن اسكتي ولا داعي للفضائح !

كانوا في الفيلَّا الإيطالية، والحرس والخدم وموظفو السفارة كلهم جواسيس للواء نجيب، وخدامه وحرسه وموظفوه هو لا أنا، فقط رجالي الألبان المخلصون من أستطيع أن أترك هذه السيدة الصفيقة تبرطم أمامهم ضدي :
ـ لن أسكت إلا إذا أخذت البنت معي !
هاج وماج :
ـ اخرسي يا أصيلة، ولا تتدخلي في شؤوني !
لينقل جواسيس نجيب له كل شيء، خلاص لن أستطيع تحمل زوجة نكدة وحماة صفيقة
ـ نعم يا ملك يا ناقص، إنت بتضيع بنتي، كما ضيعت نفسك وعرشك على صالات القمار والنسوان
يا ربي! إنها من قراء مصطفى أمين، ثم ما هذه الملاءة اللف التي ترتديها كلمات أصيلة هانم؟! ثم أين الأصالة في هذا الموضوع كله على بعضه؟! إنها تكمل :
ـ بقى حصل ما حصل، وأخدت البنت معك، وتبهدلها في الغربة! الحق عليها لما رضيت إنها تيجي معك، واحدة غيرها كانت تركتك تغور لوحدك وتقعد هي في بلدها !
ـ اسكتي أحسنلك
ـ لن أسكت! كفاية إنك ضربت بنتي قلمين
تمنى ساعتها أن يكون قد أوغل في ضربها، بل وضرب أمها، فزعق ملتفتًا إلى ناريمان التي كانت تنتفض مذعورة متزلزلة تمامًا من الخناقة :
ـ خلي الولية أمك تسكت أحسن أوريها شغلها !
تصدت له أصيلة، ووقفت بينه وبين ناريمان :
ـ عايزة البنت وأرجع بها مصر !
لم يطقها، ولم يطق نفسه :
ـ خديها وروحي إنتِ وهي في ستين داهية !
ثم تركهما منفضًا يديه، ولما وصل إلى باب الغرفة عاد إليهما بوجهه :
ـ لكن لازم تنسي إنك كنتِ زوجتي، وأن لكِ ابنًا مني، الولد ابني وليس ابنكِ، انسي أن لكِ ابنًا أصلًا !
ردت ناريمان مكلومة، بينما أمها متجمدة تمامًا :
ـ يعني لن أرى ابني قبل ما أسافر؟
ـ ولا بعد ما تسافري !
شخطت أصيلة ملتاعة :
ـ سنطلب الطلاق !
ـ تؤمري يا أصيلة هانم
ثم منتفضًا بغضب ملكي :
ـ لكن اعملي حسابك، لن تأخذ معها فستان فرحها !
*
آه، إنه التانجو يا سمو الأميرة. كانت فايزة تهمس لنفسها حين دلفت إلى السلاملك، فرحبت بها موسيقى «التانجو» تأتيها من الفرقة الموسيقية التي أخذت مكانها في الحديقة الخلفية لهذا القصر

الفسيح الذي يعج بالضيوف. هناك عند حوض السباحة وعند كرمات الأشجار، رُصت الموائد، وانتشر الضيوف بين راقص وجالس، وشارب وآكل، وهامس وصاخب، وضاحك ومقهقه. البدلات الأنيقة، والفساتين الزاهية، والسجائر في الأفواه، والكؤوس في الأيدي، والصواني تتنقل فوق أيدي السفرجية تعرض مأكولات البحر المسلوقة والمقلية والمشوية، وقطع التفاح والجزر والخيار، وشرائح الليمون والبرتقال، وصفائحاللحم الأحمر، وصدور الدجاج الباردة، ومزات الخمر الشفيف، والأصفر البني الغامض، والأحمر النبيذي القاتم والفاتح. كأن ملكًا لم يُطرد يا رفاق ليلي! وكأن ضباطًا لم يركبوا رؤوسكم وأعناقكم! وكأن نحاسًا لم يُدهس! وكأن وفدًا لم يُلغَ ! هؤلاء الذين يقرعون زجاج كؤوسهم يمضغون القلق مع الزيتون في الخمر، يدارون خوفهم من المجهول الذي قد يطرق باب قصورهم ليلًا أو فجرًا، لكن مهما كان من نجيب وضباطه، ومهما سفكت الصحف دم أخي جلالة
الملك المفدى الأخرق والأهبل، ومهما أغلقت القصور الملكية أبوابها على ضباط يجردونها، فإن ظهور أميرة يخطف العيون، ويجذب النظرات نحوها، ويرفع الأعناق لها، ويشد الاهتمام بها، وتحوم الفراشات والحشرات حول نورها! ها هم مستضيفو الحفل وأصحاب القصر يهبون إليكِ يا فايزة! ها هي الابتسامات والترحيبات والانحناءات والقبلات تستقبلكِ بما يليق بالبهية التي لم تشحبها نوازل الزمن! ألم يكن أفضل أن أبقى في قصري كما أخواتي فوزية وفايقة تلجآن إلى الإسكندرية كأميرات راضيات قانتات متخفيات وراء الحجب والسحب وصخب البحر، أم أفضل وأريح وأرحب أن أهج إلى خارج المملكة كلها التي لم تعد ملكًا لنا؟ لكن إلى أين؟ هل لأمي نازلي النزقة؟ أم مع أختي فتحية الغبية؟ يا ترى ماذا تفعلان الآن في أمريكا؟ المال سينفد، ورياض غالي الانتهازي لا يملك لهما إلا المداهنة والمسكنة التي أسقط بها أمي العجوز المتصابية وأختي الطفلة الخام المغفلة! أم أذهب مع زوجي التركي الأصيل إلى إسطنبول حيث أعيش معه ملله وضجره وتركيته السخيفة؟
وقفت فايزة وهلة تمنح الجميع فرصة تأمل الأميرة، ثم مشت بفستانها الأبيض الدانتيلا مكشوف الذراعين الملفوفتين بفورير أبيض، يحيط عقدها الماسي يلثم صدرها الناهد ويدور مع عنقها الباسقة. كانت تعرف متى تنظر إليه، وإلى أي مدى تضع نظراتها عليه وتستقر بها عند عينيه، وعدد المليمترات الكافية لفرجة شفتيها، والثواني اللازمة لدوام البسمة ثم ضم الشفتين، ومتى ترفع نظراتها عنه بلا اكتراث، وتدير رأسها بلا اهتمام، وتوليه ظهرها مع انسياب عفوي للفورير، فيشرق ظهرها ألقًا، ويشعل فضوله لهفًا. إنه هو، لم تكن المرة الأولى التي يصادفها في الحفلات، ولم يكن سهلًا أن تخطئه، فهو لا يخلع بذلته العسكرية، ولا يرفع كابه عن صلعته اللامعة، ويلصق فوق عينيه نظارته السوداء، ثم لقد رأت صورته في الجرائد والمجلات، بل إنهم يقولون إنه الضابط الأهم بعد محمد نجيب، والملحق الأمريكي قال لي إنه الضابط الثالث. لكنه منذ ليلة ظهورها في حفلة كانت تجمع وجوهًا كثيرة حوله تسمع وتحاور وتنافق وتتجسس، شقت نظراته من وراء عدستي نظارته الطريق إليها، فشعرت ببهوته وشحوبه، ثم اهتمامه وإعجابه، لعله يعرفها، أو لعل أحدًا ممن ينحنون حوله أو يهمسون في أذنه أبلغه أنني الأميرة فايزة. رأته خلال الحفلة يحوم بنظراته حولها، ويحاول الاقتراب منها، فكانت تبعد وتتباعد. همس لها أحد أصدقائها من الدبلوماسيين الأجانب وهو يومئ لها ناحيته :
ـ الصاغ صلاح سالم، عضو مجلس قيادة الثورة .

كانت تستلطف كلمة «الثورة» منذ بدأت تجري على ألسنتهم في الإذاعة والجرائد وفي الحفلات، وصاحت ضاحكة في وجه زوجها :
ـ فاروق مشي لما أرسلوا له ورقة مع مندوب، لم يبذلوا جهدًا حتى للضغط عليه، كان ممكن يمشوه بالتلفون، فأي ثورة هذه التي يتحدثون عنها يا محمد؟ !
عندما رأت صلاح سالم وهو يتمخطر بين المدعوين في حفلة، ثم يظهر في حفلة أخرى ويقترب منها أكثر، وباندفاع في حفلة ثالثة يصافح، رفعت ظهر كفها له، فانحنى يقبله! فطنت إلى القوة الذائبة بداخله، أن ينحني الضابط الثائر (بروح أمه لإنقاذ أمته) ليُقبِّل كف الأميرة، فإنه في الغالب تلبَّسته حدوتة الشاطر حسن والأميرة بنت السلطان ! لمسة يده، قبضة أصابعه، ثقل شفتيه على جلدها، مكوث وجهه فوق كفها، انفكاك يده البطيء عن أصابعها كأنه يتشبث بالبقاء عند أناملها، أو حتى أظافرها، كل ذلك أوصلها للحظة التي قررت فيها أن تتواضع وتسمح له بأن يقترب منها! ها هي الليلة، وكانت واثقة أنه سيكون موجودًا. الغريب أن ضابطًا يقال إنه الأكثر انشغالًا يتفرغ لحفلات ليلية في أجواء مخملية لا تليق بالقشلاقات التي عاش فيها، ويلتقي بوجوه باشوات وبكوات وهوانم يحاربهم في مكتبه صباحًا، وها هو يسهر معهم مساء، بل إنه يدنس سيرة الملك ويطارد أسراره نهارًا ثم يهيم بأخته الأميرة إعجابًا ملهوفًا ليلًا! عمومًا آن الأوان يا فايزة أن تستجيبي للشاطر حسن :
ـ أهلًا يا حضرة الصاغ .
أخيرًا كلَّمته، قالتها بود وبدلال، ورد هو بانبهار :
ـ أهلًا سمو الأميرة !
ثم تداخلت الكلمات من الضيوف الواقفين حولهما، مع أسئلة الدبلوماسيين وتعليقات سياسيي القاهرة، وهو يستعرض لغته الإنجليزية الطليقة أمامها في إجاباته، ملتفتًا إليها طالبًا إعجابها أو سائلًا اهتمامها، وقد جلست واضعة ساقًا فوق ساق، وتركتهم واقفين معه متطفلين عليه، وترمي نظرتها نحوه مطعمة بابتسامة بانضباط أنثوي وهي تسترجع كلمات سكرتير السفارة الأمريكية وهو يحدثها عن هذا الضابط ذي القبعة والنظارة :
ـ صلاح سالم رجل بالغ الاستجابة للاتصال الشخصي، ونتيجة لذلك يمكن التأثير عليه أحيانًا بسهولة تامة .
ثم بصوت متذاكٍ يكمل :
ـ كما أنه يستخدم نفس الأسلوب مع الغير أحيانًا أخرى .
ثم يكمل همسًا :
ـ وهو شخص طموح سياسيًّا واجتماعيًّا .
ردت الأميرة مبتسمة :
ـ أهذا تقرير كتبته أم ستكتبه؟
رد الابتسامة بأوسع منها مضيفًا :
ـ كتبته، ولم أنسَ أن أقول فيه إنه متزوج ولديه أطفال !
ارتاحت فايزة جدًّا عند جملته الأخيرة، وقررت أن تفعلها .
أفلت صلاح سالم نفسه من الجمع الملتم، وغذ الخطى نحوها. جلس وقد اختار مقعدًا بجوارها، وجد نفسه دون أن يشعر يجره قليلًا حتى يلتصق بمقعدها، وبدأ يتكلم تحت رأسها بكلام عن البلد

والمسؤوليات، وأنهم ليسوا ضد أحد، ولكنهم مع الوطن. وفي وسط خطبته فعلتها، و ...دعته :
ـ أنا مقدرة مشاغلك يا حضرة الصاغ، لكن لو عندك وقت أنا عاملة عشاء محدود غدًا في بيتي في المعادي، يا ريت تشرفني .
ساحت كل ملامحه وهو يرد بحماس :
ـ الشرف لي يا سمو الأميرة !
ساعتها كانت الفرقة الموسيقية تعزف «الرومبا ».
اندهشت لوصوله بالسيارة الجيب العسكرية، حتى إن بعض ضيوفها الذين شهدوا وقفة سيارته أمام السلاملك المفضي إلى بوابة قصرها انتابهم قلق بددته ابتسامة الأميرة فايزة. تركت كبير الخدم يستقبله ويقوده إليها، لن تذهب لصلاح سالم، بل جعلته يحضر حتى عندها! تقوم الآن باسمة باشة ترفل في فستانها الأسود بغلالة شفافة من فوق النهدين حتى الكتفين والشعر المرسل على الظهر، وتصافحه، تمنحه كفها فيلثمها بأدب شغوف. كان الضيوف ثلة من الأجانب والمتمصرين من الدبلوماسيين ورجال المصارف والأجانب العابرين بمصر. اعتذرت له أن زوجها في سفرة مفاجئة إلى الإسكندرية، وكان يتمنى أن يكون في شرف استقباله. الحقيقة أن رؤوف لم يبالِ بدعوتها أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة (الثورة على أخيها) إلى بيتها، لكنها أدركت أنه يعتبر الأمر مكسبًا، ويثق في ذكائها، وفي أن علياءها لم تنخفض حتى الآن. لم يشعر بغيرة، لكنه يفهم أن هذا الفلاح المصري القادم إلى حفلة زوجته، لن يفهم إلا أنها دعوة لأن يكون قريبًا، فليتركه إذن يقترب براحته، فلا خبر لديه عن الحدود التي تسيجها فايزة حولها، سألها :
ـ ماذا يريد؟
ـ السؤال ماذا نريد نحن منه .
رد حانقًا :
ـ أنا لا أريد، ولن أريد شيئًا !
مشكلة رؤوف هي أنه دائمًا أقل من الحد الأدنى المطلوب لذكاء زوجته فايزة أحمد فؤاد، ثم إنه يحتفظ في صدره بثلاجة لحفظ الفاكهة يضع فيها قلبه مع مشاعره .
كانت جرأة صلاح سالم في الدخول إلى بيتها بالسيارة الجيب وبذلته العسكرية حماقة من وجهة نظرها، فأعجبتها الحماقة، يبدو أنه لا يعمل حسابًا لمن سيسأل: ما الذي يدفع ضابطًا لامعًا من الأحرار أن يزور أخت الملك، ويسهر معها وعندها، ويحتسي كأسًا من يدها؟
ـ شمبانيا أم نبيذ أم عصير؟
يبدو أنه أحس أن العصير يقلل من قيمته في هذه اللحظة وفي تلك الحفلة ومع هذه المضيفة، فلم يمانع من النبيذ، فهو على الأقل ليس غريبًا. تبادل حوارًا مع ضيوف فايزة بالإنجليزية على مائدة العشاء، لكنه لم يبرح وجهها لمحًا وتمعنًا وتأملًا، فقد كان وجهها وجبته الرئيسية على العشاء .
رفع السفرجي طبقًا ووضع آخر أمام صلاح سالم الذي ضحك فجأة ومال على مضيفته وقرر أن يروي لها حكاية باللغة العربية، ربما ليخصها أو ليبلغ الضيوف أنه لا يعنيه غيرها هنا :
ـ رحت مع جمال عبد الناصر قصر عابدين للإفطار مع ضباط كتيبة الحرس، وكان معنا مجموعة من ضباط القيادة، ووجدت العساكر هناك عاملين فطير سموه «فطير الحرية وعدس 23 يوليو وفواكه عرابي وسلطة التحرير »!
ضحكت برقة متفاعلة معه :

ـ هي سلطة فعلًا .
قهقه مجلجلًا :
ـ حلوة يا سمو الأميرة !
ثم بعد برهة تكفي بلع ريق :
ـ إنتِ بنت بلد خالص !
فهمت نيته الطيبة، فهو يمدحها ولا يرمي على أنها ليست من هذا البلد. تركته يكمل بعد لحظة تردد وسط ابتسامات مشجعة من المدعوين الذين يفهمون بعض الكلمات العربية ثم يعيدون تركيبها في مخهم :
ـ المهم إنهم أخذونا للتجول في قصر عابدين ورحنا متحفه، والأهم مخازن الفضيات، هل كنتِ تعرفين يا سمو الأميرة أن الفضيات كانت تنتقل عبر عربة سكة حديد في أربعمائة واثنين وثلاثين صندوقًا لقصر رأس التين في الصيف وتعود منه في الشتاء، كأنها إيلافهم رحلة الشتاء والصيف؟
لم تفهم فايزة بالضبط المغزى، لكن هذا لم يقلل من سعة ابتسامتها، وإن كانت تتطلع لمعرفة نهاية هذه الحكاية .
ـ طبعًا كل واحد من قادة الجيش قال عايز هذا الطقم أو ذلك، عشرين تلاتين من الفضيات للسلاح عندي من أجل الحفلات والمآدب، لكن طبعًا رفضت وشخطت فيهم، الصراحة أنا وعبد الناصر، وقلنا لهم هذه فضيات ذات قيمة تاريخية وليست مجرد أطباق نحط فيها فول ولّا ملوخية بالأرانب
انطلق ضاحكًا، فزادت من حجم ابتسامتها، بينما ضحك المدعوون، ربما لأنهم ظنوا الحديث عن الملوخية بالأرانب فعلًا. كان الطعام المقدم أفرنجيًّا زيادة عن اللزوم، وستلوم الطباخ على ذلك، لكنها هي المخطئة، فكان لا بد من إفهامه أن على العشاء الليلة ضابطًا يفضل الملوخية بالأرانب، لكن دعه يدخل غربة هذا العالم حتى من باب الطهي، ثم إن تردده على حفلات ومآدب اجتماعية كثيرة في الآونة الأخيرة منحه بعض المعرفة بعد بعض الفضول
ترك المدعوون سيدة القصر مع ضيفها الأهم وانشغلوا مهذبين بشؤونهم. جلسا معًا في التراس المطل على الحديقة، وقد أنعشه جمالها مع النبيذ ولفحات الهواء البارد الندي قادمًا من النيل القريب
تنهدت تنهيدة تذبح مقاومته إن وُجدت، وقالت :
ـ ممتنة جدًّا لتشريفك لي يا حضرة الصاغ هذه الليلة فعلًا !
تحدث بفصاحة متحمسة :
ـ أولًا يا ريت نتحرر من الألقاب، ألم أحكِ لكِ من دقائق عن فطير الحرية وسلطة التحرير؟
ضحك وأكمل :
ـ فلتقولي لي يا صلاح هكذا حاف .
ـ يبقى لازم تقول لي يا فايزة
أسقطته في الحلبة حتى إنه لم يقدر على الوقوف. قال هامسًا :
ـ العفو يا سمو الأميرة !
يبدو أن اللقب يثيره أكثر، أو أن فايزة على لسانه قد تذيبه تمامًا .
ـ ثانيًا أنا لا أخشى شيئًا، ولا أخاف أحدًا، كل ما أفعله في النور، كون إننا ثرنا على أخيكِ، فهذا لا يشمل غير أخيكِ !

ردت برقة :
ـ ليس هذا ما أسمعه !
ـ لا تسمعي من أحد غيري
تذمر زوجها بعدها، خشية أن يكون جاسوسًا عليكِ يا فايزة، فضحكت برقاعة أذهلته وهي ترد :
ـ ألا تظن أن كل حياتنا متجسس عليها منهم، سهراتنا وتلفوناتنا وحساباتنا في البنوك؟ حتى الأجانب الذين نلتقي بهم فيهم عيون للضباط، وحتى هؤلاء الخدم يترددون على مكاتب صغار الضباط يدلون بالمعلومات عنا، فلا حاجة لصلاح سالم بالتجسس عليَّ ولا على غيري، ثم إنت لازم تقابله، عايزاه يفهم وجود زوج في حياتي .
لا، هي تريده أن يغار عليها، هو يقترب منها وهي ترسم الحدود، هو يعجب بها حتى التعلُّق وهي تحافظ على درجة الاشتعال لا تزيدها ولا تطفئها، في السهرات التالية، في القعدات المنفردة التي تتجنب صخب الحفل، دعوتها له في ظهيرة فتريد أن تراه في النهار، جلوسه معها في ذات التراس ببيتها، وهذه المرة يمر عليهما رؤوف فيصافح ويحيي ويرحب، ويتبادل عدة جمل بلا معنى يطلقها من ثلاجة قلبه، خصوصًا أن صلاح بمجرد رؤيته ركب وجه الضابط الثائر والرجل الحاسم على ملامحه، متعمدًا إغاظة رؤوف بالحديث عن الأجانب المتربصين بمصر وأذيال الماضي، ثم ذهبت خريطته حتى إسطنبول :
ـ أنا طبعًا أتعامل مع الأميرة فايزة على أنها مواطنة مصرية تحب بلدها وتنتمي له، حتى لو كانت متزوجة من شخص مهم مثل حضرتك، تركي الجنسية وينوي السفر إلى إسطنبول قريبًا !
لم يفهم رؤوف هل هذا تهديد أم ترويع أم دعوة له أن يغور من طريقه
ـ صحيح، معلومات حضرة الصاغ دقيقة، والدتي في الحقيقة مريضة وأنوي السفر لها .
ـ سلامتها ألف سلامة. ليس هناك أهم من الأم
عندما استأذن زوجها ورحل، تحول «الصاغ صلاح» إلى «صلاح»، رقت ملامحه، وظهرت ابتسامته، ثم خلع نظارته، فظهرت عيناه معجبتين تودان لو مسموح لهما بالنطق. لم تكن المرة الأولى التي خلع فيها نظارته أمام فايزة، عندما فعلها أيقنت أن مشاعر صلاح متأججة، وعيناه كانتا تلمعان بالرغبة الملجومة. أخبرها عن
هذه المعارك التي خاضها، والشظايا والدخان وانفجارات القنابل التي تسببت له بمرض حساسية في العين، مما جعله ملزمًا بوضع النظارة على عينيه حتى يحميهما من الغبار والهواء وأشعة الشمس والضوء. رأت تأثره ووجده، فمدت أصابعها تربت على كفه، فارتعش، وقبض على يدها متشبثًا، وأودع الضمة كل رسائله الولهى، ثم تهذب وعاد بيديه إلى جنبيه
سافر محمد علي رؤوف إلى أمه المريضة، لكن سطورًا تسللت إلى بعض الصحف، ثم تحولت أخبارًا منقولة من أفواه الجميع في الحفلات والاجتماعات والأمسيات، عن أن زوج الأميرة سافر مضطرًّا، لا بل مجبرًا، لا بل محتجًّا. كانت زيارات صلاح سالم بالجيب العسكرية والبذلة الميري إلى قصر الأميرة لا يمكن أن تخطئها العيون، ولا أن تسكت عنها الألسنة. كل صبح تندلع حملات مصطفى أمين وغيره في الصحف ضد الملك الخليع، وتفضح ليالي فاروق المنحلة، بينما الضابط الأبرز في مجلس قيادة الثورة يهيم في بهيم الليل عند أقدام الأميرة! يبدو أن صلاح سالم لم يكن الوحيد الشغوف بحدوتة الشاطر حسن والأميرة ست الحسن والجمال، بل إن الصحف والمجتمعات السياسية والليلية وضباط الجيش وضباط الصف كلهم مغرمون بالحدوتة، فما صدقوا وجدوها. لم

تجد الأميرة فايزة مانعًا من كل هذا اللغو، ليس دخانًا بغير نار، فالشاب الثلاثيني يحبها فعلًا، يغامر بوجوده معها، يغمرها بالاهتمام، يتصل بها وهو يعلم مراقبة تلفوناتها، فيسأل عن حالها، وبرنامجها لليوم، ومزاجها، ويتمنى لها أمنيات نهار سعيد أو نوم هانئ. ينتحي بها في الحفلات الرسمية، ويخصها بحكايات وتأملات، وتنصهر عصبيته وتسيح كلية حين يراها. صوته الزاعق، وغضبه المتحفز، وشدته المتحمسة، كلها تنزوي وتتراجع ويرتد طالبًا في كلية الهندسة (قبل أن يتركها وينضم للحربية) ينتظر محبوبته طالبة الآداب عند الكافتيريا. أسابيع تلهث بالأحداث، والأيام تمر تضرب تقلب، وهو لا يزال يزورها في بيتها لحفلة أو مأدبة أو فنجان شاي، بل لقد وافق ليلة أو ليلتين أو ربما ثلاثًا أن ينضم للعب الورق مع أصحابها من باشوات وخواجات وهوانم في مائدة مستديرة صغيرة سادها مرح اللعب لا توتر القمار. كان لاعبًا ساذجًا، تراقب تنازله بالمشاركة في اللعب لأجل خاطرها، أو للتقرب منها، أو للتظاهر بأنه مقطع السمكة وذيلها، ثم يتسم بالجدية ويخصها بيومه الطويل وتعبه الذي يأتي ليتخفف من عبئه على كتفه إلى دلقه تحت قدميها. حكى لها عن شقاء أيامه، وكفاحه من أجل السودان (تعرفين أنني المسؤول عن السودان يا سمو الأميرة، أميرة مصر والسودان وإنجلترا إن أمكن):

ـ قابلت المئات من السودانيين، اتحاديين واستقلاليين، طبعًا عارفة إن الاستقلاليين هم الذين يريدون الاستقلال عن مصر كأن مصر تحتل السودان، والاتحاديون هم من يسعون للاتحاد مع مصر، خلاص بعد ما عملنا اتفاقية السودان مع الإنجليز، فليس لنا أمل إلا أن يوافق السودانيون على الوحدة مع مصر، فنرجع بلدًا واحدًا. تصوري كل واحد منهم يقدم لي نفسه باعتباره الوحيد الذي تتبعه الأغلبية الساحقة في السودان وتدين له بالسمع والطاعة، ويدلل على كلامه بعشرات القصص عن ماضيه وكفاحه ضد المستعمر الذي أوصله للسجن أكثر من مرة، وبعد كل مقابلة من هذه المقابلات يزداد الأمر تعقيدًا، أيهم الزعيم وأيهم الرجل الذي أبني خطتي على معلوماته وبياناته، ومعظم المعلومات يناقض بعضه بعضًا! آلاف الأسئلة تقفز إلى ذهني دون أن أهتدي إلى جواب يهديني ويكشف لي هذا الطريق الوعر المظلم! أقيم مع كل وفد سوداني صباح مساء في الفندق، وأحضر اجتماعاتهم العديدة المتوالية التي تبدأ في الصباح الباكر، وتنتهي ببزوغ فجر اليوم التالي !

كانت تعرف أن السودان تضيع من مصر، لكنها كانت تشفق عليه، فهو مخلص لدرجة أنه لا يرى، ثم إنه يسليها ويضحكها، والأهم أنه يشعرها بأهميتها. فهمت أنه لا يحب محمد نجيب، بل لعله يكرهه، لا أحد يشغله من زملائه إلا عبد الناصر الذي تشم رائحة منافسة داخل جنبات مديحه له. صار أكثر تحفظًا في سب ملة الملك أمامها، بل ربما شد حيله أكثر على الوفد، فبات عدوًّا أكثر من الملك. أحبت بوحه عن زوجته، الطيّبة القريبة الأمينة، والعِشرة الطيبة والتحمل المتفاني، كأنما كان يشرح لها الفارق بين زوجته وزوجة عبد المنعم أمين، السيدة محاسن، التي تستفز تحفظهم، وتصدم تزمتهم المتخفي تحت كاباتهم، ثم حين يأتي الكلام ناحية فايزة يهمس بضعف لا يليق بالنظارة السوداء :

ـ إنتِ حاجة تانية خالص !

ـ لستُ حاجة

ـ آسف! ليس قصدي إطلاقًا

تبتسم :

ـ أفهم قصدك .
ـ هل تفهمينه جدًّا ولآخِر قصدي؟
ـ هل لقصدك آخِر؟
ـ لا أتمنى أن يكون لنا آخِر أبدًا، فالآخِر نهاية وصداقتنا بلا نهاية !
ـ أشكرك على استخدامك تعبير «الصداقة»، فهو دقيق يا صلاح
ـ ليس دقيقًا تمامًا يا فايزة
باح بها، بلا «سمو الأميرة»، فكأنما تهاوت مقاومته، فصمتت وغيَّرت وجهة الكلام عن ذكرى بعيدة لها .
في صباح اليوم التالي شخطت في زوجها في التلفون، جمعتهما مكالمة في السفارة التركية تمد الخط بين إسطنبول والقاهرة :
ـ ما الذي هببته يا رؤوف؟ !
ـ كنت أتكلم بشكل عادي
ـ مع صحفي؟
ـ وماذا فيها؟
بدأت تقرأ من جريدة أمامها :
ـ «سأعود إلى مصر لأصطحب زوجتي في رحلة إلى أوروبا في الصيف». طيب هذه فهمناها يا زوجي العزيز، لكن ما معنى هذا التصريح الأبله؟
عادت وقرأت :
ـ «أحب زوجتي». طيب شكرًا يا سيدي، لكن ما هذه الأمنية الغريبة؟
أمسكت الجريدة بعنف أصابعها وقرأت :
ـ «كنت أتمنى لو أنها كانت قد تزوجت شابًّا مصريًّا منذ زمن طويل مثل شقيقاتها الأميرات ».
صاحت :
ـ تبحث لي عن عريس، أم تحرجني، أم تطلقني في الجرائد؟ !
ـ بالعكس، أنا عايز أقولهم أني أحبك جدًّا
ـ تقوم تقول ...
عادت وقرأت وقد كرمشت الجريدة بين أصابعها :
ـ «وحين سُئل: وإذا لم تتحسن الأحوال؟ قال: في هذه الحالة قد أضطر للانفصال عن الأميرة فأستريح وتستريح». هل فيه حد عاقل يقول مثل هذا الكلام؟ !
كانت تعرف أنه قلق من صلاح سالم، خاف منه على حياته ثم على زوجته، وكانوا يخيفونه أكثر، وهو جبان أصلًا، ثم لا يحبها ولا مغرم بها وربما ولا طايقها، ويعلم أنها معجبة بفارسها الأصلع، أليس حبيبها الأول هو ضابط الفروسية الذي كان يدربها على الخيل؟ ها هي تعود فتهوى الضباط! طبعًا هي أحرص على أن تظل حلمًا، فلو تحقق انهار الحلم وزهق الحالم، لكنها لا تعرف كيف تتحول لعبتها إلى جد، ويتجاوز الحد فهي أفشل لاعبة ورق رآها في حياته .
عاد زوجها من تركيا مجبرًا منها كي يظل حجابًا حاجزًا بينها وبين صلاح، لكن ضابطها لم يسكت، ربما لينخزه

أو ليستفزه أو ليستعرض قوته أمامه وأمامها، فاستدعته وزارة الداخلية لأنه مواطن تركي يستوجب وجوده في مصر تصريح إقامة بعد سقوط التصريح الملكي الذي منحه إياه فاروق.
تدخلت فايزة وأقامته في مصر، لكنه تململ ثم تفجر غيظًا عندما رمى المجلة في وجهها :
ـ كنتِ متضايقة من تصريحي في الجرائد! اتفضلي شوفي ضابطك ماذا يقول !
كانت قد قرأت تصريح صلاح سالم في المجلة، بل لقد قرأه هو عليها قبل يومين مستأذنًا أن ينشره فأذنت له. سأله الصحفي عما يشاع عن سهراته يلعب القمار في قصر الأميرة فايزة بالمعادي، فأجاب إنني لم ألعب القمار إلا مرة واحدة في حياتي، وأقسمت ألا ألعبه مرة أخرى أبدًا بعدما سرق أحد اللصوص ما ربحته من نقود ليلتها
ضحك صلاح سالم وهو يضيف لها بعدها أن مرشد الإخوان غضب، وبلَّغ عبد الناصر استياءه من أن أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة يلعب القمار، فقال له إنها كانت مرة واحدة وحرَّم .
تحسس شاربه متفكرًا حين أبلغته ضيق يدها وقلة مالها، فهي تريد أن تبيع بعضًا من مجوهراتها في الخارج. لم تفهم صمته، لكنها فرحت بعرضه لها أنها لن تحتاج إلى شيء طول ما هو موجود. ضغطت يومها على يده وقتًا أطول، ورققت وتهامست بكلمات امتنانها
عرض عليها رؤوف مساعدة السفير التركي لتهريب مجوهراتها وأموالها، فهي عمومًا لا تساوي ثروة يا فايزة، ولا داعي للجوء إلى صديقكِ الضابط، فربما صنع لكِ شركًا وأوقعكِ في فخ. لكنها خشيت أن يفهم صلاح أنها تريد تهريب مجوهراتها كي تهرب هي بعدها، فربما شغفه يُصدم، أو أمله يُحبط، أو غيرته تشتعل، فيتطرف عقله حين ينجرح قلبه . لم تتصل به ليالي، ولم ترد عليه أيامًا، فاتصلت هذه المرَّة، فلما رد قالت له :
ـ أنا فقط كنت أريد أن أسمع صوتك !
ليلتها كان جمع من الضيوف يسألها عن سفر زوجها مرة أخرى إلى تركيا، فنادته بعينيها بمجرد ما أقبل نحوها، وهمست في أذنه :
ـ صلاح .
روَّعته روعتها، وأججت ناره التي جاء بها إليها. كانت قد عرفت أن زملاءه الغضاب في الجيش يتهمونه بأنه ساعدها على تهريب مجوهراتها في الخارج، بل إنه يأتي إليها سكيرًا، ومثل هذه الخيالات الممزوجة بالحقائق والخبالات . كان صلاح مستفزًّا لكثير من زملائه، ومتعاليًا عصبيًّا في حواراته وقراراته، وعجولًا في صعوده، وجذابًا في حضوره، وطليقًا في خطاباته، فراكم الحقد عليه، فانتقم الحقدة منه باستغلال مشاعره الأصفى وحنانه الأخفى، فلما تلاسنت أسنة الأسلحة، وتعالت الهجمات على الملكية والملك، كان اقترابه من أميرة فرصة للتصويب !
كانت قد رأت وجه الرجل بدون نظارته السوداء، وبدون سواده، فأشفقت عليه، لكنه جاء مشفقًا أكثر وفاجأها :
ـ لازم تعملي حسابك !
ـ ماذا تقصد؟
قال لها عن قصده في اليوم التالي وهما في قصرها وحيدين :
ـ لجنة الخمسين التي تعد الدستور الجديد تقترح إلغاء الملكية !
حاولت أن تستوعب :
ـ وما رأيك أنت؟

قالها بصدق لا يخلو من خشونة :
ـ اللجنة تقول ما نريد أن نسمعه .
ـ متى؟
ـ ليس بعيدًا .
أطرقت :
ـ لا أميرة بغير ملك !
ـ ستظلين أميرة ولو سقط ألف ملك
ابتسمت، وأسكنت كفها بين كفيه قليلًا .
ـ لكن طبعًا فيه إجراءات ستتم !
فهمت فشرحت :
ـ مصادرات وحراسات .
أومأ :
ـ قطعًا .
ـ متى؟
ـ هناك وقت كافٍ كي تستعدي !
ـ للسفر؟
جرحته الكلمة حتى أدمت عينيه من وراء سواد عدستي نظارته :
ـ مستحيل !
ـ ليس هذا هو المستحيل الوحيد يا صلاح
ثم أدمعت كلماتها :
ـ أنت ضابط بطل، ولك شعبية كبيرة، ولو قامت الجمهورية فليس بعيدًا أن تكون رئيسها !
ثم زادت كلماتها دهسًا :
ـ ولك عائلتك وأهلك !
حين وقف في المطار يودعها في خفاء ليل وسكون حركة، سمحت لنفسها أن تعانقه، وكتمصوت بكائه في كتفها التي بللتها دموعه. ستركب الطائرة إلى إسطنبول، حيث ينتظرها زوجها في قصر «مهرانا هانم»، وتمنت حين يصادرون قصرها القاهريأن يحصل عليه صلاح سالم، خصوصًا أنه كان قد انتقل خصيصًا إلى بيت يجاورها في المعادي، حتى إنه كان يقف بسيارته صباحًا يفرغ كل شحنة الحب والشغف تحت شرفتها، حتى لا يبقى منه سوى صلاح الغاضب دومًا، فيذهب به إلى مجلس قيادة الثورة ...
ـ خذ بالك من نفسك يا صلاح !
همست بها الأميرة وفرَّت .
مارس 2020

أعمال إبراهيم عيسى الصادرة عن دار الكرمة

1. دم الحسين (رواية)
2. ألبوم صور قديمة (قصص)
3. دم على نهد (رواية)
4. مقتل الرجل الكبير (رواية)
5. أشباح وطنية (رواية)
6. مولانا (رواية)
7. مشارف الخمسين: موجز عن حياة (سيرة ذاتية)
8. رحلة الدم: الجزء الأول من سلسلة «القتلة الأوائل» (رواية)
9. حروب الرحماء: الجزء الثاني من سلسلة «القتلة الأوائل» (رواية)
10. كل الشهور يوليو (رواية)